لجزء
لثالث
رواية
مناك محمد سالم
الطاووس
الأبيض
تصميم: نورا حجاز

رواية
منال محمد سالم
الطاووس الأبيض

رواية

# الطَّاووس الأَبيض

-الجزء الثالث-

منال محمد سالم

2021

نوع العمل: رواية

اسم العمل: الطاووس الأبيض الجزء الثالث

اسم المؤلف: منال محمد سالم

الطبعة الأولى (إلكترونية) 2021

الناشر: موقع قصص وروايات بقلمي منال سالم

التدقيق اللغوي: منال محمد سالم

تصميم الغلاف: منال محمد سالم

التصميم الداخلي: منال محمد سالم

جميع حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لموقع قصص وروايات بقلمي منال سالم

https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSalem/

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

-إهداء خاص-

إلى روح الكاتبة المصرية الراحلة (منى لطفي)، وإلى كل من فقد عزيز لديه، سائلين المولى عزوجل أن يتغمدهم بواسع رحمته ويرزقهم الجنة بلا حساب ..

منال سالم

**-تنويه-**

تم نشر فصول الجزء الأول والثاني في روايتين منفصلتين تحملان نفس الاسم (**الطاووس الأبيض**)، ويبدأ ترقيم الفصول الجديدة من الفصل **السبعين**، وذلك استكمالاً لما سبق من تتابع للأحداث المشوقة ..

## أغلفة الأجزاء السابقة

الجزء الأول

# الجزء الثاني

الجزء
الثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل السبعون

أخطأت حين هاتفت ابنتها، لتعلمها وسط نوبة بكائها المُقطعة لنياط القلوب، بما ألّم بشقيقها الوحيد، حينها صرخت منادية باسمه، أنهت الاتصال بعد إلمامها بالتفاصيل البسيطة، لتذهب ركضًا إليه، وقلبها يدعو الله بتضرعٍ كبير ألا يضرها فيه. لم تعرف "هاجر" كيف ارتدت ثيابها، وكيف حملت رضيعها على ذراعها، بالكادِ صمدت وهي تهرول بها بها نحو أقرب سيارة أجرة، لتقلها للمشفى الراقد فيه "تميم". عجزت عن الوصول إلى زوجها، فهاتفه مغلق منذ ليلة الأمس؛ وكأن وجوده أصبح والعدم سواء، تحرك فكها ليتساءل تلقائيًا:

-فينك يا "محرز"؟

لم تلك في حالة صفاءٍ ذهنٍ لتفكر في أمره، شاغلها الأكبر حاليًا بلوغ المشفى في أقصى سرعة. وما إن ولجت للاستقبال، حتى أسرعت نحو إحدى الموظفات تستعلم منها عن مكانه، أرشدتها إحدى الممرضات إلى مكان انتظار عائلات المرضى، وهناك لمحت والدتها الباكية تنتحب على أحد المقاعد المعدنية، خطت في اتجاهها، وصراخها الموجوع يقطع السكون المشحون بالأحزان، والسائد في الأرجاء:

-أخويا جراله إيه يامه؟

كلمة واحدة أجابتها بها "ونيسة" بصوتٍ اختلط ببكائها الحارق، وجعل قلبها ينقبض أكثر:

-ادعيله.

تعبيرات والدتها المكلومة، نهنهاتها المخيفة، وعيناها المنتفختان أكدت لها أن الجلل عظيم، كادت "هاجر" تُسقط رضيعها من ذراعها المرتخي، لولا إسراع "سراج" الذي كان لا يزال متواجدًا لالتقاطه منها، قبل أن يرتطم جسده الضئيل بالأرضية القاسية، وتزداد حسرة العائلة بفاجعة جديدة، نبهها وسط سرعة ردة فعله:

-خدي بالك!

وكأنه يُحادث الفراغ، لم تكن "هاجر" في وعيها، انتابتها نوبة من الصراخ المصحوب بالعويل واللطم، شعورها بالذنب نحوه كان عظيمًا، لكونها كانت على خلافٍ كبير معه، ظنت أنه على وشك مفارقة الحياة، وهو لم يُغضبها يومًا، لم يحمل قلبه نحوها أدنى ضغينة؛ وإن قست عليه كثيرًا، زادت حدة صرخاتها، فنهاها والدها عن ذلك بلهجته الصرامة:

-مش عايز ندب هنا! أخوكي لسه مامتش عشان تعددي عليه.

وضعت يدها على فمها تكتم شهقاتها التي تقاتل للخروج، بينما تابع "بدير" أوامره:

-مش عايز أسمع حِس حد فيكم، مفهوم؟

تخلل صوته ألمًا واضحًا عندما أكمل بإجهادٍ ظاهر عليه:

-ابني بين إيدين ربنا دلوقتي، مقدمناش حاجة نعملها غير ندعيله ربنا ينجيه.

انهارت "هاجر" جالسة على المقعد إلى جوار والدتها، ووقف "سراج" في مكانه ينظر بحيرةٍ للأم تارةً، ولرضيعها الذي ما زال بين ذراعيه تارة أخرى، في النهاية حسم أمره بإبقائه معه ريثما تتمالك والدته نفسها، وبدأ في هدهدته بتؤدةٍ وحنو، حتى استكان في أحضانه، وغفا بعمقٍ لنومٍ لن ينعم به من حوله لوقتٍ طويل.

.................................................................

قناع البرود الذي لطالما لازمه، سقط لتوه مع تهديدات "محرز" له، بإحراق الأرض ومن عليها، إن لم يتدخل بشكلٍ حاسم لإنقاذه، فالأخير لم يتوقف عن الاتصال به طوال الساعات الماضية، من أجل الضغط عليه، لتخليصه من الكارثة التي زج بنفسه بها. استقر "آسر" في سيارته، وقادها بعيدًا عن الحي السكني القاطن به، عاود الاتصال به، وعرف منه تفاصيل رعونته المهلكة، فهاج يعنفه بكل ما فيه من غضبٍ وحنق:

-هو أنا قولتلك اتصرف كده يا غبي؟ إنت ما بتفهمش؟!

رد "محرز" بسماجةٍ:

-أهوو اللي حصل.

سأله بحدةٍ، ويده الأخرى تقبض على المقود:

-والمطلوب مني إيه دلوقتي؟

أجابه ببرود مستفز للغاية؛ وكأن جريمته سهل التعامل معها:

-تساعدني أطلع من القرف ده.

بعصبيةٍ زادت في نبرته، علق عليه "آسر":

-يعني إنت تُعك الدنيا، وأنا أنضف وراك؟

أخبره بلهجةٍ لم تكن مازحة أبدًا، ومالت للتهديد أكثر:

-ماتنساش إني راجلك، ولو وقعت مش هاقع لوحدي.

توقف عن القيادة، وصف سيارته على جانب الطريق، ثم سأله مباشرة بعد أن فهم تلميحه الضمني:

-ده تهديد يا "محرز"؟!!!

ببساطة رد قائلاً بنوعٍ من التحذير:

-لأ مش تهديد، بس بأرسيك على الليلة هتمشي إزاي.

للحظات سكت "آسر" عن الكلام ليفكر مليًا في كارثته غير المتوقعة، وقبل أن يزعجه "محرز" بصوته السمج أمره:

-طيب إدارى في أي حتة، لحد ما أشوف هاعمل إيه.

على مضضٍ قال بإيجازٍ:

-ماشي.

شدد عليه "آسر" بصوته الذي تحول للقتامة:

-ومتكلمنيش، أنا اللي هاطلبك.

عقب عليه بتحذيرٍ واضحٍ، بعد زفيرٍ ثقيل:

-طيب، بس ماتغيبش عليا، لأحسن الشيطان شاطر، وجايز يوزني أعمل حاجات متعجبكش!

لعنه "آسر" في سره، وأنهى معه المكالمة، ليشرد بعدها لبرهةٍ، محاولاً التفكير بعمقٍ في كيفية إيجاد حلٍ يزيح تلك المصائب عن كاهليه.

.................................................

توقف محرك سيارته عن العمل، بعد قيادة استغرقت ما يقرب من الثلث ساعة، في الجراج الخارجي الواسع، والمخصص لخدمة المباني المتواجدة في هذه المنطقة الراقية، والخاصة بإدارة المؤسسات الاستثمارية والتجارية العملاقة، كانت الأجواء هادئة من حوله، حركة المارة والسير شبه محدودة، بسبب انقضاء أوقات العمل الرسمية قبل وقتٍ طويل، نظرة عابرة ألقاها على الواجهة الزجاجية لهذا المبنى الشاهق، بعد أن ترجل من سيارته، وعبر المسافة المتبقية متجهًا إليه. واصل "آسر" تقدمه نحو مدخله الفخم، وجهته كانت معروفة دون الحاجة للسؤال، لذا ظهر التردد والارتباك بقوة على قسماته، مهما حاول إخفاء ذلك، ولج لداخل المصعد، وضغط على زر الطابق العشرين بيدٍ ترتعش قليلاً، حتمًا لن يرضى رؤسائه عن الزلات المتكررة والمرتبطة به في هذه الفترة القصيرة، بالكاد نجا بأعجوبةٍ من قضية التهريب، وتكرار مثل تلك الأخطاء

الجسيمة غير مقبولٍ في عالمهم! فماذا عن إخبارهم بأنه بات في موضع تهديد؟ لن يسمحوا بهذا مُطلقًا!

توقف المصعد عند الطابق المنشود، فخرج منه "آسر"، ليجد الحراسة الأمنية تحتل الردهة الطويلة، اقترب منه أحدهم بعد أن أشار له بالتوقف، قام بتفتيشه جيدًا، قبل السماح له بالمرور، وهو يخبره بلهجةٍ رسمية بحتة:

-الرئيس في انتظارك.

اكتفى بهز رأسه، راسمًا على شفتيه ابتسامة مصطنعة، حاول أن يخفي بها توتره المتصاعد بداخله، شعر بجفافٍ شديد يجتاح حلقه، ويزيد من شعوره بمرارة العلقم فيه، بلع ريقه غير الموجود، حين وقف أمام أحد الأبواب المغلقة، كور قبضة يده، ورفعها ليدق عليه بخفةٍ، منتظرًا السماح له بالدخول. حاول أثناء ذلك استدعاء شجاعة فارة منه، قبيل مواجهته المصيرية. بأعصابٍ مشدودة على الأخير، سار "آسر" بساقين مهزوزتين نحو المكتب الخشبي الضخم، والذي يحتل منتصف الغرفة، ومن خلف حائط زجاجي حابس للأنفاس، حيث يمكن للمتواجد به رؤية معالم المدينة عبره. رفع عينيه بحذرٍ للأعلى، باحثًا عن وجه رئيسه؛ لكن الأخير لم يكن ينظر في اتجاهه، بل كان مديرًا مقعده الوثير ناحية المشهد الخلاف، يتأمله في صمتٍ، تضاعف توتر مرؤوسه من سكوته المريب، وبحرصٍ تنحنح بخفوتٍ ليلفت انتباهه إليه، ثم استطرد قائلاً باللغة الانجليزية:

-أعتذر عن إزعاجك سيدي.

استدار بمقعده رجل يبدو عليه السلطة والسيطرة، خمسيني العمر، ملامحه لم تكن عربية، وأكد على أجنبية جنسيته، لكنته الانجليزية الواضحة، حين رد عليه متسائلاً:

-ما الأمر الهام الذي أتى بك الآن؟

بجملٍ قصيرة مرتبة بعناية، أطلعه على المشكلة المهددة في الأفق، متوقعًا أن يثور في وجهه، وربما يوقع عليه بعض العقوبات الشديدة، كنوعٍ من التأديب له لتقصيره، ولسوء اختيار رجاله الأوفياء، بدا وكأن حظه الجيد تخلى عنه، واحتل مكانه طالع السوء، حدجه الرجل بنظراتٍ قاسية، قبل أن ينطق بجمودٍ جعل الخوف يقلص معدته:

-لم يكن ذلك اتفاقنا.

تلجلج وهو يبرر له:

-أعلم سيدي؛ ولكن حدثت بعض التطورات في الأيام الأخيرة، أجبرت أحد رجالي على التصرف برعونة.

هتف الرجل بأسلوبٍ متسائل، وبنبرة شبه حادة:

-مثل إهدار بضاعة تكلفت ملايين الدولارات؟ من سيعوض التنظيم عن تلك الخسارة الكبيرة؟

تضاعف اهتزاز صوته وهو يحاول توضيح ملابسات الموقف:

-للأسف لم يكن ذلك مقصودًا.

انتظر الأول لبرهةٍ، ثم سأله باقتضابٍ، وتلك النظرة الشريرة تكسو نظراته نحوه:

-وبعد؟

تعهد له برجفةٍ لم يتمكن من السيطرة عليها في نبرته:

-سأعمل بكل طاقاتي لـ ....

قاطعه الرجل بخشونةٍ، ضاربًا بقبضته المضمومة بعنفٍ على سطح مكتبه:

-لا نريد وعودًا لا تقدر على الإيفاء بها، أريد شيئًا ملموسًا.

بتوترٍ أكبر قال، وعيناه ترمشان في رهبة:

-ما أملكه من مالٍ لا يمكن أن يغطي هذه الخسارة.

نظر في عينيه بقساوةٍ، ثم ابتسامة باردة ظهرت على زاوية فمه وهو يرد بلهجته الآمرة:

-ولكنه البداية، أفرغ ما ادخرته في خزانتك الآن، وحوله على رقم هذا الحساب، ألست من يدير الموقع الإباحي، ويجني أرباحًا منه؟

صدمه بتحريه المتقصي عن أخبار حساباته البنكية، ولما لا يفعل؟ وتلك المنظمة تدار بإشارةٍ من إصبعه الصغير، حاول أن يعترض على طلبه، فأردف بحذرٍ، منتقيًا كلماته:

-نعم، لكن دخله محدود، بعد إعطاء الممثلين والمصورين أجورهم، وإن سددت بأموالي الخاصة جزءًا من الخسارة، سأكون معدومًا، لن أستطيع أن أنفق على شخصي، وعلى زوجتي أيضًا، خاصة بوجودنا في هذا البلد الغالي.

بحاجبٍ مرفوعٍ للأعلى، ونبرة ساخرة سأله:

-هل تزوجت من جديد؟

لعق شفتيه، ودمدم بنبرة متذبذبة:

-نعم.. لكنها فقيرة، ليست كالبقية.

احتد صوت الرجل وهو يعقب عليه، مكررًا ضربه لسطح المكتب:

-كل مرة تدعي ذلك، ونجد حين ندقق في حسابك ربحًا لا بأس به، قبل أن تحصل تعيسة الحظ على الطلاق منك.

اجتهد لإخفاء حنقه من تتبع تفاصيل حياته الخاصة، وقال بتمهلٍ، آملاً أن يتسبب في غضبه:

-سيدي، تكاليف المعيشة تقضي على أي مدخرات أنالها من تلك البائسات.

هتف بصرامةٍ، وقد قست عيناه:

-ليست مشكلتي، ادفع ثمن غباءك.

لم يكن أمامه سوى إظهار خنوعه، بجهدٍ أكبر رد على مضضٍ، وهذا العبوس يكسو تقاسيمه:

-حسنًا.

تهديده كان صريحًا وقاطعًا، عندما أخبره مرة أخرى، بابتسامته الهادئة:

-صدقني سيد "آسر"، إن لم تصلح خطأك، فلن أضمن لك بقاءك على قيد الحياة.

انقبض قلبه، وقد بات على يقين كامل بأن قراره غير قابل للمفاوضة، حينها أدرك أن رقبته موضوعة على المحك، إن لم يتخذ الخيار السليم الآن، ويعوض رؤسائه عما كبده لهم من خسائر غير مقصودة.

..............................................................

نال منها الإرهاق بعد انتظار طويل، لا تعرف كم امتد؛ لكنه جعل جسدها يسبح في سبات عميق، إلى أن شعرت بأنين شكوى من عظامها التي تيبست من نومها غير المريح، اعتدلت "فيروزة" في جلستها، على الأريكة الوحيدة الموجودة بصالة منزلها، دعكت عينيها بقبضتين مضمومتين، لتزيح آثار النعاس من عليها، لم تعتد بعد على فارق التوقيت بين الدولتين، فما بدا لها أنه المساء، كان تقريبًا قد تجاوز منتصف الليل، تحركت من مكانها، وتجولت بتأنٍ في الأرجاء المحدودة المحيطة بها، تأملت عن كثبٍ المزيد من تفاصيل مسكنها، أو ما يطلق عليه مجازًا عش الزوجية، وكان بالفعل كذلك، محدودًا في كل شيء: مساحته، أثاثه الموجود به، وحتى في أدوات الطهي. تساءلت بصوتٍ متحشرجٍ، وقد تداركت أنها صارت متزوجة، ويشاركها غيرها في حياتها:

-أومال "آسر" راح كل ده فين؟

اتجهت إلى حقيبة يدها، أخرجت منها هاتفها المحمول، نظرت له بيأسٍ، وهي تعبث به، بدا لها كأنه أداة معدنية، لا فائدة منها، بالطبع لن تستطيع مهاتفة زوجها، بسبب افتقارها لرصيدٍ من العملة المحلية لتلك الدولة، يُمكنها من التواصل معه. تركته من يدها، واتجهت إلى الثلاجة، بعد أن شعرت بالجفاف المحمل بالعلقم يجتاح جوفها، فتحت بابها، وأمعنت النظر في رفوفها الفارغة تقريبًا، تبحث عن زجاجة مياه، لم تجد شيئًا يصلح للشرب، نفخت في سأمٍ، وأغلقت الباب بضيقٍ يكسو ملامحها، ثم دمدمت متسائلة مع نفسها:

-المفروض أعمل إيه دلوقتي؟

سارت في اتجاه الشرفة، ووقفت خلف الزجاج، تتأمل السواد الحالك الذي يغطي السماء، أخفضت "فيروزة" عينيها، ونظرت إلى أضواء الشوارع الباهتة، كانت المنطقة من حولها خالية من المارة تقريبًا، وللمرة الثانية تجتاحها أحاسيس الوحدة، البعد، والغربة، ضمت ذراعيها إلى صدرها؛ وكأنها تبحث عن أمانها المفقود، في عزلتها القاسية. لوهلةٍ تسرب إليها مجددًا، شعورها العميق بالندم، على تسرعها في اتخاذ قرارها بشأن الزواج ممن أوهمها بتلهفه اللا محدود عليها. الهالة الساحرة المحاوطة به اختفت، بمجرد أن هبطت على أرض الواقع، وأدركت أن ما أخبرها به مجرد أحاديث واهية؛ ظاهرها مُخادع، وباطنها الكذب.

.....................................................

اعتبر نفسه سيد اللعبة الآن، بعد أن تغيرت مجريات الأمور، وأصبح في موقف المُهدد، عاد "محرز" إلى مخبئه، متخفيًا عن الأعين، أغلق الباب من خلفه، وجلس على الحشايا التي تفترش الأرضية القاسية، يفكر مليًا في الخيارات المتاحة أمامه، بعد تضييق الخناق عليه، وقد كانت محدودة، تُعد على أصابع اليد الواحدة. اعتصر عقله اعتصارًا، ليخرج بخطة طوارئ، تنجيه عند اللزوم، خاصة مع عدم ثقته في جدية "آسر" في تنفيذ وعوده، فاليوم أعطاه إشارة مبطنة بأنه ربما سيتخلى عنه، إن طال الخطر عنقه. طرد الهواء المعبأ بدخان سيجارته من رئتيه، وأخبر نفسه بتعهدٍ:

-هتردم على دماغ الكل لو ضيعت فيها.

انقلبت شفتاه عن تنمرٍ صريح، وهو يكمل:

-مش دي أخرتها بعد خدمة الغُرب، اتسجن وهما يعيشوا في النعيم والنغنغة.

احتقنت نظراته بمزيدٍ من الوعود المهلكة، لن يسمح لنفسه أبدًا بأن يكون كبش الفداء، وانتظر على أحرٍ من الجمر الخبر اليقين من "آسر".

..........................................................

من الجيد أن هاتفها المحمول، خلال تجربة غير مقصودة منها، لتشغيل خدمة (الواي فاي)، قد التقط إشارة بثية، متاحة للجميع، جعلته ينبض بالحياة، وكذلك قلبها المشتاق، تهللت تعابير "فيروزة" الحزينة، حين دلت الإشعارات المتعاقبة التي يستقبلها على استجابته، وأيضًا جودة وقوة الإشارة، لتمكنها من

التواصل مع أحبابها. جال بخاطرها، أن تهاتف شقيقتها باستخدام خدمة الإنترنت، لتطمئن منها على أحوال والدتها، وبغض النظر عن اختلاف التوقيت، أجرت الاتصال، وانتظرت بفارغ الصبر ردها عليها، وما إن سمعت صوتها حتى هتفت تناديها، بكل اشتياق الدنيا ولهفتها:

-"همسة"، وحشتيني أوي.

وعلى عكس ما توقعت، من لهفة مماثلة، وجدت صوتها يعكس حزنًا ثقيلاً وهي ترد ببطءٍ؛ وكأنها تجد صعوبة في الكلام:

-وإنتي كمان.

سألتها في تعجلٍ، ودقات قلبها تتصاعد في صدرها:

-إنتي عاملة إيه؟ وإزي ماما؟ كلكم كويسين؟

جاءها صوتها بطيئًا ومهمومًا:

-احنا كويسين.

لامست رنة الحزن الكثيفة في نبرتها، فألحت عليها بسؤالها:

-"همسة" قوليلي، هو حصل حاجة؟ صوتك متغير، وأنا حاسة بده.

صمتت توأمتها للحظةٍ قبل أن تجيبها بترددٍ:

-أنا مش عايزة أقولك عشان متزعليش...

سكوتها عن الكلام ضاعف من انتفاضة قلبها الملتاع، وبصوتٍ شـبه لاهـث، مليء بالجزع، سألتها "فيروزة":

-ماما جرالها حاجة؟

حبست أنفاسها، منتظرة ردها المحمل بالأخبار غير السارة؛ لكن توأمتها خيبت توقعاتها السيئة بشأن والدتها، بقولها الهادئ:

-لأ، هي الحمدلله بخير.

عادت لتتنفس الصعداء بشكلٍ طبيعي، كما تخلل تعبيراتها القليل من الارتياح، فأرتخت كثيرًا عن الأول؛ لكن ما لبث أن بـدأ القلـق يغـزو عقلها، مع صمتها المتكرر، لذا بلعت ريقها بصعوبةٍ، وتساءلت بحذرٍ:

-أومال في إيه؟

سكون مخيف ساد بينهما لثوانٍ، إلى أن جاوبتها "همسة"، بغصةٍ خانقة غطت على صوتها:

-دكان المعلم "تميم" اتحرق، وهو فيه.

موجة كاسحة من المشاعر المرعوبة، الخائفة، والمصدومة جرفت روحها المنهكة دفعة واحدة، لمجرد سماعها بالفاجعة الأليمة، أحست "فيروزة" بقلبها يهوي بين قدميها بارتياعٍ عظيم، لم تشعر به من قبل تجاهه. تلقائيًا تجسدت نصب عينيها مشاهد الحريق القديمة، بكل ما فيها من أوجاع مهلكة، وأحزان ثقيلة، ذكريات

أبت ألا تتركها حتى في غربتها الموحشة، تحرك فكها لينطق بلهاثٍ، وكأن صدرها يستجدي الهواء ليتنفس، بعد انقطاعه عن رئتيها:

-مين ؟!!!

.........................................................

متألمة، حائرة، وغريبة في بلاد استقبلتها ببرودٍ لم تتأقلم معه بعد، خاضت دون استعدادٍ ما اعتقدت أنه لن يأتي بين عشية وضحاها، كانت المسافات الكبيرة كفيلة بتعزيز تلك المشاعر المهمومة عليها، تجمدت "فيروزة" في مكانها لوقتٍ طويل، عقلها مغيب عما حولها، فقط عيناها الباكيتان شردتا في بقايا الظلام المفترش السماء خارج شرفتها، دمعاتها الحارة تنساب في صمتٍ على وجنتيها، لا تعرف إن كان ذلك حزنًا عليه، أم أسفًا على حالها!

شهقة عاجزة انفلتت من بين شفتيها، لم تمنعها، بل أضافت عليها ثانية، وثالثة، ورابعة. نهجان مؤلم ضرب صدرها بقوة، لم تقاومه، تركته يؤجج من حسرتها عليه، "تميم" بوجهه ذي التعابير الجادة احتل انعكاس الزجاج، ليذكرها بأنه لم يكن كغيره وضيعًا معها، رغم المضايقات، والمشاحنات الحادة بينهما، كان باقيًا على عهد الرجولة، والشهامة، مثالاً حيًّا لما يجب أن يكون عليه الرجل الحقيقي، لم يتخلَ عنها حين دعت الحاجة إلى ذلك، كان رفيقها الداعم، كان المدافع –باستماتةٍ- عنها، صدّق ما كذبه الآخرين، آمن ببراءتها؛ وإن كانت بلا دليل. قهرة أشد حرقة اعتصرت قلبها، أشعرتها بأن جدران بيتها الجديد تُطبق على أنفاسها، وهي تردد في صدمةٍ لم تستفق منها بعد:

-اشمعنى هو؟!

أحست بعجزها عن التنفس، لذا فتحت نافذة الشرفة، واندفعت للخارج، تلتقط من الهواء الجاف، ما يهدئ من الآلام النابضة بداخلها؛ لكنه لم يكن كافيًا لفعل هذا، تكالبت الأحزان الثقيلة عليها؛ وكأنها أبرمت اتفاقًا بزيارتها مبكرًا، لكسر بقايا روحها المستنزفة، بكت بنحيبٍ، وانخرطت في نوبة أشد، خشيت أنها كانت لأجله، خاصة حين رجت المولى باستجداءٍ نابع من القلب:

-يا رب نجيه!

.........................................................

أرادت بشدة أن يلتئم شرخها غير المرئي، على لمساتِ حنونٍ تطيب جراحها، كانت أبسط أحلامها، وسط تلك العتمة المتسربة إليها، أن تحتوي أحضانه ما اعتراها من همومٍ مؤذية للروح، أن يكون السُكنى لوجعها غير المفهوم؛ لكن أمنيتها الضئيلة بقيت حبيسة فؤادها. بقلبٍ متألم، وعينين تخنقان عبراتها، انتظرت "فيروزة" بيأسٍ قدوم "آسر" بعد مرور ليلة طويلة موحشة عليها، تقاسي بشدة من الجفاء، والوحدة، انتظرته حتى شق النهار خيوطه، حينها فقط سمعت صوت المفتاح يُدار في قفله لينفتح الباب، رأته يطل عليها من فتحته المواربة، بملامح متجهمة، اقتربت منه، وسألته في قلقٍ يشوبه الضيق:

-كنت فين كل ده يا "آسر"؟

صاح بها بفظاظةٍ لم تتوقعها منه؛ وكأنها وسيلته المتاحة، للتنفيس عن غيظه المتراكم بداخله:

-وإنتي مالك؟ هتعملي معايا تحقيق؟

أدهشها رده الصادم، والذي بدا بعيدًا كل البعد عن الردود المحتملة منه، كان على النقيض من تلك الشخصية اللبقة، التي تنتقي عباراتها بدقة، تجاوزت عن إساءته الواضحة، لكونها مستنزفة عاطفيًا، وعقليًا، تنفست بعمقٍ، وضبطت بجهدٍ أعصابه، لتخاطبه بعدها بهدوءٍ:

-أنا كنت عايزة أطمن عليك، إنت كنت قايلي هاتجيب حاجة من تحت وطالع.

لم يرغب "آسر" في إفساد ما تبقى من يومه المشحون، لانت تعابيره المكفهرة، وحاول الابتسام معتذرًا منها:

-أسف يا حبيبتي...

تقدم نحوها، وانحنى برأسه على وجنتها ليطبع قبلة عادية عليه، لم تشعر بتأثيرها الحسي عليها، بدت فاترة، غير مليئة بمشاعرٍ دافئة تحتاج إليها بشدة، تراجع عنها، ووضع راحتيه على جانبي ذراعيها يمسدهما ببطءٍ، أسبل عينيه نحوها، وادعى كذبًا كعادته:

-بس حصل مشكلة كبيرة في الشغل، وكان لازم أحلها على طول.

رددت في دهشةٍ، وقد تقطب جبينها:

-بالليل كده؟

هز كتفيه مواصلاً كذبه المرتب:

-دي طبيعة شغلي هنا، مقدرش أقول لموكليني لأ.

لم تتشكك في أمره، وأومأت برأسها قائلة:

-طيب.

برزت ابتسامة أخرى، يُمكن وصفها بأنها لطيفة، وهو يستطرد موضحًا:

-أنا عارف إن النهاردة المفروض تكون دخلتنا، بس آ...

رغبتها في ممارسة أي نوعٍ من التقارب الحميمي معه كان مفقودًا، لذا قاطعته قائلة؛ وكأنها بذلك تُعلمه بتفهمها لما حدث:

-مافيش مشكلة، أنا أصلاً جاية تعبانة من السفر.

تحرك "آسر" ليقف بجوارها، ثم لف ذراعه حول كتفيها ليضمها إليه، ومسد بأصابعه –صعودًا وهبوطًا- على جانب ذراعها معقبًا عليها:

-الأيام قدامنا كتير.

تقوست شفتا "فيروزة" قليلاً لتظهر عليهما بسمة رقيقة، وسارت معه في اتجاه غرفة النوم، حيث من المفترض أن يتشاركا الفراش سويًا، وذلك ما لم تكن مستعدة له بعد؛ لكنها كانت بحاجة ماسة للشعور بدفء وجوده، عله بقربه يبدد شقائها المستبد بعقلها، وكذلك جوارحها.

..............................................................

تلكأت فيما تفعله من ترتيب للوسائد، وإعادة إعداد الفراش، ريثما ينتهي "آسر" من تبديل ثيابه في الحمام، وخلال ذلك لم تجرؤ على انتزاع روبها عنها. أزالت "فيروزة" عن بشرتها بقايا آثار مساحيق التجميل التي تزينت بها، وتأكدت من وضع طبقة كريم ترطيبية عليه، ثم مشطت شعرها، وسوت مقدمته، لتنهي ما تقوم به بنثر القليل من العطر على جانبي عنقها، استنشقت آثاره العالقة في الهواء باستمتاعٍ، فكانت شبه متأكدة أنه سيحوز على إعجابه، اقشعر بدنها وقد صدق حدسها حين علق على ذلك من بعيدٍ:

-البرفان اللي إنتي حطاه ريحته حلوة.

تخلل مشاعرها المرتبكة القليل من الثقة لحسن اختيارها، استدارت نحوه وشكرته:

-ميرسي.

أضاف وهو يتجه نحو الفراش ليستلقي عليه:

-بس في أنواع أحسن هابقى أشتريهالك، أكيد إنتي عملاه تركيب.

أفسد لحظة سعادتها المؤقتة بوقاحته، ولم تستطع ضبط لسانها وهي ترد:

-على الأقل أنا عارفة إنه تركيب، مقولتش عليه أصلي وهو مش كده.

لم يتفقه ذهنه للتلميح المبطن الذي شاب جملتها، على ما يبدو قصدت الإشارة لخداعه لها في مسألة سكنه، ومستواه الاجتماعي المرموق الذي ملأ رأسها به. تلقائيًا تحركت نحو الجانب الآخر من الفراش، وهي تنزع عنها روبها الحريري،

توقعت "فيروزة" أن تكون أنظاره تتجول على تفاصيل جسدها الأنثوي بفضولٍ، وهذا أشعرها بالخجل؛ لكن سرعان ما تبدد ذلك الإحساس سريعًا، ليحل الجمود عليها وهو يتساءل بلهجةٍ منزعجة للغاية، لا تشكيك فيها:

-إيه اللي في ضهرك ده؟

استدارت نحوه، ورفرفت بعينيها محاولة إبقاء ثقتها بنفسها، وهي تجيبه بثباتٍ يناقض الصراعات المتواترة بداخلها:

-ده حرق حصلي وأنا صغيرة.

احتفظ وجهها بتلك النظرة المذهولة المتسعة، والمحملة بالصدمة والخزي، عندما تحرك فكه ليسألها بوقاحةٍ، بنبرةٍ مليئة بالاتهام، وخالية تمامًا من أدنى مظاهر الحب أو التعاطف:

-إنتي مقولتليش إنك مشوهة؟

بهتت ملامحها وهي تردد كلمته القاتلة بنبرتها مصدومة:

-مشوهة؟

بدا مستنكرًا لدهشتها، فقال بجمودٍ، وعلامات التقزز تطفو على صفحة وجهه:

-أيوه، إيه الغريب في كلامي؟

انخلع قلب "فيروزة" أكثر، مع قساوة كلامه الجارح، وبشاعته المفرطة، وقد أضاف بنفورٍ بائن، وبنظراتٍ احتقارية، مشمئزة، أجبرتها على خوضِ

إحساسٍ مرعب لم تعهده من قبل، أشعرها فيه، من حمل لقب زوجها، بقبحها الدميم:

-مُسخة ماتنفعش حتى يتبص عليها!!

اتسعت عيناها على آخرهما في صدمةٍ أشد، لم تتعرض مطلقًا لمثل ذلك التنمر المؤذي، وهتفت بكبرياءٍ مترفع يفوق ألمها:

-ماسمحلكش تقلل مني، أنا ...

-إنتي واحدة مقرفة، إزاي عايزاني ألمس بشرتك وهي كده؟

أظهرت هي الأخرى ازدرائها من شخصه المقيت، وردت بعزةِ نفسٍ لا تليق إلا بها:

-وأنا مش عايزاك تلمسني...

ثم زاد صوتها صلابة وهي تكمل:

-اللي حصلي زمان كان قضاء ربنا، أنا ماليش دخل فيه.

أراد التحقير أكثر منها، بل وإفراغ كتلة غضبه المكبوتة بداخله، ليس فقط لإشعار نفسه بأنه في موقف قوة؛ ولكن أيضًا لإخفاء عجزه، خرجت الكلمات من جوفه كالسهام القاتلة وهو يتفوه قائلاً:

-إنتي عاملة زي البضاعة البايظة، ماتنفعش لأي حد...

استشاطت غضبًا من وضاعته غير المحدودة، وقبل أن تبادر بالرد عليه، أضاف بمزيدٍ من الفظاظة:

-لأ وكنتي عمالة تتأمري عليا، مش راضية بيا.

هدرت به بتشنجٍ، مُذكرة إياه، بما ظن أنها غفلت عنه، وعيناها تقدحان بحممٍ محتقنة:

-وأنا مطلبتش منك تتجوزي، إنت اللي فضل تلف ورايا لحد ما وافقت.

من زاوية فمه أخبرها باحتقارٍ باعث على الغثيان:

-كنت غلطان، فكرت هتجوز أميرة، ملكة جمال، مش مجرد نص ست، ابقي بصي لنفسك كويس في المراية، وشوفي جسمك عامل إزاي؟!

قال جملته الأخيرة، ونظرة الاستحقار موجهة إليها:

-ماظنش في راجل يقبل بكده.

رمقته بنظرة دونية أشعلت بها حنقه، عندما ردت:

-بس إنت قبلت بيا، إلا لو مكونتش آ....

بترت كلمتها الأخيرة قاصدة إهانته بشدة، وإن لم تصرح بذلك علنًا، وصل إليه المغزى من تلميحها المبطن، فأصابت هدفها في مقتلٍ، وبأقل مجهودٍ، ظهر تأثير كلامها –رغم عدم معرفتها بحقيقة عجزه- واضحًا عليه، فحل الجمود على تعابيره،

وغامت عيناه نحوها، حاول أن يرد بنفس الأسلوب المهين، ليزدريها أكثر، فقال:

-مكونتش أعرف عيبك قبلها، إنتي غشتيني!

على جميع المستويات لا يمكن أن يعد من اقترنت به كزوجٍ لها رجلاً، اللقب لا يستحقه أبدًا، ومع اتهاماته المجحفة نحوها، برزت كراهيتها الكاملة له، منذ البداية لم تكن له أي مشاعر، ولم تملك عاطفة حسية نحوه، لذا برأسٍ مرفوعٍ للأعلى في إباءٍ خاطبته، دون أن يظهر عليها بادرة ضعف، على الرغم من الشروخ التي هشمت ما تبقى من روحها:

-خلاص ملحوظة، صلح الغلط ده، وطلقني.

زوى ما بين حاجبيه معلقًا في وقاحةٍ لم تعهدها أبدًا:

-بالبساطة دي؟ واللي دفعته فيكي؟

وكأنها تُحادث نخاسًا في سوق الجواري والرقيق، وليس زوجًا من المفترض أنه محترمًا، استنكرت لهجته، وهاجمته ببغض أشد:

-نعم؟ دفعته فيا؟ إنت أصلاً مصرفتش حاجة على الجوازة دي، تقريبًا كانت جوازة ببلاش!!

لم يعترض على وصفها، بل أكد على كل كلمة نطقت بها، وأضاف:

-آه بس دفعت تذاكر سفر، وتأشيرة، ده غير مصاريف قبل الجواز، وده يدوب سعرك!

كررت عليه بإصرارٍ عنيد، ووجهها قد تحول للإظلام:

-طلقني يا "آسر"، احناماينفعش نكمل مع بعض.

ساومها بأسلوبه الفج:

-مش قبل ما تدفعي اللي صرفته عليكي.

منعت موجة من الغضب من الانفجار في وجهه، وهي تسأله:

-كام يعني؟

مط فمه للحظة، ونظراته تدور على جسدها؛ وكأنه يقيم بضاعة معروضة في فاترينا المعروضات، ليخبرها بعدها ببرودٍ:

-مممم.. نقول تقريبًا نص مليون جنية.

استفزها بالسعر المبالغ فيه، وكأنه يثبت لها بالفعل أنه لا يفرق شيئًا عن تاجر الرقيق؛ ولكن في العصر الحديث، لهذا هدرت به:

-إيه؟ إنت اتجننت؟

استقام في وقفته، تطلع إليها بجفاءٍ، قبل أن يبتسم لها بسماجةٍ، أشعرتها برغبة عارمة في التقيؤ، لمجرد النظر في وجهه القميء، ثم تكلم قائلاً؛ وكأنه لم يعر عصبيتها أدنى اهتمام:

-أنا واحد عملي، مش معقول أطلع خسران من أي جوازة.

تصاعدت الدماء الحانقة إلى رأسها، فألهبت خلايا عقلها الثائر، كما شعرت بغليانٍ حارق يسري في عروقها، انتفض جسدها وهي تصرخ به، معيدة جزءًا من جملته الأخيرة في صورة تساؤل عكس صدماتها المتتالية:

-أي جوازة؟ هو إنت اتجوزت قبل كده؟

تقدم نحوها، ونظرة فخر غريبة تطل من عينيه، ليوضح لها حقيقة أخرى، اكتشفتها في ليلتها البائسة:

-يا حبيبتي! أنا بالبلدي كده عايش على قفا النسوان، وإنتي مش أول واحدة أتجوزها.

آخر ما قد يخطر ببالها، اعترف لها به هكذا ببساطة، وبغيرِ ندمٍ، ولا مقدماتٍ تمهيدية! عكست ردة فعله الهادئة اعتياده على مثل تلك الثورات النسائية، تصلب جسدها، وشعرت بقرب انهيارها، مع تحطم الصورة الوهمية، لشخصٍ ظنت أنه الاختيار السليم في وقتٍ حرجٍ، النجاة من تعاسة فرضت عليها قسرًا، وانطلاقة لمستقبل أفضل في بلد كان مغايرًا عما اعتادت عليه في وطنها؛ لكن كانت الحقيقة -غير القابلة للتشكيك- أنه كالجحيم المستعر، اندفعت نحوه لتهجم عليه، ضربته بغيظٍ حانق في صدره بقبضتيها، وقد فقدت السيطرة على ضبط أعصابها، لتلعنه بعدها بإهانةٍ صريحة:

-آه يا واطي، يا حيوان!

قبض على رسغيها، ومنعها من التطاول باليد عليه، دفعها للخلف بعنفٍ، لتسقط على ظهرها، وهو يحذرها بخشونةٍ:

-إياكي تغلطي، وإلا لسانك ده هيخليكي تدفعي أُكتر.

الألم البدني لا يقارن أبدًا بالألم المعنوي، وخزات الأخير أشد وطأة على النفس، إهلاكه لها يكمن في عمق تأثيره الغائر، ووسط أوجاعها المدمرة ردت "فيروزة" باستبسالٍ اندهشت هي منه:

-وأنا مش هادفع لواحد زيك مليم، ولو مطلقتنيش بالذوق، أنا هاروح السفارة هنا، وهاشتكي عليك، وهاعرف إزاي اتطلق منك.

برزت عينا "آسر" في صدمةٍ مفاجئة له، بل ومهددة بقوةٍ لمركزه، وربما افتضاح أمره بالكامل، وهو لم يفق بعد من تهديدات رؤسائه، فماذا إن زاد الطين بلة ببلاغها المزعوم؟ دنا منها متسائلاً بلهجةٍ متشددة:

-إنتي بتقولي إيه؟

استندت على مرفقيها، ودفعت جسدها لتنهض، وقفت على قدميها تتحداه في عدم رهبة، كانت معتادة على التعنيف البدني، وبالتالي دفعاته القاسية لم تكن بالغريبة عليها، شحذت كل طاقاتها الغاضبة والناقمة منه ضده، وردت بجراءة أكبر:

-اللي سمعته، ومحدش هيقدر يمنعني، ما هو مش معنى إني في بلد غريب، إني مش هاعرف اتصرف، إنت متعرفنيش كويس يا سيادة الأفوكاتو!!

وصفها بدا أقرب للتهكم عن مجرد كلمة عابرة، بذل قدرًا كبيرًا من الجهد ليسيطر على نفسه، وهتف في استهزاءٍ مستخف بها:

-حلو أوي.. بتهددي كمان؟!

أومأت برأسها مؤكدة دون أن يرتد لها طرف، فزاد من حقده نحوها، وأخبرها مباشرةً كوسيلة أخرى للضغط عليها، وإخضاعها:

-طيب قبل ما تفكري تاخدي الخطوة دي، شوفي الفيديو ده.

تقلص وجهها في ارتيابٍ وهي تسأله:

-فيديو إيه؟

اعتلى زاوية فمه ابتسامة خبيثة، قبل أن يرد:

-حاجة تستاهلك.

قام "آسر"

-إيه اللي موجود في الفيديو ده؟ دي مش أنا.

-ما أنا عارف، بس تفتكري وقت ما أمك تشوفه، ولا خالك، هيصدقوا إنها مش إنتي؟ طب إيه رأيك نبعته عند أهلك في البلد؟

هدرت به بجنونٍ، ملقية بالهاتف أسفل قدميها لتحطمه، ثم انقضت عليه لتطبق على عنقه:

-دي مش أنا، إنت واحد قذر، نجس، مش بني آدم أصلاً.

لكن قبل أن تصل إليه، سدد لها لكمة مباشرة في وجهها جعلت عقلها يضيء، وتشوش رهيب زحف على عينيها، ترنحت من قوة الضربة المباغتة، ومع هذا جاهدت للحفاظ على اتزانها. امتدت ساقه لتعرقلها وتطرحها أرضًا، حينها فقط خرج عن شعوره، بعد ذلك الكم الكبير من الضغوطات المتوالية عليه، جعلها تبدو أمامه ككيس الملاكمة، انهال عليها بما يقدر عليه من ضربات وركلات، جعلت عظامها تصرخ مستغيثة من عنفه المستبد بها، تعنيفه البدني فاق حدود ما تعرضت له خلال الفترة المنصرمة من حياتها، قاومت حتى الرمق الأخير، وإن عجزت عن صد ضرباته فعليًا، إلى أن أجبرها عقلها المهزوم، في معركة أخرى جديدة عليها، على الانسحاب من واقعها القاسي، وبقي مصير روحها الجريحة معلقًا بين يديه.

توقف "آسر" عن اعتدائه اللا أدمي عليها، بعد أن أفرغ فيها شحنته المجتمعة فيه، لم يعد يشعر بيديه، حرك كلتاهما في الهواء قبل أن يفركهما معًا، أنفاسه اللاهثة اخترقت السكون العجيب الذي احتل الغرفة، مسح عن وجهه العرق الغزير الذي تصبب منه، بيده المرتعشة، تراجع عنها، ونظراته لم تبتعد عن جسدها المتخشب، لم يظهر عليه أي إشفاقٍ نحوها، بل إلى حد ما شعر بنشوة عجيبة تجتاح روحه الميتة، كان بحاجةٍ لمن تكون ذبيحته في تلك الليلة المليئة بالصدامات، وقد كانت هي!

.......................................................

وكأن بين قلبيهما الضائعين خاطرًا غير محسوسٍ سوى منهما، فتح "تميم" عينيه محدقًا في سقف غرفته، كلوحِ الخشب لم يتحرك لثوانٍ، اعتصاره مقبضة نالت من قلبه، فشعر به، وكأن أحدهم ينتزعه نزعًا من بين ضلوعه، شهيق متحشرج شق طريقه بصعوبةٍ ليصل إلى رئتيه؛ لكنه كان مؤلمًا حد الموت. لحظة استفاق فيها عقله من سباته، فهمست شفتاه تناديه بحروفٍ تكاد تكون مقروءة:

-"فـ..يرـ..و..زة"!

إدراك حقيقة خسارتها للأبد أوهن روحه، جعله فاقدًا للرغبة في المواصلة، حتى عينيه ذرفتا الدموع في ألمٍ وحسرة، عجز جسده المتآذي عن مقاومة الانفعالات المتزايدة عليه، استسلم لضعفه الإجباري، فتشنجت أطرافه بشدة، مما جعل صوت صفير الأجهزة المربوطة به يزأر، لينذر بوجود خطرٍ جسيم محدق به، اقتحمت غرفته الممرضة على إثر الصوت الحاد، خطت نحو فراشه، لتفقد حالته، اعتراها قلق مبالغ فيه، وانعكس بوضوحٍ على تعبيرات وجهها، حين أدركت تدهوره غير المتوقع، هرولت ركضًا للخارج لتستدعي أحد أطباء الطوارئ لإسعافه، وهي ترجو الله ألا يكون في تأخيرها هلاكه ...................................................... !!!

..........................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الحادي والسبعون

على لوح خشبٍ متهالك، بدا وكأنه طوفِ نجاةٍ، يصارع للبقاء بثباتٍ وسط أمواجٍ عاتية، تمدد جسدها المرتعش عليه، شعرت أنه لا يكفي لحملها، بين لحظة وأخرى سيميل على جانبه، ليقذفها وسط تلك الدوامات الجائعة، المتلهفة لابتلاعها، بذلت "فيروزة" أقصى ما تستطيع لتتمسك بحافتيه، تشبثت به وارتجافتها المذعورة تتصاعد مع حدة الأمواج، لم تتمكن من إزاحة الماء العالق برموشها، أحست بحرقة تأكل عينيها، منعتها من الرؤية، ولم تقوَ على فركهما، فإن أبعدت يدها؛ لربما سقطت عن قشتها المُنجية، وبين تلك المعاناة، لمحت شيئًا قادمًا في اتجاهها، لم تتبين في البداية ماهيته، أطبقت على جفنيها وفتحتهما عدة مرات، حتى يتضح لها ملامحه، بعد مجهودٍ لا بأس به، استطاعت أن ترى قاربًا متوسط الحجم يدنو منها، اتسعت عيناها على آخرهما، وقد رأت "آسر" يقف بوجهه الشامت على سطحه، يرمقها بتلك النظرة الدونية، حرقة عظيمة اشتعلت في قلبها، دققت النظر في الواقف خلفه، والذي تقدم خطوتين ليقف إلى جواره، انقبض قلبها المعذب لرؤية شبح "فضل"، وشفتاه ترسم ابتسامة حاقدة، ومن خلفهما انضم خالها إليهما، ليشترك الثلاثة في ازدرائها؛ كلّ على شاكلته، وبطريقته المهينة.

هاجمتها موجة عنيفة، كادت تقلب اللوح على ظهره؛ لكنها نجت في اللحظة الأخيرة، ورغم آلام عينيها رفعتهما "فيروزة" نحو ثلاثتهم، تنتظر تحرك أحدهم لإنقاذها، لم يحركوا ساكنًا! ظلوا يشاهدون معاناتها المهلكة ببرودٍ شديد؛ وكأن

قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، يبتسمون لأنفسهم وهم يشيرون بأيديهم نحوها، وحده من التقطت أذناها نداءه البعيد، أجبرت رأسها على الاستدارة للجانب، لتسمع صوته الرجولي المألوف ينادي مجددًا:

-"فيروزة!".

غمرها رغم الخطر المحدق بها، إحساسًا مطمئنًا، بأمانٍ لا حدود له، دق قلبها بقوةٍ، وقد رأته يسبح في اتجاهها، ذراعاه يضربان الأمواج باستماتةٍ، كما لو كان يقاتلها، في حلبة للمصارعة، سعى جاهدًا ليصل سريعًا إليها، ابتسمت تلقائيًا رغم كل شيءٍ لوجوده، شعرت بدفءٍ ينساب من طرفيها، أدركت لاحقًا أنها دموع سعادتها لحضوره المصحوب بأسمى معاني الشهامة، سماتٌ افتقدت وجودها في محيطها الذكوري، انفرجت شفتاها لترد النداء، ليعلم مكانها؛ لكن انحبس صوتها داخلها، كررت المحاولة، ولا استجابة من أحبالها! تلاشى الأمان، وحل الخوف كبديلٍ عنه، صرخ قلبها يناديه، بما عجز اللسان عن النطق به:

-ماتسبنيش!

.......................................................................

مسحت آثار النعاس العالقة بجفنيها، حين رأت ابنتها ما تزال متكومة أمام باب المنزل المنغلق، بمفتاحٍ احتفظت به معها في غرفتها، منذ أن تركتها بالأمس على تلك الوضعية، تضم ركبتيها إلى صدرها، وتحاوطها بذراعين معقودين عند كفيها، مع اهتزازة ثابتة لكامل جسدها. ألصقت "خلود" ظهرها بالكتلة

الخشبية، ما زالت تبكي بنحيبٍ رغم جفاف الدموع في مقلتيها، منحتها "بثينة" نظرة إشفاقٍ على حالها البائس، زمت شفتيها أولاً في تأفف قبل أن تحرك فكها قائلة، بشيء من الرجاء:

-يا بنتي حرام عليكي اللي بتعمليه في نفسك ده.

لم ترفع عينيها نحوها، وقالت بوجهٍ بائس، تعكس نظراتها قهرًا عميقًا:

-ده "تميم" يامه.

ردت والدتها في عصبية، مستنكرة موقفها العطوف نحوه:

-أهوو ربنا خدلك حقك منه، ده بدل ما تفرحي فيه؟

اعترفت لها في لحظةِ صدقٍ:

-حق إيه بالظبط؟ يامه ده احنا اللي جنينا عليه!

غمغمت والدتها في تبرمٍ:

-وهو ماصنش العِشرة...

حقدٌ مضاعف غلف نظرات "بثينة"، كما تحولت نبرتها للمزيد من القساوة، وهي تتابع:

-ده بدل قلبك ما يبقى حجر، طالعة خايبة بالشكل ده؟ احنا في غابة، "تميم" واللي من عينته ياكلوكي لو اديتهم ريق، اتعلمي تدوسي على الناس، ومحدش يدوس عليكي!!

للحظةٍ شردت عينا ابنتها؛ وكأنها تستحضر صورته في ذهنها، ظهرت بحة مختنقة في صوتها، عندما أخبرتها بتملكٍ واضح:

-هو غير أي حد، ده بتاعي أنا، قلبه ملكي لوحدي، مش من حق حد يزعل عليه غيري

زفرت قائلة في ضجرٍ من امتهانها لنفس الطريقة في استجداء مشاعر الآخرين:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، يا بت اعقلي بقى.

ضمت "خلود" شفتيها في غيظٍ، بينما خاطبتها والدتها بلومٍ، مستشعرة تقصيرها في تنفيذ ما ظلت توصيه بها طوال حياتها:

-كان عندي أمل تعملي إنتي وأخوكي اللي معرفتش أعمله زمان بعد موت أبوكي، بعد ما خدوا كل حاجة مني، وسابوني للهم لوحدي...

تردد بداخلها صوتًا حاقدًا، لم تتمكن من البوح به علنًا:

-أختي خدت كل حاجة حلوة، وأنا كان نصيبي الشقى والحرمان، ويا ريت عيالي طلعوا عدلين، إنما واحد دلدول مراته، تحركه بصوباعها الصغير، والتانية فاضلها تكة وتدخل السرايا الصفرا.

ارتفع صوت نهنهات "خلود"، فصاحت بها والدتها على مضضٍ، رافضة السماح لقلبها بأن يرأف بحالها:

-كفاية بقى يا بت، عيطي على حد يستاهل، ده أنا لو جرالي حاجة مش هتعملي ربع المناحة دي عليا.

همهست ترد عليها:

-بعد الشر يامه، بس...

بترت باقي جملتها، وأرخت ساعديها لتزحف على ركبتيها في اتجاهها، تعلقت بساقهان ورفعت عينيها المتورمتين –من كثرة البكاء- نحوها تستعطفها بتوسلٍ لم تمانع في إظهاره:

-وديني عنده يامه، أبوس إيديكي ورجليكي خليني أكون جمبه.

نظرة يائسة كست عيناها نحوها، كانت مدركة أن ابنتها لن تتوقف عن إذلال نفسها في سبيل استعادة طليقها، والظفر بحياةٍ تعيسة، فرضت عليها منذ البداية، لن تحظى فيها مهما مرت بها الأيام، سوى بالمزيد من القهر، والشقاء. بوجهٍ غائم تطلعت إليها "بثينة"، لتنفخ بعدها في سأم وهي تعلق مستسلمة أمام إلحاحها المريض:

-ماشي يا "خلود"، هوديكي عنده...

لكن ما لبث أن تحول صوتها المستاء للصرامة:

-بس إياكي تعملي حاجة مترضنيش واحنا هنا، عززي نفسك، وخلي عندك قيمة وكرامة.

قفز قلبها طربًا لاستجابتها لها، استندت على كفيها، لترفع جسدها عن الأرضية، وهتفت بفرحةٍ فاقت أي تصور:

-حاضر يامه، اللي إنتي عايزاه، المهم أبقى معاه.

راقبتها والدتها بنظرات مشمئزة مزعوجة؛ لكنها رغم كل شيء انصاعت لها، على أمل أن تسترد عقلها المغيب، بسبب رغباتها الجنونية.

.....................................................

اكتظ المشفى بتواجد العشرات من معارف عائلة "سلطان"، الكل تهافت لتقديم العون، الدعم، وأيضًا الوقوف بجانب قطبي العائلة في مصابهما العظيم، فمن يرقد بين الحياة والموت معروفٌ بأصالته في عالم يفتقر لرجالٍ من أمثاله، كان على رأس هؤلاء عائلة "حرب"؛ "طه"، وابنيه؛ "منذر" و"دياب". صمتٌ جليل سيطر على الردهة المزدحمة، لم يقطعه إلا أنفاس مشحونة، أو نهنهاتٍ مكتومة. تحرك "منذر" في اتجاه "سراج"، سحبه من ذراعه ليسأله مستفهمًا، بعد أن انضم إليهما الحاج "عوف":

-إيه اللي حصل بالظبط؟ "تميم" كان لوحده في الدكان؟ ولا مين كان معاه؟

أجابه "سراج" بتعابيرٍ واجمة:

-الظاهر مكانش معاه حد.

في حين أضاف "عوف" باستهجانٍ شديد:

-ولاد الحرام شكلهم كانوا مرقدينله.

علق عليهما "منذر" بتوعدٍ مهدد، قاطعًا على نفسه وعدًا نافذًا، وبنظراتٍ تحولت للشراسة:

-ولاد الـ ....، قسمًا بالله ما سايب اللي عمل فيه كده، لو كان في المريخ هاجيبه.

مال "سراج" نحو "منذر" برأسه ليقول له، بصوتٍ شبه خافت، وإشارة ضمنية من عينيه:

-بأقولك يا ريس "منذر"..

فهم الأخير تلميحه غير المنطوق، وتحرك معه بعيدًا عن الحاج "عوف" الذي عاود أدراجه لينضمن للبقية. تساءل "منذر" بقسماته الجادة:

-خير يا "سراج"؟

جاوبه بكلماتٍ مستريبة:

-وأنا بأطلع "تميم" من قلب النار في دكانه، كان بينادي على "محرز".

في ذهولٍ ردد اسمه:

-"محرز"؟!!!

أومأ برأسه مضاعفًا التأكيد على هويته:

-أيوه، حتى أنا فكرته محبوس معاه.

جاب "منذر" بنظراته على أوجه المتواجدين في الردهة المزدحمة، وقال وهو ينظر مرة أخرى في اتجاه "سراج":

-أنا مش شايفه موجود وسط الناس اللي هنا.

عقب عليه بشكٍ:

-ما هو ده اللي أنا مستغربه، والست جماعته قالت إنها متعرفش حاجة عنه من ساعة اللي حصل!

حملق في بصمتٍ، وكأنه قد استغرق في أفكاره التحليلية العميقة، ليضيف بعدها "سراج"، مفصحًا عما يساوره من شكوكٍ،

-بيني وبينك، أنا حاسس كده إن ليه علاقة باللي حصل لـ "تميم".

هتف "منذر" من بين أسنانه، بكراهيةٍ معكوسة كذلك على ملامحه:

-الواد ده طول عمري مابستريحلوش، لِوَني (متلون/مخادع) كده، ومش صريح...

كادت نبرته القاسية ترتفع حين أكمل بعدائية:

-بس لو كان وراها، محدش هيرحمه من إيدي.

اقتضب "سراج" في الرد، فقال:

-هيبان.

توحشت نظراته معقبًا عليه بلهجته الصارمة:

-واحنا مش هنستنى لما يبان، حق "تميم" لازمًا يتجاب.

أمّن على كلامه قائلاً:

-وأنا معاك، صحيح النفوس كانت شايلة من بعض زمـان، بس إنت عارفني، مابخونش، ولا أضرب راجل في ضهره.

ربت على كتفه يشكره في امتنانٍ:

-عارف يا "سراج".

تحرك "منذر" للجانب قليلاً، عندما أقبل عليه شقيقه، ليقف في المنتصف بينه وبين "سراج"، سأله "دياب" مستفهمًا، ونظراته المتفحصة تتوزع عليهما:

-الكلام على إيه دلوقتي؟

أجابه شقيقه مباشرةً؛ وكأنه يأمره:

-عايزين نشوف "محرز" متاوي فين.

تقلصت عضلات وجهه في استغرابٍ، وضاق ما بين حاجبيه متسائلاً:

-"محرز"؟ ليه؟

لم يجبه "منذر"، ففهم على الفور مقصده، ونطق يسـأله بحـذرٍ، وكامـل نظراتـه عليه:

-أوعى يكون آ...؟

هز رأسه بإيماءة مؤكدة، قبل أن يتابع بهدوءٍ:

-"سراج" شاكك في ده، بس مش عايزين نسيح في المكان لحد ما نتأكد.

فرك "دياب" كفيه معًا، ورد على الفور، كما لو أن الأمر يروقه:

-اشطا.

تساءل "سراج" بغرابةٍ:

-هتعرف تجيبهولنا؟

ابتسامةٍ واثقة أنارت زاوية فمه عندما أجابه:

-بسيطة، عندي اللي يقلب الدنيا عليه، حتى لو كان مستخبي في أوم أوم.

رد "سراج" بتشكيكٍ، مستخدمًا يده في الإشارة:

-هتدوروا عليه فين؟ ده زي ما يكون بندور على إبرة في كوم قش.

غمز له بطرف عينه، وهو يخبره بثقة تامة:

-دي لعبتي.

وضع "منذر" يده على كتف شقيقه، وجال بنظراته على الاثنين مشددًا من جديد:

-خلاص يا رجالة، اتفقنا، والكلام ده هيفضل بينا.

استجاب لأمره الصارم "سراج"، وقال:

-ماشي يا ريس.

..............................................................

انحنى أمام باب منزله، ليتمكن من سحب حذائه القديم، من مجموعة الأحذية المتراصة على وحدة الأدراج البلاستيكية، وضعه على الأرضية، واعتدل في وقفته، ثم مد قدميه ليضع واحدة تلو الأخرى فيه. استقام "خليل" واقفًا بعد أن ارتداه، لف ذراعه خلف ذراعه، ليتفقد محفظته الموضوعة في جيب بنطاله الخلفي، ثم صاح عاليًا، وهو يشرأب بعنقه قليلاً:

-يالا يا "حمدية"، شهلي أوام، كده هنتأخر على الجماعة.

أتت إليه زوجته على عجالةٍ، وهي تضم طرفي حجابها عند عنقها، شبكتهما بدبوس معدني وهي ترد بأنفاسٍ شبه متهدجة:

-على طول أهوو، أنا بألبس الطرحة.

غمغم في خفوتٍ، بنبرة مستهجنة، ونظراته المتعضة تتباعد عن وجهها:

-يا مسهل، يومك بسنة.

سألته "حمدية" بتعجبٍ، ووفق ما تربت عليه من أعرافٍ:

-بأقولك إيه، هو احنا مش هناخد في إيدينا حاجة واحنا رايحين؟

استدار نحوها بوجهه العابس، معقبًا في تهكمٍ ناقمٍ:

-يعني هما مستنين منا كيلو البرتقان ولا الجوافة؟ ولا هيفرق معاهم هنجيب إيه؟ دول يشتروا السوق برجالته يا "حمدية"!

ببساطةٍ اقترحت عليه بديلاً:

-طب ما نجيب ورد، ولا آ....

قاطعها بسخرية صريحة منها:

-ورد؟ ليه رايحين نخطب؟ وبعدين إنتي عايزانا نرمي فلوسنا في الأرض؟ هو احنا لاقينها بالساهل، خلينا كده نروح خفاف!

هزت رأسها متمتمة:

-ماشي.

لوهلةٍ بدا مترددًا، في مفاتحتها في نفس الموضوع المتكرر، والخاص بتكليفات عمله المفتعلة؛ لكن لا مفر من إخبارها، فزوجته الأخرى وابنته، ألحتا عليه للمكوث معهما لبعض الوقت، ولم يستطع الرفض أو التأجيل، استنشق الهواء بعمق، وتحاشى النظر نحوها، قبل أن يستطرد قائلاً:

-على فكرة، المدير عندنا احتمال يبعتني مأمورية بتاعة أسبوع ولا 10 أيام.

رمقته بتلك النظرة الحاقدة الفاضحة لكذبه؛ وإن لم ينظر نحوها، تحركت في اتجاهه، ووقفت قبالته، رأته يهرب بنظراته عنها، ومع هذا سألته بهدوءٍ، مدعية تصديقها لادعائه الملفق، رغم نيران الغضب المستعرة بصدرها:

-هو إيه مافيش غيرك اللي شايل الشغل على دماغه؟ مايشوف أي حد تاني.

تنحنح قبل أن يبرر لها بمزيدٍ من الكلام المخادع:

-إنتي عارفة مابيثقش في حد غيري، الباقيين مابيعرفوش يمشوا الشغل زي ما هو عايز.

هزت رأسها بإيماءة صغيرة مُؤمنة عليه:

-أها.. قولتلي.

حاول أن يبدو مقنعًا معها، فلا ترتاب في أمره، لهذا وعدها:

-وأنا مش هتأخر، بعد المأمورية دي هاخدك يومين مع العيال تغيروا جو في البلد.

سخرت منه قائلة بابتسامة صغيرة متهكمة، ارتسمت على جانب فمها:

-لا والله شهم بصحيح.

-طب يالا بينا.

ردد تلك الكلمات بنبرة سريعة وهو يخرج من باب منزله، لتتبعه "حمدية" بخطواتٍ متمهلة، متوعدة إياه بشراسةٍ مهلكة في نفسها:

-اصبر عليا يا "خليل"، وأنا هاخليك تقول حقي برقبتي!!!

..................................................................

الخسيس عديم الرحمة، والذي لا يملك قلبًا، تركها تقضي- ما تبقى من ليلها الموحش، طريحة الأرضية الباردة، فاقدة للوعي، وغير قادرة على الحركة، لم يرأف بها، ولم يكلف نفسه عناء تفقد أحوالها، بل على العكس نام في الفراش

بمفرده، هانئًا، ومُمنيًا نفسه بتدفق أموالٍ جديدة إلى حسابه البنكي، معوضًا ما تكبده من خسائر؛ وإن كان ذلك بأرخص الوسائل، وأكثرها حقارة! تضاعف أنين عظام "فيروزة" حين بدأت تستفيق من غيبوبتها، بقي طيف "تميم" عالقًا في مخيلتها، إلى أن تبخر مع استعادتها لكامل إدراكها.

لم تقوَ في البداية على التقلب على جانبها، فشلت محاولتها البسيطة لتحريك أطرافها، لتؤكد لها حواسها أنها لم تكن تحلم، وما عانته فعليًا كان كابوسها الجديد، مع فارق أنه ألصق بها ريبًا، تعرضت فيه لنوعٍ لم تختبره من قبل، يمتاز بأنه أشدُ حقارة وظلمًا، ويختلف كليًا عن أي شيء جابهته منذ اندلاع حريق الدكان؛ لكن تلك الإرادة القوية بداخلها مدتها بقدرٍ من الطاقة، حفزتها على الصمود، وإن لم تكن كافية للتخلص من آلامها الحديثة.

بصعوبة تمكنت من رفع جسدها، لتعتدل في وضعية الجلوس، حركت ذراعها على مهلٍ، لترفعه إلى وجهها المكدوم، تحسسته بحرصٍ شديد، تأوهات مصحوبة بارتجافةٍ قوية خرجت من جوفها، كردة فعلٍ طبيعية لما أصاب غالبية جسدها من كدمات وتورمات مختلفة، ما زالت تئن من تأثير تعنيفه البدني الأعمى عليها، قشعريرة قارصة نالت بشراسةٍ من جلدها، وجعلت شعيراتها القصيرة تنتصب على طول بشرتها، عندما جاءها صوته المقيت من خلفها يأمرها باشمئزازٍ:

-غطي ضهرك ده، مش ناقص أشوف قرف على الصبح.

رغم أنها لم تكن سوى عارية الكتفين والظهر، إلا أن نظراته الوضيعة جردتها من قطعة الثياب التي تحجب مفاتنها عنه، لفّت رأسها ليبدو وجهه المنفر في مرمى بصرها، وهتفت تلعنه، بأنفٍ مرفوعٍ في إباء أغاظه:

-إنت أحقر واحد آ ...

ما زالت تحتفظ بشموخها، وذلك ما استفزه رغم تحطيمه الموحش لأنوثتها، قاطعها "آسر" محذرًا بسبابته المرفوعة أمام وجهها:

-قبل ما تتهوري تاني بلسانك، افتكري إني معايا اللي أطير بيه رقبتك، وبالعكس كل الناس هتشكرني على ده.

ضغطت على أسنانها تنعته بهمسٍ، خرج بأنفاسٍ مغلولة منه:

-إنت شيطان.

سمع هسيس صوتها، وقال ساخرًا وهو يعقد ذراعيه أمام صدره

-شكرًا على ذوقك، وقومي يالا روقي المكان...

لو كانت النظرات تقتل، لأردته نظراتها المميتة قتيلاً على الفور، ببرودٍ تطلع إليها، وأخبرها كمن يَمنُّ عليها بإحسانٍ:

-على فكرة أنا مش جاي النهاردة على الغدا، هتلاقي في بواقي أكل من امبارح على الترابيزة، ده لو ليكي نفس تاكلي.

لم تتحمل احتقاره، فصرخت ببقايا كبرياءٍ محطم:

-إنت بتعمل معايا كده ليه؟ أنا أذيتك في إيه؟

أجابها بتنهيدة بطيئة، وتلك الابتسامة السمجة تحتل ثغره:

-الصدفة أو حظك بقى وقعك في طريقي، وأنا متعودتش أخسر حاجة حطيت عيني عليها، بس المرادي خيبت معايا...

توقف عن إتمام جملته، ليسدد لها نظرة استحقار أشد، وزاد الطين بلة بقوله المهين:

-توقعت هاتجوز واحدة كاملة الأوصاف، مش نص ست!

وضعت "فيروزة" يديها على أذنيها لتصمهما عن سماع كلامه الحقير، وهدرت بصدرٍ ناهج:

-كفاية، مش عايزة أسمع الكلام ده.

دنا منها أكثر، فبات على بعد خطوتين منها، ناظرًا نحوها بدونيةٍ، قبل أن يحرك فكه ليهددها علنًا:

-اتعودي من هنا ورايح على كده، وبأحذرك من تاني لو فكرتي تأذيني، بأي شكل أنا مش بس هاطلعك زانية، وإني راجل مظلوم، لأ هاحمل الفيديو ده على النت، هاخلي فضيحتك عالمية، ما هو أنا عامل منه نسخ كتير بوشوش رجالة مختلفة، مش بس زي ما شوفتيني معاكي في الموبايل اللي كسرتيه، يعني من الآخر محدش هيصدق إنك بريئة، ووريني بقى هاتقدري تعملي إيه.

كسرةٌ أشد وطأة نالت من روحها المهزومة، فسألته بقهرٍ، وهي تكافح لكبح دموعها أمامه:

-مش خايف من ربنا ؟

تجهم كليًا من سؤالها، وهتف في عصبيةٍ وهو يركل قدمها بحذائه:

-يوووه، صدعتي دماغي وأنا لسه بابتدي يومي.

تأوهت من الألم الشديد، قبل أن تدعو عليه في حرقةٍ:

-منك لله يا "آسر".

كان على وشك نعتها بلفظٍ حقير، لولا سماعه لدقاتٍ على باب منزله، فتركها في مكانها، وانصرف خارجًا من الغرفة، تتبعه عينان تلفظان الغضب منهما، وسبابٍ خافت يلعنه. بجهدٍ أكبر تمكنت من النهوض بمفردها، كاتمة أنينها الموجوع، حتى استطاعت أن تقف مجددًا على قدميها، كالعنقاءِ، من الرماد تُبعث وتنهض من جديد، لم تفقد "فيروزة" بعد، بقايا شخصيتها القوية، والتي لطالما تم اختبار صلابتها، دمدمت بصوتٍ خفيض، قاطعة وعدًا نافذًا عليها، عبّرت من خلاله عن احتراقها داخليًا:

-بس لو ده آخر يوم في عمري، هاقتلك قبل ما تمس شرفي، وتوطي راس عيلتي وتحطها في الطين، وده وعد مني بكده!

.................................................................

خيّم السكوت على الموجودين، بغرفة الطبيب المعالج للابن البكري والوحيد لعائلة "سلطان"، بعد أن طلب ملاقاتهم للحديث عن تفاصيل حالته الحرجة، والتي أجبرته على وضعه بالعناية الفائقة، لبضعة أيام، ريثما يتجاوب مع العلاج المكثف، وتظهر حالته المتأخرة أي استجابة، ولو كانت طفيفة، خاصة بعد التدهور المفاجئ الذي هاجمه فجأة .. بصعوبةٍ كتمت "ونيسة" آناتها الموجوعة على وليدها؛ لكن صوت نحيبها ظل مسموعًا، وإن جاهدت لخنقه، ولم تختلف ابنتها عنها، شاركتها في بكائها الحارق، ولم تتوقف عن لوم نفسها عن تقصيرها في حق شقيقها، في حين بقي الجد ملازمًا للصمت، ولسان حاله يدعو سرًا لحفيده بالنجاة من كل سوء، أما "بدير" فهتف يسأله بلوعة أبٍ مكلوم:

-خير يا ضاكتور؟ جايبنا هنا ليه؟

قال كلماته الأخيرة وهو يتلفت تلقائيًا نحو الأوجه الواجمة، إلى أن استقرت نظراته على وجه الطبيب، استطرد الأخير حديثه مستهلاً، بحيطةٍ واضحة في نبرته:

-طبعًا يا حاج إنت مؤمن بقضاء ربنا وقدره

هوى قلبه جزعًا، تزعزع تماسكه الزائف، وانعكس خوفه الشديد على ملامحه، فعلق عليه بصوتٍ شابه الاضطراب:

-ونعم بالله، بس تقصد إيه بكلامك؟

بلهجةٍ هادئة لم تخلُ من القلق في بعض المواضع، خاطبه الطبيب موضحًا:

-اللي اتعرضه ابنك مش سهل، ده شروع في قتل، مش مجرد خناقة، ولا حاجة عادية...

لهنيهة توقف عن الحديث، مظهرًا بعض التردد، ثم أُكمل أخيرًا، بأسفٍ انتشر في تعابيره:

-اللي ضربوه، كانوا قاصدين يموتوه، وعارفين إزاي يضربوه وفين.

شهقات مليئة بالرعب انفلتت من المتواجدين، أعلاها كانت لوالدته المفطور قلبها. لم يجرؤ الطبيب على المضي قدمًا في حديثه، إلا بعد أن خبت الأصوات، فتابع:

-الكسور سهل تتعالج مع الوقت؛ لكن قلقي دلوقتي من الغيبوبة اللي دخل فيها!

كل ما انعكس في عيني "بدير" لهفةٍ وجزع، حين نظر إليه وردد ببطءٍ، مستشعرًا صعوبة خروج الكلام من جوفه:

-غيبوبة؟

صرخت "ونيسة" في ارتعابٍ، بنواحٍ باكٍ، وهي تلطم على صدرها:

- آه يا حرقة قلبي عليك يا "تميم"، كان مستخبيلك ده كله فين؟!!!!

استدار "بدير" نحو زوجته يحدجها بنظرة صارمة، آمرة، تمنعها من العويل على ابنها؛ وكأنها فقدته، استجابت الأخيرة لأمره غير المنطوق، واضعة يدها على فمها، التفت بعدها نحو الطبيب، وسأله بتلعثمٍ غلف صوته:

-طب.. احنا.. مطلوب مننا إيه؟ نسفره برا؟ نجيبله أحسن حُكما (أطباء) في البلد؟

استغرقه الأمر لحظة ليقول:

-احنا عملنا هنا كل حاجة نقدر عليها، ومافيش قدامنا دلوقتي غير ندعي ربنا يلطف بيه.

خرجت "هاجر" عن صمتها، وتوسلت والدها ببكاءٍ شديد:

-اتصرف يابا .. ده أخويا، وابنك، هاتسيبه كده يضيع مننا؟

إن كان يبدو صلبًا من الخارج، فداخله متصدع على الأخير، أليس ابنه أيضًا؟ تماسكه الظاهري لأجل عائلته، عجز عن ضبط هدوئه، مع جملتها المحملة باللوم والتقصير، لهذا صاح بها في عصبيةٍ:

-أنا بإيدي إيه أعمله؟

ارتفعت نبرة الطبيب وهو يرجوهم، بعد أن رأى بوادر احتدام وشيك بين أفراد العائلة:

-يا حضرات مافيش داعي للخناق، وإنت يا حاج لازم تعذرهم، الحاجة أم، وأكيد قلبها واجعها على ابنها، وعلى فهمت المدام تبقى أخته، وأكيد نفسها تشوف أخوها واقف على رجله، لكن لازم تبقوا واثقين إن احنا هنا عاملين كل اللي علينا وزيادة، والباقي على ربنا.

بثباتٍ وقوة، دق الحاج "سلطان" بعكازه على الأرضية، لافتًا الأنظار إليه، ثم نطق بثقةٍ لا حدود لها، تحوي تفائلاً عميقًا، بعد سكوت طويل:

-حفيدي عضمه ناشف، وهيعدي منها إن شاءالله، ده "تميم سلطان"، مش أي حد والسلام، ادعوله من غير بُكا ولا نواح.

ابتسامة لبقة ظهرت على محيا الطبيب لنجاح الجد في ضبط زمام الأمور، وقال برجاءٍ لا يقل عن المتواجدين شيئًا:

-يا رب.

..............................................................

"كيدهن عظيم"، قولٌ متعارفٌ عليه بين العامة، مشتق من الآية القرآنية "إن كيدكن عظيم"، كدلالة عن مكر المرأة شديد التأثير في الآخرين، راود عقلها تلك الكلمات؛ وكأن بها حافزًا عبقريًا، لتثبيط مشاعر القهر السلبية، فكرت في هذه الجملة مليًا، لتذكر نفسها بأنها لم تكن من النوع الضعيف المستسلم، ذاك الذي يركع عند الأقدام بعد مذلة وازدراء مستديم، عليها ألا تحني رأسها مهما اشتدت عليها الصعاب، بل وجب عليها المقاومة، والصمود لتنأى بنفسها من شرور أشباه البشر، هكذا استعادت "فيروزة" عزيمتها! مستعيدة قدرتها غير العادية على إعادة تطبيع الأمور لما فيه نجاتها.

سحبت روبها لتغطي به جسدها، وأحكمت ربطه على خصرها، تهادت في خطواتها وهي تستند على طول حواف الفراش، لتقف عند أعتاب باب الغرفة

الموارب قليلاً، حيث وصلها صوتًا ذكوريًا غريبًا يتحدث بصرامةٍ، وباللغة الانجليزية. استرعى الأمر انتباهها، واقتربت أكثر، دون أن تظهر نفسها. تبينت من كلمات الرجل المقتضبة أنه قد جاء للحديث بشأنِ شكوى ما، أرهفت السمع جيدًا، حابسة أنفاسها، فقد بدا الأمر غير عادي، وربما من خلاله تستطيع أن تخلق فرصتها لاستدراج الملعون "آسر"، نحو نفس فخ الخديعة المحكم الذي أوقعها فيه؛ هذا المسمى برباطِ الحب العميق .............................................. !!!

................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الثاني والسبعون

لأنه ليس مقيمًا في بلدٍ لا يُطبق القوانين، لذا فأقل ضررٍ يتسبب فيه، يُعرضه بلا شكٍ للمُساءلة القانونية، وهذا ما حدث معه! فخلال تعنيفه الأهوج لزوجته، تقدم أحد الجيران بشكوى إزعاجٍ للمسئول الأمني، عن البناية القاطن بها، يتهمه بممارسة نوعٍ من العنف مع إحدى السيدات، والذي بدا صراخها اليائس مفزعًا للجميع، قبل أن يسكن تمامًا، ليظن ذاك الساكن أنها تعرضت للأذى بشدة، وبناءً عليه تحرك المسئول للتحقق من الشكوى، التي لن تكون فقط نوعًا من الإنذارِ، إن ثبت الضرر البالغ الواقع على المرأة.

لعق "آسر" شفتيه، وبلع ريقه مبررًا بكذبٍ، بنفس لغة الرجل:

-إنه سوء فهم، كان ذلك صوت التلفاز، أنا لم أرتكب شيئًا مخالفًا، صدقني.

كان وجه المسئول جادًا، وتعابيره رسمية، اتفقت أيضًا مع نبرته حينما أخبره:

-نريد التأكد سيدي، فلم تكن الشكوى فردية، بل تكررت، وأنا هنا لإثبات الأمر من عدمه.

لم يكن أمامه أي مفر سوى الرضوخ له، فقال مستسلمًا:

-حسنًا...

همَّ بالتحرك؛ لكنه توقف في منتصف الطريق، ليقول له متحججًا، حتى يكسب المزيد من الوقتِ:

-اترك لي لحظة لأطلب من زوجتي ارتداء ثيابها، فكما تعلم نحن إلى حد ما ملتزمون، ولا يجوز أن تأتي زوجتي إليك بجسدٍ عارٍ.

تفهم ذلك، ورد ببساطة:

-في انتظار مجيئها.

على الجانب الآخر، تسنى لـ "فيروزة" سماع ما قاله الرجل بوضوح، فأعملت عقلها بشدة، لتخرج من هذا الموقف رابحة، تراجعت بخطواتٍ كانت شبه كارثية ضاعفت من ألمها، بعد إعلان "آسر" عن ذهابه لاستدعائها، وجلست على طرف الفراش، مدعية انشغالها بدعك ساقها المتألمة، رفعت أنظارها في اتجاهه، حين اندفع لداخل الغرفة، مواربًا الباب خلفه، رمقها بنظرة خائفة، تأكدت من صحتها من أمارات الفزع المرسومة على تقاسيمه، انحنى عليها، فانكمشت لتكمل مشهد اضطرابها منه، وإن لم تكن كليًا هكذا! فالمصائب علمتها ألا تظهر بمظهر الضعف، لتفسد شعور أعدائها بالزهو وفرحتهم بالانتصار عليها؛ لكن الظرف هذه المرة مختلفًا، امتدت يداه لتمسك بها من رسغيها، وتودد إليها بعاطفةٍ لم تقنعها مُطلقًا:

-"فيروزة" حبيبتي، عايزك تسمعيني.

انتزعت معصميها من بين قبضتيه، ورمقته بنظرة قويةٍ، قبل أن تحذره بجمودٍ اكتسبه صوتها:

-ماتلمسنيش!

ضاقت نظراتها أكثر وهي تتابع بغضبٍ تصاعد بداخلها، لمجرد وجوده بقربها:

-عايز إيه مني؟

رد بوداعةٍ غريبة، أصابتها بالغثيان، رافعًا كفيه للأعلى:

-حاضر مش هالمسك يا حبيبتي.

كلمة فسدت حلاوتها عندما نطقها فمه المقزز، حدجه بنظرة أخرى حملت كرهًا صريحًا، وكررت عليه سؤالها بصدرٍ شبه متهدج:

-عايز إيه مني؟

ورغم علمها المسبق بما سيخبرها به، إلا أنها أرادت أن تبدو في حضوره جاهلة، مغيبة عن أدنى التفاصيل؛ إن أرادت نجاتها الكاملة من براثنه الخبيثة.

دون ترددٍ أخبرها بصوتٍ خفيض، بنوعٍ من التحذير، في طياته تهديد واضح:

-لو مش حابة تفضحي نفسك، وأمحي الفيديو بتاعك، يبقى تنكري أي حاجة يسألك فيها الراجل اللي واقف برا.

برقت عيناها بوهجٍ ناري، لتذكيرها بخسته ووضاعته، وأعادت على مسامعه نفس الجملة التي تلفظ بها قبل لحظاتٍ، بصيغة استفهامية:

-يعني هتمسحه من عندك؟

أومأ برأسه مؤكدًا لها:

-أيوه من اللاب، ومن على أي موقع أنا حافظه فيه.

لم تكن بغبيةٍ لتصدق على الفور تنفيذه لوعده، فمن يقف أمامها حرباء متلونة، يتحين الفرص التي تأتيه، مستغلاً ضحاياه أسوأ استغلال؛ لكنها رغم ذلك لن تظهر له عكس ما تُبطن، لتمنحه ما يريد سماعه حتى تكسب المزيد من الوقت، وربما تنطلي عليه خدعة سهولة اقتياده لها، وسيطرته على حياتها، هزت رأسها بإيماءة صغيرة، وأخبرته:

-ماشي.

تحرك في اتجاه خزانة الثياب المتواضعة الموجودة بجوار باب الغرفة، بحث بداخلها عن رداءٍ أو عباءة فضفاضة، ليعطيها لها، وهو يأمرها:

-غطي جسمك بده، ويا ريت لو عندك طرحة تحطيها، مش عايزين حد يشك في حاجة.

نظرت إلى ظهره بغلٍ مقيت، ودَّت لو انتفض من مكانها، واندفع نحو عنقه تخنقه حتى تفيض روحه بين يديها، أو تأتي بسكينٍ حاد النصل، تطعنه به في ظهره، لتتخلص منه، وتريح العالم من شروره. انتشلها من تفكيرها الإجرامي في القضاء عليه، ندائه الناعم، والذي بدا أشبه بسم أفعى يسري في العروق:

-وصدقيني لو ما اتعملتش مشكلة هنسى كدبك عليا، وهمحي الفيديو، اتفقنا؟

غام وجهها بشكلٍ كبير، لاتهامه الفج بأنها لفقت الأكاذيب عليه، لمجرد تعرضها لحادثٍ مأساوي في طفولتها؛ وكأنها المسئولة عن تشويه جسدها، كبحت غضبها المندلع فيها، وتصنعت الهدوء وهي ترد عليه:

-طيب.

مد ذراعه بالعباءة التي تحصّل عليها، فارتدتها على مهلٍ، وخبأت وجهها خلف وشاحٍ أسدلته على رأسها، لتسير بتؤدةٍ، كاتمة آلامها الصارخة في قدميها، اقتربت من المسئول الذي استقام في وقفته عندما رآها، دقق الأخير النظر في نصف وجهها الظاهر من خلف حجابها، بنظراتٍ فاحصة، قبل أن يسألها بلهجته الرسمية، وبلغة انجليزية بسيطة:

-سيدتي هل أنتِ بخير؟ هل تعرض أحدهم لكِ بالأذى؟

أدارت رأسها نصف استدارة في اتجاه "آسر" الواقف على يسارها، كان الخوف يملأ كامل وجهه، تحرك بؤبؤاه في عصبيةٍ وتوتر، كانت واثقة أنه سيخر واقعًا عن قدميه، إن اتهمته بإيذائها بدنيًا؛ لكنه لن يمنعه من استخدام الفيديوهات الملفقة في تدمير سمعتها، توقفت عن حملقتها الزائدة في وجهه، لتنتبه للرجل الواقف قبالتها وهو يناديها:

-سيدتي؟ هل كل شيء بخير؟

رغم كل الآلام، الانكسارات، الهزائم التي نالت منها، إلا أن وقت انتقامها لم يحن بعد، قوست "فيروزة" شفتيها، راسمة بسمة رقيقة عليهما، لترد عليه بخفوت:

-نعم...

لحظة بلعت فيها ريقها، قبل أن تضيف، بجملٍ بسيطة مرتبة، لتمنعه من مواصلة أسئلته التحقيقية:

-كنت أشاهد مع زوجي سلسلة أفلام الرعب scream، وربما كان صوت التلفاز عاليًا، نعتذر عن هذا.

ظل المسئول ينظر لها باسترابةٍ، إلى حد كبيرٍ بدا متشككًا في أقوالها؛ لكن بادر "آسر" بالتدخل، واقترب من زوجته، ليحاوطها من كتفيها، وهتف بضحكاتٍ صغيرة، كانت مفتعلة بشكلٍ كبير:

-نحن متزوجان حديثًا، فلا تؤاخذنا، سننتبه بعد ذلك.

جفلت "فيروزة" من اقترابه المقزز، شعرت باحتراق أحشائها، لمجرد لمسة مخادعة لإكمال تمثيليته الزائفة، حرك رأسه بهدوءٍ، وأخبرهما بلهجةٍ متشددة، وهو يشير بسبابته نحوهما:

-رجاءً انتبها للضوضاء، فلا أحد يتسامح مع الازعاج.

رد "آسر" على الفور بابتسامته اللزجة، وذراعه لا يزال موضوعًا على كتفي "فيروزة":

-معك حق، خاصة بعد يوم مرهق في العمل.

تابع المسئول كلامه بإملاء المزيد من التحذيرات الجادة عليهما، بشأن القوانين الخاصة بالسكان، في تلك المنطقة، وما إن انتهى حتى استأذن منصرفًا،

لتنسل سريعًا من ذراعه؛ وكأن حيّة لدغتها، حافظت على مسافة بينهما، ولم يحبذ "آسر" الاقتراب منها؛ لكنه مدح كذبها:

-برافو عليكي يا "فيروزة"، ماخيبتيش ظني فيكي...

سددت له نظرة نارية، أرادت إحراقه بها، بينما ابتسامة سمجة اعتلت ثغره وهو يتابع:

-مع إني كنت شاكك إنك هتغدري بيا.

أخبرته بهديرٍ متعصبٍ:

-أنا عملت ده عشاني مش عشانك.

اتسعت ابتسامته أكثر معقبًا عليها، وعينه اليسرى تغمز لها:

-صح، المصلحة بتحكم.

لوحت بذراعها تأمره:

-امسح الفيديوهات اللي معاك.

دندن بصافرة مستفزة وهو يستدير متجهًا نحو مرآة صغيرة تحتل الحائط، ليتأمل هيئته، توقف عن الصفير، ومشط بأصابعه أطراف خصلاته غير المستوية، ليرتبها، وحادثها ببرودٍ، غير مكترث بالاشتعال الظاهر في عينيه:

-بعدين، لما أبقى أرجع.

اندفعت نحوه، ووقفت إلى جانبه تصيح فيه بانفعالٍ:

-إنت وعدتني.

رفع ذراعه للأعلى، ليتلمس وجنتها، داعبها براحته؛ لكنها نفرت منه متراجعة للخلف، وتلك النظرة المشمئزة تنطلق من عينيها، بادلها نظرة عادية، غير مبالية، ثم أرسل لها قبلة في الهواء مودعًا إياها:

-سلام عشان اتأخرت.

كزت على أسنانها تلعنه في حنقٍ انتشر في كل خلاياها:

-واطي..

لم تفارق نظراتها الملتهبة شخصه القمئ وهو ينصرف من المنزل، مغلقًا الباب خلفه، استطاعت أن تسمع صوت المفتاح في قفله، لتدرك أنه حبسها بالداخل حتى لا تنفذ تهديدها في غيابه، سيطرت عليها مشاعر الكراهية المختلطة بغضبها، وتوعدته بحرقةٍ اكتسبتها نبرتها:

-بس هتدفع تمن كل حد ظلمته، وأولهم أنا.

.................................................

طوت المصلية، وأسندتها على طرف الفراش، لتنزع بعد ذلك إسدالها، وتعلقه على المشجب، خرجت "آمنة" من الغرفة، تتسند بيدها على حوائط الردهة، شاعرة بدوارٍ طفيف في رأسها، ربما أصابها لكونها لم تتناول الطعام منذ الأمس، تنفست بعمقٍ، واتجهت إلى المطبخ، تبحث في ثلاجتها عن شيء يُمكن أكله

يمدها بالطاقة المفقودة، تبعتها "همسة"، وأحضرت لها طبقًا مليئًا بثمار الفاكهة المقطعة، ناولتها إياه وهي تقول لها:

-كلي يا ماما دول، إنتي من امبارح ماحطتيش حاجة في بؤك.

ردت عليها بزفيرٍ ثقيل:

-وحد ليه نفس ياكل بعد الأخبار اللي بنسمعها؟

ضغطت على شفتيها للحظةٍ، قبل أن تعقب بصوتٍ هادئ:

-إن شاء الله خير.

نظرت "آمنة" إلى ابنتها بعينين تحبسان العبرات فيهما، وأردفت تخاطبها بحزنٍ، وقلبٍ ملتاع:

-قلبي واكلني على أختك أوي، عايزة أكلمها، واطمن عليها.

تنهدت "همسة" قائلة بقليلٍ من الضيق:

-ما هي مش فاتحة نت والله يا ماما من آخر مرة اتكلمت فيها.

اقترحت عليها بتلهفٍ:

-ما نكلمها دولي.

في التو أطلعتها على ما قامت به:

-عملت كده، طلبتها على رقمها لاقيته مقفول...

زادت تعابير القلق على ملامح والدتها؛ لكنها أسرعت بتبرير اختفائها الغريب:

-جايز تكون نايمة لسه، برضوه هي لسه عروسة جديدة، وأكيد مع عريسها.

لم تبدُ والدتها مقتنعة بتلك الحجة المنطقية، ما زال قلبها ينبؤها بأن هناك من الأخبار السيئة ما يحيق بفلذة كبدها، تحركت عيناها نحو السماءِ، ودمدمت هامسة:

-ربنا يسترها عليها وما سمعش عنها اللي يضرها أبدًا.

لجأت "همسة" لتغيير الموضوع حتى تخفف من حدة خوفها، وطلبت منها بوجهٍ جادٍ في قسماته:

-مش يالا بينا نجهز، عشان منتأخرش على الحاج "بدير" وعيلته، ميعاد الزيارة قرب.

هزت رأسها قائلة، ودون أن يقل خوفها درجة:

-أيوه واجب نكون معاهم في الظرف ده.

.................................................................

كالعادة ظل استقبال المشفى يعج بالوافدين، ممن أتوا لتقديم الواجب، والاطمئنان على الحالة الصحية، لحفيد عائلة "سلطان"؛ لكن تحولت بقعة في هذا المكان، إلى منطقة حديث خاصة؛ وكأنها حلقة اجتماعية لإجراء اتفاقات البيع والتجارة، بعد أن تعذر إتمامها في الدكان المحترق. أنهى "منذر" مكالمة

عاجلة مع زوجته، لتعود ملامحه المرتخية للطابع الصلب، استقر في جلسته على المقعد المعدني متسائلاً، وعيناه مثبتتان على وجه والد رفيقه العزيز:

-ها يا حاج "بدير" في جديد؟

كان الأخير قد انتهى لتوه من مخاطبة الطبيب، والذي لم يأتِ على ذكر جديد، بدا الحزن بائنًا على وجهه الذابل، حين أجابه:

-لا والله يا ابني، الدكتور مقالش اللي يريح بيه قلبنا.

علق بتفاؤلٍ:

-إن شاءالله يعدي منها على خير

جاء رده مقتضبًا:

-الله كريم.

استطرد "سراج" قائلاً، ونظرة عابرة حانت منه في اتجاه "هاجر" ورضيعها:

-ما تخلي أهل بيتك يروحوا يا حاج، كفاياهم بهدلة في المستشفيات.

أيده "عوف" في قوله، فتكلم إليه:

-معاك حق يا "سراج"، هما ذنبهم إيه يفضلوا كده؟

بينما أضاف "منذر" مشددًا بلهجة جمعت بين الجدية والرفق:

-ارجع معاهم يا حاج، احنا كلنا هنا واقفين مع "تميم"، مش هانسيبه للحظة، ده أخويا، ومايرضناش نشوفك كده تعبان يا حاج.

هز رأسه بالنفي، قبل أن يخرج صوته قائلاً:

-مقدرش، ده حتة مني.

تحولت نظرات "منذر" نحو الجد "سلطان"، والذي كان يقرأ القرآن بهدوءٍ، في ركنٍ منعزل عن البقية، وأكمل:

-الحاج الكبير محتاج يرتاح بردك.

أخبره في يأسٍ:

-أنا حاولت معاه، هو دماغه أنشف مني.

صمتٌ ثقيل ساد في الأجواء للحظاتٍ، احترامًا لمشاعر الأب الموجوع، بضعة همهمات جانبية خاصة بمناقشات مقتضبة عن الأعمال، إلى أن انضم إليهما "خليل" وزوجته، عاد الصخب بحضورهما، خاصة مع تهليل الرجل المزعج:

-قلبي عندك يا حاج.

انتبه إليه "بدير"، ونظر في اتجاهه مغمغمًا:

-متشكر.

ادعت "حمدية" تجفيفها لدموعٍ غير موجودة بطرف حجابها، وقالت بصوتٍ جاهدًا ليبدو متأثرًا:

-ربنا يسمعنا كل خير قريب، شدة وتزول.

كان رده مقتضبًا أيضًا معها:

-يا رب.

أشـارت بيدها نحو المكان الجالسة به "ونيسة"، وأخبرته بنوعٍ من المواساة:

-هاروح أشوف الحاجة أخد بخاطرها كده، كبـدي عليهـا، قلبهـا أكيـد موجـوع عليه.

علق عليها "خليل"؛ وكأنه يبدي تفهمه لمشاعر الأسرة المهمومة:

-ما هو ضناها يا "حمدية"، شوفي إنتي لما عيل بيسخن شوية بتعملي إيه؟ ما بالك بقى بالمعلم "تميم" واللي حصله!

مصمصت شفتيها متممة:

-أه والله، ربنا ينجيه ويطمنكم عليه.

لم يكـن "بـدير" في مـزاجٍ رائـق يسـمح له بالمماطـلة في أي حـديث؛ وإن كان للشد من أزره، لذا جاء تعليقه مختصرًا للغاية:

-أمين، متشكر ليكم.

انسحبت "حمدية" من التجمع الذكوري، وجلس زوجها برفقة الحاضرين، ملتزمًا غالبية الوقت بالصمت، حينما انتقل الحديث إلى موضوعٍ آخر يخص إدارة الأعمال، وكيفية تغطية الخسائر الفادحة التي لحقت بعائلة "سلطان"، بعد احتراق دكانهم الكبير، وتلف البضائع بداخله. حفظًا لماء الوجه، اقترح "خليل" على مضضٍ، ليظهر اهتمامًا زائفًا بالدعم:

-لو محتاج يا حاج الدكان عندنا تحط فيه البضاعة خده، هو بقى متوضب دلوقتي وآ....

قاطعه "بدير" بهدوءٍ، ليشكره بلطفٍ رافضًا عرضه:

-تسلم يا "خليل"، دكان "سلطان" هيرجع أحسن من الأول.

ارتفعت نبرة "عوف" قليلاً عندما اقترح هو الآخر بجديةٍ غريبة:

-ما تستخدم يا حاج الدكان التاني، اللي "محرز" كان بيودي عليه البضاعة.

ظهرت أمارات الصدمة على وجه "بدير"، وانعكست كذلك على نظراته وهو يردد مدهوشًا:

-دكان تاني؟!!

أوضح له "سراج" بتعجبٍ من جهله عن حقيقة امتلاك نسيبه لدكانٍ كبير:

-أيوه، اللي موجود في (...)، إنت معندكش خبر عنه ولا إيه؟

بنفس الوجه المندهش قال:

-دي أول مرة اسمع عنه منكم دلوقتي.

تطلع "عوف" باستغرابٍ إليه، وواصل القول، كما لو كان يمده بقطع المعلومات الناقصة:

-احنا على طول بنوردله بضاعة على هناك، مش كده يا "سراج"؟

هز رأسه مؤكدًا على حقيقة الأمر:

-مظبوط.

تساءل بوجهٍ متجهمٍ، وعينان تتحركان في ضيقٍ، وكأن أحدهم طرق على رأسه بمطرقة غليظة:

-الكلام ده بقاله أد إيه؟

تبادل "عوف" مع "سراج" نظراتٍ حائرة، قبل أن ينطق الأول:

-أديله سنين.

من بعيدٍ جاء "هيثك" بخطواتٍ متهادية، ألقى التحية على الجميع، وتساءل في اهتمامٍ:

-إيه الأخبار يا رجالة؟ في جديد؟

التفت نحوه "منذر"، وقال:

-لأ لسه يا "هيثم".

حمل وجهه تعبيرًا آسفًا عليه، انتقى مقعدًا شاغرًا، وجلس عليه، ليتابع بعدها سرد ما فعله:

-ربنا يسمعنا كل خير، عمومًا أنا سلمت بضاعة المخازن لسفن البحر، ودي الفواتير.

استدار الحاج "بدير" برأسه في اتجاهه، ونطق بصوتٍ عكس حزنه العميق:

-رمينا عليك الشغل كله يا "هيثم".

رد بتلقائيةٍ:

-أنا متعود على كده.

ربت "منذر" على ظهره، يمتدح جديته التي ظهرت مؤخرًا:

-هو أدها وأدود.

قال "سراج" بلهجةٍ غير مازحة مطلقًا:

-لو في أي حاجة نقصاك عرفني، وأنا هورد من عندي على اسم دكان الحاج "سلطان".

أضاف عليه "منذر" بقامته التي زادت طولاً، حينما استقام في جلسته:

-والنقل من عندنا، العربيات موجودة، توصل لأي حتة عايزينها.

آمن عليهما "عوف":

-مش عايزين حد يتأثر، الناس ملهاش ذنب يتعطل شغلها.

نظرات امتنانٍ تجولت من عيني "بدير" على وجه الرجال المجتمعين من حوله، حقًا حينما تشتد الأزمات، تظهر معادن الرجال الحقيقية، وحوله نخبة ممن يعدون مثالاً للشهامة والأصالة، دمعة فرت إلى طرفه وهو يشكرهم:

-كتر خيركم يا رجالة، أنا مش عارف أقولكم إيه؟

أخبره "منذر" بصدقٍ نابع منه:

-احنا عيلة وأهل، و"تميم" ده أخونا مش بس صاحبي.

منحه نظرة خاصة، تعبر عن محبةٍ صافية، وقال مبتسمًا لهم:

-ده مش جديد عليكم، نردهالكم في الفرح.

صاح "عوف" قاطعًا على نفسه وعدًا:

-نذرًا عليا لما يخرج من هنا لأدبح عجل وأفرقه على الغلابة.

وأضاف عليه "منذر" بحماسٍ أشد:

-2 من عندي كمان.

ابتسامة متفائلة شقت طريقها أخيرًا إلى محياه، فعلق "بدير" برجاءٍ:

-يقوم بس، وبعدين نقلبها جزارة.

لمسةٌ جادة على كتف "منذر" أجبرته على الاستدارة نحو وجه شقيقه، الذي جاء لمقابلته، تحية سريعة أعطاها للرجال، ثم مال على أذنه يهمس له:

-"منذر" عايزك.

استأذن بالذهاب لدقائق بعيدًا عنهم، ووقف به في منطقة شبه هادئة، متسائلاً بوجهٍ مهتم:

-ها عرفت حاجة؟

علامات اليأس انعكس على تعبيرات وجهه وهو يخبره:

-ولا حس ولا خبر عنه، فص ملح وداب ابن الـ....!!

رد عليه "منذر" بنظراتٍ قاتمة:

-مسيره يظهر، ما هو مش هيفضل مستخبي كده كتير، لازمًا هيحتاج فلوس، ما هو مش قاعد على كنز.

كان المقطع الأخير من حديثه منطقيًا، خاصة مع تطور الأحداث بشكلٍ مفاجئ، ودون ترتيب مسبق. هز "دياب" رأسه وهو يكمل:

-وأنا مكلم رجالتنا في كل حتة كان بيروحها، في عين لينا تبلغنا وقت ما يشوفوه.

بتعبيرٍ غامض ومخيف، ينم عن نية مبيتة، لإذاقته أقسى أنواع الألم، اختتم "منذر" حديثه معه:

-هيروح مننا فين؟

..............................................

أسندت يديها المضمومتين في حجرها، وأطرقت رأسها للأسفل في أسفٍ مصطنع، مدعية تراكم الهموم في صدرها، لتبدو مقنعة وهي تدعي حزنها الشديد على فاجعتها. اعتصرت "بثينة" عينيها بقوةٍ طفيفة، لتلتهب حدقتاها، فتظهر وكأنها كانت تبكي عليه، زفيرٌ بطيءٍ تحرر من بين شفتيها، قبل أن تتبعه بقولها:

-قلبي عندك ياختي.

لم تنظر "ونيسة" في اتجاهها، وردت عليها بصوتها المنتحب:

-شوفتي اللي حصله؟

زمت "بثينة" شفتيها متابعة بحزنٍ:

-آه، يا حبة عيني، ده لسه في عز شبابه...

ثم هزت رأسها، وأشارت بيدها نحو ابنتها مواصلة حديثها:

-بعيد عنك أول ما "خلود" سمعت الخبر طبت واقعة منب على الأرض، بقيت محتاسة مش عارفة أعمل معاها إيه؟

لكن ما لبث أن غلف التنمر صوتها، عندما أخبرتها بما يشبه اللوم:

-مع إنه جه عليها جامد، بس هي مخلصهاش، صممت تيجي وتقف جمبه، ما هي كانت بردك مراته في يوم من الأيام.

لم تستسغ تلميحها المبطن، فازدردت ريقها، وغمغمت في تبرمٍ:

-كتر خيرك يا "بثينة"، زي ابنك برضوه.

لوت ثغرها قائلة بامتعاضٍ، لم تخفه:

-أيوه.

.................................................

اضطر أن يتوقف عن قراءته المتأنية في مصحفه الشريف، ليرفع رأسه في اتجاه الظل الذي أطل عليه، لم يبدُ "سلطان" مزعوجًا عند رؤيتها، بل على العكس توقع مجيئها؛ لكنه استغرب من تأخير حضورها، وقفت "خلود" قبالته تطالعه

بنظراتٍ حائرة، دار بنظراته المتعبة عليها، لاحظ تشكل الهالات السوداء أسفل جفنيها، حتى عينيها كانتا منتفختان على الأخير، بالإضافة إلى أنفها المتورم من كثرة البكاء، نهنهة صوتها كانت واضحة عندما سألته:

-"تميم" عامل إيه دلوقتي يا جدي؟

رد بهدوءٍ، وابتسامة رضا تلوح على فمه:

-في نعمة من نعم ربنا.

سألته بتلهفٍ كبير، ودقات قلبها تنتفض:

-يعني فاق؟

هز رأسه نافيًا:

-لأ.

كزت على أسنانها هاتفة بعصبيةٍ، رغم خفوت صوتها؛ كما لو أنها تلومه:

-أومال بتقولي ليه يا جدي إنه بقى كويس؟

رمقها بنظرةٍ صارمة، وقال ببساطةٍ:

-لأنه في معيّة ربنا، واللي مع ربنا في نعمة.

لم تستلذ رده، وصاحت بحسمٍ:

-أنا عايزة أشوفه.

أرجع رأسه للخلف ليحوز على نظرة كاملة لها، وسألها بصوته الهادئ:

-تشوفيه ليه؟

وكأنها قد تعجبت من سؤاله، فردت باستنكارٍ شديد:

-ده جوزي، ولازم أبقى جمبه.

صحح لها خطئها بنبرة خشنة، خالية من التعاطف:

-لأ مش جوزك يا بنت "بثينة"، ولو محتاج حد، فأهله جمبه، هو لسه معدمناش!

اغتاظت من إقصائه لها، فصاحت بحنقٍ، والغضب يتطاير من مقلتيها:

-وأنا من أهله.

جاء رده عليها صارمًا:

-كنتي خلاص، واللي كان عايزه حفيدي وهو واقف على رجليه، هيتنفذ وهو راقد على فرشته كأنه موجود بينا.

لانت نبرتها قليلاً لتستجدي عطفه:

-و"تميم" هايعوز إيه غير إني أخد بالي منه؟

ثم جلست إلى جواره متابعة بتوسلٍ:

-أنا أولى بيه يا جدي من أي حد، أنا حبيبته، أنا حب عمره.

تلك النعومة المزيفة تلاشت مع إكمالها بأنانية واضحة، وبتوحشٍ ظهر في عينيها:

-أنا من دمه ولحمه، أنا مراته، وعمري ما هابعد عنه، "تميم" مكتوب على اسمي، محدش ليه فيه حاجة غيري.

ضجر الجد من ثرثرتها المزعجة، وهتف عاليًا بصوتٍ آمر:

-يا "بثينة"، خدي بنتك اكشفي على عقلها، الظاهر فوت منها خلاص.

..............................................................

بالرغم من عظامها المتألمة، وكدماتها الظاهرة على أجزاءٍ متفرقة في جسدها، واصلت "فيروزة" بحثها عن هاتفها المفقود، لم تجده منذ الصباح، لوهلة ظنت أنها أضاعته، خلال شجاره العنيف مع ذاك الملقب بزوجها، فتشت عنه في حقيبتها، وسؤالٌ بعينه يتردد على لسانها:

-موبايلي راح فين؟

تركت حقيبتها، واتجهت للبحث عنه في باقي أرجاء الغرفة؛ لكن لا أثر له، انتابتها حيرة مغلفة بالخوف، شعرت بجفافٍ مرير يجتاح حلقها، وصوتها يهتف:

-أنا متأكدة إني كنت سايباه هنا.

قفز قلبها فزعًا لاحتمالية استبعدت حدوثها لوهلة؛ لكن ما إن استغرقت في تفكيرها، أزيلت الغشاوة عن عقلها، واتضحت الصورة المنقوصة، ربما خلال غيبوبتها استغل "آسر" الفرصة وسرقه، كان ذلك التعبير الأدق لوصف ما فعله! وذلك لتضييق الخناق عليها، فلا تلجأ بأي صورة ممكنة لأي مساعدة

خارجية، تنجدها من شرور نفسه المريضة، اِربد وجهها بالغضب، وتساءلت في حيرة:

-طب هاعمل إيه دلوقتي؟

غالبت دموع القهر التي ملأت حدقتيها، لتقول لنفسها بنبرة عازمة:

-مهما حاولت تكسرني مش هاتقدر يا "آسر"!

..............................................................

في غفلة من الجميع، تسللت للطابق المتواجد به غرف العناية الفائقة، على أمل رؤيته، بعد أن ضاقت ذرعًا من تلبية أحدهم لرغبتها، تبقت لها عقبة تجاوز الممرضة المسئولة عن متابعة المرضى، حاولت إقناعها بتركها معه بمفردها لبضعةِ لحظات؛ لكن الأخيرة رفضت بشدة، وقالت بنبرة منزعجة، ومترمتة في نفس الوقت:

-يا مدام ماينفعش كده.

بكت "خلود" في حرقةٍ لتسترق قلبها وهي ترجوها:

-أنا مراته و...

انخرطت في بكاءٍ أشد، لتضيف بشهقات متقطعة:

-وأم ابنه.

بدت الممرضة آسفة على حالها، ومع هذا تمسكت برفضها:

-ممنوع يا مدام تتواجدي هنا،ماينفعش!

ألحت عليها بصوتها الباكي، ووجه تعمدت أن يكون وديعًا:

-هو محتاجني، لما هيسمع صوتي هيفوق.

أخبرتها بلهجةٍ أظهرت ترددها:

-لو حد شافك هنا هيحصلي مشكلة.

لامست لين رأسها، فأكدت في لوعةٍ:

-أنا مش هاطول، هما 5 دقايق بس.

على مضضٍ استسلمت المرضة أمام عنادها، وحذرتها:

-ما تزوديش عن كده.

ابتسامة أمل أنارت شفتيها وهي ترد:

-حاضر

أرشدتها المرضة إلى مكانه، وأوصتها مجددًا بعدم إطالة وقت تواجدها معها، منعًا للمشاكل، أومأت برأسها في انصياعٍ، وانتظرت على أحرٍ من الجمر انصرافها لتلج إلى غرفته، نظرة مليئة بالحسرة انتشرت في كامل وجهها، لرؤيته مقيدًا بأسلاكٍ غريبة، موصولة بأجهزة طبية تُتيح للطاقم الطبي متابعة حالته، دنت من فراشه، وقلبها ينبض بقوةٍ، تلمست ذراعه المسنود إلى جوار جسده، خللت أصابعها في كف يده، احتضنته بقوةٍ طفيفة، ورفعته إلى

وجنتها ليلمس جلده بشرتها، كفكفت بيدها الأخرى دموعها، ثم اقتربت برأسها من وجهه الساكن، لتهمس له في أذنه:

-"تميم".. حبيبي، سامعني؟ أنا جيت هنا جمبك.

لم تحرر يده، وتحسست بأناملها ذقنه النابتة، أسبلت عينيها تخبره بصوتها الخفيض:

-إزاي جالهم قلب يعملوا فيك كده، وهما عارفين أد إيه أنا بأحبك؟

تحولت ملامحها إلى العبوس، وأضافت بتجهمٍ:

-أنا مش مسمحاهم... كمان مالهاش حق أمي تشمت فيك.

تلاشى اكفهرار وجهها مع تبريرها لتصرفها الفج:

-بس برضوه لازم أعذرها، هي زعلانة عشاني..

استمرت في مداعبة وجهه، ثم همست له:

-عارف لو إنت كنت معايا، مكانش ده كله حصل يا حبيبي...

انخرطت في دوامة أحلامها الوردية، وأغمضت عينيها لتقول بنبرة حالمة:

-كان زمانا نايمين في حضن بعض، وكان ممكن دلوقتي أكون حامل في ابن تاني لينا بدل اللي راح.

تحرك صدر "تميم" بثقلٍ أصابها بالمفاجأة، هسيسٌ غير مفهوم خرجت من شفتيه الجافتين ينادي:

-"فيروزة"!

لم تتبين كلامه غير الواضح، مالت برأسها عليه أكثر، وسألته بقلبٍ يدق بحماسٍ:

-"تميم" إنت سامعني؟

قربت "خلود" شفتيها من فمه، لتسمعه يهمس باسمها، بحنينٍ لم تختبره يومًا معه:

-"فيروزة"!

اختفت مشاعر الإشفاق عليه، حتى لمعان عينيها بسبب دموعها جف سريعًا، "فيروزة" هذا الاسم البغيض إلى نفسها، من اعتبرتها مفسدة حياتها الرومانسية، ها هو وسط ضلالاته يناديها، حررت يده من أصابعها، ورمقته بنظرة نارية مليئة بالغيظ، ظلت شفتا "تميم" ترتجف بهمهمة اسمها، فخرجت عن شعورها، ووضعت كفيها على كتفيه، تصرخ فيه بجنونٍ:

-بتقول اسمها حتى وإنت بتموت؟ إيييييه؟!!

انفجر غضبها مع صمته المستفز، فهدرت بانفعالٍ شديد، لاكزة إياه:

-خلاص، مافيش إلا هي في دماغك؟

حاولت هز جسده المتصلب خلال صراخها به:

-وأنا فين؟ رد عليا؟ أنا فين في حياتك يا "تميم"؟

اختنق صوتها مع استمرارها في الصياح به:

-أنا مراتك، وبنت خالتك، وأم ابنك، ناسيني ليه؟

عادت مشاعرها التملكية تحتل نبرتها، وهي تطلق عباراتها الغاضبة نحوه:

-إنت جوزي أنا وبس، الزفتة دي خلاص غارت في داهية، معدتش موجودة وسطنا، بتفكر ليه فيها؟ عملالك إيه عشان حتى وإنت راقد كده بتنطق باسمها قصادي؟ تفرق إيه عني؟ واشمعنى أنا لأ؟ كل اللي عملته عشانك محيته في لحظة؟ أنا مراتك، إنت اخترتني عشان أكون ليك من زمان، من قبل ما أعرف يعني إيه حب، ورضيت أكمل معاك بعد سنين من الانتظار، يعني إنت من حقي وبس، قلبك ملكي لوحدي أنا بس، محدش غيري ليه حق فيك!!!

اخترق صوتها المحتد طبلة أذنه وهي تكرر عليه بلهاثٍ منفعل:

-سامعني يا "تميم"؟ إنت جوزي.

خبت عصبيتها مع ترديدها:

-إنت حبيبي، وكل حتة فيك ملكي أنا.

تحركت يدها لتلمس ثغره؛ لكنه أوقفها قبل أن تصل إليه، بالقبض على معصمها، في حركة مفاجئة، أصابتها لحظيًا بشلل مؤقت، اتسعت عيناها على آخرها، وصوته يخرج بطيئًا من بين شفتيه يأمرها:

-إياكي..

بلعت ريقها، وهتفت ببسمة مذهولة:

-"تميم"، أنا مش مصدقة عينيا.

ما كان سائدًا في مجمل مشاعره نحوها، بعد أن استفاق من ظلام عقله، رفضًا قطعيًا لوجودها بقربه، وبصوتٍ جاهد ليخرج ثابتًا، صارمًا، ولا بادرة تردد فيه، أمرها:

-متقربيش مني يا... بنت خالتي...

شهقة غاضبة انفلتت من بين شفتيها المنفرجتين، وقبل أن تفكر في تسول عواطفه، بهذا الشكل المرضي السقيم، حسم وصف علاقته بها، بقوله النهائي الذي لا رجعة فيه:

-إنتي متحرمة عليا، سواء كنت عايش، ولا ميت ............................... !!

.............................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الثالث والسبعون

صراخها الحاد المصحوب بعويلٍ غير مفهوم، اخترق سكونه الإجباري، ليحفزه على إسكاتها، فاستعاد تدريجيًا وعيه؛ لكنها لم تدرك هذا وسط نوبة هياجها، استجمع فكره الضائع، وبدأ عقله التائه في منحه تفسيرًا سريعًا لما يدور حوله؛ وإن لم يلم بالصورة الكاملة بعد، نفس الكلمات المستهلكة، والعبارات الباعثة على النفور تتردد بقوة من حوله، لتذكره بواقعه المؤذي معها، الاهتزازات العنيفة التي أصابت بها جسده، جعلته أكثر يقظة، وتنبهًا لتصرفاتها الخرقاء. شحن "تميم" كامل طاقته الخامدة، ليصل إلى يدها، قبل أن تتمكن من لمسه، لم يفتح جفنيه بعد، فقد كان رافضًا بشدة، أن تحظى بأفضلية أول من تبصره عيناه، بعد انقطاعٍ عن عالمه المألوف، وإن كان لم يدرك بعد، كم مضى عليه في هذا الخمول المرهق.

ارتخت أصابعه عنها، فسحبت "خلود" يدها وهي تكاد لا تصدق نبذه الكريه لاقترابها، تملكها المزيد من الغضب الأهوج، وارتفعت نبرة الحقد في صوتها، فسألته:

-يعني إيه متحرمة عليك؟

لم يفتح عينيه بعد، وأجاب بصوته الهادئ، فأظهر وهنه:

-زي ما سمعتي.

آلام عنيفة اجتاحت جسده وهو يحاول تحريك أطرافه، كتم بصعوبة تأوهاته، حتى لا يظهر بالضعف أمامها، تخلى عن تلك المحاولة ريثما يشحن طاقاته المفقودة؛ لكن صوتها المزعج ضاعف من صداع رأسه، وهي تلومه:

-ليه يا "تميم" كده؟ ده أنا مراتك، أنا...

قاطعها بعصبيةٍ بذل جهدًا كبيرًا خلال ذلك، حتى لا ينعكس في صوته؛ لكنه فشل:

-أنا لسه بعقلي، وأنا طلقتك، اللي بينا خلص من زمان، وكفاية بقى تعبت من الأسطوانة دي.

رنة الصراخ باتت مؤذية أكثر له عن ذي قبل وهي تواصل معاتبته ببكائها:

-حرام عليك، بتعمل فيا كده ليه؟

إكرامًا للماضي، منحها فرصة أخيرة، قبل أن يندفع في تجريحها، بقوله الصارم:

-لو لسه عندك شوية احترام لنفسك امشي من هنا.

كورت قبضتها، وضغطت على أناملها حتى ابيضت مفاصلها، عندما سألته بغيظٍ:

-عايزيني أمشي عشان تفضل تفكر فيها براحتك؟

كانت إلى حد ما محقة في جملتها الأخيرة، ولم يكن ليلومها على هذا، لولا أن أساءت إليه بحديثها الفج:

-خلاص كلت دماغك بنت الـ (...) حتى وإنت بتموت؟

للمرة الأولى اضطر أن يتخلى عن رغبته في عدم رؤيتها، لتماديها في إحراق أعصابه بلغوها المزعج، وإساءاتها المتكررة، خاصة إلى من حُرم الفؤاد من التعلق بها، حدجها بنظرة قاسية، خالية من المحبة، قبل أن يهدر بها مهددًا، بصوتٍ آلم صدره:

-احفظي لسانك لو هتكلمي عنها، وإلا...

سعل بشدةٍ حتى جُرحت أحباله الصوتية، كذلك حركته المفاجئة جعل الألم ينتشر بعنفٍ في أنحاء جسده. استفزها دفاعه عن "فيروزة"؛ وإن لم تعد له، شعرت بغليانٍ يكوي قلبها، فسألته بصوتٍ حاقد، ونظرات نارية:

-وإلا إيه يا "تميم"؟

حرك يده ببطءٍ، وأمرها بصوتٍ لاهث للغاية:

-امشي من هنا.

تجاهلت أمره، وسألته بنفس الصوت الخانق، وعيناها تشتعلان أكثر:

-كل ده عشانها؟

سعل مجددًا وهو يخبرها:

-مايخصكيش...

استطاع أن يشعر بطعم العلقم المرير في جوفه، عندما أكمل جملته بهمسٍ متألم:

-ولا حتى هي تخصني دلوقتي.

فقدت آخر ذرات تحملها، فانفجرت تصرخ فيه بهياجٍ أقوى عن كل مرة، مظهرة شماتة مثيرة للغثيان، وهي تلوح بكفيها أمام وجهه:

-ده إنت تستاهل اللي اتعمل فيك.

اتسعت حدقتاه مصدومًا من ردها الوقح، ومع هذا واصلت الإفصاح عن نواياها الشريرة، بتهديدٍ أشد رعونة:

-ولو كانت قصادي كنت قتلتها بإيديا دول، عشان أشوف قلبك محروق عليها.

عجزت أطرافه عن الاستجابة لرغبته في الانتفاض، والتحرك من تلك الرقدة السقيمة، لطردها من محيطه، ما زال جسده يئن من أوجاعه المُهلكة، وهي كالمجذوبة تُلقي بالملح على جروحه الملتهبة، لتزيد من إحراق روحه المعذبة، لو لم يكن مقيدًا بالجبائر الطبية، لفعل الأسوأ في حقها، متناسيًا ما كان بينهما يومًا، تبقى له صوته ليصيح فيها بخشونةٍ:

-اطلعي برا.

تجاهلت مجددًا، وهدرت تسأله بمرارةٍ كبيرة:

-هي أحسن مني في إيه؟

قست عيناها وهي تلعنها باحتقارٍ:

-دي ماتسواش مداس في رجلي!!

جُرحت أحباله وتقطعت بألمٍ عندما هتف بها:

-امشي من هنا.

قضت على قشة الاحترام الأخيرة، بوقاحتها غير المحدودة، وتلك النظرة الحقود تنطلق من عينيها:

-تصدق بالله، إنت تستحق إنك تكون عاجز كده، متقدرش حتى تقوم من مكانك.

استجمع آخر ما تبقى في صوته المبحوح ليهدر عاليًا، بكل ما فيه من غضب:

-غــــــوري من هنا.

على إثر احتدام أصوات صراخهما، جاءت الممرضة ركضًا إليها، تفاجأت بإفاقة المريض الذي اعتبرت حالته حرجة للغاية، وما أدهشها أكثر اشتباك زوجته معه، توجهت على الفور إلى الأخيرة، تجذبها من كتفيها بعيدًا عنه، وهي ترجوها، بعد أن أدركت حجم المشكلة التي أوقعتها فيها، بسبب عصبيتها الفاضحة:

-يا مدام، اللي بتعمليه ده ما يصحش.

بنظراتٍ شيطانية تابعت "خلود" قائلة، بنوعٍ من الشماتة الحقود، وهي تقاوم الممرضة التي تسعى لإخراجها من المكان:

-تعرف اللي عمل كده فيك، يستاهل فلوس الدنيا كلها.

حدجها "تميم" بنظراتٍ قاتلة، حافظ على صمت، رغم النهجان الظاهر على صدره، لم يعقب عليها، والتفت ناظرًا إلى الطبيب الذي انضم إلى ثلاثتهم، ليبدأ في توبيخ الممرضة لتساهلها مع حالة المريض:

-إيه المهزلة دي؟ مين سمحلها تدخل؟

أنكرت الممرضة في حرجٍ، ووجهها متضرج بحمرةٍ قلقة:

-مش عارفة يا دكتور.

استخدمت كامل قوتها لتبعدها عن فراشه؛ لكن "خلود" أصرت على إفراغ ما في جعبتها من حقدٍ مغلول، فاستأنفت متوعدة إياه:

-وأنا بأقولهالك يا "تميم"، وقصاد الغُرب والقُرب، بحق كل لحظة حبيتك فيها لأخليك تكره اليوم اللي سبتني فيه، وفكرت في الـ(...) دي!

استعانت الممرضة بزميلتها التي جاءت على إثر الصخب العنيف، تعاونت الاثنتان في إزاحتها من مكانها، وإخراجها من الغرفة، ومع ذلك بقي صوتها المرتفع يهدد بشراسةٍ متعاظمة:

-هخلي حياتك جحيم أكتر ما هي، وهتشوف يا ابن خالتي "خلود" هتعمل فيك إيه.

..............................................................

صدمة على كافة المستويات والأصعدة، لم يكن ليتخيل حدوثها أبدًا، أو ارتباطها به؛ لكن التحريات الدقيقة، والنتائج الأخيرة التي توصلت لها الأجهزة

الأمنية، أظهرت تلك الصلة الخفية بين الاثنين، لم يكن "وجدي" ليتصور أبدًا أن رفيقه المقرب، يُدير في الخفاء أعمالاً غير مشروعة. وصمة عار على جبينه، بل وعلى جبين كل من علاقة به، بالطبع لم يخبر "ماهر" عن تلك الأخبار هاتفيًا، أراد أن يطلعه على ذلك شخصيًا، وعلى حسب الموعد المتفق عليه، اجتمع معه في النادي، وهو لا يعرف كيف يفاتحه فيه.

لاحظ "ماهر" الحيرة البادية على وجهه، ناهيك عن الوجوم المنتشر في تقاسيمه، لهذا بادر متسائلاً في اهتمامٍ:

-خير يا "وجدي"؟ كنت عايز تشوفني ضروري ليه؟

سأله مباشرة دون استهلالٍ:

-امتى آخر مرة اتكلمت فيها مع "آسر"؟

صمت للحظاتٍ ليعصر ذاكرته، قبل أن يمنحه الجواب المفسر:

-تقريبًا قبل ما يسافر، وبعتله رسالة أباركله فيها على جوازه من صاحبة "علا".

زم "وجدي" شفتاه لثانية، وعقب بوجومٍ يدعو للريبة:

-طيب.

تفرس "ماهر" في وجهه بنظراته المتشككة وهو يسأله:

-هو في حاجة؟ بتسأل عنه ليه؟

بامتعاضٍ أجابه، دون أن تفتر تعابيره العابسة:

-إنت عارف طبعًا إني شغال على قضية تهريب كبيرة.

هز رأسه مؤمنًا على كلامه، وأضاف:

-أيوه، وبدأت تمسك خيوط فيها.

اقتضب في رده الحذر:

-بالظبط...

تركزت عينا "ماهر" معه، فوراء تردده الملحوظ إيحاءً عظيمًا بكارثة خطيرة، وزاد هاجسه قوة، عندما تكلم بزفيرٍ ثقيل؛ وكأنه يستصعب الأمر:

-ومن ضمن الخيوط دي، اكتشفنا إن في علاقة بين واحد من المتورطين فيها وآ...

في بادئ الأمر، لم يجرؤ على الإفصاح عن هويته، فسأله "ماهر" بفضولٍ مهتم، وقد كان مرتخيًا في تعبيراته:

-مين؟

ثبت أنظاره عليه، ونطق بوجهٍ مكفهرٍ للغاية:

-"آسر".

برزت عيناه في محجريهما لصدمته، وردد في ذهولٍ:

-أوعى يكون قصدك عن آ....

لم يدعه يكمل جملته، وتابع بدلاً منه:

-أيوه هو.. "آسر" صاحبنا.

هتف مذهولاً بتعابيرٍ أشد وطأة في صدمتها:

-طب إزاي؟ أكيد في حاجة غلط! استحالة يكون الكلام ده مظبوط، "آسر" مش من النوعية دي.

كانت ملامحه المتجهمة دليلاً على ضيقه الكبير من الحقيقة الصادمة، ولهذا بدت رنة الحنق واضحة في صوته وهو يعقب عليه:

-أنا عملت زي كده، ماكنتش مصدق، لحد ما اتأكدت بنفسي، بعد ما خدنا أمر من النيابة بتفريغ سجل مكالمات "محرز" من شركة المحمول، كشفنا عن الأرقام، وطلع واحد فيهم بتاع "آسر"، والمكالمات بينهم من زمان.

بعقلٍ رافض للاستيعاب، دمدم "ماهر" بنفس الصوت المذهول:

-استحالة يكون بالوضاعة دي!!

رنة من السخرية، غلفت نبرة "وجدي"، حين قال بكلماتٍ بطيئة متهكمة:

-تخيل إنت بنحكي عن شغلنا قصاده ليل نهار، واللي بنعمله عشان نمسك المهربين، وهو يسمع من هنا، ويظبط عملياته على الأساس ده.

نظر له في أسفٍ، وسأله:

-طيب وهتعمل إيه؟

ظهرت الحيرة على ملامحه وهو يرد:

-لسه مش عارف، ما هو البيه يعتبر هربان برا، وأنا محتاج أجيبه هنا.

صمت الاثنان عن الحديث، ليسترجعا ما كان يجمع ثلاثتهم من صداقة ممتدة، تخللها لحظات فرحة وسرور، ولحظات حزنٍ وهموم. زفر "ماهر" الهواء المحمل بدخان سيجارته المشتعلة، قبل أن ينطق بحنقٍ:

-المصيبة إني كنت فاتحله بيتي، ومأمنه على أختي.

رد في ندمٍ حرج:

-الموضوع ده لطتنا كلنا.

أيده في قوله بإضافة المزيد، باستهجانٍ صريح:

-فعلاً، وجايز يفكروا إننا متورطين فيه، ولا يمكن نكون بنمده بالمعلومات.

رد على مضضٍ:

-ماتستبعدش ده، وخصوصًا إن الكل عارف علاقته بينا.

-أيوه

خرجت كلمته الأخيرة مع إنهائه لسيجارته الأولى، قبل أن يتبعها بأخرى، عل دخانها الحارق يساعده في التنفيس عن الغضب المتجمع في صدره، ارتفعت أنظاره نحو "وجدي" من جديد، وهو يطلب منه برسميةٍ:

-يا ريت يا "ماهر" ماتجيبش سيرة لـ "علا" كمان، مانضمنش تتصرف بتهور، وأنا مش عايزه يشم خبر إننا عرفنا، أو حتى يلاحظ إن في تغيير ولا حاجة في المعاملة، لحد ما نشوف خطة نرجعه بيها للبلد.

علق بتبرمٍ:

-أكيد أنا مش غبي للدرجادي.

تنحنح قبل أن يوضح له:

-لزيادة الحرص مش أكتر.

-تمام.

التفت "وجدي" بعينيه نحو النادل الذي أحضر القهوة إليه، شكره بإيماءة صغيرة من رأسه، تجرعها ببطء، وقد بدا عليه التفكير العميق، نظر في اتجاه رفيقه الذي لم يتوقف عن إحراق السجائر واحدة تلو الأخرى، حرر الهواء المعبق بالدخان من رئتيه، واستطرد مجددًا:

-لازم نفكر سوا عشان نقدر نجر رجله ونخليه ينزل.

بالرغم من الكدر المنتشر في عينيه، أردف "ماهر" قائلاً بغموضٍ:

-في دماغي كده فكرة لو ظبطت، جايز تنفع.

تطلع إليه "وجدي" باهتمامٍ، وحثه على مشاركته أفكاره طالبًا منه:

-قولي عليها.

لم يرف جفناه وهو يحرك فكه لينطق:

-"فيروزة" صاحبة "علا"، أكيد هي زيها، متعرفش حاجة عنه.

في سخرية مريرة علق عليه صديقه:

-ده أكيد، إذا كنا احنا صحابه مكوناش عارفين إنه من موردين المخدرات، هي هتعرف إزاي؟

بلمحة من الثقة واصل القول، وقد بدأت معالم الخطة في التشكل في عقله:

-طرف الخيط هايكون من عندها.

بدا الأمر مشوقًا، فظلت أنظاره المهتمة مرتكزة عليه، بينما تابع "ماهر" بلهجة عملية بحتة، وقد برقت عيناه على الأخير:

-صدقني، لو ظبطنا الحكاية صح، نهايته هاتكون على إيد مراته.

..........................................................................

الحظ لا يطرق الباب مرتين! لكن معها اختلف الأمر، ربما لأنها كانت مضطهدة للغاية، فأشفق ذاك الغريب عليها، أو لأنها بالفعل تستحق فرصة للنجاة من الجحيم الذي أوقعت نفسها فيه. لحظات من الصمت الشارد، كان كل ما حصلت عليه، بعد بقائها بمفردها، وإدراكها أنها أصبحت سجينته العاجزة، حاولت "فيروزة" الهروب من قساوة حياتها، بسرحانها الحزين في ذكريات مليئة بالسعادة، جمعتها مع عائلتها، جعلت عيناها تستدعي الدموع إليها. تلقائيًا وجدته يقتحم ذكرياتها الخاصة، بوجه ذي الملامح الجادة، وصفاته المفعمة

بالرجولة، وكأنه السلوى لها، في عالم خلى من أمثاله، استنكرت لجوء عقلها للتفكير في "تميم"، بل ومقارنته بمن يحمل لقب زوجها، حقًا المقارنة مجحفة وفي غير محلها!

ذاك الوضيع الذي لعن جسدها بازدرائه المهين، وإهاناته الجارحة، جعل ثقتها تتزعزع، تحركت يدها المستريحة على كتفها، لتهبط للأسفل قليلاً؛ حيث ندوب الماضي المحفورة على جلدها، ارتجفت وهي تتلمس بأطرافِ أناملها، ما وصفه بأنه تشوه متقيح، يحفز النفس على التقيؤ، عند التطلع إليه، أطبقت على جفنيها في حسرة، والدموع تهمر منها، طرقة ثابتة على باب المنزل جعلتها تتجمد في جلستها، تخشبت، وفتحت عينيها لتحدق فيه بتوترٍ.

كانت فاقدة لقدرتها على مجابهته، تحتاج لبعض الوقت لاستعادة ضبط انفعالاتها، بعد ما تكبدته من معاناة متواصلة، طرق باب المنزل مجددًا، فانتفضت "فيروزة" في مكانها، لم تطء غرفة النوم منذ أن خرجت منها، بقيت جالسة على الأريكة الوحيدة الموجودة بالصالة، استقامت في جلستها، ونظرت إلى الباب بعينين فارغتين، استمر الطرق الحذر عليه، فأجبرت نفسها على النهوض، وسارت ببطءٍ في اتجاهه، تسمرت في مكانها، وقد أتاها صوتًا ذكوريًا يخبرها من الخارج باللغة الانجليزية:

-أعلم أنكِ بالداخل، سيدتي.

مشيت على أطراف أصابعها لتصل إلى الباب، ألصقت كفيها به، ومالت برأسها نحوه، ثم أرهفت السمع إلى الصوت الذي واصل القول:

-وزوجك ليس متواجدًا معكِ.

تفاجأت من تصريحه، وشعرت بدقات قلبها ترتفع في صدرها من رهبتها، استجمعت نفسها، وسألته باهتزازة بائنة في صوتها:

-من أنت؟

أجابها بصوتٍ ثابت، باعث على الهدوء:

-أنا حارس البناية الأمني، من تحدث معكِ قبل قليل.

دون تفكيرٍ سألته، وعيناها تتحركان في توترٍ:

-وماذا تريد؟

طلب منها بلطفٍ:

-رجاءً افتحي الباب لنتكلم بالداخل...

وقبل أن ترد عليه أضاف بلهجةٍ شبه جادة:

-فالأمر هام، ويخصك...

بلعت ريقها، وسألته:

-كيف؟

أجابها بلكنة عربيةٍ حاول أن تبدو مفهومة لها:

-اعلم أن زوجك اعتدى عليكِ بالضرب، كان هذا واضحًا، وأنا جئت لمساعدتك.

خفق قلبها بقوةٍ، وقبل أن ترفض مساعدته، أصر عليها:

-لا تقلقي، سيبقى الأمر سرًا، أؤكد لكِ هذا.

ترددت في قرارها، وأخبرته بحرجٍ كبير:

-للأسف، لا أملك المفتاح، فأنا محبوسة هنا.

ببساطة أعلمها:

-لا تقلقي، معي نسخة احتياطية، فقط إن سمحتِ لي.

تصريحه الغريب أشعرها بأن قدومه إليها مقصودًا، استغرقت في تفكيرها الحائر، فشردت عن منحه الرد، وحين طال صمتها سألها بتهذيبٍ:

-سيدتي! هل أنتِ معي؟

تنبهت له، وقالت على عجالةٍ:

-نعم.

كرر عليها طلبه، بإلحاحٍ أشد:

-هل تسمحي لي بالدخول؟ أنا حقًا أريد مساعدتك، هل توافقين؟

ولأن فضولها غلب مخاوفها أجابته:

-نعم، لحظة واحدة.

استدارت بجسدها، تفتش بعينيها سريعًا، عن عباءتها التي انتزعتها، بعد رحيل الحقير "آسر"، وجدتها ملقاة بإهمالٍ على مسند الأريكة، سارت على مهلٍ في اتجاهها، وارتدتها حول جسدها الذي برزت فيه كدماته الزرقاء بوضوحٍ، ضغطت على شفتيها كاتمة أنات الألم، ثم عادت إليه بعد دقائق لم يتعجلها بها، وقفت على بعد خطواتٍ من الباب تهتف من ورائه، بقلبٍ يخفق بشدة:

-تفضل، يمكنك الدخول الآن.

.......................................................

الغليان الذي استعر في صدرها، كان الحافز المثالي، لتحريك دوافعها الانتقامية منه، وها قد بدأت في الشروع في تنفيذ مخططاتها الإجرامية، بعد تفكيرٍ عميق، استغرقها ليالٍ طويلة، رسمت في ساعاتها الممتدة، تفاصيل كل شيء، ليكون انتقامها موجعًا حتى النخاع. توقفت "حمدية" أمام باب المنزل الخشبي، ترمقه من خلف الساتر القماشي الأسود الذي يحجب كامل وجهها بنظراتِ ازدراءٍ كبيرة، لجأت لارتداء النقاب عن عمدٍ، ليكون وسيلتها المضمونة للتخفي السريع عن الأعين، فرغبتها في اختراق بيته الآخر، دون إثارة الشكوك كان واضحًا في تصرفها هذا. كتمت غضبها، ورفعت يدها لتطرق على الشراع الزجاجي، اِربد وجهها بالغضب مع سماعها لصوتٍ ناعم يقول من الداخل:

-أيوه يا اللي بتخبط.

جاهدت لتثبط من أي علامات للانفعال، حتى لا تثير الريبة، وانتظرت على جمرٍ متقد فتح ضرتها لها، وما إن ظهرت قبالتها حتى صعدت الدماء الفائرة إلى رأسها، وغزت كل عروقها لتحفزها على قتلها الآن وفي التو؛ لكنها قاومت رغبتها الدموية، واحتفظت بثباتٍ تُحسد عليه، استقبلتها "سماح" بتعابيرٍ جادة، ونبرة متسائلة في حيرة:

-إنتي مين يا حاجة؟

نظرة دقيقة بطيئة جالت عليها من رأسها لأخمص قدميها؛ وكأنها تقيمها بها، لترى الفارق بينهما، لم تكن بامرأة خارقة الجمال، كانت في مقياسها عادية للغاية، لا ترتقي لإثارة اهتمام الرجال، ومع هذا نجحت تلك اللعوب في استدراج زوجها، وإيقاعه في حبائلها ليتزوج بها، بل ويحتفظ بسر زواجه منها لسنواتٍ طويلة. ضاقت عينا "سماح" عليها، وسألتها بنفاذِ صبرٍ:

-إنتي تايهة ولا حاجة؟

أجابت "حمدية" بكذبٍ ملفق، يشوبه هدوء عجيب، مغاير للحقد الشديد المتغلغل فيها:

-أنا أبقى "آمنة".. أخت سي "خليل" جوزك ............................ !!

............................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الرابع والسبعون

لحظاتٍ من الذهول أصابتها، استفاقت منها سريعًا، ليرتفع حاجباها للأعلى في صدمةٍ، تخللتها علامات الفرحة الواضحة، فعلى عتبة باب منزلها، تقف شقيقة زوجها تنتظر استقبالها لها .. وبحركاتٍ لا إرادية مسحت "سماح" على عباءتها المنزلية لتفرد قماشها المجعد، وهتفت مرحبة بها بحرارةٍ شديدة، وهي تتنحى للجانب قليلاً، لتتمكن من إفساح المجال لها، للمرور للداخل:

-يا 100 مليون مرحبًا، نورتي البيت يا ست "آمنة".

لم تزح "حمدية" حجاب وجهها عنها، احتفظت به عليها ريثما تلج لمنزلها، لتضمن عدم رؤية أحدهم لها، ولو مصادفةً؛ كانت حريصة كل الحرص على إخفاء هويتها. تنحنحت وهي ترفع البرقع عنها، لتقول بعدها كنوعٍ من المجاملة، ويدها تحمل كيسًا بلاستيكًا:

-البيت منور بأهله.

سبقتها "سماح" في خطواتها، لتقترب من إحدى الأرائك، نفضتها بيدها لتزيح أي أتربة عالقة فيها، أو شوائب صغيرة، ودعتها للجلوس، بنفس الود الكبير:

-اتفضلي هنا يا غالية.

رسمت ضرتها ابتسامة محبة زائفة على ثغرها، وتحركت في اتجاهها، وعيناها تحملقان بها بغموضٍ؛ وكأنها تدرس تفاصيلها، لترد بعدها بإيجازٍ:

-كتر خيرك.

مقارنة سريعة عقدها عقلها بينها وبين تلك المرأة، اعتبرتها لا ترتقي لمقياس السحر الأنثوي، ولا تستحق النظر إليها؛ فلم تكن تملك من الجمال إلا قدرًا قليلاً، جسدها ممتلئ، غير متناسق المنحنيات، ربما بشرتها أفتح بقدرٍ بسيط، الفارق الجدي الملحوظ بينهما هو اختلاف أعمارهما، فـ "سماح" تصغرها بعشرةِ أعوامٍ على أقل تقدير. انتبهت "حمدية" لنظراتها الزائدة، وأبعدت عيناها عنها، لتعلق بابتسامة صغيرة، وهي تسند الكيس البلاستيكي إلى جوارها:

-ماشاءالله ياختي، بيتك زي الفل...

صاحب كلامها نظرات متأنية، مسحت بها تفاصيل المكان، وجاهدت كذلك أن تخفي ازدرائها فيها، على المنزل البسيط، الذي لا يحوي إلا أثاثًا زهيد السعر. عادت لتحدق في وجه مُضيفتها، وادعت كذبًا بابتسامة بدت إلى حد ما متقنة:

-الصراحة يرد الروح، مش زي بيوت تانية تخشيها يقبض نفسك.

ضحكت عاليًا، وعقبت عليها وهي تجلس على الأريكة المجاورة لها:

-الله يكرمك يا رب، ده من ذوقك والله...

ثم صمتت للحظة، لتضيف بعدها، بمزيدٍ من المدح:

-وربنا "خليل" ما ليه إلا سيرتك على لسانه طول اليوم، وأنا كان نفسي- أوي اتعرف عليكي ...

غلف العبوس تعابير "حمدية"، ولم يكن هذا كذبًا، بل صادقًا بدرجة كبيرة، لتعاظم حقدها بداخلها، غالبته بصعوبة، ثم مصمصت شفتيها، قبل أن تتابع بتنهيدة بدت آسفة:

-بس نقول إيه الظروف بقى.

تمتمت "سماح" بسمةٍ لطيفة:

-الحمدلله.

ضاقت عينا "حمدية"، وأكملت بنبرة تميل للوم:

-مالوش حق جوزك يخبي عليا.

أخبرتها بزفيرٍ مهموم:

-هو اتفق معايا على كده، مانجيبش سيرة لحد من طرفه، مع إن الحكاية دي ضايقتني أوي.

علقت عليها بتذمرٍ:

-هو أنا أي حد؟

ولتبدو مقنعة أكثر في تمثيل دورها، أضافت أيضًا، متجاهلة الغليان الحارق لصدرها:

-وبعدين هاكره لأخويا الخير؟ ده إنتي زي العسل وحلوة ونغشة كده.

كركرت "سماح" ضاحكة على إثنائها، وردت مجاملة:

-ده من ذوقك يا ست "آمنة"، ياما كان نفسي أشوفك من زمان والله.

جاء ردها لطيفًا بشكلٍ مغاير للنيران المحتدمة بداخلها:

-القلوب عند بعضها يا حبيبتي.

لحظة من الصمت سادت بين الاثنتين، قطعتها "حمدية" بقولها الهادئ:

-بس مكدبش عليكي، أنا زعلت أوي لما قالي على جوازته منك، وكانت بالصدفة.

اكتسبت نبرتها إيقاعًا منزعجًا وهي تحادثها:

-هايعمل إيه بس؟ غصب عننا ...

لكن ما لبث صوتها أن تحول للحنق، عندما استكملت جملتها:

-كله من بوز الإخص مراته اللي ماتتسماش، منها لله قرفاه ليل ونهار، إن ما بيقول كلمة حلوة عنها أبدًا، أعوذُ بالله، ست ماتتعاشرش، يتفاتلها بلاد، ما إنتي أكيد عارفاها أكتر مني.

اشتعلت حدقتاها في غضبٍ، لسماعها تلك الإساءات المهينة في حقها، أخفضت أنظارها حتى لا ينكشف أمرها، وعقبت بزفيرٍ ثقيل:

-آه عارفاها.

ضحكة مفتعلة انفلتت من بين شفتي "سماح"، تبعها سؤالها:

-قعدتك الحلوة لهتني، ها قوليلي تشربي إيه؟

من الجيد أنها كانت بارعة في إخفاء مشاعرها المغتاظة، وإلا لفسد ما تخطط له، رسمت "حمدية" تلك الابتسامة الودودة على محياها، وقالت:

-مالوش لزوم، ده أنا جاية أقعد معاكي.

نهضت "سماح" واقفة، وهتفت في سرورٍ:

-ودي تيجي بردك؟ ده إنتي أول مرة مشرفاني، يا ريتني كنت أعرف من قبلها، كنت فرشتلك الحارة رمل وورد.

احتفظت بابتسامتها المشرقة، لترد بإيماءة استحسان من رأسها:

-أدها ياختي.

كررت عليها سؤالها في اهتمامٍ:

-أعملك إيه؟

أشارت بعينيها نحو الكيس الذي جاءت به، وأخبرتها بنفس البسمة الهادئة:

-شوية شاي كده، أهوو ناكلهم مع الكيكة اللي عملتهالكم بإيدي.

هللت "سماح" في اندهاشٍ فرح:

-وكمان تاعبة نفسك؟

خدعتها بقولها الزائف، لتبدو حقًا كشقيقته "آمنة":

-أكيد "خليل" قالك إن نفسي في الأكل حلو.

هزت رأسها بالإيجاب وهي تنطق في تبرمٍ:

-أومال، ده بيقولي على طول إنتي اللي بتطبخيله، بدل وش البومة اللي متجوزها.

سبة لعينة كانت على وشك الإفلات من حلقها، منعتها في اللحظة الأخيرة، وأردفت بنفسٍ عميق، وكلماتٍ بطيئة:

-أه يا.. حبيبتي، ده أنا.. شيلاه على كفوف الراحة، هو أنا عندي غيره سندي؟

نظرت لها قائلة بما يشبه الدعاء:

-ربنا يخليكوا لبعض.

أمرتها "حمدية" بجدية، وقد شرعت في إزاحة الكيس البلاستيكي، عن العلبة الصغيرة المغلقة الموضوعة بداخله:

-علقيلنا على الشاي، وهاتي طبقين من عندك عشان ناكل فيهم...

نظراتها الخبيثة تلونت بلمعانٍ مثير وهي تتم جملتها:

-ويا رب تعجبك.

لم تشكك أبدًا في نواياها الشريرة، وهتفت بترحيبٍ شديد:

-من غير حاجة عجباني يا ست "آمنة"، ده كفاية إنها منك.

اكتفت الأخيرة بهزة بسيطة من رأسها، ثم تحركت أنظارها في اتجاه الطفلة الصغيرة التي ظهرت أمامها، وبقيت لهنيهة مثبتة عليها. خطت "سماح" في اتجاه ابنتها، حينما رأت عيني ضيفتها عليها، أمسكت بذراعها، لتجذبها منه، وهي تقول:

-بت يا "كوكي"، تعالي سلمي على عمتك "آمنة".

بابتسامةٍ مهزوزة نطقت "حمدية"، وشعورها بالغيرة القاتلة ينهش فيها:

-ما شاء الله، دي بقى بنته؟

عرفتها بها، دون احتسابٍ، لسوء عواقب نواياها الطيبة:

-أيوه، "رقية"، وبناديها "كوكي".

على مضضٍ علقت عليها:

-ربنا يخلي...

لازمتها نظراتها القوية، تدرس كل تفصيلة في ملامحها البريئة، إلى أن وقفت قبالتها، فاضطرت مرغمة، أن تحتضنها بكرهٍ شديد، أخفته بمزيدٍ من الجهد، أبعدتها عنها، وناولتها قطعة من الكعكة التي خبزتها لتأكلها الصغيرة، وأردفت قائلة:

-بنتك شبهك إنتي أوي

ردت "سماح" وهي توليها ظهرها:

-أه طلعالي، الكل بيقول كده.

برزت أسنان "حمدية" أكثر، وقد رأت الصغيرة تقطم قطعة من الكعكة، شجعتها لتناولها، بهسيسٍ أقرب لفحيح الأفعى:

-عايزاكي تخلصيها كلها، عشان أبوكي "خليل" يتبسط منك.

دمدمت الصغيرة "رقية" ببراءة:

-حاضر.

تخشبت "حمدية" في جلستها، وجحظت عيناها بشدة، عندما سمعت صوت قرع الجرس، هوى قلبها بين قدميها، وهربت الدماء من وجهها، معتقدة أن زوجها الخائن قد حضر على غير موعده، رغم تأكيد الأخير استغراقه اليوم في عمله لساعات متأخرة، بسبب أعمال الجرد المكلف بها، شيعت "سماح" بنظراتٍ متجمدة، وقد هللت عاليًا، وهي تتجه نحو باب المنزل:

-جاية أهوو.

حبست أنفاسها في ترقبٍ مرتعد، ما لبث أن تبدد بمجرد أن لمحت إحدى السيدات تقف أمام الباب، وصوت "سماح" المرحب يردد:

-إزيك يا ست "أم دعاء"؟

قالت الجارة في حرجٍ، ووجهها يعكس توترًا غريبًا:

-بخير يا حبيبتي، معلش ياختي هاعطلك شوية، وإنتي باين عليكي مشغولة، وعندك ضيوف.

تلقائيًا التفت "سماح" برأسها نحو "حمدية"، وعرفت بها بفخرٍ بائن:

-ده مافيش حد غريب، دي الست "آمنة"، أخت "خليل" جوزي، جت تشوفنا، وتسلم على بنته.

هتفت الجارة بترحيبٍ:

-منورة يا حاجة.

اقتضبت "حمدية" في ردها عليها:

-تسلمي

وجهت "أم دعاء" حديثها لجارتها بلهجة جادة، وقد بدت مشتتة الذهن إلى حد ما:

-بصي يا "سماح"، هاتقل عليكي شوية، ده مفتاح الشقة، بعيد عندك أمي حجزوها في الحميات، وأنا رايحة عندها، واحتمال أبات هناك...

قاطعتها الأخيرة في أسفٍ:

-يا ساتر يا رب، ألف سلامة عليها، دي كانت زي الفل.

غامت تعابير الأولى، وتابعت بحسرةٍ ظاهرة على تقاسيمها:

-الحمدلله على كل حال، لسه هانشوف الدكاترة هايقولوا إيه، وربنا عليه جبر الخواطر.

ربتت "سماح" على كتفها كنوعٍ من المواساة، بينما أضافت جارتها تستأذنها على عجالةٍ:

-المهم يعني البت "دعاء" بنتي لسه في الدرس ومرجعتش، طلبتها على موبايلها، ماردتش عليا، وأبوها عنده وردية لمتأخر، فلو جت وخبطت عليكي اديها المفتاح، أنا هاقولها تعدي عليكي لما تكلمني.

تكلمت على الفور مبدية قبولها:

-وماله ياختي، بيتها، تيجي في أي وقت، أنا مش رايحة في حتة.

شكرتها بامتنانٍ كبير:

-تعيشي ياحبيبتي، ده العشم برضوه.

دعت لها "سماح" بنبرة راجية:

-ربنا يطمنك على الحاجة، ويشفي عنها يا قادر يا كريم.

اختتمت الجارة حديثها معها، فقالت:

-يا رب أمين، ومايوقعكيش في ضيقة أبدًا، فوتك بعافية.

ردت بعبارةٍ مجاملة:

-يعافيكي يا حبيبتي من كل سوء.

وقبل أن تغلق باب المنزل، أتاها صوت جارتها العالي قائلاً:

-سلمي على ضيفتك بقى.

أخبرتها بإشارة من رأسها:

-يوصل يا "أم دعاء".

انتظرتها حتى هبطت بضعة درجات من السلم، لتغلق الباب، واستدارت بجسدها تستعد للذهاب إلى المطبخ؛ لكن فضول "حمدية" استوقفها بسؤالها:

-في حاجة؟

أجابت نافية، وبابتسامة عادية:

-لأكله تمام، دي جارتي كانت قصداني في خدمة على السريع.

لم تعد مهتمة بمعرفة التفاصيل، طالما أن الأمر لا يُعارض تنفيذ مخططتها الدنيء، عادت توزع ابتساماتها عليها، وطلبت منها:

-طيب يالا ياختي، اعمليلنا شوية الشاي، عشان ألحق أقعد معاكي قبل ما أنزل.

هتفت "سماح" بنفس الترحيب الذي لم ينتقص منه شيء:

-ده إنتي منوراني النهاردة...

وقبل أن تواصل السير، لوحت بذراعها تخبرها:

-وبعدين الزيارة دي ماتتحسبش، دي زي ما بيقولوا أعدة تعارف.

رغم اللهيب المشتعل بداخلها، إلا أنها احتفظت بنفس الملامح الوديعة، وردت بهدوءٍ مريب، بدا وكأنه يسبق حقًا عاصفة كاسحة:

-أيوه، الجايات أكتر من الريحات.

..................................................

أول درجات الثقة بينهما، وربما البداية الجادة للإقدام على فعل المزيد، كانت في تركه يفتح الباب، بالنسخة الاحتياطية التي يحتفظ بها، لاستخدامها عند الطوارئ. أبقت "فيروزة" على مسافة بينها وبين الحارس الأمني، والذي بدا على نحوٍ غير عادي مهتمًا بأمرها .. بلعت ريقًا غير موجود بجوفها، وأشارت له بيدها نحو الأريكة الوحيدة بالمكان، قبل أن تستطرد قائلة بلغة انجليزية بسيطة:

-تفضل.

هز رأسه باهتزازة صغيرة، وقال راسمًا على محياه، ابتسامةٍ صغيرة، يمحو بها أي بوادر خوفٍ أو توتر:

-شكرًا لكِ سيدتي.

تقدم الرجل ما يقرب من خمسة خطوات، وتوقف في مكانه، رافضًا الجلوس إلى حيث أشارت، ليستطرد بعدها بصوتٍ عميق، كنوعٍ من الاستهلال المطمئن:

-في البداية، أود أن أخبرك أني أتحدث القليل من العربية، مع الانجليزية، فلن تكون هناك مشكلة في التواصل بيننا.

رمشت بعينيها وهي ترد:

-حسنًا.

وضع يده على صدره مضيفًا:

-كذلك أريد التعريف بشخصي، أنا أدعى "كاران"، وأعمل كحارس أمني هنا.

رحبت به بعبارة بسيطة:

-أهلاً بك.

غطى وجهه تعابيرًا جادة، وهو يتابع بنفس اللهجة الثابتة، وببطءٍ متعمد لتفهم مقصده:

-لكن قبل أن انتقل للحديث بشأن سبب زيارتي، أريد أن أوضح لكِ أنه قبل التحاقي بوظيفتي الحالية، كنت أعمل في أحد مراكز التأهيل الخاصة بالنساء المعنفات.

بدت بعض المصطلحات غريبة على مسامعها، فسألته:

-اعذرني، لا أفهم.

حاول أن يفسر لها الأمر بلغتها الأم، فقال على مهلٍ:

-إنها إحدى المؤسسات المتخصصات، في رعاية السيدات اللاتي تعرضن، لأنواع من الإيذاء البدني والنفسي.

قطبت جبينها بتوجسٍ، وتقلصت عضلات وجهها أيضًا، وقد أشار نحوها مستأنفًا كلامه بتوضيح مكشوف:

-وما أراه الآن، يخبرني أنكِ إحدى ضحايا هؤلاء الأزواج القساة.

خفق قلبها في خوفٍ، وهتفت بصوتٍ مهتز:

-سيد "كاران"...

قاطعها بلطفٍ حين لاحظ أنها أجفلت، محاولاً تهدئة روعها قبل أن يتفاقم لاعتراضٍ مُعاند، ربما لا ينفعها:

-لا داعي لتبرير الأسباب، أنا جئت لمساعدتك، فقط عليكِ أن تثقي بي.

أطبقت على شفتيها، تصارع مع نفسها أفكارها المتناطحة بعقلها؛ فهناك ما يحثها على القبول بمساعدته، وأخرى تشدد عليها باتباع خطة ترسم معالمها بنفسها، انتشلها من استغراقها الواضح في التفكير، بقوله:

-ولا أنتظر أي مقابل، هذا واجبي سيدتي.

اعترضت بترددٍ:

-لكن..

من جديد قاطعها بمنطقيةٍ، مظهرًا لها الجانب السلبي لتخاذلها:

-صدقيني، صمتك عن تلك الإساءة الشرسة، سيدفعه لارتكاب المزيد، وربما تكون هناك ضحية غيرك، إن فرغ منك!

حقًا كانت على وشك الانهيار، ورؤية الوجه البشع لـ "آسر"، خلال استحضارها لوحشيته، المصحوبة باحتقاره المهين، قضت على آخر حصون تماسكها، اغرورقت عيناها سريعًا بالدموع الساخنة، وهتفت بشهقاتٍ متقطعة:

-أنا في ورطة كبيرة، وأريد الخروج من هنا، لكني لا أستطيع، ليس الآن.

ترددها لم يكن محسوسًا في صوتها، بل ظهر على انتفاضة جسدها، سألها "كاران" في استغرابٍ، وقد بدا معتادًا على عزوف بعض النساء المعنفات، عن المطالبة بحقوقهن المهدورة:

-وما الذي يمنعك؟

كفكفت دموعها بظهر يدها، وهي ترد بتلقائية:

-ظروف

استطاع أن يفهم كلمتها المنطوقة بالعامية، وأخبرها بعقلانية علها ترضخ لمساعدته الجادة:

-سيدتي بقاءك مع رجل عنيف كهذا، لن يتسبب إلا في إيذائك أكثر، صدقيني، من خبرتي الطويلة، وخلال ما رأيت طوال فترة عملي في مؤسستي السابقة، أعلم أن أمثال زوجك لا يتغيرون مطلقًا، القليل جدًا يتحسنون؛

لكن الغالبية العظمى تمارس العنف بشتى الطرق، ولن تنجي مع وحشيته المستمرة، عند نقطة ما ستنهارين.

قرأ في نظراتها المشتتة حيرتها، وتابع بصوتٍ أكثر جدية:

-إذا أردتِ الخروج من هنا، يمكنني أن أوفر لك كل المساعدة المطلوبة.

نظرت إليه بعمقٍ؛ وكأنها تفكر مليًا في كل كلمة نطق بها، وتلك المرة لم يدفعها للتكلم، منحها الوقت الكافي للتفكير، إلى أن قالت أخيرًا:

-هل يمكن أن أحصل على هاتف محمول حديث الطراز؟

هز رأسه مدمدمًا:

-يمكنني توفير واحدًا لك.

أخبرته بكلماتٍ حاولت أن تبدو جيدة في السياق:

-سأدفع لك، لا تقلق؛ ولكن بإعطاءك قطعة من ذهبي الخاص.

ابتسامة ودودة احتلت ثغره عندما خاطبها:

-سيدتي، لا توجد مشكلة عندي في النقود، المهم حاليًا إخراجك من هنا.

فركت "فيروزة" أصابع يدها معًا، وسألته بلغتها الأم؛ وكأنها للحظة تناست أنه يختلف عنها في الجنسية، واللغة:

-حاجة تانية عايزاها منك تعملهالي، ممكن؟

لم يجد صعوبة في فهمها، ورد بنفس الوجه المبتسم:

-تفضلي.

سحبت شهيقًا عميقًا، استعانت به لتثبط من الانفعالات المتواترة التي انتابتها، لفظته على مهلٍ، وسألته بنبرة بطيئة، وبجملٍ مباشرة تعطيه المعنى المقصود:

-هل يمكن أن أصل لسفارة بلادي؟ أحتاج للتواصل مع أحدهم هناك، بصفة سرية.

منحها رده الموافق بإخبارها:

-لا بأس، سأتدبر الأمر.

شعور بالارتياح عرف الطريق إليها، حتى أنها لم تدرك أنها تبتسم وهي تقول:

-سيد "كاران" لا أعرف كيف أشكرك.

جاء رده عليها ناصحًا، ومحذرًا في نفس الآن:

-لم أفعل شيء بعد، ونصيحتي لك حاولي أن تتجنبي الاحتكاك المباشر به، إن استفزك في أمرٍ ما، أظهري له أنكِ ضعيفة، مستسلمة لأمرك، حتمًا سينجح هذا في خداعه.

هزت رأسها مؤكدة:

-سأفعل هذا.

أخبرها "كاران" وهو يتحرك في اتجاه باب المنزل:

-وسأكون على تواصل دائم معكِ.

تبعته بتؤدةٍ، وصوتها الممتن يقول له:

-شكرًا لك مرة أخرى.

استدار ليواجهها، قبل أن يشير لقفل الباب وهو يضيف:

-ساضطر لأوصده كما كان، حتى لا يرتاب زوجك.

تيقنت من تصرفه البديهي، أنه يتعامل مع وضعها الحرج، بذكاءٍ لا محل للتشكيك فيه، حركت رأسها وهي ترد عليه:

-طيب.

نظر لها بعدمِ فهمٍ، فصححت له:

-أقصد حسنًا

ودعها بتهذيبٍ كبير:

-مسرور لرؤيتك سيدتي.

أخبرته باسمها بعد أن أدركت أنها لم تفعل سابقًا:

-أنا أدعى "فيروزة".

حاول نطقه، فقال بتلعثمٍ طفيف:

-"فـ.. فاروزا"؟

رددته مجددًا ببطءٍ، ليستوعب نطقه الصحيح:

-"فيروزة".

هز رأسه، ووعدها بنبرةٍ، أدركت منها أنه جاد في نواياه:

-اعتذر، سأحاول أن أنطقه بصورة صحيحة في المرة القادمة، حين أحضر لكِ ما تريدين.

لم تعلق عليه، وتراجعت للخلف، ليتمكن من إغلاق الباب، لتغدو وحيدة في غربتها الموحشة، مع اختلاف كبير، أنها لن تستمر طويلاً!

.................................................................

فحصٌ شامل أجراه الطبيب، ومن معه من طاقم طبي، ليتم الوقوف على التطور الطارئ في حالة المريض، والتي شهدت سابقة نادرة قليلاً ما تحدث، في محيطه العلمي، وما إن انتهى من كتابة ملحوظاته، في التقرير المعلق على حافة فراشه، حتى عاد إلى مريضه، أرجأ إخباره بكافة الأخبار غير السارة، إلى أن تكتمل النتائج بين يديه؛ لكن لم يمنعه هذا من إعطائه تلميحًا موجزًا عما مر به، حتى يدرك طبيعة حالته، وبنبرة عملية لم تخلُ من لمحة من التضرع، استطرد الطبيب قائلاً بصوته الهادئ:

-إنت راجل مؤمن بقضاء الله وقدره، اللي حصل في حالتك دي ممكن نعتبره معجزة، يعني لا قدر الله كان ممكن تطول في الغيبوبة، وخصوصًا إن الإصابات اللي اتعرضلتها مش بسيطة ولا سهلة.

زفير مصحوب بآلام لا طاقة لبشر بها، تحرر من رئتيه، تبعه بآخرٍ، ليقول له "تميم" بعدها:

-الحمدلله، أنا حاسس بنفسي، وعارف إن اللي أنا فيه مش هيّن.

أضاف الطبيب بهدوئه المعتاد:

-حاليًا احنا لسه مش قادرين نحدد بالظبط تطور حالتك هايكون إزاي؛ لكن مافيش حاجة بعيدة عن ربنا، كل شيء وارد يحصل.

عقب في رضا:

-ونعمة بالله.

ظهر صوت الطبيب مترددًا بعض الشيء، عندما تحدث معه بغموضٍ ما:

-هي في حاجة فقط اللي أنا قلقان منها.

نظراته الجادة أوحت أن الخطب كبير، فسأله بترقبٍ:

-إيه هي؟

تنحنح في حرجٍ، وهو يجيبه:

-احم.. هو يخص قدرتك الإنجابية.

جملة عادية، بدت موترة للأعصاب، عنها مفسرة لطبيعة حالته الطبية. لعق شفتيه الجافتين، وتساءل بوجهٍ شاحب:

-قصدك إيه؟

حاول أن يبحث عن الكلمات المناسبة لتوضيح الأمر له، فقال بترويٍ، آملاً أن يكون قد نجح في إيصال رسالته له بتلميحاته المبطنة:

-للأسف المكان ده اتعرض لإصابة مباشرة، واحتمال يكون في أثر سيء عليك كزوج عايز يخلف، أو حتى تكون مع مراتك في وضع آ....

لاحظ "تميم" تعرقه الزائد مع محاولته إكمال جملته؛ وكأنه يخشى انفجاره الأهوج فيه، غضبًا لخسارة ما يميز أمثاله من الذكور الشداد، حيث اختتمها بإضافة:

-لأنه زي ما إنت عارف إنه مكان حساس للغاية، وأي ضرر فيه بـ ....

فهم مقصده الحذر، دون الحاجة لمزيدٍ من التفاسير العلمية المنمقة، لإخباره أنه أصبح عاجزًا عن الإنجاب، بسبب ما مر به، فلا يأمل مستقبلاً في الحصول على طفلٍ، يحمل لقب عائلته، ويرثه، الأسوأ من هذا أنه ربما لن يتمكن من إقامة علاقة حميمية بشكلٍ يدعو للتفاخر؛ إن فكر في الزواج مجددًا، بعد أن ارتضت إحداهن بوضعه المؤسف، إذًا ملخص ما قاله؛ أنه حُكم عليه بالبقاء هكذا للأبد، لم يكن حانقًا رغم قساوة الحقيقة، فأي امرأة تستحق قلبه غيرها؟

أشاح بوجهه المتبلد بعيدًا عنه، وقال بهدوءٍ مريب:

-كله خير من عند الله.

حاول الطبيب أن يهون عليه الأمر، فتابع:

-إنت راجل مؤمن يا معلم "تميم"، والعلم النهاردة بقى آ....

قاطعه بصوتٍ واجم، وعيناه لا تنظران في اتجاهه:

-أنا عايز أشوف أهلي، هما فين؟

أجابه مشيرًا بيده:

-كلهم موجودين برا

التفت نحوه، وطلب منه بصوتٍ آمل ألا يبدو مختنقًا:

-معلش يا دكتور، عايزهم جمبي.

أراد الاعتذار عن تلبية طلبه، فأخبره:

-مش هاينفع، وجودهم معاك وكلامهم فيه إجهاد عليك، وده مش في مصلحتك دلوقتي، وأنا أفضل آ....

ارتفعت نبرته المنزعجة وهو يلح عليه:

-خليهم يشوفوني، ويطمنوا إني بقيت بخير، ده هيريحني أنا.

كان على وشك رفضه؛ لكن رجائه الصارم أوقفه عن الاعتراض عليه:

-أنا متعودتش أسترجي حد، فممكن يا دكتور تدخلهم عندي.

أومأ برأسه موافقًا وهو يرد محذرًا:

-حاضر، بس يا ريت ماتتعبش نفسك.

أطبق على جفنيه، وتنهد قائلاً بإرهاقٍ غلفه اليأس:

-ماشي.

..............................................................

احتضنت كفه بين راحتيها، وألصقت الثلاثة بوجنتها، رافضة إبعاد يده عن وجهها، لتتخلل رطوبة دموعها الحزينة أصابعهم، ظلت أنظارها الحنون مثبتة على وجهه المتعب، فتعابيره الواهنة ما زالت تنطق بآلام مرضه. لم تستطع "ونيسة" ضبط نفسها، وظلت تبقي طوال الوقت، رغم رجاوات ابنها بالتوقف عن هذا، كررت اعتذارها منه، عن جفائها القاسي معه، بصوتها الباكي:

-"تميم"، حقك عليا يا غالي.

رد عليها بتزمتٍ:

-خلاص يامه، متوجعيش قلبي.

هتفت في ندمٍ، وصوت نهنهات بكائها يزداد:

-يا ريتني كنت أنا.

قال بمرارةٍ طغت على لسانه؛ وإن لم تظهر على ملامحه:

-بعد الشر عنك، أنا الحمد لله أهوو بخير قصادك.

هتف "بدير" يوبخ زوجته بضيقٍ، حينما لم تعد قادرة على التحكم في بكائها المزعج:

-يا ولية كفاية نواح عليه، الضاكتور قال كلمتين وبس، مش نقلبها نكد وغم.

حرك "تميم" عينيه في اتجاه والده، وبرر حزنها بابتسامةٍ فاترة:

-سيبها يابا، ماتزعقلهاش، هي كانت قلقانة عليا.

ردت عليه والدته بنظراتٍ عطوف:

-ربنا يباركلي فيك يا ضنايا.

ثم قبلت يده التي تحتضنها، بينما أردفت "هاجر" قائلة باعتذارٍ نادم للغاية:

-سامحني ياخويا، أنا ظلمتك، وجيت عليك جامد.

ركز أنظاره عليها، وأخبرها بنبرة متفهمة:

-إنتي أختي يا "هاجر"، محدش يزعل منك.

صاحت في لوعةٍ، تاركة عبراتها تنطلق على وجنتيها، كما لو كانت في سباقٍ للعدو:

-منه لله الظالم اللي عمل فيك كده.

رمقها "تميم" بنظرة غامضة، على ما يبدو لم تعلم بعد بتورط زوجها الحقير في محاولة قتله، ولم يرغب في إخبارها بهذا الآن، ليترك الأمر معلقًا ريثما يستعيد عافيته، انتبه لصوت جده الذي نطق من جانبه، واستدار ناحيته:

-شيد حيلك يا "تميم".

ظلت ابتسامته الراضية تحتل وجهه، وغمغم بأنفاسٍ متعبة:

-كله على الله يا جدي.

تكلم والده مجددًا، ليقول له:

-كل اللي بيحبوك هنا، و"منذر" و"دياب" واقفين برا، ماسبوناش للحظة، حتى "سراج" فضل معاهم.

المقطع الأخير من حديثه كان مدعاة للحيرة والفضول؛ فرغم العداوات الشرسة بينهما، إلا أنه في وقت أزمته الخطيرة، كان الأسبق لنجدته، دونًا عن أي شخصٍ آخر، ليظهر معدنه الأصيل، ولم ينكر أنه كان ممتنًا لوجوده، وإلا لهلك عن بكرة أبيه. تحركت يد "تميم" لتشير مع آمره الجاد:

-ناديهملي يابا.

تعقدت ملامح "بدير"، وانعكس الاستغراب على نظراته وهو يسأله:

-ليه يا ابني؟

جاوبه على مهلٍ:

-يطمنوا عليا بردك، كتر خيرهم تعبوا أكيد.

هز رأسه وهو يعقب عليه:

-أه والله...

ثم رفع عكازه ليشير به نحو زوجته، وأمرها بلهجته الصارمة:

-تعالي يا "ونيسة"، سيبي ابنك ياخد نفسه.

أطلت من عينيها نظراتٍ حانية، مليئة بلهفةٍ ملتاعة، لتنطق في اعتراضٍ بسيط:

-هاين عليا أفضل هنا تحت رجليه.

-أخبرها ابنها بهدوئه الإجباري:

-معلش يامه، شوية وهترجعي تاني.

رغمًا عنها أزعنت لطلبه، وانسحبت مجرجرة ساقيها، خلف زوجها وابنتها من الغرفة، ليكون الجد الوحيد الباقي معه، تحدث الأخير من زاوية فمه ليخبره بلهجته المتشددة؛ وكأنه يقرأ ما يدور في رأسه:

-ماتسبش حقك يا "تميم".

لم يضلله في قوله الصريح، والمليء بوعودٍ نافذة:

-هايحصل يا جدي.

..........................................................

دفعته نزعته الرجولية، للتصرف بشهامةٍ، مع والدته سليطة اللسان، وشقيقته المزعجة، رغم رغبته في الذهاب مع باقي العائلة لرؤية "تميم"، والاطمئنان عليه. تقدم "هيثم" نحو مخرج المشفى الأمامي، وصاح قائلاً بإشارة من سبابته نحو موقف السيارات المتواجدة على مسافة بضعة أمتارٍ من البوابة الرئيسية للصرح الطبي:

-تعالوا اركبوا معايا أما أوصلكم البيت.

زجرته "بثينة" تنعته بتهكمٍ غير مقبول:

-ماشي يا دلدول المحروسة.

ضرب كفًا بالآخر هاتفًا بتذمرٍ مستنكر لوقاحتها:

-استغفر الله العظيم، ولازمته إيه الغلط يامه؟ دي أخرت المعروف معاكو؟ بدل ما تقوليلي شكرًا، وكتر خيرك يا ابني.

رمقته بنظرة احتقارية ساخطة، قبل أن تواصل تعنيفها الفظ:

-بناقص منها ركوبة، وقفلنا تاكسي يا معدول.

كان يومه مشحونًا بالكثير من الأعباء، ولم ينقصه اكتمال يومه الشاق بتلك السخافات الوقحة، لهذا لم يتحمل "هيثم" إساءتها، ورد عليها بانعدامِ ذوقٍ؛ وكأن اقتراحها قد لاقى ترحيبًا واسعًا منه:

-يكون أحسن يامه...

وقبل أن توبخه هلل عاليًا ليوقف أحد سائقي سيارات الأجرة:

-ياســـــطا!

تبعته "بثينة" بنظراتٍ مغتاظة، وغمغمت من خلفه قاصدة إهانته، وهي تتفل كذلك:

-تربية ناقصة، اتفوو.

لم يكلف نفسه عناء الرد عليها، فقط أعطى للسائق أجرته كاملة، وأخبرها وهو يتحرك بعيدًا:

-ماتدفعيش يامه، سلام.

همهمة غير مفهومة خرجت من جوفها؛ لكنها بدت لعنًا لشخصه على الأغلب، استقرت في المقعد الخلفي، وإلى جوارها جلست "خلود"، لتشير بعدها للسائق بالتحرك، وبمجرد ابتعاد السيارة عن المشفى، نطقت ابنتها بحرقةٍ انعكست حتى في عينيها الملتهبتين:

-كان عندك حق يامه في كل كلمة قولتيها، وكل حاجة عملتيها عشان تنتقمي منهم.

تطلعت إليها والدتها في اندهاشٍ، قبل أن ترد بتبرمٍ:

-أخيرًا عقلتي، وشيلتي أمور الجنان دي من مخك.

لم تنظر نحوها، بل حملقت في الطريق بنظراتٍ مليئة بكراهية مضاعفة، لتخبرها بوعيدٍ حانق:

-عقلت بس؟ ده بحق كل لحظة استنيته فيها، وكل دمعة عيطتها عشانه، لأخليه يندم على اليوم اللي سابني فيه.

تهللت أسارير "بثينة" لسماعها مثل تلك العبارات الناقمة، أدركت حينها أن ابنتها قد عادت لرشدها، وتخلت عن تصرفاتها الصبيانية الخرقاء، ربتت على فخذها، ومدحت إظهارها للجانب الشرس فيها:

-أيوه كده فرحيني، الحمدلله طمرت فيكي اللقمة اللي أكلتهالك.

على الأغلب لم تكن "خلود" منصتة لوالدتها، فلسانها تكلم بنفس اللهجة العدائية، مستجمعة في قلبها كل بُغضها المقيت، لرفضه قربها:

-الأيام بينا يا "تميم"، وبنت خالتك اللي حرمتها عليك موجودة بس عشان تخرب حياتك، وتحرق قلبك على كل حاجة غالية عندك، لحد ما تجيلي راكع، وساعتها هدوس عليك.

..................................................

بدأ مفعول السم -المختلط بالمخدر الطبي- يسري في عروق الاثنتين، بعد أن دفعتهما بالحيلة، لتناول الكعكة التي أعدتها خصيصًا لهما، حتى تتمكن من التخلص منهما معًا، دون أن تريق ذرة دماءٍ واحدة. وصفة شيطانية ظلت تختبر فاعليتها على القطط الشاردة، حينما كانت تعطيها لهم كإحسانٍ مقنع، بينما غرضها الأساسي ضمان تجربتها. راقبت "حمدية" بنظرات استمتاعٍ مميتة، تراخي جسد "سماح" على الأريكة رويدًا رويدًا، إلى أن سكنت كليًا. انخفضت عيناها نحو يدها المتدلية إلى جوارها، قبل أن تسقط من بين أصابعها، بقايا قطعة لأكت جزءًا منها، وحتمًا مازال البعض عالقًا في حنكها.

نهضت واقفة على قدميها، تحدجها بنظراتٍ استطالت عليها باحتقارٍ أكبر، بعد أن أزاحت طبقها الذي لم تمسه عن حجرها، أسندته على الطاولة، وتقدمت في اتجاهها إلى أن باتت قبالتها. ركلت بقدمها ساقها المرتخية، فاستجابت لدفعتها الغليظة، وتحركت من مكانها، لتؤكد لها فقدانها للوعي. ابتسامة انتصارٍ اعتلت ثغرها، قبل أن تبددها بتحريك فكها لتلعنها:

-بالسم الهاري.

تفلت فوقها باشمئزازٍ، قبل أن تتركها، وتتجول في أرجاء المنزل، لتفتش عن الطفلة الصغيرة، وجدتها في غرفتها مستلقية على الأرضية، رمقتها بنظرة حقودة، مليئة بالغل، وهي تهسهس متسائلة مع نفسها:

-إنتي أحسن من ولادي في إيه؟

اعتلى زاوية فمها ابتسامة انتصارٍ؛ كما لو أنها ظفرت بمعركتها الحاسمة، وهي تواصل قولها:

-أديكي غورتي في داهية إنتي وأمك.

نظرة أخرى شامتة ألقتها على الطفلة، قبل أن تخرج من غرفتها مكملة حديثها المتباهي:

-وريني بقى يا "خليل" هاتعمل إيه لما تعرف بموتهم، لأ، وماتبقاش حتى قادر تزعل عليهم!

كانت مستمتعة –حد المرض- بلذة انتقامها المدمر، وبتؤدةٍ اتجهت إلى المطبخ، ووجهها يبدو وكأنه يفح بشرورٍ لا نهاية لها. بحثت بعينيها عن الموقد، وجدته عند النافذة الوحيدة التي تنير المكان، تحركت صوبه، لتفتش عن الأنبوب الموصول به، تأكدت من عدم غلق صمام أمانه، قبل أن تدير مفاتيحه كلها دون إشعالها، ليتسرب الغاز الخانق منه، فتضمن بهذا الهلاك الحتمي لكلتيهما. خرجت منه عائدة إلى الصالة، لململت بتعجلٍ أشيائها، ونظرت إلى جسد

"سماح" لمرة أخيرة، لتملي عينيها الحاقدتين بجثمانها الفاني، ثم غطت وجهها ببرقع نقابها الأسود، قبل أن تخطو خارج المنزل، وابتسامة شيطانية متسعة تسود على وجهها القاتل.

..................................................

محبةٌ لا تحتاج إلى تزييفٍ، كانت السمة المشتركة بين ثلاثتهم، حينما وطأوا غرفته، ليكونوا إلى جواره، بعد استعادته لوعيه، أملين أن يكتمل شفائه على خير، فالرجال معادن، ومثله يصعب تعويضه! نظرة مليئة بالتفاؤل أطلت من عيني "منذر"، نحو رفيقه المقرب إلى قلبه، يتبعها جملته الغبطة:

-حمدلله على السلامة يا صاحبي.

التفت ناظرًا إليه وهو يرد:

-الله يسلمك يا "منذر"..

داعبه "دياب" بطرافته المهونة من صِعاب الأمور:

-إيه يا عم، هما غفلوك ولا إيه؟ ده إنت معلم على أجدعها شنب.

كان رده متمهلاً -ومبررًا- عندما تكلم:

-أنا كفيل بيهم، بس الكترة تغلب الشجاعة.

هز رأسه مؤمنًا عليه:

-في دي معاك حق.

بينما أردف "سراج" قائلاً، وهو يتحسس مؤخرة عنقه:

-ياما دقت على الراس طبول، واسأل مجرب.

لم يستطع "دياب" منع ضحكة مرحة من الانطلاق، ومازحه بتسليةٍ، وأنظاره مسلطة عليه:

-طبعًا يا "سراج".

ضحك "تميم" لطرفته المقصودة، فتألم صدره، وتأوه بأنينٍ جاهد لكتمه. حدج "منذر" شقيقه بنظرة صارمة، ليكف عن سخافاته فلا يؤذيه بثقل دمه، ثم عاد ليحدق في وجه رفيقه الذابل، ودخل في صلب الموضوع مباشرة، متسائلاً دون تمهيد:

-من غير ما نتعبك في الكلام، الليلة دي وراها "محرز"، مظبوط؟

بإيجازٍ أجابه "تميم":

-أيوه.

هتف "دياب" في جديةٍ، ونظراته تؤكد سعيه الدؤوب للوصول إليه:

-احنا قالبين الدنيا عليه، ولو تحت الأرض، هانجيبه مرمي عند رجليك.

رد عليه مبديًا ثقته في وعده:

-أنا مطمن...

سعل قليلاً، وتابع بصوتٍ بعيد كل البعد عن الهزل:

-عايزكم لحد ما أقدر أقف على رجلي، تاخدوا بالكم من أهلي.

أخبره "منذر" بلهجةٍ جادة للغاية:

-إنت بتوصينا على ما بين، ده أبوك أبويا، وجدك يعتبر مربيني معاك.

وأيده "دياب" في قوله؛ وكأنه يجدد وعده له:

-كلهم في عنينا.

حاول أن يرفع يده ليؤكد عليه بحنقٍ غلف نبرته المتعبة:

-الكلب "محرز" ما يقربش من أختي.

هنا نطق "سراج" بصرامةٍ غريبة:

-متقلقش عليها، وراك رجالة.

شردت نظراته عن ثلاثتهم، ليحملق بعينين فارغتين في سقفية الغرفة، وهو يحادثهم بتوجسٍ قلق:

-الله أعلم بيفكر في إيه، بس ماتستبعدوش يخطف ابنه منها ويساومنا، وخصوصًا لما يعرف إني قومت منها.

علق عليه "دياب" بشفاه مقلوبة:

-طبعًا ابن حرام مصفي ويعملها، بس اطمن، احنا سدادين.

تساءل "منذر" في اهتمامٍ:

-البوليس زمانه خد خبر كمان، هاتقولهم إيه؟

انخفضت نظرات "تميم" في اتجاهه، وبقيت لبرهة مثبتة على ملامحه الحائرة، قبل أن ينطق بما لا يدع مجالاً للشكِ، أن رده سيكون عنيفًا، ورادعًا:

-حقي بأخده بدراعي.

.........................................................

لهثت أنفاسها، وهي تعدو في خطواتها السريعة، لتصل إلى ناصية الشارع، بعد يومٍ طويل استنزف كامل قواها، وصوت والدتها الحاد ينطلق من هاتفها المحمول، ليخترق أذنها، ويوصيها بالالتزام بالبقاء في المنزل، إلى أن تعود لاحقًا إليها. بمجرد أن توقفت "دعاء" عند مدخل عمارتها، أخبرتها بصوتٍ مُجهد:

-خلاص يا ماما أنا وصلت.. حاضر هاطلع عند أبلة "سماح" أخد منها المفتاح، وآ..

توقفت عن إكمال جملتها، وفقدت تركيزها معها، بسبب رؤيتها لحشدٍ من سكان البناية مجتمعين أسفل الدرج، اقتربت منهم، وتساءلت في فضولٍ:

-في إيه يا جماعة؟

استدارت واحدة من الجارات نحوها، وأجابتها بانزعاجٍ:

-في ريحة غاز في العمارة، ومش عارفين جاية منين.

علقت أخرى في ضيقٍ:

-الظاهر حد نسى يقفل مفتاح الأنبوبة، وكلنا هنتخنق.

ظهر السخط على وجه أحدهم وهو يضيف:

-لازمته إيه الاستهتار ده؟

حاورته إحدى الجارات مبررة الأمر:

-ما جايز اللي التسريب عنده مايعرفش

اقترحت عليهم "دعاء"

-اطلبوا النجدة تيجي آ......

دوي انفجار عنيف، دون إنذارٍ مسبق، جعل الأصوات كلها تخبت بغتةً، وكأنه ابتلعها بقوته العظيمة، ليحل بعدها أصوات طقطقات أشد وطأة في عنفها، اختلطت بأدخنة وحرائق مهلكة، حولت المكان في طرفة عين، لفوهة مستعرة من الجحيم ........................................ !!!

...............................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الخامس والسبعون

ساد لأقل من دقيقة سكون مشحون بمشاعر مختلفة في حدتها؛ لكن اشتركت جميعها في خوفها، لحظة بدت حاسمة، جعلت القلوب تقفز رعبًا، والأعين تشخص هلعًا، من المشهد المحمل بكل معاني الارتياع، امتلأت حلوقهم بأغبرة لا حصر لها، بعد أن تحول كل شيءٍ للإظلام فجأة، قبل أن تتضح الرؤية وسط ركام التصدعات التي طالت من المبنى. ظل المحاصرون بالداخل يسعلون بحشرجةٍ مؤلمة، ويتفلون ما التقطته أفواههم، هذه الأصوات المتحشرجة، أعطت بارقة أمل، بأنهم لا يزالون على قيد الحياة .. صوتًا صارمًا تخلل الجدران ذات الشقوق الكبيرة يأمر المتواجدين، بتحذير شديد اللهجة:

-كله يطلع من هنا، وحاسبوا النار يا جدعـــــان.

بدت كريشة يتقاذفها الهواء العنيف، مع قوة الانفجار؛ لكن لحسن حظها تكومت على كتلٍ من اللحم البشري، كانت كالدرع لها، حيث دفعتها الأجساد المسرعة نحو طريق الخروج، والذي بدا بعيدًا للغاية، رغم الأمتار المعدودة التي تفصلها عن المدخل. لم تعرف "دعاء" أي يدٍ جذبتها لتنجدها؛ لكن سعادتها بنجاتها من هذا الجحيم المستعر فاقت خوفها الحقيقي، نظرة زائغة ألقتها على عمارتها المعبقة بالأدخنة والغبار، اتسعت عيناها على آخرهما، وقد رأت ألسنة اللهب تنطلق من نافذة منزل "سماح"، تأخيرها للحظات عن الصعود إليها، كان السبيل لإنقاذ حياتها من موتٍ محتوم. خارت قواها مع عظم المُصاب المفجع، أيادٍ أخرى تلقفتها، وأبعدتها عن محيط الخطر، تذكرت والدتها فجأة،

كانت تتحدث إليها قبيل الانفجار المدوي، انخفضت أنظارها نحو يدها، هاتفها المحمول ليس بها، ربما سقط منها سهوًا خلال انشغالها باللحظات المميتة التي مرت بها، أصابها القلق الشديد، فوالدتها حتمًا ستموت فزعًا إن ظنت أنها لقيت حتفها، آملت أن تستطيع الوصول إليها لطمأنتها، عل أحد الجيران يتكفل بهذا.

....................................................

تعاون أهالي المنطقة على إخراج السكان المحتجزين بالداخل، عائلة وراء الأخرى، لضمان سلامة الجميع، وبقيت فقط أسرة "خليل" المحتجزة داخل منزلهم، بسبب النيران المنبعثة منه. تجرأ أحدهم -ممن يملك سمات الشجاعة والإقدام- على اقتحام المنزل، قفز فوق كومة تحترق، ليقف في بقعة تخلو من الألسنة الجائعة، غطى فمه وأنفه بذراعه، ثم تلفت بعينين تحرقهما الحرارة العالية باحثًا عن ناجين، انتفض في صدمة، عندما تجمد بصره على الأريكة، حيث رأى مشهدًا تقشعر له الأبدان، وجعله يشعر بالغثيان، ورغبة عارمة في التقيؤ، عجز لدقيقة عن إبعاد أنظاره عن جسد "سماح" المتدلي عليها، تفحم معظم جلدها، وطُهي جزء آخر؛ وكأن جثتها كانت معلقة عل حاملٍ في حفلٍ للشواء، هلل مستغيثًا في ارتعابٍ:

-رحمتك يا رب.

فقد جزءًا من شجاعته أمام هول المنظر، وسعل في ألمٍ، بسبب الدخان الخانق، غطى بذراعه أنفه ليمنعه من اختراق رئتيه، وبخفةٍ لا تخلو من حرصٍ كبير تجول

وسط النيران، باحثًا عن ابنتها، وصل إلى غرفة مغلقة بباب خشـبي، النيران تسعى بنشاطٍ للوصول إليه لإحراقها، تراجع للخلف شاحذًا قواه، ثم اندفع بكامل قوته للأمام، راكلاً الكتلة الخشبية بقدمه، ليفتحه على الأخير. ولج إلى الداخل، ولحسن الحظ وجد الصغيرة ملاقاة على الأرضية في غرفتها، بجوار فراشها، لم تمسها النار بعد، رغم احتراق ما بالخارج، جثا على ركبته، ووضع يده على عنقها، باحثًا عن نبضها فيه، وصوته يتضرع برجاءٍ شديد:

-عديها على خير يا رب.

تنفس الصعداء حينما وجد قلبها مازال ينبض بالحياة، لعل المولى كتب لها النجاة، همس في ارتياحٍ طفيف:

-لطفك يا كريم.

دون ترددٍ، انحنى ليحملها على كتفها، وسحب غطاءً من على فراشها، ليلف جسدها الساكن به، وليحميها من الألسنة المتعطشة لتناول المزيد من اللحم والخشب .. ومثلما دخل في سرعةٍ وخفة، بحث عن طريق عودته بنفس الطريقة، التقى أثناء خروجه بآخرين ممن تشجعوا لمساعدة العالقين، ناولهم الطفلة، وواصل طريقه صعودًا لطابقٍ آخر، عله يجد من يمد له يد العون.

..................................................................

هاجسٌ موتر انتابها بشكلٍ قوي، حينما طرقت على باب منزلها، لتتفقد أحوالها، ولم تجد استجابة منها، فليس من عادتها أن تختفي هكذا دون أن

تعلمها مسبقًا بذهابها، ولو كان لمحلٍ قريب. ظلت باقية في مكانها لبضعة لحظاتٍ، معتقدة أنها ربما تكون قد غفلت هي وأولادها؛ لكن ليس مع هذا الطرق المتواصل على الباب، دعا الأمر للاسترابة. تساءلت "آمنة" مع نفسها في اندهاشٍ:

-هاتكون راحت فين كده من غير ما تقولي؟

تركت حيرتها جانبًا، واستبشر خيرًا، تحركت من مكانها، وهبطت الدرجات لتعود إلى منزلها، حيث ما تزال ابنتها باقية معها، سألتها "همسة" بحاجبين معقودين:

-برضوه مش موجودة؟

هزت رأسها بالنفي قبل أن ترد:

-لأ...

تطلعت إليها ابنتها في اهتمامٍ، حين استكملت باقي جملتها:

-وحتى موبايلها مقفول.

بررت "همسة" غيابها، وقالت بوجهٍ عادت عضلاته للارتخاء:

-ما جايز تكون في مشوار وواخدة العيال معاها!

ردت نافية بتعابيرٍ متوجسة:

-"حمدية" متعملهاش، طول عمرها بتسيب العيال عندي لو راحت في حتة، هي بتحب تتحرك خفيفة.

حركت ابنتها كتفيها في عدم اكتراث، وأضافت:

-الله أعلم بصراحة...

ثم صاحبت والدتها بعينيها وهي تتجه نحو النافذة، لتتطلع منها للمارة، صمتت لبرهةٍ، قبل أن تقول كنوعٍ من التعليق على غرابة تصرفات زوجة خالها:

-هي بقالها فترة مش زي تملي، تحسيها على طول ساكتة، وواخدة جمب، زي ما يكون في حاجة مهمة شاغلة تفكيرها.

استندت "آمنة" بوجنتها على كفها، تراقب كل شاردة وواردة، تحدث في الطريق أمامها باهتمامٍ مبالغ فيه، علها تلمح زوجة شقيقها وهي قادمة. تنهيدة مهمومة تحررت من بين شفتيها، تبعها همسها القلق:

-ربنا يستر بقى.

استقامت فجأة في وقفتها عندما لمحتها تترجل من إحدى سيارات الأجرة، على ناصية الطريق، ترتدي ثيابًا لا تشبه ما تضعه على الأغلب. صاحت تلقائيًا، لتُعلم ابنتها بمجيئها، وكامل نظراتها عليها:

-أهي جت ..

اكتسب صوتها رنة قلق غريبة، وقد رأتها تسير بمفردها، لا تصطحب أحدًا، فهتفت بقلبٍ يغمره الخوف:

-دي جاية لواحدها، مش معاها العيال.

استغربت "همسة" من خوفها الزائد، وعلقت على كلامها قائلة:

-مش يمكن سيباها مع خالي؟

دون تفكيرٍ نفت هذا الاحتمال:

-لأ، خالك نازل من أول النهار، وكان لواحده.

سألتها في دهشة، انعكست على ملامحها كذلك:

-أومال العيال فين؟

ردت بوجهٍ شبه شاحب:

-مش عارفة، وقلبي قلقان عليهم.

حاولت "همسة" بث الطمأنينة إليها، فأردفت بابتسامةٍ لم تكن في محلها:

-دلوقتي نعرف، هما هيروحوا فين يعني.

على الفور، وبخطواتٍ متعجلة ابتعدت "آمنة" عن النافذة لتتجه إلى باب منزلها، وقفت قبالته، تنتظر صعود "حمدية" عليه، وما إن رأتها هتفت تسألها بلهجةٍ مزعوجة:

-إيه يا "حمدية"؟ كنتي فين؟

استنكرت نبرتها تلك، وردت بتذمرٍ:

-هو تحقيق ولا إيه؟

تغاضت عن سؤالها عن ثيابها الغريبة، المتناقضة مع ما اعتادت الخروج به، لتجيب عن سؤالها معللة:

-لأ، بس أنا طلعت أخبط عليكي محدش فتحلي.

حررت "حمدية" حجاب رأسها قليلاً، وفتحت حقيبتها لتبحث عن مفتاح المنزل، أسفل البرقع المدسوس بداخلها، تابعت صعود درجات السلم، وصوتها يقول في إرهاقٍ لا يخلو من البرود؛ وكأنها لم تقترف ما تقشعر له الأبدان:

-كنت في مشوار ياختي، عايزة حاجة مني؟

لحقت بها تسألها:

-طب والعيال فين؟ مش معاكي ولا إيه؟

بنفس الصوت البارد أخبرتها:

-ليه؟ هما مش فوق؟ أنا كنت سيباهم نايمين.

عاتبتها بجدية مغلفة بالقلق:

-بس مقولتليش يا "حمدية"، لأني خبطت ومحدش فتح.

لم تلتفت برأسها نحوها، وقالت وهي تتجه نحو منزلها:

-ما أنا قافلة عليهم الباب ونزلت.

بانزعاجٍ ما زال يظهر في صوتها، تكلمت "آمنة" قائلة:

-إنتي متعودة تسيبهم معايا لما تخرجي.

استدارت للجانب لتنظر إليها بتأفف، وردت على مضضٍ، بكذبة بدت مقنعة:

-محصلش حاجة يا حبيبتي، كنت في حتة هنا جمبنا مش مستاهلة.

تحركت أنظار "آمنة" مع حركة يدها وهي تدس المفتاح في قفله، متابعة قولها:

-طيب أنا عملتهم أكل، دلوقتي أخلي "همسة" تطلعه.

تجاهلت "حمدية" الرد عليها، وتعاملت معها بنوعٍ من التعالي والاحتقار؛ وكأنها خادمة تعمل لديها، وليست شقيقة زوجها التي لا تتوانى عن رعاية صغارها، أسندت حقيبتها على الطاولة، وهتفت تنادي بصوتٍ مرتفع، حينما لاحظت الصمت المريب السائد في منزلها:

-يا عيال، إنتو فين؟

انتظرت للحظة عل أحدهم يأتي من الداخل مسرعًا، ليشكو لها سوء تصرف أحد الأشقاء؛ لكن ما زال السكون المخيف هو سيد الموقف، لوهلةٍ انقبض قلبها، وصاحت بصوتٍ أكثر علوًا، فيه زجرة منزعجة:

-يا واد إنت وهو؟! مش سامعيني ولا إيه؟

ازداد خوف "آمنة" على الصغار، ولطمت على صدرها مدمدمة بهلعٍ أكبر عن ذي قبل:

-يا نصيبتي، هايكونوا راحوا فين؟!!!

هرولت "حمدية" ركضًا نحو غرفة أبنائها، الغريب في الأمر أن باب الحجرة كان مفتوحًا على أخره؛ لكن المفزع حقًا أن ثلاثتهم كانوا يفترشون الأرضية بأجسادٍ فاقدة للوعي. صرخة مرعوبة انطلقت من جوف والدتهم، وهي تراهم على تلك الحالة الهامدة. جثت على ركبتيها أمام الأول، تهزه بعنفٍ، وهي تناديه:

-قوم يا واد رد عليا، إيه اللي حصلك؟

بينما انحنت "آمنة" نحو الثاني تحاول تحريكه بكل ما فيها من خوف وارتعاب؛ وكان مماثلاً لشقيقه، لا يتحرك، مجرد جسد لا يتنفس، متصلب العضلات، يميل للزرقة، وبرودة مخيفة تنتشر في أطرافه، وكأنها قد باتت فاقدة للإحساس. لم يختلف حال الثالث كثيرًا عنهما، ارتفعت أصوات الصرخات المكلومة فزلزلت أرجاء المنطقة. انضمت إليهما "همسة" بعد أن ركضت صعودًا على الدرج، تجمدت في مكانها، وعيناها تبرزان من محجريهما في فزعٍ، انخلع قلبها لوعةً عندما تفاجأت بالمشهد المروع، لم تستطع هي الأخرى كتم صرخاتها المصدومة.

رفعت "حمدية" جثمان طفلها إلى صدرها، ضمته بشدة وهي لا تولول في قهرٍ وحسرة، رأت أسفله قطعة من العجين الذي أعدته لخبز الكعكة المشؤومة، تذكرت أنها تركت باقي الكمية في علبة بلاستيكية صغيرة، كانت قد احتفظت بها في درج الثلاجة الخاص بتخزين الخضرلوات والفواكه، لتظل حالتهم طازجة، لم يطرأ ببالها مطلقًا أن يقوم أحد أبنائها بفتح ذلك الدرج، والتفتيش

فيه لإيجاد تلك العلبة اللعينة؛ وكأن القدر يعاقبها على جريمتها النكراء. تناست أثناء تخطيطها لفعلتها أن أولادها يحبون تناول العجين هكذا نيئًا؛ وكأنها دون أن تعي ذبحتهم بنفس السكين الذي قتلت به أناس أبرياء غيرهم.

لم تفهم "همسة" ما الذي أصاب الصغار ليفقدوا حياتهم، في غمضة عينٍ، وغفلة عن الجميع، هتفت بصوتٍ متقطع الأنفاس، وعيناها تفيضان بالدمع الحارق:

-خلينا نطلب الإسعاف عشان نلحقهم، أكيد هما هيبقوا كويسين.

بينما رددت "آمنة" بصوتٍ باكي، وقلبٍ مفجوعٍ:

-يا حرقة قلبي عليهم، دول لسه صغيرين.

لوهلةٍ تجمد إدراك "حمدية" العقلي عما يحدث حولها، تخشبت في جلستها، تضم أحد صغارها إلى حضنها، شاخصة لأبصارها؛ وكأن الزمن توقف عند تلك اللحظة، قبل أن يقتحم عقلها سيلاً من مشاهد متقطعة لزيارتها مع ضرتها، وطفلتها الصغيرة، تردد صوتها المرحب بها في عقلها:

-نورتي يا ست "آمنة".

بقي الاسم يتردد بقوة في عقلها، وابتسامة "سماح" المستفزة تزداد اتساعًا، وكأن روحها تخاطبها، تزيد من غيظها، خاصة مع تذكرها لكلامها المهين عنها. تلقائيًا تحركت أبصارها الزائغة نحو "آمنة"، لتنهار بعدها، ملقية بكامل اللوم على عمة أبنائها، في صراخٍ هيستري مقطوع الأنفاس:

-إنتي ..السبب، إنتي... اللي.. قتلتيهم!

لم تنتبه لها أيًا منهما، فكلتاهما كانتا مشغولتان بحمل اثنين من الأشقاء، وصوتها المتقطع لم يكن مفهومًا وسط الصراخ المتكرر، تحركت "همسة" أولاً، محاولة الركض بمن تحمله خارج المنزل، اعترض طريقها زوجها، رفع أنظاره نحوها متسائلاً في قلقٍ كبير:

-في إيه اللي حصل؟ وإيه الصويت ده؟

أجابته بصوتها المنتحب، وهي تحاول أن تخرج جملها مرتبة:

-الحقنا يا "هيثم"، العيال مش عارفين حصلهم إيه، مابيتحركوش.

انخفضت عيناه نحو الصغير الساكن في أحضانها، لم يكن هناك وقتًا كافيًا لإضاعته، كل ثانية تشكل فارقًا، لذا دون ترددٍ، حمل عنها الطفل، وأخبرها بصرامةٍ:

-هننقلهم المستشفى بعربيتي، ده أسرع.

ركض به الدرجات هبوطًا للأسفل، على أمل أن يكون في حضوره غير المتوقع، نجاة لهؤلاء الأبرياء.

.................................................................

لبوا أوامره بحذافيرها، بشأن التأكد من سلامة شقيقته، وعودتها للإقامة الكلية في منزل عائلته، لتكون تحت أعينه مباشرة، وبعيدًا عن أقل احتمال من تعرضها هي أو رضيعها للتهديد بسبب زوجها الوضيع "محرز"، في حين لم تفهم "هاجر" سبب إصرار والدها على إحضار الهام من متعلقاتها الشخصية، وما

يكفيها من ثيابٍ ومستلزمات، من أجل المكوث لفترة طويلة بصحبة العائلة، استرابت من الأمر، رغم أنه من الطبيعي أن تظل لفترة، لتكون إلى جوار شقيقها الذي نجا بأعجوبة من حريق الدكان. صعدت لمنزلها، بعد تأكد كلاً من "منذر" و"دياب" من خلوه من أي تهديد، وذاك ضاعف شكوكها أيضًا، كان "بدير" على وشك اللحاق بهما؛ لكن طلب منه "سراج" بلطفٍ:

-خليك إنت مرتاح يا حاج، احنا موجودين، هانقوم بكل المطلوب.

ابتسم له في امتنانٍ وهو يشكره:

-تسلم يا ابني

نظرة خاطفة، بالكاد تكون محسوسة، ألقاها على وجه "هاجر" التي كانت مشغولة في التطلع لهاتفها المحمول؛ وكأنه بهذا يريد تذكر ملامحها، وجد نفسه يتصرف مثلما فعل بالماضي، نظرات خلسة، لا يشعر بها من حوله، خلال لقاءات عابرة، تعطيه طاقة لا حصر لها، ربكةٍ موترة انتابته حينما اتجهت إليه، حيث يقف مع والدها، لم ينظر إليها، وأخفض رأسه في أدبٍ، بينما قالت بتنهيدة بطيئة:

-مش هتأخر يابا فوق، على طول هاجيب المهم.

أومأ برأسه سامحًا لها بالصعود، وقد رأى الشقيقين مقبلين نحوه:

-ماشي يا بنتي.

ثم وجه حديثه للقادمين في اتجاهه يشكرهما:

-كتر خيركم يا ولاد، والله أنا ما عارف أقولكم إيه، وقفتكم معايا دي...

قاطعه "منذر" مبتسمًا، قبل أن يتم جملته:

-ماتقولش حاجة يا حاج "بدير"، ده "تميم" أخونا، وكلامه واجب يتنفذ.

رد عليه "بدير" في ضيقٍ:

-كده أحسن، محدش ضامن ممكن يحصل إيه، وخصوصًا بعد ما عرفنا قلة أصل المأسوف على عمره.

علق "دياب" بنبرة متوعدة، وهو يفرك كفيه معًا:

-ده حسابه كبير، مش هايتعتق من إيد حد فينا.

غمغم "بدير" بوجهٍ مال للعبوس:

-يا ريت نوصله قبل ما الحكومة تمسكه.

احتفظ "منذر" بابتسامته الواثقة، ثم أخبره بعزمٍ غير قابل للتشكيك:

-ولو مسكوه، زي ما لينا إيد طايلة برا، حبايبنا كتير جوا.

في استحسانٍ قال له موجزًا:

-الله كريم.

وبنفس الأسلوب الهادئ تابع "منذر" موجهًا حديثه لثلاثتهم:

-هستأذن أنا ورايا كام حاجة هاخلصها، وهتابع معاكو الجديد في التليفون.

رد عليه شقيقه بإيماءةٍ من رأسه:

-وماله يا "منذر"، متعطلش نفسك.

ظلت أنظاره الجادة عليه، قبل أن يخاطبه بلهجته الجادة:

-مش هوصيك.

لاحت ابتسامة غرور على شفتي "دياب"، وهو يرد:

-عيب عليك.

انسحب شقيقه الكبير من وقفتهم، ليدعو بعدها "سراج" الحاج "بدير" للجلوس والانتظار في السيارة، كبديل عن الوقوف الطويل على قدميه، فاستجاب لطلبه، واستراح على المقعد الأمامي، بينما بقي الاثنان يراقبان الطريق في اهتمامٍ، إلى أن تفرغ "هاجر" من تجهيز ما ينقصها.

بعد برهةٍ، لمحها "دياب" وهو قد قارب على إنهاء سيجارته، ألقى عقبها أسفل قدمه ليدعسه، وهتف قائلاً، كنوعٍ من التنبيه:

-شوف يا "سراج"، الجماعة نازلين بالشنطة.

اعتدل الأخير في وقفته المستريحة على جانب السيارة، لينظر نحو المدخل، رأى "هاجر" تحمل بيدها حقيبة سفر ثقيلة، هرول في اتجاهها ليحملها عنها، وهو يصر بشدةٍ:

-عنك يا ست الكل.

تحرجت من ذوقه، وتركتها له وهي تشكره:

-كتر خيرك.

لحظة تجرأ فيها على رفع عينيه إلى عينيها، لينظر لها عن قربٍ، وسألها بتلعثمٍ طفيف، رجا الله في نفسه ألا يبدو مكشوفًا أمامها:

-في حاجة.. ناقصة تانية؟

أجابت وهي تدير رأسها للخلف، ومشيرة بيدها أيضًا:

-أه، في شنطة فوق، هاطلع أجيبها.

أخبرها بعتابٍ لطيف، وملامحه لا تبدو مازحة أبدًا:

-وإنتي عدومتي الرجالة؟

ضاقت عيناها قليلاً، بينما أكمل وهو يخشى النظر نحوها:

-خليكي مرتاحة في العربية، وأنا هاجيبها بنفسي...

لم تنكر "هاجر" أنها استحسنت الفكرة كثيرًا، وابتسمت لإعفائه لها من مشقة الصعود والنزول لإحضار الحقائب، طلب منها "سراج" بجديةٍ بعد أن وضع حقيبتها في صندوق السيارة:

-هاتي المفتاح عشان أقفل الشقة ورايا.

بحرجٍ بسيط تحدثت قائلة:

-هتعبك معايا يا معلم "سراج".

وللمرة الأولى يتخلى عن تعابيره الجادة، ليبدو مبتسمًا بسرورٍ واضح وهو يقول:

-تعبك راحة.. يا ريتها تيجي على أد كده، احنا سدادين يا ست البنات.

لم تجد ما تعلق به على كرمه الزائد، سوى مبادلة ابتسامة صغيرة معه، قبل أن تتحرك وتتخذ مقعدها بالسيارة. تطلع إليها "دياب" من مرآته الأمامية، والتفت ناظرًا إلى الجالس بجواره يُعلمه بجدية بحتة، قاصدًا بهذا تضييق الخناق على "محرز"، فلا يستطيع الوصول إلى منزله:

-لازمًا تغير الكالون يا حاج في أسرع وقت.

أخبره بهدوءٍ، وكأنه يعي مراده:

-هاكلم النجار يعمل ده.

أضاف كذلك بنبرته العازمة:

-لو عايزيني أكون معاه فأنا فاضي، متقلقش.

تحرج من اهتمامه الكبير، وقال ممتنًا:

-تسلم يا "دياب"، مش عايز أشغل أكتر من كده، إنت بردك وراك مصالح والتزامات.

رد عليه بمرحٍ، مظهرًا عدم اعتراضه على تقديم كل الدعم المطلوب لضمان سلامة جميع أفراد العائلة:

-اشغلني براحتك، أحسن ما "منذر" يطلع عيني.

ربت على جانب ذراعه يدعو له:

-ربنا يخليكم لبعض.

تابعت "هاجر" ما يدور بينهما من حوارٍ غير مفهومٍ بالنسبة لها، فحركت جسدها للأمام قليلاً، وتساءلت في فضولٍ:

-هو إيه الحكاية يابا؟ ليه كنت عايزني ألم حاجتي وأرجع البيت بسرعة؟ ما أنا كده كده قاعدة معاكو؟!!

كان هادئًا في رده الحازم إليها:

-مش وقته، هنحكي في ده بعدين يا "هاجر".

لم تناقش والدها في رغبته، وردت بانصياعٍ واضحٍ، رغم الحيرة التي انتابتها

-ماشي، اللي تشوفه يابا.

..............................................................

فرغ لتوه من صلاته وهو قعيد، حامدًا الله على نجاته العظيمة، من مأساةٍ أقل أضرارها ربما العجز الدائم، وأخطرها غيبوبة تامة تقضي على شبابٍ لم يتنعم به بعد. طيفها الناعم زاره مجددًا، فوجد نفسه يغمض عينيه في استسلامٍ، مستمتعًا بتلك اللحظة المميزة، لم يعد يحصي عدد المرات التي يستدعي فيها عقله ملامحها، كما لو كانت السلوى الوحيدة وسط محنته الشديدة. لفظ "تميم" دفعة من الزفير مرة واحدة، وهمس متسائلاً مع نفسه:

-يا ترى عاملة إيه دلوقتي؟

جلَّ ما شغل تفكيره، أنه يعلم جيدًا في قرارة نفسه، وعن صِدامٍ مباشر معه، أن من تزوجته لا يستحقها أبدًا، لا يرتقي –بطباعه الوضيعة- لأن ينال زوجة فريدة مثلها، بها كل ما كان يحلم به في امرأته، من سمات أنثوية لا تقارن مطلقًا مع غيرها من النساء، تلك التي تمتلك سحرًا يسلب العقول بشخصيتها التي لا تُعوض. لم يقدر تلك المرة على لوم نفسه على استغراقه في التفكير فيها، دومًا مشاعره تُغالبه، فينكث الوعود لأجل لمحة من طيفها .. كان وحيدًا في حُضورها، ومُعذبًا في بُعادها.

اعتدل بقوةٍ مفاجئة في رقدته على فراشه، فألمته تلك الحركة، وجعلت عظامه تئن بقوة، ضاقت عيناه على الأخير، وقد ولج إليه من لم يتوقع قدومهما، هتف مرددًا في اندهاشٍ:

-خير يا بشوات؟

مسح بأنظاره على وجهي ضيفيه غير الاعتياديين؛ "ماهر"، و"وجدي". لم تكن تلك حتمًا بزيارة عادية، فالعلاقات بينهما ليست من النوع الودّي، استطرد "وجدي" متسائلاً دون استهلالٍ تمهيدي:

-"محرز" كان ورا اللي حصلك يا معلم؟

ادعى عدم تذكره، فقال بنبرة شبه متعبة، متجنبًا النظر نحوهما:

-مش فاكر يا باشا، أصل كل حاجة جت بسرعة، وولاد الحرام خدوني على خوانة.

هتف "ماهر" قائلاً بجديةٍ، لم تخلُ من نظرات القلق:

-يا "تميم"، كلامنا معاك مالوش علاقة بأقوالك في المحضر بتاع الدكان، ده ليه علاقة بموضوع تاني خالص، هو شغال فيه من زمان.

نظر نحوه بعينين لا ترمشان، وسأله:

-موضوع إيه؟

لم يتردد في إخباره مباشرة؛ قاصدًا أن يرى وقع الصدمة عليه:

-تهريب المخدرات ............................................ !!

.................................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل السادس والسبعون

طرأت له فكرة متهورة، أن يعود إلى منزله، باعتبار أنه سيكون مهجورًا في الفترة الحالية، بسبب انشغال العائلة بمتابعة الحالة الصحية لابنهم المفضل، أدرك أن تنفيذ فكرته يتضمن عواقب خطيرة؛ لكنها تستحق المجازفة، فقد أراد الحصول على بعض النقود، قبل أن تنفذ القلة القليلة المتبقية معه، عله تنفعه مؤقتًا لحين حصوله على ما يكفيه. تسلل من مخبأه الآمن، واتخذ الطرقات غير المباشرة ليصل إليه، وقبل أن ينحرف من عند الناصية، تجمد في مكانه للحظاتٍ، راقب فيها المدخل جيدًا. كان "محرز" على وشك التحرك، حينما لمح سيارة ليست بالغريبة تسده، تراجع بجسده للخلف، وتوارى عن الأعين، وهو يتمتم:

-هما بيعملوا إيه هنا؟

ظل متسمرًا في مكانه، ومع هذا شعر بارتفاع دقات قلبه المتوترة، حتى كاد يخرج من بين ضلوعه، اختلس النظرات مجددًا، فرأى "منذر" واقفًا بجوار شقيقه "دياب"، وعلى جانبه "بدير"، الذي يبدو مهمومًا، ثلاثتهم يتحدثون معًا بجدية واضحة عليهم، خمن أن وجود الشقيقين هنا له صلة بـ "تميم"، وهما أخطر في عدائيتهما عن الأخير، بلع ريقه، وتراجع مختبئًا حتى يهدئ من روعته، ثم تحلى بشجاعة زائفة، وأطل برأسه من الزاوية، ما لبث أن تبدل الخوف الشديد إلى غيظ وحقد، حيث احتقن وجهه بشدة، وتصاعدت الدماء إلى رأسه؛ كأنها ستتفجر من فتحات وجهه بالكامل، عندما أبصرت عيناه زوجته

تتبادل الحديث مع "سراج"، والأخير يبدو مهتمًا بها بشكلٍ مبالغ فيه، كما لو أنه قدم له فرصة ذهبية ليتودد إليها، على مرأى ومسمع منه، وهو عاجز عن منعه،؛ كان هذا آخر ما ينقصه! الوغد يكرر ما فعله سابقًا قبل أن يفسد الأمر برمته عليه.

توقفت عقارب الساعة عن الحركة، لتعود به لسنواتٍ مضت، عندما كان فقيرًا، معدمًا، لا يملك إلا القليل، يُعد نفسه مجازًا كرئيسٍ للعمال؛ وإن كان لا يرتقي عنهم في منصبه الافتراضي، سوى بدهائه في تطبيع الأمور لصالحه، ليستفيد منها على قدر الإمكان. وقتها كلاهما كانا يجلسان أمام إحدى الشاحنات، في سوق الجملة، على مقعدين خشبيين، ينتظران انتهاء العمال من تعبئة الصناديق بالطازج من الفواكه، والخضراوات. نفخ "سراج" دخان نارجيلته في الهواء، والتفت نحوه يحادثه، بنوعٍ من الاستهلال:

-بأقولك إيه يا "محرز"...

ارتشف الثاني قدرًا من الشاي الساخن الذي يملأ كوبه الزجاجي، وقال:

-أيوه يا معلم "سراج".

تردد قبل أن يخبره بحرجٍ:

-عايز اسألك في حاجة كده، بس بعيد عن الشغل، حاجة خصوصي شوية.

ركز أنظاره عليه، وشجعه للحديث معه قائلاً بترحيب، وابتسامته السمحة لا تفارقه:

-قول يا معلم.

ترك "سراج" خرطوم النارجيلة، ومال ناحيته، ليبدو صوته قريبًا –منخفضًا كذلك- عندما نطق:

-بيني وبينك كده.. أنا عايز أفاتح المعلم "بدير" عن خطوبة بنته، عندك خبر عن الحكاية دي؟

غامت ملامح "محرز"، رغم محاولته لإظهار العكس، بينما أضاف "سراج" في حرجٍ أكبر:

-ومايصحش أسأل بردك المعلم "تميم" عن أخته، إن كان في حد في نيتهم يجوزهاله ولا لأ، ماينفعش نتكلم كده من غير إحم ولا دستور، وجايز يكون في حد سبقني، لازم نعمل احترام لغيرنا.. إنت إيه رأيك؟

ظلت تعابير وجهه غير مقروءة، لم يجد ما يخبره به؛ وكأن الخبر قد هبط على رأسه كالصاعقة، وهو الذي كان يعد العدة في الخفاء، للتودد إليها، وإظهار حسن نواياه نحوها، علها تكون السبيل للانتقال من حياة الفقر، إلى النعيم والترف. انتبهت حواسه لصوته وهو يسأله بخفوتٍ، كما لو كان يخشى- أن يلتقط أحدهم جملته تلك:

-يعني سمعت إن في حد متكلم عنها يا "محرز"، بما إنك معاهم في الدكان؟

بعد صمتٍ حذر، يكبت به غله الناقم عليه، أجابه:

-اللي أعرفه إن الحاج رافض يجوزها إلا لما تكمل علامها.

سأله بحماسٍ انعكس على نبرته وتعبيراته:

-يعني مافيش حد اتقدملها؟

نفى برده الموجز:

-لأ

استراح "سراج" في جلسته، وتابع بنبرة عازمة:

-زي الفل، خلاص أبعت الحاجة تروح عند جماعة المعلم "بدير" تتطأس كده، واللي فيه الخير يعمله ربنا.

ابتسامة متهكمة احتلت زاوية فمه وهو يغمغم إليه:

-وماله يا معلم.. يا زين ما اخترت.

هلل بعدها "سراج" بسرورٍ يكاد ينطق به كل ذرة منه:

-يالا يا رجالة، شيدوا الحيل شوية، مش عايزين نتأخر على حبايبنا.

نظرة غامضة رمقه بها "محرز"، وقد توقع ارتضاء العائلة به على الفور، باعتباره زوجًا مناسبًا، لا يوجد ما يعيبه، ما لم يفسد هذا عليه أولاً، هكذا وسوس له شيطانه الداهية!

.......................................................

أقل ما يمكن وصفه عنه، أنه شخصية انتهازية، وصولية، غير مؤتمنة، تسعى بشتى الطرق للكسب السريع، وإن كان على حساب أرواح الآخرين، فمنذ

نشأته في أسرة بسيطة، وهو يتطلع إلا ما لا يملكه؛ ما بيدِ غيره. لم يكن "محرز" راضيًا عن فقره المدقع، ولا عن سوء الظروف المحاوطة بعائلته، أوجد لنفسه الفرص لتحسين مستواه الاجتماعي والمادي، ولم يكن هذا كافيًا، لجأ للطرق غير المشروعة، على أمل أن تمنحه ما يطمع في اكتسابه، في أقل وقت ممكن، فشارك غيره في التهريب، بطرقٍ مبتكرة؛ لكنه أنفق ما حاز عليه سريعًا.

طمعه الجائع لا حدود له، فدفعه للتفكير في أساليب تتيح له اختلاس المزيد من الأموال، وبدت الفرصة سانحة، عن طريق مصاهرة عائلة "سلطان"، في البداية فكر في توجيه مخططاته نحو "خلود"، الصيد السهل، فوالدها متوفي، لن يضع العقبات أمام زواجه بها، ووالدتها على شاكلته، ترغب في الظفر بكل ما ضنّت به الحياة عليها؛ لكنها كانت قد اختارت هدفها مسبقًا؛ "تميم"، فأدار مسار الدفة نحو "هاجر"، وبدأ في تدبير الأموال اللازمة لتعينه على الظهور بمظهرٍ لائق حينما يتقدم لخطبها، وقبل أن يتحقق مراده، الذي استعد له طويلاً، فاتحه "سراج" مصادفةً في رغبته بمصاهرة العائلة، فلم يكن أمامه إلا إفسادها عليه بأحط الوسائل اللئيمة.

أنفق مبلغًا من المال للاتفاق مع بعض العمال المأجورين، على الادعاء بالكذب على غريمه، ليبدو وكأنه يخوض في أعراض الأسرة، خاصة بعد زيارة والدته الودية للعائلة، فتنطلي الخدعة على "تميم" الذي كانت به سمة مميزة ومهددة في نفس الآن؛ الاندفاع الأهوج لقطع دابر من يتجرأ بالقول أو الفعل على عائلته،

وكان ذاك مدخله، أحضر العامل منكس الرأس إليه، وهتف فيه بوجهٍ ممتقع، ليظهر بمظهر الضيق قبالته:

-تعالى ماتخفش، اتكلم وأنا أضمنلك برقبتي المعلم "تميم" مش هيتعرضلك.

رفع "تميم" عينيه نحو الاثنين مستغربًا مجيء أحد عماله إليه، في هذا الوقت المتأخر، قبل أن ينهي مراجعة فواتير اليوم، تساءل بصوتٍ متعب قليلاً:

-في إيه يا "محرز"؟

بنفس الملامح العابسة أخبره، وهو يشير بسبابته نحوه:

-الواد ده عايز يبلغك بحاجة مهمة، وماحبش يروح للحاج على طول.

التفت "تميم" ناظرًا إليه، فوجد العامل مطرقًا رأسه في خزيٍ، والخوف يكسوه، ضجر من صمته المزعج، وصاح به بزجرةٍ قوية:

-انطق ياض في إيه.

لعق العامل شفتيه، ونظر له بارتعابٍ، قبل أن ينطق بنفس اللجلجة:

-أصل يا معلم آ... الحكاية إن... كان...

قاطعه بخشونةٍ:

-أنا مش فاضيلك، لخص في الحوار.

تراجع العامل خطوة للخلف خشية غضبته الوشيكة، وقال ببطءٍ، ونظراته بين الحين والآخر تتجه نحو "محرز":

-الحكاية أصلها تخص آ... أهل بيتك، الست.. "هاجر".

هب "تميم" واقفًا، ليهجم عليه، قبض على عنقه، يخنقه منه، ثم هزه بعنف، وهو يهدر به بعدائية وحمية هائجة:

-نعم... إنت اتجننت يا (...)؟ مالك ومال أختي؟

قفز "محرز" من مكانه، وتدخل بينهما ليمنعه من الفتك به، بصعوبة انتشله من بين قبضتيه، ليرجوه بعدها:

-اهدى يا معلم، اسمعه للآخر عشان تعرف في إيه.

نطق العامل بصوته المرتجف مبررًا:

-ده ست البنات أشرف من الشرف، هو حد يقدر يجيب سيرتها بكلمة، بس الحكاية إني سمعت آ...

هدده "تميم" بصياحه الجهوري، وقد فاض به الكيل من مماطلته، التي لا طائل له بها:

-قول على طول، بدل ما أعلقك هنا!

ظل "محرز" يحول بجسده بين الاثنتين، والتفت برأسه نحو العامل مانحًا إياه إشارة من عينيه ليتابع كما شدد عليه من قبل، فأردف الأخير قائلاً باسترسالٍ:

-أنا سمعت طراطيش كلام من الرجالة في السوق، عن إن المعلم "سراج" بيقول عن الست "هاجر" بعد ما أمه زارتكم في البيت، إنها مش أد كده، وإنه ..

راقب جيدًا التعابير النارية التي اكتسبها وجهه، وأضاف باهتزازةٍ محسوسة في صوته:

-كان بيفكر يخطبها، بس الست أمه قالت عليها أنزوحة، ومش عِشرية، ولما كلمت الواد اللي هلفط بالكلام ده إنه مايصحش، دي بنت سيد رجالة السوق، قالي إن معلمه بيقول آ....

ازدرد ريقه لثانية، وأكمل:

-مافيش راجل غيره في السوق، وإن.. لولا بضاعته كان زمان آ....

تردد قبل أن يتابع بالجزء الأخير من استرساله:

-الحاج "بدير" وابنه بيشحتوا، ومش بعيد نلاقيهم واقفين على أول السوق يبيعوا للزباين بالأجل.

النظر في وجه "تميم" في تلك اللحظة كان كفيلاً لإدراك مدى الغضب العارم المسيطر عليه، وليزيد من وهج حنقه تساءل "محرز" بلهجةٍ حادة:

-إنت سمعته بيقول كده؟!

استدار العامل نحوه، وخاطبه مؤكدًا:

-أيوه يا معلم، إن شاء الله يفرمني قطر، أنا سامعه بوداني اللي هياكلها الدود، وكان معايا الواد "دُقدق"، وصبي المعلم "سراج" وآ....

لم يطق "تميم" استمراره في استفزازه، فهتف بصوتٍ كان باعثًا على الرهبة العظيمة:

-وربنا ما أنا سايبه، هاعرفه مين هو "تميم سلطان".

أوقفه "محرز" بصعوبة، ومنعه من الخروج من الدكان، وهو يحاول نصحه:

-خد حقك بالعقل يا معلم، الكلام هيكتر لو اتجنيت عليه.

رد عليه بأنفاسه المنفعلة:

-كله إلا أهل بيتي!

مشاعره في تلك اللحظة كانت خليطًا من الغضب، والهياج، وزادها حدة قول "محرز" الماكر، ليضمن تحقيق غرضه:

-والله أنا ما عايز أتكلم من زمان، بس فعلاً هو بيغير منك يا معلم "تميم"، كذا مرة يقولي كلام زي كده، وأنا ساكت، وماحبش حد يقول عني بوقع بين معلمين السوق.

عنفه بغلظةٍ، وقد ظهر عليه تأثير كلامه:

-كنت تقول.

أسبل "محرز" عينيه، وعلق بخذلانٍ مفتعل:

-بردك العين متعلاش عن الحاجب.

في تلك الأثناء، بعد أن فرغ من صلاة العشاء، حضر الجد "سلطان" إلى الدكان، وجه أنظاره نحوه حفيده المستشاط غضبًا، سأله مستفهمًا:

-في إيه يا "تميم"؟

توتر "محرز" من مجيئه، وأشار للعامل بإيماءة خاطفة من رأسه ليبتعد، ونظر في اتجاه "تميم" الذي هدر بصدره الناهج:

-الكلب "سراج" جايب سيرة أختي.

تطلع إليه الجد مطولاً، قبل أن يسأله مجددًا، بعقلانية هادئة، ومغايرة للعصبية الهوجاء المستبدة بحفيده:

-وإنت اتأكدت من الكلام ده؟ ولا رايح تتخانق عمياني كده؟!

كان يلهث من فرط انفعاله عندما جاوبه:

-عايزني أسكت يا جدي؟ هستنى إيه تاني؟ لما نلاقي الواغش بيألفوا حكايات عن "هاجر"؟

أتاه رد جده بنفس الصوت الهادئ:

-أه تسكت لحد ما نتأكد، مش جايز يكون الكلام غلط؟

وقبل أن يعارضه أمره بصرامةٍ:

-إنت تفضل هنا لحد ما نشوف إن كان صح ولا لأ

احتج بغضبٍ شديد:

-بس يا جدي كده آ....

قاطعه بلهجته غير المفاوضة:

-أنا قولت إيه؟

أمام نظراته الصارمة، وحزمه الواضح، اضطر أن يرضخ له؛ لكنه أخبره بزمجرةٍ، بما يشبه الوعيد:

-ماشي يا جدي.. بس وعزة جلال الله لو طلع حقيقي، هاخش فيه اللومان.

انسحب "محرز" من المشهد، لاعنًا في سره، فلو جاء الجد متأخرًا دقيقة واحدة، لما تمكن من اللحاق به، ولسُفكت الدماء في الحال.

..........................................................

حربٌ باردة اندلعت -لاحقًا- دون سبب معلوم بين أفراد العائلتين، قُطباها يحتفظان بمشاعر عدائية، تضاعفت مع ازدياد الحاجة، لتوريد بضائع جديدة، شحَّ تواجدها في السوق، وكانت تلك القشة التي استغلها "محرز" مع استمراره في بث سمومه المغلوطة، لكلا الطرفين، ليبدو وكأنهما يتحينان الفرصة، للتنكيل ببعضهما البعض، وقد حدث ما تمناه! وقامت تلك المشاجرة العنيفة في السوق، توقع فيها "محرز" أن يقتل أحدهما الآخر؛ لكنها انتهت بحبس "تميم"، وإقصاء "سراج" عن ساحة التجارة لبعض الوقت، مع ضمان عدم وجود أي بادرة صلح بين الطرفين.

نعم، كانت له طريقته الخبيثة الداهية في التقرب من "بدير"، وقلب الحقائق لصالحه، ليبدو في نظره المخلص المجتهد في عمله، ورويدًا رويدًا تولى إدارة الأعمال، وتعميق الصلات بالزواج من "هاجر"، ليستمر على منواله اللئيم في استنزاف وسرقة أموال العائلة، بذكاءٍ كبير، متلاعبًا في أصول الأوراق، والمستندات، وكافة ما له صلة بفواتير الشراء، إلى أن خرج "تميم" من محبسه، فارتبكت كل حساباته، وضاق الخناق عليه.

أفاق من دوامة الذكريات على صوت تشغيل محرك السيارة، تأكد من عدم رؤيتهم له، أثناء مرورهم من جواره، وأولاهم ظهره؛ لكن بقي الغل يحرق في كبده، كز على أسنانه هامسًا بحقدٍ لا طائل له:

-هي بقت كده خلاص؟

احتفظت تعابيره بعلامات الشر، وأضاف بوعيدٍ لن يخل به:

-مش هتخرب عليا بس، هاخليها على الكل!

.............................................

حديثه المباشر عن تورط زوج شقيقته في قضايا تهريب خطيرة، خاصة تلك المرتبطة بالمواد المخدرة، صدمه على نحوٍ مشمئز، ورغم استنكاره لوضاعة "محرز" وخسته التي تنكشف يومًا بعد يوم، إلا أنه لم يتوقف عن لوم نفسه، لمنحه ثقته لمثيله من الخونة، بل ومصاهرته أيضًا، وإن لم يكن حاضرًا آنذاك؛

لكنه أعطاه مباركته لإتمامها. استند "تميم" على كفيه، ليعيد ظهره للخلف، مستمعًا إلى "وجدي" الذي استطرد قائلاً:

-"محرز" مجرد أداة في إيدين ناس تانية، بيحركوها على مزاجهم، واحنا دورنا كرجال قانون نوقع كل اللي مشغلينه.

تساءل "تميم" بصوتٍ شبه متحشرج:

-والمطلوب مني إيه؟

تحرك "ماهر" من مكانه ليدنو منه، ساحبًا بيده مقعدًا معدنيًا، كان ملتصقًا بالحائط، وضعه بجواره، وجلس عليه، ثم أجابه:

-عايزينك تتعاون معانا، بصورة سرية، وتجيبلنا المعلومات اللي تلزمنا.

علق "تميم" بتهكمٍ صارخ:

-يا باشا سيادتك جاي تتريق عليا؟ معلومات إيه اللي هاعرف أجيبها وأنا بالحالة دي؟ هو أنا قادر أقوم من مكاني؟

نظر في عينيه، وقال بهدوءٍ:

-المعلومات دي متوقعين إن جزء منها يكون عند... أختك

اصطبغت بشرته الباهتة بحمرة غضبه، وهتف بعصبيةٍ انعكست في نبرته:

-نعم؟ أختي؟

أكد له بإيماءة صغيرة من رأسه:

-أيوه.

احتج بغلظةٍ تسببت في إيلام صدره:

-لا متأخذنيش يا باشا، أنا أختي مالهاش دعوة بأي حاجة.

دون تحيزٍ أو انفعال قال له، محاولاً إقناعه:

-احنا واثقين من ده، بس بدل ما يكون الاستدعاء رسمي، وتتبهدل في الأقسام والنيابة، أنا حابب ده يتم بصورة ودية، بعيدًا عن جو المجرمين، أُكيد إنت متحبش تشوف أختك هناك؟

منطقيته الواضحة غلبت تعصبه الملازم له، وعلى الرغم من التمرد البادي عليه إلا أنه سأله:

-وهي هتعرف تفيدكم إزاي؟

جاءه الرد هذه المرة من "وجدي"، حيث قال:

-أُكيد زي أي واحدة قاعدة مع جوزها، هياخد راحته معاها، يفضفض عن شغله، ويقولها عن شوية أسرار.

التفت نحوه، وخاطبه بتبرمٍ:

-ماظنش "محرز" بالغباء ده.

كان صوت "وجدي" مغلفًا بالبرود وهو يعقب عليه:

-مش هنخسر حاجة.

في حين استأنف "ماهر" باقي حديثه موضحًا له:

-احنا شغالين في كذا اتجاه، ومحتاجين كل مساعدة متاحة عشان نقدر نمسك بالمجرمين دول.

أضاف "وجدي" من ناحية أخرى:

-وهنستدعي كمان أخو مراتك للتحقيق معاه.

انزوى ما بين حاجبيه في نكرانٍ شديد وهو يدمدم:

-مراتي؟!

أخبره "ماهر" ببساطة:

-أيوه، مدام "خلود".

صحح له بزفيرٍ ثقيل، وبعينين ملتهبتين من غضبه المتزايد بداخله، نتيجة ما يتلقاه من أنباء غير سارة:

-لأ، دي طلقتي يا باشا...

تبادل "وجدي" نظرة اندهاش مع "ماهر"، في حين تابع "تميم" متسائلاً بتوجسٍ:

-هي ليها علاقة بـ "محرز" كمان؟

نفى على الفور "ماهر"، مانحًا إياه مزيدًا من الإيضاح:

-لأ، بس معروف إنه كان صاحب "نوح"، اللي اتقتل من فترة، أكيد إنت عارفه؟

زفر بثقلٍ قبل أن يقول:

-أيوه

اعتبر إفصاحه عن القادم نوعًا من المجازفة؛ لكنه كان مضطرًا للجوء لكل وسيلة متاحة، لإحكام الطوق حول "محرز"، ومن ثم الوصول إليه، حتى تتذلل عقبة الوصول إلى "آسر"، خاصة مع تعذر التواصل مع "فيروزة"، لذا استمر في حديثه معه متابعًا:

-بعد تفريغ كاميرات المراقبة الموجودة في المنطقة اللي ساكن فيها القتيل، اكتشفنا إن "محرز" كان طالع معاه بيته، وبعدها بفترة بسيطة نزل، وكان مش على بعضه.

سأله "تميم" كنوعٍ من التخمين:

-يعني هو اللي قتله؟

أخبره "ماهر" بتريثٍ، ودون أن تكون إجابته حاسمة:

-في احتمال كبير يكون ليه يد في موضوع قتله، وخصوصًا بعد التحريات الدقيقة، مصدرنا أكدت إنه علاقته بيه من زمان، وكان معاهم "هيثم"!!!

احتدت نظرات "تميم" بشكلٍ ملحوظ، وقبل أن يساء فهم كلامه، أوضح له "ماهر":

-بس مش متورط معاه في التهريب، أخره كان سهرات من إياها.

تساءل "تميم" بحيرةٍ سيطرت عليه:

-وهو "هيثم" هيعرف إيه زيادة؟

أجابه بنظرة نافذة:

-السكك اللي ممكن يكون مستخبي فيها...

لمحة من التردد انعكست على تعابيره عندما أضاف "ماهر" بنبرة ذات مغزى:

-احنا عارفين إن حبايبك معاك، وجايز توصل معاهم لـ "محرز" قبلنا.

سأله بهدوءٍ مصطنع، محاولاً إخفاء ربكته:

-بتكلم عن مين يا باشا؟

ببساطةٍ شديدة أخبره:

-ولاد "طه حرب".

رمش بعينيه، وقال متهربًا:

-أنا مش فاهم حاجة.

بوجهٍ جاد التعبيرات علق عليه "ماهر":

-لو مسكتوه، ماتخلصوش عليه.. يلزمنا، وصلت كده يا معلم؟

بعد أن كشفت جميع الأوراق، وأصبح اللعب متاحًا للجميع، ظل "تميم" محافظًا على ثباته، وراوغه في الحديث قائلاً بإرهاقٍ لم يزيفه:

-ادعيلي أقوم بالسلامة يا باشا، وأنا بنفسي- مش هرتاح إلا لما أجيبه لحد عندكم.

قال "ماهر" مبتسمًا:

-هاعمل نفسي مصدق كلامك، و...

توقف لهنيهة عن الحديث لينهض من جلسته، وتابع:

-وحمدلله على السلامة.

تنحنح الأخير بحشرجة خفيفة قبل أن يرد مجاملاً:

-الله يسلمك يا باشا.

انصرف بعدها الضابطان، ليتركاه في حالة من مشاعر الغضب والخزي؛ الأولى لكونه عاجزًا عن التحرك بحرية بسبب عطب جسده، والثانية لعدم استطاعته حماية عائلته من أمثال الوغد المتلون "محرز".

.............................................................

ضاق صدره من كم العمل الزائد المفروض عليه، والذي تطلب منه المكوث بعد ساعات العمل الرسمية لوقتٍ إضافي، حتى ينتهي كليًا من مراجعة ما بحوزته،

من أوراق. نهض الموظف الجالس في المكتب المجاور له عن مقعده، وسأله بتثاؤبٍ:

-أجيبلك قهوة معايا يا "خليل"؟

رفع رأسه عن الملفات المفتوحة التي يزدحم بها سطح مكتبه، ورد بتبرمٍ؛ وكأنه يشكو له تشبع جسده بالكافيين:

-ده أنا شارب يجي 3 قهوة، و4 شاي، معدتي قفلت خلاص.

همهم الموظف في استياءٍ، بصوته الخافت:

-منه لله المدير الجديد، حبكت يعني يعوز الدفاتر الجرد كلها النهاردة.

عقب عليه بنفس الصوت الخفيض:

-كل ما يجبولنا واحد جديد، نعمل نفس الموال، أما طفحنا.

زفير متعب خرج من جوف زميله، لينطق بعدها:

-هانت.. فاضل كام حاجة ونخلصها.

أمّن عليه "خليل" متمتمًا:

-يا مسهل.

عاد لينهمك في مراجعة الأوراق بتركيزه الشديد، إلى أن قطعه رنين هاتفه المحمول، المسنود على ميمنته، مدّ رأسه في اتجاهه، وحملق في الاسم الذي أنار

الشاشة، بدت ملامحه متجهمة قليلاً، عندما عرف أن المتصل أحد جيرانه بمنزله الآخر، تساءل مع نفسه بتذمرٍ:

-وده بيتصل ليه؟

توقعت أن يكون اتصاله –كالعادة- له علاقة بجمع الأموال من سكان المنطقة، لإصلاح تلفٍ ما تأخر الحي في الاهتمام به، لم يستطع التهرب منه، فجاره اللحوح لن يتوقف عن مهاتفته، لهذا لم يكن أمامه مفرًا من الإجابة عليه، فخاطبه بنبرة متعجلة:

-سلامو عليكم، إزيك يا حاج "عماد"؟ إيه الأخبار عندك؟

كان صوته مهمومًا حزينًا، لا يبشر بخيرٍ وهو يتكلم معه:

-مش عارف أقولك إيه يا أستاذ "خليل"، قلبي عندك والله.

أدرك من حديثه الغامض أن هناك خطب ما، انتصب كتفاه، وتساءل بتلهفٍ:

-حصل إيه؟

صمتٌ طويل تخللته نهنهات متألمة جعلت قلبه ينقبض، كرر "خليل" سؤاله عليه بقلقٍ متعاظم:

-ما تقول يا حاج "عماد"، في إيه؟

بنحيبٍ مسموعٍ مع صوته أجابه:

-جماعتك يا أستاذ "خليل"... تعيش إنت..

تلقائيًا نطق باسمها غير مصدقٍ ما أخبره به:

-"سماح"؟ إنت بتقول إيه؟

-البيت ولع باللي فيه من شوية، والناس حاولت تنجد جماعتك، بس أمر الله نفذ!

اضطربت أنفاسه، وهربت الدماء من وجهه ليغدو كالأموات وهو يردد مصدومًا:

-مش ممكن، لأ!

ترك عمله مندفعًا كالأعمى، يسابق دموعه التي فرت من عينيه حسرةً على خسارته، ولم يعلم بعد أن المزيد ينتظره!

..................................................

أحست كم هي ضائعة، وهي تتطلع بنظرات فارغة، للردهة الطويلة –باهتة الإضاءة- المستندة بجانبها على حائطها البارد، إلى حيث نقل "هيثم" أولادها الثلاثة للمشفى القريب، من أجل إنقاذهم. سرحت "حمدية" في أفكارها المتداخلة، تتذكر شغف أبنائها بتناول بقايا العجين الطازج الذي كانت تعده "آمنة" ببراعة لا تقارن، ولهفتهم على تذوقه نيئًا، كما لو كان مذاقه الخطير لا يضاهيه شيء، كما اقتحم عقلها مشهد إعدادها للكعكة المشؤومة، وكيف تفانت في تجهيزها هذه المرة، بعد أن اختبرت فاعلية مكوناتها لبضعة مرات سابقة، الفارق أنها أفرطت في وضع الفانيليا لإخفاء المذاق الغريب، وخلطت

المادة السامة باللبن، ليبدو الخليط في النهاية متجانسًا، خطأها غير المقصود أنها احتفظت بالبقايا في صحنٍ صغير، كروتين متبع، عقب كل مرة تنتهي منها من تجهيز العجين، في درج الثلاجة.

تذكرت بين ضلالاتها أن أحد أبنائها رأى الوعاء، وكاد أن يختطف منه قطعة، إلا أنها نهرته بغلظةٍ، وهي تضرب كفه بعنفٍ:

-إياك تمد إيدك، وامشي من هنا يا زفت.

نظراته الحزينة مع شفتيه المقلوبتين في عبوسٍ، كانت آخر ما احتفظ به وجهه البريء، لم تمنحه اهتمامها آنذاك، تجاهلت قهره، وبقي كامل تفكيرها منصبًا على الكعكة. تلقائيًا ارتفع كفاها للأعلى تلطم بهما صدغيها، بعد أن تجسد طيف وجهه الوهمي أمامها، وصوت نواحها يهتف في ندمٍ:

-يا ريتني ما زعلتك يا ضنايا، حقك عليا يا غالي.

اتجهت الأعين إليها، خاصة "هيثم"، راقب ردات فعلها بأسفٍ، فالمصاب جلل، لا يمكن احتماله، أقبلت عليها "آمنة" تحتضنها، حاولت أن تشد من أزرها، وتهون عليها ألمها، تدعو الله أن ينجيهم من الموت. أبعد "هيثم" نظراته عنهما، وتطلع إلى زوجته التي لم تتوقف عن البكاء.. متحجر القلب، من لا يتأثر برؤية الحزن الثقيل الجاثم عليهن! جاهد ليبدو متماسكًا أمام الانهيار المسيطر على الثلاثة، اشرأب بعنقه للأعلى في توترٍ، حينما رأى أحد الأطباء يلوح إليه. تحرك في خفة نحوه، وسأله وهو يختطف النظرات نحو "حمدية" التي بدت مفصولة عمن حولها:

-طمنا يا دكتور؟

وجهه عكس الأخبار غير الطيبة، ضغط على شفتيه، وأخبره بأسفٍ لا يخلو من المواساة:

-مش عارف أقولك إيه والله، وأنا شايف الأم مقطعة نفسها هناك.

ما قاله كان تمهيدًا للأسوأ، والذي بدا مؤلمًا حد الموت وهو يتابع:

-شيدوا حيلكم يا جماعة، التلاتة في ذمة الله.

زلزلة عظيمة ضربت بجسد "هيثم"، والذي فُرض عليه تلقي مثل تلك الأخبار المفجعة، شعر أثناء سماعه لها بقلبه يهوي بين قدميه حسرةً على الخسارة الفادحة، لم ينطق لسانه سوى بكلمات الذِكر:

-إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم يكن الطبيب واثقًا إن كان يتابع حديثه أم لا؛ لكنه أضاف بلهجةٍ تحولت للجدية:

-الأمل في إنقاذهم كان تقريبًا معدوم، وخصوصًا بعد التأكد من إن الأعراض اللي كانت سبب في وفاتهم راجعة للتسمم.

بدا صوته أجوفًا متباعدًا وهو يقول:

-اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه.

واصل الطبيب إعلامه بهدوءٍ:

-أنا مضطر أبلغ البوليس، لأن في شبهة جنائية في وفاتهم...

لم ينتظر قراره، واختتم حديثه مواسيًا:

-وربنا يصبركم

تحركت عينا "هيثم" نحو زوجته التي كانت تنظر ناحيته أيضًا، أدركت الأخيرة من شحوبه المريب، ودموعه الزاحفة على صفحة وجهه، أن الفاجعة لا تُحتمل، ارتفعت أصوت شهقات بكائها المتقطع عاليًا، ليتحول بعدها لعويلٍ صارخ يفطر القلوب المكروبة ............................................ !!!

..................................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل السابع والسبعون

تقدم ناحية المكان الذي تجلس به، وعيناه مغرورقتان بالدموع، مد يده نحو ذراعها، قبض عليه بلطفٍ، وسحبها من مقعدها بعيدًا عن والدتها وزوجة خالها، فمثل تلك الأخبار المفجعة تحتاج لتمهيدٍ مسبق، حتى لا يكون وقعها مميتًا على من يتلقاها، حاوط "هيثم" زوجته من كتفيها بذراعه، وسار بها في اتجاه السلم، وهناك استطرد يقول بصوته المختنق، وتلك الغصة تجرح حلقه:

-إنتي مؤمنة بقضاء الله وقدره.. صح؟

وضعت "همسة" يدها على فمها تكتم شهقاتها الصارخة، فتابع يوصيها:

-مش عايزين صريخ، ربنا اختارهم يكونوا من لؤلؤ الجنة، هما راحوا عند اللي أحسن من اللي الكل، ده قضائه.

لم تستطع نفسها من البكاء قهرًا على وفاتهم، انفجرت في نوبة مريرة، عجزت عن ضبط انفعالاتها المتحسرة فيها، كان من الحكمة أن انفرد بها بعيدًا عنهما، وإلا لامتلأت جنبات المشفى بوابلٍ من الصراخ العنيف، لن يزيد القلوب سوى ألمًا وانفطارًا. تنفس بعمقٍ، وأخبرها على مهلٍ:

-خلي أمك تكلم أبوهم، متقوليش ليها حاجة دلوقتي، لحد ما هو يجي...

بدت غارقة في بكائها الشديد، فوضع يده على جانبي كتفيها يهزها برفقٍ منهما، وهو يسألها:

-إنتي سمعاني؟

أجابت بصوتٍ متقطعٍ بالكاد استطاع فهمه:

-صعبانين .. عليا .. أوي، هما مالهومش ذنب.

عبارات المواساة أحيانًا في مثل تلك المواقف العصيبة، يتعذر النطق بها، قد تبدو فارغة، غير مجدية لمن يعاني من ويلات الفراق، فالراحلون ذهبوا للأبد، وتركوا من خلفهم لوعة الاشتياق لوجودهم! استدمعته تلك المشاعر، وحجزت العبرات في حدقتيه، تنفس على مهلٍ، ثم تابع بصوته المغلف بحزنٍ ثقيل:

-ربنا يصبر أهلهم، ويعينهم على اللي هما فيه..

انتظر للحظة قصيرة، وقال:

-أنا هاوصي الدكتور والمرضين يفضلوا مكتمين على الخبر لحد ما يوصل خالك، وجوده أكيد هيفرق مع أمهم.

هزت رأسها بإيماءة موافقة، ومسحت بمنديلها الورقي الدموع المبللة لوجهها، قبل أن تتحرك ناحية والدتها لتطلب منها تنفيذ ما أمره بها زوجها.

..........................................................

من بعيد بدت له، كبؤرةٍ من الكتل البشرية المتزاحمة فوق بعضها البعض، وحين اقتربت خطواته المتخبطة من المكان، ترأى له بوضوحٍ، أنه كان حشدًا غفيرًا أتى من كل حدبٍ وصوب، لتفقد البناية التي بدت كأتونٍ من الجحيم. زاد ازدحام المنطقة بعربات الإسعاف، النجدة، والمطافئ، فأصبحت الحركة عسيرة على الغالبية. جرجر "خليل" قدميه نحو منزله، شخصت أبصاره وهو

يرى كيف تحول المكان الذي كان يأويه فيما مضى.- لركام وأطلال دُفنت فيه ذكرياته مع أحبابه. ضربات خفيفة تلقاها على كتفيه، كنوعٍ من المواساة، أثناء شقه الطريق إليه. منعه الطوق الأمني المفروض حول العمارة وما حولها من الصعود إلى الأعلى؛ لكن هذا لم يوقف صوته عن الصراخ مناديًا:

-"سمـــــاح"! "رقيـــــة"!

لفت الأنظار نحوه، فحاوطه جيرانه، والإشفاق يبدو ظاهرًا عليهم، ربت أحدهم على كتفه يواسيه:

-شد حيلك يا أستاذ "خليل".

وقال آخر بحزنٍ عميق:

-ادعيلها بالرحمة.

لم ينظر بعينيه الزائغتين نحو أي أحدٍ، بقيت أنظاره معلقة للأعلى، ولسان حاله يردد في إنكارٍ شديد، رافضًا تصديق ما حدث لهما:

-هما مماتوش، أنا كلمتهم من بدري، إنتو مش عارفين حاجة.

علق عليه أحدهم من الخلف، وهو يشاطره الأسى:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يصبرك.

بقي متبلدًا في مكانه، لا يقوى على الحركة، عيناه فارغتان، وعقله محجوب التفكير عنه، سد أذنيه عن شبيه هذا الكلام الغريب، أوهم نفسه إنها مجرد

عبارات سخيفة لا معنى لها، إلى أن أفاق من صدمته، وانهار مع رؤيته لكيس الجثث الأسود، يمر من جواره، يحمله المسعفين نحو عربة الإسعاف، وصيحات التوحيد، والترحم على المتوفية ترتفع من ورائه، هزة عنيفة نالت من جسده، وأحدهم يواسيه مجددًا:

-ادعيلها يا أستاذ "خليل" بالرحمة.

شهق باكيًا في حسرةٍ، وهو يهتف بصوته المختنق:

-"سماح" لسه عايشة، هي ما.. ماتتش.

تفهم المتواجدون من حوله حالته العقلية المضطربة، فقلبه اضطرمت فيه نيران الوجع، خاصة والجميع يعلم مدى ارتباطه الوثيق بزوجته، وتعلقه بطفلتهما الصغيرة، خسارة مثل تلك لا يسهل احتمالها! مرت الدقائق عليه كأنها ساعات، ازداد نحيبه مع حجم الألم المتولد في صدره، ذاك الوجع الذي لا يمكن مداواته مطلقًا، عفويًا التقطت يده هاتفه المحمول حين اهتز في جيبه، رفعه إلى وجهه، ليجيب على المتصل، صوتًا أنثويًا مكتومًا رن في أذنه:

-"خليل".

تحرك فكه لينطق بصعوبة، وسط بكائه الشديد:

-ألوو.. "آمنة".

سألته بنبرتها الباكية:

-إنت.. فين يا "خليل"؟

من بشاعة المشهد وقساوته، غاب عن ذهنه بعض الحقائق البسيطة؛ عدم معرفة شقيقته بأمر زيجته الثانية، لهذا لم يكن واعيًا بالقدر الكافي، ليستوعب سبب بكائها خلال اتصالها المفاجئ به. سألها بحسرةٍ موجعة، وقد اعتقد أنها تشاركه أحزانه:

-شوفتي اللي حصل يا "آمنة"؟

ظنت أن الأخبار السيئة وصلت إليه، فكان سؤالها متقطعًا، مصحوبًا بوجعٍ محطم للقلوب:

-إنت .. عرفت؟

أجاب عليها بنواحٍ:

-كانوا كويسين، أنا مكلمهم الصبح.

رددت على مسامعه بألمٍ كبير:

-ربنا ليه حكمة في كده.

سألها والحسرة تتوغل في كامل روحه، لتزيد من عذابه:

-هما عملوا إيه عشان ده يجرالهم؟

هتفت ترجوه بنشيجٍ:

-امسك نفسك يا خويا، مراتك عايزاك جمبها.

وكأنه تلمس بارقة الأمل في كلماتها الأخيرة، وسألها بلوعةٍ قاسية:

-"سماح"؟ هي عايشة؟

استغربت من هذا الاسم الغريب الذي نطق به لسانه، وصححت له بدهشةٍ طفيفة:

-"سماح" مين دي؟ أنا بأكلمك عن "حمدية" يا "خليل"، احنا في المستشفى وعايزينك.

كان كمن أصابته صاعقة أخرى، توقف عن الكلام، وشرد بذهنه عنها، غابت عن عينيه الصور، وبدا مشتتًا عن استيعاب أي جديد يُقال الآن، بؤبؤاه تحركا في اتجاه صاحب الصوت الرجولي الذي ناداه:

-يا أستاذ "خليل"...

انخفضت يده الممسكة بهاتفه المحمول عن أذنه، وصوت "آمنة" يهتف:

-يا "خليل"! إنت سامعني؟

أنهى الاتصال، ليركز مع جاره "عماد" الذي واساه بأسفٍ:

-شد حيلك، كله مقدر ومكتوب...

جفل بدنه بالكامل وهو يُعلمه:

-أنا عايز أقولك إن بنتك "رقية" نقلوها على المستشفى، تعالى أوديك عندها.

ارتجفت شفتا "خليل" مهسهسًا باسمها:

-"رقية"!!!!

........................................................

برائحة ما زالت خانقة، محملة بالأدخنة المؤذية، استمر رجال القانون في فحص المكان، طقطقات الخشب المحترق كانت مسموعة، لكل من يخطو فوقه بحرصٍ، رغبة منهم ألا تفسد الخطوات غير المدروسة ما يمكن الاستدلال عليه، لإظهار معالم الجريمة محل التحقيق. أثناء ذلك، سار اثنان من المسئولين، تبدو على هيئتهما الخارجية أهمية منصبهما القانوني، بتمهلٍ حذر على الأرضية المتفحمة، توقفا عند عتبة المطبخ، يتطلعان إليه في اهتمام. تأمل وكيل النيابة، المكلف بتفقد مسرح الجريمة، ما يحويه المطبخ من بقايا هالكة، بنظراتٍ دقيقة فاحصة له، وبدأ حديثه مستفيضًا في طرح بعض الدلائل:

-واضح كده من المعاينة المبدأية للبيت، واتجاه اشتعال الحريق، إنها بفعل فاعل، مش قضاء وقدر.

ثم انصت بعنايةٍ للضابط المسئول عن التحقيق في هذه القضية عندما ناقش معه الملابساتِ الجديدة تم الوصول إليها:

-رجالة المعمل الجنائي قالوا إن عيون البوتجاز كلها كانت مفتوحة، في الوقت للي مكانش في أي حلل عليه.

تركزت عيناه على ما كان يبدو موقدًا من قبل، والتفت نحو الأخير الذي واصل القول:

-ده غير في بعض السكان قالوا إنهم كانوا شامين ريحة غاز من بدري.

حاوره وكيل النيابة بهدوءٍ:

-مش بأقولك، احنا كده مضطرين نوسع دايرة الاستجواب ونسأل أهالي الحتة، جايز حد يكون شاف ولا سمع حاجة.

أشار الضابط للوكيل بيده ليتحركا بعيدًا عن المطبخ، عاد كلاهما للردهة المتسعة، جالت أنظارهما على الأريكة التي ما زالت تحتفظ ببقايا النسيج المحترق من جسد الضحية، أشار وكيل النيابة بيده نحوها، وأردف قائلاً بنبرته الرزينة:

-الغريبة من مكان وضع الجثة، إنها ماتحركتش، مع إن الطبيعي إنها تحاول تنقذ نفسها، أنا حاسس إن في شيء مريب في وفاتها!!

نقر الضابط بسبابته على جانب وجهه، وعلق بتعابيرٍ شديدة الجدية:

-احنا مضطرين ننتظر تقرير الطب الشرعي بعد ما يشرح الجثة.

استدار الوكيل ليواجهه، وأخبره بلهجةٍ شبه آمرة:

-عمومًا ابدأ في استجوابك للأهالي لحد ما نجمع أطراف الخيوط مع بعض.

هز رأسه بامتثالٍ مظهرًا طاعته له، واقتضب في قوله:

-تمام يا باشا.

....................................................

أمام عربة الإسعاف المفتوح بابها الخلفي، جلست إلى جوار ابنتها، ولسانها يلهج بالشكر، لم تتوقف عن احتضانها، كما غمرت صدغيها بعشرات القبلات الحنون، كلما تذكرت أنها أوشكت على خسارتها، نظرت لها والدتها ملء عينيها، وهتفت تردد في تضرعٍ:

-اللهم لك الحمد والشكر يا رب، أنا مش مصدقة نفسي.. ده روحي راحت مني، وافتكرتك بعد الشر عنك آ...

قاطعتها "دعاء" قبل أن تتم جملها قائلة:

-ربنا لطف بيا يا ماما.

ردت عليها أمها بعزمٍ:

-أنا لازم أطلع حاجة لله حلاوة نجاتك.

اشرأبت "دعاء" بعنقها لتحملق في الرماد الأسود الذي كسا واجهة البناية، باعدت نظراتها عنه، ودمدمت بغصةٍ آسفة:

-اللي صعبان عليا أبلة "سماح"، و"كوكي".

هزت والدتها رأسها في أسى، وأضافت عليها:

-بيقولوا لحقوا البت، بس أمها بقى ربنا يرحمها، ويصبر أهلها على فراقها.

-يارب

التفتت كلتاهما نحو الرجل الذي دلت ثيابه الرسمية على عمله بالسلك الشرطي، حين صاح بلهجته الخشنة:

-يا ست!

ردت عليه "أم دعاء" قائلة:

-أيوه يا شاويش.

أشار بيده نحو تجمعًا على بعض خطواتٍ، وقال:

-البيه الظابط عايز يتكلم مع بنتك شوية.

سألته في جزعٍ وهي تلطم على صدرها:

-ليه؟ هي عملت حاجة؟

طمأنها بصوته الأجش:

-ده إجراء روتيني يا حاجة، بيتعمل مع كل السكان.

دون تفكيرٍ أخبرته بصوتها الحاسم:

-طيب، أنا جاية معاها.

نظرة حائرة تبادلتها مع ابنتها، قبل أن تستعد الاثنتان للذهاب إلى الضابط، وصوتٌ مُلح يتردد في عقل الأم:

-هايكون عايز منها إيه يا ترى؟

.........................................................

مرت اللحظات ثقيلة ومؤلمة عليه، خلال انتظاره بالمشفى الحكومي، حيث تُعالج طفلته الناجية، ولولا وجود "عماد" معه، لخر جسده المتخاذل مفترشًا الأرضية القاسية، تضرع في رجاءٍ شديد أن يرأف المولى بحاله، وينجيها. نظر لوجه جاره الذي بدت علامات الإشفاق والتعاطف معه واضحة، حاول الأخير أن يهون عليه حزنه، فقال له:

-إن شاءالله خير، الدكتور دلوقتي هيطلع من جوا ويطمنا، الحمدلله إنها جت على أد كده.

غمغم في ألمٍ:

-هو في مصيبة أكتر من كده؟

وضع يده على كتفه، وضغط عليه برفقٍ، قبل أن يخبره:

-امسك نفسك، بنتك محتاجاك.

نهج صدره بالبكاء الحارق، وظل ينوح خسارته التي لا تعوض إلى أن ظهر أمام عينيه المتورمتين رجلاً يرتدي معطفًا أبيض اللون، تساءل الطبيب في هدوءٍ، وهو يوزع نظراته بينهما:

-مين فيكو والد الطفلة "رقية"؟

على الفور نطق "خليل" بصوته الملتاع:

-أنا! هي عاملة إيه؟

تمهل في حديثه عندما خاطبه:

-الحمدلله احنا لحقناها، لو كانت استنت أكتر من كده، الله أعلم كان ممكن يجرالها إيه، وخصوصًا إنها فقدت وعيها من كمية الغاز اللي ملى الرئتين.

ردد "عماد" في امتنانٍ:

-الحمدلله يا دكتور، مكتوبلها عمر جديد.

بقيت عينا الطبيب مثبتة على "خليل" وهو يكمل سرد ما قام به، من روتينٍ متبع مع الحالات الطارئة:

-لازم حضرتك تعرف إننا عملنا للطفلة غسيل معدة كمان، بعد ما اكتشفنا وجود قيء على هدومها، وبقايا أكل غير مهضوم في بؤها.

بدا "خليل" مصدومًا مما يسمعه، ولم يستطع بعقله المشتت أن يستجمع مقصده في حين عمق "عماد" من نظراته نحوه، وسأله بتشكيك:

-وده ليه؟

تلك المرة التفت الطبيب نحوه، ليجاوبه مفسرًا، بنبرة هادئة مضبوطة:

-كان لازم نعمل اللازم مع حالتها الحرجة، وبعد التحليل الأولي للعينة، من الواضح إن هي عندها حساسية لمادة اللاكتوز، وكلت حاجة فيها منتجات ألبان بكمية كبيرة، حفزت خلاياها ضده، وطبيعي إن جسمها يتفاعل بالعكس

مع مادة مش متجاوب معاها، ده غير إن في مواد تانية كانت موجودة ضمن العينة، دكاترة المعمل بيحللوها، ووقت ما تطلع النتيجة هاعرفك.

تساءل "عماد" في حيرةٍ:

-طب ده يأثر عليها؟

كان كلامه محايدًا عندما رد:

-هنشوف، الطفلة محطوطة تحت الملاحظة حاليًا، وغير مسموح بزيارتها.

ألح عليه "عماد" بسؤاله، وهو يمسح بيده على ظهر "خليل":

-يعني أبوها مش هايعرف يشوفها؟

نظر له بجديةٍ قبل أن يصبح تعبيره رسميًا:

-دلوقتي لأ، بس هنحتاجه يكون موجود عشان باقي الإجراءات الخاصة بالمحضر.

دون تردد أتت جملة "عماد" حاسمة:

-احنا مش رايحين في حتة يا دكتور.

جاء تعليقه عليه كنوعٍ من المواساة:

-ربنا يطمنكم عليها.

انصرف الطبيب بعدها ليتابع عمله، فاستدار "خليل" نحو جاره واضعًا يده على ذراعه، وجد نفسه يقول له، بما يشبه التوسل:

-بنتي يا "عماد"، مش عارف أساعدها.

هتف يطمأنه بتريثٍ، عله ينجح في التخفيف مما يعانيه:

-الدكتور قال هتبقى كويسة.

زاد من توسله له قائلاً:

-عايز أشوفها، وديني عندنا

شد جاره من أزره قائلاً بتفاؤل رغم كبر حجم الفاجعة:

-هتشوفها والله، بس يطمنونا عليها الأول.

تهدل كتفا "خليل"، وانحنت قامته، استند بظهره على الحائط، عله يمنحه الدعم ليقف ثابتًا، جلجل صوته المتضرع راجيًا:

-استرها معاها يا رب.

ومع مواصلته للدعاء المستجدي، لم يعبأ بالرنين المزعج –والمتكرر- الأتي من هاتفه المحمول، نبهه له جاره بهدوءٍ، علَّ الاتصال القادم يحمل أمرًا هامًا له:

-تليفونك بيرن يا أستاذ "خليل".

انتشله من شروده المعبق بأحزانٍ لا تنتهي، ليجيب عليه بعد أن قرأ اسم زوجته الأولى فيه، أجلى صوته الكئيب، ليعتذر منها، بصوته الذي ما زال مختنقًا:

-أيوه يا "حمدية"، معلش أنا مشغول جامد دلوقتي، مش هاعرف أجي وآ....

قاطعته بهديرٍ، جعلت ما تبقى من روحه ينسحق:

-ولادك ماتوا يا "خليل"، سامعني، ماتوا وراحوا مننا خلاص.

خُيل إليه أنه أصيب بالصمم وصراخها المؤلم يكرر نفس الكلمات القاتلة عليه، تدارك نفسه وسألها بقلبٍ ينقبض بعنفٍ مُهلك:

-إنتي بتقولي إيه؟ عيال مين؟ إنتي بتخرفي يا ولية؟

هدرت به بجنونٍ:

-ربنا خدهم عشان ترتاح، ها برضوه مش هاتيجي يا "خليل"؟

توالت الكوارث عليه، كل واحدة أعظم في شدتها من الأخرى، تقطع صوته متسائلاً بقلبٍ يتمزق إربًا:

-إيه الكلام ده؟ إنتي بتقولي إيه؟

عويلها الممتزج بنحيبها اخترق طبلتيه عندما أعادت عليه:

-ولادنا ماتوا .. مااااااتوا!

تضاعفت رجفة شفتيه، وشعر بتلك الوخزات المميتة تنخر في ضلوعه؛ كأنها تقطعه، قبض بيده على صدره، يحاول إسكات الألم المبرح الذي عصف به، سأله "عماد" في جزعٍ، بعد أن رأى الشحوب المخيف على بشرته:

-في إيه يا أستاذ "خليل"؟

سقط فاقدًا لوعيه، بعد أن عجز عقله المستنزف، على التعامل مع كم الأخبار المشؤومة التي نال نصيبه منها في يومٍ واحد، حاول "عماد" الإمساك به، وصاح مستنجدًا بمن حوله:

-يا دكاترة! يا ممرضين الحقونا!

..................................................

حك فروة رأسه بأصابعه، لينشط عقله الثقيل، بعد أن زحف النعاس إليه، ثم فرقع فقرات عنقه، بتحريكه للجانبين، والتفت ساحبًا ورقة أخرى، لينقل بياناتها بدقةٍ على جهاز الحاسوب الألي الموضوع أمامه، كما تنص مهمات وظيفته الحكومية، على تسجيل المعلومات أولاً بأول، فور ورودها إليه، على الشبكة العنكوبتية، لتبقى المعلومات مُحدثة باستمرار. رفع بصره عن شاشته، ليتطلع إلى زميله الذي ولج إلى الغرفة قائلاً بنبرته الآسفة:

-هو إيه اللي حاصل في البلد اليومين دول!

سأله الأول مستفهمًا:

-خير، في جديد ولا إيه؟

أجابه بوجهٍ عابس، وهو يناوله ورقة صغيرة:

-3 عيال ماتوا بتسمم.

تقلصت عضلاته في ضيقٍ، وردد بنوعٍ من الدهشة:

-يا ساتر.

أضاف زميله بتعابيرٍ مصدومة؛ وكأنه ينقل سبقًا صحفيًا:

-وكمان من عيلة واحدة!

تمتم الموظف بنبرة مشفقة:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يصبر أهلهم.

وضعها على سطح المكتب، وحرك الفأرة نحو أيقونة ما على شاشة حاسوبه، ليفتح قاعدة البيانات الخاصة بالمرضى، وبدأ في طباعة الأسماء من خلال لوحة المفاتيح. حضر إليهما أحد الموظفين، وسلم إليهما ورقة جديدة، ليُملي عليه زميله، وهو يضعها فوق الأوراق:

-طيب سجل عندك كمان حالة تسمم تانية في مستشفى (...)

نفخ الموظف في سأمٍ، قبل أن يتحول للتعقيب الناقم:

-برضوه؟ معدتش في ضمير عند الناس ولا إيه؟

استغرق في طباعة الأحرف بتباطؤ، ليسحب بعدها الورقة الجديدة، وبدأ في قراءة ما دوّن فيها، اعترت الدهشة ملامحه، وهتف بعفويةٍ، وسبابته تفرك جبينه:

-غريبة أوي!!

تساءل زميله بفضولٍ:

-في إيه؟

أخبره وهو يرفع الورقة إليه:

-اسم البت شبه أسامي الـ 3 عيال اللي ماتوا.

دقق النظر في اسم الطفلة صائحًا بذهولٍ مُحير:

-إيه ده بجد؟

أكد على كلامه قائلاً:

-أه والله

هتف زميله مُصرحًا، والدهشة تفترش قسماته:

-لأحسن تكون أختهم.

ضاقت عينا الموظف في ألمٍ، قبل أن يعلق:

-أوبا.. ده كده صعب أوي، زمان أبوهم وأمهم هيجرالهم حاجة.

تنهد زميله مرددًا:

-ربنا يسترها على عيالنا.

استعاد الموظف الورقة منه، واستكمل تدوين الاسم في خانة المخصصة له، وهو يطلب منه بلهجةٍ تبدلت للجدية:

-طب حاول تجهز الإخطارات عشان نسلمها للعسكري، بدل ما يجي المدير يسمعنا كلمتين بايخين.

أمن برأسه عليه، مختتمًا ثرثرته معه:

-على طول أهوو، ما الغربال الجديد ليه شدّة.

..................................................

تطلعت إلى طبقها الذي لم تمسه يدها بنظراتٍ منزعجة، خشيت أن تكون ابنتها قد عدلت عن قرارها، واستسلمت لمشاعرها البائسة مجددًا، تلك المشاعر أحادية الجانب، والتي لا تجني منها سوى التعاسة والشقاء. زفرت "بثينة" على مضضٍ، ونظرت إليها بعينين تعكسان نقمها، ثم سألتها بوجهٍ مكفهر:

-مش هاتكلي برضوه؟

رفعت "خلود" عينيها إليها، وأجابت بصوتٍ لا يخلو من الفتور:

-ماليش نفس.

هتفت بها والدتها تسألها بنوعٍ من اللوم، وهي تسدد لها نظرة ساخطة:

-هنرجع تاني نِحن؟

تحدثت من زاوية فمها قائلة بوجومٍ:

-لأ يامه اطمني، معدتش في رجوع، أنا خلاص عقلت.

أحست بالارتياح يتخللها بعد تصريحها هذا، فقالت بحماسٍ انعكس على نبرتها، وظهر بريقه في نظراتها نحوها:

-أيوه كده، وصدقيني بكرة هاجوزك سيد سيده، بس نفوق من اللي احنا فيه.

احتجت بغلٍ اربد به وجهها:

-لأ مش عايزة أتجوز، أنا عايزة أخلي عيشة "تميم" مرار، مايشوفش في حياة لحظة هنا.

أكدت عليها والدتها بنظراتٍ برقت بوحشيتها:

-هايحصل.

نهضت "خلود" عن المائدة تقول لأمها، بجمودٍ صار تعبيرها الملازم لها:

-أنا هاقوم أفرد جتتي جوا.

ردت في استحسانٍ، وهي تجمع صحون الطعام:

-وماله يا حبيبتي.

كان الوقت متأخرًا لتستقبل زيارة فيه، لهذا حينما سمعت الدقات الخفيفة على بابها استرابت في الأمر، تحركت نحوه متسائلة مع نفسها:

-ده مين اللي جاي السعادي؟

ارتفع حاجباها للأعلى في صدمة يشوبها الخوف، عندما رأت "محرز" واقفًا بشحمه ولحمه، على عتبها، واللا خوف سائد عليه، بلعت ريقًا غير موجود في حلقها، لتلاحقه بأسئلتها؛ ولكن بصوتٍ خفيض:

-"محرز"! إنت بتعمل إيه هنا؟ وجيت إزاي؟ دول قالبين عليك الدنيا، وجايز يمسكوك.

قال بهدوءٍ رغم خفوت نبرته، ونظرة واثقة تلمع في عينيه:

-ماتخفيش يا خالتي، أنا مأمن نفسي...

شعرت بتسارعٍ نبضاتها، خاصة مع همسه القائل:

-مش هاتقوليلي اتفضل.

واربت الباب على قدر المستطاع، لتطل برأسها من فُرجة ضيقة، وأخبرته بنبرة مهتزة، جاهدت أن تكبت خوفها فيها:

-البت "خلود" جوا، وجايز تاخد بالها.

تفهم حرصها، وقال مباشرة:

-ماشي .. مش هاطول عليكي، أنا محتاج فلوس، عايزك تدبريلي قرشين كده يمشوني الأيام الجاية.

تحججت إليه بعذرٍ واهٍ لم ينطلِ بالطبع عليه:

-ما إنت عارف البير وغطاه.

صعد الدم الحانق إلى وجهه، لكونه على يقين كامل بكذبها، أخبرها بصوتٍ رن فيه التحذير:

-يا خالتي الكلام ده يخيل على أي حد غيري، ده احنا دفنينه سوا، الفلوس عندك زمانها بقت أكوام.

أصرت على كذبها الملفق قائلة:

-أونطة، هو في حاجة بتفضل يا "محرز"؟

أوجز في مماطلتها غير المقنعة بإخبارها بغلظةٍ، ونظرة باعثة على التهديد تنطلق من حدقتيه:

-أنا مش هلوك لوك كتير معاكي، يومين وهارجعلك تكوني اتصرفتيلي في مبلغ محترم، وإلا هتطربأ على دماغك قبلي يا ست الحاجة.

استبد بها الخوف من طريقته المُوحية بعنفٍ وشيك، ورجته:

-وطي صوتك يا "محرز".

كرر عليها تحذيره بوجهه الغائم:

-ماتنسيش، هاعدي عليكي تاني.

صرفته على عجالةٍ بترديدها:

-طيب.. طيب .. امشي بقى.

رد وهو يخفي وجهه خلف وشاحٍ من القماش الأسود:

-سلام.

راقبته وهو يهبط الدرجات في خفةٍ، ليختفي مثلما جاء خلسـة، أغلقت البـاب بحذرٍ، حتى لا تحدث الكتلة الخشبية صريرًا ينبه ابنتها، ابتعدت عنه تبرطم مع نفسها في تبرمٍ، رافضة توريط نفسها معه، أو حتى تهديده الضمني:

-هو أنا كنت نقصـاك ؟!!!

.......................................................

معاملته لها، يُمكن أن توصف على أقلِ تقدير، بأنها ازدرائية مفعمة بالاحتقار، ومع هذا تقبلتها منه مرغمة، ليس لأنها شخصية ضعيفة، تجعـل غيرهـا يتغـذى على إذلالها؛ ولكنها وسيلتها المتاحة، لخداعه بالحيلة والمكر، مثلما اتبع معها هذا الأسلوب الخسيس، للإيقاع بها في شـباكه الدنيئة. دون حيـاءٍ أو حـتى ذرة حرجٍ، اسـتعرض "آسر" قبالتهـا واجهة موقعه الإباحي؛ وكأنه يتباهى بإنجازٍ خطير، شعرت بالغثيان يضرب معدتها، عندما قال بتفاخرٍ:

-شايفة العظمة يا حبيبتي.

أبعـدت "فـيروزة" عينيهـا قبـل أن تختطـف نظرة غير مقصـودة نحو مـا تبثه الفيديوهات، لتعلق بتقززٍ:

-ده قرف.

استفزه كلامها، فقال مُعقبًا بسخافةٍ:

-القرف ده، هو اللي بأكلك منه يا بيبي

قاومت رغبة مُلحة في شتمه، وردت تسأله بوجهٍ ملامحه تعكس اسـتحقارها له:

-إزاي قادر تعمل كده؟ مش خايف من ربنا؟

لمحت نظرة عداء في عينيه، عندما هتف بها بصوته الرخيم، والذي سعي ليكون غير مبالٍ:

-أنا مش هاعيش غير مرة واحدة بس...

حاول أن يثير مخاوفها، والتمتع برؤيتها ذليلة، فأضاف بانتشاءٍ:

-ده غير إن الفيـديو بتاعك محطـوط هنـا، إيـه رأيـك لـو أعرضـه؟ تفتكري هايجيب مشاهدات أد إيه؟!

نظرة جريئة لا تخلو من وضاعة نكراء رمق بها مفاتنهـا، قبـل أن يضـيف مهينًـا إياها، وقاصدًا الإشارة لما اعتبره أنوثتها المنقوصة:

-مع إن البضاعة مغشوشة، وماتسحقش إلا نص قيمتها!

باغتها بتهديده الوقح، فحدقت فيـه بنظـراتٍ متسـعة في غيـظٍ يُصـاحبه القلـق، استثار أعصابها بتلاعبه بأصابعه على لوحة المفاتيح؛ وكأنه حقًا سينفذ ما قاله، شعرت بالدم المشبع بغضبها يتدفق بقوةٍ إلى رأسها، فلم تتمكن من كبح رغبتهـا في تحطيم حاسوبه النقال على رأسه، وبتحفزٍ واضح عليها، أمسكت "فـيروزة" بفنجانِ القهوة، وفي لمح البصر أفرغته على جهازه لتفسده، انتفض مع تصرفها المفاجئ، وصرخ بها بشراسةٍ استبدت به:

-إنتي عملتي إيه؟

توقعت أن تتلقى جزاءَ رعونتها، ولم تأبه بذلك؛ لكن لم يعد ما يحيق بها من إيذاء بدني مهم، أي شيء أمام حماية نقاء شرفها يهون! لتحيا بعفتها عاليًا؛ وإن كان يعـــني فنائهـــا، ولـــيهلك الـــنجس بمفـــرده، مُلطخًـــا بقاذوراتـــه ..........................................................!!

..........................................................

الجزء
الثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الثامن والسبعون

محادثة غير مقصودة بين اثنتين من الممرضات أثناء تجولهما بالردهة، بجوارها، دون أن تنتبه أيًا منهما، لكونها الوالدة المكلومة. تكلمت كلتاهما بعفويةٍ عن وفاة الأخوة الثلاثة جراء تلك المادة المسممة، حينها استقامت "حمدية" في وقتها، وقد أرهفت السمع لحديثهما العابر، اندفعت نحوهما تعترض طريقهما، وهتفت متسائلة بقلبٍ مفجوعٍ، ويدها تتشبث بذراع الأقرب إليها:

-إيه اللي بتقوليه ده؟

انزعجت الممرضة من طريقة إمساكها القاسية، نفضت قبضتها عنها، وعلقت متسائلة بقليلٍ من الحدة:

-في إيه يا مدام؟

صرخت بها "حمدية" بوجهٍ تضاعفت حمرته الحانقة:

-هو عيالي ماتوا؟ ردي عليا، عيالي ماتوا؟

شعرت الممرضتان بالأسف عليها، والحرج من تماديهما غير المحسوب في الحوار عن الضحايا، بادرت زميلتها تواسيها:

-ربنا يصبر قلبك.

وجهت أنظارها نحوها، وحدجتها بنظرة أشد شراسةٍ، قبل أن تشتبك معها بالأيدي، وصوت صراخها يجلجل في الردهة:

-إنتي بتقولي إيه؟ عيالي لسه عايشين.

تعاملت كلتاهما برأفةٍ وحذرٍ معها، وحاولتا تهدئتها قدر المستطاع، وهما تتفهمان أن للخبر الصادم وقعًا قاسيًا على أعصابها، أردفت الأولى تدعو بحزنٍ لصغارها، والكلمات في تلك المواقف لا معنى لها:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يرحمهم.

نهج صدرها، وانسابت دموعها المحترقة تغرق كامل وجهها، وزعت نظراتها الملتاعة بينهما، وصرخت في إنكارٍ شديد، رافضة تصديق حقيقة خسارتهم للأبد:

-أكيد إنتو غلطانين، عيالي بخير، محصلهمش حاجة، أنا سيباهم بيلعبوا وبيجروا ورا بعض...

قاطعتها الممرضة تقول في أسى:

-دي مشيئة ربنا.

تبدلت نبرة "حمدية" للغلظة، ونفضت الأيادي الرابتة عليها، لتهدر بهما بخشونةٍ:

-"خليل" جوزي هيجي يعرفكم مقامكم، إنتو عالم ملاوعة!

وقبل أن تفكر الممرضة في الرد عليها، مالت عليها زميلتها تطلب منها:

-ماتكلميهاش، ربنا يكون في عونها.

تنحت الاثنتان للجانب متجاوزتان عن تصرفاتها العدائية نحوهما، رفضتا التدخل أو التعامل بالمثل، لتقديرهما الشديد للحالة المقهورة المستبدة بها، في حين أسرعت "حمدية" بإخراج هاتفها المحمول من حقيبتها، بحثت عن رقم زوجها لتهاتفه، وضعت الهاتف عن أذنها، مشحونة بكل مشاعر الحزن الغضب، الألم، والانكسار. جاءها صوته مختنقًا، يبدو من يستمع إليه للوهلة الأولى مصابًا بالزكام، عندما اعتذر منها:

-أيوه يا "حمدية"، معلش أنا مشغول جامد دلوقتي، مش هاعرف أجي وآ....

استوعب عقلها أن التغيير السائد في صوته، ليس طبيعيًا، بل لسبب آخر تعلمه جيدًا، وإن ادعت تناسيها له، استفزها عزوفه عن سماعها، واستشاطت غضبًا من هروبه الدائم من التعامل معها، فقدت أعصابها المستثارة، وقاطعته بهديرٍ، جعلت ما تبقى من روحه ينسحق:

-ولادك ماتوا يا "خليل"، سامعني، ماتوا، وراحوا مننا خلاص.

واصلت عويلها الهائج به، تكرر تلك الكلمات القاسمة للأظهر، حتى لم تعد تسمع صوت أنفاسه، فأنهت المكالمة، وبدأت فاصلاً جديدًا من الصراخ الجنوني، رن صداه في جنبات المكان، فأثارت الرعب في المتواجدين. وعلى إثر هديرها الصاخب، هرولت "آمنة" في اتجاهها، تسألها بصدرٍ ملتاع، وهي تدعو الله بقلبها ألا تكون ظنونها صحيحة:

-في إيه يا "حمدية"؟

التفتت نحوها تخبرها بحرقةِ قلب أمٍ:

-عيـالي ماتوا، مـاتوا.

شهقة جارحة للحلق وجدت طريقها في جوفها، تبعها همهمتها المذهولة، والدموع تتقافز بكثافة في حدقتيها:

-إيه ؟!!!

شقت "حمدية" عباءتها، لتلطم على صدرها بقوةٍ، قبل أن تتحول للطم وجهها، وهي تندب وفاة أبنائها، بصوتها الصارخ:

-يا حــرقة قلبي عليكم يا ضنايا.

تهاوى جسد "آمنة"، وبحثت عن أقرب مقعد لتسـقط ثقل جسـدها عليها، وهي تبكيهم:

-آه يا ولادي!

أظلمت عينا "حمدية"، وبدت مغيبة عن إدراكها، لتهجم بعدائية على شـقيقها زوجها، تتهمها في مفاجأة صادمة لكل الحاضرين:

-إنتي السبب، إنتي اللي قتلتيهم!!

وسط ذهولها المفجوع، نظرت إليها "آمنة" في دهشـة، وعبراتها تتسـابق على صدغيها، رددت في ذهول بصوتها الباكي، معتقدة بأن لغوها غير الواعي يقصـد أحدًا غيرها:

-أنا ؟ إيه الكلام ده؟

تعلقت بطرفي ياقة عباءتها، جذبتها بشراسةٍ منها، لتجعلها تقف على قدميها، هزتها بعنفٍ، ثم استدارت بها نحو الناحية الأخرى، لتقول بعدها بصراحةٍ، ووضوحٍ لا يدع أي مجالٍ للشك:

-عملتي كده ليه فيهم يا "آمنة"؟ حرام عليكي، بتكرهي عيالي للدرجادي؟

نفت عنها هذا الاتهام المخيف بترديدها المذعور:

-أنا معملتش حاجة.

لامتها بكل ما فيها من حرقةٍ وغضب:

-عيالك لو مكانوش بيحبوا ياكلوا من إيديكي مكانوش ماتوا، إنتي اللي عملتي كده فيهم، إنتي خلصتي عليهم!!!

ظلت تلقي بالاتهامات في وجهها، حتى كاد يصدق من يسمعها أنها متورطة بالفعل في مقتلهم .. ومع الفوضى والضجيج اللافت للانتباه، ركضت "همسة" في اتجاه الاثنتين، تحاول الفصل بينهما، متلقية بجسدها ضربات غادرة من زوجة خالها، وهي تصيح بها، بنوعٍ من الدفاع الغريزي عن والدتها:

-سيبي ماما، هي مالهاش ذنب، دي حبيتهم أكتر منك.

لحق بها "هيثم"، وشكل هو الآخر بجسده حائلاً يفصل الجميع عن التطاول بالأيدي، في حين هدرت "حمدية" بتشنجٍ حانق، محاولة تجاوز المرضات الممسكات بها:

-إنتي وبناتك بتكرهوا عيالي، جبتي أجلهم يا ظالمة! يا مفترية!

ردت عليها "آمنة" محاولة انتشالها من جنونها غير العقلاني:

-يا "حمدية" فوقي، إنتي بتتكلمي إزاي؟

ارتفعت نبرتها أكثر، حتى جرحت أحبالها الصوتية، خلال صراخها المحمل بالاتهامات:

-يا ناس قتلت ولادي، حرمتني منهم، منك لله يا "آمنة"، ربنا يحرق قلبك زي ما خدتي مني عيالي.

هتفت ممرضة ما من الخلف، مبررة تصرفات المرأة المكلومة:

-الست من صدمتها اتجننت...

أضافت أخرى عليها بعزمٍ:

-أنا هنادي على حد من الدكاترة يتعامل معاها، بدل ما يجرالها حاجة من القهرة.

ترجتها ثالثة، وهي تكافح للسيطرة على تشنجاتها العصبية:

-أوام الله يكرمك.

.........................................................

رغم بقائه لفترة طويلة بمفرده، إلا أنه لم يتذمر، اعتبر وجوده في المشفى، نوعًا من الواجب الذي تفرضه قوانين الجيرة الودية، بين أهالي المنطقة الواحدة.

جلس في منطقة الانتظار، يتابع كل برهة المستجد بشأن حالة "خليل"، وكذلك طفلته، آملاً خلال ذلك أن يتواصل معه أحد معارفه، ممن تلقوا الأخبار السيئة. رفع "عماد" جسده عن مقعده المعدني، ليتمكن من إخراج هاتفه المحمول من جيبه، أجاب على اتصال زوجته التي هرعت تسأله بتوجسٍ محسوس في صوتها:

-إنت فين يا "عماد"؟

علق بتبرمٍ على سؤالها السخيف:

-في المستشفى يا ستي، هاكون فين يعني؟

هتفت بنبرة مزعوجة:

-كل ده؟ إنت اتأخرت أوي!

أخبرها بزفيرٍ مرهق:

-ما هو الراجل طبّ واقع من طوله قصادي، وبنته ربنا يتولاها بقى.

سألته في اهتمامٍ، وقد بدت متفهمة للموقف:

-طب وهتعمل إيه؟

لحظة من الصمت تخللت حديثهما، ليقول بعدها بحيرةٍ بائنة:

-مش عارف، أكيد مش هاسيبه لوحده في الظروف دي، وبأحاول أوصل لحد من أهله، بس موبايله مقفول برقم سري.

تمتمت في كلماتٍ متأسفة:

-ربنا يصبره على ما بلاه

رد باقتضابٍ:

-يا رب...

ثم طلب منها بصيغة بدت شبه آمرة:

-بأقولك إيه ودي العيال عند أمك، وتعالي عندي.

استغربت من طلبه، وسألته:

-ليه ياخويا؟

ببساطةٍ جاء رده عليها مليئًا بالرحمة والعطف:

-مش هانسيب البت "رقية" لواحدها، هي عايزة حد أكيد معاها.

مصمصت شفتيها قبل أن تعقب عليه:

-عيني عليها، حاضر يا "عماد". هالبس وألبس العيال، وأبقى عندك، مهما كان أمها الله يرحمها كانت زي البلسم وست عِشرية.

أمرها بهدوءٍ لا يخلو من الجدية:

-خدي تاكسي، بلاش مكروباصات عشان تنجزي.

كان ردها مريحًا له عندما نطقت بإيجازٍ:

-طيب، على طول ياخويا.

أنهى الاتصال معها، وتطلعت إلى الهاتف الآخر الذي بيده، محاولاً العبث في أزراره، عله يتمكن من فتحه، حيث احتفظ بهاتف "خليل" المحمول، بعد أن تم نقله للطوارئ، للتعامل مع حالته الحرجة. انتفض في جلسته، وقد رآه يهتز برقمٍ غريب، أجاب عليه دون تفكيرٍ، ليستمع لصوت أحدهم يقول:

-ألوو، أيوه عم "خليل".

صحح له "عماد" بعد نحنحة خفيفة:

-لأ أنا صاحبه، إنت مين؟

شعر بلمحة من الاستغراب في نبرته عندما خاطبه:

-أنا "هيثم" جوز بنت أخته، لو هو جمبك خليني أكلمه.

اعتذر منه "عماد" بحرجٍ:

لا والله، ده وقع من طوله بعد اللي حصل لمراته وبنته

ردد مدهوشًا:

-مراته وبنته!!

تعجب من استغرابه، وأطلعه بإيجاز على تفاصيل الحادث المؤسف:

-هو إنتو مادرتوش، البيت ولع بيهم من شوية، وبالعافية لحقنا "رقية" بنته.

سكوت متردد ساد للحظاتٍ معدودة، قبل أن ينطق "هيثم" أخيرًا:

-طب هو موجود عندك فين؟

منحه عنوانه موضحًا:

-في مستشفى (...)، اللي جمب (...).

علق عليه "هيثم" بصوتٍ واجم:

-خلاص عرفتها، أنا مسافة السكة وهاكون عندك.

هتف بصدرٍ شبه منشرح:

-في انتظارك يا أستاذ.

أكد عليه "هيثم" مجددًا:

-جايلك على طول.

.........................................................

استغل وضعها تحت تأثير المواد المهدئة، بعد انهيارها العصبي، ليترك زوجته ووالدتها في المشفى معها، ريثما يُقابل ذلك الغريب الذي أخبره، بالجديد والصادم من الأخبار، أرجئ كالعادة ما عرفه مُصادفة، إلى أن يلم بالتفاصيل. التقى "هيثم" بـ "عماد" الذي لم يتوانَ عن إطلاعه بكل شيء، يخص الحادث، وكيف انتهى الأمر برقوده طريح الفراش. أخفى اندهاشه من براعة "خليل"، في تخبئة مسألة زيجته الثانية لسنوات، وخاصة عن زوجته اللئيمة "حمدية"، ولولا وقوع هذا الحادث، لما عَرف أحدهم عنه، ولبقي زواجه في طي الكتمان.

لاحقًا اتجه مع الجار إلى الطبيب لمقابلته، فقال الأخير بجديةٍ، تضمنت تحذيرًا صريحًا:

-المريض هايتحط تحت الملاحظة؛ لكن لازم تبقوا عاملين حسابكم للأسوأ.

تساءل "عماد" بنبرته المهتمة:

-يعني إيه؟ أنا مش فاهم؟

التفت الطبيب برأسه نحوه، وقال:

-هو اتعرض لجلطة دماغية، ودي حاجة مش بسيطة ...

تأكد من متابعة الاثنين لحديثه، قبل أن يكمل جملته:

-من توابعها إنها بتسبب شلل نصفي.

ردد "هيثم" بأسفٍ:

-يا ساتر يا رب.

وقال "عماد" في حسرةٍ:

-هو الراجل ناقص، لا حول ولا قوة إلا بالله.

تابع الطبيب كلامه:

-احنا مش هانقدر نحدد مدى الضرر الحالي، إلا لما يفوق.

أثنى "هيثم" على مجهود الطبيب قائلاً:

-متشكرين لتعبك يا دكتور.

علق في امتنانٍ:

-ده واجبي يا فندم، وربنا يطمنكم عليه.

-يا رب

قالها "عماد" وهو يلتفت ناظرًا إلى "هيثم" ليسأله:

-شوف هتعمل إيه يا أستاذ معاه.

شردت نظراته عنه لثوانٍ، ليأتي رده بعدها، مغلفًا بتوترٍ مضاعف:

-أكيد هاعرف أهله ....

ثم انخفضت نبرته، مستكملاً عبارته؛ وكأنه يُحادث نفسه:

-وربنا يستر من اللي جاي.

.....................................................

تأتي المصائب الجسام لتظهر معادن الرجال؛ وكان هو أحد هؤلاء الأشداء، رغم ماضيه المليء بالسقطات، تجاوز عن هفواته، وخط لنفسه طريقًا مستقيمًا، ما زال ملتزمًا بالسير فيه، متعهدًا لنفسه ألا ينحرف عنه، فكان لها ولعائلتها نعم السند في وقت الأزمات. تحركت "همسة" مع زوجها إلى مدخل المشفى الراقد به خالها، قدرتها على الكلام بدت مفقودة، وأي حديث يُمكن أن يُقال بعد الخسائر التي لا عوض؟ تصدع ما كان يمسك بالأسرة بوفاة

الصغار، وبات الأبوان على شفير الجنون، مسحت مجددًا عبراتها التي لم تنضب بعد، لتتطلع إلى "هيثم" الذي طلب منها بهدوءٍ:

-امسكي نفسك يا "همسة"، خالك مش مستحمل.

ردت بألم شديد:

-ومين فينا قادر؟ إذا كان أمهم اللي طول عمرنا بنعتبرها معندهاش إحساس، كانت هتموت نفسها، ما بالك هو!

قال في أسفٍ، مقاومًا الغصة الحارقة في حلقه:

-دي مشيئة ربنا، وخلينا نشوفه هو عامل إيه دلوقتي.

بإيماءةٍ موافقة قالت:

-طيب.

أشار لها إلى حيث توجد غرفته، بعد أن تم إيداعه في إحدى حجرات الرعاية الفائقة، لم يستطع "هيثم" أن يخبرها بعد بمدى سوء حالته الصحية، جراء الجلطة الدماغية التي تعرض لها، والتي حتمًا ستترك أثرها السلبي على جسده، تقدم في خطواته ليسبقها، ثم ولج إلى الداخل، ملقيًا نظرة سريعة على الرجل المستلقي على الفراش، في حالة جمود، رغم رؤية الدموع المبللة لوجهه.

رغمًا عنها انفلتت منها شهقة متحسرة، فشلت في كتمها، تبعتها بشهقات متقطعة مختلطة بنواحها، دنت من فراشه، وواسته بنحيبها الباكي:

-شد حيلك يا خالي.

بصعوبةٍ حاول "خليل" إدارة وجهه ناحيتها، وحينما تمكن من هذا، نظر لها بعينين تسبحان في أنهرٍ من الدموع المقهورة، رأته يُجاهد لتحريك فكه حتى ينطق، فزاد إشفاقها على مصيبته الأخرى. همس متلعثم خرج من بين شفتيه، يرجوها بأحرفٍ متقطعة، وفي عينيه نظرة استجداءٍ تحرك المشاعر المتبلدة:

-"ر..قـ..يـ..ة" بـ..نـ..ي!

أمعنت النظر فيه، فكرر نفس الكلمات المقتطبة على مسامعها، مع إضافة:

-ما..تسيـ..بهـاش

استوعبت رغبته في رعاية طفلته اليتيمة، والمتواجدة معه في نفس المشفى، لترد مؤكدة له، وهي تكفكف عبراتها:

-حاضر يا خالي، متقلقش عليها، كل اللي إنت عايزه هاعمله.

رأته يبذل ضعف جهده ليرفع ذراعه للأعلى، حركته كانت بطيئة للغاية، تثير الحزن العميق عليه، ذاك الذي كان يرفع ذراعه لينهال بالضرب عليها وعلى توأمتها، متباهيًا بقوته، الآن يعجز عن بسطها، امتدت يدها لتمسك بكفه المرتعش، واحتضنته بأناملها، نظرت له عن قربٍ بنظرات مليئة بالدموع، أوصاها مجددًا بصوتٍ ثقيل للغاية:

-بـ..نـ..ي!

هزت رأسها بإيماءات متتالية، وهي تعقب عليه:

-متخافش عليها يا خالي.

وسط بكائها الحارق، تخيلت أنها رأت ابتسامة ارتياح على شفتيه الجافتين، ارتخت عضلاته المتشنجة، ليسكن كما كان، جسدًا هامدًا، يحوي أحزانًا، لا حسر لها.

.........................................................

-عامل إيه يا صاحبي؟

تساءل "منذر" بتلك الجملة المهتمة، وقد سحب مقعده، ليجلس على مسافة قريبة من فراش رفيقه المقرب، لينفرد به قبل أن يلتقي بعائلته. هز الأخير رأسه بإيماءة راضية، ثم جاب بنظراته على جسده المتعب، وعيناه تعبران عن ضيقه الشديد، ليقول له بعد زفيرٍ طويل، بقلةِ حيرة:

-أهوو، زي ما إنت شايف لا عارف أتحرك، ولا قادر أقوم أجيب حقي بإيدي.

ربت على ذراعه قائلاً له بتفاؤلٍ:

-فترة وتعدي...

ثم غمز له بكلماتٍ موحية، تدل على علاقة متينة:

-وبعدين احنا إيديك ورجليك.

شكره بمحبةٍ صافية:

-تعيش يا غالي.

تنحنح "منذر" بصوتٍ خفيض، ثم أسبل عينيه نحوه، ليضيف بنوعٍ من التردد:

-أنا عندي ليك كام خبر كده، بش مش ولابد.

تحفز "تميم" في رقدته، وتساءل بقلقٍ:

-خير؟

قال بوجهٍ ممتعض، ونظراتٍ منزعجة، أشارت لضجره:

-واحد من رجالتنا شاف الكلب "محرز" وهو طالع عند بيت خالتك، مكملش دقايق، وخلع قبل ما يمسكه.

استاء من سماعه لذلك، وهتف متسائلاً في حنقٍ:

-وهو راح هناك ليه؟ إيه اللي بينه وبينها؟

بحذرٍ تحرك فكه لينطق، دون أن تخلو نبرته من الغموض:

-بص، في الأول هتستغرب زيارته ليها؛ لكن لما تعرف من اللي احنا وصلناله، هتفهم ليه راحلها.

صاح بنفاذ صبرٍ، وقد استبدت به شكوكه، حول وجود علاقة مريبة، تفاصيلها غير متضحة المعالم بعد:

-قول يا "منذر" على طول، ماتكلمنيش بالألغاز.

منحه التفسير القاطع، بقوله المباشر:

-خالتك هي شريكة "محرز" في الدكان التاني بتاعه، ومن زمان.

انعكس استهجانه على ملامحه التي تحولت للقساوة، وسأله مستنكرًا:

-نعم، إيه الكلام ده؟!

ضغط على شفتيه قليلاً، قبل أن يخبره بضيقٍ:

-احنا اتفاجئنا زيك، بس ورق الدكان باسمهم هما الاتنين.

دمدم في غضبٍ لاعنًا كليهما:

-يا ولاد الـ...

تابع "منذر" حديثه بمنطقيةٍ:

-فماتستعبدش علاقتهم المدارية ببعض، مصالح وشغل وفلوس.

غامت ملامح رفيقه، وزحف الحنق على نظراته، عندما غمغم في غيظٍ:

-ده أنا كنت مغفل كبير أوي.

رد عليه محاولاً التخفيف من وطأة الأمر عليه:

-محدش كان يعرف، بس أكيد إنت فاهم إنه راحلها عشان يسلك قرشين منها يمشي بيها نفسه

في تهكمٍ ساخط علق عليه:

-أه طبعًا، ما هي الخزنة بتاعته.

ربت "منذر" من جديد على جانب ذراعه، وأكد عليه بلهجته الحاسمة:

-عمومًا المرة الجاية لو راح عندها هيلاقينا مستنينه

.....................................................

وداعة لطيفة من المحقق الشرطي، تعامل بها مع الطفلة، أثناء محاولته استجوابها، لمعرفة كيف وقعت الحادثة المؤسفة في منزلها، بالطبع لم يجرؤ على إخبارها بمسألة وفاة والدتها، ترك تلك المهمة الشاقة لأقاربها، حينما يظهر أحدهم على الساحة. كان من الغريب عليه أن يجد جيرانها يتواجدون من حولها، يقدمون لها كل الدعم المطلوب لتخفيف الأزمة عليها، بينما تعذر الوصول لعائلة والدتها، فخالها الوحيد سافر للخارج، وجداها توفيا قبل وقت طويل. ابتسم لها وناولها قطعة من الشيكولاته، قبل أن يستأنف حديثه متسائلاً، بنفس الوجه الهادئ:

-يعني بقى كانت أول مرة تشوفي فيها طنط دي؟

أجابته "رقية" ببراءةٍ:

-أيوه.

سألها بلهجته المحققة، دون أن تبدو متزمتة معها:

-وهي صاحبة ماما على كده؟

أجابتها كانت كسابقتها موجزة:

-معرفش.

داعب شعرها بيده، وسألها مرة أخرى:

-طيب قالتلك إيه تاني عنها؟

لحظة سكتت فيها الصغيرة عن الكلام، محاولة تذكر ما أخبرتها به والدته، لتجيب بعد ذلك بترددٍ:

-قالت دي عمتو.

انعكس الاهتمام المثير على وجه المحقق، وعلق بنظرةٍ ذات مغزى:

-عمتو.. كويس!!!

ثم وجه نظرة أخرى للمعاون الموجود معه، ليدون كلامها في الأوراق الرسمية، حتى يتم التحري عنه بدقةٍ، مع مطابقة أقوالها بنتائج العينات المسحوبة منها، وأيضًا بنتائج تشريح جثمان الفقيدة. راقب حركة الصغيرة المتوترة ليديها، واحتضانها لقطعة الشيكولاته؛ وكأنها تخشى ضياعها. لم يكف عن ممازحتها باللطيف من الكلام الطيب، حتى تسترسل في ردودها معه .. بعد عباراتٍ عادية، عن أسئلة بسيطة ومباشرة متعلقة بألعابها، وما تحبذ فعله، سألها المحقق بمكرٍ، ليستشف منها إجابة منطقية، علها تكون المفتاح لكشف اللغز عن الغموض المريب، في تلك الجريمة الشنعاء:

-ويا ترى عمتو جابتلك لعب وحاجات حلوة معاها؟

ردها كان تلقائيًا للغاية عندما قالت له:

-كانت عاملة كيكة كتيرة، وأنا كلت حتة فتفوتة، بس وجعت بطني أوي.

تصنع الأسف وهو يخبرها:

-سلامتك يا جميل.

سألته "رقية" بعينين تعكسان براءة محببة للقلوب:

-هي ماما فين؟

ثم أشارت بعينيها إلى الجارة الواقفة في الزاوية مع زوجها "عماد"، قبل أن تكمل:

-طنط بتقول راحت عند ربنا، أنا عايزة أروح معاها.

شعر بالإشفاق نحوها، ورد باقتضابٍ:

-ربنا يحفظك..

سألته الصغيرة بصوتٍ بدا مُلحًا:

-يعني هاتوديني عند ماما يا عمو، هي اتأخرت عليا.

بلع غصته، وابتسم يقول في حزنٍ:

-كلنا هنروح مع ماما عند ربنا، بس قدامنا شوية.

انتهى المحقق من استجوابها، لينهي محضره هاتفًا بنبرة رسمية:

-اكتب عندك، يتم تسليم الطفلة لأقارب والدها، بعد أخذ التعهد اللازم برعايتها.

أومأ المعاون برأسه، وقال بعدها:

-تمام يا فندم.

..............................................

استرابت من إصرار أبيها على الذهاب لرؤية شقيقها بمفردها، دون أن تأتي والدتها، وفي حضوره شخصيًا، في غير موعد الزيارة المعروف، وقبيل ذهابها للعزاء الخاص بأولاد "خليل". أنبئها حدسها أن للأمر علاقة بزوجها الغائب، فالأخير اختفى عن المشهد كليًا؛ وكأنه لم يعد له وجود. استجابت لطلبه، ووجدت "تميم" في انتظارها بوجهٍ مبتسم، خفف قليلاً من حدة التوتر الذي اعتراها، عندما لمحت شخصًا -يبدو على ملامحه الرسمية الجادة- ينتظر بالخارج، تبعها في هدوءٍ عندما تأكد من دخولها للغرفة.

التمهيد الذي سبق التطرق للموضوع الرئيسي كان ضروريًا، وتلك كانت مهمة شقيقها، لذا استطرد "تميم" يقول على مهل، بمجرد أن استقرت في جلستها إلى جوار فراشه:

-"هاجر".. إنتي عارفة كويس إن مافيش حد أغلى عندي منكم كلكم، صح ولا غلطان؟

ردت بتعابيرها القلقة، ونظرة خاطفة دارت على الأوجه المتطلعة إليها:

-أيوه.

تابع حديثه متسائلاً بقسماتٍ شابها علامات من الجدية المريبة:

-ولو قولتلك حاجة هتصدقيني؟

صمتت لهنيهة، تدرس فيها تعابيره غير المقروءة، والمليئة بالغموض، قبل أن تكون إجابتها قاطعة:

-أيوه يا "تميم".

أثلج جوابها صدره، فواصل القول معترفًا دون مقدماتٍ مُلطفة:

-"محرز" جوزك هو اللي ورا حرق الدكان، وكان قاصد يقتلني ................................................ !!

.......................................................

الجزء
الثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل التاسع والسبعون

من البديهي الاعتقاد بأن أسوأ الأفكار تهاجمها الآن، بعد اعترافه المفاجئ –والصريح- عن محاولة زوجها الأرعن لاغتياله، ليس لمرة واحدة، بل مرتين: قتلاً، وحرقًا، دون ندمٍ أو خوف، خلال تواجده بالدكان، ورغم أن هذا التصريح يتعارض مع إنكاره السابق، إلا أن مصلحة العائلة، تأتي دومًا –وأبدًا- في المقاوم الأول لديه. حملقت "هاجر" في وجه شقيقها بملامح باهتة مصدومة، سألته بصوتٍ متردد يعكس ذهولها؛ وكأنها تتأكد مما سمعته:

-"محرز" عمل .. فيك كده؟

كان رده واضحًا:

-أيوه يا "هاجر".

انقبض قلبها بقسوةٍ، وشعرت به يتحطم بين ضلوعها، لم يكن ليطرأ في لمحة من خيالها، أن يكون زوجها متورطًا في فعلٍ شنيع كهذا، لهثت تتساءل بانفعالٍ، وعيناها تحجزان العبرات فيهما:

-طب ليه؟ ده إنت عمرك ما أذيته في حاجة؟ ليه كان عايز يضرنا فيك؟

نظر لها "تميم" مطولاً، قبل أن يُجيبها:

-إجابة السؤال ده عنده هو، مش عندي.

التفتت برأسها نحو والدها الذي استطرد يخبرها:

-الحمدلله إن ربنا نجاه من شره...

هزت رأسها بإيماءةٍ راضية عن قضاء المولى، وهي تبحث في حقيبتها، عن منديل ورقي، تجفف به العبرات العالقة في أهدابها، بينما واصل أباها القول:

-"هاجر" يا بنتي، حضرت الظابط الموجود معانا هنا، عايز يسألك في شوية حاجات كده.

تجمدت عيناها على والدها، وتساءلت في جزعٍ:

-في إيه تاني؟

هنا أجاب "ماهر" موضحًا لها:

-في احتمال كبير إن جوزك متورط في قضية قتل.

انخلع قلبها مجددًا، ولمعت نظراتها بخوفٍ حقيقي، ثم دمدمت في ارتياعٍ:

-كمان؟ هو أنا متجوزة قتال قُتلة ولا إيه؟

أردف "بدير" قائلاً بهدوءٍ، ليخفف من حدة ارتعابها:

-اهدي يا بنتي، ومتخافيش، كلنا جمبك.

سألته بشكلٍ مباشر، لتبدد الحيرة التي انتابتها سابقًا، بشأن إصرار العائلة على الانتقال للإقامة معهم:

-عشان كده طلبت يابا مني أرجع أعيش معاكو، وأسيب بيتي؟

أجابها دون مراوغة:

-مكدبش عليكي، خوفت الكلب ده يعمل فيكي حاجة، وإنتي لوحدك.

علقت عليه بنبرتها الحزينة المغلفة بالأسف؛ وكأن الغشاوة قد أزيلت عنها أخيرًا، فأصبحت ترى وجهه البشع:

-إذا كان فكر يقتل أخويا وهو عارف غلاوته عندي إزاي...

اختنق صوتها إلى حدٍ ما، عندما تابعت باقي جملتها:

-تفتكر كان ممكن يموتني؟ ولا حتى آ... يأذي ابنه؟!!

رد عليها "تميم" تلك المرة، محاولاً تهوين الأمر عليها:

-محدش فينا كان عارف حقيقته يا "هاجر".

عاد "ماهر" ليسألها مجددًا بلهجته الرسمية:

-مدام "هاجر" أنا محتاج حضرتك تهدي شوية، وتركزي معايا، عشان أقدر أسألك، جايز إجاباتك تساعدنا نمسكه.

أدارت رأسها في اتجاهه، وتساءلت في ترددٍ، وصوتها لا يزال تعيسًا:

-وأنا أقدر أساعد سعادتك إزاي؟ ده أنا خدت مقلب كبير في جوزي.

قال مشجعًا إياها على الوثوق به:

-ماتستقليش بنفسك، أنا متوقع إنك هتفيدينا جدًا.

أضاف "بدير" أيضًا ليحفزها على إظهار شجاعتها في البوح بالأسرار المخبأة، إن كانت توجد حقًا:

-اسمعي كلام البيه الظابط يا "هاجر"، وده لمصلحة ابنك قبل مصلحتك.

لم تملك ابنته سوى الإذعان له، لذا ردت باقتضابٍ:

-حاضر.

أشـار "ماهر" للضابط الآخر المتواجد بالخارج، لينضم إلى المتواجدين بالغرفة، وتابع يقول بنفس الأسلوب الجاد:

-أنا معايا مقطع لفيديو تم التقاطه من كاميرا محل قريب، على اللاب توب ده، عايزك تركزي في الصورة، وتقوليلي هل ده جوزك ولا لأ؟

تحركت أنظارهـا مع الحاسـوب المحمـول الذي تم وضعه نصـب عينيهـا، وردت بربكةٍ عظيمة:

-طيب.

بدا وكأن الحمل بأكمله أُلقي على كاهليها، وهي التي لم تفعل شيئًا هامًا في حياتها، سوى رعاية أسرتها، ركزت حواسها مع ما يتم بثه أمامها، خطفت أنفاسها عندما تراءى له بهيئتها، فهتفت قاطعة الصمت الوهمي:

-هو "محرز".

سألها "ماهر" بعينان تلمعان في اهتمامٍ:

-إنتي متأكدة؟

استرسلت في تفسيرها المزيل لما هو غامض، فخاطبته قائلة:

-أيوه، اللبس ده أنا عارفاه، عشان يومها رجع البيت متأخر، ولما سألته عن السبب قالي إنه كان مشغول مع واحد صاحبه عامل عقيقة لابنه.

انتبه لها "ماهر"، وتساءل بنبرته المحققة:

-لاحظتي حاجة غريبة عليه اليوم ده؟

ترددت قبل أن تجيبه، وهي تعتصر ذهنها اعتصارًا لتتذكر تفاصيل هذا اليوم:

-مش فاكرة أوي.. بس هدومه مكانتش نضيفة، كان عليها بقع دم، ولما سألته عنها، قالي إنه كان واقف بيدبح معاه.

تحفز في جلسته، ولاحقها بسؤاله التالي:

-الهدوم دي لسه موجودة يا مدام؟

أجابت نافية:

-لأ.. أنا دورت عليهم في سبت الغسيل، عشان أغسلهم، ملاقتهومش موجودين.

علق عليها "ماهر" بضيق ارتسم على تعابيره:

-طبعًا محتاج يخفي معالم جريمته.

اتسعت عيناها في خوفٍ متزايدٍ، وهي تتساءل:

-جريمة إيه تاني؟

تنحنح قبل أن يجيبها:

-في اليوم ده يا مدام "هاجر"، جوزك استدرج صاحبه، وقتله في بيته...

شهقة مرعوبة خرجت من جوفها، كتمتها في منتصفها، بوضع يدها على فمها، بينما أكمل "ماهر" حديثه بقوله الجاد:

-مش زي ما فهمك، إنه كان في عقيقة ابن واحد معرفته.

لطمت على صدرها مرددة في دهشة مليئة بالخوف والاستنكار:

-يا نصيبتي.

حقائق مستجدة اكتشفها "بدير" أيضًا، جعلته يشعر بالحزن الشديد، لثقته العمياء والمطلقة، في شخصٍ، ظن أنه الاختيار المناسب، لمنحه ابنته. نكس رأسه في خزيٍ، وغمغم بصوتٍ عبر عن إحساسه بالخذلان:

-إزاي أنا أمنت عليه لبنتي؟

رد عليه "تميم" محاولاً منعه من تحميل نفسه الذنب دون داعٍ:

-متلومش نفسك يابا، كلنا اتخدعنا فيه.

نظر في اتجاهه، وقال بنفس النبرة الواجمة:

-عيب على الشيبة دي كلها لما يضحك عليها.

لم يجد "تميم" ما ينطق به، للتعليق على والده المنزعج، فاكتفى بالصمت، وتابع ما يقوم به الضابط "ماهر" بنظراتٍ متحفزة، أملاً في نفسه أن تتخطى شقيقته

بأقل الخسائر الممكنة، تبعات تلك العقبة المشينة التي لازمتها لسنواتٍ في حياتها، والمسماة بزوجها.

...............................................

بدا مؤلمًا للغاية، أن ترى شقيقها الوحيد، الذي كان مفعمًا بالحياة والنشاط، راقدًا هكذا على الفراش، كجسدٍ بالٍ، يكافح لتحريك أطرافه دون مساعدةٍ خارجية. لم تستطع ضبط دموعها، مع رؤيتها لحالته المؤسفة، ناهيك عن حزنها العميق لخسارة أبنائه، تزايد الألم بصدرها، ووجدت صعوبة في السيطرة على حالها. فشلت "آمنة" في التماسك أمام سريره، ونطقت بنحيبٍ، وهي تربت على كتفه:

-ألف سلامة عليك يا أخويا، شيد حيلك، إن شاءالله تقوم تقف على رجليك من تاني.

ناضل "خليل" للاستدارة نحوها، وهتف يرجوها بتلعثمٍ جلي، وتلك النظرة المستجدية تحتل عينيه:

-"آ..مـ..نة" بـ...نتـ.ي.

ردت عليه بصوتها الدافئ، وعبرتها طفرت من مقلتيها:

-اطمن ياخويا، أنا هنا معاك.

كرر مرة أخرى اسم ابنته، وعيناه تحبسان دموعًا عاجزة:

-"رقـ..يــ.ة"!

مسحت بمنديلها الورقي دمعه المتساقط على صدغه، وهي تؤكد عليه:

-حاضر، متقلقش.

لم تغالب دموعها، وألقت عليه نظرة أخيرة، حاولت بها طمأنته؛ لكن ملامحه غير المرتخية أكدت أنه يعاني عذابًا لا يشعر به غيره، تركته يستريح في غرفته، واتجهت إلى الخارج، وصوت نهنهاتها الحزينة يسبقها، ما إن رأتها "همسة" حتى أسرعت نحوها لتسندها، أسندتها من ذراعها، وسحبتها نحو أقرب مقعد لتجلسها عليه. ازدادت نوبة بكاء "آمنة"، وشرعت تشكو عجزها عن مساعدة شقيقها:

-قلبي متقطع عليه، مش عارفة أعمل إيه، حاسة إني متكتفة، والمصيبة كبيرة أوي عليا.

قاومت ابنتها رغبة مُلحة في مشاركتها البكاء، وردت عليها بصوتها المختنق:

-ربنا يهون عليه وعلينا.

لحظات بطيئة، من الصمت المعبق بالمشاعر الحزينة، استحوذت على الأجواء بينهما، إلى أن تكلمت "همسة" قائلة، لتُعلمها:

-أنا اتصلت بعمي "إسماعيل" عشان أعرفه باللي حصل.

غمغمت في استحسان:

-كويس، يجوا يقفوا معانا، بدل ما احنا ولايا لوحدنا.

استاءت من إنكارها لمجهودات زوجها، الذي تفرغ من مهامه، ليكون ملازمًا لكلتيهما، وعاتبتها بلطفٍ:

-و"هيثم" راح فين يا ماما؟ ده ماسبناش للحظة.

تداركت خطئها غير المقصود، فقالت:

-أيوه فعلاً، كتر خيره والله، وربنا ما يضره في عزيز.

أمنت على دعائها قائلة بهزة بسيطة من رأسها:

-يا رب.

.........................................................

قبل أن ينتهي الضابط من تسجيل الأقوال في المحضر الرسمي، انسحب "بدير" بهدوءٍ، ليتحدث بعيدًا عن الضوضاء الموجودة بغرفة ابنه في هاتفه المحمول الذي رن في جيب جلبابه، ليعود بعد برهةٍ، مستقرًا في مقعده، لم تتركه نظرات "تميم" طوال فترة غيابه، كان يترقب عودته، ثم مال عليه، وسأله بصوته الخفيض:

-في حاجة حصلت يابا؟

جاوبه بنبرة أقرب للهمس:

-ده "هيثم" اتصل، كان بيعرفنا بالجديد عند خال مراته.

انعقد حاجباه، وتساءل باستغرابٍ ظاهر عليه:

-ليه؟ ماله؟

ما زال صوت والده محتفظًا بخفوته، عندما أخبره:

-بعيد عنك وعن السامعين عياله كلهم.. ماتوا.

سأله على الفور بنبرة ملتاعة:

-يا ساتر يا رب، حادثة ولا إيه؟

كان رده غير مريح حينما قال:

-محدش لسه عارف التفاصيل، لما يجي "هيثم" هنفهم منه، لأنه موجود معاهم.

همس "تميم" بصوتٍ آسف لا يخلو من الحزن:

-واجب يا حاج، ماينفعش يسيبهم للحظة، ولو ناقصهم حاجة آ...

قاطعه والده مؤكدًا، بنبرة جادة للغاية:

-من غير ما توصيني، أنا بس أطمن عليك، وأوصل أختك البيت، وهاروح أطل على الجماعة وابقى معاهم.

شكره بزفيرٍ ثقيل:

-تعيش يابا.

للحظة خاطفة تخيل وسط ما يقاسيه، طيف "فيروزة" يزوره في عقله، بملامح وجهٍ حزينة، وعينان تتماشيان مع اسمها؛ لكن الفارق أنهما تسبحان في عبراتٍ مقهورة، جعلته يشعر بانقباضةٍ غير عادية تسري في فؤاده، وضع يده

على صدره، دلكه بحركة دائرية متكررة، وهمس راجيًا بصوتٍ بالكاد تحرر من بين شفتيه، ونظراته تحدق في الفراغ:

-ربنا يسترها عليكي.

.........................................

غرزت الممرضة إبرة أخرى، في المحلول المعلق على الحامل، والتفتت ناظرة إلى المريضة المستلقية على الفراش، تنازع نوبة صراخٍ جارحة لأحبالها الصوتية، بعد أن استفاقت من غيبوبتها الإجبارية. وجدت حولها أقاربها، يواسونها في مُصابها؛ لكن بقيت عيناها على الوحيد الذي اتخذ مكانه بالخلف، لتناديه بالاسمِ، موجهة حديثه له بشكلٍ شخصي:

-خسرت ولادي يا حاج "إسماعيل".

انتصب كتفا الأخير، ونظر لها بإشفاقٍ، فأُكملت عويلها بنبرتها الناقمة:

-في فقر أُكتر من كده؟

ردت عليها "سعاد"، وقد غص صدرها بالبكاء الشديد، تأثرًا بالفاجعة غير المحتملة:

-ارضي بقضاء الله ياختي.

في حين دعت لها "سها" بحزنٍ غير زائف:

-ربنا يصبرك على فراقهم، بس بلاش كده، إنتي بتعذبيهم؟

اعترضت بصراخٍ حاد:

-يعني ماندبش ولادي التلاتة؟ ده مش واحد ولا اتنين، دول كلهم راحوا في غمضة عين!

استنكر "إسماعيل" ما تفعله، ومع هذا قال بنوعٍ من التعاطف:

-ربنا يرحمهم برحمته الواسعة، هما عند اللي أحسن مننا كلنا، مايعزوش عليه.

بينما أضافت زوجته وسط بكائها:

-احنا جمبك كلنا يا "حمدية"، مش هانسيبك.

هتفت وهي تلطم على وجنتيها بقسوةٍ:

-بقيت لوحدي خلاص، لا عيل يشيل عني، ويسندني، ولا راجل ياخد بإيدي، أنا اتقطعت من الدنيا.

أمسكت "سعاد" بكفيها لتوقف ما تفعله، وتوسلتها في رجاءٍ كبير:

-بالله عليكي ما تعملي كده في نفسك، احنا كلنا أهلك، ومعاكي يا غالية.

تنهد "إسماعيل" مطولاً، ثم أضاف برثاءٍ:

-ربنا يصبرك على ما بلاكي.

نظرت في عينيه، وقالت بنبرةٍ مليئة بالشجن:

-هايجي منين الصبر وعيالي راحوا مني يا حاج؟

رفع عكازه عن الأرضية، وضربه بها في حركة سريعة متوترة، غير راضية عن سخطها الواضح، فأيًا كان حجم الابتلاء، يكن التعويض الإلهي على مقدار الصبر، التفت برأسه نحو ابنه "فضل" الذي لم يكن مستمتعًا بما يراه من بؤس، وعويل، مال على والده طالبًا منه:

-ما يينا احنا من هنا يابا لأحسن أنا مش ناقص نكد حريم، ومرار طافح، كفاية اللي بنشوفه كل يوم.

عنفه بصوتٍ خفيض، وعيناه ترسلان تحذيرًا شديد اللهجة له:

-خلي عندك دم يا "فضل"، مش نسايبنا دول، والولية قلبها مفطور على عيالها..

قاطعه ببرودٍ مستفز:

-اللي راح راح، هنعملها إيه يعني؟ أجلهم كده.

واصل توبيخه مدمدمًا بهسيسٍ مغتاظ من تصرفاته غير المسئولة:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، هو إنت مافيش في قلبك شوية رحمة؟

علق عليه بنفس السماجة:

-كان في وخلصوا.. أنا هاطلع أشرب سوجارة برا.

حضوره لم يكن مرغوبًا، لذا عقب عليه والده، كما لو كان يطرده حقًا:

-يكون أحسن.

وبخطواته البطيئة، تحرك "فضل" خارج الغرفة، متجهًا للردهة الطويلة، وأمام لافتة عدم السماح بالتدخين، أخرج علبة سجائره، التقط واحدة منها، ثم حشرها بين شفتيه، وفتش براحة يده عن ولاعته، حينما وجدها أشعل عقبها، وتنفس دخانها ببطءٍ، غير عابئ بالنظرات المستنكرة لتصرفه الطائش. لمح خلال وقفته المستريحة "همسة" وهي تسير في اتجاه ردهة الانتظار، ألقى ببقايا سيجارته، داعسًا على طرفها، ثم أسرع في خطواته ناحيتها متسائلاً:

-عاملة إيه يا بنت عمي؟

تفاجأت من حضوره، وردت بعبوسٍ، دون أن تتوقف عن المشي:

-الحمدلله.

سألها بابتسامة تبعث على الغيظ:

-أومال فين الأفندي بتاعك؟

توقفت في سيرها، لتستدير في وجهه، ورمقته بنظرة حادة، قبل أن توضح له عن قصدٍ:

-قصدك "هيثم" جوزي؟

كان رده مستفزًا لأبعد الحدود عندما حرك فكه ليرد:

-أيوه، أصلي مش فاكر اسمه الصراحة.

كظمت غضبها من أسلوبه الوخ، وتعاملت برسمية معه، فقالت:

-هو مش فاضي للهيافات، بيخلص إجراءات الدفن، لو عايز تروح معاه فــ....

هتف مقاطعًا بعدم اكتراثٍ:

-لأ ماليش في الحاجات دي، خليه هو يسلك فيها بمعرفته.

علقت عليه بنظراتٍ احتقارية:

-على الأقل أحسن من ناس تانية...

استشاطت نظراته، فأكملت ساخرة منه:

-دايمًا خدوم يا ... "فضل"..

همَّت بالتحرك، لولا أن استوقفها متسائلاً بفضولٍ:

-أومال أختك عرفت ولا لسه؟

جاوبته بنظرة من طرف عينها:

-لأ مقولنلهاش لسه.

تصلبت بحنقٍ مع تلميحه الوقح:

-زمانها غرقانة في العسل.

التفتت تحدجه بنظرةٍ محذرة، وهي تقول:

-الله أعلم بظروفها.

سألها بتطفلٍ أكبر:

-ومبسوطة على كده مع البأف بتاعها؟

زجرته بحدةٍ لم تستطع كبتها:

-هو إنت شايف إن ده وقته يا "فضل"؟

بنفس الطريقة اللزجة عقب عليها:

-إيه بأطمن عليها؟ هو السؤال حُرم؟ ده أنا ابن عمها.

نظرت له بازدراءٍ، قبل أن تنهي حواره السخيف معها:

-هاروح أشوف أمي، بدل الوقفة اللي مالهاش لازمة دي.

لو كان واحدًا غيره لشعر بالحرج لتلك المعاملة؛ لكنه كان على النقيض، باردًا، مستفزًا لأقصى الحدود، لوح لها بذراعه هاتفًا:

-روحيلها...

رافقها بنظراته التي لم تترك تفاصيل جسدها الأنثوي دون مسحة متأنية، لاحت ابتسامة غريبة على جانب شفتيه، وهو يخبر نفسه بصوتٍ شبه خافت:

-بس شكلك ألوظتي يا بت ...

انتفض كالمفزوع، حينما سألته "سها" بغتةً، وقد جاءت من خلفه:

-إنت بتكلم نفسك يا "فضل"؟

نظر لها بتأففٍ، وقال في جفاءٍ:

-أه .. مجنون بقى، عندك مانع؟

ردت عليه وهي تزدري ريقها:

-لأ، بس أبويا الحاج عايزك جوا.

أخبرها بلهجته الفظة، مشيرًا لها بعينيه لتنصرف:

-هاجيله لما أطفح السوجارة.

هزت رأسها قائلة:

-طيب

شيعها بنظراته النافرة، مُحدثًا نفسه:

-أنا عارف حظي وحش كده مع الحريم.

..................................................

ناولت والدتها كوبًا من الماء، لتبلل به جوفها الجاف المليء بالعلقم المرير، ثم جلست في المساحة الخالية إلى جوارها، نظرت إليها "آمنة" بعينين ما زالت تعاني من آثار البكاء، وتساءلت بقلبٍ لم يتعافَ بعد من أحزانه الثقيلة:

-معرفتيش توصلي لأختك؟

على مهلٍ تنهدت "همسة" تخبرها نافية:

-لأ يا ماما، موبايلها مقفول، وحسابها على الفيس بوك مش متفعل برضوه.

بلغ الخوف أقصاه في نفسها، وتساءلتِ بخوفٍ بائن في نبرتها:

-يا ترى حصلها إيه؟ استرها عليها يا رب.

بعد استغراقٍ في التفكير، حادثتها ابنتها بنبرة عازمة:

-أنا هاكلم "علا" اسألها عليها، جايز تكون عارفة حاجة عنها، هي صاحبتها الأنتيم.

تجدد بريق الأمل المفقود مرة أخرى، وقالت تشجعها على اقتراحها هذا:

-يا ريت يا "همسة"، ربنا يسمعنا عنها كل خير.

أمسكت بهاتفها المحمول، ونهضت من مكانها لتقف منزوية في الجانب، بحثت عن رقم "علا" في قائمة الاتصال لديها، حمدت الله أنها ما زالت محتفظة به، فتوأمتها كانت تلجأ لاستخدام هاتفها، حينما ينفذ رصيدها، تحدثت إليها بحرجٍ، وحاولت أن تستعلم منها عنها، بطريقةٍ بدت متحفظة حتى لا تثير ريبتها، بعد أن سألت عن أحوالها، وبكلماتٍ مقتضبة أنهت المكالمة، لتعود إلى والدتها، تساءلت الأخيرة في لوعةٍ:

-عرفتي منها حاجة؟

هزت رأسها نافية بأسفٍ:

-لأ ياماما، بتقولي متعرفش عنها حاجة من يوم ما سافرت مع جوزها.

كسا الحزن تعابيرها المجهدة، ونطقت مقاومة بكائها:

-يعني زينا.

ضغطت على شفتيها قليلاً، قبل أن يكون ردها موجزًا:

-أيوه.

رفعت "آمنة" عينيها إلى السماء، ودعت برجاءٍ:

-دي حاجة تقلق، اجعل المخبي لطيف يا رب، متوجعنيش على عيالي يا كريم.

حاولت "همسة" أن تخفف من توجس والدتها الطاغي على قسماتها، فبررت اختفاء توأمتها:

-يا رب .. جايز يا ماما يكون موبايلها باظ منها، والأرقام اتمسحت من عليه.

بقلبٍ يعاني من ويلات كثيرة، تمتمت أمها:

-الله أعلم، بس أنا مش مرتاحة.

بثت "همسة" الأمل في نفس والدتها بقولها المتفائل؛ رغم افتقارها لهذا الشعور حاليًا:

-إن شاءالله هتكلمنا قريب، أنا واثقة من ده، "فيروزة" مش هاتسيبنا كده من غير ما نعرف حاجة عنها.

..............................................................

مضى يومان، خلالهما ازدادت المواقف تأزمًا، بعد اكتشاف السر الذي بقي محفوظًا لما يزيد عن الخمس سنوات؛ لكن لا مناص من التعامل مع الأمر

الواقع، وأصبح لِازمًا على الجميع التصرف وفق المُتبع والمفروض. اصطحبت "همسة" الطفلة "رقية" بعد السماح لها بالخروج من المشفى، إلى منزل والدتها، حيث من المفترض أن تمكث هناك، ريثما يتعافى والدها، بناءً على توصيته المتوسلة. ترجلت من سيارة الأجرة، ومعها زوجها، شخصت أبصارها، مع رؤيتها لشيءٍ لم تظن أنه سيتم هنا، فقد تفاجأت بإقامة سرادق كبير في المساحة الخالية بجوار المنزل، لتلقي العزاء في إخوة لم تعلم الطفلة عنهم شيئًا سوى بعد رحيلهم، لن تفتقدهم، ولن يفتقدوها، فكما كانت سرابًا في حياتهم، كانوا بالمثل معها.

تشبثت بكف الصغيرة، وتساءلت بصوتٍ عكس قلقًا لا تشكيك فيه:

-هنعمل إيه يا "هيثم"؟

نظر بحيرة للسرادق، وقال بنفس التردد:

-مش عارف

توقعت أن يتواجد بداخل السرادق الأقارب، والجيران، وكل من له صلة بالعائلة، وبحسبةٍ صغيرة أدركت أن عواقب رؤية الطفلة لن تكون محمودة، خاصة مع حالة الجنون المسيطرة على زوجة خالها الأولى "حمدية". وقبل أن يصل أحدهما لحلٍ لا يسبب المشاكل، لمحت "حمدية" ثلاثتهم، بسبب تواجدها غير المتوقع في مقدمة جانب النساء، حاولت تخبئة "رقية" خلفها، لتنأى بها عن نظراتها، متوهمة أنها ستنجح في الصعود بها سرًا إلى المنزل؛ لكن سبق السيف العزل، وأصبح الاختفاء عن نظراتها الملتهبة أمرًا مستحيلاً.

أبصرت "حمدية" ابنة ضرتها الناجية، بعينين تقدحان بشررٍ متطاير، امتلأ صدرها بغضبها المختلط بمشاعر الكراهية الشديدة، في ثوانٍ انتفض بركان حنقها عليها، لافظًا كل حممه المتأججة، تلك اللعينة عاشت، وهلك فلذات أكبادها! كالمجذوبة الفاقدة لعقلانيتها، انطلقت دافعة مقعدها الخشبي في عصبيةٍ للخلف، لينكفئ على ظهره، هرولت في اتجاههم، وصوت صراخها المهتاج يجلجل عاليًا، جاذبًا كل الأنظار الشاردة عليهم؛ كما لو تم القبض عليهم بالجُرم المشهود:

-دي جاية هنا ليه ........................................ ؟!

..........................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الثمانون

بروده‍ا المشهودة به، تبخر مع رؤيتها لوجهٍ، بات مصحوبًا بلعنة فقدان أولادها، انفلتت أعصابها، وفقدت كامل قدرتها على التحكم في تصرفاتها، اندفاعها الأهوج نحو الثلاثة كان كفيلاً بإثارة الفضول. اربد وجه "حمدية" بعلامات الغضب المخيفة، كما برزت عيناها بغلها الحقود، صرخت "رقية" مع اقترابها منها؛ معتقدة بشدة أنها تريد افتراسها، بأنيابها الحادة التي تظهر من بين شفتيها، توارت خلف "همسة"، وتلك الرجفة تصيب جسدها، خاصة مع صراخ "حمدية" بها، بأنفاسٍ كانت كفحيحٍ من النار:

-جايبين دي هنا ليـــه؟!

تقدمت "همسة" بجسدها دافعة الصغيرة خلفها، ونظرت إلى زوجة خالها بتوترٍ قلق، ما ضاعف من تلبكها اتجاه أنظار الحاضرين إليها، وشعرت بالتخبط وبتلعثمٍ عظيم يجتاح لسانها، عندما ردت عليها؛ وكأنها تدافع عنها:

-هي مالهاش دعوة بحاجة.

على عكسها اعترت الدهشة الممزوجة بالحيرة ملامح زوجها، فعلى الأغلب، ومن البديهي للجميع، أن "حمدية" لم تلتقِ بالطفلة من قبل؛ وربما إن تقابلت معها مصادفة في الطريق، لم تكن لتتعرف إليها، إذًا لماذا كل هذا الغضب تجاهها؟ لم يدع حيرته تشغله كثيرًا، وسألها مباشرة:

-هو إنتي عارفة دي مين يا حاجة؟

انتبهت له "حمدية"، ونظرت له بعينيها الحمراوتين، فأكمل "هيثم" جملته المتشككة:

-أصل عصبيتك عليها مالهاش تفسير عندنا.

بلعت ريقها، وكظمت غيظها مضطرة، بعد أن تداركت خطئها الأرعن، والذي من المحتمل أن يثير التساؤلات أيضًا، التفتت بظهرها نحو الحشد المتجمع، وبدأت فاصلاً جديدًا من اللطم والعويل:

-عيالي ماتوا، ومحدش حاسس بالنار اللي أنا فيها، ده مش واحد ولا اتنين، دول التلاتة في غمضة عين.

وبالنفس الأسلوب المتسول لمشاعر الغير، نجحت في اكتساب تعاطف المتواجدين، فالتفوا حولها يرثونها بكلمات المواساة المستهلكة، علَّ حزن قلبها المحترق يهدئ قليلاً.

على الجانب الآخر، تجمدت أنظار الطفلة عليها، بقيت محدقة بها بخوفٍ مرتاع، متذكرة ملامحها المألوفة عليها، ربما رأتها لمرة واحدة؛ لكن تجهم وجهها الحاقد، المليء بالغلٍ، لا يمكن نسيانه، انكمشت على نفسها مجددًا، واختبأت خلف "همسة" التي محاولة عدم النظر في اتجاهها، وإن خانتها النظرات.

تابع "هيثم" انسحاب "حمدية" مع بعض المعزيين، وعودتها لمكانها بالسرادق بنظراته المليئة بالشك، استدار ناظرًا إلى زوجته معلقًا بفضول:

-هي تعرفها منين؟

ردت وهي تهز كتفيها بالنفي:

-مش عارفة.

ضاقت عيناه بشكٍ، وأكمل تعليقه المستريب:

-على ما أظن محدش يعرف إن خالك كان متجوز عليها إلا من ساعة ما دخل المستشفى.

رمقته بنظرة لا تقل في ظنونها عنه، وأضافت:

-مظبوط، ودي أول مرة أصلاً نشوف فيها بنته.

تنفس بعمقٍ، ليردد بعدها:

-حاسس إن في حاجة غلط كده، الحكاية مش راكبة على بعض.

قالت "همسة" بإنهاكٍ بدا متمكنًا منها:

-الواحد دماغه مش فيه عشان يركز.

جاء رده عليها محايدًا:

-عمومًا، كل حاجة هتبان مع الوقت...

ثم استعد للتحرك وأشار بيده قائلاً:

-طب تعالي نطلع بدل وقفتنا دي.

أومأت برأسها بالإيجاب، والتفتت ناظرة إلى الصغيرة، ربتت على ظهرها وهي تدفعها للتحرك:

-يالا يا "رقية".

تجمدت قدماها في مكانها، ورفضت الاستجابة لها، لتهتف بعنادٍ:

-لأ.. مش عاوزة

سألتها "همسة" بتمهلٍ، محاولة إقناعها بالذهاب معها:

-ليه يا حبيبتي؟

ببراءتها السجية أجابت عليها، وعيناها تعكسان خوفها الطبيعي:

-مش عايزة أروح عند عمتو الوحشة.

تمتم "هيثم" باندهاشٍ، بعد سماعه لوصفها المريب:

-عمتو الوحشة؟!!

في حين نهرتها "همسة" بلطفٍ، رغم ظهور علامات الضيق عليها:

-عيب يا "رقية"، متقوليش كده.

لكزت الطفلة بقدمها الأرضية، مقاومة جذبها الخفيف لها، قاصدة الإفلات من قبضتها، وصاحت بصوتٍ أقرب للبكاء:

-أنا عاوزة أروح عند ماما.

حاولت شدها ناحيتها، وخاطبتها بصوتٍ هادئ:

-يا حبيبتي مش هاينفع، ماما مسافرة.

ردت الطفلة بحزنٍ:

-وديني عند بابا.

غصة علقت بحلقها، شعرت بألمها، وهي تقول لها:

-بابا لسه تعبان.

استمرت "رقية" في مقاومتها، وهي ترد:

-أنا عاوزة أمشي من هنا.

ضجر "هيثم" من الجدال غير المجدي، فاقترب من الطفلة، وانحنى ليحملها على ذراعه قائلاً لها:

-يالا يا بنتي، مش ناقصين مناهدة.

صاحت الصغيرة ببكاءٍ فيه إلحاح مزعج:

-ودوني عند ماما، أنا عاوزة ماما.

بدا الاستياء على وجه "هيثم"، الذي واصل السير بها، مقاومًا ركلاتها المتذمرة، وصراخها المؤلم لأذنه، مُحدثًا نفسه:

-شكلها هتبقى ليلة فلة!

.........................................................

على مكتبه الخشبي الأنيق، جلس المحقق الشرطي، المسئول عن هذه القضية تحديدًا، يُطالع بنظراتٍ مدققة الأوراق المفرودة خارج الملف، ركز كامل انتباهه على ما يقرأه، مدونًا ملحوظاتٍ جانبية في ورقة صغيرة. استغرق في تفكيره الاستباطي لوقتٍ لا بأس به، رفع رأسه فقط حينما سمع دقات على باب مكتبه، حينها سمح للطارق بالدخول. ولج أحد الضباط إليه، وفي يده مغلف مغلق، ناوله إياه وهو يخبره بلهجةٍ رسمية:

-تقرير تشريح جثة القتيلة وصل يا فندم، تقدر حضرتك تطلع عليه.

مد يده ليأخذه معقبًا باقتضابٍ:

-تمام.

ثم أشار له ليجلس، وبدأ في فض المغلف، لينظر بعدها للورق الرسمي الموجود بداخله، مضت بضعة دقائق، وهو يقرأ في صمت ما احتوته الأوراق، تساءل الضابط الآخر المعاون له في فضولٍ:

-إيه الأخبار يا باشا؟

أجابه بملامح جادة:

-زي ما توقعت، الرئتين مافيش فيهم دخان، لأن الضحية ماتت بالتسمم قبل ما انفجار الغاز يحصل عندها في الشقة.

ظهر الاستغراب على معالم وجه زميله، في حين تابع المحقق بنفس اللهجة الجادة:

-ده لما نطابقه مع التحريات اللي وصلها رجالة المباحث، وكلام بنت المجني عليها، الشبهات كلها متجهة لأخت الزوج، المدعوة .. "آمنة".

أضاف زميله بهدوءٍ:

-في حاجة كمان يا فندم لازم حضرتك تاخد خبر بيها.

تساءل بتعابيرٍ مهتمة:

-إيه هي؟

بعد زفيرٍ بطيء أجابه:

-أولاد الراجل ده ماتوا بنفس المادة المسممة دي بعد تخديرهم.

برقت نظراته في دهشة، بينما استأنف زميله حديثه مشددًا على نقطة بعينها:

-والزوجة الأولى اتهمت العمة بعمل ده.

قال المحقق بابتسامة صغيرة لاحت على زاوية فمه:

-واضح كده إن الموضوع هيتحل أسرع مما نتخيل، رغم إني عندي شوية تحفظات على أركان الجريمة.

سأله بنبرته المهتمة:

-زي إيه يا فندم؟

كان جوابه عليه مليئًا بالتساؤلات المتعاقبة:

-إيه الدافع اللي يخلي أخت تقتل ولاد أخوها؟ هل خلاف على ميراث قديم مثلاً؟ عداوات بينهم؟ وده ماظنش موجود، بدليل إنهم ساكنين في بيت واحد.

زم شفتيه مرددًا:

-حاجة تحير.

أكمل المحقق كلامه بإراحة ظهره للخلف:

-كمان من الواضح إن "خليل" ده متجوز من ورا مراته، يعني ماتستبعدش إن الزوجة الأولى تكون عرفت، وحابة تنتقم منه.

تساءل الضابط في اندهاشٍ لا يخلو من الاستنكار:

-وتقتل عيالها؟! بيتهيألي لأ يا باشا، ده غير إن أقوال الجيران والبنت الصغيرة بتأكد إن عمتها هي اللي كانت موجودة.

بدت نظراته محملة بالاستهجان وهو يقول:

-هانشوف، بس أنا حاسس إن في حاجة غامضة في الجريمة دي، حلقة مفقودة، رابط مشترك بين حدوثهم، وأكيد هنوصل لتفاصيل كل حاجة.

تحفز الضابط في جلسته، وتساءل بكتفين منتصبين:

-والمطلوب مني إيه دلوقتي يا فندم؟

برسميةٍ بحتة أمره:

-تطلع بقوة على بيت "آمنة" و"حمدية"، وتجيبهم القسم ناخد أقوالهم.

أومأ برأسه قائلاً في امتثالٍ:

-حاضر يا فندم.

أضاف عليه مؤكدًا:

-كمان عايز دايرة التحريات توسع، ويتم مراجعة كل كاميرات المراقبة في المنطقة، وأخذ أقوال السكان من تاني، وخصوصًا اللي اتعاملوا مع الضحية قبل وفاتها.

هزة انصياعٍ من رأسه، تبعها قوله المعبر عن إطاعته لأوامره:

-مفهوم معاليك.

.........................................................

دقات عنيفة على الباب الخشبي، مع قرعٍ متواصل للجرس كانوا مدعاة للقلق والاسترابة، خاصة مع انتهاء أيام العزاء، وعودة الجميع للبلدة، وانشغالها برعاية ابنة شقيقها اليتيمة. تحركت "آمنة" بخطواتها الثقيلة المتعبة نحوه لفتحه، لم تنكر أن قلبها كان يدق في توجسٍ. بلعت ريقها، وردد لسانها متسائلاً:

-يا ساتر يا رب، إيه الخبط ده؟

استوقفها "هيثم" قبل أن تفتحه بقوله الصارم:

-استني كده يا حماتي، أنا هاشوف مين.

تنحت للجانب، حامدة الله في نفسها، على إقامته معها طوال الفترة الماضية، تركته يتقدم عنها بخطواته الأسرع، أدار المقبض، وتطلع بعينين متسعتين للأوجه الكثيرة المرابطة عند عتبة المنزل، بنظرة خاطفة أدرك من هيئتهم المميزة أنهم ينتمون لجهة رسمية، ازدرد ريقه، ليتساءل بعدها:

-خير يا بشوات؟

أجاب عليه أحدهم، ويبدو من هيئته أنه المنوط بتولي تلك المهمة:

-ده بيت "آمنة العربي"؟

أجابت "آمنة" من خلف "هيثم" بصوتٍ مهتز، ونظراتها تجول على الأوجه المراقبة لها:

-أيوه أنا، في إيه يا حضرت؟

أجابها الضابط وهو يخرج من جيبه، ورقة مدموغة بختم رسمي، ليضعها نصب عينيها:

-معانا أمر بتفتيش البيت، واستدعائك للتحقيق.

لطمت على صدرها مرددة في خوفٍ:

-يا نصيبتي؟ ليه أنا عملت إيه؟

أجاب بصوته الجاف:

-هتعرفي في القسم.

خرجت "همسة" من الداخل، لتتفاجأ باقتحام الغرباء للمنزل، احتوت الطفلة في أحضانها، ورفعتها على ذراعها، قبل أن تتجه أنظارها نحو والدتها التي أمسك بها أحدهم، حينها تحركت نحوه متسائلة في جزعٍ:

-عايزين أمي ليه؟

استدار الضابط ناحيتها، وقال ببرودٍ، ونظرته الجامدة مثبتة عليها:

-مطلوبة للتحقيق يا مدام.

صاحت في استنكارٍ شديد:

-تحقيق؟ ليه؟ ده هي طول عمرها في حالها.

علق بتهكمٍ، ونظرة ازدراء احتلت عينيه:

-مالناش دعوة بالكلام ده ...

ثم خاطب "آمنة" بلهجته الآمرة، وفي طياتها تحذير واضح:

-البسي يا حاجة هدومك، وإلا هناخدك كده.

تساءل "هيثم" بارتباكٍ حائر:

-طيب يا باشا ممكن تفهمنا فيه إيه؟

منحه نفس الجواب المبهم بقوله:

-في القسم هتعرف، يالا يا حاجة متعطليناش.

التفتت "آمنة" نحو ابنتها ترمقها بنظراتها الخائفة، فأردفت الأخيرة تخبرها بحسمٍ:

-أنا جاية معاكي يا ماما، مش هاسيبك لوحدك.

تحركت نحو غرفتها، مُتمتمة بتوجسٍ متزايد، وابنتها من خلفها تتبعها:

-استرها يا رب.

لم يكن "هيثم" بحاجةٍ لتبديل ثيابه، فما زال يرتدي ملابسه الخارجية، لهذا انتظر بالصالة برفقة الضابط ومعاونيه، تأهبت حواسه، واستدار نحو باب المنزل مع صياح أحدهم بصوته الجهوري:

-لاقينا الحاجات دي يا باشا في كرتونة صغيرة في بير السلم.

أمره الضابط بنبرته غير القابلة للنقاش:

-اتحفظ عليهم لحد ما نشوف دول إيه كمان.

تضاعفت هواجس "هيثم" مع هذا الكلام المثير، انتابه إحساسًا مزعجًا بأن القادم لا يبشر بخير.

..........................................................

شعرت بالحرج لطلب هذا منه؛ لكنه بدا الخيار المناسب مؤقتًا، لإبقاء الطفلة في مأمن من الأذى، ريثما يتفقه أذهانهم لما يدور، خاصة بعد اصطحاب الشرطة لوالدتها، والتفتيش في المنزل، كما لو أنهم ارتكبوا جريمة حقًا. لم يعارضها

"هيثم"، فتواجد الصغيرة في مكانٍ يعج بالمنحرفين عن القانون، ومعتادي الإجرام لا يعد أمرًا لائقًا، لمن هم في مثل عمرها، صعد كلاهما إلى منزل عائلة "سلطان". بكلِ خجلٍ وحياء طلبت "همسة" من "ونيسة"، التي استقبلتها بودٍ وألفة:

-هستأذنك يا طنط ينفع نسيبها عندك شوية؟

ردت دون أن تسألها عن السبب:

-آه وماله.

في حين تساءل "بدير" في استغرابٍ:

-خير؟ في حاجة حصلت؟

أجاب "هيثم" عن زوجته التي انعكس المزيد من الإحراج على ملامحها:

-طالبين الست أمها في القسم، واحنا رايحين نحصلها، بس مش هاينفع ناخد البت معانا.

تفهم للموقف، وعلق عليه بوجهٍ جاد:

-لأ مايصحش طبعًا، خليها معانا، وأنا هاكلم المحامي يروح وراكم على القسم، يشوف في إيه، بس قولي إنتو في قسم إيه.

أدله على العنوان قائلاً:

-احنا في (...)

أشار له "بدير" بيده ليترك الطفلة، وتابع:

-طيب روح إنت يا "هيثم"، وماتضيعش وقتك...

ثم وجه حديثه لـ"همسة" قائلاً:

-ماتخليكي يا بنتي معانا.

اعتذرت منه بتهذيبٍ حرج:

-مش هاينفع أسيب ماما لواحدها، أنا قلقانة أوي عليها.

برر لها سبب استدعائها للتحقيق، بما احتوى على شيءٍ من المنطقية:

-تلاقيه إجراء شكلي بعد اللي حصل، ما هي الحكاية مش بسيطة.

هزت رأسها بحزنٍ، وقالت في رجاءٍ متضرع:

-ربنا يستر ويعديها على خير.

قال معقبًا عليها:

-يا رب.

انحنت جاثية على ركبتها، وخاطبت الطفلة بابتسامةٍ حاولت أن تبدو لطيفة ومطمئنة، وهي تمسك بكفيها بأناملها:

-"رقية" حبيبتي، إنتي هتفضلي هنا مع تيتة "ونيسة" شوية، وجدو "بدير"، واحنا مش هنتأخر عليكي.

تقلصت عضلات وجه الصغيرة، وقالت بعبوس:

-بس أنا عايزة أروح معاكي.

وعدتها بصدقٍ، وهي ترفع ذراعها للأعلى، لتمسد بيدها، على شعرها المعقود في جديلتين:

-وأنا والله ما هتأخر.

مالت عليها "ونيسة"، واحتضنت الطفلة من كتفيها، وأخبرتها بحنوٍ:

-ده أنا هاجيبلك لعب كتير حلوة، وهتشوفي النونو بتاعنا، وتساعديني أأكله مع أمه.

استرعى كلامها الأخير انتباهها، وتساءلت في فضولٍ طفولي:

-النونو؟

ردت عليها "ونيسة" مؤكدة بابتسامة صافية:

-أه ما احنا عندنا واحد صغنن أد كده...

اتسعت ابتسامة "ونيسة" أكثر، ودعتها بنفس النبرة الودية:

-تيجي معايا تشوفيه؟

بإيماءات مشجعة من عينيها، وكذلك بإمداد كفها لها، حثت الصغيرة على الترك معها، فاستجابت الطفلة لدعوتها، وتركت يد ابنة عمتها، لتسير بصحبة مُضيفتها التي أغدقت عليها بالكثير من العاطفة والحب، اطمأنت "همسة"

لإيداعها معها، واستدارت محدقة في "بدير" بامتنانٍ كبير، عجزت فيه عن التعبير عن شكرها لمحبته غير المحدودة، ومؤازرته الدائمة لها ولعائلتها، في كل محنة تجابه الأسرة. حبست دموعها المتأثرة، وأردفت تخبره:

-ربنا يخليك لينا يا حاج "بدير".

قال مبتسمًا:

-عيب ما تقوليش كده، هزعل منك، دي زي بناتنا، متقلقيش عليها معانا.

استطرد "هيثم" يقول بجدية:

-يلا بينا احنا عشان نلحق وقتنا.

على الفور تقدمت في خطواتها، لتسبقه، بينما تابع "بدير" من خلفهما:

-أنا معاكو على التليفون، والمحامي هيجيلكم، اطمنوا.

جاءه صوته قبل أن يغلق الباب مباشرة:

-ماشي يا حاج.

..........................................................................

بعباءتها السوداء، ووجهها الذابل، وعينان لا تكفان عن البكاء، جلست على المقعد المخصص لها، في غرفة مكتب المحقق الشرطي، تتحاشى النظر إليه. عمدت "حمدية" إلى تنكيس رأسها، والتواري خلف مناديل القماش الممتلئ به كفها، صدر من بين شفتيها نحيبًا خافتًا، كدليل عن استمرار أحزانها العميقة

لفقدان أبنائها. استهل الوكيل حديثه بكلماتٍ معزية تقليدية، تقبلتها منه بإيماءة بسيطة من رأسها، ليواصل بعدها متسائلاً بنوعٍ من التمهيد اللبق:

-جاهزة يا ست "حمدية".

ردت عليه متسائلة، وهي ترمش بعينين لامعتين بعبراتها:

-إنتو جايبني هنا ليه يا سعات البيه؟

كرر عليها إجابته بصيغة مختلفة:

-شوية أسئلة عادية وهتمشي.

هتفت في استهجانٍ شديد؛ وكأنها تشكو إليه تكالب المصائب عليها:

-وهو أنا بقى فيا عقل يا باشا؟ عيالي التلاتة راحوا مني دفعة واحدة، بقيت مقطوعة في الدنيا، وجوزي لا حول ليه ولا قوة، من ساعة ما سمع الخبر طب واقع، لا قادر يتحرك ولا عارف ياخد عزا عياله، وسعاتك تقولي بوليس ونيابة، هو أنا فيا حيل للبهدلة دي؟ سيبوني في همي يا باشا!

شبك كفيه معًا، وعلق بإيجازٍ:

-ربنا يصبرك...

للحظة سكت عن الكلام، ليضيف من جديد:

-أنا مقدر الظروف، بس محتاج أسئلك في كذا حاجة، تخص اللي حصل لولادك كمان.

بحثت عن ريقٍ غير موجود لتبلعه، وقالت:

-اتفضل يا بيه.

بأسلوبه المهني الخبير، استطرد مباشرة لصلب موضوع تحقيقه:

-من التحريات اللي وصلنا ليها، عرفنا إن جوزك متجوز عليكي واحدة تانية، اتقتلت من كام يوم.

ادعت دهشتها، ولطمت على صدرها، قبل أن تنفلت منها شهقة شبه مفتعلة، وراسمة على وجهها تعابير مذهولة، لتدمدم بصوتٍ عمدت لإظهار ذهولها المستنكر:

-يا نصيبتي، "خليل" متجوز عليا؟ لأ مش معقول، "خليل" ما يعملش كده!!

تطلع إليها بنظراتٍ مطولة، دارسة لردات فعلها، قبل أن يأتي سؤاله:

-يعني إنتي مكونتيش تعرفي؟

نفت جملةً وتفصيلاً، دون أن تمنح نفسها الفرصة للتردد:

-أبدًا يا بيه، دي أول مرة أسمع الكلام ده...

تحولت نبرته للندب وهي تتساءل ضاربة كفها بالآخر:

-طب عمل كده ليه؟ هو أنا قصرت معاه في حاجة؟

استدعت دموعًا غير موجودة بها، وواصلت نحيبها:

-ده أنا قايمة نايمة بخدم فيه وفي عيالي الله يرحمهم، يطلع في الآخر متجوز عليا، لا إله إلا الله، ناقص إيه تاني يحصلي؟

راقب المحقق انفعالاتها المتزايدة، وطلب منها:

-اهدي شوية...

قاطعته بصوتٍ تبدل للصراخ:

-أهدى؟ طب إزاي؟ عايزني أعرف إن جوزي متجوز عليا ومخلف كمان وأهدى؟!!!

التقط زلة لسانها موضحًا لها بنظراتٍ نافذة تحمل الشك:

-بس أنا مقولتش إنه مخلف!!!

بهتت ملامحها قليلاً، وبدا له كما لو جفت دموعها الزائفة، حتى شفتيها انفرجتا عن دهشة متلبكة، فتابع الضغط عليها:

-أنا مكانش في كلامي أي تلميح عن إن جوزك مخلف، عرفتي ده منين؟

أعطته تفسيرًا ارتجاليًا، تمنت أن ينطلي عليه:

-أنا جوزي بيحب العيال، وكان بيزن عليا من فترة أجيبله عيل كمان، بس أنا صحتي على أدي، معنتش حِمل خِلفة من تاني، ورفضت، وكان هددني إنه لو مخلفتش هيتجوز عليا، تلاقيه عشان كده اتجوز تاني، لاقى واحدة تجيبله بدل العيل عشرة.

لم يبدُ مقتنعًا بتبريرها الغريب، ومع هذا قال بحيادية:

-تمام...

توقف عن الحديث ليراقب ردات فعلها المرتبكة، ثم أكمل بصوته الهادئ:

-لما سألنا الجيران، قالوا إن في واحدة زارت المجني عليها قبل ما تموت بحاجة بسيطة، واتضح من كلامهم إنها أخت جوزك.

صاحت مستنكرة بعصبيةٍ حاولت أن تبدو مقنعة:

-يعني "آمنة" كمان كانت عارفة؟ ومقالتيش؟ بقى تهون عليها العِشرة؟ ده أنا باعتبرها أكتر من أختي، وبناتها هما بناتي.

لم يأبه تلك المرة بصراخها الحاد، وتحدث بلهجة رسمية للغاية:

-ست "حمدية"، ما قولك في إن إخطارات المستشفيات اللي كان فيها الأربع أطفال أكدوا إنهم كلهم تناولوا مادة مسممة، مختلطة بمواد مخدرة، مع اختلاف نسبتها، وأماكن الإبلاغ عن الإصابة؟

تفاجأت من توصله لمثل تلك التفاصيل الدقيقة، وأنكرت بلجلجة خفيفة بائنة في صوتها:

-معرفش .. حاجة عن ده...

تأملها المحقق بنظراته الغامضة المطولة، فاسترسلت توضح له؛ وكأنها توجه التهم بشكل غير مباشرٍ، نحو شقيقة زوجها:

-بس "آمنة" هي اللي على طول بتعمل العجين لعيالي يكلوه ني، وكان في بينها وبين جوزي خناقات كتير، بسبب الإيراد اللي بيجيلها من البلد، ومشاكل كده مكانوش بيحكوا فيها قصادي، أصلاً أنا مابحبش أتحشر بينهم، فأكيد هي اللي قصدت تأذي عيالي، وبنت "خليل" كمان، حبت تنتقم منه.

زلة أخرى من لسانها، أفصحت عنها دون وعيٍ، غافلة عن تدارك نفسها، فأدارت الدفة نحوها. أنصت لها الضابط بلا مقاطعة، ثم علق عليها بهدوءٍ مميت:

-أنا برضوه مقولتش إن جوزك مخلف بنت!

شحوبٌ مريب زحف إلى بشرتها، ورددت في صدمةٍ، وقد ارتفع حاجباها للأعلى:

-إيه؟

سألها بلهجته الرسمية، وكامل نظراته الجامدة عليها:

-عرفتي منين إنه عنده بنت؟

لفقت كذبة ساذجة فورًا في عقلها، وأخبرته بنبرة متأرجحة في ثباتها:

-هو.. كان .. نفسه في بنت، أنا بأقول كده بالحظ.

ضيق عليها الخناق بسؤاله المراوغ ليوقعها أكثر:

-بس إنتي بنفسك قايلة إنك متعرفيش إنه متجوز، يبقى منين خمنتي صح؟

أجهشت ببكاءٍ غريب في غير محله، مواصلة تحسرها المليء بالعويل:

-أنا عيالي ماتوا يا بيه، قلبي متقطع عليهم، بهلفط بأي كلام، حسوا بيا يا ناس، ده بدل ما أقعد اتحسر على عيالي؟ أتجرجر في الأقسام زي المجرمين؟

جاءها تعليقه خاليًا إلى حد ما من التعاطف معها، عندما قال:

-يا ست "حمدية" دي جرائم قتل، مش حادثة عادية والسلام، وماتستبعديش يتوجه ليكي إنتي شخصيًا تهمة الإهمال مع القتل العمد.

هتفت بمزيدٍ من البكاء:

-أنا يا باشا؟ هو في أم تقتل عيالها؟

ثم شرعت في لطم وجهها بقسوةٍ، بكلتا يديها، آملة أن تشتت انتباهه عن أسئلته التحقيقية، التهبت بشرتها، وهدرت بصراخٍ مصحوب بالنحيب المتقطع:

-ليه؟ ده أنا محلتيش إلا هما، دول اللي طلعت بيهم في الدنيا، وخلاص راحوا مني؟ ليه بتعملوا فيا كده؟

أشار لها المحقق بيده لتكف عن صراخها، مناديًا إياها بصوتٍ شبه مرتفع:

-يا ست "حمدية"...

قاطعته بصراخٍ أكبر، مكملة ضرب وجهها وصدرها بكفيها:

-منها لله "آمنة"، هي السبب، موتت عيالي، وحرقت قلبي عليهم.

ضجر مما تفعله، وقال بحدة:

-مش هاينفع نكمل التحقيق بالشكل ده.

تجاهلته، لتضاعف من عويلها، بهياجٍ أكبر:

-حرام عليها، عملتلها إيه؟ مكفهاش إني كنت تحت رجليها، اللي تطلبه بأعمله من غير ما أتكلم، تاخد مني عيالي ليه؟

ثم نهضت من مقعدها، وجثت على ركبتيها على الأرضية، لتضربها بيديها، وهي تهز رأسها في جنونٍ، هب المحقق واقفًا وصاح بها بعد أن رأى هياجها الكبير:

-يا ست لو سمحتي...

استمرت في ضرب وجهها حتى لم تعد تشعر به؛ لكن لا يهم حاليًا، فإن نالت بعض التورمات به، أفضل من أن يشك بها، صرخت حتى جرحت أحبالها الصوتية:

-ليه كده؟ آآآآآآه يا ولادي، يا ريت كان ربنا خدني، وفضلتوا إنتو عايشين، آآآآآه يا عيالي، هاعيش لمين بعدكم.

ضغط المحقق على الزر الجانبي المثبت في مكتبه، مستدعيًا أحد أفراد القوة الأمنية، ثم أمره بنفاذِ صبرٍ:

-إنت يا ابني هاتلها ليمون، ولا شوفلنا دكتور.

.......................................................

أبقاها المحقق بالخارج، بعد نوبة الجنون الموترة للأجواء، ريثما تستعيد انضباط أعصابها المتلفة؛ لكنها استغلت الفرصة لمهاتفة "إسماعيل" واستدعائه على وجه السرعة، بعد إخباره بالمستجد في قضية مقتل أولادها، حضر الأخير رغم تعبه، مصطحبًا معه ابنه، وبحث بعينين قلقتين عن نساء العائلة المحتجزات في القسم، أبصر "حمدية" جالسة على المصطبة الخشبية بمفردها، في منتصف الردهة، وما إن لمحته حتى انتفضت واقفة لتقول ببكاءٍ يعبر عن جزعها:

-شوفت اللي حصل يا حاج "إسماعيل".

رد بصوته اللاهث، وهو يشير بعكازه نحو ابنه:

-احنا جينا على ملى وشنا.

دون مقدمات نطقت في وجهه:

-"آمنة" قتلت عيالي

سألها "فضل" مصدومًا:

-إنتي بتقولي إيه؟

نظرت في اتجاهه، وأكملت مستخدمة يدها في الإشارة نحو أحد الأبواب المغلقة:

-أهو البيه الظابط بيحقق معاها جوا...

ثم عادت لتحملق في وجه أبيه، وتابعت بلومٍ:

-للدرجادي بتكرهني، أنا عملتلها إيه؟ ده أنا طول عمري في حالي، لا بأهش ولا بأنش.

رمقها "إسماعيل" بنظرة مزعوجة، وقال:

-دلوقتي نعرف في إيه.

توسلته ببكائها:

-ماتسبنيش لوحدي يا حاج "إسماعيل"، ده أنا غلبانة ومنكسرة.

تنهد على مضضٍ، ولم يعدها بشيء، فقط شتت نظراته عنها، ليحدق في الباب المغلق هامسًا مع نفسه:

-لطفك يا رب.

دار بعينيه في المكان فوجد "همسة" تقف مع زوجها عند الزاوية، وقبل أن يتحرك في اتجاهه، انتبه لصرير الباب الذي فتح توًا، حيث خرجت منه "آمنة"، أقبل عليها ومن خلفه ابنه؛ لكن كانت ابنتها الأسبق في الوصول إليها، وبكل تلهفٍ مرتاع تساءلت، وقد رأت أحدهم يدفعها من ذراعها للأمام:

-ماما واخدنيك على فين؟

حذرها الفرد الأمني بلهجته الحادة، مانعًا إياها من الإمساك بها:

-شوية كده يا ست.

سأله "فضل" بسماجته غير المقبولة:

-إنتو قابضين عليها ولا إيه؟ فاهمنا يا شاويش

رمقته "همسة" بنظرة نارية، أبعدتها عنه لتنظر إلى الفرد الأمني، وسألته بتوجسٍ كبير:

-إنت واخد ماما على فين؟

رد بنفس الجمود الصارم:

-وسعوا يا أساتذة من طريقي.

علق "فضل" ببسمة متهكمة:

-شكل أمك عملتها يا بت.

هنا صاح به "هيثم" يحذره بعدائية:

-وأنا شكلي هاعملها مع أمك لو مالمتش لسانك

هدر به "فضل" مهددًا بإهانةٍ قاسية، وقد استشاط غضبًا:

-إنت بتجيب في سيرة أمي يا (...)؟

تدخل "إسماعيل" على الفور، ليحول بينهما، قبل نشوب مشاجرة عنيفة، بداخل القسم الشرطي:

-ما تلم نفسك يا فضل، إنت اللي بادي بالغلط

اعترض عليه بتبرمٍ:

-يابا...

قاطعه بزجرةٍ حادة ليخرسه:

-خلاص! إنتو هنا في القسم، مش هاتبقى مصيبة تانية كمان.

رد "هيثم" بحنقٍ، وعيناه تتوعداه "فضل":

-لولا وجودك يا حاج، متأخذنيش يعني كنت رقدت ابنك وقتي!

عاد الثلاثة لينتبهوا لـ "همسة" التي صرخت منادية بصوتها الباكي:

-ماما!

أتاها صوت "آمنة" يوصيها:

-خدي بالك من نفسك يا بنتي، وماتقوليش لـ "فيروزة" حاجة.

انخرطت في بكاءٍ أشد، بينما أخبرها "هيثم" بجديةٍ، كنوعٍ من بث الطمأنينة لها:

-المحامي زمانه جاي يشوف في إيه، متقلقيش يا حماتي.

حلت الصدمة المختلطة بالاندهاش، على الجميع مع صياح "حمدية" المليء بالاتهام الصريح، وهي تدنو من "آمنة" محاولة الاعتداء عليها:

-منك لله يا شيخة، قتلتي عيالي وعاملة فيها بريئة.

تفاجأت "همسة" بتصرفها، وأسرعت تمنعها من الاقتراب منها، وصوتها يهدر بها:

-إنتي بتقولي إيه؟ ماما مالهاش دعوة بعيالك، حرام عليكي بطلي ظلم فيها.

ضربتها "حمدية" في كتفها، رافعة نبرة صراخها:

-شيلي إيدك.

التفتت "همسة" باحثة عن زوجها، وجدته في إثرها، يصد بجسده هجمات "حمدية" الهوجاء عليها، إلى أن فصل بين الاثنتين، وسط تدخل أفراد الأمن، اعتذر منهم، وسحب زوجته بعيدًا عن محيطها، نهجت في انفعالٍ، وقالت:

-الحق يا "هيثم" ماما، والله هي مظلومة.

رد بغموضٍ لم تتفقه له:

-أنا عارف، خليكي هنا ثانية كده...

وقبل أن تتبعه واصل تحذيره لها:

-وإياكي تقربي من الولية دي!

اختطفت نظرة حاقدة نحو "حمدية" التي وقفت تشكوها لعمها وابنه، عادت لتحملق في وجه زوجها الذي أكد لها بنبرة مبنية على يقين صريح:

-إن شاءالله براءة أمك على إيدي.

لم يستطع كبت شكوكه لأكثر من هذا، فمنذ ليلة العزاء، وأفكاره عن وجود رابط خفي يجمع بينها وبين الطفلة لم يفارق تفكيره، لم يسترح لتصرف "حمدية" الانفعالي الزائد، والذي نم آنذاك عن معرفة مسبقة بالضحية وابنتها، وإلا لما

بدت على تعبيراتها الهائجة كل تلك الكراهية غير المفهومة، لطفلة لم ترها مسبقًا أو تتعرف إليها! احتفظ بصمته، وبأفكاره المتشككة لنفسه إلى أن وجهت اتهاماتها الصريحة، لحماته المغلوبة على أمرها. تأكد حينئذ من احتمالية تورطها في قضية القتل بدرجةٍ كبيرة، وإن لم يمتلك بعد الدليل المادي الملموس على هذا. خرج "هيثم" عن صمته، وقطع الردهة الطويلة أشواطًا بخطواته المتسعة والسريعة، ليعود إلى غرفة المحقق، قاصدًا مقابلته، وإعلامه بما غفل عنه الآخرين، علَّ بحديثه هذا يضع الأمور في نصابها الصحيح ..................................................................... !!!

.....................................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الحادي والثمانون

إنجابها لا يعني بالضرورة عشقها لصغارها، ورغبتها في الفوز بلقب الأم الحنون؛ لكنه كان لإثبات أن بأحشائها أرض تصلُح للإنبات، ولهذا ألقت بعبء تربية أولادها على شقيقة زوجها، فكانت الأخيرة لهم أمًا بلا رحم، وكانت الأولى لقبًا بلا حق. وقفت "حمدية" في مكانها، وتركيزها بالكامل على "إسماعيل"، تشكو له هوانها المستضعف، ووحدتها القاتلة، علّه يشفق عليها بعاطفةٍ تمنت أن تكون لها يومًا، لهذا لم تنتبه لـ "هيثم" الذي هرول ركضًا لمقابلة المحقق دون ميعادٍ مسبق، مُصرًا بحزم على البوح بشكوكه إليه.

في الطرف الآخر من الردهة الطويلة، استندت "همسة" بظهرها على الحائط الرمادي البارد، تحملق في بابٍ أُغلق خلف زوجها، تدعو الله بإخلاصٍ شديد، أن يجعله أحد أسبابِ نجاة والدتها، تأهبت في وقفتها وقد رأت شخصًا يرتدي حلة رسمية، يُعرف بنفسه كمحامٍ مكلف بمتابعة تحقيق أمها، ذاك الذي أرسله "بدير" للوقوف إلى جوارها، تهللت تعابيرها المتجهمة قليلاً؛ لكنها لم تتمكن من الحديث معه، بسبب دخوله للحجرة لمعرفة التفاصيل. ظلت باقية في مكانها تترقب خروج أحدهما من الداخل لطمأنتها؛ لكن اكفهرت ملامحها مع إزعاج "فضل" السمج لها، عندما سألها بسخافته غير المحتملة:

-واقفة لوحدك ليه؟ وفين النطع جوزك؟

رمقته بنظرة حادة، قبل أن ترفع إصبعها أمام وجهه تحذره، بجراءة تفاجأت من وجودها بها:

-"فضل" أنا مش ناقصة كلام يحرق الدم، ابعد عن وشي السعادي.

تحدث من زاوية فمه بمزيدٍ من الهراء المستفز:

-الحق عليا اللي سايب حالي ومالي وجاي أشوف اللي حصل لأمك.

ردت بحدةٍ أكبر:

-متشكرين، مكونتش تتعب نفسك.

ابتسم قليلاً، قبل أن يكمل ظرافته السمجة:

-وأديني جيت.. بس يكونش جوزك راح يجيب عيش وحلاوة، ما هو أمك باين هتطول في التخشيبة كتير.

خرجت عن شعورها مع تهكمه الصارخ، وهاجمته بعصبيةٍ لفتت بها الأنظار:

-إنت إيه؟ معندكش دم؟ جاي تتريق على أمي وهي في الظروف دي؟

في تلك الأثناء، فُتح باب الغرفة، وخرج "هيثم" من الداخل، ليتفاجأ بانفعالِ زوجته، لم يضبط نفسه، أو يتريث لمعرفة التفاصيل، بل اندفع بغضبٍ شحذه ضده مسبقًا، نحو "فضل" ليلكزه بكوعه في أنفه، فآلمه بشدةٍ، وجعله ينزف الدماء من فتحتيه، ثم مد قدمه ليعرقله في لمح البصر من ساقه، وطرحه أرضًا، وسط ذهول المتواجدين. كان "هيثم" على وشك أن يجثو فوقه ليكيل له ما يستحق من لكماتٍ، لولا أن تجمع أفراد الأمن حوله، وفصلوا بينهم.

تدخل أحد الضباط متسائلاً بضيق، وبنبرته الجهورية:

-إيه المهزلة اللي بتحصل هنا؟

على الفور رد المحامي من ورائه معتذرًا، ومحاولاً فض الاشتباك قبل أن يتفاقم، ويتخذ شكلاً رسميًا لا داعي له الآن:

-أسفين يا فندم، ده سوء تفاهم بسيط.

اشتكى "فضل" للضابط بنواحٍ، وهو مستلقي على ظهره، وواضعًا يده على أنفه النازف:

-اثبِتي عندك يا حكومة، بأضرب وأتهان على أرضك.

التفت المحامي ناظرًا إليه، وحذره بلهجته الجادة:

-متكبرش الموضوع يا أستاذ.

رد بعنادٍ:

-هو كبر خلاص...

ثم هدر مناديًا والده الذي تفاجأ من الاعتداء على ابنه، متوقعًا أن يكون ابنه هو الطرف المستفز

-شوفت يابا؟ بيعمل إيه فيا النطع ده؟

هتف فيه "هيثم" متوعدًا إياه بشراسةٍ، وملوحًا بذراعه كتهديدٍ صريح:

-النطع ده هيقطع لسانك النهاردة.

هنا هدر الضابط بغضبٍ مبرر:

-هو أنا مش مالي عينكم؟

ثم أمر أحد رجالته بصرامته الواضحة:

-خدهم يا عسكري على الحجز لحد أما أشوف حكايتهم.

انزعج "إسماعيل" من قراره؛ وإن كان محقًا فيه، لعدم احترام كليهما لطبيعة الظروف، ومع هذا هتف معترضًا بما يشبه الرجاء:

-حقك علينا يا باشا، ده سوء تفاهم، وهيتحل.

قال له الضابط بوجهه المتجهم:

-إنتو في قسم، مش في سويقة!!

تجاهله مجددًا، ووجه أوامره للفرد الأمني:

-اتحفظ عليهم يا عسكري.

احمر وجه "إسماعيل"، واستدار نحو ابنه يدمدم بغيظٍ:

-عاجبك كده يا "فضل"؟

علق عليه ابنه بحدةٍ:

-ده أنا اللي مضروب يابا.

غمغم أباه في استياءٍ لا يخلو من التبرم:

-ما هي المشرحة ناقصة قُتلى.

وبالفعل حاوطت قوة بسيطة الاثنين، وتم اصطحابهما لغرفة أخرى، ريثما يتفرغ أحد الضباط للتحقيق في أمرهما.

..................................................

لم تتوقع أن يتم احتجازها هي الأخرى على ذمة التحقيقات، بعد نوبة الجنون الهيسترية التي أظهرتها للمحقق، على ما يبدو لم يأبه بكل ما قامت به، وأصدر أمره بإبقائها رهن الحجز، إلى أن يستكمل باقي التحقيق. وبين جدران تلك الحجرة، ذات الإضاءة الخافتة، افترشت النساء المحبوسات الأرضية والمصاطب الخشبية القصيرة، نظرة مذعورة كست وجه "حمدية" وقد دُفعت قسرًا للدخول إليها، انتفضت كالملسوعة نحو الباب المعدني وقت غلقه بصوتٍ قوي، تنظر إليه في صدمةٍ غير مصدقة، أن المطاف قد انتهى بها هنا، مع تلك النسوة العابثات، لحظة من الخوف القوي سرت في أوصالها، بلعت ريقها في حلقها الجاف، وسارت باحثة عن بقعة شاغرة لتجلس بها؛ لكن رؤيتها لـ "آمنة" تبكي في نفس الزاوية بمفردها، استفز غضبها، فهاجمتها دون مقدماتٍ، ملقية بكامل اللوم عليها:

-إنتي السبب في اللي احنا فيه؟ إنتي اللي خربتي حياتي وموتي عيالي

نظرت لها "آمنة" بذهولٍ وهي تكفكف عبراتها المنسابة، قبل أن تنطق بصوتها المرتعش، بما يشبه السؤال:

-أنا يا "حمدية"؟ ده ربنا وحده اللي عالم بيا، وبالقهرة اللي عايشة فيها، من يوم ما ....

قاطعتها بصوتٍ هادر، وهي تدنو منها لتتشاجر معها:

-اللي ماتوا دول عيالي مش عيالك، إنتي هيفرق معاكي إيه؟

تعلقت بياقتي عباءتها، جذبتها منها بعدوانيةٍ بحتة، لتجبرها على الوقوف، وأكملت إلقاء التهم عليها:

-وأخرتها اتحبس هنا بسببك إنتي وأخوك اللي اتجوز عليا.

دافعت عن نفسها بنبرتها المختنقة:

-أنا زيي زيك يا "حمدية"، معرفش حاجة عن جوازة "خليل" التانية، والله العظيم قلبي محروق على عيالك أكتر منك.

صرخت بها بانفعالٍ أشد؛ وكأن كل غضب الدنيا قد تجمع أمام عينيها في تلك اللحظة:

-كفاية مُحن بقى، وسهوكة، ناقص إيه تاني تاخديه مني؟

حاولت "آمنة" إبعاد يديها عنها؛ لكنها واصلت هزها العنيف، مع صياحها المستمر بها:

-قضيتوا عليا وضيعتوا شبابي وحياتي.

تدخلت بعض السيدات للفصلِ بينهما، وهتفت بهما واحدة بصوتٍ أجش تقريبًا:

-ما كفاية بقى يا نسوان، صدعتونا.

استدارت "حمدية" تطالع المرأة بعينين مغلولتين، واتهمت "آمنة" علنًا ببكاءٍ مصحوبٍ بالعويل:

-الولية دي قتلت عيالي، وعاملة فيها الملاك البريء، عايزني أسيبها إزاي؟

بمكرها الخبيث نجحت في شحن النساء الآخريات ضد تلك المغلوبة على أمرها، وبدأن في التكالب ضدها، وأوشت إحداهن عن ضربها، لولا أن تدخل أحد الضباط في اللحظة الأخيرة، بعد ارتفاع الصخب داخل غرفة الاحتجاز، فأصدر أوامره الصارمة بعدم تعرض أي واحدة للأخرى، وإلا لتلقت عقوبة قاسية، تُضاف إلى ملف تهمها، فأتي تهديده الصريح بنتائجه السريعة، وجلست النساء ملتزمات الصمت، رغم احتقان النفوس. وبصوتٍ لم يخرج من جوفها، رددت "آمنة" في عجزٍ يائس:

-عملتي إيه يا "آمنة" في دنيتك، عشان يحصلك ده كله؟

..................................................

بصعوبةٍ تمكن من إقناعها، لتتخلى عن رأيها العنيد، وتعود معه إلى منزل عائلة "سلطان"، بحجة رؤية الطفلة التي تحتاج إليها؛ لكنها كانت وسيلته لإبعادها عن القسم الشرطي، بعد التصالح الودي بينه وبين السمج "فضل"، لكون تواجدها هناك لا طائل منه. لم تجلس "همسة" منذ أن وطأت المنزل، وأصرت على أخذ الصغيرة "رقية"، رغم استغراقها في النوم في غرفة "هاجر" مع رضيعها. اعترض عليها "بدير" قائلاً بصوته الرخيم:

-يا بنتيماينفعش كده.

تشبثت بعنادها، وقالت:

-معلش، خلوها تصحى، وأنا هاخدها ونفضل قصاد القسم، مش هاسيب أمي لوحدها.

أخبرها "بدير" بتمهلٍ، علّها تنصت لصوت العقل، وتتوقف عن التصرف هكذا:

-وهي مش لواحدها، المحامي قال ده إجراء طبيعي في الظروف دي، وحتى مرات خالك محبوسة معاها، هنعمل إيه تاني؟

ردت عليه بتزمتٍ:

-ماليش دعوة بيها، أنا كل اللي يهمني أمي.

هتف "بدير" بزوجها طالبًا منه دعمه:

-ما تعقل مراتك يا ابني.

قال بيأسٍ:

-غلبت معاها يا جوز خالتين هي راكبة دماغها.

هز "بدير" رأسه للجانبين، وعلق بعد زفيرٍ طويل:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، طب اطلعي شقتك فوق لحد ما أتصرف، وأكلم ناس حبايبي، جايز يقدروا يساعدوا.

جاءه ردها الأكثر عندًا عن ذي قبل:

-أنا عايزة أكون جمب أمي، مش هاروح في حتة إلا القسم.

غمغم في نفاذِ صبرٍ:

-أنا مش حِمل مناهدة في السن ده.

لاحظ "هيثم" علامات الضيق البادية على وجه زوج خالته، فألح على زوجته بلطفٍ، محاولاً استمالة رأسها المتيبس:

-اسمعي الكلام يا "همسة"، وتعالي معايا.

نطقت بألمٍ ومرارة، وعيناها تفضيان بدموعٍ لا حصر لها:

-يا "هيثم" ماما مش وش بهدلة، بقى أخرت المتمة تروح أقسام وتنام مع المجرمين؟ الله أعلم عاملين فيها إيه دلوقتي.

حز في قلبه أن يراها هكذا، ويقف مكتوف اليدين، فربت على كتفها برفقٍ، ورجاها:

-طب إهدي، كل اللي إنتي عايزاه هنعمله.

من الداخل أتت "ونيسة" وهي تحمل كوبًا يحوي مشروبًا باردًا، قدمته إلى "همسة" وهي تصر عليها:

-خدي اشربي العصير ده يا بنتي.

رفضت تناوله، وقالت بنحيبٍ:

-مش عايزة حاجة.

أصرت عليها، وأجبرتها على ارتشاف ما به بحنوها الأمومي:

-اسمعي بس الكلام، والله هازعل منك.

رغمًا عنها تناولت الكوب منها، وبدأت في تجرع ما به، لم تشعر بمذاقه الحلو، فالعلقم المنتشر في حلقها غطى على أي حلاوة به، التفتت بعدها تتطلع إلى "بدير" الذي شغلها بحديثه، فمالت "ونيسة" على "هيثم" تهمس له بصوتٍ خفيض:

-بأقولك إيه، أنا دوبتلها في العصير قرص منوم.

برقت عيناه، واستدار برأسه نصف استدارة مبديًا اندهاشه بتصرفها، فتابعت:

-كده أحسن بدل ما تفضل في المناحة دي للصبح.

أخفض نبرته معقبًا عليها في استحسانٍ:

-خير ما عملتي يا خالتي.

أوصته بصوتها الخافت:

-إنت وشطارتك تخليها تشربه للآخر.

رد مؤكدًا، بابتسامةٍ أخفاها جيدًا:

-حاضر.

وقبل أن تفكر زوجته في التوقف عن تناول مشروبها، تقدم نحوها، وحاوط كفها الممسك بالكوب، ليرفعه إلى شفتيها وهو يصر عليها:

-اشربي يا "همسة"، دي شوية مياه.

لم تجادله، وتجرعت كامل ما في جوفها، شاعرة بثقلٍ خفيف يزحف نحو عينيها، التقط منها الكوب الفارغ بعد ارتشافه، وأجلسها على الأريكة مدعيًا حديثه الجاد عن قضية والدتها، إلى أن غامت الصور في عقلها، وغفت بعد دقائق، مستسلمة لتأثير النوم الإجباري الذي فُرض عليها. تعجب "بدير" مما أصابها، وتساءل:

-إنتو عملتوا فيها إيه؟

أجاب "هيثم" مبتسمًا في امتنانٍ:

-دي خالتي الله يباركلها.

تفقه ذهنه سريعًا للتفسير الغامض لحالتها، وسأل زوجته ليتأكد من شكوكه:

-إنتي إديتها يا "ونيسة" من اللي الأقراص بتاعتك؟

قالت ببساطة:

-مش كده أحسن يا حاج.

أومأ برأسه موافقًا، وأضاف:

-أيوه، خد يا ابني مراتك على شقتكم، ولينا كلام تاني لما المحامي يشوف تفاصيل حكايتها إيه.

رد "هيثم" بانصياعٍ واضح:

-ماشي يا جوز خالتي.

وقبل أن يحمل زوجته، أخبرته "ونيسة" بنوعٍ من التعاطف:

-خلي البت "رقية" بايتة هنا، دي أخدت بحس "هاجر" من ساعة ما جت.

علق عليها "بدير" بدهشةٍ:

-سبحان الله، مين كان يصدق إن "خليل" متجوز وعنده بيت تاني.

هتفت زوجته في استنكارٍ:

-ولا كان يبان عليه، وربنا عاطيله بدل العيل تلاتة.

اختتم "بدير" الحديث في شأنه بقوله الحاسم:

-محدش عارف الظروف إيه، فُضنا من سيرته، والله يصلح حال عبيده، بنته أمانة عندنا لحد ما نشوف الليلة هتسرى على إيه.

أكدت عليه زوجته:

-اطمن يا حاج، دي في عينيا.

لم يجد "هيثم" ما يخبرهما به، فكلمات الشكر تعجز أمام عطائهما اللا محدود، وسعيهما الدائم في تقديم الخير للغرباء قبل الأقرباء، وهذا ما كان يجهله عنهما!

دومًا كانت تبث والدته في نفسه بذور الكراهية والحقد نحوهما؛ لكنهما كانا ومازالا –رغم كل شيء- أبعد ما يكون عن تلك السمات الخبيثة! وبجذرٍ واضح عليه، مرر ذراعيه أسفل جسد زوجته، حملها برفقٍ، متجهًا بها نحو باب المنزل، ومن خلفه خالته، سبقته قبل أن يصل إليه لتفتحه له، وأوصته للمرة الأخيرة؛ كما لو كانت متنفسها لتتحدث بنوعٍ من التورية، عن ابنتها المتألمة بالداخل:

-خد بالك منها يا "هيثم"، دي غلبانة، واحنا عندنا ولايا زيها.

أبعد نظراته عنها، ليحملق في وجه "همسة" النائم، وقال بحبٍ لا يحتاج لإثباتٍ مادي ملموس:

-أنا مش محتاج توصية على مراتي، هي في عينيا.

..............................................................

آخر ما تذكره قبل أن تستفيق من سباتها الذي شعرت أنه كان عميقًا، غريبًا، وربما امتد لساعاتٍ أطول من المعتاد، أنها عانتِ من ألم مبرح، صاحبه إضاءة بيضاء طغت على عقلها، كصاعقة برقٍ مباغتة، قبل أن تختفي عنها المشاهد كليًا، ويتحول كل شيءٍ للإظلام. تململت "فيروزة" في فراشها الغريب، محاولة إجبار عينيها على اعتياد الإنارة القوية، تأويهة متألمة تسللت من بين شفتيها، تكررت بأنين موجوعٍ، وقد شعرت بمطارقٍ عنيفة تدق في رأسها، رفعت ذراعها ببطءٍ للأعلى، فالتقطت نظراتها المشوشة إبرة طبية موصلة بها،

تغاضت عنها مؤقتًا، وأكملت طريقها للأعلى لتتحسس جبينها، شعرت بقماشٍ ما يحاوطه، فتساءلت مع نفسها بحيرة:

-هو إيه اللي حصل؟

لحظات من التفكير والصمت مرت عليها محاولة استعادة ذاكرتها، تأملت الغرفة المتواجدة بها حاليًا، لم تكن فيما يُعتبر مكان إقامتها الحالي، بل الأدق أن يُقال أنها كانت فيما يشبه غرفة بالمشفى، بسبب التجهيزات الموجودة بها، مع انتشار لبعض المعدات الطبية بها، استرعى الأمر كامل انتباهها، وبدأت في اعتصار ذاكرتها لتستعيد ما هو منقوص عن المشهد، بعد محاولات مضنية تسربت إليها ذكرى مشادتها الأخيرة مع "آسر"، حينما استفزها الأخير بتلميحه القذر عن نشر مقاطعًا مزيفة لها، قبل أن تخرج عن شعورها، وتدمر حاسوبه المحمول. انتشلها من سرحانها العميق صوتًا بدا مشابهًا للغتها، وهو يقول:

-حمدلله على السلامة يا مدام "فيروزة".

وقع لقب (مدام) مع اسمها بدا شاذًا على مسامعها، ومع هذا التفتت نحو صاحب الصوت الذكوري، وسألته بحشرجةٍ بائنة في صوتها:

-إنت مين؟ وأنا بأعمل إيه هنا؟

تأملته بعينين فضوليتين، فرأته يرتدي زيًا طبيًا، ويراجع الأوراق المعلقة في حاملٍ معدني على حافة فراشها، توقف عن المطالعة، ونظر إليها مبتسمًا، ليعرف بنفسه بودٍ لطيف:

-أنا الدكتور "هاني" المتابع لحالتك هنا.

على الفور لاحقته بسؤالها المليء بالاستغراب:

-وأنا إيه اللي جابني هنا؟

بخطواتٍ متمهلة اقترب من فراشها، وأخبرها:

-جوزك.

تعقدت تعبيراتها بوجوم سقيم، فواصل إطلاعها على المزيد من الحقائق الغائبة عنها:

-إنتي بقالك هنا حاولي 10 أيام.

حلت الدهشة المصدومة على تعبيراتها، وكذلك نظراتها إليه، تحرك فكها ليهتف في ذهولٍ:

-إيه؟ 10 أيام؟ مش معقول.

تعمد أن يكون بطيئًا في حديثه وهو يتابع إعلامها بالمزيد مما تجهله:

-ده اللي حصل، جوزك نقلك على هنا، وقال إنك اتزحلقتي لما كنتي بتنضفي الشقة، وخبطتي دماغك جامد.

أنكرت بعصبيةٍ آلمت رأسها:

-محصلش.

أشار لها بيده لتهدأ، وقال:

-أنا عارف

ضاقت عيناها بشكٍ، فأكمل تفسيره ليزيح الغموض السائد في الأجواء:

-اللي قصادك دكتور، وفاهم شغله كويس، وفي فرق أكيد بين حد اتزحلق، ومحاولة قتل، ده غير إن "كاران" حاكيلي عن ظروفك.

رددت في صدمةٍ أخرى:

-"كاران"؟

حرك رأسه بالإيجاب، وقال:

-أيوه...

تابعته بنظراتها المتوترة، وهو يتحرك ليقف على رأس فراشها، قبل أن يضيف:

-مدام "فيروزة"، أنا هنا عشان أساعدك.

لعقت شفتيها، وتساءلت في ارتباكٍ:

-أنا مش فاهمة حاجة، تساعدني إزاي؟

قال مبتسمًا في ثقةٍ:

-اللي هيفهمك أكتر على كل حاجة شخص جالك مخصوص، ومنتظر اللحظة دي أكتر من جوزك نفسه.

كان محقًا في كلماته الأخيرة، فعلى الأغلب يريد زوجها هلاكها ليفلت من جريمته النكراء، ويُصدق الجميع أكذوبته بأنها زلت قدمها حينما كانت تنظف المنزل، تركت أفكارها الحائرة جانبًا، وتساءلت بفضولٍ كبير عن هوية الزائر الغامض:

-مين ده؟

رد دون أن تفتر ابتسامته:

-المقدم "ماهر".

اتسعت عيناها أكثر وهي تهتف في اندهاشٍ عجيب:

-بتقول مين؟

تابع مفسرًا لها:

-"كاران" تواصل مع سفارة بلدك، وتقريبًا القدر كان مرتبلك لقاء بيه معاه، لأنه كان بيحاول يوصلك بأي شكل.

احتفظت بملامحها المدهوشة وهي تحاول استيعاب الأمر، بينما أكمل "هاني" مشددًا عليها:

-أنا عايزك ترتاحي لحد ما أتصل بيه عشان يجي يقابلك .. هنا!

مزيدٌ من أمارات الدهشة ارتسمت على ملامحها المتعبة، ومع هذا قابلها بعبارته المؤكدة:

-واطمني جوزك مش هايعرف إنك فوقتي، إنتي بالنسباله لسه في غيبوبة.

تراءى لها -رغم قلقها والهواجس المستبدة بها- أن "كاران" لم يتخلَ عن وعده بمساعدتها، وإنقاذها من براثن شخصية وضيعة كزوجها، منحها كل الدعم لإبقائها في أمانٍ، وإن كان بتوفير مساعدة خفية من هذا الطبيب الغريب كليًا عنها، ناهيك عن النجدة الأخرى القادمة إليها، والمتمثلة في وجود الضابط "ماهر"؛ وإن لم تعلم بعد السبب الحقيقي لقدومه ......................................... !!!

.....................................................................

## الفصل الثاني والثمانون

رغبته في تجنيد فئة جديدة، تنضم للعمل معه، وفق شروطه الصارمة، قد أصبح أمرًا مؤجلاً حاليًا، بعد تدهور الأعمال مؤخرًا، وتعليق بث الجديد من المحتوى المثير على موقعه. فرك "آسر" رأسه بيده، محاولاً البحث عن وسيلة لتعويض الخسائر المتزايدة، خاصة بعد أن رأى انخفاض الأرباح، والمشاهدات عليه؛ لكن تعذر عليه الوصول للحل السحري، في وقت قياسي. تلفظ بسبةٍ لعينة، وأغلق الحاسوب النقال في عصبيةٍ، ليريح ظهره للخلف، على الأريكة الجالس عليها. تحرك بؤبؤاه نحو بقعة الدماء الجافة، التي ما زالت آثارها باقية على السجادة، ليعود بذاكرته لأيامٍ مضت، حينما تهورت "فيروزة" وسكبت القهوة الساخنة على لوحة مفاتيح حاسوبه القديم، في لحظة هوجاء منها.

آنذاك خرج عن شعوره، واختطف الفنجان من يدها، ليقبض عليه، ثم رفعه للأعلى، وانهال به على جانب رأسها في ضربة عنيفة مباغتة، جعلت نظراتها تبرق، وجسدها يتصلب. كرر الضربة بقساوةٍ أشد، فترنحت على أثرها، وتفجرت الدماء من رأسها، طُرحت أرضًا، وسكنت أطرافها، ركلها بقدمه في جانبها وهو يصرخ بها بوعيدٍ مُهلك:

-أنا هوريكي أيام سودة!

لكزها بعنفٍ مرة أخرى، على أمل أن تنتفض بألمٍ؛ لكنها بقيت ساكنة، تأملها بنظراتٍ محتقنة، مليئة بالغضب والغيظ، سريعًا ما تبدلت للقلق والارتعاب، مع ظهور بركة من الدماء أسفل رأسها، خشي أن تكون ضرباته العنيفة قد

أحدثت الأسوأ، جف حلقه، وانحنى جاثيًا إلى جوارها، ناداها بصوتٍ أظهر خوفه على نفسه:

-"فيروزة"! بلاش الحركات دي!

وضع يده على كتفها يهزها منه، بقيت كما هي، لا حراك في جسدها، شحب وجهه، وحملق فيها بنظراتٍ مذعورة، دقق النظر في جرح رأسها، كان غائرًا، مخيفًا، الدماء تتدفق منه، تراجع في ذعرٍ، ومد إصبعيه نحو عنقها، ألصقه به متفقدًا نبض قلبها، شعر بوجوده، فتنفس الصعداء، وتساءل بأنفاسٍ مضطربةٍ:

-العمل إيه دلوقتي؟

شعر بتلاحق دقاته، وقد تدارك حجم الكارثة التي زج بنفسه فيها، غمغم في هلعٍ:

-أنا كده هاروح في داهية! والناس في البلد دي مابترحمش.

أعمل عقله بكامل طاقاته، محاولاً إخراج نفسه من تلك الورطة المهلكة، توهجت نظراته حينما طرأ بباله أن يحول المسألة برمتها لحادثة عرضية غير مقصودة، لا دخل له بها، ومُلقيًا باللوم عليها، لإهمالها في الانتباه لنفسها، لهذا قام "آسر" بتعديل وضعية جسدها، فأمسك بها من كتفيها، وقلبها على بطنها، لتبدو كما لو أنها تعرقلت في خطواتها، دون وعيٍ، فانكفأت على وجهها. نهض من جوارها، واتجه بخطوات شبه راكضة نحو الحمام، جال بنظراتٍ سريعة

باحثًا عن الدلو الفارغ، وجده في الزاوية، فأمسك به، وملأه بالمياه، ثم أضاف مقدرًا كبيرًا من مسحوق الغسيل، ليحمله بعد ذلك نحو الخارج.

وقف بجوار جسدها المستكين، نظرة أخرى ألقاها عليها، قبل أن يشرع في تنفيذ باقي خطته، حيث ألقى بكميةٍ لا بأس بها على الأرضية، لتصبح زلقة للغاية، وبحذرٍ انحنى مجددًا عليها، قاصدًا نزع ثيابها الفوقية عنها. تعمد "آسر" أن يخفف من ثيابها المحتشمة، لتظهر نوعًا ما على أريحيتها، بقميصٍ منزلي قصير، شبه عاري، وكأنها كانت منهمكة في تنظيفها للمنزل بحريةٍ كبيرة، غير مكترثٍ بما يظهر من جسدها للغرباء حينما ينظرون إليها، لتكون تلك وسيلته الرخيصة لتشتيت الأنظار عنه. لم ينسَ كذلك إحضار المسحة، ورفع بعض الأثاث، ليظهر المشهد منطقيًا. انتبه كذلك لفنجان القهوة الملوث بدمائها، أخذه إلى حوض المطبخ ليغسل الآثار من عليه، ثم نزع ثيابه عنه، وولج إلى الحمام مجددًا ليبلل كامل جسده بالمياه، فيبدو كمن انتهى لتوه من الاستحمام.

وما إن تأكد من إنجاز خطواته بالترتيب، حتى لف جسده بمنشفة قماشية، ثم سحب نفسًا عميقًا استعاد به انضباط أعصابه المرتبكة، وبدأ يهلل في فزعٍ؛ وكأنه قد تفاجأ بما أصابها:

-"فيروزة" حبيبتي، إيه اللي حصلك؟

تعمد أن يجثو إلى جوارها لتبتل المنشفة مكان ركبتيه، ثم نهض من مكانه، وهرول نحو باب المنزل مكملاً صراخه المستنجد باللغة الانجليزية:

-النجدة! أريد المساعدة هنا، زوجتي فاقدة للوعي.

في أقل من دقيقة نجح في إحداث جلبة بالمكان، وتجمع في منزله بعض الجيران، ينظرون في فضولٍ للجسد الساكن على الأرضية؛ لكن لم يجرؤ أحدهم على لمسها أو تحريكها، انضم إليهم الحارس الأمني "كاران"، اخترق الكتل البشرية، ليجد جسدها مستلقيًا في وضعٍ أقل ما يمكن وصفه بأنه مخيف. اعترته صدمة مرتاعة عليها، متوقعًا ألا تكون تلك الحادثة عابرة أو بمحض الصدفة، عكست نظراته المسلطة على وجه "آسر" شكوكه الكبيرة نحوه. لم يضيع الوقت، وهاتف الإسعاف على الفور، آملاً ألا يكون قد تأخر كثيرًا على إنقاذها.

استفاق "آسر" من شروده على رنين هاتفه المحمول، التفت برأسه نحو الجانب، والتقطه من جيبه، لينظر إلى شاشته، تجهمٌ عظيم استبد بكامل وجهه، دمدم بلفظة مزعوجة، قبل أن يجيب على الاتصال:

-مرحبًا سيدي.

تلقى توبيخًا من الطرف الآخر، جراء الخسائر المتوالية، فقال بنوعٍ من التعهد:

-سأعوض كل شيء، فقط أمهلني بعض الوقت.

اخترق الصوت الغاضب أذنه قائلاً له:

-إن لم تصلح الأمر سريعًا، ستكون نهايتك!

وقبل أن يستجدي رب عمله أنهى المكالمة معه، لتزداد تعابيره إظلامًا، قذف بالهاتف في عصبيةٍ على الأرضية، وهتف في غضبٍ:

-هو أنا ناقص! هلاحق على إيه ولا إيه؟!!!!

..................................................................

-كيف حالك الآن؟

تساءل "كاران" بتلك الكلمات المهتمة، بعد أن أخبره الطبيب "هاني" باستعادة "فيروزة لوعيها، ليأتي على الفور لزيارتها، محتفظًا لنفسه بتلك الأخبار السارة، وملتزمًا بالتعليمات المشددة حول التكتم على خبر إفاقتها. نظرت في اتجاهه بعينين تعكسان حملاً ثقيلاً من الهموم، قبل أن تتقوس شفتاها لتظهر بسمة امتنانٍ له وهي ترد:

-بخير.

حاول أن تكون جملته التالية بلغتها الأم، عندما تعهد لها:

-سينال الحقير عقابه.

أطبقت على جفنيها في ألمٍ، مقاومة انجرافها وراء ذكريات إهدار حريتها مع شبيه البشر المسمى بزوجها. فتحت "فيروزة" عينيها، ونظرت ناحيته، لتردد بقليلٍ من التفاؤل:

-أتمنى.

قاطع حديثهما دخول الطبيب "هاني" لغرفتها، أبصرت ابتسامته البشوش المحتلة وجهه، في حين ألقى الأخير نظرة مهتمة عليها وهو يسألها:

-إيه أخبارك يا مدام "فيروزة"؟ حاسة بإيه النهاردة؟

ردت بتنهيدة بطيئة:

-الحمدلله.

لثوانٍ تفقد الأوراق المثبتة في الحامل المعدني على حافة فراشها، وقال بهدوءٍ:

-التقارير بتقول إنك في تحسن..

لم تنطق بشيء، فاستأنف قائلاً، وعيناه تتطلعان إليها:

-قريب هتخرجي من هنا.

عكست تعبيراتها وجومًا مغلفًا بالألم، فأكد عليها بلهجةٍ غير ممازحة:

-بس مش هترجعي عند الحيوان اللي متجوزاه.

قالت بانهزامٍ، وهي تطرق رأسها للأسفل:

-أنا عايزة أرجع بلدي.

-هايحصل يا "فيروزة"!

رفعت رأسها فجأة للأعلى، بعد سماعها لتلك الجملة، من صوتٍ كان مألوفًا كليًا لها، ارتسم الارتياح على ملامحها الذابلة، وقد رأت الضابط "ماهر" يلج إلى الغرفة، رفرفت بعينيها لتتأكد أنها لا تتوهم وجوده، اضطربت أنفاسها، وهتفت تناديه غير مصدقة أنه هو:

-"ماهر" بيه!

قال "هاني" بابتسامة عريضة، بما يشبه التساؤل:

-إيه رأيك في المفاجأة دي؟

شعرت بوخزٍ في عينيها مصحوبًا بحرقةٍ بسيطة نظرًا لتجمع العبرات فيهما، لم تخجل من هذا، فبعد معاناتها المتواترة، كانت بحاجة للبكاء والتنفيس عن مشاعرها المكبوتة، كذلك تلقيها لكل تلك المساعدات، من هؤلاء الغرباء عنها، جعلها أكثر حساسية عن ذي قبل. تحرك "ماهر" نحو فراشها، ليبدو قريبًا منها، دارت نظراته على آثار الكدمات الظاهرة على ذراعيها، فلم تشف بعد كامل تورماتها القديمة، استنشق الهواء، ونطق بهدوءٍ أخفى خلفه ضيقه الشديد:

-سلامتك يا "فيروزة".

افتقرت للشجاعة لتشكو له جريرة سوء اختيارها، لزوج لم يعاشرها بالمعروف، ولم يمنحها سوى الألم والقسوة؛ لكنه بادر بإزالة حاجز الصمت الواضح، ليتطرق لهذا الموضوع الحرج، بإخبارها:

-"آسر" خدعنا كلنا زي ما خدعك يا "فيروزة"، مش إنتي بس اللي ضحيته.

بجهدٍ لا بأس به كبحت رغبة غريزية في البكاء، وسحبت نفسًا عميقًا تُحجم به مشاعر ضعفها. استقام "ماهر" في وقفته، ووعدها مرة أخرى:

-وقريب هتاخدي حقك منه، بس...

بتر جملته قبل اكتمالها مما أصابها بالقلق، رفعت عينيها إليه، وسألته بقلبٍ يدق في خوفٍ:

-بس إيه؟

لم يكن من السهل عليه إطلاعها على القادم؛ لكن لا مفر، حتى تسير خطته على ما يرام .. بدت ملامحه مزعوجة، واكتسب صوته لمحة من الضيق وهو يجيب عليها:

-لازم ترجعيله مؤقتًا.

هتفت رافضة دون منح نفسها أي فرصةٍ للتفكير:

-مش هايحصل!!!!

تفهم عزوفها المنطقي عن العودة إليه، ومع هذا تمسك بطلبه قائلاً:

-عشان يتحاسب على كل جرايمه معاكي ومع غيرك، أنا محتاج إنك تتعاوني معايا، ورجوعك ليه هيسهل علينا نوصل لأدلة تدينه في جرايم تانية، توصله لحبل المشنقة.

تشبثت برفضها الشديد، لتصيح بتشنجٍ:

-أنا مش هارجعله تاني، ده كان هيقتلني.

رد بتريثٍ:

-عارف ومقدر...

إربدت بشرتها بحمرةٍ محتقنة، بينما اكتسب صوته إيقاعًا جادًا وهو يتابع:

-إنتي مش لوحدك، كلنا معاكي، في تعاون كامل بين الجهات الرسمية لحمايتك، وفي نفس الوقت تكليف بالقبض على "آسر" واللي وراه.

ضغطت على شفتيها بقوةٍ؛ لكن نهج صدرها في انفعالٍ. راقب "هاني" اضطراباتها باهتمامٍ، وتحولت أنظاره نحو "ماهر" الذي واصل حديثه:

-واحد زيه مش هايكون شغال لوحده، في رؤوس كبيرة بتحركه.

تمسكت برفضها، وهتفت بصوتٍ متألم:

-يا "ماهر" بيه أنا غلطت مرة لما سكت عن اللي عمله فيا، و"كاران" شاف أذيته ليا، مش هاضيع حقي تاني.

رد "كاران" مؤمنًا على أقوالها:

-نعم، لقد تأذت بشدة، لا يمكن عودتها إليه.

رمقه "ماهر" بنظرة ضائقة، قبل أن يبعد عينيه عنه، لينظر إليها برجاءٍ، فامتناعها عن التعاون معه، سيزيد الموقف صعوبة، طرد الهواء من رئتيه، وقال على مهلٍ:

-صدقيني مش هايلمس شعرة منك.

علقت عليه بتهكمٍ ساخط:

-إزاي إن شاءالله ؟

قال بغموضٍ مثير للفضول:

-بالخدعة يا "فيروزة".

لم تبدُ مهتمة بمعرفة التفاصيل، وصاحت معلنة تمسكها برغبتها في الرحيل:

-أنا مش عايزة غير إني أرجع لأهلي.

تعهد لها بجديةٍ تامة:

-والله كل ده هيتم، بس لما نقبض عليه.

حملت نبرتها طابعًا من السخرية وهي تعقب عليه:

-إذا كان الشرطة مش عارفة تمسكه، أنا اللي هاعرف؟!

تغاضى عن استهجانها قائلاً:

-أيوه، وبدون أي مجهود.

تساءلت بتبرمٍ:

-فزورة دي؟

أجابها نافيًا:

-لأ، حاجة بسيطة جدًا.

قطبت جبينها بعبوسٍ، واستدارت برأسها في اتجاه "هاني" الذي أردف مسترسلاً في شرح معالم الخطة الغامضة:

-مدام "فيروزة" احنا هندعي إنك فقدتي الذاكرة مؤقتًا، مش فاكرة أي حاجة سوى إن جوزك بيحبك.

استنكار ممتزج بالنفور اعتلى تعبيراتها، احتدت نظراتها نحوه، وهتفت في دهشةٍ لازمها الازدراء:

-نعم؟!!

..............................................................

على الرغم من توفير ما يلزمها من احتياجات أساسية، مع معاملة لائقة، تهون عليها لياليها القاسية، إلا أن بقاءها في مكانٍ يعج بأمثال معتادي الإجرام كان لا يليق بسيدة مثلها، لم تجابه شيئًا مذلاً كهذا طوال حياتها. وضعت "همسة" يدها على كف والدتها المسنود على حجرها، مسحت عليه بحنوٍ، وخنقت دموعها التي تنازع للتحرر من حدقتيها، قبل أن تنطق بتفاؤلٍ لم يكن مقنعًا:

-هانت يا ماما، هتخرجي قريب

سحبت يدها من أسفلها، وقالت بنبرتها البائسة:

-مش باينلها يا "همسة" خروج.

بلعت الغصة العالقة في حلقها، ورسمت بسمة لطيفة على محياها، لتضيف بعدها:

-متخافيش يا ماما، المحامي قالنا إن دي إجراءات لازم تتعمل في القضايا اللي من النوع ده.

ردت عليها بتحسرٍ لا يخلو من الاستهجان:

-شوفتي مرات خالك؟ عمالة تقول إيه للكل؟

هتفت في حنقٍ مغلولٍ ضدها:

-تقول اللي هي عايزاه، المهم النتيجة في الآخر.

أكدت عليها "آمنة" من جديد:

-اقسم بالله يا بنتي ما أعرف حاجة عن مراته التانية، ولا عمري حتى شوفتها.

تعقدت تعبيراتها، وصاحت بضيقٍ:

-هو أنا مش عارفاكي يا ماما،؟ ده مافيش أغلب منك...

تضاعف الحزن على وجهها، فأضافت مهونة عليها الأمر:

-إن شاءالله ربنا هيظهر براءتك قريب.

تنهدت قائلة بإحباطٍ بائن عليها:

-يا رب.. عشمي فيه كبير...

للحظة صمتت "آمنة" عن الكلام، لتتساءل بعدها بقلبها الملتاع:

-"فيروزة" كلمتك؟

أجابتها "همسة" نافية:

-لأ لسه.

أخبرتها بهاجسٍ ما زال يراودها إلى الآن:

-والله أنا حاسة إنه جرالها حاجة، مكانتش بتغيب عنا المدة دي كلها.

أخفت ابنتها قلقها هي الأخرى عليها أيضًا، لتقول بوجهٍ عابس؛ وإن كانت نبرتها تُظهر العكس:

-إنتي في إيه ولا إيه يا ماما؟ خلينا نطلعك من هنا، وبعد كده نشوف أحوالها.

اكتفت بهز رأسها، وأخفضتها محدقة في علب الطعام الموضوعة أمامها، لم تتناول سوى لقيماتٍ معدودة مما أحضرته لها، فمن لديه الشهية ليأكل في مكانٍ كهذا؟!

.......................................................

أعطى إشارته للمعاون الجالس إلى مسافة قريبة منه، ليبدأ في تسجيل أقواله، بعد سماح الطبيب له باستجوابه؛ وإن تعذر الحصول منه على ردود واضحة. تطلع المحقق إلى "خليل" المستلقي على ظهره، بقيت أنظاره عليه عندما استطرد يسأله بلهجة جادة:

-أستاذ "خليل" بتشك في حد معين يكون ورا قتل المرحومة "سماح"

نحيبٌ خافت صدر منه لسماعه لهذا اللقب الموجع، ففراقها ما زال يؤثر به كثيرًا. أعاد المحقق كلامه:

-عايزك تهدى كده، وتركز، عشان تقدر ترد على أسئلتي..

بالكاد سيطر على نوبة بكائه، والمحقق يكمل بهدوءٍ:

-خلينا نوصل للي عمل فيها كده، ويتعاقب على جريمته.

منحه "خليل" إشارة من عينيه، كتعبير عن تجاوبه معه. لفظ المحقق الهواء من صدره، وسأله بصيغة أخرى:

-تفتكر مين ممكن يأذي مراتك؟

أظهر صعوبة في الرد عليه، عندما حرك شفتيه ليقول:

-مـ..عرفـ..ش.

هز رأسه بإيماءة روتينية، وتابع أسئلته له:

-الجيران بيقولوا إن في واحدة زارت مراتك قبل وفاتها بحاجة بسيطة، عندك خبر عن الموضوع ده

انعكست علامات الاستغراب على محياه، فنادرًا ما كانت تستقبل زوجته الراحلة أحدًا في منزلها، لعق شفتيه، ورد نافيًا:

-لأ

أكمل المحقق استجوابه الرسمي، وقال بنظراتٍ ثاقبة؛ وكأنه يتعمد بهذا أن يراقب ردة فعله:

-في كلام تاني إن أختك هي اللي كانت عندها.

تمتم "خليل" مرددًا اسمها بدهشة عظيمة، كما لو أنه يتساءل:

-"آمنة"؟

أكد عليه المحقق بصوته الجاد:

-أيوه، واحدة من الجيران شافتها عندها.

نفى "خليل" بكلماتٍ متقطعة، آمل أن تسعفه في إيضاح الحقيقة:

-أخت..ي ما..تعـ..رفش "ســ..ماح"، أنا.. مقولتـ..ش.. لحد.. عنها.

رد عليه المحقق بنظراته الذكية:

-بس بنتك قالت إن عمتها كانت هي اللي عندها.

ظل "خليل" يؤكد عليه بجهدٍ شديد:

-"آمنة" ما..تعـ..ملش كده.

-طيب هل بتشك في مراتك الأولى إنها تكون ليها صلة بالموضوع؟

نطق بإرهاقٍ مضاعف:

-"حمـ..دية"!

استأنف المحقق توضيحه:

-وخصوصًا إن أولادك الله يرحمهم ماتوا بنفس الطريقة اللي اتسممت بيها بنتك، ده بعد ما حصلنا على التقارير الطبية اللي بتؤكد ده.

بهتت ملامحه، وتقلصت عضلات وجهه، فبدا وكأنه ينازع للنطق بما يعجز اللسان عنه، استجمع بمجهودٍ زائد نفسه ليخبره:

-"حــ..مدية" تــ..عملها.

سأله بهدوءٍ شديد، رغم الوهج الظاهر في عينيه:

-إيه دليلك على إنها ممكن ترتكب جريمة بشعة زي دي؟

جاوبه بملامحٍ تحولت للاحتقان:

-هــ..ي قــ..ادرة، معندهــ..اش قلب، ولا بتــ..حب حد.

علق المحقق بمنطقية:

-بس ده مش كلام يتاخد بيه في المحكمة.

ظل "خليل" يكرر رغم صعوبة نطقه، بانفعالٍ شديد:

-"حمــ..دية" تــ..عملها.

حاول المحقق استخراج المعلومات منه، وفهم أسبابه؛ لكن دون جدوى، فقد بقي يردد بألمٍ وحرقة:

-هي.. "حمــ..دية"!

سعى المحقق لتهدئته، ومع هذا فشل، تشنجت أطرافه، وزاد احمرار وجهه، لذا طلب الطبيب المتابع لحالته التوقف عن استكمال التحقيق، بعد ملاحظته للضرر الذي لحق بجسده، جراء انفعالاته المتعصبة، استجاب له الأول، وأنهى استجوابه له، واضعًا المزيد من النقاط الهامة في الاعتبار.

..................................................................

تنهد كأنه خرج من مهمة شاقة، بعد انتظاره لأيامٍ، ليحصل على تفريغ كاميرات محال المنطقة، حيث أظهرت في محتواها، دخول امرأة ما، مختبأة في نقابٍ أسود، لا يُبين معالم وجهها، إلى البناية القديمة، لتمكث بالداخل لبعض الوقت، قبل أن تخرج بعد برهةٍ. هيئتها الجسمانية أشارت لتطابقها الكبير مع "حمدية"، على عكس "آمنة" التي بدت مكتنزة إلى جوارها، وأقصر في القامة. حامت الشكوك حول الأولى، وتأكد من صحتها بعد إطلاع الجارة "أم دعاء" على صورة فوتغرافية تم التقاطها لها بالقسم، لتؤكد أنها من رأتها بالداخل، قبيل إعطائها لمفتاح منزلها لجارتها الفقيدة. تبقى أمام المحقق مهمة أخيرة، تحتاج للتعامل فيها بأبوة أكثر عن مهنيته المعتادة.

رهبة التواجد في مكانٍ كهذا لا يمكن تخيلها على صغيرة مثلها؛ لكن لا مفر من استدعائها لسؤالها شخصيًا، فربما بشاهدتها تظهر الحقيقة كاملة، وبكل ودٍ وألفة، أجلس المحقق الطفلة على الأريكة الجلدية، في حضور ابنة عمتها وزوجها، لإشعارها بالأمان، وكذلك لسؤالها بعد تبديد مشاعر الخوف في نفسها، قدم إليها لوحًا من الشيكولاته، وسألها بلطفٍ:

-بتحبيها يا "رقية" ولا لأ؟

أجابته بتلقائية:

-ماما قالتلي ناكل حتة صغيرة عشان ماتوجعش أسناني.

مسد على رأسها، وقال بنفس الوجه المبتسم:

-برافو، إنتي كده شطورة.

تركها تعبث بالورقة المغلفة للوح الشيكولاته، ثم ناداها بصوتٍ كان خافتًا:

-"رقية"!

نظرت إليه، فتابع بابتسامةٍ ظهرت مقتضبة:

-لو سألتك على حاجة ممكن تجاوبي عليا؟

اكتفت بالإيماء برأسها، فواصل حديثه في هدوءٍ:

-يا ترى خالتو اللي زارت ماما ولا عمتو؟

ببساطةٍ منحته جوابًا مباشرًا:

-أنا معنديش خالتو.

في نفس الأثناء تحفزت "همسة" في جلستها، وتطلعت بنظراتٍ مترقبة مليئة بالخوف إلى وجه الطفلة، خاصة مع سؤال المحقق الواضح:

-يعني عمتو هي اللي جت عندها؟

أتاه ردها قاطعًا:

-آه.

انعكست علامات الجدية على تعابيره، وبرزانةٍ أكمل أسئلته:

-كانت بتيجي كتير؟

أجابت الصغيرة نافية:

-لأ

تنفس بعمقٍ، ولاحقها بسؤاله التالي:

-طب وعرفتي منين إنها عمتو؟

جوابها لم يحمل أي مراوغة عندما أخبرته:

-ماما قالت كده.

نظرة مطولة منحها للطفلة، قبل أن تضيف ببراءة:

-بس الكيكة بتاعتها وجعت بطني، أنا مش عايزة أكلها تاني.

شهقت "همسة" في ارتعابٍ، فتشتت نظرات المحقق عن الطفلة، ليتأمل قسماتها المذعورة، عاود التحديق في وجه الصغيرة، وسألها على مهلٍ:

-وإنتي عرفتي منين إنها بتاعتها؟

تلكأت في إجابتها قبل أن تغمغم أخيرًا:

-ماما قالتلي دي من عمتو.

تضاعفت مخاوف "همسة" مع اعتقادها الشديد بأن الطفلة بعفويتها تلك، تزيد من توريط والدتها في هذه القضية الشائكة، لهذا تدخلت دون تفكيرٍ في الحوار، ونطقت بصوتٍ خرج مهتزًا، محاولة بهذا الدفاع عنها؛ وإن لم تملك الدليل المادي الملموس:

-يا فندم أنا عايزة أقول لحضرتك إن ماما كانت بتعامل "رقية" أكتر من بنتها من وقت ما عرفنا بوجودها، استحالة تأذيها، وهي فضلت أعدة معانا كام يوم، يبقى إزاي هتضرها؟ في حاجة غلط والله، ده احنا معرفناش عنها إلا من خالي.

رمقها المحقق بنظرة غامضة قبل أن يقول:

-أنا فاهم شغلي كويس يا مدام.

هتفت مُصرة على البوح بما يعتري صدرها من هواجس مخيفة:

-والله العظيم ما باكدب، ماما متعرفش عنها حاجة، وأنا اللي جبتها من المستشفى ليها، استحالة تكون شافتها قبل كده، وآ....

قاطعها محذرًا:

-يا مدام أنا عارف بأعمل إيه، فلو سمحتي ماتدخليش.

وضع "هيثم" قبضته على ذراع زوجته، وأخبرها بصوتٍ خافت؛ لكنه صارم:

-خلاص يا "همسة".

التفتت نحوه تقول بنواحٍ:

-يا "هيثم" والله ماما بريئة.

أخبرها مشددًا قبل أن تتلقى توبيخًا مزعجًا من المحقق:

-سيبي الباشا يشوف شغله يا "همسة".

لم تستوعب وسط مخاوفها الزائدة، أن المحقق يستخلص الحقائق الكاملة من فم الصغيرة، لربطها بما جمعه من معلومات أخرى موثقة، وذات الصلة بالمرأة التي زارت والدتها القتيلة، ليكتمل المشهد الناقص، وتصبح الأدلة واقعية، غير قابلة للتشكيك ........................................ !!!

..........................................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الثالث والثمانون

المواجهة، هي الخطوة الأخيرة المتبقية في تحقيقه، لتكتمل كافة الأركان، ويتم إثبات التهمة على المذنبة الحقيقية، قبل إرسال الأوراق الرسمية إلى الجهة القضائية، للنظر في تلك الدعوى، لهذا في الموعد المتفق عليه، وبعد استدعاء الأطراف المنوطة بالشهادة، انتظر المحقق قدوم كلاً من "حمدية" و"آمنة" من غرفة الاحتجاز للالتقاء بالشهود، وكانت البداية مع المرأة التي التقت بها "حمدية" مصادفة عند البقالة، حيث استدرجتها في الحديث لتخرج منها بمعلوماتٍ عن "خليل" مدعية آنذاك أنها قريبته. تعرفت عليها تلك السيدة على الفور، وهتفت مستخدمة سبابتها في الإشارة نحوها:

-هي دي اللي قابلتها يا سعات الباشا.

تنفست "آمنة" الصعداء، ورفعت بصرها للسماء تشكر المولى سرًا، فدلائل براءتها تظهر تدريجيًا، في حين صرخت "حمدية" ناكرة معرفتها بهذه السيدة:

-إنتي كدابة، هو أنا شوفتك قبل كده؟

أكدت المرأة بشدة، وعيناها تشتعلان في غضبٍ لكذبها الواضح:

-أيوه شوفتيني، واتكلمت معاكي، بأمارة ما قولتيلي إنك معرفة الأستاذ "خليل" من البلد، ووريتك مكان بيته، ده أنا كان ناقصني شوية وأطلع شقتي تقعدي معايا.

التفتت "حمدية" ناظرة نحو المحقق، وأصرت على كذبها بقولها:

-محصلش.

صاحت بها المرأة؛ وكأنها على وشك مهاجمتها:

-إنتي كدابة...

ثم نظرت إلى المحقق، وتابعت باقي جملتها، موجهة أصابع الاتهام نحوها:

-يا بيه هي نفس الست اللي اتكلمت معاها، وأنا مابنساش حد شوفته.

هز رأسه بهدوءٍ، بينما واصلت "حمدية" هتافها المليء بالإنكار:

-دول بيفتروا عليا، أنا واحدة ولادي ماتوا، وراحوا مني، إزاي هـ....

قاطعها المحقق بصرامةٍ:

-مالوش لازمة الكلام ده.

ثم أمر المعاون الجالس إلى جواره بتدوين ما حدث، وأخذ توقيع المرأة على أقوالها، لينتقل بعدها للشاهدة التالية؛ وكانت الجارة "أم دعاء"، والتي بدورها تعرفت أيضًا على "حمدية"، لتؤكد هي الأخرى، وكامل نظراتها عليها:

-أيوه يا باشا، دي الست اللي شوفتها عند "سماح" اللي يرحمها، وقت ما سبت مفتاح الشقة معاها

احتقن وجه "حمدية"، وصرخت مستنكرة اعترافها بعصبيةٍ شديدة:

-هو إنتي جاية ترمي بلاكي عليا؟

قالت الجارة بنبرة متهكمة، ونظراتها الساخطة تتجول عليها:

-أعوذُ بالله، الخِلقة دي سهل الواحد يفتكرها.

سألها المحقق من جديد، لتكون الإجابة قاطعة كذلك:

-يعني مش الست اللي واقفة جمبها؟

وكانت نظراته موجهة نحو "آمنة". تطلعت إليها الجارة، ونفت عنها التهمة دون تفكيرٍ:

-لأ دي ماشوفتهاش قبل كده...

حملقت مرة أخرى في ملامح "حمدية" المتجهمة بغلٍ، وأضافت مشيرة بإصبعها ناحيتها:

-هي دي يا بيه، وحتى بالأمارة كانت لابسة نقاب، ورافعة البرقع عن وشها.

نفت "حمدية" كلامها بالتمسك بكذبها، فرفعت نبرتها لتصيح في وجهها بحدة:

-أنا ما عمريش لبست نقاب، حرام عليكي، اتقي الله.

هددها المحقق بعد أن بدا صراخها خارجًا عن السيطرة:

-اسكتي أحسنلك.

رفضت الانصياع لأمره، وقالت ببكاءٍ حاولت استدعائه:

-يا بيه دول بيفتروا عليا، أنا غلبانة ومظلومة...

استشاطت نظراتها، واستدارت تحدج شقيقة زوجها بكل ما فيها من كراهية، واتهمتها علنًا:

-"آمنة" هي اللي عملت كده.

شهقت في ارتعابٍ، وقالت برجفةٍ مذعورة:

-والله العظيم ما حصل، أنا عمري ما فكرت أذي حد.

قال المحقق ببساطة:

-الحقيقة معروفة يا ست "آمنة".

هتفت "حمدية" بنزقٍ، وهي تلطم على صدغيها، لتثير التعاطف حولها:

-كلكم موالسين مع بعض عشان تودوني في داهية، إنتو بتكرهوني ليه؟ عايزين تلبسوني حاجة معملتهاش، وعيالي لسه آ...

لم يبدُ المحقق متأثرًا بما تفعله، بل بدا نافرًا منها، لم ينتظر انتهاء نوبة عويلها، وقاطعها بلهجته الرسمية الصارمة:

-فوقي من شغل الجنان ده، إنتي في كارثة.

أبعد نظراته عنها، وأكمل أوامره للجارة:

-امضي على أقوالك.

ردت عليه "أم دعاء" بخنوعٍ:

-حاضر يا باشا،...

ثم دمدمت مضيفة بتبرمٍ وهي تنهض من مكانها لتوقع بجوار المعاون:

-منها لله الظالمة، يتمت البنت، وكانت هاتجيب أجل السُكان كلهم.

صرفها المحقق ليأتي بالشاهدة الأخيرة، والتي حرص أن يستقبلها بنفسه، وبمفردها، ليزيل أي رهبة تعتريها، عندما ترى قاتلة والدتها بالداخل؛ وإن لم تدرك هذا حرفيًا. حدقت "رقية" في وجه كلتيهما بنظراتٍ قلقة متوترة، وجه "حمدية" الغاضب كان باعثًا على الانقباض، بينما تعابير "آمنة" الحزينة كانت تدعو للإشفاق. أجلسها المحقق على حجره، وسألها بصوته الهادئ:

-مين فيهم عمتو اللي زارت ماما يا "رقية"؟

لحظات من الترقب سادت على الجميع، في انتظار سماع قولها الفاصل، وزعت "رقية" أنظارها على الاثنتين، ونطقت أخيرًا بعد صمتٍ قليل:

-دي عمتو!

كان ذراعها يشير نحو "حمدية"، التي انفجرت صارخة بجنونٍ أكبر:

-إنتي بتقولي إيه؟ مين دي اللي عمتو؟ هو أنا شوفتك قبل كده يا بت إنتي؟

كانت على وشك الهجوم عليها، والإطباق على عنقها، لولا تحذير المحقق الصارم الذي أوقفها في اللحظة الأخيرة:

-اهدي كده!

انتحبت ترجوه، بدموع التماسيح التي لم تساعد في تقوية موقفها:

-يا بيه كلهم متفقين مع بعض عليا، عايزين يلبسوني جريمة معملتهاش، عشان يطلعوا المجرمة الحقيقية براءة...

ثم صرخت في وجه "آمنة" بقولها:

-هي دي عمتها، ليه كلكم جايين عليا!

كان صياحها بلا طائل، تجاهلها المحقق، وركز انتباهه مع الطفلة، ليبدأ في سؤالها بهدوءٍ، قاصدًا الاستماع مجددًا لتفاصيل زيارتها المشؤومة:

-ها يا "رقية"، قوليلنا عمتو دي عملت إيه عند ماما؟

........................................................................

في موقف السيارات القريب من بلدته القديمة، صف شاحنته الصغيرة، تلك التي يعمل عليها حاليًا، أمام أحد المخازن، منتظرًا انتهاء العمال من تعبئة كراتين الزيت. تركهم يكملون مهمتهم على مهل، وأحضر لنفسه قهوة زهيدة الثمن من المقهى الموجود في الجهة المقابلة. رشفة تبعها بأخرى، قبل أن يمتزج مذاقها المرير العالق في جوفه، بطعم التبغ الرخيص الذي يدخنه. وقف "شيكاغو" مستندًا بظهره على مقدمة شاحنته الصغيرة، تلك التي يعمل عليها حاليًا، في نقل البضائع، من مكانٍ لآخر. تحركت أنظاره في اتجاه "حمص" الذي خاطبه بتبرمٍ:

-ها يا عمنا؟ خلصت ولا لسه؟ عايزين ننجز في أم الليلة دي، لسه مشوارنا طويل.

قال بنوعٍ من التذمر:

-مكانوش نفسين بنطيرهم في الهواء!

علق عليه بتهكمٍ:

-نفسين، تلاتة، إن شاءالله عشرة، خليك على وضعك، بس ماترجعش تبخ في وداني لما تسمع كلمتين مالهومش لازمة من المعلم "ناجي".

هتف في ضيقٍ، وهو يلقي بعقب سيجارته أسفل قدمه:

-خلاص يا عم "حمص"، أدي السيجارة طفيناها...

ثم سلط أنظاره على البضائع المتراصة فوق بعضها البعض، وتساءل:

-النقلة اتوثقت ولا لسه؟

أجابه "حمص" وهو يفرك كفيه معًا:

-كله تمام وألسطا.

حذره بلهجةٍ أظهرت انزعاجه:

-مش عايزين حاجة تفلت مننا، المرة اللي فاتت لحقنا كراتين الصيني بالعافية.

أوضح له بتعابيره المتجهمة:

-الرك على الحمار اللي ربطهم، مشدش الحبل على الآخر.

تأكد "شيكاغو" من عقد نهايات الحِبال في الخطافات المعدنية البارزة من صندوق شاحنته، ثم رفع رأسه للأعلى، ليلمح شخصًا يشبه في ملامح وجهه "محرز"، أمعن النظر فيه، ليتأكد منه، وتساءل بصوتٍ مسموعٍ مخاطبًا رفيقه:

-هو ده مش المعلم "محرز"؟

نظر "حمص" إلى حيث أشار بعينيه، ورد مؤمنًا عليه:

-أه هو.

وجداه يستقل إحدى حافلات الأجرة ذات الحجم المتوسط، لكز "شيكاغو" رفيقه في كتفه قائلاً له:

-طب تعالى نسلم عليه، بدل ما يكون شافنا ويفتكرنا طنشناه.

-معاك حق.

تحرك الاثنان في اتجاه الحافلة؛ لكن خطواتهما كانت بطيئة نسبيًا، لم يستطيعا اللحاق به، فتوقفا في منتصف المسافة ينظران إلى بعضهما البعض، فقال "شيكاغو" بزفيرٍ لاهث:

-المكروباص طلع، نبقى نشوفه عند الدكان.

سأله "حمص" بنوعٍ من التطفل:

-بس إيه اللي جايبه الموقف ده؟

أجابه بعدم اهتمامٍ:

-تلاقي في مصلحة هنا كان بيخلصها، ما كان قايلنا زمان إن أهل أبوه من هنا...

ثم التفت عائدًا إلى شاحنته وهو يتكلم بجدية:

-طالما مايخصناش مالناش فيه.

رد باقتضابٍ:

-ماشي الكلام.

أمره "شيكاغو" وهو يعطيه حفنة من النقود، قبل أن يستقر في مقعد السائق:

-حاسب القهوجي وحصلني.

على مضض غمغم "حمص":

-طيب.

.............................................................

بعبارات اعتذارٍ متكررة، أبدى الزائر أسفه لتقاعصه في السؤال عن رفيقه طوال الفترة الماضية، بسبب تنقلاته وسفره لأكثر من مكانٍ في وقت قصير، وما إن علم بالكارثة التي حلت على دكانه، حتى هرع إليه يتفقده، والندم يبدو جليًا على قسماته. جلس "ناجي" على المقعد المجاور لفراش "تميم"، وأعاد على مسامعه من جديد بخجلٍ لم يخفه:

-والله ما كنت أعرف خالص، أنا مش عارف أقولك إيه، أنا مقصر معاك جامد يا صاحبي.

تنهد قبل أن يعلق عليه:

-حصل خير.

هتف معترضًا بضيقه الواضح:

-لأ محصلش، لو أعرف بس اللي عمل فيك كده هاجيبه من رقبته، وأرميه عند رجليك.

لمحة من السخرية شابت نبرته وهو يخبره:

-ما احنا عارفينه.

برقت عيناه في اهتمامٍ، وسأله بتلهفٍ:

-مين؟ أكيد حد غريب عن منطقتنا، ومايعرفكش؟ مظبوط؟

بنفس الصوت الهادئ أجابه نافيًا:

-لأ، ده قريب أوي مننا.

صدمه جوابه، وصاح يسأله بتحفزٍ:

-إزاي؟ مين اللي اتجرأ وعمل كده؟

بعد صمتٍ قليل نطق بتعابيرٍ مكفهرة:

-"محرز".

هبط رده على رأسه كالصاعقة، فانتفض واقفًا، ليردد بعدها بعدم تصديقٍ:

-نعم؟ قول كلام غير ده!!!

أشار له "تميم" بيده ليجلس، وقال بصوتٍ لم يبدُ متأثرًا، رغم الضيق المختلج صدره:

-زي ما سمعت.

ألقى "ناجي" بثقل جسده على المقعد، وظل يدمدم بصوته المذهول:

-مش معقول، ده أنا ممكن أصدق إن أي حد يعمل كده إلا هو، ده إنتو معتبرينه ابن العيلة التاني، حتى الحاج "بدير" بيستشيره في كل كبيرة وصغيرة، ده غير إن تقريبًا كلمته مسموعة عند كل تجار السوق.

انقلبت شفتاه وهو يعقب عليه:

-أهوو ظهر وشه التاني، وأول ما بدأ كان معايا.

هتف في غيظٍ عظيم:

-الله يحرقه، أه لو بس أمسكه بإيدي...

بجهدٍ تحكم في أعصابه، وسأله:

-وعلى كده هربان فين ابن الـ (...) ده؟

ضاقت عينا "تميم" بشدةٍ، قبل أن يجيبه بنوعٍ من السخط:

-وهو أنا لو أعرف هاسيبه مثلاً؟!

قال في حرجٍ:

-طبعًا لأ.

أضاف "تميم" قائلاً بعد تنهيدة مرهقة:

-مسيره يظهر، والعيون كتير في كل حتة.

رد عليه رفيقه مشددًا عليه:

-اعتبرني من عيونك يا "تميم"، ولو شميت أي خبر عنه هابلغك.

هز رأسه في استحسانٍ وهو يحدثه:

-إن شاءالله.

مكث "ناجي" برفقته لوقتٍ لا بأس به، إلى أن حان موعد ذهابه، تركه مضطرًا، وبقي الأخير بمفرده، شاعرًا بالضجر من وجوده غير المستحب في المشفى، حرك أنظاره في اتجاه الطبيب الذي ولج للغرفة، ليتفقده كعادته يوميًا في مثل هذا التوقيت، سأله بروتينيةٍ، وهو يتفحص جانب جسده الأيمن بدقة:

-إيه الأخبار النهاردة؟

أجابه "تميم" بضجرٍ:

-الحمدلله، أنا كويس.

ثم تطلع إليه متسائلاً بقليلٍ من الصبر المحسوس في نبرته:

-هو أنا هاخرج إمتى يا دكتور؟

مازحه الطبيب بلطفٍ، وهو يواصل فحص جانب جسده الأيسر:

-إنت زهقت مننا ولا إيه؟

أخبره ببساطةٍ ودون مجاملةٍ:

-إن جيت للحق أنا مابحبش أعدة المستشفيات.

ابتسم الطبيب معقبًا عليه:

-ومين بيحبها أصلاً، بس ده ضروري عشان مصلحتك.

بنبرةٍ ملولة تابع إخباره بما يجيش في صدره:

-بس أنا عايز أخرج من هنا، نفسي أرجع أقف على رجلي من تاني، واشتغل زي باقي الناس.

اتجه الطبيب نحو حافة الفراش، مد يده وأمسك بالحامل المعدني المثبت به بعض الأوراق، دقق النظر فيها، ودوّن الجديد من الملحوظات، قبل أن يعاود النظر إليه ليتكلم معه بتفاؤلٍ:

-هانت .. التقارير قدامي بتقول إن التحسن كبير، وده شيء كويس جدًا...

خبا الحماس من صوته عندما قال:

-بس آ...

سأله "تميم" في توجسٍ:

-بس إيه؟

بلع ريقه، ونطق بحذرٍ:

-الموضوع اللي كلمتك فيه قبل كده، عن قدرتك الإنجابية.

أغمض "تميم" عينيه قائلاً بألمٍ لن يشعر به أحد سواه:

-أنا راضي بحكم الله.

حاول الطبيب أن يبث روح الأمل فيه، فأكمل قائلاً:

-ونعم بالله، كل شيء ليه علاج، وأنا نصيحتي ليك إنك تتابع مع دكتور أمراض ذكورة، هايفيدك أكتر، وماتحاولش تضغط على نفسك خلال علاقتك بمراتك، أكيد إنت فاهمني.

بلع غصة مريرة في جوفه، وقال وهو يبتسم بحزن:

-من الناحية دي اطمن يا دكتور، أنا منفصل.

تفاجأ من تصريحه، فاعتذر الطبيب فورًا، وإحساسه بالحرج يغمره:

-أسف مقصدش أتدخل في حياتك، أنا غرضي آ...

قاطعه "تميم" منهيًا الحوار في تلك الجزئية تحديدًا:

-مالوش لازمة الرغي فيه، أنا كده مرتاح...

باعد بينه وبين نظرات الإشفاق الظاهرة على وجهه، ثم حملق في الفراغ مكملاً حديث نفسه بسخرية أشد مرارة:

-وشكلي هافضل واخد أجازة على طول.

..............................................................

كانت الأرضية الخشبية تهتز تحت قدميها، وهي تتحرك بخطواتها المتعجلة، لتهبط الدرج نزولاً للأدوار السفلى، علامات الاستنكار افترشت وجهها، ونظرات الغضب احتلت حدقتاها، كما لو أنها ستطلق الشرر بعد لحظات. التفتت "بثينة" ناظرة إلى ابنتها بتأففٍ، واستطردت تلومها بشدةٍ، بعد أن علمت مصادفة باحتفاظها بمقتنياتها الذهبية في منزل الزوجية السابق:

-بقى ساكتة كل ده يا بت، وسيباهم هناك؟ مش خايفة يتسرقوا؟

ردت عليها "خلود" ببرودٍ:

-ما أنا قافلة عليهم الدولاب.

هتفت بها بحدةٍ، وهي تدفعها بيدها لتخرج من مدخل البناية:

-دولاب إيه ده اللي هايحوش الحرامي عنهم؟ ربنا يستر بقى، مدي يالا في خطوتك.

تكلمت بتبرمٍ، ساحبة ذراعها من أسفل قبضتها:

-ماشي يامه.

واصلت كلتاهما السير المتعجل، إلى أن أشارت "بثينة" بيدها لإحدى عربات الأجرة، لتقلهما للمنزل الذي لم يكن بعيدًا، فقط إن استمرت بالمشي- لربما وصلت خلال بضعة دقائق. توقفت السيارة أمام العمارة، فترجلت منها أولاً، وأعطت للسائق أقل من أجرته، وكأنها تمنّ عليه:

-كفاية عليك كده!

رد السائق معترضًا على إنقاص نقوده:

-ده مايرضيش ربنا يا حاجة.

تجاهلت تذمره، وسحبت ابنتها نحو المدخل، ثم أخبرتها بصوتٍ شبه لاهث، جراء المجهود العضلي الذي تبذله:

-صحيح، خالتك كانت قالتلي إن المعدول ابنها احتمال يخرج على أول الأسبوع الجاي.

توقفت "خلود" عن الحركة، وتجمدت محدقة في وجه والدتها التي استقرت في مكانها هي الأخرى، لتهتف الأولى بعدها بسخطٍ عكس نقمها الشديد عليه:

-وأنا المفروض أعمله إيه؟ زفة وفرح، ولا أقف أتحزم وأرقص في وسط الحتة؟!

أشارت لها أمها لتمضيا قدمًا، وقالت ببرودٍ سمج:

-ماتعمليش حاجة، أنا بأقولك من باب العلم بالشيء.

لم تنكر أن نيران الحقد ما زالت متقدة بداخلها، تكره كل ما له صلة به، وما يذكرها بما خسرته، سنوات متعاقبة من عمرها، انتظارها الطويل لأجل الفوز بحبها، وفي الأخير كان نصيبها الهجر والتعاسة، ونيل لقب (مطلقة). طغى غليلها عليها، فلفت رأسها نحو والدتها، أثناء صعودها، تسألها بخبثٍ:

-صحيح إنتي هاتسيبي مرات ابنك تبرطع على مزاجها؟ أنا بيتي يتخرب وهي تعيش وتتهنى؟

ردت بأنفاسٍ بطيئة، تحمل الوعيد:

-أنا بس أفوق وأروقلها، وهاطلع البلى الأزرق على جتتها.

سألتها بسخطٍ:

-هتعملي إيه يعني فيها؟ وماتنسيش الشقة باسمها!

بالغت والدتها في إظهار نقمها عليها بإسهابها المزعج:

-محظوظة بنت الفقرية، مكانتش تحلم بكده، جوز وشقة والله أعلم إيه تاني.

رددت "خلود" بغيظٍ:

-النحس بس اللي راكبني أنا، لا طولت بلح الشام، ولا عنب اليمن.

قالت "بثينة" من خلفها:

-أنا قلبي حاسس إن معمولك عمل، لازمًا أوديكي عند شيخ يفكه.

قلبت شفتيها، وتساءلت في سخريةٍ:

-ومين بقى اللي عاملهولي؟

ببساطةٍ أجابتها؛ وكأنها تختلق الأعذار لفساد حياتها:

-أكيد واحدة حسداكي على النعمة اللي كنتي فيها، أخدة أجدع شاب في المنطقة، مع الحسب والنسب، و...

كانت يائسة للحد الذي جعلها تصدق مجددًا، أن "فيروزة" هي من تقف وراء فشل زيجتها، توحشت نظراتها، وغلف حدقتاها كراهية مقيتة، لتنطق بعد من بين أسنانها، بزفيرٍ محموم:

-مافيش غيرها!

لم تفهم والدتها هسهستها، وسألتها:

-بتقولي إيه يا "خلود"؟

توقفت أمام باب منزلها، وأخبرتها بصدرٍ ناهج، يعبر عن انفعالها المتصاعد:

-أنا شاكة يامه في بوز الإخص اللي اسمها "فيروزة".

لوت والدتها ثغرها، ونطقت في استياءٍ واضح، بنبرة أقرب للوم:

-هنرجع تاني للسيرة الفقر دي؟ أنا مصدقت إنك فوقتي من أوهامك.

انفجرت تصيح بغضبٍ أدهشها:

-هي يامه اللي استكترت عليا جوزي، وشغلت تفكيره، أكيد عملتله حاجة تسحره بيها، تكرهه فيا، ده كان قرب يبقى زي الخاتم في صوباعي.

كتمت رغبتها في نهرها مؤقتًا، فهي أمام مهمة محددة، لفظت الهواء بقوةٍ، وأشارت لها بعينيها تأمرها:

-خلينا نشوف الحكاية دي بعدين، وافتحي الباب، عايزين ننجز في يومنا.

..........................................

صرف كليهما من الغرفة، ليحظى بقدرٍ من الخصوصية معها، وذلك ليتسنى لها معرفة تفاصيل خطته دون مقاطعة سخيفة من "كاران"، أو تعليق موتر من الطبيب "هاني". كان شاكرًا لمجهوداتهما في دعمها؛ لكنه بحاجة لبث الثقة في نفسها المذبذبة لتقبل بالتعاون معه عن اقتناعٍ تام. تنفس "ماهر" بعمق، ونظر بلا حرجٍ في عينيها، ليستطرد قائلاً بصوت أكتسب طابع الجدية:

-بيتهيألي كده هنعرف نتكلم على راحتنا.

ضغطت على شفتيها، ونظرت بشيء من الارتباك نحوه مع إتمامه لعبارته:

-"فيروزة" أنا عارف إن اللي بأطلبه منك مش سهل، ومعاكي حق ترفضي.

تلجلجت وهي تهرب منه:

-"ماهر" بيه، أنا متعودش أخذل حد طلب مني حاجة، بس الموضوع ده بالذات صعب أوي عليا.

رجاها بخفوتٍ، وهو يميل بجسده نحو فراشها قليلاً:

-أنا عايزك تسمعيني الأول قبل ما تاخدي قرارك النهائي، وفي كل الأحوال هرجعك مصر تاني.

أومأت برأسها تستحثه على الحديث، بالرغم من الخوف المتسلل إليها:

-اتفضل.

أراح "ماهر" ظهره للخلف، وأردف يشرح لها:

-"آسر" مكانش مجرد صاحب عمري أنا و"وجدي"، ولا حتى كنا بنعتبره المحامي النبغة، ده كان بيدخل بيوتنا، بيقعد وسط أهلنا، بيتكلم مع إخواتنا كأنه واحد مننا، ويمكن لما اتقدملك، كان صعب يترفض، باعتباره الشخص المناسب، اللي فيه كل الإمكانيات المناسبة.

قالت في أسفٍ وألم، وهي مدركة كليًا لتبعات سوء اختيارها:

-معاك حق.

سألها متحققًا:

-تفتكري واحد دماغه داهية زي دي، مش عامل حسابه إزاي يأمن نفسه من الخطر؟!

نظرت له بتوترٍ، فتابع بمنطقيةٍ:

-سهل جدًا يطلع زي الشعرة من العجينة من أي ورطة يتحط فيها، طالما مافيش الدليل اللي نقدر ندينه بيه.

ما أملاه عليها تعتبر افتراضات لا يمكن استبعاد حدوثها، وأضاف عليها بلهجته الجادة:

-كمان مصادرنا الخاصة قالت إنه شغال في حاجات مشبوهة، ده غير تجارة المخدرات، يعني متورط في غسيل أموال، بيدير مواقع ليها علاقة بـ...

لحظة من التردد سيطرت عليه قبل أن يوضح لها:

-بالدعارة.

اشتعل وجهها في حمرةٍ غاضبة لتصريحه الأخير، ورمشت بعينيها في حرجٍ أكبر، عادت لتركز انتباهها معه وهو يختتم حواره قائلاً:

-فمتستبعديش يعمل أي حاجة عشان يجبرك تكوني معاه، وتنفذي كل أوامره.

نكست رأسها في خزيٍ، وأخبرته بعد لحظة من الاستغراق في التفكير:

-للأسف هو عمل كده.

تقلصت تعابيره متسائلاً:

-إزاي؟ طلب منك حاجة معينة؟

قبل أن تتراجع عن رأيها، تسلحت بشجاعتها لتطلعه على الحقيقة، وقالت بلعثمةٍ خفيفة:

-هو .. فبرك فيديوهات ليا، وبيهددني بيها...

اختنق صوتها، وظهرت به لمحة من العصبية حينما تابعت مؤكدة، وعيناها تلمعان بعبراتٍ حبيسة:

-بس أقسم بالله مش أنا اللي موجودة فيها.

لم يشكك في أقوالها، وطمأنها بهدوءٍ:

-سهل نثبت تزييفها، وبالعكس ندينه كمان بيها، ما هو التكنولوجيا زي ما فيها الجانب الإيجابي فيها برضوه الجانب الوحش.

تشعبت روحها المستنزفة بقدرٍ من إحساس الارتياح، وسألته بلهفةٍ:

-بجد يا "ماهر" بيه؟

رد دون جدالٍ:

-أيوه طبعًا، وأكتر من كده كمان، هنسجنه، كل بس اللي عايزه منك، تمثلي دورك كويس.

سرت عدوى الارتجاف في بدنها، وانتشرت في كامل أوصالها. بلعت ريقها في حلقها الجاف، ونظرت إليه قائلة:

-بس أنا خايفة.

بتمهلٍ خاطبها:

-طبيعي تخافي، لكن أنا واثق إنك هتنجحي.

لم تكن متيقنة من نجاحها، شعرت بمزيدٍ من الخوف يزحف إليها، انتبهت له مجددًا عندما أكمل:

-في جزء يخصنا هنقوم بيه، من تأمينك، وزرع أجهزة تنصت عالية الدقة في المكان، وجزء تاني عليكي.

انزوى ما بين حاجبيها وهي تسأله:

-إيه هو؟

جاءها جوابه واضحًا، ومباشرًا:

-اعتراف شفهي منه بجرايمه.

احتجت باستهجانٍ كبير:

-حضرتك بتطلب مني المستحيل...

ثم توقفت لهنيهةٍ عن الكلام، قبل أن تضيف، وهي تشير بيدها:

-ده حاول يقتلني عشان بوظتله جهاز، إزاي هقدر أخليه يعترف ببساطة إنه آ...

بملامحٍ جادة قاطع استرسالها:

-بالحيلة يا "فيروزة"، أومال احنا قولنا هتدعي إنك فاقدة الذاكرة ليه؟ ودي مهمتك تستخدمي مهارتك كزوجة جميلة في استدراجه.

حملقت فيه مطولاً بعينين تائهتين، ما لم يعلمه الضابط "ماهر" أو غيره، أن "آسر" أبعد ما يكون عن التأثر بمفاتنها الأنثوية، إن أرادت حقًا استغلالها في إثارته، وسلب عقله، فهي من وجهة نظره منقوصة الإغراء، لا تصلح إلا للسخرية والازدراء!

..............................................................

توسدت أحضانها، مستشعرة الدفء الأمومي النابع منها، بعد أن عشش الحزن قلبها وملأه بالهموم الثقيلة، فمنذ إطلاق سراحها، تبدلت أحوالها للأفضل قليلاً، وأصبحت في حالة من الغبطة والانتشاء، رغم قساوة الحقائق

المفجعة، إلا أن براءة والدتها عنت لها الكثير. أبعدت "آمنة" رأس ابنتها عن صدرها، ونظرت لها بحنوٍ، قبل أن تقول لها:

-مش كفاية بقى كده يا "همسة"؟

ارتمت مجددًا في أحضانها، وقالت بابتسامةِ رضا:

-عايزة أشبع منك يا ماما، إنتي مش متخيلة الأيام دي عدت عليا إزاي.

تنهيدة معبأة بأوجاعٍ كبيرة تحررت من صدرها، لتقول بعدها:

-الحمدلله، ربنا أظهر الحق، واتنصفت في النهاية، مع إن قلبي موجوع على ولاد أخويا.

اعتدلت "همسة" في جلستها، وحدقت في والدتها بنظراتٍ منزعجة وهي تردد:

-ربنا ما يسامحها، هي اللي عملت فيهم كده، قلبها الإسود خلاها تيجي على الكل، وتأذي الأقرب ليها.

تساءلت "آمنة" في توترٍ، وعيناها تفتشان عن الطفلة:

-أومال فين "رقية"؟ أنا مش سمعالها حس.

ابتسمت وهي تخبرها:

-موجودة عند الحاج "بدير".

حل الضيق على ملامحها، وهتفت في إنكارٍ حرج:

-يادي العيبة، كمان مشيلينه هم البت؟

ردت موضحة الأمر لها:

-لا بالعكس يا ماما، ده بيعاملها ولا كأنها حفيدته.

همّت بالنهوض، وقالت في عزمٍ:

-طب تعالي نروح نجيبها، وبعد كده نطلع على أبوها، ميعاد زيارته جه.

هزت رأسها هاتفة:

-ماشي.

تساءلت "آمنة" وهي تتجه نحو غرفة نومها بقلبٍ ظل مشغولاً على قطعة منها:

-مافيش جديد برضوه عن "فيروزة"؟

ضمت شفتيها في أسفٍ، قبل أن تنطق نافية:

-لأ يا ماما.

رفعت والدتها رأسها للسماء، لتتضرع للمولى في رجاءٍ كبير، وذاك الهاجس مازال يزعجها:

-استرها يا رب عليها.

..............................................................

راقبه من مسافة شبه آمنة، تحول دون رؤيته له؛ لكنه ضجر من الانتظار والترقب، كان يريد الصعود إليها، فما معه من أموال قد نفذ، وباتت هي مصدره المتاح للإتيان بما ينقص عليه. استغرق "محرز" في أفكاره اللئيمة، إلى أن وصل

لفكرة داهية، حتمًا ستكون لها مفعول السحر، في إعطائه الغطاء الجيد، لذا بمجهودٍ بسيط، وحيلة مستهلكة، ادعى بالكذب قيام ذاك الشاب المرابط أمام بناية "بثينة" بالتربص بالفتيات، يعاكسهن جيئة وذهابًا، بكلماتٍ خادشة للحياء، فاستثار حمية الرجال، والتفوا حوله يتجادلون معه، مما منحه فرصة ذهبية للتسلل إلى الداخل. قفز الدرجات علوًا ليصل إلى طابقها، ودق الباب منتظرًا فتحها له، لم يجد أي استجابة منها، فاختلج وجهه تعابير الغضب، ولعنها بألفاظٍ نابية، قبل أن يتوعدها:

-وربنا ما هاسيبك، مش بعد العز اللي دوقتيه على إيديي تطنشيني دلوقتي.

توارى في بقعة معتمة بالطابق العلوي عندما سمع وقع أقدام آتية من الأسفل، رفع رأسه يراقب القادم بحذرٍ شديد، تقوست شفتاه ببسمة شبه فرحة، وقد لمح "بثينة" تدس المفتاح في القفل، منتظرة أمام عتبة منزلها مع ابنتها، همهم لنفسه في نشوةٍ:

-ده أنا حظي من السما.

بمجرد أن قامت بفتحه، حتى وثب في خفةٍ، وتبعهما سريعًا، ليلحق بهما قبل أن تقوما بغلقه. شهقت "خلود" في فزعٍ، عندما شعرت بيدٍ تجذبها من حجاب رأسها، انتزعه عنها، ودفعها للأمام ليتمكن من وصد الباب ورائه، جحظت بعينيها في ارتعابٍ عند رؤيته، وزاد اتساع بؤبؤيها مع إشهاره لمديته الحادة، شُل تفكيرها لحظيًا من أثر المفاجأة، وقبل أن تفكر في الهروب قبض عليها

بذراعه، لفه حول عنقها، ولامس بطرف المطواة الحاد جلد عنقها. قاومته "خلود" برجفةٍ عظيمة، ثم صرخت مستغيثة بوالدتها:

-الحقيني يامه!

عادت "بثينة" إلى ابنتها، وهي تحمل في يدها حقيبة يدها المعبأة بالمشغولات الذهبية، تفاجأت هي الأخرى بوجوده في صالة منزلها، ارتخت أناملها عن الحقيبة، وظهرت أمارات الرعب على ملامحها، كانت على وشك الصراخ، لولا أن حذرها مهددًا بلهجةٍ صارمة:

-لو فتحتي بؤك، هادبح بنتك قصادك.

تحولت أنظارها المذعورة نحو "خلود"، لم يكن بالمازح، وطرف ذاك النصل الحاد يغرز في عنق ابنتها. كتمت بظهر كفها فمها، لتومئ بعدها برأسها كتعبيرٍ عن طاعتها التامة له. تحرك "محرز" في اتجاهها، ساحبًا معه ابنتها الأسيرة، مُخاطبًا إياها بلومٍ:

-مش قولتلك هاجيلك تاني، افتكرتيني بهزر معاكي؟

هزت رأسها بالنفي، فصاح متسائلاً بتشنج:

-فين الفلوس؟

تقطع صوتها وهي تخبره كذبًا:

-ملحقتش أجيب حاجة.

رمقها بتلك النظرة النارية، ليهدر بها بهياجٍ:

-عليا بردك؟ ده إنتي نايمة على كنز يا ولية، أومال الألوف اللي كنتي بتاخديها مني راحوا فين.

واصلت كذبها بقولها:

-مش هنا يا "محرز".

هدير صوته المنفعل ارتفع أكثر حينما سألها:

-أومال فين؟ شكلك عايزة تخلصي من بنتك..

ثم غرز النصل أكثر في جلدها لتصيح "خلود" في ألمٍ، نظرت الأخيرة إلى والدتها، وفي عينيها استجداءٍ مرتعب، ثم رجتها بشدة:

-إديله يامه اللي هو عايزه، بدل ما يموتني...

وقبل أن تختلق كذبة مكشوفة، بادرت "خلود" مقترحة عليه:

-دهبي موجود في شنطة أمي، خده يا "محرز"، كله ليك، أنا مش عايزاه.

برقت عيناه في اهتمامٍ، بينما انحنت "بثينة" تمسك بالحقيبة، ضمتها إلى صدرها؛ وكأنها ترفض المساومة به مقابل حياة ابنتها. صاح "محرز" يأمرها:

-هاتي الشنطة يا ولية؟

سألته بعينين بارزتين، وقد ازداد تشبثها بالحقيبة:

-هتعمل بالدهب ده كله إيه؟ ده حق بنتي، اللي طلعت بيه من جوازتها.

بينما هتفت "خلود" تتوسلها، وهي ترى بأم عينيها جدالها العقيم معه:

-يامه إديهوله.

ألصقت "بثينة" الحقيبة بصدرها أكثر، وصرخت في ابنتها:

-إنتي مش فاهمة حاجة، "محرز" ده طماع، خربها على نفسه، وعايز يخربها علينا احنا كمان.

أدرك "محرز" من تصرفها الأرعن، أنها لن تمنحه ما يريد، إن لم يكن جادًا في تهديده، لهذا مرر النصل بقساوة على عنق ابنتها، قاصدًا إحداث شقًا غائرًا فيه، وهو يقول لها بنظراتٍ امتلأت بقساوةٍ خالية من الرحمة:

-الظاهر إنك مستغنية عن بنتك.

اللون الأحمر القاني الذي تفجر بغزارة من جلد ابنتها، أكد لها تنفيذه الصادق لتهديده، خاصة بعد أن تركها تصارع الموت، لوسة عقلية أصابت "بثينة"، بعد رؤيتها للمشهد الدموي العنيف، صرخت في هلعٍ، واندفعت نحوه تهاجمه؛ لكنه تفاداها بمهارةٍ، ومد قدمه ليعرقلها، فتكومت بجسدها الممتلئ بالشحم على الأرضية، وقبل أن تستفيق من صدمة ارتطامها الموجع، كان مُطبقًا على فكها، يعتصره بقبضته بقوةٍ. رفع "محرز" مديته للأعلى، وبنفس النصل الملوث بدماء ابنتها، غرزه بوحشيةٍ في لسانها قاصدًا قطعه، وهو يخبرها بصوتٍ كالفحيح:

-كنتي اشتريتي حياتك وحياة بنتك يا خالتي ..................................
!!

لجزء
الثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الرابع والثمانون

في العمر لحظة، يحسم فيها الإنسان اختياراته؛ إما بالسير على طريق الصراط، أو الانحراف نحو غياهب الضلال، وقد كان اختياره! ما زالت قبضة "محرز" تعتصر فك ضحيته الجديدة، أكمل قطع لسانها في لمح البصر، مثلما اعتاد أن يقطع ثمار الفواكه عن أغصانها العالقة في سرعة وحرفية، ووسط الدماء المتفجرة من فمها تابع لومه لها:

-حياتكم مكانتش تسوى شوية دهب يا خالتي؟!

تلوت "بثينة" بألمٍ شديد، وعيناها تبكيان في حرقةٍ أشد، كتم بيده صراخها المبتور، وعلى وجهه تلك النظرة المظلمة، اعتدل في وقفته، ناظرًا في اتجاه "خلود"، وجدها تسير بتعثرٍ، تترنح في خطواتها كلما سارت للأمام، أدرك أنها تحاول الفرار منه قبل أن يطالها، كانت كلتا يديها حول عنقها النازف، همَّ باللحاق بها؛ لكن أوقفته "بثينة" بالتعلق في ذراعه، فما كان منه إلا أن غرز المدية مجددًا في صدرها، ليصدر منها خرير متحشرج.

تحرر منها بسهولةٍ، ولحق بابنتها التي أمسكت بالمقبض، وقبل أن تديره التف ذراعه حول رقبتها، جذبها بقوته الجسدية للخلف، وأعاد وضع النصل الحاد على جرحها الغائر ليكمل نحر عنقها، وهسيس صوته يُخبرها في أذنها:

-أمك حكمت عليكي بالموت!

اجتاحها ألمًا حارقًا ألهب أنسجتها الجريحة، مع زيادة تعميقه للنصل، حينها مر شريط ذكرياتها أمام عينيها، بكل حلوه ومُره: طفولتها المذبذبة، عزاء أبيها المحترق، آمال مراهقتها المُطعمة بالزواج من الرجل الوحيد الذي نذرت له قلبها، خطبتها لـ "تميم"؛ فارس أحلامها، إيداعه السجن، انتظارها الطويل، لقائها معه الخالي من حرارة الاشتياق، ليلة زفافها، افتقارها لنشوة الحب في حياتها، تلهفها على الإنجاب، دسها لحبوب الدواء في طعام زوجها، شكوكها عن حبه لغيرها، خبر حملها، تلاه انفصالها، قتلها لما كان ينمو في أحشائها، انغماسها في أحزانها.

رن في أذنيها كلام "تميم" الأخير لها، فتسابقت عبراتها المقهورة، وامتزجت بالدماء الساخنة، كانت في أعماقها تخشي من مواجهة الحقيقة، لم يكن يُحبها، ومع رحيلها المؤسف لن يذرف العبرات لفراقها، ستغدو سرابًا بمضي الأيام؛ وإن حزن عليها قليلاً، غمرها المزيد من القهر، لتخرج بعدها شهقة أخيرة محملة برائحة الموت .. بأهةٍ مفطورة الفؤاد على حياة سلبت منها عنوة، ولم تنل في نهايتها إلا الشقاء، فارقت "خلود" الحياة للأبد.

..............................................

تراخت أطراف "خلود"، وهمد جسدها كليًا خلف ذراع "محرز" القابض عليها، لم يحفل للحظة، ولم تطرف عيناه رهبةً؛ وكأنما اعتاد على ذبح الأبرياء كلما تعارض وجودهم مع مصالحه. سحبها للخلف، وأسند ظهرها على الحائط، ليلقي نظرة أخرى على والدتها الغارقة في دمائها. جثا على ركبته ليتفقدها؛ لكن

جذب أنظاره وهج الذهب البارز من حقيبتها، زحف سريعًا إليه؛ وكأنه تذكر سبب مجيئه منذ البداية بعد أن التهى بهما، نظر إلى القطعة المغرية بعينين طامعتين، قبض عليها بيده الملوثة بالدماء، برقت حدقتاه في توترٍ، عاد الآن إلى رشده، وأدرك أن بقائه في هذا المنزل قد طال كثيرًا.

مسح يده في سترته الداكنة، ليخفف من الحمرة العالقة بها، ثم خبأ الحقيبة بداخلها، أسفل إبطه، ليهرع بعدها خارج المنزل، دون أن يهتم بغلق الباب ورائه، هبط الدرجات بخطواتٍ قافزة، اصطدم بإحدى الجارات وهي في طريقها للصعود للأعلى، نهرته بتزمتٍ، محاولة رؤية ملامحه:

-ما تبص قدامك، متسربع على إيه؟

لم تتمكن من تبينه، فمصمصت شفتيها، وأمسكت بالدرابزين متابعة صعودها وهي تدمدم بتبرمٍ:

-معدتش حد بيراعي الأصول أبدًا.

وقفت تلتقط أنفاسها بعد هذا المجهود المرهق لجسدها المسن، عند بسطة الدور التالي، قطبت جبينها، وضاقت نظراتها في اندهاشٍ، فقد لمحت باب جارتها "بثينة" موارب، دفعها الفضول للاقتراب، ورؤية ما يدور بالداخل، خاصة مع انتشار بقع حمراء اللون على طول البلاط، وقبيل العتبة. أسندت يدها على الكتلة الخشبية لتحركها، وصوتها العالي يُنادي بألفةٍ:

-يا "أم هيثم"؟ إنتي جوا ياختي؟

وما إن فتحته، حتى اتسعت عيناها على آخرهما في فزعٍ لم تجابهه طوال سنوات عمرها، تراجعت للخلف وهي تنتفض، ثم صرخت صرخات متعاقبة بها استغاثات مليئة بالهلع:

-يا نصيبتي! الحقونا يا خلق هووووو! قتلوهم!

أحدث صراخها المرتفع صخبًا مدويًا، جعل الأبواب المغلقة تُفتح على مصرعيها.

.................................................

بأعجوبةٍ أفلت من الإمساك به، عبر تسلله الخفي من منور البناية الخلفي، ليجد نفسه في الشارعِ الجانبي، ومنه انتقل إلى الأزقة الضيقة، إلى أن بات في مأمنٍ من أي تهديد من السكان، ومع هذا لم تهدأ دقات قلبه. انزوى "محرز" في بقعة معتمة، مخفية عن الأعين، نظر إلى يده المرتعشة، كور أصابعه ليتحكم في تلك الحركة اللا إرادية، أمعن النظر في الحمرة العالقة بكفه، ليشرد لحظيًا ويتحول كل شيءٍ إلى أطيافٍ وذكرى، خُيل إليه أنه عاد إلى سنوات طفولته الأولى، وفي أذنيه ترن الهمهمات المألوفة لأناسٍ رحلوا منذ زمنٍ عنه، عندما كان يعطف عليه أثرياء بلدته بالقديم من الثياب، والفضلة من الطعام. لم يفهم شيئًا آنذاك؛ لكنه كان سعيدًا بما يجودون عليه، معتقدًا أن ذلك السخاء نابعًا من محبتهم له، فيما بعد أدرك أنه من إحسانهم عليه.

نقم "محرز" حياته الفقيرة المعدمة، تلك التي جعلته في أنظار الآخرين من ذوي العوز والحاجة، لا فارق بينه وبين المتسول المشرد سوى بأن والده يعمل كأجير لدى واحدًا من الأعيان، تصادق مع ابنه، ولازمه أغلب الوقت، فلم يعرف

غيره. شاع التجهم في محياه وقد طفى في عقله ذكرى طمرها في أعماقه، تجسد المشهد بكامل تفاصيله في وعيه، ليجد نفسه في عمر الثانية عشر- مع صديقه الوحيد، ينتظر منحه بالفتات المتبقي منه ليصير مثله، وعلى غير المتوقع نشب بينهما شجارًا من العدم، خلال تواجدهما بالقرب من المصرف الزراعي القديم، حينما مازحه رفيقه بنوعٍ من التفاخر، وهو ينظر للسماء التي اتشحت بالسواد:

-أبويا أغنى واحد في الناحية دي، يقدر يشتري أي حتة يشاور عليها بالناس اللي فيها.

رد ساخرًا منه:

-مش للدرجادي.

أطلت نظرة احتقارٍ منه قبل أن يرد بوقاحةٍ؛ وكأنه يعايره:

-إيش فهمك إنت، إذا كان أبوك وعيلتك كلها شغالين عندنا بالأجرة.

بدأ الغضب يتصاعد في صدره، وحذره بأنفاسٍ مختنقة:

-بلاش الكلمة ده!

علق بنفس أسلوب الازدراء ليستفزه:

-ما دي الحقيقة، وإنت نفسك شاحت اللي لابسه مني.

هدر به في عصبيةٍ:

-أنا مش شحات.

ضحك ساخرًا منه قبل أن يهينه:

-بلاش النفخة دي، أومال جايب الجلاليب دي منين؟ من أبعدية أبوك؟

كور قبضته ضاغطًا على أصابعه حتى ابيضت مفاصله، تنفس بعمقٍ، وانعكس على وجهه حمرته الغاضبة، أطلق زفرة بطيئة –ومسموعة أيضًا- من بين أسنانه، أنذره بعدها بصدرٍ يطق فيه الحنق الشديد:

-متغلطش أحسنلك!

أولاه الأخير ظهره، بعد أن رمقه بنظرةٍ متعالية، ثم قال بنبرة غير مبالية، لا تخلو من الاحتقار:

-اتكلم على أدك يا "محرز"، اللي زيك هايعيشوا ويموتوا خدامين عند اللي زينا.

بلغ غضب "محرز" أقصاه، وبات يسمع دقات قلبه المتلاحقة، لم يتحمل إهاناته الجارحة، أراد إسكات صوته المقيت المحتقر لشخصه، فوقعت أنظاره على حجرٍ مهمل على الأرضية الطينية، انحنى ليلتقطه، كان قاسيًا، وحاد الأطراف في راحته. قبض عليه بشدةٍ، وتبع رفيقه المتغطرس رافعًا الحجر للأعلى، لم يتردد للحظة حينما هوى به على رأسه قاصدًا سحقها، صرخ الأخير من الألم المفاجئ، ووضع كلتا يديه على موضعه؛ لكن عاجله قاتله بضربة أخرى قوية، أفرغ فيها كل ما يحتويه صدره من حقدٍ وغل، ولسانه يصرخ فيه:

-أنا مش خدام عندك، مش خـــدام!

استمر في عنفه المميت حتى هشم عظم رأسه، وجعله يهلك صريع الغدر، أفاق من نوبة هياجه على منظر الدماء المتفجر، واللحم المتناثر. هلع في ارتعاب، وألقى بالحجر على الأرضية الطينية، ناظرًا إلى راحته التي امتلأت بالشقوق والجروح الغائرة.

انهار جالسًا قبالته، يحدق فيه بعينين ضائعتين، فاقدًا إحساسه بما حوله، تخشب كامل جسده، وبدا كالأصنام في جموده، استمرت تلك النظرات الشاردة على وجهه الشاحب، يراقب جثمان رفيقه الوحيد في صمتٍ، لا يعرف ماذا يفعل، غمره شعورًا عظيمًا بالندم، بكى مقتله، وأبدى حزنه على خسارته، لكن صدى كلماته الجارحة عاد ليفسد توبته قبل أن تبدأ، فتوقف عن البكاء، وتطلع إليه بوحشية، ليدمدم بعدها بصوته الباكي؛ وكأنه يلقي بالذنب عليه:

-إنت اللي عملت في نفسك كده! أنا قولتلك بلاش، بس إنت ماسمعتنيش.

أخذ يردد تلك العبارات مرارًا وتكرارًا على أمل أن ينبعث مجددًا ليخبره بعفوه عنه؛ لكن فاضت الروح لبارئها، وبقيت يداه ملوثة بدمائه. فزع لرؤيتها على جلده، فغمسها في الطين علها تزيل آثارها القاتمة، وصوت أنفاسه اللاهثة يصدح في سكون الليل، يقاطعه صوت خرير المياه الجارية في المصرف. بقي على تلك الوضعية المضطربة لوقت طويل، استغرق في أفكاره السوداوية حتى لم يعد يدرك كم مضى عليه وهو جالس هكذا، في الأخير سول له شيطانه التخلص منه، ليواري الثرى عن جريمته، وإلا لهلك معه، لهذا استجمع نفسه،

وقام بسحبه من ذراعيه نحو حافة المصرف، ليلقي بجثمانه في المياه، وما هي إلا لحظات وابتلعته ظلمتها الباردة.

وقتها عاد إلى كوخه مرتعشًا، محمومًا، في حالة من الهذيان والرعب، ظن والده أن مسًا من الجنون أصابه، بناءً على التخاريف المنتشرة آنذاك، ولم يظن أحدهم أن ما طاله جراء شعوره المتعاظم بالذنب. لاحقًا طفت جثة القتيل على سطح المياه في إحدى البلدات المجاورة، فاعتقدوا أنه تعرض للسرقة والقتل، على يد أحد قطاع الطرق، ولم يتم التوصل إلى شيء يدين شخصًا بعينه، لتؤيد بعدها القضية ضد مجهول.

أفاق "محرز" من شروده على صوت أبواق متلاحقة، انتبه إلى نفسه، وانتظر هدوء الحركة من حوله، ليشرع بعدها في مواصلة هروبه قبل أن يتم الإمساك به.

..............................................................

كقنبلةٍ مدوية انتشر الخبر المفجع في أرجاء المنطقة، وتزاحم مئات الأشخاص حول البناية لرؤية ما حدث، وكأن سبقًا صحفيًا بالمكان، كما تواجدت عربات الإسعاف لنقل الضحيتين، وفرض أفراد الشطرة طوقًا أمنيًا حول مسرح الجريمة ريثما يتم الوقوف على أبعادها الغامضة، وبدأ المحققون في استجواب الجيران والمارة، لجمع المعلومات المتاحة، علها تفيد في سرعة القبض على مرتكبها.

روع "هيثم" وانفطر قلبه، مستعيدًا في ذهنه نفس الذكريات المؤلمة، فور سماعه لتلك الأخبار القاسمة للأظهر؛ هرع إلى منزل أبيه، لا يعرف كيف بلغه،

اخترق الحشد، وقلبه يئن في حسرةٍ، بلغ الطوق الأمني، لكن منعته الشرطة من اجتياز الحواجز، صرخ بهياجٍ وهو يحاول المرور رغمًا عنهم:

-دي أمي وأختي.

أشفق عليه الحاضرون، وتدخل أحد الضباط ليهدئ منه، قائلاً بنوعٍ من المواساة:

-شِد حيلك، واحنا مش ساكتين.

هدر في ألمٍ شديد:

-هتعملوا إيه؟ وسعوا خلوني أشوفهم.

تفهم الضابط لطبيعة انفعالاته، فالفاجعة ليست هينة، نظر إليه في أسفٍ، وربت على كتفه، بينما تجمع حوله عددًا من رجال عائلة "حرب"، ممن أرسلهم "منذر" لدعمه، الوقوف إلى جواره، وكبح جموحه ريثما يصل إليه، بعد أن اتخذت مؤامرة هذا القاتل شكلاً دمويًا رهيبًا.

..............................................

انهمرت الدموع من عينيها بغزارةٍ، وهي تجلس في مقاعد الانتظار بالمشفى تنتظر سماع ما يطمئنها عن شقيقتها وابنتها، بعد أن تم نقلهما إلى هنا، ذاك المكان الذي بات مستقرًا لكل من له صلة بها، لم يتوقف لسانها عن الدعاء، توسلت للمولى بكل ما تحفظه من عبارات مستجدية، على رجاواتها تستجيب، التفتت "ونيسة" نحو ابنتها "هاجر"، لم يختلف حالها عنها كثيرًا،

فلطالما أحبت "خلود" وخالتها، على الرغم من عيوبهما، كانت بمثابة الأخت القريبة منها. انتفضت كلتاهما واقفتان عندما لمحتا الطبيب من على بعد، وجهه كان مرآة لأسفٍ كبير، ملامحه لم تنطق إلا بالوجوم، فالأخبار غير مبشرة، تحمل في طياتها الموت والحسرة، وقبل أن تصرخ إحداهما حذرهما "بدير" بلهجةٍ شديدة:

-مش عايز صوات، ده مقدر ومكتوب.

هدرت فيه "ونيسة" بحرقةٍ متألمة:

-دي أختي وبنتها يا حاج.

قال رغم يقينه بأن الأسوأ قادم:

-ربنا قال فصبرٌ جميل.

بلعقت العلقم المرير في حلقها، وردت بنحيبٍ:

-ونعم بالله.

تقدم الطبيب بخطواتهِ، أظهر وجهه وجومًا واضحًا، بحث بنظراته عمن يمكن أن يخبره بالتطورات، وكانت المبادرة من "بدير" الذي سأله:

-طمنا يا دكتور؟

في الخلف كان يقف "هيثم" مستندًا بظهره على الحائط، وإلى جواره زوجته، تردد بكلماتٍ مواسية مؤازرة، لم يسمع منها شيئًا، فعقله لم يكن معه، كان

معلقًا بمن في الداخل، استقام في وقفته، واندفع نحو الطبيب بمجرد رؤيته، ليهتف بلوعةٍ:

-أخبارهم إيه يا دكتور؟ في جديد؟

نظرة الأسى في عيني الطبيب كانت غير قابلة للتشكيك، أنبئه قلبه بفجيعة أشد وطأة، وقد صار ما خمنه، فتكلم قائلاً بتمهيدٍ:

-حضراتكم عارفين إن احنا عملنا اللي علينا وزيادة عشان ننقذهم؛ لكن مشيئة ربنا فوق كل شيء...

حبسوا أنفاسهم في ترقبٍ، فأكمل على مهلٍ، وقد أطرق رأسه للأسف متحاشيًا نظراتهم:

-للأسف مدام "خلود" كانت واصلة المستشفى ميتة، ومقدرناش نسعفها...

شهقات ما بين مكتومة وظاهرة خرجت من أفواه النساء، تبعها صوت "بدير" المردد في صدمة:

-لا إله إلا الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

في حين تجمد "هيثم" في مكانه؛ وكأنه لم يستوعب بعد رحيل شقيقته، حملق فيه بعينين فارغتين، تحجزان العبرات في حسرةٍ، وضعت "همسة" يدها على كتفه تضغط عليه، وصوت نحيبها الصامت يتسلل إلى أذنه؛ لكنه بقي على حالته المنكسرة، غير واعٍ لما يُقال. لعق الطبيب شفتيه، وواصل الإضافة بحذرٍ:

-والوالدة في العناية، عندنا أمل كبير في نجاتها، ادعولها.

نظرة خاطفة مررها على الأوجه الناظرة إليه، قبل أن ينسحب في عجالةٍ بعد انتهاء مهمته الشاقة، تاركًا إياهم يتجرعون مرارة فقد الأحبة، وعذاب فراقهم.

..............................................................

جاءته الأخبار غير كاملة من رفيقه "منذر"، عن الاعتداء الغاشم من "محرز" على خالته وابنتها، ورغم ما بينهما من خلافات، إلا أنه لم يكن ليقبل أبدًا أن تنتقل المعارك لتضم النساء؛ كان رفيقه حذرًا في إطلاعه عليها لبشاعتها؛ لكن الأول لم يصمد لسماع المزيد. حاول "تميم" النهوض من رقدته التي طالت على فراش المرض، وقال بإصرارٍ عنيد، رافضًا المكوث بالمشفى، والإصغاء لصوت العقل:

-أنا عايز أخرج دلوقتي.

تدخل الطبيب لمنعه، وجاهد لإثنائه عن رأيه، فأخبره معترضًا

-مش هاينفع، في خطورة عليك، الكسور مش سهلة وآ...

قاطعه بعنادٍ أكبر:

-إن شاء الله أموت، مش هافضل هنا لثانية واحدة.

تعثر "تميم" في وقفته، وفقد اتزانه، فأسرع "منذر" لإسناده؛ لكنه لكزه رافضًا الشعور بالعجز، ربت عليه ورجاه:

-اهدى بس، واللي عايزه هيتعمل.

احتدت نظراته أكثر، والتفت يرمق الطبيب بعينين صارمتين، ليهتف بعدها بخشونة:

-سمعتني، أنا هاطلع حالاً!

وقف الطبيب حائرًا أمام إصراره، فاقترح "منذر" لتسوية الأمر:

-هو هيتابع من البيت، اطمن يا دكتور، كلنا جمبه.

استسلم قائلاً على مضضٍ:

-ماشي، بس لازم يبقى في متابعة.

رد "تميم" بفتورٍ، وهو يستند على عكازين طبيين:

-إن شاءالله.

أخفض "منذر" صوته طالبًا من رفيقه التعقل:

-ماتعملش في نفسك كده يا "تميم".

بصوته المحتقن سأله:

-ناقص يحصلنا منه إيه تاني؟

أكد عليه مشددًا على كلماته:

-هيتجاب.. والله هيتجاب!

نظر في عينيه قائلاً بحسم:

-يبقى وأنا واقف على حيلي، مش مرمي هنا.

ساعده على ارتداء ملابسه، وإنهاء الأوراق المطلوبة للخروج من المشفى، وقبل أن يصل الاثنان إلى الخارج، التقيا بـ "بدير"، تطلع "تميم" إلى والده باندهاشٍ قلق، وسأله بوجه المكتسب لعلامات الضيق:

-خير يابا؟ في حاجة تانية؟

أطرق رأسه للحظةٍ، كأنه يفتش عن كلمات مناسبة يستعين بها، لاحظ "تميم" تردد والده، فعمق من نظراته الفضولية نحوه؛ لكن لا مهرب من الحقيقة، رفع وجهه الحزين نحوه، وأخبره بوجومٍ:

-البقاء لله، بنت خالتك في ذمة الله.

وخزة مؤلمة اعتصرت قلبه، هتف غير مصدقٍ، بتعابيرٍ تحولت للشحوب:

-إيه؟ إزاي؟

..........................................................

مأتم وراء مأتم، اجتمع فيه الجيران قبل المعارف والأقرباء، لتقديم واجب العزاء فيمن له الصلة بتلك العائلة، وإن اختلفت أماكن التواجد، بالطبع كان على رأس الحاضرين "إسماعيل" وابنه، لمصاهرتهم مع "هيثم". جلس كلاهما متلاصقين، بعيدًا عن الحشد المتجمهر عند مدخل السرادق؛ وكأنهم يخططون لأمر خطير. مال "فضل" على والده يهمس له للفت انتباهه:

-بأقولك إيه يا حاج؟

ضاقت نظراته نحوه متسائلاً بصوتٍ خفيض:

-خير يا "فضل"؟

قال بسماجةٍ وفجة:

-مش تحس كده إن قدم بنات عمي شؤم.

رمقه والده بنظرة مستنكرة، قبل أن يوبخه:

-إيه الكلام الماسخ ده؟ مايصحش كده!

تابع سخافته الثقيلة، غير مبالٍ باستهجانه:

-الصراحة من يوم شبكة البت "همسة"، والمصايب نازلة ترف، فتحسها كده أقدام.

دمدم مغتاظًا منه:

-أعوذُ بالله منك.

انزعج من صده، وعاتبه:

-جرى إيه يا حاج؟ ده أنا بأفضفض معاك كده في كلمتين محشورين في زوري!

نهره والده بكلامٍ لاذع، وهو يصر على أسنانه:

-شغل الحريم ده تفكك منه يا "فضل"، وخليك راجل، تعرف امتى تكلم وامتى تسكت.

اعتبرها إهانة ضمنية لفحولته، فغمغم بتشنجٍ:

-ده أنا راجل غصب عن التخين، أومال كوم العيال دول جبتهم إزاي؟

لمحة من السخرية غطت تعابيره، قبل أن يوضح له بكلماتٍ ذات مغزى، تمنى أن يعيها جيدًا:

-الرجولة مش الخلفة وبس يا "فضل"، الرجولة حاجات تانية، بتظهر في المواقف، وتبين معادن الرجالة اللي بجد...

تراجعت أنظاره عنه، واختتم حديثه:

-يا ريت بس تفهمها.

..........................................................

في ركنٍ منزوٍ، اتخذ مقعده بعيدًا عن المعزيين، قاصدًا الاختلاء بنفسه، ووجهها اللائم بنظراتها الباكية يحتل مخيلته؛ وكأنها تدينه لتخليه عنها. توغل في أعماقه شعورًا كبيرًا بالذنب ناحيتها، اختنق صدره، واستبدت به هواجسه، فتفاصيل قتلها كانت مفزعة للأبدان، بدا على وجهه حزن راسخ، رفع "تميم" رأسه المنكس لينظر في اتجاه جده "سلطان" الذي استطرد قائلاً، وهو يجلس إلى جواره:

-وحد الله يا ابني.

أطلق زفيرًا طويلاً، وقال بغصةٍ موجعة:

-لا إله إلا الله.

تطلع الجد إلى وجه حفيده، رأى في عينيه ألمًا عميقًا، شعر بما يعتلي صدره من شجنٍ، فأردف يخبره وهو يربت على فخذه:

-ادعيلها يا "تميم".

بعينين تحجزان العبرات الرقراقة سأله:

-تفتكر أنا ظلمتها يا جدي؟

أجابه بهدوءٍ؛ وكأنه يفهم ما يدور في نفسه:

-كله مقدر ومكتوب.

مسح تلك العبرة المتسللة من طرفه، وتابع باختناقٍ ظاهر عليه:

-لو كانت فضلت على ذمتي مكانش الكلب ده مسها!

تطلع إليه الجد بنظراتٍ مطولة، ثم نطق بعد صمتٍ قليل:

-محدش يملك في نفسه حاجة، الأعمار كلها بيد اللي خلقها.

قال وشعوره بالذنب يعتصره:

-بس أنا قصرت معاها، جيت عليها جامد.

رد عليه بصوته الرخيم:

-يا ابني متحملش نفسك فوق طاقتها، كل واحد مولود ومعروف هيموت امتى وإزاي، وده نصيبها، مالناش دخل في اختيار ربنا.

طفرت العبرات بقوةٍ من عينيه، وقال بصوتٍ يملأه الشجن، باكيًا موتها:

-مش قادر يا جدي، حاسس إني ظلمتها أوي، لو كنت صبرت عليها، جايز كانت فضلت عايشة وسطنا.

هز رأسه معقبًا عليه:

-لا راد لقضاء الله، ادعيلها، وأذكرها بالخير.

لم يعد هناك ما يقال، ضغط "تميم" على شفتيه كاتمًا أنينه الحزين، بكاها في صمتٍ بمشاعرٍ صادقة. ارتفعت أنظاره للأعلى حينما حضر إليه "منذر"، ليخبره بلهجة جادة، وتلك النظرة الغائمة على وجهه:

-عرفنا مكانه يا صاحبي ................................ !!

.............................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الخامس والثمانون

ارتكن بظهره على الجدار الممتد لمدخل بنايته، بعدما انسحب بهدوءٍ من العزاء مستندًا على عكازيه الطبيين، بقي "تميم" لدقائق بمفرده، مترقبًا عودة رفيقه إليه، ونظراته تدور على الأوجه المارة من حوله. النظر في وجهه في تلك اللحظة يعني رؤية كافة تعابير الغضب، كظم ما يعتريه من مشاعر حانقة، ريثما تتضح له كافة الأمور الغامضة؛ لكن ما أراحه قليلاً معرفته لمكان اختفاء هذا النذل القاتل. انضم إليه "منذر" وهاتفه على أذنه، دون تأخيرٍ أنهى الاتصال، وأخفض يده ليتطلع إليه، استطرد قائلاً دون مقدمات استهلاليةٍ:

-اتنين من رجالتي قريبين من الحتة اللي هو موجود فيها، هيسبقونا على هناك ويستنونا.

علق متسائلاً باستهجانٍ يشوب صوته وملامحه:

-واحنا إيه معطلنا؟ ما نطلع نجيبوه على طول ابن الـ (...) ده!

أجابه موضحًا له بقليلٍ من التعقل:

-يخلص العزا وهنتوكل على الله، مش عايزين نلفت النظر لينا يا "تميم"، وخصوصًا إن في كذا حد من الداخلية هنا.

نفخ في سأمٍ رافضًا المماطلة وإضاعة الوقت هباءً، فكل دقيقة تمر تعنى منحه فرصة للهرب قبل الإمساك به. وضع "منذر" يده على كتفه، ضغط عليه بأصابعه مؤكدًا عليه:

-وربنا ما هيتساب.

سأله "تميم" بنوعٍ من الفضول:

-قولي إنت عرفت مكانه إزاي؟

جاوبه وهو يدير رأسه للخلف:

-من "ناجي".

تقطب جبينه في دهشةٍ، لينطق لسان حاله:

-ناجي؟!!!

أومأ برأسه بالإيجاب، وأكمل مسترسلاً:

-أيوه، رجالته "شيكاغو" و"حمص" قالوا إنهم شافوه في بلده القديمة.

ظلت تعابيره مليئة بأمارات الاندهاش، في حين أضاف "منذر" بوجهٍ مزعوج:

-ده غير إننا مسكنا واحد من العمال عندك في الدكان، كان مشغله عين ليه عليك، يبلغه بكل خطواتك!!

احتقنت نظراته، وحلت غمامة غاضبة على تعبيراته عندما هتف في حدةٍ:

-كمان، واحد من رجالتي دلدول عنده؟ وبيخوني؟

استياءٌ صريح انعكس على وجه "منذر" الذي تابع:

-هانقول إيه بس، في ناس كده (...) مايطمرش فيها اللقمة، وبعدين "محرز" ده طلع داهية، محدش يتوقع إن المصايب دي كلها يعملها.

عقب رفيقه بغصةٍ حارقة:

-اللي حازز في نفسي أكتر إني كنت مأمنه على أختي وأهلي ومالي، وفي الآخر يطلع (...).

أطلق "منذر" زفرة طويلة، تمتم بعدها:

-هو استغفل الكل، ووقت الحساب جه.

استقام "تميم" في وقفته، ومرر عكازيه أسفل إبطيه ليساعداه على السير، وقال بلهجةٍ قاتمة:

-شوفلنا العربيات يا "منذر"، أنا مش هاقدر أستنى لحد ما الناس تمشي، أبويا موجود وجدي، هما موجودين يسدوا مكانا.

أدرك صديقه أنه لن يستطيع إثنائه عن رأيه، فتنهد مرددًا:

-ماشي يا سيدي، هاشوف "دياب" وراجعلك.

تركه بمفرده ليستدعي شقيقه، ويرتب معه في عجالةٍ ما قد يحتاجون إليه للانتقال بالعدة والعتاد للقبض على "محرز". بجهد جهيد حاول "تميم" تثبيط الانفعالات الثائرة بداخله، فما زال إحساسه بالتراخي في حماية جزءٍ من عائلته يعذبه؛ وإن لم يعلم بعد بالمؤامرات الخبيثة التي حيكت ضده لإهلاكه.

.................................................

سحقًا لأمثاله من عديمي المشاعر، مقتنصي الفرص لإظهار الشماتة علنًا، هكذا كان "فضل"! يستمتع بنشوةٍ منفرة بإظهار نواقص غيره؛ وكأنما يخلو شخصه المقيت من العيوب، فحينما لمح "تميم" يقف بعكازيه، وعلامات الألم تبدو عليه كلما جاهد ليتحرك قليلاً على الرصيف، حتى أحس بسرور غريب يتفشى- في روحه العليلة، ظن أنها فرصته المناسبة لرد الصاع صاعين له، والاقتصاص منه لإهانته الوقحة له، بكلماتٍ تستثير غيظه، وتجعل في نفس الآن غير قادرٍ على مجابهته. دنا منه، ورمقه بنظرة استعلاءٍ متشفية، قبل أن يستوقفه صائحًا بنبرةٍ شبه هازئة:

-سلامتك يا .. معلم، مين اللي عَلم عليك كده؟ شكله واحد إيده طارشة، مايعرفش أبوه.

لم يكن مراعيًا لمشاعر غيره الحزينة، وقاحته تخطت المقبول، استدار "تميم" ليواجهه، ونظراته توحي بغضبةٍ على وشك الاندلاع فيه، زجره متسائلاً بصوته الأجش:

-عَلم عليا؟ إنت اتجننت يا بنى آدم؟

واصل سخريته منه، غير مكترث بتبعات لغو لسانه الأحمق:

-أومال اللي حصلك ده من إيه؟ أوعى تقول قشرة موزة مثلاً دوست عليها بالغلط وإنت بتنقل الأقفاص؟

هدر به "تميم" بخشونةٍ، وهو يرفع عكازه في وجهه ليهدده به:

-القفص ده هتلبسه في دماغك لو مغورتش من قدامي.

أزاحه "فضل" بيده، قاصدًا دفع "تميم" بعدائية للخلف لطرحه أرضًا، رغم كون الأخير قد حافظ على اتزانه، إلا أن ذلك الوغد تابع استفزازه البارد بقوله السمج:

-بالراحة يا معلم، لأحسن عروقك تطق، وإنت شكلك مش حِمل خناقة تانية.

وقبل أن يضيف المزيد من العبارات المهترئة التف بغتةً حول عنقه ذراعًا قوية، لم يستطع المناص منها، فشل رغم محاولاته إبعاده، وأصبح أسيرًا لمن لم يستطع رؤية وجهه. ضغط "منذر" بعضلات ذراعه أكثر عليه، ليحبس الهواء عنه، وتساءل بهدوءٍ؛ وكأنه يتعمد إذلاله، وإظهاره بحجمه الحقيقي:

-في إيه "تميم"؟ قولي الشِوال ده مضايقك في حاجة؟

أجابه بتجهمٍ:

-شايف نفسه البغل.

تلوى "فضل" بجسده الممتلئ، وعجز عن تحرير نفسه، فقال بصوتٍ مختنق، وبوجهٍ مشتعل في حمرته:

-أوعى كده..

سدد له "تميم" نظرة استحقارٍ، بينما أكمل "منذر" كلامه، بنفس السيطرة المطلقة، قاصدًا إهانة هذا السمج:

-ما تسترجل يا جدع، وتنشف كده؟ هو أنا لسه عملت حاجة، ولا إنت بتقلب حُرمة لما بتشوف الرجالة اللي بجد؟

زادت مقاومة "فضل" لقسوته، وبدا على وشك البكاء من شدة الألم، تدخل "دياب" في الحوار قائلاً بتسلية:

-لأ سيبهولي يا "منذر"، أنا إيدي بتاكلني عايز أضرب حد، ومعنديش مشكلة أعلقه على باب العمارة.

ولأن الموقف لا يتحمل المزيد من التهكم، فأنهى "تميم" تلك السخافة هاتفًا بوجومٍ:

-سيبوه!

هز "منذر" رأسه احترامًا لرغبته، وتركه مع دفعةٍ غليظة للأمام، ليستدير "فضل" لمواجهته، رآه يفوقه طولاً وحجمًا، بالكاد إن تلقى لكمة طائشة منه لأعاد ترميم قسماته، بلع ريقه، وصاح بصوتٍ مهتز حاول أن يحفظ به ماء وجهه المُراق:

-إنتو مجانين.

استشعر "منذر" رهبته، وسأله بنظراتٍ مهددة:

-مش كنت عامل فيها دكر؟ خوفت ليه؟

تراجع بعيدًا عن محيطه خطوتين، وقال بلجلجة بائنة وهو يشير بيده نحو "تميم":

-أنا .. كلامي مش.. معاكو.

على الجانب الآخر، اندفع "هيثم" خارج البناية، بخطواتٍ مهرولة أقرب للركض، ومن خلفه زوجته تحاول اللحاق بخطاه السريعة، لم يكن في حالةٍ جيدة، غضبه خرج عن حدود السيطرة، وربما إن تركته بمفرده لارتكب من الحماقات من قد يودعه في غياهب السجن. توسلته وهي تسعى لإيقافه بالتعلق بذراعه:

-استنى يا "هيثم"، عشان خاطري ماتروحش وإنت في الحالة دي.

نفض ذراعها، والتفت يحدجها بنظرة مشبعة بجمرة ملتهبة وهو يقول في تهكمٍ سافر:

-عايزاني أقعد مع الحريم أولول جمبك؟

انزعجت من حدته، ولم تعاتبه تقديرًا منها لحالته النفسية؛ لكنه أكمل بنفس اللهجة المنفعلة:

-وطبعًا أسيب الكلب اللي قتل أختي كده عايش حياته ومبسوط؟

ردت برجفةٍ طفيفة، أظهرت خوفها عليه:

-لأ، بس مش عايزاك تودي روحك في داهية.

رفع إصبعه أمام وجهها، وأخبرها بلهجةٍ عبرت عن ألمه العميق:

-حق أختي هاجيبه يا "همسة"، مش هاسيب دمها ولا دم أمي يروح هدر...

أدمعت عيناها تأثرًا، فأضاف بنبرةٍ متشددة:

-واطلعي يالا على فوق.

أصرت على البقاء معه رغم تحركه، تبعته من جديد، وهتفت محتجة:

-لأ يا "هيثم"، مش هاطلع، ومش هاسيبك تضيع نفسك إنت كمان.

تجاهلها متجهًا إلى "تميم" ومن معه، وصوته الآمر يرن عاليًا:

-اطلعي فوق

توقفت "همسة" عندما رأت ابن خالته ورفاقه، استعطفتهم برجاءٍ:

-بلاش تتهوروا، وخلوا الشرطة تجيب حق اللي راح، إنتو في غنى عن المشاكل.

تكلم "تميم" قائلاً دون أن ينظر في اتجاهها:

-المشاكل جت عندنا من زمان.

صاح "هيثم" بها موبخًا إياها:

-متوجعيش دماغي، هي كلمة، اطلعي اقعدي فوق.

نظرت له بعتابٍ، تنفست بعمقٍ لتمنع نفسها من البكاء أمامهم، وأردفت تسـألـه بصوتٍ خرج مضطربًا متقطعًا:

-يعني ماليش خاطر عندك ؟

بنفاذِ صبرٍ هدر بها:

-يوووه، كفاية بقى، أنا مش هاتكلم كتير.

تحرك "منذر" ليقف إلى جواره، لف ذراعه حول كتفه ليهدئه، وأخبره بصوتٍ خفيض:

-بالراحة يا "هيثم"، الجماعة خايفين عليك.

على عكسه فكر "فضل" في استغلال الموقف، وإظهار رجولةٍ زائفة ليكسب بها بضعة نقاطٍ يعيد بها كرامته المبعثرة، لذا خشـن من نبرته، وهتف في "همسة"؛ وكأن إحراجها أمرًا عاديًا:

-ما تتلمي يا بت وتسمعي كلام الرجالة...

هتف "هيثم" يحذره بعد أن تفاجئ من إقحام نفسه في شأن لا يخصه:

-ماتدخلش!

بينما تدلى فك "همسة" السفلي في صدمةٍ مليئة بالذهول، وحملقت في ابن عمها بعينين متسعتين، ليتابع هجومه الوقح عليها:

-ولا مفكرة إن بعد ما اتجوزتي عيارك هايفلت، لأ ده أنا ممكن أكسر رقبتك فيها، إياكش مفكرة نفسك هتستعصي عليا؟ أختك وجبت رقبتها تحت رجلي.

كلماتٍ نطق بها بعفويةٍ استرعت انتباه ذاك المحمل بهمومٍ كالجبال، قست عينا "تميم"، وهو يتطلع إليه، وقد استحوذ وجه "فيروزة" على خلايا عقله، لم يطرف جفناه، بل ازداد وجومًا وقسوة، استمر في مطالعته، كما لو كان يحاول بنظراته النافذة كشف غموض جملته المبطنة، تلك التي تخص الطاووس المهاجر، بقي كامل تركيزه معه، رغم الغيظ المستبد بـ "همسة"، والذي غلف صوتها وهي ترد ملوحة بيدها:

-إنت بتكلمني كده ليه؟

-إياكي ترفعي صوتك عليا!

قال "فضل" عبارته الأخيرة وهو يهوي بكفه على وجنتها ليصفعها، كان تصرفه الأرعن كفيلاً بنزع فتيل غضب "هيثم"، حيث اندفع الأخير كالمجنون نحوه بكامل ثقله، تعلق بتلابيبه، ثم هزه بعنفٍ وهو يصيح به:

-إنت اتجننت؟ بتمد إيدك على مراتي؟

بدا "فضل" وكأنه سيبول على نفسه من خوفه الشديد، لعق شفتاه، وبرر تصرفه قائلاً بارتعابٍ شديد:

-ده أنا بأدبها .. عشانك يا أبو نسب.

هدر به في غضبٍ أهوج:

-تقوم تضربها؟ هو أنا اشتكيتلك؟

صاحب صياحه المنفعل لكمات متتابعة عنيفة في أنحاء وجهه، حتمًا ستترك أثرها عليه، ليطرحه أرضًا بعد ذلك، ويجثو فوق عنقه بركبته، قاطعًا عن مجرى تنفسه الهواء، في البداية لم يمنعه أحد، رأى من حوله أن يستحق هذا الجزاء لطيشه، لكن إشارة جادة من عيني "تميم" لـ "دياب" دفعت الأخير للتحرك نحوه، وبصعوبةٍ تمكن الأخير من انتشال "هيثم" من فوقه، وهو يخبره:

-كفاية عليه كده، إنت ربيته يا "هيثم".

قاومه بشراسةٍ، وهدر بنفس النبرة الغاضبة:

-لأ مش كفاية.

أتى الحاج "إسماعيل" مهرولاً في اتجاههم، بعد غياب ابنه لمدة طويلة، خرج من السرادق للبحث عنه، وحدث ما كان يخشاه، وجده يتشاجر مع من هم أشد منه قوة، جحظت عيناه رعبًا عليه، وهتف متوسلاً السماح:

-بالله عليك تسيبه، حقك عليا أنا يا ابني!

حينها انحنى "منذر" هو الآخر ليجذبه من كتفه، وهتف في أذنه:

-إنت عملت معاه السليمة، سيبه!

استعان بمساعدة شقيقه ليفصله عنه، فأخذ "فضل" يصدر أنينًا موجوعًا، وقال بنوعٍ من الشكوى، ملقيًا بالذنب على "همسة" في تبجح منفر:

-شايف يابا، عشان مش راضي بالغلط من بنت عمي، يتكاتروا عليا، بقى هي دي المرجلة؟

قال والده في ازدراءٍ؛ وكأنه لا يصدقه:

-هو أنا مش عارفك يا "فضل"؟

غمغم ابنه بكلماتٍ متبرمة غير مفهومة، لاعنًا إهانتهم المذلة له؛ لكنه لم يجرؤ على النطق بهذا علنًا، كان بحاجةٍ للمساعدة للنهوض، ولم يمد له أحد يد العون، حتى والده وقف كالمتفرج ينتظر قيامه، بمزيدٍ من الجهد استند على راحتيه، ليرفع جسده عن الأسفلت القاسي، بمجرد أن استقام واقفًا، اعترض "تميم" طريقه، نظر في عينيه بنظراتٍ تقدح شرًا، ارتعب الأول من طريقة تحديقه به، وانعكس الخوف على كامل وجهه، بدا صوت الأخير قريبًا منه، ثم أخبره بلهجة لا تعرف للمزح لونًا:

-لو فكرت تقرب من جماعة "هيثم"...

اشتدت نبرته قساوة وحزم، عندما أتم باقي جملته:

-ولا حتى أختها، عيالك هتتيتم!

انتصبت كامل شعيرات جسده على إثر تهديده، أكدت نظراته الفارغة من الحياة جديته، شحبت بشرته أكثر، وتراجع بخطواتٍ متعثرة للخلف هاربًا من أمامه، كفرار الفريسة من الأسد الجامح.

صراخ جنوني صدح في الأجواء، أجبر الجميع على الالتفات نحو المدخل، لتطل بعدها "هاجر" وهي تهتف مستغيثة، ويدها على رأسها المغطى بحجابٍ غير محكم:

-الحقني يا "تميم"! ابني اتخطف!

.......................................................................

أصبح من الصعب ردعه، بعد وصوله لتلك المرحلة الحرجة، في مشواره المتخم بالجرائم النكراء، إنقاد وراء جنونه غير المحدود، تاركًا عاطفته الأبوية وراء ظهره، ليشرع لاهثًا خلف ما ينجيه من الهلاك؛ وإن كان يعني هذا اختطاف رضيعه للمساومة به من أجل المال، بعد عقده لصفقة جديدة لتهريبه خلال البلاد، سلبت ما بحوزته من نقود ومشغولات ذهبية مطعمة بالدماء. استغل "محرز" عدم توقع الغالبية العظمى لقدومه خلال مراسم العزاء، ليختبئ في عباءة نسائية فضفاضة، وسوداء اللون، يزينها نقاب طويل يخفي وجهه، فيبدو كواحدة ممن جئن لتقديم هذا الواجب الضروري، ولكونه يعرف مداخل المنزل جيدًا، لم يجد صعوبة في التجول بحريةٍ ليصل إلى غرفة "هاجر".

كانت الأخيرة تنوح موت "خلود"، خلال بقائها مع حفنة من النساء في صالة منزلها، فرحيلها بتلك الصورة الشنيعة شكل صدمة أوجعت قلبها، خاصة مع تقاربهما الشديد، وأيضًا لكون القاتل زوجها، بكت مدمدمة بنحيبٍ:

-آه يا حرقة قلبي عليكي يا أختي! كنتي غالية عندي.

واستها إحدى السيدات قائلة:

-هوني على نفسك يا حبيبتي، ربنا يرحمها برحمته الواسعة.

ضربت بكفيها على فخذيها، وتابعت عويلها المليء بالشجن:

-لأ واللي قتلها جوزي؟ شوفتي النصيبة! هي الدنيا جرالها إيه؟

ردت عليها أخرى وهي تزم شفتيها:

-ربنا يلطف بيكي وبالست "ونيسة".

هزت جسدها للجانبين في حركة اهتزازية متكررة، وهي تواصل ندبها:

-مابقناش ملاحقين على المصايب، منك لله يا "محرز"، أشوفك متعلق على حبل المشنقة، يا رب انتقم منه!

ربتت عليها ثالثة، وطلبت منها بنوعٍ من التعاطف:

-ماتعمليش في نفسك كده يا حبيبتي، وقومي شوفي ابنك، هو اللي باقي.

التفتت ناظرة في اتجاهها، وعلقت باستهجانٍ شديد:

-ابني؟ هاقوله إيه لما يكبر؟ أبوك ماشي يقتل في الناس؟

أطرقت رأسها في أسفٍ، وقالت:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، معلش يا بنتي، ده النصيب.

هتفت تلعنه في حرقةٍ:

-نصيب منيل ومهبب، ربنا ياخد يا "محرز".

استندت على مسند الأريكة لتنهض من جلستها، سارت عبر الردهة في اتجاه غرفتها، ولم تنتبه للخطوات التي تتعقبها، ولجت إلى حجرتها، باحثة عن رضيعها المتواجد في فراشه، انحنت لتحمله بين ذراعيه، وما إن التفتت حتى وجدت "محرز" أمامها، شخصت أبصارها، وهمّت بالصراخ؛ لكنه أطبق على شفتيها بكفه، ولف ذراعه الآخر حول رأسها، شعر بحرارة أنفاسها المكتومة تحرق راحته، رمقها بنظرة ميتة أرعبتها، صر على أسنانه متسائلاً بغلٍ محموم:

-بتدعي عليا يا "هاجر"؟

سرت ارتجافة رعب في كامل بدنها، صحبتها خفقات عنيفة كادت توقف نبض قلبها، الواقف قبالتها الآن يختلف كليًا عمن عاشرته، ليس هذا بزوجها الذي أفنت سنواتها لرعايته والاهتمام به، خفقة أخرى مرتاعة عصفت بها، حينما توعدها بفحيحه الذي جعلها تزداد جحوظًا:

-أنا هاحسرك على ابنك.

بغريزة أمومية متأصلة فيها، ضمت رضيعها بقوةٍ محاولة حمايته من بطشه الأعمى، الشرر المتطاير من مقلتيه أكد لها عزمه على تنفيذ تهديده. شحنت "هاجر" قوى هاربة منها لتقاومه بضراوةٍ دفاعًا عن وليدها؛ لكنه باغتها بضربة مؤلمة على مؤخرة رأسها، تبعها بأخرى عنيفة أفقدتها الوعي، ثم تلقف الرضيع منها، وحاوطه بحجاب نقابه ليخفيه عن الأعين، ثم تسلل مثلما جاء خارج الغرفة، بخطواتٍ متعجلة، قاصدًا باب المنزل، ومنه قفز الدرجات هبوطًا للأسفل.

تجمد مشدوهًا عند مدخل البناية، حينما رأى "تميم" ومن معه، اعتراه الخوف، وكاد يتراجع عن استكمال خطته الدنيئة لولا أن وقف الحظ في صفه، والتهوا بشجارهم الغريب، لينسحب في تخفي مثلما جاء، مع فارق أنه سرق ابنه الوحيد.

حينما أفاقت "هاجر" من إغماءتها السريعة، فتشت بنظراتٍ مشوشة عن رضيعها، هتفتِ بقلبٍ واجل:

-"سلطان"، ابني!

التقطت حجابها الأسود، طرحته على رأسها، وهرولت صارخة خارج غرفتها تصيح باهتياجٍ:

-"محرز" خطف ابني!

واصلت هرولتها المذعورة، قافزة على درجات السلم، لم تهتم إن انكفأت على وجهها أم لا، المهم أن تلحق بفلذة كبدها قبل أن يطاله الأذى، في الأخير وقفت أمام شقيقها، وبأنفاسها اللاهثة المليئة بكل ما فيها من لوعةٍ وجزع استنجدت به:

-الحقني يا "تميم"! ابني اتخطف!

صراخها الملتاع جذب كافة الأنظار إليهم، فلم يعد للسكوت معنًا، هدر "تميم" آمرًا من حوله من رجالٍ أشداء:

-يالا يا رجالة، مش هايطلع عليه نهار.

وقبل أن يتقدموا نحو السيارات التي اصطفت أمام الرصيف، ظهر "بدير" في المشهد، ومن خلفه "سراج"، هتف الأول متسائلاً بشكلٍ عابر، رغم تعابيره القلقة:

-إيه اللي حصل يا ولاد؟

أجابه "دياب" مباشرةً:

-الكلب خطف ابنه، شكله عايز يلوي دراعنا.

جزع "بدير" للخبر، وردد في خوفٍ:

-الكلب ده ممكن يأذيه!

كلماته العفوية ضاعفت من ارتعاب "هاجر"، فاندفعت نحو شقيقها تتوسله بعينين غارقتين في الدموع:

-رجعهولي يا "تميم"، أنا مش عايزة أخسره، متوجعش قلبي عليه.

لامست بلهفتها المحترقة قلب "سراج"، فاربدت تعابيره بالحنق والغضب، سلط أنظاره على شقيقها، ورآه يضع قبضته على كتفها ليخبرها بنظراتٍ أظهرت وحشية يفهمها جيدًا:

-هارجعه يا "هاجر".

هزت رأسها بإيماءات متتالية عبرت عن تصديقها المطلق لوعده، ثم أمرها بصوته الخشن:

-اطلعي فوق، وخليكي مع أبويا وجدي، ماتنزلوش من البيت مهما حصل

التفت "منذر" نحوه مقترحًا عليه:

-أنا هاسيب كام حد من رجالتنا هنا يأمنوا الجماعة، ماشي؟

وافقه الرأي، واستدار مواجهًا أبيه:

-خد بالك منهم يابا، الليلة نهاية "محرز".

لم يبدُ والده مصدومًا من عزيمة ابنه القاطعة، فالعائلة تأتي أولاً، وقبل أي شيء، صدّق عليه بتشجيعه للمضي قدمًا للنهاية:

-رجع حق اللي راحوا كلهم يا "تميم".

قامت "همسة" باحتضان "هاجر"، وسحبتها نحو الداخل، بينما أسرع "سراج" في خطاه حاسمًا أمره:

-أنا جاي معاكو برجالتي.

لم يلقَ معارضة من الرجال، على ما يبدو صحت مقولة عصر الشهامة لم ينتهي بعد، اتفق الجميع على الوقوف معًا لردعه، فكلما كثر الحشد، كلما دبوا في قلب هذا الوضيع الرعب!

.........................................................................

حافظ مؤقتًا على جموده الهش حتى يصل إلى هناك، حينها فقط سيظهر غضبه الكاسح، ولن يأبه لشيء، سيفنيه عن بكرة أبيه. مرت الدقائق كأنها

ساعات، رغم انطلاق السيارات تتبع بعضها البعض بسرعات تجاوزت المسموح، ركز "تميم" كامل أنظاره على الطريق، وسأل "منذر" الجالس خلف المقود بصوته الأجوف:

-فاضل كتير؟

أجابه باقتضابٍ يخفي خلفه شحنة من الغضب المكبوت:

-هانت يا صاحبي.

استمر في قيادته لما يقرب من النصف ساعة، ظهرت تشنجات أصابعه خلال إدارته للمقود بين الفنية والأخرى، حاولت الاسترخاء لكنه فشل، فالورطة تلك المرة ليست بالهينة، وربما تحصد بعض الأرواح معها. قبيل الانعطاف للجسر المؤدي للبلدة المنشودة، استطرد "منذر" يُعلمه:

-وصلنا خلاص

تحفز "تميم" في جلسته، وتقلصت جميع عضلاته مسببة له ألمًا لا يمكن احتماله، غالب أوجاعه ليظهر استعداده بقوله الصارم:

-الكلب ده بتاعي، أنا اللي هحاسبه.

رد دون جدالٍ:

-ماشي الكلام.

..................................................

-الفلوس هاتكون عندك في ظرف يومين، بس إنت خلصني.

عبر هاتفه المحمول، نطق "محرز" بتلك العبارات بصوتٍ بدا متجهمًا، ووجهه يداعبه القلق العميق، استدار ناظرًا نحو رضيعه الذي شرع يهمهم ببكائه، حاول إسكاته بحمله بيده الأخرى وهدهدته؛ لكنه فشل بسبب عصبيته الواضحة، أسنده على فراشه الحقير، وأكمل مكالمته بلهجةٍ غاضبة:

-ملكش دعوة هاتصرف إزاي، إنت ليك أكل ولا بحلأة؟ وبعدين ما إنت سيبتلك الدهب كله، يعني تعتبر خدت فوق حقك وزيادة.

أطلق زفرة مسموعة، واختتم معه المكالمة بترديد:

-أيوه هنتقابل في نفس المكان، سلام.

ضغط على زر إنهاء الاتصال، ودس هاتفه في جيب بنطاله، ثم لف بذراعه الآخر الرضيع ليحتويه، نظر إليه بغرابةٍ، وأردف يكلمه بابتسامة ساخطة على زاوية فمه:

-مين كان يصدق يا "سلطان" إني أعمل فيك كده؟ بس هاعمل إيه، ما أنا روحي بقيت على كف عفريت!

تململ الصغير بين ذراعيه، وتلوى ببكاءٍ أصبح مزعجًا، فتش بعينيه عما يمكن أن يستخدمه لإلهائه لبعض الوقت، فقد غفل في غمرة تفكيره الدنيء، عن إحضار ما يلزم لرعاية رضيعٍ مثله يحتاج للطعام والشراب في هذا المكان المقفر:

-اهدى شوية على نفسك، أنا كده مش عارف أركز.

شوش صوت الرضيع الباكي، على الأصوات الحثيثة المتسللة، والتي اقتربت من كوخه البائس الواقع على مقربة من المصرف الصحي. مع نجاحه في إخراسه لم يرتاب في شيء، بالنسبة له بدا الوضع طبيعيًا. نظرة مدققة ألقاها "دياب" عبر سدات الغاب المعقودة معًا، ليحصر المتواجدين بالداخل، لم يجد سواه، حاول وسط الإضاءة الباهتة أن يتفحص المكان، لينقل الصورة كاملة لأقرانه، وما إن أكمل مهمته، حتى عاد إليهم مثلما جاء بحيطة أكبر، انخفض بجسده، وهمس بصوتٍ شبه لاهث لمن معه:

-الكلب موجود لوحده.

رائحة المكان الكريهة، أصابت المتواجدين بالغثيان والنفور، تغاضوا عنها مرغمين، ليبادر "منذر" متسائلاً بتعابيرٍ جادة:

-هنطلعه برا إزاي؟

هتف "هيثم" بتهورٍ من بين أسنانه المضغوطة:

-سيبوني أطلع أجيبه من رقبته!

أمسك به "منذر" ليثبته في مكانه، محذرًا إياه بصرامةٍ:

-هي مش فتونة ولا فرد دراع دلوقتي يا "هيثم".

على مضضٍ تحامل على نفسه، بينما تنفس "تميم" بعمقٍ، وأشار لهما بيده ليصمتا، ثم أخبر الجميع بصوته الأجوف:

-في دماغي فكرة، هي صحيح فيها مجازفة، بس مقدمناش إلا كده.

تفقه ذهن "منذر" لما طرأ في بال رفيقه، وسأله بصوته الخفيض:

-أوعى تكون ناوي تحرق العشة عليه؟

عقب عليه بنظراتٍ غاب عنها الإشفاق:

-مافيش غير كده، ده هيجبره يطلع برا.

استطرد "سراج" يقول في توترٍ حقيقي:

-أنا خايف على الواد الصغير، بعد الشر النار تمسك فيه، مافيش حاجة مضمونة.

أدار "تميم" رأسه في اتجاهه ليخاطبه:

-هو جمب واحد اللي هنولع فيه، وفي نفس الوقت نهجم برجالتنا من الجمب التاني.

سأله بقلقٍ أكبر:

-طب لو فكر يدبح ابنه!

إن كانت نفسه الخبيثة بمثل هذا السوء، فلن يتمكن بالطبع من رده، رجا "تميم" الله ألا يتهور بأملٍ مغلف بالشك:

-إن شاءالله مايحصلش.

...........................................................

التزم كل رجلٍ بمهمته الخطيرة، واضعين جميعًا في المقامِ الأول حياة الرضيع، وبدأوا في محاصرة الكوخ من كافة الاتجاهات، حتى لا يجد "محرز" مهربًا بعد تضييق الخناق عليه، وعند الإشارة المتفق عليها، أُلقيت على ذاك الجانب من الكوخ البعيد عن الفراش، زجاجة مليئة بمادة الكيروسين، فوهتها تسدها قطعة قماشٍ مشتعل طرفها، فالتقطت سدات الغاب النيران بلهفة الجائع، واضطرمت سريعًا فيه، أتى صوت "محرز" المذعور مخترقًا سكون الليل، انتفض خارجًا من الكوخ حاملاً الطفل بين ذراعيه، تسمر في مكانه عندما رأى "تميم" يواجهه بعكازيه، استدار باحثًا عن مهربٍ آخر، فوجد كل المخارج مسدودة برجالٍ قساة في تعاملهم.

دار حول نفسه، وذراعاه يشتدان على الرضيع، هدر مهددًا بتشنجٍ:

-اللي هايقرب مني هاموته.

رد عليه "تميم" بصوته القاتم، المليء بالتهديد الصريح:

-جرب تلمسه، وساعتها هتتمنى الموت ومش هتنوله!

في حين أضاف "منذر" بنبرة جليدية، تعبر عن استعداده للتضحية:

-كلنا مسيرنا نموت يا "محرز"، مش فارق مين الأول، بس إنت كده كده رايح.

هدر "هيثم" مرددًا بحرقة شديدة، وقلبه يدق في عنفٍ:

-قتلت أختي، ورميت أمي بين الحياة والموت في المستشفى، ومن قبلهم "نوح"، فكرك هاسيبك تعيش للحظة؟

التفت ناحيته، وأخبره بلمحةٍ ساخرة:

-ده أنا ريحتكم منهم، هو إنت فاهم إنهم ملايكة؟ دول مايفرقوش عني.

تحركت عينا "محرز" نحو "تميم"، وخاطبه ويده تلتف حول عنق الرضيع:

-اللي إنت فيه كان بأوامر الست خالتك.

حملق فيه الأخير بتعابيرٍ ذاهلة جعلت "محرز" يستمتع بانتشاءٍ برؤيته على حالته المصدومة؛ وكأنه ظفر بنصرٍ ساحق؛ لكن صوت "هيثم" المستنكر شتت أنظاره عنه ليستدير مجددًا ناحيته عندما هلل:

-إنت كداب.

بكل برودٍ دمدم عاليًا:

-مش محتاج أكدب، هي متتخيرش عني، و"خلود"كان فاضلها تكة وتطلب مني أقتل "أبو الرجولة" من تاني، ده يعني لو كانت فضلت عايشة!

التفافه حول نفسه للرد على الصيحات الغاضبة، جعله غير منتبه لذاك الزاحف على بطنه، بطول حافة المصرف الصحي، ليصل إليه في غفلةٍ منه، وقد نجح بعد مجهودٍ مضني، انتظر "سراج" اللحظة المناسبة، ليرفع جسده المغطى بالطين عن الأرض، وينقض عليه. في غمضة عين هب قابضًا على قدمه اليسرى، وعرقله منها بكل ما أوتي من قوة ليسقطه على جانبه، وكردة فعل سريعة، استغل "تميم" تلك الفرصة الغالية، لينتفض على الفور، متخليًا عن

عكازيه، وملقيًا بثقل جسده عليه، فقد كان الأقرب إليه من تلك الناحية. لكزه بكوعه في فكه، وانتشل من براثنه الرضيع، وأبعده عنه.

حاوط "سراج" الرضيع ببدنه، وزحف به لبقعة آمنة، بينما تعانق جسدا "تميم" و"محرز" في قتال بالأيدي، جعلهما يدورا في دوائر متواترة قادتهما نحو حافة المصرف، وقبل أن يهوى كلاهما في أعماقه المظلمة، امتدت أيادي "منذر"، و"دياب"، و"هيثم" للإمساك بـ "تميم" من ساقيه، ألمًا مبرحًا اجتاح نصفه السفلي مما جعله يصرخ بشدة، شعر وكأن عظامه تنفصل عن بعضها البعض مع شدة الجذب، خاصة بعد تعلق "محرز" في عنقه، تشبث الأخير به، وهتف بأنفاسٍ ملتهبة، وتلك النظرة الخبيثة تكسو عيناه:

-مش هاموت لوحدي.

غالب "تميم" أوجاعه القاتلة، ووضع أصابعه في عيني ذلك الجاحد يريد اقتلاعها وهو يخبره:

-ساعتك أزفت خلاص.

بين طرفة عينٍ وانتباهتها، ارتخت قبضتي "محرز" عن عنقه، مستسلمًا لمصيره الأسوأ على الإطلاق، سقط وحده في القاذورات النجسة، ضرب بذراعيه المياه الملوثة عله يبقى على سطحها؛ لكنها رحبت به بحفاوة بين بقاياها الآدمية .. أدرك حينئذ أنه غارقٌ فيها لا محالة، اشتد صراخه الجنوني المجلجل لوهلةٍ قبل أن تسحبه نحو أعماقها الكريهة ........................................................ !!

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل السادس والثمانون

بين المخلفات الآدمية النجسة، غاص جسده الفاني إلى حيث بدأت جرائمه، وانتهت نوائبه، دون أن تُذرف دمعة واحدة على فقدانه؛ وكأن بموته قد أراح العالم من شره. بحرصٍ مختلط بالحيطة سحب الرجال الثلاثة "تميم" بعيدًا عن الحافة، وصوت صراخه المتألم يصدح في سكون الليل، حملوه معًا بحذرٍ إلى مسافة آمنة، ليمددوه على ظهره على الأرضية. تساءل "منذر" أولاً في جزعٍ:

-قولي حاسس بإيه؟

أجابه بصوتٍ تبين منه مدى ألمه الشديد:

-رجلي.. مش قادر.

تفهم ما يمر به بسبب الجذب الشديد الذي تعرض له من الجانبين، وقال بلهجةٍ جادة:

-تحب ننقلك على المستشفى.

رد دون جدالٍ:

-يا ريت.

بعزمٍ أخبره في الحال:

-على طول يا صاحبي، هاجيب العربية قريب من هنا.

بينما أضاف "دياب" بنفس الاهتمام الجاد:

-اطمن، هاتبقى كويس بأمر الله، وكلنا معاك.

رد دون شكٍ:

-عارف.

وزع "تميم" نظراته الشاكرة على من حوله، لتتحرك عيناه بعشوائيةٍ وهو يتساءل:

-فين "سلطان"؟

أتاه صوت "سراج" مطمئنًا، وذراعاه تضمان الرضيع إلى صدره:

-متقلقش عليه، هو معايا وفي أمان.

ابتسم له في حبورٍ، وقد رآه يهدهده في حنوٍ، يعطف عليه وكأنه من صلبه، على الرغم من العداء القديم بينهما إلا أنه كان الأسبق في نجدته في كل موقفٍ يحتاج فيه للمدد. اكتفى بنظرات العرفان بالجميل، ولم يعلق عليه. نظرة جانبية حانت منه في اتجاه "هيثم" الذي بدا شاردًا، وجهه يعكس حزنًا عميقًا، امتدت يده لتمسك بذراعه، فالتفت الأخير ناحيته يطالعه بخزيٍ، قبل أن يخفض رأسه مستشعرًا مدى خذلانه له. استطرد "تميم" قائلاً بصوته المرهق:

-إنت ملكش ذنب في أي حاجة حصلت.

رغم يقينه بصحة ما حدث، بناءً على طبيعة شخصية والدته الطامعة، إلا أنه لم يستطع إعفاء نفسه من الذنب، نكس "هيثم" رأسه متحاشيًا نظراته، ليردد بغصةٍ:

-هو أنا قادر أرفع عيني في عين حد فيكو؟

أخبره بعد لحظة من السكوت:

-مافيش حد بيشيل شيلة حد، وكل واحد في النهاية خد جزائه.

كان في أعماقه يخشى من مواجهة الحقيقة؛ لكن لا فرار منها، فقال بمرارةٍ:

-أنا مش عارف أزعل على أختي وأمي، ولا أروح...

قاطعه "دياب" مشددًا قبل أن تسيطر عليه هواجسه:

-أمك تبرها لحد آخر نفس، حتى لو كانت إيه، محدش بيختار أهله.

الإضاءات الأمامية القوية لسيارة "منذر" جذبت الأنظار نحوها، فهتف "سراج" بصوته المرتفع:

-يالا يا رجالة.

تحامل "تميم" على نفسه، وحاول الاعتدال في رقدته؛ لكن ألمه أبى أن يتركه دون معاناة، بمساعدة الرجال الأشداء حملوه بحرصٍ نحو السيارة، ليستلقي في المقعد الخلفي بمفرده، وما إن جلس "منذر" خلف المقود تساءل بلهجته المليئة بالجدية:

-الحكاية مش هتعدي كده، إنت عارف ده؟

نظرات حائرة تبادلها الاثنان قبل أن يتكلم "تميم" في النهاية:

-أيوه، بس خليني أروح المستشفى الأول، وبعدها هتصرف.

أخبره "منذر" بنبرة عازمة، حاسمًا هو الآخر أمره:

-إنت مش هتشيل الليلة لوحدك، احنا معاك فيها.

لم يكن يملك من الطاقة الذهنية –أو البدنية- ما يدفعه للنقاش معه، فكامل قواه قد استنزفت بالكامل، كان في حاجة لفسحة من الوقت ليستعيد خلالها قدرته على التفكير واتخاذ القرار. استمر "منذر" في تحديقه به، وسأله بصوتٍ هادئ:

-هنبلغ البوليس؟

صمت للحظاتٍ ليفكر في الأمر، فبادر بإخباره، كنوعٍ من الإيضاح:

-مش عايزك تقلق، كل حاجة مترتبلها

علق عليه بعد زفرة تحمل أنات التعب:

-إزاي يعني؟

أجابه بابتسامةٍ بسيطة:

-أنا عامل حسابي، فاكر لما قولتلك إني بعت اتنين من رجالتي قبلنا؟

هز رأسه بالإيجاب، فأكمل:

-كنت موصيهم يصوروا كل اللي هايحصل من بعيد، كأنهم معديين بالصدفة، فمافيش حاجة هتدينك.

رد على مهلٍ، وتعابير الرضا ترتسم على محياه:

-مش عارف أقولك إيه يا "منذر"؟

-استدار ليحدق في الطريق مرددًا بارتياحٍ بسيط:

-متقولش حاجة، احنا إخوات.

........................................................

راحت تتابع بقلبٍ مرتاع، ونظراتٍ مليئة باللوعة والخوف الطريق من نافذتها، لم تتجلس للحظة، ولم تتوقف عن الدعاء، عقلها مفصول عمن حولها، تنتظر بترقبٍ مذعور قدوم شقيقها بابنها المختطف، أشفق الجميع عليها بعد انتشار خبر اختطافه على يد أبيه القاتل. لمسة حانية من والدها على كتفها جعلتها تدير رأسها نحوه، انسابت بغزارة عبراتها الحارقة، شهقت قائلة بصوتٍ متقطع، معبرة له عن هواجسها:

-خايفة على ابني يابا، هو مالوش ذنب.

قال بيقينٍ لا تشكيك فيه:

-ربك هينجيه، خلي عندك إيمان بالله.

عادت لترفع بصرها للسماء، وتوسلت بتضرعٍ شديد، وعيناها تتسابقان في ذرف العبرات:

-يا رب إنت عالم بحالي، ماتضرنيش في ابني أبدًا.

قال مؤمنًا عليها:

-أمين يا رب.

رن هاتفه في يده، فنظر إلى شاشته قبل أن يجيب على الهاتف، وصوت ابنته يلاحقه:

-مين يابا؟

أشار لها بيده لتصمت، ونطق بتريثٍ:

-أيوه يا "تميم".

لم يكن ابنه المتصل، بل تولى "منذر" المكالمة عنه، وأخبره بإيجازٍ عما حدث. تابعت "هاجر" سكوت والدها بقلبٍ يخفق في قلقٍ، طلت نظرات ارتياعٍ من عينيها، حبست أنفاسها، وضمت قبضتيها إلى صدرها في توجسٍ متعاظم، انتابها هاجس لخطي من حدوث الأسوأ، فلاحقته متسائلة ببوادر هلع، عندما طال صمته:

-لاقاه؟ عرف يوصله؟

أشار لها بعينيه لتصمت، هدوء والدها أكد لها أن الأمر ما زال بخير، وازداد تأكيدًا بترديده بعد برهةٍ:

-ألف حمد وشكر ليك يا رب.

سألته على الفور، وقد تعلقت بذراعه:

-ابني معاه صح؟

أومأ برأسه مُجيبًا إياها وهو يضغط على زر إنهاء المكالمة:

-الحمدلله عرف يجيبه، بس آ...

بتر عبارته بشكلٍ جعل الرعب يدب في قلبها، سألته بنظراتٍ شاخصة:

-بس إيه؟ جراله حاجة؟

قال نافيًا، والعبوس يملأ ملامحه:

-لأ، "محرز" مات.

لم تبدُ آسفة على وفاته، ولم تتعاطف معه، بل ظنت أنه نال ما يستحق عقابًا لجرائمه، ودمدمت بصوتٍ تحول للحنق:

-منه لله الظالم، عقابه عند ربنا...

عادت اللهفة لتكسو تعابيرها، وسألته:

-هيرجع "تميم" بيه امتى؟

أجاب بتنهيدة مرهقة:

-مسافة الطريق.

ضمت "هاجر" يديها معًا، وركزت كامل أنظارها على الطريق، ولسان حالها يدعو برجاءٍ كبير:

-ردهم سالمين يا رب.

........................................................

نظرات متأملة، محملة بالشوق والحنين، سلطها على النافذة العلوية، طامعًا أن يلمحها إن أطلت منه، رغم عدم تأكده من حدوث ذلك؛ لكن قلبه التواق منحه الأمل الزائف، فهو لم يشبع بعد من رؤيتها، الدقائق لم تعد كافية، احتفظ عقله بصورة طيفية لملامح وجهها المليء بدموعه الفرحة بعد أن سلمها رضيعها، ضمته بشدة، وكأنه سينفذ إلى ضلوعها، رغبة منها في حمايته من شرور البشر، خاصة والده الحقير منعدم المشاعر والضمير، كم تمنى "سراج" في تلك اللحظة أن يرزقه الله بطفل منها ينال عاطفتها الكبيرة! تذكر صوتها الباكي وهي تشكره بعينين متلألأتين:

-كتر خيرك يا معلم "سراج".

خفقة موترة ضربت فؤاده، وجعلت دقاته تتلاحق، صوتها الناعم المليء بالشجن، كان له أكبر الأثر على نفسه، شعر وكأن الكلمات فرت من على طرف لسانه، فقال بتلعثم المراهقين:

-ده واجبي يا.. ست البنات.

أخفضت "هاجر" نظراتها لتنظر إلى شاله الصوفي، والذي لف به الرضيع ليحميه من البرد، كانت على وشك نزعه عنه، فأصر عليها بخوفٍ غير مصطنع وهو يشير بكفيه:

-والله لتخليه، أنا مش عايزه.

نظرت إليه بأهدابٍ رطبة، بسمة باهتة اخترقت الحزن السائد على وجهها، لتختفي بعدها كما تشكلت. شكرته مجددًا بخفوت، وانسحبت بوليدها للداخل، آلمه رؤيتها تقاسي في صمت، أراد لابتسامتها الرقيقة أن تدوم على شفتيها، أن يمسح عنها همومها، أن يسمع صوت ضحكاتها يجلجل عاليًا في سعادةٍ ومرح، فهل يُكتب له في يومٍ تحقيق هذا؟ حرر "سراج" تنهيدة ثقيلة من صدره بعد أن عاد لواقعه الخالي من وجودها، تحفز في جلسته، وأدار المحرك بمجرد أن استقر "بدير" إلى جواره في مقعد الراكب؛ كان الأخير شاكرًا لمعروفه معه، وأجزل له من عبارات الثناء والتقدير، فقال:

-والله يا "سراج" يا ابني اللي بتعمله معانا كتير، غيرك كان آ...

قاطعه بعتابٍ رقيق، وهو يوزع نظراته بينه وبين الطريق:

-عيب كده يا حاج، والله هتزعلني، في النهاية احنا كلنا أهل.

حرك "بدير" رأسه بهزة خفيفة، وزفر مرددًا بكلماتٍ ذات دلالة صادقة:

-الله يديم المعروف والخير بينا يا رب، فعلاً ما محبة إلا بعد عداوة.

رد بهزة صغيرة من رأسه:

-الله كريم، وحمدلله على سلامته يا حاج "بدير".

التفت ناحيته ليخاطبه بنبرة ودودة:

-الله يسلمك يا ابني، ربنا يكرمك ويصلح حالك.

خرج صوت "سراج" مفعمًا بالألفة وهو يتابع حديثه معه:

-كنت ارتاح يا حاج، مالهاش لازمة تتعب نفسك، كلنا واقفين مع "تميم"، محدش فينا قصر معاه.

تهلل وجهه بأمارات الاستحسان، وقال بنوعٍ من المدح:

-ونعم الصُحبة.

واصل "سراج" إخباره، كتمهيدٍ مُسبق لإطلاعه على مسألة إعادة احتجاز ابنه في المشفى:

-مش عايزك تقلق يا حاج من كلام الدكاترة، إنت عارفهم بيحبوا يهولوا الأمور، صحيح هما يعني صمموا إن "تميم" يفضل كام يوم في المستشفى، بس إن شاءالله يقوم منها على خير، ويرجع يقف على رجليه.

بدا هادئًا وهو يعقب عليه:

-طالما فيه الصالح ليه، منقدرش نعترض.

....................................................

افترشت علامات الضيق وجهه، لم يكن راضيًا عما تم تنفيذه دون الرجوع إليهم، لكون الأمر مؤثرًا بشكلٍ كبير على ترتيباتهم السرية، تلك التي لا يعلم عنها أحد شيئًا؛ لكن خرج الأمر عن السيطرة، ومع جنون "محرز" فسدت كافة المخططات الحالية، وربما عرقلت مضيها في الطريق السليم. انتصب الضابط

"وجدي" في وقفته بالغرفة الراقد فيها "تميم"، ووجه له توبيخًا بدا إلى حدٍ ما قاسيًا حينما أخبره بصوته المرتفع:

-كان لازم تستنانا، مكانش ده الاتفاق، إنت كده عملت اللي في دماغك.

ظهر الألم على قسماته وهو يرفع جسده للأعلى مستخدمًا مرفقيه، ليريح ظهره على الوسادة الموضوعة خلفه. نظر في عينيه بقوةٍ، وعلل له بصوته المرهق:

-يا باشا كل حاجة جت بسرعة، وزي ما شوفت أنا كنت هاروح فيها.

رمقه بنظرة غامضة، لا تتوقف عن لومه، وردد مع نفسه بصوتٍ خفيض حائر:

-كده الحسابات كلها اتلخبطت.

سأله "تميم" بعينين ضائقتين:

-لو في إيدي حاجة آ...

رفع "وجدي" يده أمام وجهه ليقاطعه بلهجة جادة، كنوعٍ من إنهاء المناقشة:

-خلاص يا معلم، في ظابط هايجي ياخد أقوالك.

رد بإجهادٍ:

-أنا موجود مش رايح في حتة.

تركه متجهًا نحو الخارج، ويده تطلب الرقم الدولي الخاص برفيقه المقيم حاليًا بالخارج، وما إن أجاب عليه حتى اندفع يخبره بضيقٍ شديد:

-ألوو، أيوه يا "ماهر"، عندي أخبار مش حلوة ليك.

.......................................................

كالتاجر المفلس حينما تنضب مصادر تمويله، يُفتش في دفاتره القديمة، علّه يجد بين المنسي دينًا غفل عنه، هكذا كان "آسر" مؤخرًا! فعندما ضاق الخناق عليه، وشحت الأموال المتاحة في يده، أخذ يبحث بين ملفاته القديمة عن تسجيل مرئي لإحدى زوجاته السابقات، ممن اشترين شرفهن بالنقود، رغبة في التخلص منه، ليقوم بابتزازها مجددًا، فتغدق عليه بالأموال، منعًا لتلويث سمعتها. وبعد وقتٍ طويل من مراجعة حقيبة الأسطوانات العتيقة وجد ضالته. ابتهجت أساريره، وشعر بنشوةٍ عارمة تجتاحه، خلل أصابعه بين شعره قائلاً بسمة انتصارٍ خبيثة:

-كده مش ناقص غير أكلم المُزة...

زادت ابتسامته اتساعًا وهو يضيف:

-وهترجع تزهزه معاك من تاني يا "آسر".

.......................................................

أرجأ إطلاعها على الأخبار السيئة، لم تكن بحاجة لمعرفة كل شيء في الوقت الحالي، خاصة أن هذا الجزء لا يهمها، وإن كان ذو صلة وثيقة بقضيتها. سحب "ماهر" المقعد، وقربه من فراش "فيروزة" التي بدت أفضل حالاً عن ذي قبل، ومع هذا عكس وجهه وجومًا غير طبيعي، استشعرته حتى من نظراته

نحوها، كانت على وشك الاستفسار منه؛ لكنها ابتلعت السؤال في اللحظة الأخيرة، تركته يستهل الحديث معها بقوله:

-في الوقت اللي "آسر" مش موجود فيه في البيت، رجالتنا زرعوا أجهزة التنصت في الشقة، ما عدا أوضة النوم والحمام.

نظرت له بغرابة، فأكمل موضحًا بعد أن ضغط على شفتيه للحظة:

-وده عشان خصوصيتك إنتي، مش حد تاني.

ابتسمت له في امتنانٍ لمراعاته تلك الجزئية تحديدًا، فالشعور بأنها مراقبة من أعين غريبة لن يكون مريحًا على الإطلاق، خاصة حينما تتشارك الفراش مع ذلك النذل المسمى زوجها، انتبهت له بتركيزٍ أكبر وهو يشدد عليه:

-بس ده هيخليكي تقومي بالمهمة دي بنفسك، تسجليله من غير ما ياخد باله، بالجهاز اللي هايكون معاكي.

أبدت استعدادها بمهمتها الجديدة، وقالت:

-مافيش مشكلة يا "ماهر" بيه، عرفني بس إزاي أتعامل مع الجهاز.

-دي بسيطة.

نطق بجملته وهو يخفض أنظاره نحو هاتفه المحمول، فقد ورده اتصالاً هاتفيًا من أحد الأشخاص المكلفين بالتعاون معه في هذا البلد العربي. نهض "ماهر" من مقعده، وانسحب مستأذنًا من غرفتها ليجيب على مكالمته بعيدًا عنها، انعكس القلق على تقاسيمه، واستطرد يقول بصوتٍ حاول أن يبدو هادئًا:

-خير يا فندم؟

.......................................................

على مسافة بضعة كليومترات من تلك البلدة، أقيمت محطة حديثة لمعالجة مياه الصرف الصحي على نمطٍ مستحدث، تخدم المنطقة ومن حولها من بلدات صغيرة. المحطة الرئيسية مقسمة داخليًا لعدة محطاتٍ صغيرة، كل واحدة تختص بدورٍ محدد خلال مراحل المعالجة، في البداية تتحرك كافة المخلفات المتجمعة عبر محطة الرفع، ليتم صبها عبر الأنبوب الواسع إلى المحطة التالية؛ محطة الغربلة، حيث يتم فصل المواد الصلبة، والحيوانات النافقة، وغيرها من الأشياء العالقة غير القابلة للذوبان، وهناك وقف أحد مسئولي المتابعة يراقب أداء العمل في منطقته تلك، نظراته كانت تدور بين الحين والآخر على المخلفات المتراكمة بالحوض المتسع. جاءه أحد المشرفين يشكوه:

-يا ريس في مشكلة عندنا في المحطة.

سأله بتعابيره الجادة:

-في إيه؟

أجابه وهو يشير بيده:

-منسوب الضخ قليل.

في بعض الأحيان، تستعمل خطو الصرف الصحي في غير أغراضها المخصصة لها، حيث يقوم بعض المواطنين بتصرفاتٍ مضرة للبيئة دون وعيٍ أو إداركٍ

لخطورة أفعالهم غير المدروسة من خلال إلقائهم للحيوانات النافقة، والمخلفات الزراعية الصلبة، والبقايا غير القابلة للتحلل العضوي في غير مناطق التخلص منها، مما يؤدي في الأخير لحدوث انسدادٍ أو عطب في إحدى المحطات. فكر مسئول المتابعة مليًا للحظة، وأمره:

-كلم الغطاس ينزِل يشوف إيه اللي سادد المِجرى، مش ناقصين دوشة.

أومأ برأسه قائلاً:

-تمام يا ريس.

ذهب سريعًا لاستدعاء الغطاس، فأعد الأخير أدواته ليهبط بواسطتها، إلى داخل مياه الصرف الخاصة بمنطقة الرفع، للكشف عن سبب هذا العطل. أزاح بعض الأغطية البلاستيكية الممزقة، وفروع الأشجار المقطعة، وبعض من الطحالب والبقايا النباتية، وجد كذلك طيورًا نافقة، أزاحها عن الفتحة، وكانت المفاجأة الصادمة حينما امتدت يداه لتجذب ما بدا وكأنه ذراعًا، في البداية لم يستوعب الأمر، إلى أن استمر في جذبه للكتلة الثقيلة، فظهرت له بقيتها، معالم جثة بشرية، مُلطخة بالأوساخ، برقت عيناه، خاصة مع تشوه أطرافها واختراق لحمها المهترئ لبعض الأغصان الخشبية الحادة. اضطرب تنفسه، وكاد يختنق بالأسفل جراء أصابته بصدمةٍ لحظية، سيطر على خوفه، وتركها تقبع في مكانها، ليصعد بتعجلٍ للأعلى محملاً بأخبارٍ ستقلب المحطة رأسًا على عقب.

.........................................................

ممارسة تلك المهام غير القانونية لا تتم دون تخطيط منظم، أو ضوابط معينة، هناك أشخاص غير معلوم هويتهم، يقفون بالمرصاد لكل من يشرد عن القطيع، أو يتصرف وفق أهوائه دون الرجوع إليهم، اعتقادًا منه أنه قادر على إدارة أزمته وحده؛ لكن ذلك يدفعه للوقوع في المحظور. أمام واجهة غرفة مكتبه الزجاجية -والتي تمتد بطول الحائط- حملق ذاك الرجل المهيب في الفضاء الشاسع الممتد لمساحة لا نهاية له، وكأسه المليء بالنبيذ يلامس شفتيه. لم يدر رأسه للواقف خلفه عندما سأله مستفسرًا بلكنته الأجنبية:

-ماذا قررت بشأنه؟

تذوق النبيذ باستمتاعٍ رجل خبير، وقال بنبرته الباردة:

-أصبح ورقة محترقة.

سأله ليتأكد من جديته:

-إذًا أنت مع التخلص منه؟

جاوبه رافعًا كأسه للأعلى، ويده الأخرى تندس في جيبه:

-وفي أسرع وقت.

حادثه بلهجته الرسمية:

-كما تأمر سيدي.

.......................................................

على حسب الموعد المتفق عليه، اختال في مشيته وهو يتجه نحو الطاولة المحجوزة باسمه في هذا المطعم الراقي المطل على الخليج، ساعدته ثقته الكبيرة في نجاح خطته على الظهور بمظهر القوة، خاصة مع استجابة ضحيته له، واستجدائها المستميت له بألا يتهور ويفسد حياتها المستقرة بذكريات الماضي المدنسة. مرر أنظاره على الجالسين من حوله، بدت الأجواء طبيعية، باعثة على الهدوء، حتى الخلفية الموسيقية عززت من هذا الشعور، غاص "آسر" في مقعده، واضعًا ساقه فوق الأخرى، تقدم نحوه أحد الندلاء بصينية تحمل قهوته، وضعها أمامه وهو يبتسم له بعمليةٍ، بدأ في ارتشافها على مهلٍ وهو ينتظر بترقب قدوم ضيفته، لمحها من على بعدٍ، فدفع مقعده للخلف لينهض مستعدًا لاستقبالها، دنت منه إحدى السيدات بخطواتٍ شبه عاجلة، ونظراتها القلقة تحوم حولها، طمأنها ببسمته المغترة عندما أصبحت في مواجهته:

-متخافيش، المكان ده محدش هيعرفك فيه....

ثم أشار لها بيده لتجلس، وتابع بنفس الهدوء المستفز:

-اتفضلي، مش معقول هنتكلم واحنا واقفين.

بعصبيةٍ متوترة جلست قبالته، وضعت المرأة حقيبتها على الطاولة، وصاحت فيه؛ وكأنها تنذره:

-اعمل حسابك دي آخر مرة هدفعلك فيها فلوس.

أسبل عينيه معاتبًا إياها بنعومةٍ زائفة:

-طب مش نسلم على بعض الأول ونشرب حاجة كده؟ ده احنا بقالنا زمن ماشوفناش بعض.

صاحت في استهجانٍ منفعل:

-وأنا مش عايزة أعرفك تاني، إنت صفحة واتقفلت من حياتي.

رمقها بنظرة محذرة قبل أن يرد عليها:

-اهدي كده يا مدام، ماتنكريش إن لولا معرفتك بيا مكونتيش بقيتي هانم دلوقتي.

احتقن وجهها من تلميحه القذر، وهدرت به:

-إنت مش محترم!

قست نظراته، وسقط القناع عن وجهه الحقيقي، ليواصل تهديدها بتبجحٍ مستفز:

-هتغلطي فيا هزعلك، ماتنسيش الفيديو بتاعك لسه معايا.

تضرجت بشرتها بمزيدٍ من الحمرة المنفعلة، وسألته بنبرةٍ متشنجة:

-إنت بتعمل كده ليه؟ هتستفاد من أذيتنا إيه؟

ببرودٍ أجابها، وهو يرفع فنجان قهوته إلى شفتيه:

-ده شغل.

كزت على أسنانها متسائلة بهسيسٍ حانق:

-بتعتبر ابتزازك ليا ولغيري بفيديوهات مش حقيقية شغل؟

هز رأسه إيجابًا ليستفزها، فتشدقت قائلة بنزقٍ:

-لأ ده بيتقال عليه حاجة تانية!

رفع سبابته أمام وجهها الغاضب يحذرها بسخافةٍ باردة:

-لسانك يا بيبي.

لعنته بسبة لم تفارق ثغرها، ثم قامت بفتح حقيبتها لتخرج منها مظروفًا يحوي عملات أجنبية، مدت يدها به في اتجاهه، وقالت بغيظٍ واضح عليها:

-خد، ومش هادفع تاني.

سحب المظروف من أسفل يدها، وتلك النظرة المتوهجة تشع من عينيه، ثم قال بابتسامةٍ منتشية:

-تسلمي يا حبي.

وقبل أن يدس المغلف في جيب سترته، قبضة قوية أوقفت يده مصحوبة بلهجة آمرة:

-عندك!

رفع "آسر" عينيه للأعلى لينظر بذهولٍ صادم لرفيقه الذي حجب بطوله الفاره الرؤية عنه، لعق شفتيه، وردد بتعابير مدهوشة؛ وكأنه لم يفق من صدمته بعد:

-مين؟ "ماهر"؟

ابتسامة غرور، تتبعها نظراتِ فخرٍ اعتلت قسمات وجه "ماهر"، ظل قابضًا على يده، وأخبره بنبرة بدت هازئة:

-منور يا "آسر".

حاول أن يتمالك نفسه محاولاً السيطرة على انفعالاته، تنحنح بربكةٍ ملحوظة، وسأله بلجلجة بائنة في نبرته:

-إنت.. بتعمل إيه هنا؟ جاي زيارة؟

وفي لمح البصر تشكلت حول الطاولة طوقًا أمنيًا من أفرادٍ ظهروا بملابسٍ رسمية، باعد "آسر" أنظاره المتوترة عنهم، ليحدق في وجهه عندما أخبره ببساطةٍ:

-لأ، ده أنا جاي عشانك مخصوص، أقبض عليك.

ارتفع حاجباه للأعلى في دهشةٍ، وسأله بوجهٍ بُهت بشكلٍ ملحوظ:

-تقبض عليا؟

اكتسى وجه "ماهر" بالجد عندما أكد عليه:

-أه طبعًا...

ثم تحولت أنظاره نحو المرأة التي تغيرت ملامحها للسرور، وتابع:

-هو أنا مقولتلكش إن الهانم مرتبة معانا عشان نمسك بيك مُتلبس؟

انفجر مستنكرًا في غضبٍ جم:

-ده كدب، أنا محامي، وده مقدم أتعاب اتفاق شغل بينا، يعني أقدر أطعن على المهزلة دي بسهولة.

ربت على كتفه معلقًا عليه باحتقارٍ واضح:

-اطمن يا اللي كنت صاحبي، مش هاتعرف تطلع منها المرادي، لأن كله متسجل صوت وصورة.

برقت عيناه أكثر وهو محدق به مطولاً بتعابيره الذاهلة، فرغم باعه الطويل في استدراج السُذج من النساء للإيقاع بهن في شباكه الغريقة، لاستغلالهن واستنزافهن ماديًا حتى تفرغ حاجته منهن، إلا أنه لم يتوقع أن يتم الإمساك به بتلك السهولة، وعلى يد رفيقه، كان حدوث ذلك أبعد ما يكون عن الخيال. للحظة توقف تفكيره عن العمل، تضاربت أفكاره، وبدا مشتتًا، أعمل عقله بجهدٍ شديد ليصل إلى حل ينجيه من تلك المعضلة الشائكة. أحس "آسر" في خضم هذا الموقف بألمٍ يجتاح أسفل معدته، تغاضى عن حدته التي ازدادت تدريجيًا، وحاول أن يشرح لرفيقه معللاً بأكاذيب اجتهد في ارتجالها:

-إنت فاهم غلط يا "ماهر"، صدقني دي واحدة مش تمام، وضحكت عليا، وأنا كنت بأجاريها في اللي بتقوله، إنت تعرف عني كده؟ ده احنا عِشرة سنين، وأختك آ...

قاطعه بحزمٍ:

-ماتجيبش سيرة "علا" على لسانك.

بالكاد تمكن من ضبط أنفاسه التي اضطربت، وهتف يرجوه، متلمسًا الفرصة لإعادة صياغة الأحداث:

-ماشي حاضر، بس إديني فرصة أصلح سوء التفاهم اللي حصل ده، إنت لو سمعتني للآخر هتعرف إني مظلوم.

قبض عليه من ذراعه، ليرد برسميةٍ بحتة:

-إنت هترجع معايا على مصر، وهناك هنتحاسب على القديم والجديد.

تقلصت أحشائه بوخزاتٍ أعنف، وأحس بنيرانٍ حارقة تتصاعد في بدنه، تضاعف عرقه المتصبب من كامل جسده، تلقائيًا وضع يده أسفل معدته ليمسك بها، كز على أسنانه مستنجدًا:

-بطني بتتقطع، الحقني يا "ماهر".

تجاهل ما قاله لينظر له باستخفافٍ، قبل أن يخاطبه بما يشبه التهكم:

-مش شايف إن الحركات دي محروسة؟

لم يكن "آسر" بالمازح في إظهار ألمه، تقوس ظهره، وانحنى للأمام مقاومًا بضراوة الآلام التي تفتك به. ارتفع صوت لهاثه المتحشرج، وغرق جسده في عرقه الغزير، حتى دقات قلبه كانت تنبض بعنفٍ لم يستطع مضاهاته .. نظرة خاطفة وسط الغيمة التي حطت على رأسه سددها لوجهٍ بدا مألوفًا له، تعمد ذاك الرجل الظهور في محيطه ليرسل له رسالة صريحة صامتة وهو يرفع فنجان

قهوته للأعلى، تعني أنه قد صدر الأمر النهائي بالتخلص منه، وها قد نُفذت الأوامر. تضاعفت التشنجات في أطرافه، وترجرج كامل جسده، حتى لم يعد "ماهر" قادرًا على تثبيته. افترش "آسر" الأرضية بجسده، وفمه يريق سائلاً رغويًا غريبًا، شهقة أخيرة متحشرجة خرجت من أعماقه قبل أن يهلك صريع السم على مرأى ومسمع من الحضور المذهولين ................................................... !!!

.................................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل السابع والثمانون

بدا على وجهه خيبة الأمل والتذمر، بعد تفقده للعرق النابض في عنقه ليتأكد من موته الذي كان صادمًا له، بالرغم من مقته لكل تصرفاته المسيئة. استقام "ماهر" واقفًا، ووجه أوامره لمن حوله بتطويق المكان أمنيًا، وعدم السماح لرواد المطعم بالخروج قبل استجوابهم كل فردٍ على حد، نظرًا لاحتمالية تورط أحدهم في قتله. اتجهت أنظاره نحو المرأة التي بدت غير راضية عن احتجازها، وصاحت في غضبٍ معترضة على إبقائها قسرًا:

-يعني إيه تحققوا معايا؟ إذا كنت أنا اللي مبلغة عنه.

توجه ناحيتها، وأخبرها بهدوءٍ:

-حضرتك فاهمة إن دي جريمة قتل، وده إجراء طبيعي هيتعمل مع الكل.

سألته بنظرةٍ متشككة:

-يعني أنا مش مقبوض عليا؟

جاوبها نافيًا بنفس الأسلوب الهادئ:

-لأ.

لم يملك "ماهر" النية لاستمرار حديثه معها لولا أن بادرت بقولها الشامت:

-الحمدلله إنه خد جزائه، ده ذنب كل واحدة جه عليها في يوم، مع إنه كان يستاهل أكتر من كده.

استرعت انتباهه بكلماتها العفوية، فسألها مستوضحًا بطريقته المحققة:

-قصدك إيه يا مدام؟

هتفت بنقمٍ حانق:

-يا فندم قناع الشياكة والبراءة اللي كان موريه للكل كان وراه صندوق أسود، مليان بلاوي شبهه.

تنحنح طالبًا منها:

-ممكن توضحي أكتر؟

أخبرته دون الحاجة لأدنى رجاء لفعل هذا:

-حضرتك عارف إني مكونتش أول ضحية ليه يبتزها؟ أنا زيي زي غيري ضحك عليهم عشان فلوسهم، ولما يتكشف المستور يساومنا، إما ندفع ونخلص منه، أو يفضحنا بفيديوهات متلفقة.

احتدت نظراته متسائلاً بنظراته الثاقبة:

-إزاي؟

بشفاه مقلوبة أجابته؛ وكأنها تشمئز لذكر ما هو متعلق به:

-البيه اللي عامل نفسه محامي محترم كان بيدير مواقع دعارة وقلة أدب.

رد عليها بهدوءٍ:

-ما ده عارفينه.

جاءه سؤالها نزقًا، صادمًا وهي ترمقه بنظرةٍ ذات دلالة قوية:

-وحضرتك كنت تعرف إنه كان عاجز؟

هتف مشدوهًا:

-نعم؟

أكدت عليه معلنة عن كامل أسراره:

-أيوه زي ما قولت لحضرتك، جوازاته كلها كانت أونطة، كانت سِكة يجيب بيها تمويل لمشروعاته القذرة.

دعاها للجلوس ليقول بلباقةٍ:

-هستأذنك كده تحكيلي كل حاجة بالتفصيل.

ردت موافقة على طلبه:

-حاضر...

ومع هذا أبدت سخطها على نهايته التي بدت غير مؤلمة بقولها:

-كان نفسي مايموتش بالسهولة دي، واحد زيه كان لازم يتجلد ويتعذب مليون مرة، يدوق المرار كله قبل ما يقول حقي برقبتي.

بتريثٍ عقلاني تحدث إليها:

-حسابه عند ربنا دلوقتي، يا ريت تسيبك من طريقة موته، وتقوليلي كل حاجة عرفتيها عنه.

فرصة واتتها على طبقٍ من فضة؛ وإن لم تجدِ نفعًا الآن، لكونه أصبح ميتًا، لن تقتص منه؛ لكنها أرادت إطلاع الجميع، على ما احتواه صندوق أسراره الأسود من قاذوراته النجسة، ردت مبتسمة في نشوةٍ واضحة عليها:

-هاعرفك بكل حاجة أعرفها عنه.

..........................................................................

حول فراشه المريح بغرفته المستقلة بالمشفى، اجتمع أفراد عائلته ورفاقه المقربين، في الوقت المخصص لزيارته للمكوث معه قدر المستطاع، ورغم تذمرات إدارة المشفى من التجاوزات غير المسموح بها، والتي قد تسبب في إرهاق المريض، إلا أنه تم وضع استثناء مؤقت له، بعد اللجوء لوساطات خارجية لتسهيل الأمر. تساءل الجد "سلطان" موجهًا حديثه للطبيب الواقف عند حافة الفراش، يدون بعض الملحوظات في الأوراق المثبتة بالحامل المعدني:

-يعني هيخرج امتى؟

أجابه بابتسامةٍ لبقة:

-قريب يا حاج، هو في تحسن، لكن وجوده دلوقتي هنا أفضل عشان مايحصلش مضاعفات تضره فيما بعد.

سعل "تميم" قليلاً، وخاطب والدته المحدق بها:

-سمعتي يامه، أنا كويس أهوو، بلاش قلق عليا.

ربتت "ونيسة" على جانب ذراعه، ودعت له بابتسامةٍ متفائلة:

-ربنا ما يسمعني غير كل خير عنك يا حبيبي.

في حين أضافت "هاجر" من ورائها وهي تهدهد رضيعها:

-حمدلله على سلامتك ياخويا.

وجه أنظاره إليها متسائلاً بودٍ:

-أخبار "سلطان" الصغير إيه؟

ببسمة مشرقة أجابته، وهي ترفعه للأعلى قليلاً ليتمكن من رؤية وجهه:

-الحمدلله، بيبوس إيد خاله.

هز رأسه في حبورٍ، وقال:

-ربنا يحفظهولك.

أردف "بدير" قائلاً بحماسٍ وهو يشير بيده:

-بإذن الله الأيام الجاية العمال هتخلص توضيب الدكان، معدتش إلا حاجات بسيطة.

استدار ناظرًا نحوه ليرد:

-على خيرة الله.

في حين علق "منذر" بدوره في نوعٍ من المزاح:

-بيتهيألي كده وجودنا معدتش ليه لازمة؟ الوضع بقى مستتب، وكله تمام.

عقب عليه "بدير" بعتابٍ ودود:

-متقولش كده يا ابني، إنتو أصحاب مكان.

قال "منذر" مؤمنًا على كلامه:

-أه طبعًا يا حاج، احنا بس هنشوف مصالحنا، ومواجدين معاكو.

بمرحٍ أضاف "دياب" وهو يربت على كتف شقيقه:

-هما يومين بالعدد، وهتلاقينا فوق دماغك يا "تميم".

التفت "منذر" يرمقه بنظرة متشككة، قبل أن ينطق ساخرًا منه:

-مسمعتكش ست الأبلة، كانت سنجفتك.

ضيق "دياب" نظراته، وأكد له بابتسامةٍ عريضة:

-عيب عليك، ده أنا مسيطر برا وجوا.

كتم ضحكة هازئة منه عندما رد:

-إنت هتقولي يا "دياب".

ترديد ذلك اللقب الدارج بصورة عفوية، أعاد بقوةٍ إحياء ذكريات محدودة في خبايا عقله، كانت في وقت ما مصدر بهجته الوحيدة. حافظ "تميم" على جمود تعابيره غير المقروءة رغم الحزن الكائن في قلبه، ليبقى كما هو هادئًا، مبتسمًا، وإن ظل الألم مستقرًا في أعماقه، حتى يأذن الله بتغييره!

………………………………………………………

في غرفة أخرى، بدت مريضتها وحيدة كليًا، لا أقارب يودونها، ولا معارف يبكونها، كانت "بثينة" تستقر على فراشها، الهدوء من حولها، فيما عدا صخبًا محدودًا ناتجًا عن طنين الأجهزة الموصولة به، كانت يقظة الوعي؛ لكنها فاقدة للنطق، رفرفت بجفنيها بوهنٍ حينما أطل عليها ابنها، تأكدت أنها لا تتوهم وجوده. وقف "هيثم" أمام فراشها، يتأملها بنظراتٍ آسفة مليئة باللوم والحسرة، تقدم نحوها ليبدو قريبًا من وجهها الذي تركز عليه، لم يجلس، ولم يمسك بيدها، ليواسيها؛ وكأنه استصعب إظهار إشفاقه عليها. تخشب في مكانه، في حين احتجزت مقلتاه عبراتٍ حارقة، صوته بدا مختنقًا عندما سألها:

-عملتي كده ليه فينا كلنا يامه؟

نظرت له بعجزٍ، فتابع أسئلته المحملة بالذنب:

-استفدتي إيه في النهاية؟

فقط نظراتها بقيت مرتكزة عليها، فتل غصة احتلت حلقه حلقه، وخاطبها بألمٍ:

-لا بقيتي أغنى واحدة في الحتة كلها، ولا بقينا كلنا حواليكي.

غلف صوته المزيد من الشجن مع سؤاله التالي لها:

-تقدري تقوليلي فين "خلود" دلوقتي؟

لم يكن متعاطفًا مطلقًا مع محاولتها لتحريك كتفها المصاب وتقريب ذراعها منه، بل نبذ قربها بتراجعه خطوة للخلف، وقال كأنما يجيب على سؤاله الذي طرحه سابقًا كبديلٍ عنها:

-ماتت، بس بعد ما اتعذبت عشان تحقق أحلامك إنتي...

رأى الألم يجتاح عينيها؛ لكنه لم يرفق بها، بل زاد من لومه القاسي عليها، بصوته المتذبذب:

-إنتي خدتيها وسيلة توصلي بيها للي عايزاه، طمعتيها في حاجة عمرها ما كانت هتبقى ليها.. وفي الآخر حصلها إيه؟

طفرت الدموع من عينيه بغزارةٍ وهو يسألها:

-طب بلاش هي، قوليلي أنا بالنسبالك كنت إيه؟

المزيد من مشاعر الوجع والإحباط اجتاحته عندما استرسل في الإفراج عن مكنوناته:

-حاجة مهملة، واد خايب، مافيش فيا رجا لأني خرجت مع تحت طوعك، مع إنك زرعتي جوايا حقد وغل لجوز خالتي، ولأي حد في عيلة "سلطان"، وهما مايستهلوش كده، لومتي عليهم موت أبويا، حملتيهم كل الذنب، بس...

توقف عن الكلام لهنيهةٍ، وصوت شهقاته يرتفع قبل أن يخبرها بحرقةٍ:

-الحقيقة اللي محدش يعرفها إني...

بالكاد أطبقت على جفنيها وهي تتأمله في صمتٍ إجباري، رأى تأثير حديثه عليها، توترت نظراتها، وتقلصت عضلات وجهها، أنين مبتور خرج من بين شفتيها، بصعوبة نطق معترفًا بالحقيقة الغائبة:

-أنا السبب، أنا اللي حرقت دكانه بدون ما أقصد.

اتسعت عيناها في ذهولٍ، فاستدار متحاشيًا نظرات عينيها الجوفاء، وقال بندمٍ:

-غيري شال ذنب حاجة معملهاش، وأنا فضلت ساكت.. خايف أتكلم وأقول الحقيقة وآ...

لكنه عاد ليلتفت نحوها، ويرمقها بنظرة جامدة مسيطر عليها دموعه وهو يواصل إخبارها بمرارةٍ:

-ونفس العيلة اللي بتكرهيها هي اللي واقفة معانا لحد النهاردة، هي اللي كانت بتدور على الحق عشان تحمينا كلنا، هي اللي إنتي اتفقتي تأذي ابنهم مع الكلب "محرز"، وبنتك اتقتلت على إيديه.

كفكف عبراته بظهر كفه، وسألها بصدرٍ متهدج من انفعاله:

-قوليلي يامه طلعتي بعد ده كله بإيه؟

جاوبها بكف يضربه بالآخر:

-ولا حاجة!!

نظرة ازدراء استحوذت على عينيه وهو يتابع بصوتٍ يملأه الشجن:

-وريني بقى هتصلحي اللي فات إزاي بعد ما كله راح منك.

غص بالبكاء مجددًا، حتى لم يعد يحتمل وجوده بقربها، تراجع مبتعدًا عنها بالمزيد من الخطوات، وخاطبها بلومٍ شديد:

-"خلود" بقى هترجعيها إزاي؟ ها ياما؟ هي مش راجعة تاني...

أولاها ظهره، واتجه إلى الباب ليغادر الغرفة؛ لكن قبل أن يخرج منها، أشار لها بسبابته ملقيًا بكامل اللوم عليها للمرة الأخيرة:

-ذنب اللي حصلها هيفضل متعلق في رقبتك يامه.

نظراتها نحوه كانت زائغة، مشبعة بالعبرات، تبدو متأثرة بحديثه المؤلم، ومع هذا لم يكن قادرًا على تصديق مشاعرها كأم مكلومة، رانت من "هيثم" نظرة أخيرة منكسرة، لينصرف بعدها من غرفتها وهو موقن أن توبتها؛ وإن كانت بحق، لن تبعث الموتى من جديد.

.............................................................

بدت أفضل عن السابق بكثير، اِلتأم جرح رأسها، كما تعافت كدماتها الظاهرية، وخفت آثارها في مختلف أنحاء جسدها؛ لكن لم تندمل بعد جروحها المعنوية. مسدت "فيروزة" بيدها شعرها وجمعته معًا بربطةِ رأس صغيرة، لتتركه خلف جسدها على هيئة ذيل حصان، اتجهت إلى الفراش لتجلس عليه عندما سمعت نقرات خفيفة على باب غرفتها، تمددت وسحبت الغطاء على جسدها، ثم صاحت داعية الطارق للدخول:

-اتفضل.

تعلقت أنظارها بـ "ماهر" الذي خطا ببطءٍ في اتجاهها، ابتسمت مرحبة به:

-"ماهر" بيه، اتفضل.

كعادته سحب المقعد، وقربه من فراشها ليجلس عليه، قبل أن يسألها في اهتمامٍ، وإن عكست تعابيره وجومًا غريبًا:

-أخبارك النهاردة إيه يا "فيروزة"؟

قالت بحماسٍ، محاولة إخفاء توترها:

-الحمدلله أحسن، وجاهزة أقوم بدوري.

رفع رأسه وأخبرها بغموضٍ:

-لأ خلاص، مش مطلوب منك حاجة.

استرابت من عزوفه عن إتمام مهمتها بعد التدريب المكثف الذي تلقته في الأيام الماضية، زوت ما بين حاجبيها في استغرابٍ، ثم سألته وقد اشتد كتفاها:

-ليه؟ هو "آسر" كشف الحكاية؟ أنا مشفتوش خالص من يوم ما دخلت المستشفى.

لحظة من الصمت سادت بينهما، تخللها نظرات غريبة نحوها، إلى أن قرر "ماهر" النطق في النهاية، فأعلمها بصوتٍ أجوف:

-"آسر" مات.

تطلعت إليه باندهاشٍ لوهلةٍ، قبل أن تردد في إنكارٍ ساخر:

-مات؟ أكيد دي نكتة.

رد عليها مؤكدًا بنفس الثبات الانفعالي العجيب:

-دي الحقيقة.

هتفت في استهجانٍ، وتلك الابتسامة المتهكمة تحتل زاوية فمها:

-حضرتك بتهزر يا "ماهر" بيه؟ استحالة يموت بالبساطة دي!

واصل إطلاعها على ما لم تعلمه بكلماتٍ انتقاها بعناية:

-صدقيني يا "فيروزة" هو اتصفى.

رددت في صدمةٍ مختلطة بالذهول:

-اتصفى؟

أومأ برأسه وهو يوضح لها:

-أيوه، اتقتل.. لأنه معدتش ليه لازمة عند اللي مشغلينه.

افتر ثغرها على ذهولٍ كبير، بدت تعبيراتها ما بين الصدمة والاستنكار، لم يأتِ ببالها أن كابوسها المهلك للنفس، والمؤذي للروح انتهى هكذا فجأة، بعد أن سعت جاهدة لتتهيء نفسيًا لمكوثها معه، بتلفيق أكاذيب الحب والغرام. حملقت في وجه "ماهر" وهو يخبرها بحقيقة أخرى واقعة لا محالة:

-إنتي كده بقيتي حرة.

لم تعلق عليه، بقيت صامتة، نظراتها أوحت بأنها ما تزال تحت وقع الصدمة، ناداها بلهجة جادة:

-"فيروزة"!

انتبهت له، فأردف قائلاً بندمٍ محسوس في صوته:

-أنا أسف.

ضاقت عيناها نحوه، فاستفاض في توضيحه:

-كنت هورطك في حاجة، وأنا مكونتش عارف طبيعة البني آدم اللي كنتي عايشة معاه.

أدركت تلميحه الضمني، فغطت عليه بادعائها:

-مش .. فاهمة حضرتك.

آثر عدم الضغط عليها لتؤكد له ما خاضته من معاناة ضرتها نفسيًا، وتابع بزفرة مسموعة عبرت عن استيائه من تسرعه في الدفع بها في شيء كهذا، دون إدراكٍ جيد لأبعاد مخاطرته:

-بس أنا فاهم، وسامحيني لأني كنت هأذيكي من غير ما أخد بالي.

احتفظت بصمتها، بينما نطقت نظراتها عن الكثير من التخبط والحيرة، تأثير الخبر الصادم كان قويًا، يحتاج لمساحة من التفكير لاستيعابه، لم يجرؤ على التطلع إليها، وأكمل اعتذاره اللبق:

-أحيانًا في شغلنا ده، بنضطر نبص على الحاجة من برا، اللي يخدم مصالحنا وبس، من غير ما نتأكد كويس إن كان في حد يتضر ولا لأ، فأنا أسف يا "فيروزة".

بدت أكثر إحساسًا بالضياع والتشتت، خاصة مع إضافته الأخيرة:

-أنا مش عارف إن كنت أهنيكي على حريتك ولا أعزيكي، لكن كل اللي أقدر أقولهولك إنها فرصة تانية ليكي عشان تبدأي من أول وجديد، وتعيشي حياتك بجد.

كانت بحاجة لقول أي شيء، لتظهر له تقديرها لمجهوداته؛ لكن الكلمات المناسبة لم تسعفها، فما كان منها إلا أن تمتمت بهدوءٍ، أخفت خلفه صراعًا من المشاعر المتضاربة:

-شكرًا ليك يا "ماهر" بيه.

نهض من مقعده، وقال متصنعًا الابتسام وهو يخرج من جيبه هاتفًا محمولاً:

-تقدري تتواصلي مع أهلك يا "فيروزة"، ده رقمهم ومعاكي موبايل جديد.

نظرت إلى ما وضعه على الفراش، ثم رفعت عيناها إليه عندما طلب منها:

-بس أتمنى ماتحكيش عن اللي حصلك إلا لما ترجعي، يعني هايكون أفضل.

اكتفت بتحريك رأسها بالإيجاب، قبل أن تنخفض عيناها نحو الهاتف، ارتكزت نظراتها الشاردة عليه، حتى أنها لم تتابع مغادرته للغرفة، كما لو أنها

غاصت في ذكرياتٍ طويلة مؤلمة، أعادتها لأيامٍ تعيسة بائسة، مضت عليها بطيئة ثقيلة، ساحقة لكبريائها قبل صمودها.

.......................................................

-اتفضلي يا أم البنات، ده نصيبك عن إيراد السنادي.

قال "إسماعيل" هذه العبارة، وهو يضع على الطاولة الرخامية، أمام زوجة شقيقه المتوفي، رزمة من النقود الملفوفة برباطٍ مطاطي، خلال زيارته لها في منزلها مع ابنه "فضل". نظرت إليه "آمنة" في امتنانٍ، وقالت كنوعٍ من المجاملة:

-خلي يا حاج "إسماعيل".

رد عليها بإصرارٍ:

-لازمًا الحق يوصل لأصحابه...

ثم أسند رزمة أخرى إلى جوارها، وأتم جملته:

-وده نصيب "خليل" كمان.

شكرته على تعبه بترديدها:

-تعيش يا حاج.

أخبرها مقترحًا بعدم امتناعٍ وهو يلوح بيده:

-ولو حابة تراجعي الورق والحسابات، أنا معنديش مانع.

غامت تعابير "فضل"، واستنكر تصريحه الأخير، فقال:

-هي هتخونك يابا ولا إيه؟

نظر ناحيته قائلاً بصوته الرخيم:

-معلش، الحق مايزعلش حد.

ابتسمت له "آمنة" وهي تعيد تكرار امتنانها له:

-طول عمرك أبو الأصول يا حاج "إسماعيل".

استدار "فضل" ناظرًا إليها، ثم طلب منها بوقاحةٍ طفيفة:

-ما تعلقيلنا على شوية شاي يا مرات عمي، دماغي اتفلقت من كتر الرغي.

تحرجت منه، وردت وهي تنهض من جلستها:

-حاضر يا ابني.

انتظر انصرافها ليعاتب والده:

-يابا إنت بتديها وش ليه؟ هي مالهاش حاجة عندنا، كتر خيرك أوي إنك قايم على الأرض وطالع عينك فيها.

رمقه بنظرة محذرة وهو يسأله بلهجةٍ شبه غاضبة:

-ده حق ربنا، عايزني أكله عليها عشان ربنا ينتقم مني دنيا وآخرة؟

قال على مضضٍ:

-لأ.. بس احنا بنتعب، وآ...

قاطعه خاتمًا حديثه معه في تلك الجزئية:

-ملكش دعوة، طول ما أنا عايش هارد الحق لأصحابه.

لم يكن راضيًا عن تصرفه، فأشاح بوجهه بعيدًا، وخاطب نفسه بصوتٍ خفيض عكس سخطه:

-خليك كده طيب مع ناس ماتستهلش!

انتبه لرنين هاتف "آمنة"، فمد يده ليلتقطه، حملق في الرقم الغريب الذي ظهر على شاشته، وحين دقق النظر فيه أدرك أنه لم يكن محليًا، تحفز بشكلٍ مريب، ونهض قائلاً:

-هادي التليفون لمرات عمي.

رد والده باقتضابٍ وهو يشير له بالانصراف:

-ماشي.

لكنه لم يفعل ما أخبره به، بل اتجه نحو الشرفة، ليضغط على زر الإجابة، قبل أن يلصق الهاتف بأذنه، أتاه صوت "فيروزة" واضحًا عندما نطقت بنعومةٍ محملة بالأشواق:

-ماما.

اعتلى ثغره ابتسامة خبيثة، حتى نظراته لم تبدُ بريئة، بدا وكأن خياله الجامح يصورها له بأشكالٍ فاتنة مثيرة، تداعبه فيها بجراءة يرغب فيها، ليستثير

حواسه للتجاوب معه. وضع "فضل" يده الأخرى على صدره يمسحه في حركة دائرية، وهتف بلعابٍ يسيل من جوفه:

-أهلاً بالعروسة.

على ما يبدو صُدمت لسماع صوته، فتبدلت نبرتها للجدية وهي تغمغم:

-"فضل"؟

قال باستمتاعٍ، وبابتسامة بلهاء لن ترغب "فيروزة" في رؤيتها حتمًا على وجهه:

-كويس إنك لسه فكراني يا بنت عمي.

سألته مباشرة بجمودٍ:

-فين ماما؟

رد بنوعٍ من المماطلة السمجة:

-مش تسألي عليا الأول؟

هاجمته بحنقٍ واضحٍ:

-وأسأل عليك إنت ليه من الأساس؟ وبعدين إنت بترد مكانها ليه؟ اوعى يكون جرالها حاجة؟

أجابها نافيًا ببرودٍ استفزها:

-لأ، أمك صحتها أحسن مني ومنك.

صاحت فيه بغضبٍ متصاعد في نبرتها:

-الله أكبر عليك، إديها الموبايل خليها تكلمني.

زاد أسلوبه استفزازًا بسؤالها:

-إيه دلوقتي افتكرتي إن ليكي أهل؟

استمرت في صياحها الهادر به؛ وكأنها تهدده:

-إنت يا بني آدم، أحسنلك تودي الموبايل آ....

لم يمهلها الفرصة لإكمال جملتها، قطع عليها الاتصال، وقال ببسمة حقيرة قاصدًا استثارة أعصابها:

-كده أحسن، خلي دمك يتحرق.

ثم تعمد غلق الهاتف نهائيًا لتفشل في الوصول إليها؛ كما لو أنه بذلك يحقق انتقامه الغبي منها، التفت كالملسوع، حينما سألته "آمنة" فجأة، وقد تعجبت من وجوده بالشرفة:

-في حاجة يا "فضل"؟

تلجلج وهو يدعي بالكذب:

-لأ يا مرات عمي، كنت بأبص في الساعة، لأحسن موبايلي فصل.

ثم رفع هاتفها الموجود في يده للأعلى، وواصل ادعائه:

-وموبايلك كمان.

لم تشكك في نواياه الدنيئة، وقالت معتقدة أنها أهملت في الانتباه لخاصتها:

-أصلي بأنسى أشحنه.

تعمد تغيير الموضوع متطرقًا لآخر بصورة ملتوية:

-بأقولك إيه صحيح.

بدت منتبهة له، وسألته:

-خير يا "فضل"؟

أخبرها بغموضٍ في صيغة سؤالٍ مبطن:

-مش ناوية تعفي بنت أخوكي؟

لم يصلها مغزاه، فسألته مستفهمة:

-قصدك إيه؟

جاوبها بعد زفرة طويلة:

-الزمن غدار يا مرات عمي، فخلينا نأمنها من بدري أحسن.

ما زال عقلها في حالة من الحيرة، ولم يعِ بعد مراده، فكررت عليه سؤالها، عله تفهمه:

-إنت بتكلم عن إيه؟

بكل ما فيه من سماجةٍ قال؛ وكأنه أمر مفروغ منه:

-نظاهرها يعني يا مرات عمي، إنت راح عن بالك الحكاية دي ولا إيه؟

استنكرت تطرقه لتلك المسألة، وعارضته محتجة:

-هو أنا عملت ده لبناتي لما هاعملها لبنت أخويا؟

لامها بوجهٍ مكفهر على ما اعتبره تقصيرًا جسيمًا:

-ماهو عشان كده متنططين علينا، أنا خدتها من قاصرها وعملتها للبت بنتي.

تدلى فكها السفلي في صدمة، ثم استجمعت نفسها، وسألته:

-ومراتك "سها" وافقت؟

قال بلهجة من لا يُخير أبدًا:

-هي تقدر تنطق بكلمة، ده أنا أجيب رقبتها تحت جزمتي.

برقت عيناها وهي تسأله:

-وأبوك الحاج "إسماعيل" واقف على كده؟

بوقاحةٍ كان رده عليها:

-أنا صاحب الكلمة في عيالي، مين ما كان مالوش يقول رأيه.

اغتاظت منه، وللمرة الأولى واجهته بتحدٍ، فارضة رأيها عليه:

-وزي ما إنت حر معاهم، أنا كمان مش هاعمل حاجة لـ "رقية"، دي أمانة أبوها عندي.

عقب بشيء من الزهو:

-ما إنتي بتحافظي عليها، اسمعي كلامي وإنتي تكسبي.

كان قرارها حاسمًا معه:

-أنا هحافظ عليها، بس مش بطريقتك دي.

استهزئ برأيها قائلاً:

-بكرة ترجعي تندمي، وأنا نصحتك لوجه الله.

رفعت الصينية الفارغة التي حملتها بيدٍ واحدة أمام وجهه، وقالت بتعابيرٍ واجمة:

-اشرب الشاي يا "فضل"، زمانه برد.

رددت جملتها قبل أن تنصرف، فتصاعد الغيظ في صدره مستهجنًا على أسلوبها غير الاعتيادي في التحاور معه، كور قبضة يده، وقال متعهدًا في نفسه، وعيناه تتبعان إياها:

-بقى كده؟ ماشي يا مرات عمي، أنا مش ورايا غيرك إنتي وبناتك، وهنشوف رأي مين اللي هايمشي عليكم كلكم ........................................ !!

....................................................................

الجزء
الثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الثامن والثمانون

كان يراهن –بقوةٍ- على سجيتها الساذجة، فأمثالها من النساء محدودات التفكير، لن يستطعن -بما اعتبره عقولهن الناقصة- مضاهاة ذكائه الخارق، سيطرت عليه فكرة بغيضة، كان واثقًا بشدة أن "آمنة" لن ترتاب في أمره، إن أفسد هاتفها المحمول عن قصدٍ. وبكل ما فيه من خسةٍ ونذالة قام "فضل" بالعبث فيه، ليصبح قطعة من الخردة، لا تصلح لشيء. ابتسم في انتشاءٍ، وقال بزهوٍ مريض:

-زي الفل! الله على دماغك يا "أبو الأفضال"!

استمر في التفاخر الزائف بنفسه قائلاً؛ وكأنه يصنع المعجزات:

-آه لو كان البلد دي فيها اتنين منك، كنت عملت العجب.

وقبل أن تستريب زوجة عمه فيه، ترك الهاتف موصولاً بشاحنه، وعاد إليها متسائلاً بلهجةٍ جادة:

-أومال مافيش أخبار عن بنتك "فيروزة"؟

تنهدت قائلة بتعاسةٍ معكوسة على قسماتها:

-لا والله يا "فضل"، ربنا يرد الغايب.

تحدث من زاوية فمه قائلاً:

-تلاقيها مصدقت يا مرات عمي...

وزاد الطين بلةٍ باتهامها كذبًا:

-ما هو في ناس بطرانة، أول ما القرش يجري في إيديها تنسى أصلها، وفصلها.

استاءت من إساءته لابنتها، ودافعت عنها بضيقٍ:

-بس "فيروزة" مش كده.

استفزها بأسلوبه الوقح، فقال ليوغر صدرها ناحيتها:

-وتسمي تطنيشها ليكي إيه؟ ده حتى المثل بيقول اللي مالوش خير في أهله مالوش آ....

لم يكن ينقصه سوى صراحته الفجة ليثير أعصابه، والظروف لا تحتمل مضايقاته المستمرة، لذا قاطعه "إسماعيل" محذرًا، بتعابيرٍ غير راضية:

-ملكش دعوة يا "فضل".

رد بتذمرٍ:

-هو أنا قولت حاجة غلط؟

نهض والده من جلسته، وصاح بلهجةٍ اكتسبت الجدية، منهيًا سخافاته اللا محدودة:

-لا غلط ولا صح، بينا من هنا، لسه مشوارنا طويل.

بامتعاضٍ كبير غمغم؛ وكأنه طوع بنانه:

-ماشي يا حاج، اللي تشوفه.

أوصلتهما "آمنة" إلى باب المنزل، وأغلقته بعد ذهابهما، لتستدير عائدة إلى غرفة ابنتيها، حيث تغفل "رقية" على الفراش الذي احتضنهما سابقًا، راقبتها بشرودٍ وتفكيرها المهموم ازداد قلقًا وحزنًا على ابنتها، عاتبتها بصوتٍ لم يتحرر من حلقها:

-بقى كده يا "فيروزة" أهون عليكي؟ كل المدة دي ومافيش مكالمة منك؟

أطرقت رأسها بأسى، وتابعت في خيبةِ أمل:

-ربنا يهدي الحال.

.......................................................

بقامته الطويلة، وكتفيه العريضين، وقف أمام مدخل الدكان، على مسافة مترين، يحملق بنظراتٍ كلها تركيز، على العاملين الواقفين على السلالم الخشبية، فالاثنان يحاولان بجهدٍ تعليق اليافطة الخشبية الجديدة. لم يتوقف "سراج" عن إرشادهما لضبطها في المنتصف، خاصة أنه من أصر على إهدائها لعائلة "سلطان"، كنوعٍ من تجديد روابط الود والمحبة بينهما، ارتفعت نبرته عاليًا وهو يملي بأوامره:

-هاتها يمين شوية، اوعى تفلت منك.

وضع يده أعلى خاصرته اليسرى، وأشار بذراعه الآخر متابعًا أمره:

-كده زي الفل.

استمر على تلك الحالة المهتمة لدقائق أخرى، حتى انتهى العاملان من تثبيتها، فأثنى على مجهوداتهما، وأعطاهما من المال ما جعل نواجذهما تظهر. تأملها لبرهةٍ بإعجابٍ قبل أن تنخفض نظراته لتحدق في بقعة مجاورة لمدخل الدكان، حيث اعتاد الحاج "بدير" الجلوس على مقعده الخشبي، وأمامه طاوله صغيرة مستديرة يضع عليها فنجان قهوته. ابتسم من تلقاء نفسه وقد انتعشت ذاكرته بذكرى رؤيته لـ "هاجر" للمرة الأولى، وبدا وكأن الأمر قد حدث بالأمس القريب.

آنذاك كان متواجدًا مصادفة بالدكان، منتظرًا إفراغ إحدى شاحناته لحمولتها الثقيلة، خفق قلبه بتوترٍ، حين أبصرت عيناه وجهًا نضرًا، يعكس لطافةٍ محببة للنفس مقبلاً عليه، تلبك في جلسته، وأخفض نظراته سريعًا مستشعرًا بحرجٍ غير مبرر، خاصة مع صوتها الناعم المتسائل:

-فين "تميم" يابا؟ المفروض يوصلني المدرسة دلوقتي، عاوزة ألحق الدرس.

أجاب "بدير" بلهجته الجادة:

-أخوكي خد العربية يخلص مشوار، شوية وهتلاقيه جاي.

زمت شفتيها للحظة قبل أن تنطق بتبرم:

-بس أنا كده هتأخر عليه، ومش هالحق الشرح من أوله.

وجد "سراج" لسانه ينزلق من تلقاء نفسه مقترحًا:

-أنا معايا العربية، تعالوا أوصلكم يا حاج مطرح ما تحبوا.

اعترض "بدير" بتعابيره الجادة:

-لأ يا ابني مايصحش.

أصر عليه "سراج" بسمة صغيرة، وعيناه تتقاتلان لعدم النظر ناحيتها:

-ما احنا أعدين مابنعملش حاجة، وعقبال ما الرجالة ينزلوا البضاعة نكون روحنا وجينا.

أخبره بحرجٍ لم يخفه:

-أنا كده هتعبك.

رد متمسكًا برغبته:

-تعب إيه بس، العربية موجودة، ومافيش حاجة ورايا...

نظرة سريعة اختطفها نحوها قبل أن يضيف بلجلجة خفيفة:

-بينا يا حاج عشان .. ست البنات.. تشوف مصلحتها.

شكره "بدير" مبديًا عرفانه بجميله:

-تعيش يا ابني ...

ثم وضع يده على كتف ابنته ليدفعها نحو سيارته وهو يأمرها بهدوءٍ:

-تعالي يا "هاجر".

وكأنه بلغ قمة سعادته في لحظة مميزة، حينما استضافها في سيارته، وجلست بالمقعد الخلفي، أحس بدقات قلبه تتصاعد في فرحةٍ غير مسبوقة، رغم أن الأمر لا يستحق؛ لكن وجودها معه بأدبها الواضح، وحياءها الخجل أعطاه لمحة من السرور. ظل "سراج" جالسًا في سيارته عندما ترجلت مع والدها بالقرب من مدرستها، راقبها بعينين تلمعان بشدة، لم يعرف أنه كان يبتسم، اختفت بسمته وتجهم وقد أرهف السمع لتعليقًا سخيفًا يأتي من جواره:

-شايف الراجل الشايب ده ماسك مُزة طلقة.

اتجهت أنظاره المحتدة إلى حيث مصدر الصوت، فرأى شابين يتسكعان على بُعد متر من جانب سيارته، وعلى ما يبدو لم ينتبها لوجوده بها. أضاف الآخر بلهاثٍ طفيف:

-احنا نستناها أما تخلص، ونجرب حظنا معاها.

لم يستطع "سراج" ضبط أعصابه، تصاعد غضبه المحموم إلى رأسه، وشعر بحتمية إخراسهما بعد أن يلقنهما الدرس الذي يستحقانه. هبط عن سيارته، صافقًا الباب بعنفٍ لينتفض الاثنان على إثر قوة الصوت، وقبل أن يتفوه الشاب الأول بكلمة، سبقته لكمة في فكه جعلت الحروف تتحول لصراخ متألم، ثم ناول الآخر ركلة قاسية في ركبته، أجبرته على الانحناء والتأوه، قبل أن يوجه قبضته المتكورة إلى أسفل معدته، وكل ذلك مصحوبًا بلعناتٍ مهينة لكليهما. واصل "سراج" تعنيفهما بشراسةٍ مفرغًا كامل شحنته الغاضبة فيهما، إلى أن خرج "بدير" من المدرسة، أسرع ناحيته متسائلاً:

-في إيه يا "سراج"؟

صمت للحظاتٍ ريثما ركض الشابان هاربين من أمامه، فالتفت ناحيته ليرد وهو ينفض كفيه معًا:

-مافيش حاجة يا حاج، دول شوية عيال ناقصة رباية كنت بأعرفهم غلطهم.

مسح "بدير" براحته على ظهره ليحثه على التحرك قائلاً له:

-طب تعالى احنا نرجع الدكان، البت لسه قدامها ساعتين، وهايكون "تميم" رجع يبقى يروحلها.

رفع رأسه للأعلى ليلقي نظرة أخيرة على المبنى، وقال بتنمرٍ خفيف:

-ماشي يا حاج.

..................................................................

جلس عند قدمي والدته، على حشية من القطيفة، تفترش الأرضية، حيث اعتبرها جلسته المفضلة حينما يفضفض معها بأريحية تامة. استدار "سراج" برأسه مركزًا نظره مع حركة يديها وهي تقشر ثمرة البرتقالة، وأضاف بتنهيدة شبه حارة، وخياله يجسد له طيفًا لوجهها الناعم:

-أما يامه بنته دي حكاية! تقول للقمر قوم وأنا أقعد مطرحك.

ضحكت أمه ضحكاتٍ صغيرة عذبة، وقالت في استمتاعٍ:

-للدرجادي يا "سراج"؟

أكد عليها بعينين تشعان بوهجِ الحب:

-وأكتر يامه.

أزاحت والدته البقايا البيضاء عن الفصوص، وناولتها لابنها وهي تخبره:

-اللي أعرفه إن مرات الحاج "بدير" ست كُمل، وبنتها سـتات الحتة بيتكلموا عن أدبها وأخلاقها، بس محالفنيش الحظ أشوفها.

علق عليها وقد ارتخت نظراته:

-تسلمي يامه، ما أنا يدوب لمحتها بالصدفة، ساعة ما وصلتها مع أبوها.

ضحكت مجددًا، ومازحته:

-ما إنت من ساعتها حالك متشقلب.

أطرق رأسه متسائلاً بحرجٍ:

-هو أنا باين عليا؟

ردت مؤكدة بتسليةٍ وهي تعبث برأسه:

-ده أنا أمك وعرفاك أكتر من حالك، ربنا يجعلك نصيب معاها.

عاد ليتطلع إليها مرددًا برجاءٍ:

-يا رب ادعيلي يامه...

تناول فصًا مما معه، لتسيطر على نبرته مظاهر الجدية وهو يكمل:

-أنا عمال اسأل وأطأس من بعيد لبعيد كده، عشان أعرف إن كان في حد متكلم عليها ولا لأ...

توقف للحظة ليبتلع ما في جوفه، ثم تابع:

-وماينفعش اكلم أخوها كده خبط لزق، دمه حامي، ومابيستحملش الهوا على أهل بيته، جايز يفهمني غلط.

اقترحت عليه باهتمامٍ:

-خلاص شوفلك حد من القريبين منهم اسأله، واللي فيه الخير يقدمه ربنا.

بدا مترددًا وهو يخاطبها:

-في دماغي اتكلم مع "محرز"، أنا شايفه مناسب، باعتباره دراع الحاج اليمين، هاخد وأدي معاه بالمحسوس.

حذرته والدته بملامحٍ جادة:

-بس خد بالك في الكلام معاه.

اكتسى وجهه بالجد، وقال مؤمنًا عليها:

-اه اطمني، أنا هافهمه إني طالب القُرب، مش حاجة تانية لا سمح الله.

أبدت ترحيبها بإقدامه على تلك الخطوة، وأضافت:

-خلاص يا ابني، وأنا هازور الست أمها وربنا يكتبلك كل خير يا ابني.

هلل بابتسامة اتسعت معها نظراته المتفائلة:

-ايوه يامه ادعيلي.

.................................................

ليلتها انتظر بكل ما يعتريه من لهفةٍ وأشواق عودتها إلى المنزل، لتطلعه على نتائج زيارتها الودية لعائلة "بدير"، لم يستطع التركيز في عمله، ولم يبقَ لوقت متأخر في دكانه بالسوق، ولم يجرؤ على إيصالها، آثر البقاء بعيدًا متحملاً تبعات الانتظار المشوق. كالأطفال الصغار وقف "سراج" أمام الباب عندما عادت يستنطقها بصبرٍ نافذ:

-ها شوفتيها يامه؟ وإيه رأيك؟

قالت بزفيرٍ لاهث وهي تنزع دبوس طرحتها عنها:

-طب سيبني أخد نفسي كده.

تبعها نحو أقرب مقعدٍ جلست عليه، ووقف فوق رأسها يلح عليها:

-طمنيني بالله عليكي.

رفعت عينيها إليه، وردت بعد ابتسامةٍ باعثة على الراحة:

-مش مخطوبة، ولا في حد متكلم عليها خالص.

هلل في سعادة غامرة:

-اللهم صلي على النبي، أيوه كده.

أكملت والدته حديثها بما يشبه المدح:

-والشهادة لله هما عيلة زي الفل، تشرف بصحيح، وأنا رأيي أول ما تطلع نتيجة مدرستها تكلم أبوها على طول.

دون تفكيرٍ حسم أمره قائلاً:

-اتفقنا يامه، هاكلم الحاج "بدير"، وأرتب معاه.

لكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، وتوترت الأجواء من لا شيء، ليصبح ما تمنى حدوثه يومًا في مهب الريح، بل وتحولت مشاعر الألفة لعداءٍ بغيض، بسبب الشائعات المغلوطة التي انتشرت على الألسن، دون أن يُعرف مصدرها، لتصل في نهاية المطاف لشجار دموي، تبعثرت فيه ما ظن أنها صداقة الرجال.

أفاق "سراج" من شروده الذي طال على صوتٍ مزعجٍ لأحد العمال، فتدارك نفسه، ونفض ما دهمه من ذكرياتٍ، ليتحرك في اتجاه سيارته، والحنين يحتل قلبه، بل ويستحثه على استعادة ما كان له يومًا.

.....................................................................

سمح له الطبيب بالخروج من المشفى، والعودة إلى منزله، بشرطِ ألا يبذل مجهودًا يضر بجسده، خاصة ساقيه، لانعكاس الضرر الأكبر عليهما جراء حادثته الأخيرة، فأكد عليه "تميم" التزامه بهذا؛ وإن لم ينفذ كافة أوامره، فبعد مكوثه لما يقرب من أسبوع متنقلاً بين الغرف، عندما يشعر بالملل، لا يفعل شيئًا مهمًا، ضجر من حاله، وأحس بأن الإعياء لن يفارق بدنه ما لم يعود إلى عمله، لذا قرر

الذهاب إلى الدكان، وقضاء نهاره هناك. اعترض عليه والده، فسأله بتجهمٍ غير راضٍ:

-برضوه مصمم يا "تميم"؟

قال وهو يمشط شعره بيدٍ، ومستندًا باليد الأخرى على عكازه الطبي:

-أنا عايز أشوف الناس، تعبت من رقدة البيت.

لام عليه تسرعه في قراره بإظهار احتجاجه الواضح:

-ده إنت لسه خارج من المستشفى مابقالكش كام يوم؟ لحقت؟

التفت ناظرًا إليه، ورد معاندًا:

-يابا بأقولك زهقت، خليني أشغل بالي بالشغل.

أمام إصراره تنهد "بدير" مغمغمًا:

-أنا خايف عليك يا "تميم".

أكد عليه بهدوءٍ:

-ما أنا مش هاعمل حاجة تتعبني، هاظبط الدفاتر، وأشوف الفواتير اللي علينا.

استسلم في الأخير لرغبته، ورضخ له معقبًا:

-اللي يريحك.

اقترب "تميم" من والده، وانحنى مقبلاً كتفه وهو يدعو له:

-ربنا يخليك ليا يابا.

.........................................................................

وقفت عند أعتاب الغرفة تتطلع إليه بنظراتها المشفقة، كانت متفهمة للظروف النفسية السيئة التي يمر بها، احترمت رغبته في الانفراد بنفسه، والابتعاد عن الآخرين، معتقدة أن ذلك لن يدوم إلا لفترةٍ مؤقتة؛ لكنه تمادى في عزلته كثيرًا، فأصبح وحيدًا، لا يخاطبها إلا قليلاً، ولا يشاركها في أي مظهر من مظاهر الحياة اليومية. فاض بها الكيل، وعقدت العزم على إخراجه من بوتقة أحزانه. بكل ما فيها من ضيقٍ اندفعت لغرفة نومهما المعتمة، متجهة نحو النافذة، أزاحت الستائر عنها، لتسمح لضوء النهار بالتسلل إليها، والتفتت نحو الفراش المستلقي عليه، تعاتبه بعطفٍ، يتخلله القليل من الجدية:

-اللي إنت بتعمله يا "هيثم" ده ماينفعش!

تقلب على جانبه، ساحبًا الغطاء أعلى رأسه، وقال بخشونةٍ:

-سبيني لوحدي يا "همسة".

هتفت فيه باستياءٍ:

-يعني عاجبك منظرك وإنت كده؟

صاح بتعصبٍ، وهو يبعد الغطاء عن وجهه ليرمقها بنظرة واجمة:

-يووه، ما تزهقنيش.

أطلقت زفرة طويلة من صدرها، قبل أن تسحب شهيقًا عميقًا تثبط به مشاعرها المنزعجة، ثم دنت من الفراش، وجلست على طرفه، طالعته بنظراتها الحنون قبل أن تستطرد بنبرة راجية:

-يا "هيثم" أنا صعبان عليا اللي إنت عامله في نفسك، كل واحد بياخد في الآخر نصيبه، وربنا كاتبلهم كده.

بضيقٍ يشوبه الحدة صاح بها:

-وأنا مش عايز أشوف وش حد، أنا مبسوط كده.

نفذ صبرها من عناده العقيم، وردت في عصبيةٍ:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، بجد أنا تعبت، ومابقتش عارفة أعمل إيه معاك.

أدار جانبه للناحية الأخرى، وقال ببرود استفزها:

-تسبيني أنام.

قست عينا "همسة"، وانتفضت ناهضة لتنذره بدمدمة غاضبة:

-ماشي يا "هيثم"، بس يكون في معلومك أنا مش هاسكت على كده!

غادرت الغرفة، والعصبية تملأ تعبيراتها، كتفت ساعديها معًا، وهتفت بعزمٍ:

-لازم حد يساعدني من عيلته، وأنا مش قادراله لوحدي.

......................................................................

عملت بنصيحته الخبيرة بعد تفكيرٍ ملي، ألا تسرد ما مرت به هاتفيًا، فبعض المسائل لا يستحب قولها من على بعد، إذًا لترجئ مشاعر الدعم والمؤازرة ريثما تقابل عائلتها وجهًا لوجه، عل وجودهم يخفف من وطأة ما قاسته في غربتها، ويمنحها دفء قربهم السلوى والسكينة. طوال الأيام المنصرمة، لازمها "ماهر" في كافة خطواتها القانونية، للانتهاء من كل ما يتعلق بـ "آسر"، فتطوي صفحته للأبد. اعتقدت "فيروزة" خلال محادثتها الأخيرة أن ما يقوم به معها بدافع الشفقة، خاصة لتوهمها بأنه قد تفقه لمسألة عذريتها، ليس لكون زوجها من يعاني من علة خطيرة؛ ولكن لاعتقادها الراسخ بأن تشوهها الجسدي هو ما حال دون إتمام زيجتها. ولم تتطرق للحديث عن هذا الأمر منذ تلميحه المتواري في المشفى، أبقت سرها لنفسها.

بلغت أخيرًا نهاية السعي، وعادت إلى موطن أمانها، تاركة خلفها ماضيًا لا تفخر به، فقط لحظات الوداع من "كاران"، والطبيب "هاني" هي ما علقت في ذهنها، وجدت نفسها تبتسم ابتسامة باهتة، عندما تذكرت حديث الأول:

-إن جئت لمصر، سأزورك حتمًا مع عائلتي.

رحبت بهذا، وقالت بابتسامةٍ منمقة:

-سأسعد بذلك.

أعطاها تذكارًا –على هيئة بلورة- لتحتفظ به، فنظرت له مطولاً وبترددٍ، فتلك الهدية نشطت ذاكرتها بمثيلتها، عندما أهداها لها "آسر" قبل أشهر؛ لكنها تحطمت في لحظتها، بسبب حركة فجائية -لا تعلم إن كانت غير مقصودة أم

متعمدة- من "تميم"، وقد كان بارعًا في إغاظته، واستثارة أعصابه من العدم. لاحت بسمة أكثر غبطة على شفتيها، وهي تستعيد المشهد في مخيلتها، برقت عيناها في دهشة غريبة مستنكرة تفكيرها فيه، غطت سريعًا على ابتسامتها بلمحة من الجدية، وردت في امتنانٍ وهي تشير بيدها:

-شكرًا لك "كاران"، على الهدية، وعلى كل شيء.

أوصاها بلكنته التي مزجت بين العربية ولغته:

-انتبهي لنفسك "فـ..اروزا".

تنهدت على مهلٍ وهي تستفيق من دوامة شرودها، على إثر الهزة العنيفة التي أعادتها لأرض الواقع، حملقت من نافذة الطائرة لوهلةٍ، عندما بدأت تستقر على مدرج الهبوط، باعدت أنظارها، وأغمضت عينيها بقوةٍ، ثم حبست أنفاسها في ترقبٍ. ومع زيادة الاهتزازات تشبثت بقبضتيها في مسندي مقعدها، أحست بأمعائها تتقلص، ربما لرهبتها من المجهول الغامض الذي ينتظرها بالأسفل، خف الشعور القابض لصدرها تدريجيًا، بإعلان المضيفة عن وصول لأرض الوطن. فتحت "فيروزة" عينيها، ورفرفت بهما لعدة مراتٍ، قبل أن تدور بعشوائية على الأوجه المتباينة في فرحتها، على عكسهم كانت واجلة القلب، متخبطة الفكر. تطلعت أمامها بنظراتٍ بدت تائهة وهي تسأل نفسها:

-يا ترى مستنيني إيه هنا؟

.......................................................

في ميعاد الزيارة اليومي بالمشفى، جاءت إليه على الموعد بالضبط، ومعها طفلته، لتقضي الأخيرة وقتها بصحبته، فتنعم بأحضانه الأبوية، وإن لم يضمها فعليًا. جلست "رقية" على الفراش بجوار أبيها، وأمامها على المقعد استراحت عمتها، استطردت الأخيرة تُعلمه بما أقدمت عليه:

-أنا دفعت يا "خليل" فلوس المستشفى من نصيبك في الإيراد، ونصيبي هاحطه في مصروف البيت، ومتقلقش على "رقية"كل اللي نفسها فيه هاجيبه، وربنا يقومك بالسلامة.

قال بصعوبةٍ، وفي عينيه استجداء عاجز:

-خـ..رجيني.. من.. هـ..نا.

قطبت جبينها مرددة في استنكارٍ:

-أخرجك؟ هو ده ينفع؟

كرر عليها بصوتٍ متقطع:

-عـ...ايـ..ز أرجع .. بـ..يتي.

اعترضت على رغبته موضحة له:

-يا "خليل" الدكاترة هنا واخدين بالهم منك، وآ...

قاطعها بنبرةٍ بدت باكية متوسلة:

-طلـ..عيني.. يا .. "آمنة".

لم تتحمل رؤيته يستعطفها، فنهضت من مكانها، وانحنت نحوه لتربت على كتفه قائلة:

-حاضر يا خويا، اللي إنت عاوزه هاعمله، هدي نفسك بس.

..........................................................

ارتفعت وتيرة القلق في عروقها النابضة، عندما توقفت السيارة أمام مدخل منزلها، دفعت الأجرة للسائق، وترجلت منها تنتظر مساعدته لها في إخراج حقيبتها، شكرته على ذوقه، وبدأت في شحذ طاقتها المعنوية لتبدأ بالسير نحو الداخل. للغرابة شعرت بأن المنزل لم يعد كما كان سابقًا، السكون المريب من حولها عزز هذا الشعور بقوةٍ، في الأغلب كانت أصوات صراخ أبناء خالها ترن في جنبات المكان، وتوبيخات "حمدية" تكاد تسمعها من ناصية الطريق، بالإضافة لصوت المذياع أو التلفاز من شقة والدتها؛ لكن لا شيء، فقط حفيف الهواء يحيطها.

جذبت قميصها الأسود للأسفل، ولفظت زفيرًا ثقيلاً من صدرها، مستشعرة انقباضة قوية في قلبها، غالبت توترها، وكبحت هواجسها لتصعد إلى الأعلى. أمسكت بحقيبة يدها، وفتحتها لتفتش عن المفتاح فيها كلزمة تلقائية معتادة. توقفت عن البحث متذكرة أنها تركته قبل أن تسافر في رحلتها المشؤومة، التي ستظل روحها مدموغة بآثارها. بعد تفكيرٍ متأنٍ وطويل، توصلت إلى قرار بدا الأنسب لها، يقيها من الحقد والشماتة، لما لا تكون معاناتها مقيدة، حبيسة وجدانها؟ ربما في هذا السلامة لروحها قبل غيرها.

شعرت "فيروزة" بالخجل من نفسها، ليس لأنها كانت ضحية لمخادع حقير، وإنما لتحميل أسرتها عبئها من جديد. عبست ملامحها من واقعية أفكارها، وبدأ الحزن يطفو على نظراتها، حاولت أن تخفي آلامها، لترسم ابتسامة مفتعلة على ثغرها وهي تطرق على الباب، وكيف تُنير وجهها بسمة كهذه ومن المفترض أنها تحتدُ على زوجها؟ تراجعت عن هذا، وفضلت أن تكون تعبيراتها عادية.

دقت الباب مرة ثانية، وثالثة، ورابعة .. ظل السكوت هو سيد الموقف، مما أخافها كثيرًا. ألصقت حقيبة سفرها بباب المنزل، واتجهت للدرج لتصعد إلى شقة خالها، بالنسبة لها، لم يكن وجه زوجته "حمدية" من الأوجه المستحب رؤيتها بعد رحلة شقائها، فتطفلها السمج لن تطيقه حاليًا. تحاملت على نفسها، وواصلت صعودها، طرقت على بابه، ثم قرعت الجرس، ولدهشتها لم تجد أدنى استجابة، وكأن المنزل هجره قاطنيه! دب الخوف في قلبها، وتساءلت بملامح باهتة:

-هما راحوا فين كلهم؟

لعقت شفتيها ورددت بتوجسٍ:

-ربنا يستر ومايكونش حصلهم حاجة.

عاتبت نفسها بقسوةٍ لتقاعصها عن إعادة الاتصال بوالدتها:

-مكانش لازم اتأخر كل ده عنها

بحثت في حقيبتها عن هاتفها المحمول، ولسوء حظها نفذت بطاريته، فانزعجت أكثر. طرأ ببالها أن تتوجه لبيت توأمتها، فمن المحتمل أن تكون والدتها في زيارة لها، أراحها ذلك التفكير، ودون ترددٍ استدارت مغادرة المكان، وآمالها معقودة على اللقاء بكلتيهما هناك.

.................................................................

تصارعت بداخلها الكثير من المشاعر المتضاربة، وهي تخطو خطواتها المتمهلة إلى داخل بناية عائلة "سلطان". فبين جدرانه شهدت على وقائع مؤسفة، أجبرتها على اختيار طريق مملوء بالشوك، لتتأذى وحدها بوحشيةٍ على طول دربه. حاربت "فيروزة" أوجاعها المغموسة بنزيف قلبها، لتتقدم في خطاها. أمسكت بالدرابزين، ودفعت جسدها للتحرك للأعلى، مضت سريعًا في صعودها، مانعة عقلها من التفكير في شيء.

توقفت أمام باب منزل توأمتها، طرقت عليه بقبضتها المضمومة، بعد أن قرعت الجرس، ثم تراجعت خطوة للخلف وهي تسحب أنفاسًا عميقة تهدئ به من توترها. انتظرت مطولاً قبل أن تكرر المحاولة، وذاك الهاجس المزعج والمتساءل يلح في رأسها، أين ذهب الجميع؟ لم تجد استجابة بسيطة تشير لوجود أحدهم بالداخل، ازداد قلقها، وانعكس على وجهها الشاحب. تجمدت قدماها عند الدرج وهي تفكر في حلٍ أخير، لم يعد غيره لتلجأ إليه.

هبطت للطابق السفلي، وصوت دقات قلبها المتوتر يرتفع بين ضلوعها، نازعت شيئًا بداخلها، أربكها على نحو غريب، قبل أن تجد نفسها واقفة في مواجهة

الباب الخشبي. تنفست "فيروزة" بعمقٍ، واستجمعت جأشها لتدق عليه، وتلك الرعشة الخفيفة تتسرب إلى جلدها. في خطوةٍ متخاذلة منها، فكرت في التراجع قبل أن تلامسه؛ لكن فسدت أمنيتها بفتح الباب بغتةً، ليجد الهائم في أحزانه، طاووسه المهاجر، بشحمه ولحمه، قد عاد إلى وطنه العزيز، يناظره عن قربٍ خطير، بدا –لعمره- مستحيل التحقيق. خفق الفؤاد بخفقةٍ، بعثت بقوتها نبض الحياة فيه من جديد، وانفرجت الشفاه تنادي بهمسٍ يملأه الحنين:

-"فيروزة" ............................................... !!!

.............................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل التاسع والثمانون

في مشورته الحكيمة كانت المساعدة الخبيرة التي تحتاجها، للتعامل مع حالته العنيدة، لجأت بعد تفكيرٍ مضنٍ إلى الجد "سلطان" طالبة منه الوقوف بجوارها، لإخراج زوجها من حالة الاكتئاب المستبد به مؤخرًا، خاصة بعد انعزاله عن الجميع، وعزوفه عن البوح بما يعتريه من مشاعر مثقلة بالهموم، خشيت من تدهور وضعه، وربما حدوث الأسوأ، فبدا ذلك الاختيار الملائم حاليًا، وعلى طرف الفراش جلست "همسة" في مواجهة مقعده الجالس عليه، ثم سألته بتوترٍ، وهي تتطلع إليه:

-يعني هتكلمه يا حاج؟

أكد عليها بصوته الهادئ:

-أيوه يا بنتي، هاطلعه، ومعايا "بدير" كمان.

شكرته بامتنانٍ شديد:

-ربنا يخليك ليا، أنا مش عارفة من غيركم كنت هاتصرف إزاي.

بابتسامةٍ صافية تعكس حنانه الأبوي أخبرها:

-ده ابننا، واللي مر بيه مش سهل، ولولا إن الواد ربنا بيحبه مكانش اتجوز واحدة بنت أصول زيك.

قالت ببسمةٍ بدت شبه باهتة:

-الله يكرمك.

رد مؤكدًا من جديد ليشد من أزرها، فلا تستسلم أمام عناده العقيم:

-دي الحقيقة، الست اللي بجد هي اللي بتبقى في ضهر جوزها، تاخد بإيده وقت ما يكون عاجز، تفهمه من غير ما يتكلم.

زفرت ببطءٍ، وعقبت:

-ربنا يصلح حاله.

.........................................................

على نحوٍ غير مسبوقٍ أو متوقع، باتت الآمال المستحيلة قيد التحقيق، مجرد رؤيتها أمام ناظريه كان مُرضيًا له، مشبعًا لجوع قلبه الشغوف لذاك الدفء الناعم الذي خلا منه. ربكتها البائنة، نظراتها التائهة، لمحات الحزن الظاهرة، حفزت كامل حواسه على التركيز معها، لتتضاءل أكبر همومه وتندمل في حَضرتها الآسرة. ابتسامة صادقة عذبة عرفت الطريق إلى شفتيه، عندما نطقت بصوتٍ يشوبه الخجل:

-سلامو عليكم يا معلم.

القليل منها يكفيه، بل ويغنيه عن أوجاع ما قساه. رد "تميم" بقلبٍ يرقص غبطةً على أنشودة العاشقين:

-وعليكم السلام ...

ثم تنحى للجانب مستندًا على عكازيه، كدعوة صريحة منه للدخول إلى منزل عائلته، قبل أن يرددها علنًا، ووجهه ما زال مشرقًا بابتسامته:

-اتفضلي.

نظرة حرجة ألقتها "فيروزة" ناحيته، قبل أن تخفضها سريعًا، متذكرة حديث توأمتها السابق عن الحادث المؤسف الذي تعرض له، آلمها آنذاك ما سمعته؛ لكنه رؤيته على تلك الحالة أوجعها بقدرٍ ما. أجبرت نفسها على النظر مجددًا إلى وجهه الهادئ، حاولت الاعتذار عن الدخول، وقالت مبررة بنوعٍ من التردد:

-أنا كنت.. جاية عند أختي فوق، بس خبطت كتير ومحدش فتحلي.

أخبرها بهدوءٍ مشيرًا برأسه، ومديرًا إياه نحو الداخل:

-هي موجودة عندنا جوا، مع جدي.

قفزت علامات الاستفهام إلى تعبيراتها، وتساءلت بشكلٍ آلي:

-عندكم؟ ليه؟ في حاجة؟

هز كتفيه نافيًا:

-مش عارف.

ظل على حالة التردد تلك، وضغطت على شفتيها قائلة باقتضابٍ:

-شكرًا.

أصـر عليها بحماسٍ جعل آلامه تتبدد في لحظة؛ وكأن عظامه لم تُطحن أبدًا:

-مايصحش تفضلي واقفة برا كده، اتفضلي جوا...

وقبل أن تتمسك برفضها شدد عليها عن قصدٍ، ليبث فيها الأمان:

-دي أمي وأختي كمان موجودين، يعني اطمني.

قضمت شفتها السفلى، وردت:

-مافيش داعي أزعجكم.

انزلق هاتفًا من تلقاء نفسه، ونظرة عتاب تكسو وجهه:

-تزعجي مين، ده بيتك..

قطبت جبينها بشكلٍ ملحوظ، فصحح لها بعد نحنحة خافتة:

-قصدي يعني زي بيتك.

حاولت أن تبتسم وهي تعقب:

-شكرًا يا معلم.

أمام إلحاحه الواضح استجابت "فيروزة" لدعوته، وبدأت في التحرك، لتلج إلى داخل منزله وهي تمسح بعينيها المكان، في حين تسـمر "تميم" في مكانه يرقبها بإشراقة غطت على ما كان به من تعاسة، لم تعرف ضيفته أن السعادة في تلك اللحظة تنتفض بقوةٍ بين ضلوعه، حتى تأثيرها الكبير انعكس بقوةٍ على ملامحه حينما أضافت بعفويةٍ:

-حمدلله على سلامتك صحيح، زعلت حقيقي لما عرفت.

هتف من خلفها بجبورٍ يخالطه الحماس، ذاك الذي استغرب منه؛ كأنما لم يحزن مطلقًا:

-الله يسلمك، كله من عند الله خير...

للحظة التقط أنفاسه، وأكمل مؤكدًا لها:

-وبعدين أنا دلوقتي كويس وبخير.

ندم على جملته الأخيرة، وتجهم قليلاً ربما كانت كلماته متسرعة، فاهتمامها بالسؤال عنه قد يفتر لمعرفتها هذا، تدارك تشتته اللحظي، وتابع بجديةٍ، وعيناه تنظران إليها:

-لا مؤاخذة الكلام خدني ونسيت أعزيكي، البقاء لله، وربنا يصبرك، دي مشيئة ربنا.

استغربت بشدة لمواساته الغريبة، وسألته بملامح شديدة الجدية، ودون أن ترف عيناها:

-وإنت عرفت منين؟ أنا مقولتش لحد.

أثار ردها استرابته بشكلٍ عجيب، فمن البديهي أن يعزيها في وفاة أبناء خالها؛ لكن ردة فعلها كانت مدعاة للشكوك، توجهت أنظار كلاهما نحو الصوت الأنثوي المتسائل:

-مين يا "تميم"؟

بتنهيدة عكست أشواقًا تفاجأ بها شخصيًا، هتف ناطقًا باسمها بين شفتيه؛ كما لو كان ترديده لحنًا عذبًا تُطرب له الآذان:

-دي الأبلة "فيروزة" يامه.

سماعها لاسمها يتراقص بتلك الطريقة على لسانه -وبهذا الاهتمام المليء بالمشاعر- الغريب داعب شيئًا ما بداخلها، تغاضت عنه لتنظر في وجه "ونيسة" التي أقبلت عليها لترحب بها بألفةٍ:

-يا أهلاً وسهلاً يا بنتي، شرفتينا.

بابتسامةٍ صغيرة قالت:

-إزي حضرتك يا طنط؟

احتضنتها "ونيسة" ومسحت على ظهرها بحنوٍ، ثم تراجعت عنها متسائلة:

-أخبارك إيه يا بنتي؟

أطلقت زفرة بطيئة قبل أن تجيبها:

-الحمدلله.

نظرت "فيروزة" من فوق كتفها، عندما سمعت صوت شقيقتها يأتي من الخلف وهي تشكر أحدهم قبل أن تغلق الباب خلفها:

-كتر خيرك يا حاج، تعيشلنا، أشوفك على خير يا رب.

تحركت "ونيسة" للجانب، لتظهر توأمتها أمام عيني "همسة"، لم تصدق الأخيرة وجودها، وهتفت صائحة في صدمة:

-"فيروزة"!

ودون أن تضيع الوقت هرولت ناحيتها لتحتضنها بكل ما تحمله من ودٍ، وشوق، وتلهفٍ، وحنين. بقيت في أحضانها للحظات قبل أن تنطق بنبرة متأثرة، وعيناها تحجزان العبرات فيهما:

-وحشتيني أوي أوي يا "فيرو"، كنت هاتجنن عشان أوصلك، حاجات كتير حصلت وإنتي مش هنا، أنا محتاجة وجودك أوي معايا.

مسحت "فيروزة" بيدها على جانب ذراعها، وردت بتنهيدة معبأة بالهموم:

-وأنا خلاص رجعت.

تلك الكلمات الموجزة لامست قبل المعذب من خلفهما، فمن المفترض أن يترك "تميم" الشقيقتين تتحدثان على انفرادٍ، احترامًا لخصوصيتهما؛ لكنه بقي على غير عادته، لإشباع توق الروح لساكنها. انتبهت حواسه، وبدا واجمًا عندما تساءلت "همسة" بتلقائية:

-وفين "آسر"؟ هو رجع معاكي؟ واقف تحت؟ ولا وصلك؟ ولا عمل إيه؟

مع تلك الأسئلة المتلاحقة تسلل الحزن إليه، ليذكره أن الطاووس المهاجر إن عاد إلى وطنه، فلا يعني ذلك أنه يخصه! سرى مفعول الألم في عروقه، وشعر بالوهن يزحف إليه. اليأس، الاستياء، الحزن، وكافة المشاعر السلبية هاجمته

في لحظة، أوهامه المخادعة مصيرها الفناء! استدار منسحبًا من المكان بخطواتٍ شعر بثقلها، في نفس الأثناء سادت لحظة من السكون المغلف بالتردد الأجواء، حسمتها "فيروزة" بإخبار الجميع بنزقٍ، وعلى حين غرة:

-لأ، "آسر"... مات.

وكأن الحياة بُعثت فيه من جديد، بدا كمن يتلقى إنعاشًا بجهاز الصدمات القلبية ليعود من السراب إلى حيث الأمل. خفق قلب "تميم" في ذهولٍ، واتسعت عيناه مصدومًا، حتى خلايا عقله عادت لتعمل بكامل طاقاتها، التفت مستديرًا ناحيتها ليتأكد من أنه لم يتوهم سماع ذلك، وراقب تعابير "همسة" المتسائلة في صدمةٍ:

-يعني إيه مات؟

بينما رددت "ونيسة" بنفس التعابير المصدومة، وهي تضع يدها على صدرها:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، هو إيه اللي حصل في الدنيا؟

ثم ربتت على ذراع "فيروزة" تواسيها بإشفاقٍ:

-البقاء لله يا بنتي، قلبي عندك والله، ده إنتي لسه عروسة جديدة.

خجلٍ ممزوجٍ بالألم انتشر في وجهها، فكلماتها وإن كانت عادية؛ لكنها لامست جرحها العميق. ابتلعت "فيروزة" غصة مليئة بالعلقم، وجاهدت لتتجاوز تلك اللحظات بثباتٍ انفعالي عجيب، تدربت عليه كثيرًا في ليالي غربتها الموحشة. سألتها "همسة" في فضولٍ حزين:

-إزاي مات؟

لم تمنحها الجواب، وقالت بنوعٍ من الهروب:

-هابقى أحكيلك بعدين، مش وقته..

غالبت حشرجة طفيفة في صوتها، وأكملت بقلقٍ:

-بس فين ماما؟ أنا عديت عليها ملقتهاش موجودة في البيت.

أجابتها على الفور:

-تلاقيها مع "رقية" عند خالي في المستشفى.

انقلبت شفتاها، وتساءلت في استغرابٍ:

-"رقية"! وفي المستشفى؟ مين دي كمان؟

لم ترغب في إطلاها على الأخبار غير السارة دفعة واحدة، وقالت بعد زفيرٍ حزين:

-ما هو في حاجات كتير حصلت.

فهمت عزوفها عن التحدث بأريحية هنا، وقالت بتعابيرٍ جادة:

-طيب يالا بينا، بلاش نضايق الناس بوجودنا.

عبارة في غير موضعها استنكرتها "ونيسة"، وعاتبت "فيروزة" عليها:

-والله أزعل منك، تضايقونا إيه بس؟ ده احنا عيلة واحدة.

ردت بحرجٍ:

-شكرًا لحضرتك يا طنط، كلك ذوق.

تساءلت "همسة" بصوتٍ خفيض:

-شنطك فين؟

أجابتها بنفس الصوت الخافت:

-عند البيت.

أومأت برأسها تخبرها:

-تعالي نروح على هناك.

هتفت "ونيسة" طالبة من ابنها:

-وصلهم يا ابني في سكتك، مش التاكسي مستنيك تحت؟

اعترضت "فيروزة" مبدية تقديرها لظروفه:

-لأ يا طنط، مافيش داعي، السكة مش بعيدة، احنا هنمشيها، و...

التفتت ناظرة إلى "تميم" بنظرة مهتمة نفذت إليه كالسهم المارق:

-ومش عايزين نتعبك يا معلم.

قاطعها "تميم" قائلاً بلطفٍ:

-ما هو التاكسي موجود، أنا مش هاعمل حاجة تتعبني.

احتجت عليه بعنادٍ:

-بس آ...

رفع يده قائلاً بجديةٍ وهو يستدير ليتحرك:

-خلاص يا أبلة، مش قضية يعني.

لم تجادله، وتنهدت بصوتٍ مسموعٍ لتتبعه مع توأمتها على مهلٍ، حتى يتمكن من هبوط الدرجات دون تعجلٍ. ناظرته "فيروزة" عن قربٍ مستغلة عدم انتباهه لها، لتجده رغم ما مر به مازال متماسكًا، صلبًا، يجابه آلامه بشجاعةٍ يحسد عليها. لم تدرك أنها أطالت النظر نحوه، فعندما استدار عند بسطة السلم، أمسك بعينيها المتطلعتين إليه، فبادلها نظرة كانت تلمع بشيءٍ ما كذب الفؤاد رؤيته ......................................... !!!

....................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل التسعون

النظر في عينيها في تلك اللحظة الفارقة، كان كالتمتع بجنة الإله على الأرض، كالتحليق في فضاءٍ فسيح عامر بما يخطف الأنظار. سرق نظرة أخرى من قطعتي الفيروز، سرى تأثيرها في عروقه كما تسري في الروح الأنفاس. أكمل "تميم" هبوط درجات السلم، وقلبه يدق في فرحة، آلامه الساكنة في عظامه خفت حدتها مع ما اكتشفه اليوم من حقائق ربما أعادت له الأمل المفقود. وما إن خرج من المدخل هتف آمرًا في سائق سيارة الأجرة:

-ماتطلعش، استنى.

لم يجادله الأخير، وأبقى على المحرك دائرًا وهو ينتظره خلف عجلة القيادة، في حين امتدت يد "تميم" ليفتح الباب الخلفي، والتفت ناظرًا لكلتيهما، ليستطرد قائلاً:

-اتفضلوا.. على مهلكم.

نظرة ثالثة نالها من "فيروزة" عن قربٍ أشد، وهي تلحق بتوأمتها، جعلت النابض بالحياة بين ضلوعه، يرغب في التحرر من القيد المفروض عليه. شعر بابتسامةٍ مرحة تداعب ثغره فشل في تخبئتها، وكيف له ألا يضحك والاشتياق تغلب على حزنه؟ استقر في مقعده بعد دقيقةٍ مخاطبًا سائقه:

-هنروح على بيت الجماعة الأول.

رد السائق مؤمئًا برأسه:

-حاضر يا معلم.

يبدو أن الحظ قد عرف الطريق إليه، فجلوس "فيروزة" خلفه، جعل جانبًا كبيرًا من وجهها يظهر في مرآة السيارة الجانبية، ورغم شرودها في تأمل الطريق، إلا أن كان لذلك ميزة خطيرة في التنعم بتأملها دون مقاطعة، مناجاة شديدة الرجاء للمولى تضرع بها في تلك اللحظة تحديدًا آملاً أن تسترد روحه ما افتقدته، همسه الراجي خرج من بين شفتيه عفويًا:

-يا رب.

ظن السائق أنه يُحادثه فتساءل مهتمًا:

-بتقول حاجة يا معلم؟

أجاب نافيًا، وعيناه معلقتان بها:

-لأ، ركز في سكتك.

أمسكت به "فيروزة" تلك المرة وهو ينظر لها بنظراته الساهمة، تلبكت، ورمقته بنظرة غامضة احتوت بداخلها على حزنٍ عميق، قبل أن تدير وجهها لتواصل تحديقها في الطريق. للوهلة الأولى استطاع قراءة ما غلف نظراتها دون كلام، بدا له أن لعينيه قدرة خاصة نفذت إلى روحها، فكشفت الغطاء عما يخيفه قلبها من ألم ومعاناة تقاتل لإخفائهم في أعماقها المهزومة. شتته عن تأملها الفضولي الطويل صوت السائق المتسائل:

-هنا يا معلم؟

تنبه "تميم" لما حوله، ومسح المكان بنظراتٍ سريعة قبل أن يوجه:

-لف من الناصية دي عشان تقف قصاد مدخل البيت.

قال دون جدالٍ:

-ماشي.

وبعد لحظاتٍ كانت السيارة مصفوفة بمحاذاة رصيف البناية القصيرة، ترجلت "فيروزة" أولاً، ثم تبعتها "همسة"، وقبل أن تتحرك كلتاهما تساءل "تميم" عاليًا:

-أومال "هيثم" عامل إيه دلوقتي؟

كان سؤاله مجرد حجة زائفة لإبقاء الأخيرة، ناولت "همسة" المفتاح لتوأمتها لتسبقها، وقالت بتنهيدة مهمومة:

-والله حاله اليومين دول مش أد كده.

رد بهدوءٍ بعد أن ترجل من السيارة، واستند واقفًا على عكازيه:

-متقلقيش، احنا هنشوفله حل.

أخبرته بوجهٍ شبه واجم:

-أنا اتكلمت مع الحاج "سلطان" وهو وعدني هيتصرف.

قال مبتسمًا، وبنوعٍ من الثقة:

-طالما جدي اتدخل اطمني أوي، مش هايسيبه.

ردت بنبرة راجية:

-يا رب يسمعنا خير.

همّت بالتحرك؛ لكنه استوقفها قائلاً:

-أنا ممكن أطلب منك طلب قبل ما تمشي.

رددت في اهتمامٍ:

-اتفضل.

اعتدل في وقفته، وقال بملامح جادة للغاية.

-بلاش تحكي لأختك عن اللي حصلكم..

نظرت له في حيرةٍ، فأكمل موضحًا لها:

-استني لما الست أمك ترجع، هايكون أحسن، على الأقل تشم نفسها الأول، وتستريح، كفاية اللي هي فيه.

فألمها وإن كان صامتًا يحتاج للتطبيب، هزت رأسها في استحسانٍ، ووعدته:

-حاضر، هاعمل كده...

ثم ابتسمت تشكره:

-كتر خيرك، تعبناك معانا.

قال بهدوء، وقد شعر بقليلٍ من الارتياح:

-مافيش أي تعب، وحمدلله على سلامتها.

هتفت وهي تشرعِ في خطاها:

-الله يسلمك.

انتظر ذهابها ليستدير ويعاود الجلوس بالسيارة، سأله السائق مستفهمًا:

-هنطلع على الدكان يا معلم؟

لحظة من التفكير سيطرت عليه، قبل أن يجيبه نافيًا:

-لأ.

سأله باستغرابٍ:

-أومال على فين؟

أجابه مشيرًا بكفه للأمام:

-اطلع وهاقولك في السكة.

حاضر يا ريسنا.

قالها السائق بإيماءةِ انصياعٍ وهو يدير عجلة القيادة مغادرًا المكان، بينما بقيت أنظار "تميم" –وروحه من قبلها- معلقة بومضاتٍ خيالية لوجهٍ سكن قلبه منذ أن عرف للحبِ مرادفًا.

................................................................

خفقة متوترة شعر بها وهو يتحامل على نفسه، ليصعد الدرجات الرخامية لمدخل هذا المبنى الطبي حديث الطراز. ألقى نظرة مترددة على اليافطة الزجاجية المكتوب عليها على جانب الجدار (المركز الطبي المتطور لعلاج أمراض الذكورة والعقم). لا يعرف ما الذي جال في خاطره ليستحثه بقوةٍ للذهاب إلى هنا؛ لكنه لم يبدُ نادمًا على مثل تلك الخطوة. تنفس "تميم" بعمقٍ وهو يتابع سيره الحذر نحو الاستقبال، بلع ريقه، واتجه إلى أحد الموظفين مستهلاً حديثه معه بإلقاء التحية:

-سلامو عليكم.

رد الموظف بلباقةٍ:

-وعليكم السلام، اتفضل يا أستاذ، أقدر أساعدك في إيه؟

بتلعثمٍ شبه حرج، حاول "تميم" تكوين جملة مفيدة وهو يجيبه:

-أنا عايز أعرف النظام إيه هنا؟

أخبره الموظف بنبرة عملية، لاعتياده على مثل تلك المواقف:

-حضرتك هتحجز كشف هنا، وهتنتظر دورك لحد ما الدكتور يقابلك، وهو هيتناقش معاك في تفاصيل كل حاجة عايز تعرفها.

سأله مستوضحًا، وعيناه تدوران حول الإعلانات المعلقة على الحائط لتقرأ ما فيها:

-وإنتو فاتحين كل يوم؟

أجابه بصوته الزرين مشيرًا للافتة خلفه مدون عليها مواقيت العمل:

-أيوه يا فندم، دي مواعيدنا ما عدا يوم الجمعة أجازة.

هز رأسه قائلاً بإيجازٍ:

-تمام.

سأله الموظف بابتسامته العادية:

-تحب أحجز لحضرتك كشف؟

بعد لحظة من التفكير العميق أتاه جوابه قاطعًا:

-أيوه، ولو في مستعجل يكون أحسن.

عقب عليه بنبرته العملية وهو يطبع بأصابعه على لوحة الحاسوب الالكتروني الموجود على مكتبه المستطيل:

-حاضر.. ممكن بياناتك، والبطاقة بعد إذنك.

بوجهٍ جاد في تعبيراته قال، وهو يحاول استخراج هويته من محفظته الموضوعة في جيب بنطاله الخلفي:

-ماشي.

.......................................................

-ماما اتأخرت أوي.

قالت "فيروزة" تلك العبارة وهي تجلس على الأريكة تربع ساقيها أسفل منها، بعد أن بدلت ثيابها بأخرى منزلية مريحة، تلك التي تركتها في دولاب ملابسها، تاركة مهمة إفراغ حقائب سفرها لوقت لاحق. ناولتها "همسة" طبقًا يحوي ثمار الفاكهة المقطعة، وردت عليها:

-متقلقيش، ده ميعادها، دلوقتي هتلاقيها داخلة علينا.

كانت فاقدة لشهيتها، فأسندت الطبق أمامها، وسألتها بتوجسٍ:

-أنا حاسة إن في حاجات كتير متغيرة، هو حصل إيه في غيابي؟

ضمت شفتيها لبعض الوقت مترددة في إطلاعها على الأخبار غير السعيدة، تذكرت وصية "تميم" لها بإرجاء الأمر ريثما تعود والدتها للمنزل، فالتزمت بها، ومنحتها ردًا فاترًا:

-والله يا "فيروزة" احنا شوفنا أيام صعبة أوي، بس كله بيعدي.

وقبل أن تحاصرها بأسئلتها، بادرت مستفهمة بتعابيرٍ حزينة:

-المهم طمنيني عليكي إنتي، إيه اللي حصل لـ "آسر"؟

تهربت من إجابتها صراحةً بما مرت به بقولها المحايد:

-قضاء ربنا.

مسحت "همسة" على جانب ذراعها برفقٍ، وقالت مواسية بتعاطفٍ بائن عليها:

-حبيبتي، أكيد الوقت ده كان صعب عليكي.

حررت زفرة ثقيلة من صدرها قبل أن تتمتم في رضا:

-الحمدلله.

انتبهت "فيروزة" لضوضاء خفيفة آتية من خارج المنزل، فأدارت رأسها ناحية الباب، رأت والدتها تلج للداخل، ومن خلفها طفلة صغيرة، على ما يبدو كانت "آمنة" مشغولة بها، فكامل تركيزها كان معها، خاصة وهي تشدد عليها:

-ماتفتيحش الحاجة الحلوة إلا بعد الأكل، وإلا هزعل منك، أنا مش عايزاكي تملي بطنك على الفاضي.

أغلقت الباب وابتسمت لـ "رقية" وهي ترد بطاعةٍ:

-حاضر.

استدارت سائرة بتلقائيةٍ نحو المطبخ؛ لكن الصوت المليء بالشجن واللهفة جمدها في مكانها حينما ناداها:

-ماما.

التفتت تنظر إلى ابنتها، وقلبها ينطق قبل لسانها بلوعةٍ:

-"فيروزة"!

تحركت ابنتها ركضًا ناحيتها وهي تكرر على مسامعها ذلك اللقب الغالي:

-ماما

ثم ارتمت في أحضانها، شاعرة بضمتها الحنون التي طالما افتقدتها كثيرًا، انتحبت "آمنة" قائلة بصوتٍ متأثر، وقد قفزت العبرات في عينيها:

-حبيبتي يا بنتي

زادت "فيروزة" من ضمها لها، ورددت بأنينٍ مشتاقٍ له:

-وحشتيني أوي.

بقيت كلتاهما على تلك الوضعية لدقيقة وأكثر بقليل، ذرفت خلالها "آمنة" الدموع الفرحة لعودتها بعد غيابٍ أتعب قلبها، تراجعت عنها، دون أن تترك قبضتيها جانبي ذراعيها، نظرت لها نظرة مليئة بالعتاب، وقالت بصوتٍ شبه باكي:

-بقى كده يا "فيروزة"؟ أهون عليكي متسأليش عني المدة دي كلها؟

ردت مدافعة عن نفسها:

-والله غصب عني، بس أنا طلبتك كتير جدًا، وموبايلك كان مقفول، وآخر مرة كلمتك فيها "فضل" اللي رد عليا، وحتى قفل السِكة في وشي.

اِربد وجه "همسة" بالضيق متذكرة غالبية مواقفه اللئيمة، تلك التي تثبت خسته ومحدودية تفكيره، لعنته بغيظٍ متصاعد فيها:

-أما واحد ناقص بصحيح.

في حين أخبرتها "آمنة" بصدقٍ:

-موبايلي كان بايظ، وقالي هياخده يصلحه، بس والله ما عرفني خالص إنك اتصلتي.

دمدمت "فيروزة" هي الأخرى تنعته في حنقٍ:

-بني آدم مستفز.

تساءلت توأمتها في حيرة:

-معرفش بيعمل كده ليه معانا؟ فعلاً أنا مش بأطيقه.

علقت عليها والدتها في البداية بعدم مبالاة، ما لبث أن تحولت للفرحة:

-سيبوكم منه، المهم عندي إنك رجعتي يا "فيروزة" بالسلامة.

وجدت الابتسامة طريقها على ثغر ابنتها، وتساءلت وقد أبصرت عيناها طفلة خجلة تراقبها من على بعدٍ:

-مين البنوتة اللي معاكي دي يا ماما؟

صاحت "همسة" مُعرفة بها من تلقاء نفسها:

-دي "رقية"، بنت خالك "خليل".

شهقة مصدومة انفلت من بين شفتيها، ورددت في دهشةٍ ذاهلة:

-معقولة؟ بنت خالي؟ يعني خالي كان متجوز واحدة تانية غير مراته العقربة واحنا منعرفش؟

بنظرة مؤكدة أجابتها "همسة":

-أيوه.

أضافت "فيروزة" في تسلية لطيفة:

-ده زمان "حمدية" ولعت لما عرفت...

ثم صمتت للحظةٍ قبل أن تتم جملتها:

-عشان كده هي مش موجودة فوق، أكيد خدت عيالها وراحت البلد.

انقلب وجه "همسة"، وعقبت عليها بتعابيرٍ متنمرة:

-والله إنتي على نياتك، دي عملت بلاوي سودة.

حذرتها والدتها من التطرق حاليًا لما قامت به بنظرة صارمة من عينيها، قبل أن تقول:

-مش وقته يا "همسة".

وزعت "فيروزة" نظراتها المتشككة بين الاثنتين، وردت بإصرارٍ:

-أنا عايزة أعرف تفاصيل كل حاجة، ماتخبوش عليا.

علقت عليها والدتها بأسئلتها المهتمة، وهي تشير بيدها:

-ماشي، بس قوليلي الأول فين جوزك؟ هو وصلك ومشى؟ وراجع تاني امتى عشان أجهزله أحلى أكل؟ اوعي تقوليلي إنه سابك وراح شغل، أنا كده هزعل منه.

انخفضت قبضتي "فيروزة" لتمسك بكفيها، وقالت بعد لحظةٍ من السكوت، تبادلت فيها نظراتٍ ذات مغزى مع توأمتها المراقبة للوضع:

-ماما.. "آسر" .. مات.

هتفت والدتها في صدمة مفجوعة، وقد ارتفع حاجباها للأعلى:

-يا نصيبتي، مات؟ واحنا معندناش خبر؟

ردت بصوتٍ هادئ لا يعبر عن حزنها لرحيله:

-ده قضاء ربنا، الحمدلله على كل حال.

ورغم اندهاش "آمنة" من ثباتها الداعي للاستزابة إلا أنها هتفت تسألها في جزعٍ:

-حبيبتي يا بنتي، فجأة كده؟ ده مكانش بيشتكي من حاجة، وإنتي عملتي إيه لوحدك؟

عادت لتحتضن والدتها، وذلك الزفير الثقيل يتحرر من صدرها، ثم أخبرتها بتنهيدة بطيئة، وهي ترتمي برأسها على كتفها:

-هاقولك، بس خليني أشبع من حضنك يا ماما، أنا محتاجاه أوي.

مسدت على ظهرها بيدها بعدة مراتٍ، مستشعرة تلك الرجفة الخفيفة فيها، أوغرها قلبها قهرًا على ما أصابها، وأفصحت لها بغريزتها الأمومية:

-قلبي كان حاسس إن غيبتك دي وراها حاجة.

......................................................................

بصعوبةٍ خبت نوبة البكاء التي اجتاحتها، بعد أن عرفت بوفاة أبناء خالها الثلاثة، انفهر قلبها على رحيلهم المفجع، ولم تتمالك دموعها، بكتهم بحزنٍ صادق؛ وكأنها فقدت أشقائها، فالصغار احتفظوا بمنزلة غالية في قلبها. حاولت والدتها تهوين حزنها، ورجتها لأكثر من مرة بصوتٍ شبه مختنق:

-خلاص يا "فيروزة"، ماتوجعيش قلبي، احنا ماسكين نفسنا بالعافية عشان الغلبانة دي.

هتفت بصدرٍ يغص بالبكاء الحارق:

-حرام اللي حصل ده كله، إزاي يجيبها قلب تعمل كده؟ مخافتش من ربنا إنه يردها فيها؟

علقت عليها "همسة" بصوتٍ حزين:

-ربنا المنتقم الجبار، حرمها من عيالها.

بينما تنهدت "آمنة" قائلة في حسرةٍ"

-ربنا يصبرك يا "خليل" المصايب نزلت فوق راسه ورا بعض، مبقاش ملاحق.

أخبرتها "همسة" بالبقية في ضيقٍ كبير:

-وكانت عايزة تلبس أمك الليلة كلها، بس الحمدلله ربنا جابلها حقها، وبراءتها ظهرت.

احتقنت نظرات "فيروزة" بشدة، وكزت على أسنانها هاتفة:

-دي مش بني آدمة، يا ريتني كنت هنا، والله ما كنت سيبتها.

ردت عليها توأمتها:

-منها لله، ربنا يخلص منها.

تساءلت "فيروزة" في اهتمامٍ يشوبه الإشفاق، وعيناها تتطلعان إلى الصغيرة المنشغلة بألعابها:

-طب وهتعملوا إيه في "رقية"؟

أجابتها والدتها بتعابيرها المليئة بالأسى:

-أهي قاعدة معايا هنا، واخدة بحسي في البيت.

استحسنت "فيروزة" ذلك، وبدت تعبيراتها مرتخية لبقائها مع أمٍ حنون كأمها، تعوضها عن فقدان والدتها، وغياب أبيها، فما أصعب الشعور باليُتم في سنٍ صغيرة! تبدلت تعبيراتها للقساوة بعد أن هتفت "همسة" بنزقٍ:

-قوليلها يا ماما على المصيبة اللي "فضل" ناوي يعملها.

سألتها في جزعٍ، ونظراتها تتجه نحو والدتها:

-ماله البلوى ده؟

مالت عليها توأمتها لتهمس في أذنها؛ كما لو كانت تخشى- من سماع الصغيرة لحديثهما الخطير عنها:

-عايز يطاهر "رقية"، وأمك وقفتله في الحكاية، بس شكله مصمم على كده.

توحشت عينا "فيروزة" على الأخير، وانعكس فيهما غضبًا متصاعدًا، أحست بدمائها الثائرة تتدفق باندفاعٍ هائجٍ في عروقها، مستعيدة في ذاكرتها ما عاشته من ألم نفسي مهين بسبب حقارته الوضيعة، تضاعف غليلها،و استبد بها حنقها. اشتدت أنفاسها انفعالاً، وصاحت بصرامةٍ؛ وكأنها بهذا تقطع وعدًا نافذًا -غير قابل للتراجع- على نفسها:

-قسمًا بالله ما هيحصل، طول ما أنا عايشة مش هخلي البغل ده يلمسها، ويبقى يوريني نفسه هيعمل إيه ................................... !!!

.........................................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الحادي والتسعون (الجزء الأول)

انتقاله لـزيارة أحـدهم بالخصـوص، يعـني أن ذاك الشـخص عزيـزًا لديـه، وإلا لاستدعاه للقدوم إليه احترامًا لمقامه وسنوات عمره الطويلة. لم يدخر "سلطان" وسعه في مساعدة من لجأت إليه بعد نضوب جميع الاختيارات لديها، صعد إلى الطابق العلوي، ورفع عكازه ضاربًا به الباب الخشبي، وصوته ينادي:

-افتح يا واد لجدك.

كرر خبطه على الباب بقوةٍ أكبر ليثير انتباه "هيثم"، لحظاتٍ انقضت عليه قبل أن يسمع وقع خطواته القادمة، فتح له الباب ورحب به بوجهه المتجهم، وذقنه المهملة:

-اتفضل يا جدي، نورت البيت.

أمره بأسلوبه الصارم وهو يلكزه بعكازه في كتفه:

-فسح كده خليني أدخل.

رد عليه "هيثم" بصوته الناعس وهو يفرك شعره المهوش:

-بيتك يا جدي.

نظر له "سلطان" بنفورٍ، لاويًا ثغره، ليوبخه بعدها:

-وبعدين إيه اللي إنت عمـله في نفسـك ده؟ أخد جمـب، وعازل نفسـك عـن الكل، حتى مراتك.

سأله بضيقٍ:

-هي اشتكيتلك؟

أجابه ببساطةٍ:

-أه اشتكتلي، ما أنا زي جدها، هتروح لمين يعني لما تلاقي حالك مايل بالشكل ده؟

تحرك الجد في اتجاه أقرب مقعدٍ، وجلس عليه، بينما ألقى "هيثم" بجسده الكسول على الأريكة المجاورة له، ثم أخبره بزفيرٍ بطيء، وشعوره بالخذلان متمكن منه:

-يا جدي أنا فيا اللي مكفيني، مش ناقص نأرزة من حد.

سأله بنظراته النافذة:

-وإنت عملت إيه عشان تاخد جمب كده؟

أجابه بعد أن لفظ زفيرًا مسموعًا:

-مقهور يا جدي على اللي حاصل.

ركز بصره عليه، وسأله:

-ليه هو إنت اللي كنت خططت مع أمك ونفذت؟

نفى في الحال:

-لأ، بس أنا ابنها، والكل هيلومني على اللي عملته.

تفهم حالة الإحباط المتكمنة منه، وليهون عليه الأمر خاطبه بلين الكلامِ:

-يا ابني ربنا بيقول "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، ليه هنشيلك ذنب حاجة إنت معملتهاش من الأساس؟

بألمٍ أخبره:

-مش لازم تقولوها في وشي، كفاية أشوفها في نظراتكم ليا.

رد في استياءٍ منزعج من تفكيره الخاطئ:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، هو إنت شوفت مننا حاجة تقولك كده؟ معاملتنا ليك اتغيرت في أيتها شيء؟

أجابه وهو يهز رأسه:

-الشهادة لله لأ

عاتبه بلهجةٍ لم تكن متشددة:

-أومال بتقولنا وتعودنا حاجات معملنهاش ليه؟ غاوي تجيب لنفسك النكد؟

غمغم في امتعاضٍ:

-يا جدي..

قاطعه بحزمٍ:

-بس يا واد، اسمع الكلمتين اللي فيهم الخلاصة.

تمتم بخنوعٍ:

-حاضر

أوصاه مشيرًا بيده:

-أمك حقها عليك تراعي ربنا فيها بما يرضي الله، ماتسمعش كلامها لا في معصية ولا في حاجة تغضب ربنا، وده اللي إنت عملته مظبوط؟

أومأ برأسه مرددًا:

-أيوه.

تابع استرساله معه:

-واللي حصل كان مقدر ومكتوب، ربنا كاتب تشوف ده في حياتها، إنت عليك تراعيها وتاخد بالك منها لحد ما السر الإلهي يطلع.

تطلع إليه في صمتٍ، بينما أضاف الجد بنبرته العقلانية، ليزيل الغشاوة الحاجبة عن فهمه للأمور من هذا المنظور الضيق:

-وأختك "خلود" جايز ربنا أراد إنها تاخد منزلة الشهادة في موتها، وعشان كلنا ندعيلها بالرحمة والمغفرة، مش أحسن ما كانت تأذي غيرها؟ وإنت عارف أختك كانت عاملة إزاي، وناوية على إيه .. وساعتها كان الكل هيدعوا عليها، أنهو الأفضل بقى اختيارنا ولا اختيار ربنا؟

لم يجبه "هيثم" فصاح به:

-رد يا واد.

قال بوجومٍ:

-اختيار ربنا طبعًا.

أخبره بلهجةٍ كانت ما بين اللين والشدة:

-يبقى تقول الحمدلله على كل حال، وقوم كده فوق لنفسك ولمراتك، ده إنت ربنا رزقك بواحدة بنت أصول، متربية، ومافيش زيها.

وحين وجد استجابة طيبة منه، ألح عليه:

-ماتبقاش نكدي وغاوي هم وغم.

لم يظل "هيثم" متعنتًا في فكره، وقال في استسلامٍ:

-حاضر.

أمره الجد بنفس الصوت الحازم مستخدمًا نظراته في الإشارة:

-وقوم هوي البيت كده، أنا عارف إنت طايق الكمكمة دي إزاي؟

نهض واقفًا وهو يرد بانصياعٍ كامل:

-اللي تؤمر بيه يا جدي.

..............................................................

انقشعت مؤقتًا غيمة الحزن عنها، لتلتهي بحديثها مع الصغيرة الجالسة إلى جوارها على فراشها القديم. أمعنت "فيروزة" النظر في وجه ابنة خالها، وشعرت بعاطفة حانية نحوها، لا تنقُص في مقدارها عما شعرت به تجاه من فارقوا الحياة، بل زادت عليها بمحبةٍ أكبر. سألتها "رقية" وهي تعبث بدميتها الصغيرة:

-إنتي هتنامي جمبي؟

أجابتها بابتسامة لطيفة:

-أيوه، ما هو ده كان سريري زمان، ودي كانت أوضتي مع "همسة".

بعفويةٍ استرسلت الصغيرة متحدثة معها:

-أنا كان عندي أوضة كبيرة أوي عند ماما قبل ما تروح لربنا.

شعرت بغصة تؤلم حلقها تأثرًا بها، وضمتها من كتفيها إلى صدرها وهي تشدد عليها:

-حبيبتي، كل حاجة موجودة هنا بتاعتك، وأنا هاجيبلك كل اللي إنتي عايزاه.

على الفور طلبت منها بعينيها ذات اللون الزيتوني:

-أنا عايزة ماما.

لم تجد من الكلمات المناسبة ما ترد به عليها، فزادت من ضمها لها، وكبتت قدر استطاعتها نوبة بكاء مهددة بالظهور. حاولت "فيروزة" أن تغير من الموضوع بسؤالها:

-تحبي أحكيلك حدوتة؟

ردت متسائلة في اهتمامٍ:

-عن إيه؟

أجابتها بسؤالٍ آخر:

-إنتي بتحبي تسمعي إيه؟

هزت كتفيها قائلة في حيرة:

-مش عارفة.

مطت شفتيها للحظةٍ قبل أن تخبرها بنوعٍ من الحماس الزائد:

-طيب تعالي نفكر سوا هنحكي عن إيه.

منحتها مع كلماتها ابتسامة صافية، لم تكن لتحمل ضغينة أبدًا لها، فابتسمت لها "رقية" وهي تطالعها ببراءة، مستشعرة معها بمودةٍ حقيقية، وكان الشعور متبدلاً بصدق.

.......................................................

غاب عن دكانه أيضًا لليوم التالي، ولم يتواجد في وقت الغذاء، وأصبح حضوره مقتصرًا على وقت المبيت ليلاً، مما استرعى انتباه والده الذي اعتقد في وجود خطب ما به، انتظره ريثما عاد للمنزل، وتبعه إلى غرفته، ليجلس على المقعد الفردي المتواجد بها، ثم سأله في اهتمامٍ يشوبه القلق:

-كنت فين يا ابني طول اليوم؟ وامبارح بردك مكونتش معانا.

تنحنح بحشرجةٍ خفيفة، وأجابه بنوعٍ من المراوغة:

-شوية مشاوير بأقضيها.

عاتبه "بدير" بتبرمٍ:

-وإنت ناقص تعب؟ ما الرجالة موجودين في الدكان، شوف ناقصك إيه ويعملوه.

هز رأسه معقبًا عليه بهدوءٍ:

-أنا عارف يا حاج، بس في حاجات ماينفعش تتعمل إلا بوجودي.

زفر مطولاً قبل أن يرد عليه محذرًا:

-الله يقويك، بس لازمًا تاخد بالك من صحتك، إنت قايم من بهدلة.

بنفس التعابير الهادئة خاطبه "تميم":

-ربنا المعين.

استقام والده واقفًا، وشرع في التحرك تجاه باب الغرفة؛ لكنه استدار ليخبره:

-بأقولك إيه، احنا هنكلم جماعة بيت "خليل"، نعرفهم إننا جايين بعد كام يوم، يعني عشان نعمل واجب العزا في جوز بنتهم، أمك عرفتني بده، وقالتلي أستنى شوية يرتبوا أمورهم.

بريق غريب اجتاح نظراته، حتى قسماته تلبكت إلى حد ما وهو يقول:

-واجب يا حاج.

أضاف بعد تنهيدةٍ:

-شوف نفسك ساعتها، لو فاضي ابقى تعالى معانا.

لم يرغب أن يبدو عليه الاستعجال في حضرته، فأعطاه ردًا عاديًا؛ وكأنه لا يهتم:

-بإذن الله.

أما عن داخله فكان متشوقًا بلهفةِ صغير ينتظر ليلة العيد لهذا اللقاء الرسمي، لم يشكل فارقًا معه، فخلاله سيملي عينيه برؤيتها الشافية لأي أوجاع.

.....................................................................

بضعة أيامٍ مرت على استقرارها في منزلها، وهي تسعى بجهد جهيد لاستعادة ما افتقدته في حياتها السابقة، محاولة تخطي تلك الفترة البائسة، والتي منحتها تعاسة أبدية لا يمكن محوها بسهولة. ولتمضي قدمًا دون الشعور بالخزي من نفسها، أو حتى الحصول على شفقة وتعاطف الآخرين، اكتفت بالادعاء كذبًا أن وفاة زوجها ناجمة عن سكتة قلبية مفاجئة، دون الخوض في تفاصيل مأساتها، لتظل أسرارها المؤلمة مدفونة في أعماق روحها المنتهكة. وعلى حسب الميعاد المتفق عليه، أتت إليها رفيقتها لمواساتها، فاستقبلتها بنفس الود السابق، حتى لا ترتاب في أمرها. احتضنتها "علا"، وقالت بعينين دامعتين:

-البقاء لله يا "فيرو".

ردت بتعابيرٍ جامدة، لا يظهر عليها التأثر رغم محاولتها العكس:

-الدوام لله وحده.

تابعت "علا" قائلة بصوتها المختنق:

-أنا اتقهرت أول ما عرفت، مصدقتش "ماهر" لما قالي، إزاي ده حصل؟ عُمر "آسر" ماكان بيشتكي من حاجة، والله موته فرق معانا.

لم يكن شقيقها راضيًا عما يسمعه، ولكونه لم يطلعها على حقيقته الصادمة، بقي مكتوف الأيدي، عاجزًا عن إفساد صورته في عقلها، لذا كانت على سجيتها في التعبير عن تأثرها بوفاته؛ لكنه ضجر في النهاية من ثرثرتها المحرجة، فهتف بها بلهجةٍ صارمة:

-خلاص يا "علا"، مالوش لازمة الكلام ده، هو أجله جه كده.

ناظرته بعينين منزعجتين، وعاتبته:

-المفروض إنت تزعل عليه أكتر مني، ده كان صاحبك.

هتف في تزمتٍ:

-أنا زعلي كده.

لاحظت "فيروزة" توتر الأجواء بينهما، فتدخلت قبل أن تزداد حدة بقولها المجامل:

-شكرًا لتشريف حضرتك يا "ماهر" بيه.

استدار محدقًا فيها، واستطرد متسائلاً:

-على إيه بس يا "فيروزة"، قوليلي أخبارك إنتي إيه دلوقتي؟

جاوبته وهي ترسم بسمة صغيرة على ثغرها:

-الحمدلله أحسن.

باهتمامٍ واضح عليه سألها:

-عملتي إيه في موضوع إعلام الوراثة؟

أعطته ردًا حاسمًا، بوجهٍ عابس التعبيرات:

-احنا اتكلمنا قبل كده فيه، مش عايزة حاجة.

وقبل أن يضغط عليها بأسئلته، صدح رنين هاتف شقيقته، أخرجته من هاتفها معتذرة بنعومةٍ، ثم قالت بنحنحة بسيطة:

-هستأذنكم بس هارد على التليفون.

علقت عليها "فيروزة" وهي تشير بيدها نحو الشرفة لتتجه إليها:

-خدي راحتي هناك.

انتظر "ماهر" انصرافها، لينحني للأمام بجذعه نحوها يلومها بصوتٍ خافت:

-ميراث إيه اللي مش عايزاه؟ ده حقك الشرعي.

خفضت من نبرتها لتخبره بألمٍ:

-يا "ماهر" بيه حضرتك وأنا عارفين كويس مصدر الفلوس دي إيه.

شدد عليها بلهجته الجادة:

-أنا باتكلم عن أملاكه اللي هنا، اللي كان أصلاً وارثها عن أهله.

أصرت على رفضها قائلة:

-مش عايزة حاجة منه.

رفع إصبعه أمام وجهها يحذرها بضيقٍ:

-ما تركبيش دماغك يا "فيروزة"، إنتي محتاجة فلوس تساعدي بيها نفسك قبل عيلتك.

لوهلةٍ شعرت بالإهانة المبطنة من كلماته؛ وإن كانت غير متعمدة. بلعت غصة جارحة في حلقها، وقالت بعزةِ نفسٍ:

-مستورة والحمدلله يا "ماهر" بيه.

تدارك زلة لسانه، واعتذر منها:

-سوري، ده مكانش قصدي، بس آ...

توقف عن إتمام جملته عندما انضمت شقيقته إليهما مجددًا، وهي تعلل سبب مكالمتها الطارئة:

-أسفة، كانت زبونة بتأكد عليا على ميعاد استلام حاجتها.

علقت "فيروزة" بتفهمٍ:

-ولا يهمك.

سألتها رفيقتها في اهتمامٍ:

-ناوية تعملي إيه يا "فيرو" الفترة الجاية؟

تهدل كتفاها في فتورٍ وهي تخاطبها:

-لسه مش عارفة.

اقترحت عليها برقةٍ:

-طب ما ترجعي تقفي معايا في المحل، بجد إنتي ممتازة وآ...

رفضت عرضها بلباقةٍ:

-بلاش يا "لولو"، اعفيني.

استدارت تتكلم مع شقيقها تحثه على دعمها:

-ما تقولها إنت يا "ماهر".

خالف توقعاتها، واحترم رغبتها بتأيده لها علنًا:

-سبيها على راحتها يا "علا"، ماتزهقيهاش، هي محتاجة وقت.

منحته "فيروزة" نظرة امتنانٍ صامتة، لتشرع بعدها في تغيير الحديث لأشياء أخرى غير تلك التي تخصها، فيكفيها ما تجرعته من مرارة وآلام خلال ما مضى.

..........................................................................

نظرة تعاطفٍ مصحوبة بحزنٍ سددتها لتلك الراقدة على فراشها بالمشفى، فبعد أن كانت "بثينة" رمزًا للوقاحة، والإساءة للآخرين بلسانها السليط، أصبحت الآن لا حول لها ولا قوة، بالكاد تستطيع التماسك وتدبر أمورها، ومع هذا اقترحت "همسة" على زوجها، أن يأتي بها إلى منزلهما، لتكون تحت أنظارهما، كبديلٍ عن إبقائها بالمشفى وحيدة، وتعيسة، لا تفيق من لوم نفسها، فربما بتواجدها معهما تتحسن حالتها النفسية، خاصة بعد إشارة الأطباء لحاجتها للمتابعة مع أحد المتخصصين لتجاوز تلك الأزمة الخطيرة.

وما إن رأى "هيثم" والدته غافلة، حتى تحدث إلى زوجته بصوتٍ خافت يوصيها:

-خليكي معاها هنا لحد ما أدفع الحساب.

قالت بإيماءة موافقة من رأسها:

-ماشي يا "هيثم".

بقيت إلى جوار فراشها، جالسة على المقعد، وكامل نظراتها المهتمة عليها. لم تتوقع "همسة" أن يصيبها كل هذا الضرر في وقت قصير؛ ولكن على الباغي تدور الدوائر، تنهدت في أسفٍ، ورغم هذا دعت لها بالشفاء. تحفزت في جلستها عندما وجدتها تفتح عينيها، مالت ناحيتها لتقول ببسمة لطيفة:

-حمدلله على سلامتك يا طنط.

ثم ربتت برفقٍ على ذراعها المسجي إلى جوار جسدها، وتابعت:

-إن شاءالله تبقي كويسة.

حاولت "بثينة" التكلم، لم يسعفها لسانها الناقص، بدا صوتها كالأنين الباكي، وتشنج ذراعها بانفعالٍ وهي تتحسس به وجهها. انتفضت "همسة" واقفة، وسألتها بقلقٍ مهتم:

-عايزة إيه أجيبهولك يا طنط؟ شوريلي بس.

تضاعف تشنجها مع عجزها عن النطق بما تريد، فصاحت "همسة" مستغيثة:

-يا جماعة، حد يلحقني.

على إثر صوتها المرتفع، تجمعت بضعة ممرضاتٍ -وقبلهن الطبيب- لإسعافها، دفعتها إحداهن للخارج قائلة لها بلهجةٍ بدت آمرة:

-معلش انتظري برا شوية.

استجابت مرددة في توجسٍ:

-طيب.

فركت "همسة" كفي يديها معًا، شاعرة بارتفاع معدل نبضاتها، ظلت تتمتم بتضرعٍ:

-عديها على خير يا رب.

بعد دقيقتين، جاء إليها زوجها، ألقى نظرة حائرة عليها، قبل أن يسألها باستغرابٍ:

-إيه اللي حصل؟ واقفة هنا ليه؟

زمت شفتيها للحظة، ثم أجابته:

-مامتك تعبت شوية.

انخلع قلبه في خوفٍ، وسألها:

-من إيه؟

ردت وهي ترمش بعينيها:

-مش عارفة ...

ثم وضعت يدها على جانب كتفه تطمئنه:

-دلوقتي هيطلعوا يطمنونا، ادعيلها يا حبيبي.

إحساسًا مرعبًا انتابه في تلك اللحظة، خشي- ألا يتحمل قلب والدته –أو عقلها- صدمة خسارة شقيقته بسبب طمعها الجشع. شحب وجهه من هواجسه المتواترة؛ لكن بقيت ابتسامة "همسة" الصافية، دليله الحسي- الملموس بأن الأمور ستصير على ما يرام .................................................. !!

..................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الحادي والتسعون (الجزء الثاني)

زيارتها له كانت ضرورية، رغم تأجيلها لبضعة مراتٍ، بسبب بعض الظروف الطارئة؛ لكنها أرادت رؤيته، والاطمئنان عليه، تناسى القلب كل الحزن والضغينة تجاهه، حين وقعت الأنظار على ذلك العاجز، أحست بصدرها يعتصر ألمًا عليه. وقفت "فيروزة" إلى جوار فراش خالها بالمشفى، مسحت بيدها على جبينه، وانحنت تقبله، قبل أن تحييه:

-سلامتك يا خالي.

فتح عينيه بثقلٍ، ونظر إليها نظرة البائس العاجز، لا يصدق أنها موجودة معه، تعامله بإحسانٍ، وعطف. محبتها لم تكن مزيفة، ومشاعرها كانت مليئة باللهفة والحزن. مسدت ابنة شقيقته على كتفه بحنوٍ، وأضافت بصوتٍ اجتهدت ألا يظهر مختنقًا لحسرتها على مُصابه:

-إن شاءالله تعدي منها على خير.

ثم ابتسمت وهي تتابع:

-ومتقلقش على "رقية"، دي أختي الصغيرة، هحميها وأخد بالي منها لحد ما تقوملنا بالسلامة.

حملق فيها مليًا بعينيه الكسيرتين، وبادلته نظرات عكست صفاء نيتها. حرك "خليل" شفتيه ليناديها بصعوبةٍ:

-"فـ..ير..وزة".

ردت باهتمامٍ شديد:

-أيوه يا خالي.

رأت في عينيه العبرات النادمة محتجزة فيهما، بلعت غصتها، وكبحت دموعها عندما ردد بنفس الصوت المتلعثم:

-سـ..امـ..حينـ..ي.

انحنت على رأسه تقبله، وهي تقول دون تفكيرٍ:

-مسمحاك يا خالي...

بالكاد سيطرت على رغبتها بالبكاء المتأثر، وهي تستكمل جملتها:

-قوملنا إنت بالسلامة، عايزينك معانا.

اعتدلت بعد ذلك في وقفتها، ومسحت بظهر كفها العبرات المتسللة من طرفيها، وأخبرته بحماسٍ:

-احنا هنظبط البيت عشان تنام معانا، مش هنسيبك لوحدك، كلنا موجودين حواليك ومعاك.

لم يستطع التعليق سوى بالانخراط في نوبة بكاءٍ نادمة، شعرت خلالها بالأسى عليه، ترجته بقلبٍ موجوع:

-خلاص يا خالي، هو أنا بأقولك كده عشان تزعل؟ والله هاعيط جمبك، وهخلص علبة المناديل دي.

ثم حولت حزنها إلى مزاحٍ وهي تدعي الضحك:

-خليني أقولك عن "رقية" والشقاوة اللي بتعملها، ماهي شكلها طلعالي.

سحبت المقعد لتلصقه بفراشه، واستطردت تحكي له عن ابنته بحماسٍ، غير غافلة عن أدق التفاصيل، ليشعر وكأنه لم يتركها ليومٍ، خلال حديثها المستفيض، تغلغل داخله ندمًا أشد، فرغم ظلمه المجحف، ومعاملته القاسية لها على الدوام، إلا أنها بيّنت له طيبة لا حدود لها، لا تخلو من أنهر من المحبة، رغم توهمه أنها جاءت لإظهار شماتتها فيه، خاب ظنه، وأدرك حينئذ أن النبتة الطيبة أصلها طيب وثابت.

.......................................................

انسحب من أسفل المظلة الجالس تحتها، ليتحرك بعيدًا عن الرجال المجتمعين حوله، حتى يتكلم بأريحية تامة، دون أن يرهف أحدهم السمع لمكالمته الهاتفية، فينقل أخباره لأهل البلدة، كعادة المعظم هنا في تناقل الشائعات بإضافة الكثير من المغلوطات دون دقة. تبدلت قسمات "إسماعيل" المرتخية للوجوم، ونظراته للعبوس، بعد سماعه لهذا الخبر المشؤوم من زوجة شقيقه المتوفي. حرر زفيرًا مزعوجًا من صدره، قبل أن يعقب بحسم:

-احنا هنيجي عندك في أقرب وقت.

على ما يبدو اعترضت على إرهاقه بالقدوم، فأصر عليها:

-دي الأصول والواجب.

صمت للحظةٍ، وتابع:

-عزيها بالنيابة عني، سلامو عليكم.

التفت "إسماعيل" بجسده ليجد ابنه مقبلاً عليه، تفرس الأخير في وجهه متسائلاً بتطفله الاعتيادي:

-في إيه يا حاج؟

أجابه بزفيرٍ مهموم:

-دي مرات عمك، بتبلغني إن بنتها "فيروزة" رجعت.

علق "فضل" هازئًا:

-على طول كده؟ تلاقي جوزها طفش من زنها، وقرف.

صحح له نافيًا، والاستنكار يبدو ظاهرًا على ملامحه:

-لأ يا فالح، ده جوزها ربنا افتكره في الغربة.

جحظت عيناه هاتفًا في ذهولٍ يتخلله القليل من الشماتة:

-إيه ده مات؟

بنفس الأسلوب المنزعج اقتضب في رده عليه:

-أيوه.

حك "فضل" مؤخرة عنقه، وغمغم بسماجة مرفوضة:

-الصراحة ومن غير زعل، بنات عمي أقدامهم فقر على نسايبهم.

نهره والده بغلظة:

-إيه الكلام الخايب ده؟

بوقاحته الفجة تفوه بالمزيد:

-خايب إيه بس؟ إنت مش شايف يابا سرهم الباتع.

صاح "إسماعيل" في نفاذ صبر:

-استغفر الله العظيم.

سأله "فضل" بسمة ماكرة:

-وناوي تعمل إيه؟ هتروحلهم؟

أجابه دون أن يستغرق لحظة في حسم أمره:

-أه طبعًا...

ثم حدجه بتلك النظرة المستهجنة وهو يزجره:

-أومال يعني هاقعد جمبك ألت وأعجن زي الحريم؟

فرك طرف ذقنه، واقترح عليه بنظراته الخبيثة:

-طب ما تخليك وأنا أروح بدالك، ورانا شغل كتير في الأرض، والأُجرية عايزين فلوس أد كده، وإنت بتعرف تتفاهم معاهم.

كشف أمره بسؤاله المباشر:

-أسيبك تروح لوحدك عشان تعك الدنيا زي تملي؟

تلجلج وهو يبرر له:

-يابا أنا هاقوم بالواجب وراجع على طول، مش هالحق أعمل حاجة يعني.

رمقه بطرف عينه، ثم عبر له عن تشكيكه في نواياه:

-أنا مش ضامنك يا "فضل".

غمغم بنظراته المتنمرة:

-ليه بس كده؟ وبعدين ما احنا أخدين السِكة قياسة، كل يوم والتاني عندهم، وأنا هسد مكانك.

صاح منهيًا النقاش معه:

-بأقولك إيه هي كلمة، مش هتتنقل من هنا إلا معايا، أنا مش ناقص مشاكل.

على مضض ادعى انصياعه؛ وكأنه يسكته فقط:

-طيب، اللي تشوفه.

نظراته الطويلة نحوه عكست نوايا لئيمة، وإن لم يفصح بذلك علنًا؛ لكنه عقد عزمه على الذهاب إلى منزل عمه بمفرده، لإثبات أنه الآمر الناهي الوحيد في هذه العائلة، بعد فناء جميع رجالها، وإن كان خالها ما زال حيًا؛ لكنه اعتده عاجز الجسد والعقل، غير قادر على اتخاذ القرارات الصائبة.

.........................................................

احترامًا للعادات والتقاليد، تم إعلام نساء المنزل قبل القدوم بوقتٍ كاف للاستعداد كفاية لاستقبال عددهم الكبير في منزلهم، رغم عدم حاجتهم لأي ترتيب مسبقٍ، بسبب المصاهرة بين العائلتين؛ لكن "بدير" أراد أن تتم الأمور بهذا الشكل تقديرًا للظروف الراهنة. بعد صلاة العشاء، توافد أفراد عائلة "سلطان" على المنزل، استقبلتهم "آمنة" بترحابٍ حار، واستضافتهم في صالون منزلها، فجلس الجد على أريكة منفردة، وعلى المجاورة له جلس "تميم"، أما "بدير" فاستقر إلى جوار زوجته على أريكة ثنائية، واتخذت "هاجر" مكانها عند الجانب الآخر مع رضيعها، لتتبقى الأريكة الواسعة شاغرة، إلى أن احتلتها "آمنة" وإلى جوارها الصغيرة "رقية".

وحده كانت أنظاره معلقة بالباب، ينتظر تلك اللحظة التي تطل فيها عليه، لهفة قلبه أوحت أنه لم يأتِ لتقديم واجب العزاء، وإنما لتجديد عهد الحب النابض في فؤاده. تسارعت دقاته عندما لمحها تأتي بثيابها السوداء، أحس بشيءٍ يناوش مشاعره، ويستحثه بشدة، لإطالة النظرات نحوها بجراءةٍ غير معهودة، وأمام عائلته. خجل "تميم" من نفسه، وأخفض عينيه في حرجٍ، قبل أن تقبل "فيروزة" عليهم؛ وكأنه لم يرها.

ولحسن حظه جلست قبالته، فلا مهرب لعينيه الحالمتين من نظراتها الشاردة. حاول أن يركز انتباهه مع والده وجده؛ لكنه وجد صعوبة في تحقيق ذلك،

فكامل حواسه أبت الانصياع لإرادته، خاض قتالاً صامتًا، كان الفوز فيه من نصيب جوارحه، استقرت عيناه على وجهها الناعم وصوت أبيه يعزيها:

-البقية في حياتك يا بنتي.

قالت بصوتٍ هادئ:

-الدوام لله وحده.

هتفت "آمنة" قائلة في حسرةٍ:

-الواحد مابقاش ملاحق من المصايب اللي نازلة فوق دماغه، مش عارفين نقول إيه؟

رد عليها الجد بصوته الرخيم، وهو يدير عصا عكازه بين أصابع قبضته في حركة دائرية:

-نقول الحمدلله على كل حال.

تنهدت مرددة بإيماءة قنوعة:

-الحمد والشكر ليك يا رب.

قالت "ونيسة" كنوعٍ من الدعم:

-ربنا حاططنا في ابتلاء صعب، بندعيه نعدي منه على خير.

وافقتها "آمنة" الرأي، وردت عليها:

-ونعم بالله.

استمرت الأحاديث والمهمات الجانبية بين المتواجدين، تشارك فيها "فيروزة" أحيانًا، وفي كثير من الوقت بقيت صامتة. قرع الجرس المفاجئ أجبر رأسها على الاستدارة، وقبل أن تنهض أشارت والدتها لها وهي تأمرها بصوتها الخافت:

-خليكي إنتي.

تحركت "آمنة" خارج الغرفة متجهة إلى الباب، فتحته وهي تتأكد من ضبط حجاب رأسها بلزمةٍ لا إرادية، حلت علامات المفاجأة على تعبيراتها عندما أبصرت "فضل" واقفًا على الأعتاب، حركت فكها متسائلة في دهشة:

-"فضل" إنت جاي ليه السعادي؟

حدجها بنظرةٍ غير مستساغة، وقال بشفاه مقلوبة:

-جرى إيه يا مرات عمي؟ هو ممنوع ولا إيه؟

أخبرته نافية:

-لأ، بس أبوك قايلي إنكم جايين على بعد بكرة، فأنا مستغربة.

بسماجته الزائدة حادثها:

-لاقيت نفسي فاضي، قولت أعدي عليكم.

ودون انتظار سماحها له بالدخول، اندفع مقتحمًا الصالة، مجبرًا إياها على التنحي للجانب وهو يتساءل في فضولٍ:

-إيه الدوشة دي؟ هو إنتي عندك ضيوف؟

أجابته بصوتها الخافت:

-عيلة الحاج "سلطان" جاية تعزي في وفاة المرحوم "آسر".

عنفها بخشونةٍ بالرغم من انخفاض نبرته:

-ومحدش يقولي ولا يديني خبر؟

ردت بعتابٍ، وقد ضاقت نظراتها:

-يعني هانقول للناس لأ ماتجوش؟ دي مش الأصول.

شمر عن ساعديه، وكأنه يستعد للشجار، ليقول بعدها بنيةٍ غير محمودة:

-طب أنا داخلهم.

استبطأت حركته بالتعلق بذراعه، وطلبته منه:

-بالراحة يا ابني، الناس في بيتنا.

بوجهٍ قاتم، ونظرة حادة هسهس بفحيحٍ كالأفعى:

-هو أنا غريب؟ ده أنا صاحب مكان.

حذرته من جديد بانزعاجٍ ظاهرٍ على ملامحها، وفي نظراتها أيضًا:

-خلاص يا "فضل"، لم الدور.

دفعها للجانب وهو يتحرك قائلاً بتصلبٍ:

-ملكيش دعوة يا مرات عمي.

تبعته هامسة بتوجسٍ:

-استر يا رب، هو احنا ناقصين فضايح.

بكل ما فيه من قباحة النفس وشرورها، ولج "فضل" إلى الصالون صائحًا بصوتٍ تعمد أن يكون خشنًا وجافًا:

-سلامو عليكم.

أتاه الرد متفرقًا من جميع المتواجدين بالحجرة:

-وعليكم السلام.

بدا النفور ظاهرًا على وجه "فيروزة"، لم ترحب بابن عمها، ونهضت خارجة من الغرفة لتجد والدتها تضم يديها معًا في توترٍ ملحوظ، سألتها باستغرابٍ، وهي ترفع حاجبها للأعلى:

-في إيه يا ماما؟ واقفة على جمب كده ليه؟

بصوتٍ قلق همست لها:

-"فضل" ناوي يشبك مع الجماعة اللي عندنا.

استشاطت غضبًا على الفور، وهتفت مهددة باندفاعٍ:

-والله ما هسكتله، هو اتجنن في عقله، بصفته إيه أصلاً؟

حاولت والدتها استبقائها، وترجتها بخوفٍ مرتبك:

-استني يا "فيروزة".

تجاهلتها مرغمة لتنضم للبقية الحاضرة، وهي في حالة تحفزٍ شديد، منتظرة اللحظة التي يظهر فيها وقاحته لتهاجمه بما يعتريها من غيظٍ وغضب. ونال مراده عندما استطرد هاتفًا باستهجانٍ هازئ:

-ماشاء الله عليكم، منورين البيت.

لم تنتظر التعليقات المجاملة، وبادرت بردها على الفور، ونظرتها الاحتقارية طالته من رأسه لأخمص قدميه:

-البيت طول عمره منور بأصحابه واللي فيه.

في حالةٍ من الغليان راقب "تميم" ما بينهما، كابحًا بصعوبة منع نفسه من التطاول -لفظيًا وجسديًا- على كتلة الشحم الغبية الحاضرة معهم، وكعادة "فضل" المستفزة كانت إهانته فجة عندما زجر ابنة عمه:

-اتركني على جنب كده، وخليني أقول البؤين اللي عيزهم.

تصاعد غضب "تميم" إلى ذروته، حتى عروقه باتت تنتفض بقوةٍ؛ وكأنها ترجوه للانقضاض عليه والفتك به. اختلجت بشرته بحمرةٍ شديدة، كأن جلده يفح نارًا، بينما هاجمته "فيروزة" بزمجرةٍ غاضبة:

-بصفتك إيه إن شاءالله؟

التفت "فضل" ناحيتها يلوح لها بذراعه، ولسانه يسبقه:

-بأقولك إيه....

بلغ صبره منتهاه، والسكوت لم يعد خيارًا متاحًا، هدر "تميم" يقاطعه بنبرة اخشوشنت على الأخير؛ وكأنه على وشك الاقتتال معه:

-إنت يا ابني اتكلم معايا أنا.

على إثر صوته المحموم بكل درجات الغضب، انتفض الجميع في جلستهم، وركزوا أنظارهم معه، بادر الجد بتهدئته بأمره بصرامةٍ، قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة:

-استنى يا "تميم"، وخليني أتكلم.

وأيده "بدير" بلهجته المتشددة:

-اسمع الكلام.

بعينيه الناريتين، ووجهه المشتعل قال بنبرة محملة بأنفاسه الهادرة، ودون أن تحيد نظراته عن وجه "فضل":

-أوامرك يا جدي.

توجهت عينا "سلطان" إلى الضيف الثقيل، وسأله ببرود؛ وكأنه نكرة:

-كنت عايز تقول إيه؟

غاص في مقعده، ورفع ساقه فوق الأخرى، كما لو كان حقًا شخصية هامة لها اعتبارها، ثم لفظ الهواء ببطءٍ، وقال وهو يلوي ثغره:

-يعني هو يصح تيجوا وراجل البيت مش موجود؟

كلماته المستفزة استثارت "فيروزة"، فصاحت به بعصبيةٍ:

-ومين نصبك راجل علينا؟

أدار "فضل" رأسه ناحيتها، ورفع ذراعه عاليًا يهددها علنًا:

-اخرسي بدل ما أسفخك قلم أرقدك فيها.

هنا تدخل "تميم" في الحوار ينذره بصوتٍ أجوف قاتم، اجتمعت فيه شراسة سبعة أعوامٍ عجاف، في سجنٍ لا يظهر أدنى شفقة للضعفاء:

-طب جرب ترفع إيدك عليها، وأنا هكسرهالك نصين، ما هتعرف ترجعها مكانها تاني، وده قبل ما أدغدغ عضمك كله.

صوت "سلطان" كان نافذًا وهو يأمر حفيده:

-اهدى!

ثم أمر "فيروزة" بلهجته الجادة:

-وإنتي استني يا بنتي شوية...

تحولت أنظاره نحو "فضل" ليخاطبه بتحفزٍ واضحٍ:

-وكلمني أنا كبير الأعدة، بس الأول تنزل رجلك لتحت.

ولكز بعكازه الأرضية بقوةٍ جعلت ساق هذا الأرعن تنخفض خوفًا من هيئته، تنحنح في خفوت، وادعى ثباته قائلاً بغطرسةٍ مصطنعة، وكأنما يحفظ ماء وجهه:

-نعم يا.. حاج.

استقام الجد بكتفيه في شموخٍ مهيب، ثم سأله بما يشبه الازدراء:

-قولي إنت كينونتك إيه هنا؟

بنبرة متعالية أجابه، كما لو كان شخصًا فريدًا من نوعه:

-أنا "فضل"، ابن الحاج "إسماعيل"، عمهم الكبير.

عامله الجد باستحقارٍ عندما سأله:

-أيوه يعني، إيه ميزتك في الكون؟

رد بتشنجٍ وهو يبلع ريقه:

-ما أنا قولتلك يا حاج إني ابن عمهم.

سأله بنفس اللهجة المهينة له:

-غيره، بني آدم مهم يعني؟ ماسك منصب واحنا منعرفش؟

رد عليه بوقاحةٍ:

-جرى إيه يا حاج؟ إنت جاي تهزقني في بيتي؟ لأ تقف عوج وتكلم عدل.

مع ختامه لجملته هاج "تميم" ينعته بشراسةٍ، وقد تخلى عن عكازيه ليقف باستقامةٍ، ودون أن يوجد ما يعيقه عن قتله:

-عندك يا (...)، هاطلع ميتينك النهاردة.

انتفض "فضل" واقفًا، وتراجع خطوتين للخلف، ليقف إلى جوار "آمنة"، خوفًا من بطشه الأعمى، فنظراته القاتلة أكدت نيته التامة على تنفيذ قوله، دون إبداء ذرة ندمٍ واحدة، لأن العائلة كانت ولا تزال خطًا أحمرًا لا يمكن المساس به.

دهشت "فيروزة" من حميته، كانت مرتها الأولى التي تراه على تلك الحالة الثائرة، ولأجل من؟ لأجلها ودفاعًا عنها دون وجود ما يربطه بها، أو حتى الدافع للقيام بهذا، أظهر خلال تلك الدقائق المنصرمة استعدادًا كاملاً، للخوض في معركةٍ دامية لا تخصه، من أجل حمايتها من أقل ضرر، خفق قلبها لهذا، وتطلعت إليه ملء عينيها، لحظتها لم تكن ترى سواه، وإن لم يلمح نظراتها المثبتة عليه.

حلقت بعينين سارحتين في فضاء هيمنته الحاضرة بقوة، فرأت بالإضافة إلى استبساله، شهامته، صلابته، اعتزازه بعائلته قبل نفسه، دفاعه المستميت عنهم، وتضحيته غير المشروطة لحماية الضعيف، دون أن يطلب منه المساعدة. لامس ما فعله مشاعرها، ونفذ كالسهام الموجهة إلى قلبها، فشعرت بتلك الخفقة التي أنعشت ما كان كامنًا، لتدرك في أعماقها أن هناك ما يجذبها نحوه؛ وإن

أنكرت واستنكرت هذا. أفاقت من تحديقها فيه، على صياح والدتها اليائس، غير متوقعة نجاحها في تهدئة الوضع بعد وصوله لذروته:

-اهدوا يا جماعة وصلوا على النبي، مش كده.

رد عليها "فضل" بوجهه المتقع، بنفس الأسلوب المهين:

-مش لما يعرفوا في الأصول الأول يبقوا يتكلموا.

عنفه "تميم" بلهجته القاتمة، وقبضته المتكورة تأكله لتحطيم فكه:

-الأصول عارفينها غصب عنك يا بغل.

هتف "فضل" بصوته المهتز، وقد تحرك تلك المرة ليقف خلف "آمنة":

-اغلط كمان، ما إنت مش متربي.

همَّ بالتحرك بما يجتاحه من ثورة ثائرة؛ لكن استوقفته قبضة أبيه الموضوعة على ذراعه قبل نبرته الآمرة:

-"تميم"، اهدى.

ومن خلفه هتف جده يأمره:

-خليك واقف.

بزمجرةٍ محتجة صاح "تميم" مهددًا:

-أدوني الإذن وأنا هانيمه زي الدبيحة.

رد عليه الجد يهدئه:

-احنا جايين نقوم بالواجب، مش نتخانق، وأدينا قومنا بيه، يالا بينا.

قاطعه معترضًا بزفيرٍ متشنج:

-بس آ...

منعه "بدير" من الاحتجاج بصرامته الواضحة:

-جدك قال كلمته، متجادلش.

خنع بصعوبةٍ لكليهما، ودمدم بصوته الغاضب:

-ماشي كلامكم.

وزعت "فيروزة" نظراتها عليهم، وقالت وعيناها تحدقان في اتجاه "تميم"، الذي كان مسلطًا كامل أنظاره على الوغد المختبئ خلف النساء:

-أنا أسفة جدًا على اللي حصل.

أخبرها الجد وهو ينهض واقفًا:

-الغلط مش عندك يا بنتي، الغلط معروف مع مين.

شتت نظراتها عن تعابيره المتشنجة، لتحملق في الجانب، ناحية "بدير" الذي ربت على كتفها وهو يؤكد عليها أيضًا:

-شدي حيلك واحنا معاكي في أي حاجة، احنا مش نسايبك وبس، لأ أهلك كمان.

شكرته بابتسامةٍ بسيطة:

-تسلملي يا رب.

من تلقاء نفسها أدارت وجهها للأمام، لتجده واقفًا على بُعد خطوةٍ منها، أنفاسه المنفعلة تكاد تلفح بشرتها، رعشة خفيفة انتابتها لاقترابه غير المتوقع، كما شعرت بخفقةٍ مباغتة تصيب تلك العضلة النابضة فيها، فازدادت خفقانًا كما لم يحدث من قبل. تلبكت وأحست بحمرةٍ ساخنة -غير غاضبة- تطفر على صفحة وجهها، نظرته العميقة نفذت إليها عندما أُكد لها بصوته الجاد:

-لو حد اتعرضلك يا أبلة قوليلي...

حادت عيناه عنها للحظة لترتكز من جديد على وجه "فضل"، وهو يكمل تهديده:

-بالله ما هيشوف نفسه إلا وهو مدفون حي في قبر محدش يعرفله طريق جرة.

هلل "فضل" متسائلاً بعصبيةٍ؛ كما لو كان يحاول رد كرامته المبعثرة:

-هو يقصدني أنا ؟ عايز يموتني ؟ لأ ده أجيبله البوليس.

صاحت فيه "آمنة" بصبرٍ نافذ:

-هو إنت بتخانق دبان وشك؟ اسكت بقى.

عادت عيناه الهائمة تنظر إليها عن قربٍ مغرٍ، ليجد قطعتي الفيروز ازدادتا وهجًا، صوتها الناعم غمر كيانه كاملاً، فجعل وخزات الحب والشعور تعمل

بكامل طاقتهاوقد قالت باقتضابٍ ممتن يصحبه ابتسامة رقيقة، كانت خصيصًا له:

-شكرًا.

يا لقرعِ الطبول الآن في قلبه! فقط لو تعلم ما الذي يكنه لها، ابتهجت روحه، وطربت، وسرَّت، وفرحت، وسعدت كما لم تسعد من قبل. حافظ "تميم" على ثباته ليخبرها بلهجته التي هدأت، وإن لم تخبت صلابتها، مؤكدًا عليها من جديد، عزمه الشديد على تنفيذ تهديده لحظيًا، فقط إن منحته الإشارة بهذا:

-مش بأهزر، إنت بس قولي.

رمشت بعينيها قائلة بوجهٍ شبه متوتر:

-كتر خيرك.

تحرك مبتعدًا عنها، وعيناه تُلقي نظرة مودعة عليها، بما تحتويه من شغفٍ ودفء، وعدّ بلقاءٍ قريب تعهد به قلبه في صمتٍ. واصل سيره، دون الاستعانة بعكازيه، متحملاً بعض الألم في ساقيه، تعمد "تميم" الوقوف أمام "فضل" ليحدجه بنظراته الميتة، فانكمش الأخير على نفسه، كادت تنفلت منه شهقة مذعورة حين رفع ذراعه يدعي تهديده به، قبل أن يخفضه ليسنده على كتفه، ضغط بأصابعه بخشونةٍ عليه، حتى كاد يعصره، وقال له باستهجانٍ:

-الرجالة نازلين يا... راجل، جاي، ولا هتكمل ليلتك مع الحريم؟

أجابه بذبذبةٍ وهو يحاول إزاحة قبضته المتشبثة به:

-لأ قاعد.

أخبرته "آمنة" بوجومٍ ناقم:

-واحنا بقى هنقفل وننام بدري، بالسلامة يا "فضل".

لو كان مثيله يملك إحساسًا، لما ظهر بوجهه مجددًا، بعد ما تلقاه من إحراجٍ متعاقب، تنحنح قائلاً وهو يزيح يد "تميم" القابضة عليه:

-ماشي يا مرات عمي.

وقبل أن ينفذ بجلده هاربًا منه، أمسك به "تميم" من مؤخرة عنقه، يعتصر فقراته بشدة، فتأوه بأنينٍ، ولم يستطع المناص منه. اقترب من أذنه يهمس له:

-حاسب على أيامك كويس...

نبرته الهامسة زادت قتامة، وأشعرته بأنه بات قاب قوسين أو أدنى من الهلاك الحتمي مع إتمام جملته:

-عشان يومك قرب يا... بغل ....................................... !!

..............................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الثاني والتسعون

بنفس القبضة القوية المحكمة حول عنقه، والغضب الذي لم يهدأ بعد، دفعه "تميم" دفعًا بخشونةٍ أمامه إلى خارج المنزل؛ وكأنه يُلقي بقمامةٍ مهملة، لا مكان لها هنا، ليضمن عدم عودته بعد مغادرة الجميع. حاول "فضل" المناص منه، فلم يقوَ على هذا، رغم كون الأخير في غير كامل قوته، ويستخدم ذراعًا واحدة، وبالكاد يسير باستقامة، أظهر فقط قدرًا مما يشحذه ضد سماجته المفرطة. لم يحرره، وصاح كأنما يحادثه:

-عايزك في كلمة برا يا... راجل.

طريقة تلفظه بالكلمة الأخيرة عنت أنه أراد إهانته، وليس مدحه كما يظن البعض. أدار "تميم" رأسه للجانب، عل الحظ يبتسم له، ليحظى بفرصة أخرى لرؤية إشراقة حدقتيها، ذاك البريق الذي تلألأ فيهما بوضوحٍ، بعد أن أظهر جانبه الآخر المدافع عنها. وقد حدث ما رجاه، حيث كانت "فيروزة" في إثرهما لغلق الباب، تطلعت إليه بطريقة جعلت الروح تشتاق، والأحزان تذوي، شتته عنها قليلاً برطمة كتلة الغباء القابض عليه، أجلى صوته، وأمرها بإشارة مدعمة كذلك من عينيه:

-اقفلي يا أبلة عليكم.

علقت عليه بنعومةٍ، رافقتها ابتسامة ممتنة، زادت من لهيب الأشواق:

-حاضر يا معلم.

وقبل أن توارب الباب تابع بلهجته الجادة، وعيناه قد تحولتا لتحدج "فضل" بقتامةٍ أرعبته:

-زيادة أمان، عايز أسمع صوت الترباس.

استجابت لأمره، وأغلقت الباب ليسمع بوضوحٍ حركة القفل فيه، عند تلك اللحظة ارتخت قبضته عن مؤخرة رقبة "فضل"، ليس لتحريره، وإنما لدفعه بظهر ساعده من عنقه نحو الحائط، حاصره برأسي عكازيه الطبيين، وضغط على مجرى تنفسه، ليقطع الهواء عنه، ثم بيده الأخرى أشهر مطواته، وجعل بريق نصلها الحاد ينعكس في عينيه المذعورتين، أخفض يده قليلاً ليلصق النصل المدبدب في جلد صدغه، همس له من بين أسنانه المضغوطة:

-إنك تستقوى على الحريم مش مرجلة.

تلوى "فضل" بجسده محاولاً تحرير نفسه، والتقاط أنفاسه المقطوعة، على أمل الفرار من أمام شرارات غضبه الحارقة؛ لكنه كان عاجزًا تحت قبضتيه، مسلوب الإرادة والقوى. خفض "تميم" النصل للأسفل، ليغرزه طرفه الحاد عند بنطاله، وتابع تهديده الهامس له:

-عشان لو اتكررت تاني، هاشيلك الحتة اللي مخلياك تفكر نفسك كده!

نبرته الجوفاء، مع نظراته المظلمة، أكدت أنه لا يمزح مطلقًا في تنفيذ كلامه. استمر "تميم" في الضغط برأسي عكازيه على عنقه، حتى بات لون بشرته أزرقًا، حرره بعد أن سدد لكمة قاسية بركبته في أسفل معدته جعلته يسعل

ويئن في ألم شديد، قبل أنه يكومه بجانب صندوق القمامة. نظر له باحتقارٍ مشمئز، ثم أمره مهددًا:

-قوم على حيلك، وامشي من هنا، بدل ما أنزلك بطريقتي

طار من عينيه كل استبسال زائف ظن أنه فيه، زحف "فضل" على أطرافه الأربعة ليصل إلى الدرج، ثم رفع أحد ذراعيه ليمسك بالدرابزين مُحملاً عليه ثقل جسده، بالكاد نهض وهو يهبط في عجالةٍ، فأوشك على الانكفاء على وجهه بطريقة مضحكة؛ لكنه استعاد اتزانه وفر سريعًا قبل أن يطاله الأذى. ابتسم "تميم" ساخرًا منه، على الرغم أن ذلك لم يكن مرضيًا بالكامل له، واستدار بعدها ليحملق في الباب الخشبي الذي يفصله عنها، مستشعرًا بقوة حضورها، آه لو تتبين مدى الشوق والحب الغارق فيه وجدانه نحوها! انصرف من المكان وقلبه يدق في لوعة، لم يعد يحتمل الابتعاد، وما زال مترددًا من الاقتراب.

من الناحية الأخرى، شهدت "فيروزة" ما فعله، وراقها للغاية تلقينه لهذا الدرس القاسي، شعرت بصدق أنها استردت عن طريقه جزءًا من كرامتها المهدورة، وإن لم يعلم بعد ما عانته من جبروت هذا الغليظ، وحينما استدار لينظر ناحية الباب، شعرت أن نظراته اخترقت الحاجز الخشبي لتصل إليها، خفق قلبها في ارتباكٍ، وارتجفت في خجلٍ لم تشعر به ناحيته من قبل، لولا يقينها بأن هناك فاصلاً بينهما لصدقت أنه يراها قبالته. ابتعدت عن الباب، وألصقت ظهرها بالحائط، وهي تشعر بتهدجٍ غريب يجتاح صدرها، تحسست

نبضاتها بيدها، وهي لا تستوعب الاضطراب المغري الذي اعتراها؛ لكنه كان مقرونًا بشيء استلذته.

..........................................................................

أمام مرآة تسريحتها، أجلست الصغيرة على مقعدها القديم، ووقفت خلفها وهي ممسكة بمشطها تصفف خصلاتها الطويلة برفقٍ، كانت تبتسم لها بين الحين والآخر، إلى أن شرد عقلها لبعض الوقت مستعيدة تفاصيل ذلك الحوار السابق الذي دار بين أمها وتوأمتها بعد عودتها من السفر، لإطلاعها عن الجديد من الأخبار؛ وإن لم تكن في أغلبها محمودًا، حينها عرفت عن كرب عائلة "سلطان"، والنوائب التي توالت على رؤوسهم؛ لكن ما أحزنها -بقدرٍ لا يخلو من التعاطف- مقتل "خلود" غدرًا، لن تنكر أنها لم تحبذ أسلوبها الفظ في استفزازها، واستثارة أعصابها بتعاليها ومعايرتها المتكررة لها في كل فرصةٍ تتاح لها؛ لكن أن تنتهي حياتها هكذا، كان أمرًا بشعًا لم يمكن تصوره!

علقت "همسة" آنذاك:

-بجد الواحد عاش أيام صعبة، ولحد دلوقتي "هيثم" لسه متأثر باللي حاصل، وأنا محتارة معاه.

ردت عليها والدتها تبرر تصرفاته:

-مش أمه وأخته.

أضافت بنوعٍ من الشفقة:

-اللي يقهر بجد إن اللي هاجمهم جوز بنتهم "هاجر"، اللي اسمه "محرز"...

ثم خاطبت توأمتها تسألها:

-عارفاه يا "فيرو"؟

أجابتها بفتورٍ:

-أه، أفتكر شكله.

أكملت "همسة" قولها بضيقٍ منزعج:

-لأ ومكتفاش بكده، كمان خطف ابنه في العزا، شوفتي الجبروت؟

ظهر الاستياء على تعبيراتها وهي تعقب:

-صعب أوي بجد.

تنهدت متابعة بلهجة جادة وهي تشير بيدها:

-بصراحة لولا "تميم"، وجوز صاحبتك اللي في البلد "أسيف"، الله أعلم كان ممكن يحصل للولد ده إيه.

التطرق لذكره جعل حواسها الخاملة تتيقظ بالكامل، اسمه بات على الدوام مقرونًا بالشهامة والمروءة، ابتسامة خفيفة استقرت على شفتيها وهي تقول باستحسانٍ:

-كويس إنه كان موجود.

مازال التجهم مسيطرًا على وجه "همسة" عندما أخبرتها:

-تعرفي الزفت اللي اسمه "فضل" يومها مد إيده عليا، كام عايز ياخد نمرة على حسي قصاد الرجالة.

تبدلت تعابير توأمتها إلى الحنق في لمح البصر، وصاحت في استهجانٍ:

-قطع إيده، هو اتجنن في عقله؟ إزاي يعمل كده؟ وإنتي سكتي؟

جاوبت بابتسامةٍ راضية نسبيًا:

-الرجالة قاموا معاه بالواجب، وبالعافية "هيثم" سابوه.

هدرت أنفاس "فيروزة" وهي تعقب عليها، وبشرتها تشع حمرة غاضبة:

-اقسم بالله سيرته تفور الدم، حاجة كده استغفر الله العظيم تحرق أعصابك.

استمرت "همسة" قائلة:

-حقيقي ساعتها حسيت بالسند والضهر.

تطلعت إليها "فيروزة" بنظراتٍ ساهمة؛ وكأنها شردت لوهلةٍ عنها، مستعيدة في عقلها ومضاتٍ خاطفة لوقوفه إلى جوارها في القسم الشرطي، أثناء اتهام زوجته السابقة لها بمحاولة الاعتداء عليها وقتلها. لم يكذبها مُطلقًا، آمن ببراءتها بلا دليلٍ يبرهن ذلك، دعمها في وقتٍ كان من المفترض أن يتخذ صفًا مضادًا لها. لم تعرف "فيروزة" أن شفتيها تقوستا بعفويةٍ لتظهر بسمة تشكلت لأجل ذكراه، أخفتها سريعًا وشقيقتها تتابع:

-ربنا يزيحه من طريقنا.

زفرت معقبة بإيجازٍ:

-يا رب.

تساءلت "آمنة" باستنكارٍ:

-اللي الواحد مستغربه هو في بني آدمين كده عايشين وسطنا؟ يطعنوك في ضهرك وإنت مديهم الأمان؟ إزاي يقدروا يعملوا ده؟

أجابت "فيروزة" بلمحةٍ من الحزن في صوتها:

-في يا ماما كتير، بس للأسف الطيبين اللي زينا بيتخدعوا بسهولة.

تضرعت والدتها قائلة برجاءٍ:

-ربنا رحيم بعباده، وينجينا من شر العالم دول.

جمعت "همسة" حقيبتها، وعلقتها على كتفها لتضيف وهي تنهض من مكانها:

-أنا هاقوم بقى، الوقت اتأخر، عايزين حاجة مني؟

ردت "آمنة" نافية وهي تهز رأسها:

-لا يا "هموسة"، خدي بالك من نفسك.

قالت مبتسمة:

-حاضر يا ماما...

ثم التفتت ناظرة إلى توأمتها التي وقفت تحتضنها، ربتت على ظهرها قائلة بتنهيدة مشتاقة:

-والله يا "فيرو" كنت مفتقداكي، رجعتك دي مش عارفة فارقة معايا إزاي.

تراجعت عنها لتنظر لها عن كثبٍ، وقالت:

-حبيبتي، ربنا ما يحرمني منكم، أنا معنديش أغلى منكم.

ودعت "همسة" الصغيرة التي غفت خلال ثرثرتهن على الأريكة، بقبلة طبعتها على جبينها قبل أن تعتدل واقفة، حينها شعرت بدوارٍ غريب يجتاح رأسها جعلها تترنح في خطواتها، أسندتها "فيروزة" وهي تسألها في جزعٍ:

-مالك يا "همسة"؟

أجابتها بإعياءٍ بسيط:

-دماغي لفت كده فجأة.

ظلت ممسكة بذراعها، وأجلستها على الأريكة وهي تطلب منها:

-طب ارتاحي شوية.

قالت بابتسامةٍ لم تكن مقنعة:

-أنا كويسة محصلش حاجة.

في حين عاتبتها والدتها بتزمتٍ:

-ما إنتي هارية نفسك، من هنا لهنا، ريحي شوية.

عقبت على أمها بتبرمٍ مزعوج:

-هو احنا بنلحق؟ إنتي شايفة يا ماما، كله جاي ورا بعضه، مش بإيدي والله.

لانت نبرتها المعاتبة، وأوصتها بحنوٍ:

-ربنا يقويكي، بس خدي بالك من نفسك، بدل ما تقعي من طولك.

في تلك الأثناء أحضرت لها "فيروزة" كوبًا من الليمون البارد، طلبت منه ارتشاف قدرًا منه، قبل أن تتكلم بقليلٍ من التعب:

-حاضر يا ماما، والله أنا بقيت كويسة، سلامو عليكم.

انتشلها من شرودها صوتًا يناديها عاليًا، فأعادها لمحيطها الواقعي:

-"فيروزة".

استدارت برأسها تنظر في اتجاه الباب، وهي ترد:

-أيوه يا ماما.

سألتها أمها في استغرابٍ:

-إنتي مش سمعاني ولا إيه؟

أجابتها متسائلة:

-في حاجة؟

أخبرتها بنوعٍ من الاسترسال؛ وكأنها تسرد عليها ما قامت به من خطواتٍ:

-بأقولك أنا وضبت هدوم خالك في الدولاب عندي، ونقلت الدواء بتاعه على الكومدينو، بكرة بإذن الله نروح نجيبه.

هتفت في حبورٍ:

-على خيرة الله.

أضافت تُعلمها:

-وكمان كلمت أختك، وقالتلي حماتها خرجت من المستشفى، وقاعدة عندها.

باقتضابٍ عقبت عليها:

-كويس.

تنهدت والدتها مكملة حديثها:

-عايزين نبقى نعدي نشوفها ونقوم بالواجب، اللي حصلها مش هين.

ورغم امتعاضها من تلك الزيارة، لوجود الخلافات السابقة، وما تحمله النفوس من ضغائن ربما لم تكن سببها، إلا أنها أبدت استعدادها بقولها غير المعارض:

-أُكيد طبعًا.

ابتسمت والدتها متممة:

-خلاص هظبط مع أختك وأقولك.

-ماشي.

قالت تلك الكلمة وأناملها تعمل على خصلات "رقية" لتصنع منها جديلة طويلة، انتهت عند طرفها بعقدها برابطة صغيرة كانت تحوي طاووسًا أبيض اللون.

.....................................................

واربت الشباك الخشبي، وسحبت الستارة الخفيفة عليه، لتبدو الإضاءة معقولة، لا تزيح عينيها، قبل أن تنظر إليها مجددًا باهتمامٍ، وتتفقد انتظام أنفاسها. مسحت "همسة" بالمنشفة القطنية المبتلة كفي "بثينة" لتنظيفهما، ثم جففتهما بأخرى، قبل أن تشد الغطاء على جسدها، وبهدوء حريص انسحبت من الغرفة لتجد زوجها منتظرًا بالخارج، تحدثت بصوتٍ خافت، حتى لا تُفيقها:

-هي نامت بعد ما خدت الدوا، متقلقش عليها.

رد "هيثم" في ارتياحٍ:

-الحمدلله.

أشارت له ليتبعها بعد أن أغلقت الباب بهدوءٍ تام، ثم أخبرته مستخدمة يدها في الإشارة:

-بص أنا عملت كشف بمواعيد الأدوية بتاعتها، معلقاه على باب التلاجة عشان ناخد بالنا ومانساش، وربنا يجعله بالشفا.

حملق فيها بنظراتٍ ممتنة، احتوت على حبًا عميقًا، لا يضاهيه شيء، ناداها باسمها بتنهيدة حارة:

-"همسة".

قالت بابتسامتها النضرة:

-أيوه يا حبيبي.

انخفضت يداه لتمسك بكفيها، داعبهما بإبهاميه، وعبر لها عما يشعر به الآن جراء مواقفها النبيلة، بصوتٍ غلفه الشجن:

-أنا مش عارف أقولك إيه، واحدة غيرك بصراحة، بعد اللي أمي عملته كانت آ....

قاطعته برقةٍ، وعيناها تحدقان فيه بمحبةٍ واضحة:

-متكملش، كفاية اللي هي فيه.

ترك يديها بعد أن جذبها إلى أحضانه، ضمها إلى صدره، وأسند رأسه على كتفيها وهو يواصل إخبارها:

-ربنا يخليكي ليا، إنتي سندي في الدنيا، من غير وجودك في حياتي كان زماني ضعت...

وقبل أن تعلق بشيء، جدد اعترافه الصادق لها:

-أنا بحبك.

بوجهٍ ازداد خجلاً وإشراقًا نطقت هي الأخرى:

-وأنا كمان..

استلت نفسها من أحضانه الدافئة، وتابعت بحماسٍ؛ وكأنها تُدلله:

-طب تعالى معايا عشان أجهزلك الفطار قبل ما تنزل.

سألها بنشاطٍ:

-عايزة مساعدة؟ ده أنا شاطر في رص الأطباق.

ضحكت قائلة:

-ده إنت كده ملكش زي.

أضاف في زهوٍ وهو يشاركها الضحك:

-ده أنا أعجبك على الآخر.

استدارت تأمره بصوتٍ تصنعت فيه الجدية:

-طب بص آ....

بترت عبارتها قبل أن تكتمل، عندما شعرت بذلك الدوار المريب يضرب رأسها بقوةٍ، لاحظ "هيثم" شحوبها، وعدم اتزان حركتها، فسألها بمزاحٍ يخالطه القلق:

-"همسة"، في إيه؟ هو أنا حسدتك ولا إيه؟

نفت وهي تقبض على ذراعه لتستند عليه:

-لأ أنا كويسة، مافيش حاجة، وآ...

أحست في تلك اللحظة بظلام دامس يحتل وعيها، فغابت الصور عن عينيها، وسقطت في أحضان زوجها فاقدة للوعي، صاح "هيثم" في فزعٍ:

-"همســـــة"!

..................................................

أغلق حزام بنطاله الجينز، وهندم من ياقتي قميصه ذي اللون الأزرق الفاتح، قبل أن يشمر عن ساعديه، ليضع بعدها ساعة يده التي قلما يرتديها؛ لكنه كان بحاجة إليها لمعرفة الوقت، ليكون على الموعد المتفق عليه. دقات متتابعة بشيء بدا صلبًا على باب غرفته، جعلته يعرج بخطواته في اتجاهه لفتحه في الحال، دهشة غريبة اعتلت ملامحه وقد رأى جده واقفًا خارج حجرته في تلك الساعة المبكرة، خاصة أنه في مثل هذا التوقيت يواظب على قراءة ورده اليومي من القرآن الكريم. سأله الجد مستأذنًا:

-صاحي يا "تميم"؟ عايز اتكلم معاك شوية.

دعاه للدخول وهو يتنحى للجانب قائلاً:

-تعالى يا جدي، اتفضل، أنا خلصت لبسي، ونازل على الدكان.

سأله في اهتمامٍ بنبرته الجادة، بعد أن جلس على طرف الفراش:

-عامل إيه دلوقتي؟ هديت كده؟ مردتش أتكلم معاك وقت ما رجعنا.

على مضضٍ أجابه:

-يعني ...

ثم تحولت نبرته للضيق الخانق وهو يتابع:

-بس والله لولا خاطرك، وأوامرك اللي فوق راسي، كنت نهيت عمره، مش بغل زي ده هيتنى ويتفرد علينا.

عقب في عدم اكتراثٍ:

-سيبك من راس العجل ده، وقولي..

نظر له مهتمًا وهو يسأله:

-خير يا جدي؟

جاءه سؤاله مباشرًا:

-بتحبها؟

راوغه في منحه الإجابة متنحنحًا:

-احم.. مين دي؟

بملامحه الجادة وبحه، ولكن بلهجته المعتدلة:

-يا واد، متلفش وتدور على الشيبة دي، إيش حال ما أنا مربيك على إيدي.

لم يماطل "تميم" في التخبئة عليه، كان كالكتاب المفتوح له، يستطيع قراءة ما يُدون على الأسطر، لذا سأله برأس خفيض في حرجٍ:

-هو أنا باين عليا أوي كده؟

ضحك الجد بخشونةٍ قبل أن يمازحه:

-لأ خالص، ده إنت ناقص تعلق إعلان في الحتة، ولا على باب الدكان، إياكش البُنية تاخد بالها.

جلس "تميم" إلى جواره، وحملق في وجهه متسائلاً بترددٍ:

-تفتكر هتحس بيا؟ ولا يمكن تفكرني مش مناسب ليها، أو مش أد المقام؟

قال "سلطان" ببساطةٍ، وهو يربت على فخذه:

-إنت تشرف أي حد، انوي بس خير وربنا ييسرلك كل عسير.

هتف في رجاءٍ:

-يا رب، أنا نيتي خير والله.

بنبرته الواثقة أخبره "سلطان"؛ وكأنه متيقن من تحقيق ذلك:

-يبقى استنى فرج ربنا، هانت.

توسله في لهفةٍ:

-ادعيلي بالله عليك يا جدي.

مازحه من جديد بأسلوبه اللين:

-إنت كده مدلوق خالص، يا واد اتقل.

مال "تميم" برأسه على كتف جده، قبله مطولاً، ورد بسعادةٍ تخللت أوصاله:

-حبيبي يا جدي، ربنا يخليك ليا.

القليل من الاستغراب اعترى ملامحها عندما سمع كلاهما دقات عنيفة على باب المنزل، مصحوبة بقرعٍ متواصل للجرس، تساءل الجد في تعجبٍ:

-ده مين جاي السعادي؟

استقام "تميم" واقفًا، وقال بعزمٍ وهو يتجه خارج غرفته:

-مش عارف، هاطلع أشوف مين.

استوقفته والدته قبل أن تصل إليه وهو يأمرها:

-استني يامه.

رددت "ونيسة" من خلفه في توجسٍ:

-ربنا يستر.

أدار "تميم" المقبض، وفتح الباب ليتفاجأ بوجود "هيثم" قبالته، وعلامات الذعر تنفر من وجهه، سأله في قلقٍ:

-خير يا "هيثم"؟ في حاجة حصلت؟

أشار له بيده وهو يجيبه بأنفاسٍ شبه لاهثة:

-"همسة" وقعت من طولها، ومش بتحط منطق.

جزع لسماع تلك الأخبار وهتف قائلاً:

-يا ساتر يارب.

تحركت "ونيسة" للأمام لتتجاوزه، وصاحت وهي تضع حجابها على رأسها:

-استنى أنا طالعالها.

بينما أضاف "تميم" وهو يخرج هاتفه المحمول من جيبه الأمامي:

-وأنا هاطلبلك دكتور.

رجاه بخوفٍ شديد:

-بسرعة الله يكرمك.

دون تردد أكد عليه، واضعًا الهاتف على أذنه:

-على طول.

.....................................................

ببطءٍ حذر حركت رأسها للجانبين، وهي تحاول فتح جفنيها، في البداية كانت الرؤية مشوشة؛ لكن بعد لحظاتٍ أصبحت الأطياف المحاوطة بها واضحة المعالم. أدارت "همسة" عينيها للجانب، لتنظر إلى زوجها الجالس بجوارها، رأت على ثغره ابتسامة عريضة، أتبعها قوله المطمئن:

-حمدلله على سلامتك.

سألته في حيرةٍ:

-هو إيه اللي حصل؟

وقبل أن يجيبها تحولت أنظارها نحو "ونيسة" التي بادرت بإخبارها بهذا الخبر السار:

-مبروووووك يا حبيبتي، ربنا يكملك على خير.

لم تستوعب مقصدها، وتساءلت ببلاهة:

-على إيه؟

تلك المرة انحنى "هيثم" على جبينها يقبله، وقال في ابتهاجٍ عظيم:

-الدكتور قالنا إنك حامل.

اعتلتها دهشة مصدومة، فردت في ذهولٍ غير مصدقة ما أملاه على مسامعها:

-حامل؟

قال مؤكدًا بإيماءة من رأسه:

-أيوه، والله العظيم حامل.

أدمعت عيناها تأثرًا، فأكمل بنفس اللهجة الغبطة:

-شوفتي كرم ربنا عامل إزاي؟

خرج صوتها مختنقًا، متقطعًا بشكلٍ محسوس، من بكائها الوشيك وهي تنطق:

-أنا.. حامل؟

من جديد أكد عليها ويده تلوح في الهواء:

-أيوه، كلها كام شهر والبيت يتملى علينا بالعيال.

تمتمت "همسة" في امتنانٍ متضرع، وعيناها تتطلعان للأعلى؛ وكأنها تنظر للسماء:

-اللهم لك الحمد والشكر.

دعت لها "ونيسة" قائلة:

-ربنا يسعدك يا بنتي، ويراضيكي بالخير على كل اللي بتعمليه في أختي وابنها.

ضحكت وهي تبكي، ورفعت يدها تمسح دموعها المنسابة من طرفيها، أخبرها "هيثم" بنبرته المتحمسة:

-كلمي أمك عرفيها، أكيد هتفرح أوي لما تعرف.

-حاضر.

تطلعت "همسة" أمامها، وهي تكاد لا تصدق عطية المولى لها، تبددت كل أحزانها مع كم الخير الذي قدمته دون انتظار المقابل، لهج لسانها بالمزيد من الشكر، وعيناها تفيضان بالدمع:

-الحمدلله يا رب، وكذلك نجزي الصابرين فعلاً .................................. !!!

.................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الثالث والتسعون

في الاستقبال الواسع، جلس كلاهما بالقرب من باب المنزل الخشبي، ليتركا مساحة من الخصوصية لأصحابه، ليتمكنوا من التحرك بأريحية، دون الشعور بتطفل غيرهم عليهم. وما إن انصرف الطبيب بعد تلقي الجميع البشارة حتى نهض الجد "سلطان" واقفًا، وأخبر حفيده الجالس معه بلهجته الجادة:

-خليك معاهم يا "تميم"، جايز يحتاجوا حاجة كده ولا كده.

هب واقفًا على قدميه، ومستندًا بيدٍ على عكازه الطبي، ثم أومأ برأسه مرددًا في طاعةٍ واضحة:

-ماشي يا جدي، اللي تشوفه...

بدأ الجد في السير المتهادي نحو الباب، فتبعه حفيده مضيفًا:

-أنا مستني الواد من الدكان يجيب الدوا اللي الدكتور طلبه.

علق في استحسانٍ:

-كويس...

وأضاف مشددًا عليه بابتسامةٍ وقورة:

-وخلي الواد "هيثم" يعدي عليا، قوله جدك عاينلك حلاوة البشارة.

لاحت ابتسامة لطيفة على محياه وهو يقول:

-ربنا يباركلنا في عمرك يا جدي.

ربت "سلطان" على كتف حفيده، وخاطبه بلهجةٍ ذات مغزى:

-وعقبال ما تبشرني إنت كمان.

لم يبدُ "تميم" خجلاً تلك المرة، بل خرج صوته مُنيبًا راجيًا:

-يا رب.

هز الجد رأسه بإيماءاتٍ صغيرة، وهو يختتم حديثه:

-كله على الله، سلامو عليكم.

بادله تحية الوداع قبل أن يغلق الباب في إثره:

-وعليكم السلام.

عاد ليجلس في مقعده، وانتقى تلك المرة ذاك القريب من الباب، موليًا ظهره لمن بالداخل، حتى لا يبدو وجوده مزعجًا، التهى بإجراء بعض المكالمات الخاصة بالعمل، والتأكد من إتمام نقل حمولات البضائع لأصحابها. شتت تركيزه هذا الرنين المتكرر لهاتف محمول بدا قريبًا منه؛ لكن صوته كان مكتومًا إلى حد ما، وكأن شيئًا موضوعًا عليه يمنع صدوره بوضوح. أرهف السمع ليحدد مكانه، نهض باحثًا عنه، فوجده بالفعل موصولاً بالشاحن على قطعة (الدريسوار) الملاصقة للحائط، ومن فوقه أحد المفارش، أزاحه عنه، وحملق بعينين متسعتين في الاسم الذي أضاء الشاشة، وأنعش قلبه بنبضٍ زائد؛ "فيروزة". أحس بنوبة من الحماس والنشاط تجتاحه، بتدفق الدماء الغارقة في العشق في

كافة شرايينه، تستحثه على الرد عليها، ظهر التردد عليه، وتساءل مع نفسه بصوتٍ خفيض، يعبره عن حيرة مصحوبة بربكةٍ بائنة على تصرفاته:

-طب أعمل إيه؟

حدق في اسمها بنظرة مفتونة، ولهة، تنم عن حبٍ عميق، لا يمكن إنكار حقيقته أبدًا، مط فمه في ضيقٍ، عندما انقطع الاتصال، كما حل العبوس على قسماته المبتهجة، وكأن مصدر السعادة انسل من بين يديه؛ لكن عادت تعابيره للإشراق مجددًا، ونظراته للمعان، حينما ملأ اسمها الشاشة، دفعته اللهفة للإجابة على مكالمتها، بالنسبة له سماع صوتها كان الحافز المثالي لبدء يومه الطويل، والذي أصبح لا معنى له بدونها.

وضع "تميم" الهاتف على أذنه، حابسًا أنفاسه، عاجزًا عن إيجاد الحروف التي ينطق بها لتبادل الحديث معها، وقبل أن يجد مسعاه، انطلق صوتها ثابتًا، قويًا، يتخلل وجدانه وهي تتساءل باهتمامٍ:

-إنتي فين يا بنتي؟ من بدري باتصل عليكي وإنتي مش بتردي...

ابتسامة مسروة استقرت على شفتيه، ازدادت اتساعًا مع استرسالها الضاحك:

-فاتك نص عمرك إمبارح يا "هموسة"، كان لازم تكوني موجودة، "تميم" نفخ البغل "فضل"، عرفه مقامه الحقيقي، اقسم بالله كان واقف زي الكتكوت المبلول قصاده..

يا لقلبه الراقص طربًا لنطقها باسمه مجردًا من أي ألقاب! يا لعذوبة لسانها بحروفٍ تُدلل اسمه بنعومة مغلفة بالضحكات! أي شيء بعد يريده وقد نال السعادة بعد الشقاء؟ ودَّ لحظتها –بكل جوارحه- لو رأت ما يلوح على وجهه، وينعكس في وهج عينيه، من بهجة فاقت حد أي فرحة حظى بها في كامل حياته. تحليقه الحالم في سماء مُلبدة بالمشاعر الفياضة انتهى سريعًا كما بدأ، عندما أتمت جملتها:

-بصراحة اللي عمله فيه برد ناري شوية، وهو يستاهل أكتر من كده.

استشعر حنقًا دفينًا في صوتها الذي تبدل، وكبح ما اهتاج في عروقه من دماءٍ ثائرة، وذاكرته قد تنشطت بالتلميحات المبطنة السابقة عن تعرضه لها بالأذى، أصبحت أنفاسه ثقيلة، مشبعة بالحقد والغيظ، ومع صمته الطويل تساءلت "فيروزة":

-إنتي مش بتردي ليه؟

لم يعد هناك أي سبيل للمماطلة، فقد نال فرصته لليوم، لهذا تنحنح بخشونة طفيفة:

-احم..

سألته على الفور؛ وكأن نبرتها قد تحولت للتحقيق:

-مين معايا؟

تردد لوهلة قبل أن يبادر بالتعريف بنفسه، بتلعثمٍ محسوس، ودقات قلبه تتسارع بين ضلوع التي تحجزه:

-صباح الخير يا .. أبلة...

حل السكون على الطرف الآخر؛ وكأن الصدمة قد ألجمت لسانها، فأكمل ناطقًا باسمه، مُتمنيًا أن يحالفه الحظ وتناديه به:

-أنا "تميم".

لم يجد استجابة منها، فسألها متوجسًا:

-إنتي معايا ؟

استمع إلى صوتها المرتبك وهي ترد:

-آ.. أيوه.

كان سؤاله عفويًا؛ لكنه أراد حدوثه فعليًا، لذا أناب للمولى سرًا في دعائه الراجي:

-يا رب دايمًا.

تدارك نفسه، وتابع مفسرًا، بجملٍ لا يعلم إن كانت مرتبة أم لا:

-لا مؤاخذة رديت على تليفون أختك، هي تعبت شوية، متقلقيش مش حاجة خطيرة، الدكتور عندها وطمنا.

سألته في جزعٍ:

-مالها؟ حصلها إيه؟

طمأنها بتريثٍ:

-والله هي كويسة...

لم يحبذ إطلاعها على الأخبار السارة دون الرجوع أولاً لشقيقتها، لكون الأمر شأنًا عائليًا، فأضاف بدبلوماسية:

-لما تيجوا هتعرفوا منها.

هتفت دون انتظارٍ:

-أنا جاية مع ماما على طول.

انزلق لسانه مرحبًا بحرارة:

-تنوري.

تقلصت تعابيره في ندمٍ لتسرعه الأهوج في التعبير عن فرحته المتعاظمة لقدومها، أنهى المكالمة، وعنف نفسه بتجهمٍ شديد:

-إيه الهبل اللي بأعمله ده، المفروض أبقى راسي عن كده.

أعاد "تميم" الهاتف في مكانه، وأخرج تنهيدة بطيئة قبل أن يعاود أدراجه، ويقف بالقرب من النافذة المطلة على الشارع، متحرقًا بتلهفٍ -يزداد بمضي- الساعات- لرؤيتها، فحلمه الذي انطلق من أعماقه، أصبح على وشك التحقيق؛ إن شاء المولى!

................................................

على الجانب الآخر، ضربت بظهر كفها جبينها في لومٍ حرج، بعد أن عرفت بهوية مُجيب اتصالها، انعكس تأثيره الحسي عليها، فانبعثت من بشرتها حمرة ساخنة، لم تكن لتشعر بهذا مسبقًا مع من تخاطبه؛ لكن بدا الأمر مختلفًا تلك المرة بشكلٍ لم ترغب في مقاومته، حتى دقات قلبها، نشطت بصورة عجيبة دفعتها للتفكير في مدى تفاعله مع حضوره. ازدحمت الأفكار في رأس "فيروزة" عن ظنونه بها، خاصة مع اعترافها النزق بسعادتها الغامرة لتصرفه العدائي تجاه "فضل"، أوشكت أن تموت من الخجل. أطبقت على جفنيها، وتجعد جلد وجهها وهي تُغمغم:

-يادي الكسفة اللي كنت فيها!

برطمت بكلماتٍ مزعوجةٍ قبل أن تزيد من توبيخ زلة لسانها الأحمق:

-مش كنت أبلع لساني شوية، هيقول عليا إيه دلوقتي؟

أخرجها من تخبط رأسها سؤال والدتها:

-كلمتي أختك؟

استدارت تنظر في اتجاهها، وأجابتها بعد نفسٍ عميق استعادت به انضباط نفسها:

-أيوه يا ماما، وعرفت إنها تعبانة، والدكتور عندها.

هتفت "آمنة" في تخوفٍ اكتسبه صوتها، وهي تضرب على فخذيها:

-قلبي كانت حاسس والله، البت بقالها كام يوم مش عجباني، وشها دبلان، وعلى طول مش مريحة نفسها.

ردت تطمئنها:

-إن شاءالله خير يا ماما، متقلقيش.

أمرتها والدتها بلهجتها المتوترة:

-لبسي "رقية" أوام، عايزين نروح نشوفها قبل ما نطلع نجيب خالك.

هزت رأسها إيجابًا وهي تقول:

-طيب.

..........................................................

بداخل غرفة خُصصت لجلوس العائلة معًا، جلس وحده يتناول إفطاره باستمتاعٍ شهي؛ وكأنه لا يحمل همًا. قضم رأس البصل الأخضر بأسنانه، قبل أن يلوكها في جوفه، وأتبع ذلك بلع لقيمة خبزٍ مغموسة بالفول المدمس الذي أجادت زوجته صنعه، لم يكتفِ بهذا، وأكمل بلعه للجُبن القريش بنصف رغيف الخبز المتبقي في حجره، ثم تأمل البقايا الموجودة في الصينية بعينيه، ورغم امتلاء معدته، إلا أنه حشر المتبقي في كل صحنٍ في جوفه، غير عابئ بالضرر الذي قد يلحق بجهازه الهضمي من كثرة الطعام بأحشائه. مسح يده المستخة في طرفي جلبابه، وصاح مهللاً بعد أن تجشأ:

-الشاي يا ولية، عايز أحبس.

تجشأ مجددًا، واضعًا يده على صدره، تحركت نظراته نحو والده الذي أقبله عليه يأمره بملامحه الجادة:

-فضي نفسك من بكرة بدري، رايحين عند مرات عمك.

قال وهو يغرز ظافر إصبعه الصغير بين أسنانه:

-لأ مش عايز.

سأله "إسماعيل" بتهكمٍ:

-ليه؟ وراك الديوان؟

أخفض ساقه المثنية على المصطبة المريحة، وأجابه نافيًا ببرودٍ:

-لأ، بس خلاص أنا روحت.

تجهمت تعابير وجهه، وعنفه:

-بردك نفذت اللي في دماغك، وعصيتني؟

ضم "إسماعيل" يديه معًا، فوق رأس عكازه، وأكمل بحدةٍ متوقعًا تسبب ابنه في كارثة ما بسبب رعونته الطائشة:

-تلاقيك عملت هناك دقة نقص من إياهم.

رد كاذبًا بتكاسلٍ ظاهر على جسده:

-والله إنت ظالمني يابا، ده أنا غلبان، وفي حالي...

توقف لهنيهةٍ عن الحديث، لكن انعكست وحشة غريبة على نظراته، وبدأ شيطان رأسه في الوسوسة له، فادعى بالباطل:

-ولو مكونتش روحت مكونتش عرفت اللي بيحصل من ورا ضهرنا.

كلامه الغامض استثار حفيظة والده، فسأله بقليلٍ من الاسترابة:

-هو إيه اللي بيحصل؟

وجد في كذبه المُرتب الحيلة المقنعة لخداع والده، لهذا رسم علامات الامتقاع على وجهه، ثم نفخ قائلاً بلهجةٍ غير مريحة على الإطلاق، متعمدًا الإساءة لسمعة "فيروزة" تحديدًا:

-رجالة داخلة خارجة ليل نهار، ومافيش أي اعتبار لحُرمة البيوت.

انفعل عليه "إسماعيل" بحنقٍ:

-إيه الكلام ده؟

بنفس البرود السمج أكد عليه كذبه:

-بأقول اللي شوفته يا حاج، ومش لوحدي، ده كل الحتة هناك...

وليزيد من الطين بلة أضاف منتهكًا عفتها، وبنبرة موحية، تدل على استباحة المحرمات:

-ما خلاص السِكة المقفولة بقت سالكة.

هاج أباه في عصبيةٍ وحمية:

-إنت سامع نفسك؟ كلامك ده فيه قطع رقاب!!!

غامت عيناه، وعلق بتشنجٍ، مستخدمًا يده في التلويح:

-أنا مبقولش حاجة غلط، وبدل ما تزعقلي يا حاج، روح اسألهم، ومش هايقدروا ينكروا، الحتة كلها شايفة كوم الرجالة اللي طالع عندهم في أنصاص الليالي، والاسم أنا جاي من غير ميعاد...

راقب احمرار وجهه الغاضب، وإظلام نظراته، كان متيقنًا من نجاحه في جعل الهواجس تدور في رأسه، فتابع مستفزًا عصبيته، وشحذ تعاطفه –إن بقي متواجدًا- ضدها:

-ولعلمك عم "خليل" مكانش موجود، يعني السايب في السايب، وكل من هب ودب عندهم، ده غير صوت الضحك والمرقعة اللي جايب التايهين.

هدر به "إسماعيل" في غلظةٍ:

-"فضـــــل"!

هب واقفًا من مكانه، وأخبره مدعيًا اكتراثه لأمرها، رغم ما تعكسه عيناه من شرٍ مستتر:

-اهدى يابا، صحيح مهما كانت النفوس شايلة، بس دي بنت عمي، من دم واحد، والكلام هيمسنا في الأول ولا في الآخر.

ضرب "إسماعيل" بعكازه على الأرض، وصاح بنبرته الواجمة:

-أنا ليا لي كلام مع "آمنة".

تحرك "فضل" ليقف بجوار أبيه، وأردف يوصيه بنزقٍ، وهو يتأمل ملامحه المكفهرة:

-متصدقش حججها، النسوان ياما بتهلفط عشان تبرأ نفسها ...

التوى ثغره، وتابع بنبرة كانت هازئة، لم يتوقع أن تُؤخذ على محمل الجد:

-تلاقيها هاتقولك أنا كنت بأخطبلها.

التفت يحدجه بنظرة غائمة، قبل أن يأتيه تعليقه:

-وماله، لما تخلص عدتها تجوزها، بس بالأصول.

انقلب السحر على الساحر، صدمه رده، وهتف مستنكرًا:

-إنت بتقول إيه يابا ؟

تكلم بلهجته الصارمة:

-اللي سمعته.

سأله بصيغة أخرى واضحة، ليتأكد مما صرح به:

-يعني لو في حد خطب البت "فيروزة" هتوافق ؟

كان جوابه قاطعًا:

-أه طبعًا، أومال هتفضل كده مترملة طول عمرها ؟

جحظت عيناه لوهلةٍ، وقال دون تمهيد:

-طب أنا أولى بيها من الغريب، أنا عايز أتجوزها.

ضاقت نظرات "إسماعيل" في اندهاشٍ، بينما صرخت "سها" مصدومة، وقد سقطت صينية الشاي من يديها، لتبدأ بعدها فاصلاً من العويل:

-يا نصيبتي! إيه اللي إنت بتقوله ده يا راجل؟ بقى دي أخرتها تتجوز عليا؟

تجاهل ما اعتراها من نواحٍ وصراخ، لتبقى أنظاره على أبيه وهو يلح عليه بطلبه:

-جوزني "فيروزة" يابا.

منحه نظرة غير مريحة، وقال حاسمًا الأمر:

-ده مش وقته يا "فضل"...

ثم سلط أنظاره على "سها"، وأمره:

-شوف مراتك، وراضيها قبلى.

استنكر بوقاحةٍ فجة كامل واجباتها الزوجية معه، وتضحيتها بصحتها في سبيل إسعاده وراحته:

-هي دي ولية تتعاشر؟

دعت على جحوده علنًا:

-منك لله يا شيخ، ربنا ينتقم منك.

استنشاط غيظًا من تصرفها الطبيعي، واندفع نحوها يتوعدها بإيذاءٍ بدنيٍ عنيف:

-بقى بتدعي عليا يا وش البومة؟ طب أنا مش سايبك النهاردة.

انهال عليها بقبضته بصفعاتٍ، وضرباتٍ موجعة على جسدها جعلتها ترتد بقوةٍ، وتسقط على ظهرها، تدخل "إسماعيل" لمنعه من إفراغ غضبه غير المبرر بها، وهتف هادرًا به:

-ياخي بطل افترا بقى.

ثم أمسك به من ذراعه، وحال بينهما بجسده، فدمدم "فضل" بحقدٍ:

-بأربيها يابا، أومال أسكتلها؟

أدار والده رأسه في اتجاه زوجته المسكينة، واعتذر منها:

-حقك عليا يا بنتي، خشي جوا، وأنا ليا لي كلام معاه.

نظرت له بعدم اقتناعٍ، وغمغمت من وسط بكائها وهي تنهض من رقدتها:

-ربنا على الظالم.

..........................................................

على مقربةٍ من البناية القاطنة بها ابنتها، أبطأ السائق سيارته الأجرة، عند ناصية الشارعِ تحديدًا، ليتمكن من الدخول إلى المنطقة، ألقى نظرة خاطفة عبر

مرآته الأمامية لوجه المرأة القلق الجالسة في الخلف، عاد ليركز في طريقه، وصوتها يردد بتضرعٍ:

-استر يا رب.

انتبه لها مجددًا عندما صاحت عاليًا:

-على جمبك ياسطا.

تهادت سرعة السيارة لتصطف بمحاذاة الرصيف، شكرته "آمنة" لسرعة استجابته:

-كتر خيرك يا ابني.

خاطبت "فيروزة" والدتها بهدوءٍ:

-اطمني يا ماما، هتبقى كويسة.

ثم خفضت من نبرتها:

-أنا هحاسب، اطلعي إنتي.

ترجلت والدتها أولاً لتسبقها، بينما ظلت "فيروزة" بالخلف ومعها ابنة خالها، مدت يدها تخرج من حافظتها ورقة نقدية بفئة عالية، مدت بها يدها نحو السائق وهي تحدثه:

-اتفضل.

نظر إلى ما بين إصبعيها، وقال بوجهٍ جاد:

-معييش فكة.

لم تملك من العملات النقدية فئاتٍ أقل، فقالت بعد أن مسحت المكان بنظرة سريعة؛ وكأنها قد وجدت الحل الفوري لمشكلتها البسيطة:

-طب ثانية هاشوفلك في الكُشك اللي هناك ده، استناني بعد إذنك.

أومأ برأسه قائلاً:

-ماشي.

هبطت من السيارة، ساحبة في يدها "رقية"، وبخطواتٍ متعجلة -حاولت الصغيرة مجاراتها فيها- اتجهت الاثنتان نحو أقرب كشك يبيع الحلوى، لم تلمح "فيروزة" ذاك الذي انتظرها على جمرات الأشواق في مدخل البناية، ما إن استشعر قربها العزيز حتى خفق قلبه باضطرابٍ غبط لرؤياها، بنظراته المتفرسة المتابعة لها فطن ذهنه لسبب ذهابها بعيدًا، دون الحاجة للاستفسار. اقترب "تميم" من السائق، وأعطاه ما يزيد عن أجرته متسائلاً:

-تمام حسابك؟

نظر السائق إليه في امتنانٍ، وعقب بابتسامةٍ راضية:

-أيوه يا باشا.

خبّط على مقدمة سيارته يستحثه على التحرك وهو يأمره:

-اتكل على الله.

انصاع السائق له، وبدأ في التراجع بسيارته للخلف، مغادرًا المكان برمته، لمحته "فيروزة" وهو يبتعد فجذبت الصغيرة من يدها لتسرع في خطاها لتلحق به وهي تهتف:

-تعالي يا "كوكي".

نادت على السائق ملوحة له بيدها الأخرى بالنقود:

-يا أسطى، استنى.

لم تصل إليه، فقد انحرف مبتعدًا عند الناصية، توقفت عن ملاحقته مرددة بلهاثٍ:

-ده مخدش حسابه.

بقيت متسمرة في مكانها، والحيرة مسيطرة عليها، استغربت من ذهابه، وتنهدت مستديرة للجانب لتكمل طريقها، ترددت خطواتها بشكلٍ ملحوظ عندما رأت من خطر على بالها طوال الساعات الماضية واقفًا عند المدخل، رمشت بعينيها في حرجٍ، متذكرة ما تفوهت به من حماقةٍ، قبل أن تتحاشى النظر إليه، والخجل يزداد فيها. النعيم بكامل متعه الخفية تجسد في حضورها، لعثمتها الخفيفة كانت آسرة للعقول عندما استطردت ناطقة:

-معلم "تميم".

يا لجمال الشفاه التي تنطق بعذب الأسماء! ابتسامة محملة بالغرام وجدت مستقرها على ثغره، هتف يُحيها، وعيناه تهيمان شوقًا في تأملها:

-صباح الخير.

لم تنظر إليه، وردت بهدوءٍ رقيق:

-صباح.. النور.

وقبل أن يستأنف حواره معها، بادرت بسؤاله، لتشبع فضولها المحير:

-هو إنت دفعت للسواق؟

ببساطةٍ أجابها:

-مايصحش وأنا موجود.

مدت يدها بالنقود إليه، وأصرت عليه:

-طب اتفضل فلوسك.

رمقها بنظرة معاتبة، وهو يقول:

-عيب كده يا أبلة، ده احنا..

شدد على تتمة جملته وهو ينظر بعمقٍ في عينيها:

-عيلة.

مسَّ الدفء قلبها بكلمته تلك، ورفعت عينيها لتتطلع إليه بوميضٍ كان جاذبًا لأنظاره، حاولت الابتعاد عن محيطه المُربك لها بشكلٍ غير اعتيادي؛ لكنه استوقفها بتهذيبٍ:

-ممكن كلمة؟

تصنعت الجدية، وضيفت نظراتها متسائلة:

-خير؟

دنا منها مقلصًا المسافات بينهما، وقف قبالتها من جديد، تنهيدة بطيئة تحررت من صدره قبل أن يخبرها بصدقٍ:

-مش عايزك تترددي للحظة إنك لو احتاجتي لأي حاجة ..

ركزت كامل انتباهها معه، مما منحه فرصة للتعمق في تأمل عينيها، ورؤية ما تضمره روحها من حزنٍ راسخ حتى النخاع يحتاج للتطبيب، خُيل إليه أنه نفذ إلى داخلها بنظراته، فلامس الوجع الدفين في كيانها. ازدرد "تميم" ريقه، وأخفض نبرته ليقول بلهجةٍ هادئة؛ لكنها جادة على الأخير:

-تطلبيها مني.

أغمضت عينيها متجنبة نظراته المسبلة نحوها، وشعرت برجفة تعصف بها عندما همس بصوتٍ أعاد الطمأنينة المفقودة إليها:

-أنا .. سندك.

اهتز كيانها مع تصريحه غير الموضوع في الحسبان، فبدت كالكتاب المفتوح أمامه، بنظرة واحدة يقدر على رؤية أسرارها، ويطلع على جراحها غير المندملة. لم تستطع مواجهته، وتجاوزته هاربة من حصار نظراته الكاشفة لشقائها، أسرعت نحو الدرج وهي تردد بصوتٍ مضطرب:

-آ.. عن إذنك.

صاحبها بعينيه حتى توارت بالأعلى، نظرة واحدة ساهمة من لؤلؤتيها، كانت كفيلة بقلب كيانه من النقيض للنقيض. طرد الهواء المعبئ بتنهيداته الهائمة، وقلبه يرجو أن يكون بقربه منها دوائها، كما كان عزائه في البُعدِ طيفها.

..............................................

انحنت عليها وهي ممددة على فراشها، تحتضنها في عاطفةٍ جياشة، قبل أن تتراجع عنها، بادلت "همسة" توأمتها بنظراتٍ سعيدة ما زالت تحتفظ ببقايا دموعها الفرحة، التفتت ناظرة نحو والدتها التي كررت تهنئتها لها:

-ألف مبروك يا حبيبتي، والله ما مصدقة.

ردت عليها بامتنانٍ شاكر:

-ربنا رضاني من وسع.

تمتمت "آمنة" قائلة:

-الحمد والشكر ليك يا رب.

تساءلت "فيروزة" بلهجةٍ مالت للجدية:

-عرفتي حماتك؟

أجابتها وهي تشير بيدها:

-"هيثم" في الأوضة التانية بيقولها.

علقت عليها والدتها:

-أهي حاجة تفرحها وتنسيها شوية الحزن اللي في قلبها.

قالت فيروزة" على مهلٍ:

-ربنا يصبرها ويعينها.

سألتها توأمتها بنظراتٍ شبه متوترة:

-هتسلمي عليها يا "فيرو"؟

هزت كتفيها قائلة بترددٍ:

-مش عارفة يا "همسة"، قلقانة شوية.

تساءلت في اهتمامٍ:

-من إيه؟

أجابت بعد استغراقها لحظات في الصمت:

-يعني لما هتشوفني هتفتكر بنتها، والمشاكل اللي كانت بينا، بلاش أحسن، على الأقل دلوقتي.

تفهمت عزوفها، وقالت مومئة برأسها:

-براحتك.

أوصتها والدتها بوجهٍ جاد:

-أهم حاجة تاكلي كويس، وتريحي جسمك الفترة دي.

بينما أضافت "فيروزة" لافتة أنظارها:

-عايزين نشوفلك دكتور تتابعي معاه الحمل.

حركت رأسها مغمغمة:

-ماشي.

أشارت "آمنة" لـ "فيروزة" مشددة عليها:

-شوفيلها حد كويس، عايزين نعمل اللي علينا معاها.

ردت عليها بابتسامة مقتضبة:

-حاضر يا ماما.

أدارت رأسها ناحية "همسة" عندما خاطبتها مجددًا:

-أنا عايزاكي يا "فيرو" معايا، في مشوار كده لما تفضي.

ردت ضاحكة وهي ترفع يديها:

-أنا فاضية على طول، عايزة تروحي فين؟

..........................................................

لم يكن مسترخيًا في جلسته على المقعد الجلدي أمام مكتب الطبيب، فالأخير كان يُطالع ملفه الطبي بتركيزٍ واضح، راقبه وهو يراجع لأكثر من مرة نتائج

التحاليل، والأشعة، وما قام به مؤخرًا من فحوصات جسدية، تشنجت عضلات وجهه عندما رفع رأسه لينظر إليه مستطردًا نقاشه العلمي معه:

-من واقع الورق اللي قدامي أنا حابب أكون صريح معاك.

استشعر "تميم" الخطر في كلامه المبطن، وسأله صراحةً:

-هي الحالة خطيرة للدرجادي؟

نفى الطبيب بنبرته الهادئة:

-لأ مش زي ما إنت فاكر، بس خليني أشرحهالك بطريقة مبسطة.

هز رأسه، وتابعه بانتباهٍ كبير، فواصل قوله بتمهلٍ:

-لما سحبنا العينة منك، وفحصناها وجدنا إن عدد الـ sperms أقل من 3 مليون.

نظر له بغرابةٍ، فأوضح مقصده:

-أقصد الحيوانات المنوية.

تنحنح متسائلاً بحرجٍ طفيف:

-وده وحش ولا حلو؟

أجابه بتريثٍ وهو يراقب ردة فعله:

-ده معناه في مشكلة، إن الحيوانات المُنتجة ضعيفة، فيها خلل، ما بيتمش توفير العدد المطلوب عشان يحصل إخصاب للبويضة قبل ما تصل رحم الأنثى.

أخبره بتلقائيةٍ، مسردًا له بعض الحقائق التي وقعت بالفعل:

-أنا كنت متجوز بنت خالتي الله يرحمها، وكانت حامل يا دكتور، يعني حصل ده.

سأله الطبيب مستفهمًا وهو ينظر في اتجاهه:

-الحمل ده كمل؟

هز رأسه نافيًا، ولمحة من الحزن تكسو قسماته:

-لأ.

زم الطبيب فمه للحظةٍ، وسأله مستوضحًا:

-حصل إجهاض مبكر، مظبوط؟

بعد تفكيرٍ سريع، أجاب "تميم" بترددٍ، متحاشيًا الخوض في التفاصيل:

-هي كانت اتزحلقت ووقعت، وربنا ماردش الحمل يكمل.

بنفس الأسلوب الهادئ، خاطبه الطبيب بعقلانية مهنية، واضعًا في الاعتبار توضيح أبعاد مشكلته له:

-طيب أنا عايز أفهم حضرتك حاجة، بعيدًا عن ملابسات ظروف المدام .. لو الحيوان ضعيف عمومًا فجودته وكفاءته هاتكون غير الحيوان الطبيعي اللي مافيش فيه مشاكل، وبفرض حصل إخصاب للبويضة، وتم النجاح في تلقيحها، فالجنين في مراحله الأولى هايكون مشوه، تركيبه في خلل، وبنسبة

كبيرة هيحصل إجهاض مبكر، يعني مش هايكتمل الحمل لوجود عيوب وتشوهات في أساسه.

تدلى فكه السفلي مدهوشًا، وتساءل في خوفٍ محسوس في نبرته:

-يعني أنا.. كده مش.. هاخلف؟

علق عليه الطبيب:

-أستاذ "تميم"، كله في النهاية بأمر ربنا.

كان وجهه في تلك اللحظة واجمًا، حزينًا، وممتلئًا بالهموم، بلع ريقًا غير موجودٍ في وجهه، وأطرق رأسه قائلاً:

-ونعم بالله ..

تابع الطبيب إخباره:

-حالة حضرتك مش مستعصية، وبناءً على اللي شايفه، فإنت عندك دوالي، ودي سهل تتعالج بعملية جراحية بسيطة، ومع كورس علاجي فيه مقويات، ومحفزات منشطة للخلايا المنتجة أتوقع بإذن الله يكون في نتيجة حلوة.

خفت حدة الخوف المتسللة إليه بعد عبارته الأخيرة، وبلهفةٍ متشوقة عليه تساءل:

-يعني في أمل؟

أومأ برأسه مؤكدًا:

-بأمر الله، احنا بناخد بالأسباب وبنعمل اللي علينا.

لم يترك عقله لوساوسه الجوفاء تنخر فيه، وتبدد ما عقد عليه الآمال، بل نفضها بالكامل، وقال بحماسٍ يشوبه التفاؤل والثقة في تعويض الخالق –عزوجل:

-وبنعم بالله، وأنا عندي ثقة إن ربنا مش هيكسر بخاطري، شوف الصح اللي المفروض يتعمل وأنا معاك فيه يا دكتور ...................................... !!!

.......................................................

الجزء
الثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الأبيض

## الفصل الرابع والتسعون

مثلما اتفق معها مسبقًا، على القدوم في هذا التوقيت تحديدًا، استقبلت "آمنة" ضيفها في صالون منزلها بعد اطمئنانه على شقيقها، رحبت به بتقديرٍ غير مبدية استغرابها لعدم تواجد ابنه الفظ، فالأخير قد أحدث القليل من الفوضى، ولولا حنكة ضيوفها لكان الآن يرقد بين المصابين بالمشفى. لحسن نيتها، توقعت أن يظهر الحاج "إسماعيل" أسفه على تصرفاته غير المقبولة؛ لكنها تفاجأت به يسألها عن طبيعة تلك الزيارات الغريبة من رجال المنطقة لمنزلها، وللمرة الأولى اتخذت موقفًا حادًا معه، فهبت واقفة، وأخبرته بلهجةٍ صارمة، وتعبيراتها تعكس سخطها:

-شوف يا حاج "إسماعيل"، إن كنت جاي تعزي بنتي في جوزها، فأهلاً وسهلاً بيك، غير كده هتمسوا سمعة بنتي بحرف فأنا مش هسمح بده.

رد مبررًا كلامه السخيف المبني على ادعاءات ابنه الباطلة:

-احنا بنتكلم في الأصول.

صاح بتشنجٍ استغرب كثيرًا منه:

-الأصول طول عمري ماشية بيها من زمان، من وقت ما جوزي الله يرحمه مات وأنا جمب الحيطة، قافلة على نفسي وعلى بناتي، وإنت أكتر واحد عارف الكلام ده يا حاج، عيب أوي لما تصدقه على طول مهما كان مين اللي قالك.

حمحم في خفوتٍ، وقال مُختلقًا الأعذار ليحسن من مظهره، ويحفظ ماء وجه ابنه:

-كل الحكاية إني مش عايز آ....

قاطعته بعصبيةٍ، وقد اِربد وجهها بالغضب:

-يا حاج ده إنت ناقص بتتهم بنتي علني، والجماعة اللي شرفوا البيت معروفين في الحتة كلهم أهل مروءة وشهامة، وعارفين الأصول أكتر مني ومنك.

نظر لها بعينين ضيقتين، بينما تابعت عصبيتها المزعوجة:

-مش هايجي على آخر الزمن اللي يطعن في شرف بنتي وأنا أسكتله.

أطلق زفرة بطيئة وهو ينهض من جلسته، ثم عقب بصوته الهادئ:

-عمومًا يا "آمنة"، ده مش وقته، بنتك تخلص عدتها، وبعد كده نتكلم.

قطعت عليه التطرق لتلك المسألة بقرارها الفوري والصارم:

-لا بعدين ولا قبلين، الموضوع ده مرفوض فيه الكلام.

تحرك في اتجاه باب المنزل وهو يودعها بقليلٍ من الحرج:

-أنا عملت الواجب خلاص، سلامو عليكم.

تبعته سائرة خلفه قائلة بنفس اللهجة المتشددة:

-قول لـ "فضل" يرحم نفسه، ويركز مع مراته وعياله أحسن، هما اللي هايبقوله.

على مضضٍ غمغم باقتضاب:

-ربنا يسهل.

وقبل أن تغلق الباب في إثره رفعت نبرتها مكررة على مسامعها:

-إن كنت سِكت مرة، وسبت بنتي تتهان، فالمرادي لأ، وصل الكلام ده لابنك يا حاج.

لم يعلق عليها، وواصل هبوطه الدرج، للحظات بقيت في مكانها متسمرة عند الباب، صدرها يلهج في ضيقٍ غاضب. في تلك الأثناء، كانت "فيروزة" في طريقها للنزول مع "رقية" بعد أن انتهت كلتاهما من تنظيف المنزل بالأعلى، تساءلت الأولى في دهشةٍ:

-أنا شايفة عمي نازل من فوق، هو لحق؟

أشارت ابنتها بيدها للأعلى، وتابعت بصوتٍ شبه لاهث:

-ده أنا يدوب قفلت شقة خالي بسرعة، عشان أنزل اقعد معاه.

رفعت "رقية" أنظارها نحوها متسائلة في براءة:

-كده أروح ألعب؟

ابتسمت قائلة لها وهي تداعب طرف ذقنها:

-أه يا حبيبتي، العبي لحد ما تزهقي.

ركضت الصغيرة للداخل لتلهو، بينما لم تجد تعليقًا من والدتها، فقط نظراتها الحانقة مسلطة على ما كان أثرًا لعمها، تقدمت نحوها، وتساءلت بتوجسٍ:

-مالك يا ماما، في حاجة حصلت؟

تنهدت بصوتٍ مرتفع، وأجابتها بوجهها العابس:

-"فضل" لَسِّن بكلام مالوش أي لازمة

قطبت جبينها متسائلة بشكٍ:

-عن مين؟

لازمت "آمنة" الصمت المريب، فلاحقتها بسؤالها التالي، وبوادر الغضب تتصاعد إليها:

-اتكلم عني؟ صح؟

نظرت في اتجاهها، وردت بنفس الوجه الواجم وهي تربت على ذراعها:

-مش عايزاكي تزعلي يا "فيروزة"، أنا كلمت عمك جامد.

اهتاجت على الفور، وصرخت بانفعالٍ كبير:

-مين ده أصلاً عشان يتكلم عني؟ هو إيه مصدق؟

حاولت والدتها تهدئتها؛ لكن فلتت زمام الأمور منها، أضافت "فيروزة" تتوعده بكراهية بغيظة:

-والله العظيم لو فتح بؤه بكلمة عني تاني لهقلع اللي في رجلي وأضربه بيها على دماغه.

توسلتها "آمنة" بتخوفٍ، بعد أن رأت حالتها المتعصبة:

-اهدي بس يا "فيروزة"، أنا رديت حقك.

وكأنها تخاطب نفسها، لم تصغِ لكلمة واحدة مما قالتها، حيث اقتحم عقلها مشهد إذلالها في عقر داره، بحجة التأكد من عفتها وطهرها. انقبض قلبها للذكرى، وشعرت بالوخزات تطعن فيه وهي تنطق بصوتٍ جريح متألم:

-هو مكفهوش اللي عمله فيا؟

وضعت والدتها كلتا يديها على كتفيها تهزها برفق منهما، ورجتها بخوفٍ بائن عليها:

-متضايقش نفسك.

احتقنت عينا "فيروزة" على الأخير، تجمع في وجهها كل أشكال الحقد والغضب، ودمدمت بأنفاسها الهادرة:

-اللي زي البني آدم ده عايش على أذية الناس، مفكر نفسه أحسن واحد في الكون، وهو مايسواش، البغل أحسن منه.

احتضنت وجهها براحتي يدها، ومسحت عليهما بحنوٍ وهي تؤكد عليها:

-خلاص يا حبيبتي، ماتتعصبيش، مافيش حد يستاهل تضايقي نفسك عشانه.

قالت معبرة بحرقةٍ اكتوت بها حتى أبت جراحها الاندمال:

-تغور القرابة اللي بالشكل ده.

ضمتها والدتها إلى صدرها، حاولت احتوائها في أحضانها الحانية، أبقتها لبرهة بين ذراعيها، ومسدت على رأسها بمزيدٍ من العاطفة، على أمل أن تنجح في امتصاص نوبة غضبها المسيطرة عليها.

..........................................................................

فقدت شهيتها، وعزفت عن تناول الطعام لبقية اليوم، أثرت قضاء الساعات في غرفتها معزولة عمن حولها، لم تضغط عليها والدتها، متوقعة أن تنضم إليها لاحقًا، حينما تخبت عصبيتها، وتنطفئ جذوة غضبها. استلقت "فيروزة" على الفراش، وحملقت بالسقف مليًا، بنظراتٍ شاردة، ساهمة، لا تعي المحيط بها، انفصلت ذهنيًا عمن حولها، فصدماتها المكبوتة لم تتركها لحالها، طفت بقوةٍ على السطح من جديد، ودق ناقوس الأحزان في رأسها، ليذكرها بكل ما جابهته وعاشته بمفردها من قساوةٍ، معاناة، وشقاء. أغمضت عينيها في قهرٍ، وحزنها الراسخ مستبدٌ بجوارحها، تكالبت عليها كل الأوجاع، فاستغرقت في نومٍ كان أبعد ما يكون عن الراحة. اندفع تيار من الذكريات السيئة ليحتل أحلامها القريبة.

رأت "فيروزة" نفسها محتجزة في غرفة مربعة، جوانبها الأربعة مصنوعة من الزجاج، لا مخرج منها، ولا مهرب، ترتدي ثوبًا أبيض اللون، يغطي كامل جسدها بأكمامٍ متسعة، فيما عدا رقبتها ووجهها، كما انسدل شعرها خلف ظهرها. دارت حول نفسها في دهشةٍ، وحمى الرعب تسري في أوصالها. اندلعت النيران فجأة لتحاوطها من الخارج، وبدأت سحب الدخان تشق طريقها إليها، اندفعت في جنونٍ نحو أحد الجوانب، ضاربة بيدها الزجاج علها تنجح في إزاحته، أو تجد منفذًا يساعدها على الهروب قبل أن تختنق في محبسها الغريب؛ لكن لا جدوى، عجزت عن الخروج.

برزت عيناها في خوفٍ أشد، وتدلى فكها للأسفل عندما رأت "آسر" واقفًا على مسافة قريبة، زاد جحوظ عينيها وقد أبصرته يلقي بمادة ما غريبة على الزجاج؛ وكأنه يرغب في إحراقها حية، حركت شفتيها لتصرخ؛ لكن لم تجد صوتًا، وكأنها فقدت قدرتها على الكلام. التفتت راكضة نحو الجانب المقابل، فوجدت "فضل" واقفًا أمامه، يحدجها بنظراته الشهوانية الشامتة، وسوطًا غليظًا يرفعه للأعلى في يده، تراجعت في ذعرٍ متجهة لناحية أخرى، فرأت خالها يزحف أرضًا وهو يمد ذراعه العاجز نحوها، ومن خلفه تقف "حمدية"، كأنما تعيق تقدمه، وعيناها المغلولتان لا تكفان عن إظهار بغضها الدفين لها.

لم يتبقَ لها سوى جانبًا واحدًا لجأت إليه، شحذت كامل قواها الهاربة لتحرك الزجاج، نظرت أمامها، ووسط غيمة الدخان الكثيفة، وجدت صاحب الوعد الصادق الذي نفذ إلى قلبها قبل روحها، يقاتل شيئًا غامضًا، لم يكن "تميم"

منتبهًا لها، بدا ملهيًا عنها بصراعه الخفي، فطرقت على الزجاج بقبضتيها في عنفٍ، راجية أن ينظر ناحيتها، تألمت يديها من خبطها الشديد، يئست من سماعه لاستغاثتها، فهتفت تناديه بقلبها، والدموع تنساب بغزارة من عينيها:

-"تمـــيم"!

..................................................

أثناء استغراقها في كابوسها المؤلم، ولجت "رقية" إلى داخل الغرفة، والسرور يملأوها بعد أن انتهت من متابعة مسلسلها الكرتوني المفضل. ألقت نظرة فضولية على ابنة خالها النائمة، وهي تشرأب بعنقها للأعلى، نادتها بخفوتٍ:

-"فيروزة".

وقفت إلى جوار فراشها، وأكملت تسألها:

-هتلعبي معايا شوية؟

انتظرت أن تجيبها؛ لكن لا شيء، فاعتقدت أنها ما زالت غافلة، لذا تحركت على مهلٍ لتفترش الأرضية، وتلهو بالدمي المتجمعة إلى جوار الدولاب، انتفضت في قلقٍ حينما سمعت أنينًا مكتومًا يصدر عنها، تجاهلته في البداية وواصلت اللعب؛ لكنه تزايد فوثبت على قدميها لتتجه إليها، نظرت إليها في خوفٍ غريزي، وقد رأت جسدها يهتز بصورةٍ عنيفة، وضعت يديها على ذراعها لتفيقها وهي تناديها:

-"فيروزة"!

زادت حدة التشنجات، فصرخت عاليًا:

-عمتو، تعالي بسرعة!

على إثر صوتها المرتفع حضرت "آمنة" متسائلة في استغرابٍ:

-في إيه يا "رقية"؟

أجابتها بتحيرٍ والخوف يتجلى على قسماتها:

-"فيروزة" بتعيط مش عارفة ليه.

لطمت "آمنة" على صدرها، وهتفت بجزعٍ:

-يا نصيبتي.

كانت نوبتها تلك المرة أشد وطأة عن ذي قبل، لم تختبر مسبقًا مثل تلك الحالة معها، فخفق قلبها رعبًا عليها، حاولت إيقاظها وهي تهزها من كتفيها:

-ردي عليا يا "فيروزة"، إيه اللي حصلك بس؟

قفزت "رقية" على الفراش، لتجلس عند الناحية الأخرى، ومالت على رأسها تناديها بصوتٍ مال للبكاء:

-"فيروزة"، اصحي.

ثم رفعت عينيها في اتجاه عمتها، وقالت ببراءة:

-أنا خايفة.

لم تقف مكتوفة الأيدي تشاهد ابنتها تعاني، هرولت بخطواتٍ لا تتماشى مع جسدها الممتلئ، لتأتي بهاتفها المحمول، وبحثت عن رقم "همسة" لاجئة إلى مساعدتها. وما إن ردت على اتصالها هتفت بصوتها اللاهث:

-الحقي أختك يا "همسة"، الحالة رجعتلها، وأنا مش عارفة أتصرف.

..........................................................

-استر يا رب.

ردد "هيثم" تلك الكلمات المناجية للمولى، وهو يهبط على درجات السلم، بخطواتٍ متعجلة، متجهًا للأسفل، فبمجرد أن أطلعته زوجته على الوضع الصحي لتوأمتها، حتى أسرع بتبديل ثيابه المنزلية بأخرى أكثر ملائمة، ليهرع إلى نجدتها بعد أن طلب منها المكوث، وبصعوبةٍ تمكن من إقناعها بالبقاء، وتركها تبكي في حزنٍ وخوف. قابل عند المدخل "تميم" الذي كان في طريقه للصعود مستندًا على عكازه، سأله الأخير متعجبًا:

-إنت رايح فين السعادي؟

ودون أن يجيبه، وضع قبضته على ذراعه، وجذبه منه قائلاً بغموضٍ مقلق:

-تعالى معايا يا "تميم".

سار معه متسائلاً بنبرة حائرة، وعيناه تفحصان تعابيره الغريبة:

-ما تقولي يا ابني حصل إيه؟

أبطأ من سيره المتعجل، والتفت ناظرًا إليه، ليجاوبه بوجهه الغائم:

-الست حماتي بتقول بنتها جاتلها الحالة، ومش عارفة تتصرف.

لحظة حديثه عنها، انقبض قلبه في فزعٍ، وسأله ليتأكد من مقصده، وهو يدعو الله أن تخيب ظنونه، بملامحٍ بهتت من خوفه الحقيقي عليها:

-إنت بتكلم عن "فيروزة"؟

رد باقتضابٍ:

-أه هي.

استرجع في ذهنه ما مرت به سابقًا من حالة جمود غريبة، جعلتها آنذاك فاقدة للإحساس بمن حولها، اتسعت عيناه لمجرد تخيله للأمر، وشعر بانسحاب روحه من جسده، بأن أنفاسه توقفت، باعتصارة مميتة نالت من قلبه، اهتز كيانه بالكامل، بالكاد تماسك، أظهر ثابتًا زائفًا، وهتف بقسماتٍ غامت بشدة، وبعقلٍ سبقه بلهفته المذعورة إليها:

-يالا أوام.

....................................................................

لو كان الأمر بيده لنقل كامل أوجاعها إلى جسده، لتنخر فيه وحده، فلا تتأذى، ولا يسرق الألم منها بسمتها، يكفيه أن تكون في مأمن من أقل ضرر. عدَّ "تميم" الثواني ليصل إليها، ولسانه يدعو سرًا للخالق بأن ينجيها من آلامها، سبقه "هيثم" في خطواته بعد أن صف السيارة إلى جوار مدخل البناية

القصيرة، ورغم إحساسه بالوخزات الحادة في ساقه لضغطه القاسي عليها ليصعد ركضًا، إلا أن ذلك لا يصف مدى الوجع الذي حز في قلبه لتخيل معاناتها.

وجد الباب مفتوحًا عندما وصل إلى طابقها، قرع الجرس تحسبًا، ونادى مستئذنًا:

-يا رب يا ساتر.

خرجت إليه "رقية" تبكي وهي تخبره:

-"فيروزة" تعبانة أوي.

هبط قلبه بين قدميه فزعًا، وسألها بصوتٍ حاول أن يبدو هادئًا:

-هي ماما مش معاها؟

أجابت عنها "آمنة" بصوتها الحزين:

-كتر خيركم يا ابني، معلش جبناكم على ملى وشكم.

سألها بصوتٍ متذبذب، لم ينجح عبره في إخفاء توتره المرتعد عليها:

-هي عاملة إيه؟

ردت والدموع تطفر من عينيها:

-"هيثم" بيكلم الدكتور يجي يبص عليها، أنا مش عارفة جرالها إيه.

تعاظم إحساسه بالخوف، واستأذنها بلوعةٍ، غير عابئ بالتقاليد والأعراف في تلك المرة:

-طب.. ينفع أشوفها؟

نظرت له بترددٍ؛ وكأنها تفكر في الأمر، فألح عليها بنظراته الخائفة، تلك التي نطقت بوضوحٍ عن مشاعره العميقة، وإن لم يسعفه لسانه في البوح بها، أومأت برأسها موافقة وهي تشير نحو الداخل:

-تعالى يا ابني.

اضطربت أنفاسه وهو يسير خلفها ليتبعها، لم يكن ليتجرأ على تلك الخطوة المناقضة لمبادئه لولا فقدانه للسيطرة على كبح خوفه المتزايد عليها. توقف عند أعتاب غرفتها ينظر إلى جمود جسدها بنظراتٍ تجمع فيها كل مشاعر الحب، والخوف، والقلق، واللهفة، والحُرقة. احتجزت عيناه –تلقائيًا- العبرات، طردها بظهر كفه، ودنا من فراشها يتأمل تيبس جسدها في صمتٍ؛ كانت شاحبة، جامدة، وباردة الملامح، خُيل إليه لحظتها أنها تخلت عن رغبتها في الحياة، تكورت أصابعه حول عكازه حتى ابيضت مفاصله من ضغطه الشديد. إن أمعنت النظر إلى صدره لوجده ينتفض في ثقلٍ؛ وكأن جبلاً يجثم عليه، برقت عيناه بصدمةٍ حينما نادته بهسيسٍ وسط سكونها القابض للأرواح:

-"تميم".

دون مقدماتٍ جثا على ركبته أمام فراشها، امتدت يده لتمسك بكفها المسنود إلى جسدها المسجى على مستوى نظره، ضم أناملها داخل قبضته، وقال بصوتٍ أقل همسًا:

-أنا جمبك.

شعر بحركة خفيفة داخل راحته، فأخفض نظراته نحو أصابعها، ودقات قلبه تتسارع، ثم عاد ليحملق في وجهها، وناداها بتنهيدةٍ خافتة، جمعت ما بين لوعة الألم وحرقة الشوق:

-"فيروزة"!

لو لم يكن واعيًا في إدراكه لتوهم ابتسامتها الباهتة له، هربت دمعة من طرف عينه، وأخبرها بصوتٍ متأثر:

-أنا معاكي، وسندك.

همهمة غير مفهومة آتية من الخارج جعلته ينتبه لتصرفه الذي قد يُساء فهمه، إن رآه أحدهم في تلك الوضعية الحرجة، ترك يدها مرغمًا، وتدارك نفسه، ليستقيم بعدها في وقفته، ثم تراجع خطوتين للخلف، تاركًا المسافات بينهما؛ لكن ظلت عيناه مثبتة عليها. ولج الطبيب لداخل الغرفة مستأذنًا:

-ممكن تتفضلوا برا عشان أشوف شغلي، يا ريت بس والدتها تكون معايا.

انسحب بهدوءٍ، والحزن يعتصر قلبه، أدار رأسه في اتجاه "هيثم" الذي خاطبه:

-تعالى يا "تميم".

...............................................

بكل ما فيها من بطءٍ وكسل مرت الدقائق عليه كأنها سنوات، أثناء وقوفه بالشرفة منتظرًا الأخبار المطمئنة، استنفذ ما يملك من صبرٍ، وأصبح على شفا الخروج عن عقلانيته الزائفة، استرخائه كان مستبعدًا، فكيف يهنأ البال، وطاووسه حبيس أوجاع الماضي؟ التفت كالملسوع وصوت "آمنة" يردد شاكرًا:

-كتر خيرك يا دكتور.

خرج متكئًا على عكازه الطبي، ونظراته تتوزع بينهما محاولاً فهم ما يدور، شدد الطبيب قائلاً، كنوعٍ من التوصية:

-مش لازم تسكتوا عن الحالة دي، يُفضل إنها تتابع مع دكتور نفسي-متخصص، طالما متكررة معاها.

هزت رأسها في أسفٍ وهي ترد:

-حاضر يا دكتور.

مد يده بورقة انتهى من الكتابة فيها، وتابع:

-ويا ريت تجيبوا الأدوية دي ليها.

أقبل عليه "تميم" مختطفًا الوصفة الدوائية من أصابعه قائلاً بعزم:

-تمام يا دكتور، أنا هتصرف.

نظرت له "آمنة" في امتنانٍ، فأكمل وهو يخرج من جيبه مبلغًا نقديًا:

-اتفضل.

تناول الطبيب أجرة زيارته الاستثنائية العاجلة، ورد مبتسمًا بنبرة موجزة:

-شكرًا.

علق "هيثم" بجديةٍ، حتى لا يرهق ابن خالته، قبل أن يرافق الطبيب في اتجاه الباب:

-عنك يا "تميم"، أنا هوصل الدكتور في سكتي، وهاجيب الدوا.

أومأ برأسه في حبورٍ، واستدار ناظرًا إلى "آمنة" يسألها بصوته القلق:

-أخبارها دلوقتي إيه؟

ابتسمت قائلة في رضا:

-أحسن من الأول بكتير، تسلم يا ابني، تعبتك وإنت مش قادر.

رد بزفيرٍ مضطرب:

-أنا معملتش حاجة...

لعق شفتيه، وسألها مستفهمًا:

-بس هي مش كانت بطلت الحكاية دي؟

بعد تنهيدة مرهقة أجابته:

-أه، بجيلها فترة، بس معرفش إيه اللي جد...

على ما يبدو تذكرت عصبيتها اليوم، فانزلقت تُعلمه من تلقاء نفسها؛ وكأنها تفكر بصوتٍ مسموع:

-أكيد اللي قاله "فضل" لعمها ضايقها.

تبدلت تعابيره للقساوة، ونظراته للقتامة وهو يسألها بنبرةٍ لم تكن تبشر بخير:

-هو قال إيه عنها؟

تحرجت من إخباره بالأمر، وتهربت قائلة:

-خلاص مالوش لازمة، المهم إنها بقت كويسة.

بالكاد كبح رغبة عارمة في المغادرة فورًا، والذهاب إلى ذلك الوضيع في عقر داره، لتلقينه درسًا لا ينساه ما دام حيًّا، غمغم بفحيحٍ لم تسمعه "آمنة" جيدًا:

-الحساب يجمع!

سألته في استغرابٍ:

-بتقول حاجة يا معلم؟

رد نافيًا، وتعابيره ما تزال قاسية:

-لأ، مافيش.

لفظ دفعة من الهواء من صدره، وقال:

-أنا هستنى تحت لحد ما "هيثم" يرجع.

أصرت على بقائه مرددة:

-ليه ما تخليك؟

كان بحاجة لمتسع من الفراغ، لينأى بما يكبته من مشاعر غاضبة تهدد بالظهور، كلما جاء لسان أحدهم على ذكر الحقود "فضل"، واستمرار بقائه هنا، وهو في تلك الحالة المستنفرة لن يسفر إلا عن كارثة حتمية، لهذا اعتذر منها:

-تسلمي يا حاجة، كده أحسن.

شكرته مجددًا على موقفه النبيل، واصطحبته إلى باب المنزل، ليجد الصغيرة "رقية" ترمقه بنظرة ممتنة، قبل أن تودعه ببراءة:

-باي باي يا عمو، هستناك تجيلنا.

مسَّت كلماتها العفوية قلبه، وبردت قليلاً النيران المستعرة في صدره، منحها نظراته الحانية، ويده تمتد لتداعب أعلى رأسها، ثم انحنى بجذعه ناحيتها ليبدو قريبًا منها، وقال مبتسمًا:

-وأنا مستني أشوفكم تاني.

طبع قبلة صغيرة على وجنتها، وهمس بالقرب من أذنها بابتسامةٍ عادت للإشراق، وعقله سارحٌ في مُهجة الفؤاد:

-دي ليكي، و... لـ "فيروزة" ........................................ !!

...................................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل الخامس والتسعون

مطت جسدها بإرهاقٍ، مستشعرة وجود الألم في كامل عضلاتها؛ وكأنها قد قضت ساعاتها الأخيرة في ممارسة تمارين رياضية قاسية، غالبت رغبتها بالاستغراق في النوم، لتجبر عقلها على التيقظ. سمعت "فيروزة" همهمات غير واضحة، وقريبة من أذنها، تقلبت على جانبها لتجد ابنة خالها جالسة إلى جوارها تعبث بخصلات دميتها محاولة صنع جديلة مثل تلك التي اعتادت أن تصنعها لها، تثاءبت قبل أن تسألها بصوتٍ ما زال يغلفه آثار النعاس:

-بتعملي إيه يا "كوكي"؟

شهقت الصغيرة في صدمةٍ فرحة، تحركت سائرة على ركبتيها لتقترب أكثر منها وهي تسألها:

-إنتي صحيتي؟

نظرت لها بدهشةٍ، ورفعت جسدها قليلاً لتسنده على الوسادة، ثم أجابتها:

-أيوه، ليه في حاجة؟

دون مقدماتٍ احتضنتها "رقية" بمحبةٍ كبيرة، وتعلقت بعنقها، ضمتها "فيروزة" إليها، والاندهاش ما زال مسيطرًا عليها، لم يفقه ذهنها بعد لتصرفاتها الغريبة، أبعدتها عنها وأعادت تكرار سؤالها عليها:

-هو حصل حاجة يا "كوكي"؟

نظرت إليها بعينين تعكسان براءتها المحببة للنفس، أومأت برأسها قائلة:

-أه، إنتي تعبتي أوي، وأنا عيطت عليكي.

وضعت "فيروزة" يدها أعلى رأسها تفركه محاولة تذكر ما حدث، لمحات مما خاضته بدأت تتسرب إلى عقلها، لتذكرها بالحزن الراسخ في أعماقها، تنهدت ببطءٍ، ونفضت ما قد يعكر صفو مزاجها، ثم ابتسمت تطمئن الصغيرة:

-أنا بقيت كويسة أهوو، متقلقيش عليا.

عادت "رقية" لتحتضنها للحظاتٍ، رافضة تركها، استغربت ابنة عمتها مما تفعله، ومع ذلك ظلت تمسح على ظهرها بحنوٍ، تراجعت الأولى برأسها عنها، وابتسمت لها في صفاءٍ قبل أن تنحني على وجنتها، لتطبع قبلة صغيرة عليها، وهي تخبرها بنبرتها الطفولية:

-دي مني.

ضحكت "فيروزة" ملء شدقيها في سعادة، وقالت:

-إيه الدلع ده!

قفزت الصغيرة للناحية الأخرى، وأعطتها قبلة ثانية وهي تضيف:

-ودي من عمو.

ضاقت نظراتها في تعجبٍ مندهش، وسألتها بوجهٍ متعقد التعبيرات

-عمو مين؟

ردت بابتسامةٍ مرحة:

-اللي معاه عصايا بيمشي بيها.

تلقائيًا وجدت "فيروزة" لسانها ينطق باسمه، مستحضرة صورته في ذهنها، وتلك الخفقة تداعب قلبها:

-"تميم".

هزت الصغيرة كتفيها قائلة:

-معرفش.

ساورتها الشكوك، وحملقت فيها بشرودٍ للحظات غير مصدقة قدومه، كانت متيقنة إلى حد كبير أن ما خاضته من معاناة أهلكتها يعود لكابوس مؤلم احتوى على رواسب ما عاشته. قفزت بعدها "رقية" من على الفراش تنادي عاليًا:

-"فيروزة" صحت يا عمتو.

تتبعتها بنظراتها وهي تنصرف ركضًا للخارج، لتظل على حالتها الواجمة، أتت إليها والدتها بتعابيرٍ مشرقة تردد في حبورٍ:

-حمدلله على سلامتك يا "فيروزة".

أقبلت عليها، واحتضنتها بمشاعرٍ أمومية فياضة، ثم مسحت بيدها على بشرتها، وعيناها تتفحصان وجهها وهي تسألها:

-عاملة إيه دلوقتي؟

تجاهلت إجابة سؤالها، لتسألها بنبرة بدت محققة نسبيًا:

-حصل إيه يا ماما؟

جاوبتها "آمنة" بتعابيرها القلقة:

-رجعتلك الحالة يا بنتي إمبارح، ومابقتش عارفة أتصرف إزاي.

بشكلٍ آلي، لاحقتها بسؤالها التالي:

-وفي حد جه هنا؟

كان ردها مترددًا بعض الشيء:

-ده جوز أختك، ومعاه الدكتور، والمعلم "تميم" قريبه.

تأكدها من شكوكها جعل مشاعرها المستاءة تتغلب على باقي ما تشعر به، لم ترغب أبدًا أن يكون شعور التعاطف والإشفاق هو ما يُمنح لها من غيرها، وليس التقدير والاعتزاز، وحتى الحب. اِربدت خلجات وجهها بالضيق، وهتفت تعاتبها في استهجانٍ شديد:

-وإزاي يا ماما تخليهم يشوفوني في الحالة دي؟

بررت لها بأسفٍ:

-يا بنتي أنا مكونتش عارفة أتصرف إزاي، والمرادي كانت صعبة أوي عليكي، خوفت يجرالك حاجة.

كانت صادقة في لهفتها المذعورة عليها كأي أم تخشى- أن يصيب صغارها مكروهًا، طردت كتلة من الهواء من صدرها، وعلقت بامتعاضٍ:

-خلاص يا ماما حصل خير.

أشارت "آمنة" بيدها نحو كيس بلاستيكي يحوي بعض العبوات الطبية، وأخبرتها بلهجةٍ مهتمة:

-الدكتور كتبلك على أدوية، ووصاني أوديكي عند دكتور نفساني.

التطرق إلى مسألة الطبيب النفسي، نشط ذهنها بنفس ما خاضته من حوار قبل سابق مع الطبيب "هاني"، عندما اقترح عليها في إحدى المرات خلال متابعته اليومية لها، بضرورة اللجوء لطبيب متخصص في الأمراض النفسية، لمساعدتها على تجاوز أزمتها، والشفاء من جراحها المعنوية، لكونها تترك تأثيرًا سلبيًا على النفس. تدلت على زاوية فمها ابتسامةٍ متهكمة، وردت بوجومٍ:

-أه، إن شاءالله.

تابعت والدتها مضيفة بأسلوبها الحاني:

-أنا عملتلك شوربة لسان عصفور من اللي بتحبيها، هاجيبهالك تشربيها عقبال ما يجي ميعاد الغدا.

علقت ساخرة:

-حد ياكل شوربة على الصبح؟

ردت حاسمة النقاش معها:

-إنتي محتاجي تتقوي، شكلك هفتان ودبلان، مش هاسيبك تقعي من طولك تاني.

همهمت "فيروزة" بصوتٍ بالكاد خرج من بين شفتيها:

-يا ريت الحكاية كانت أكل وبس يا ماما.

خرجت "آمنة" من الغرفة، واتجهت إلى المطبخ، قبل أن تصل إليه سمعت طرقًا على باب منزلها، فانحرفت بخطواتها ناحيته، فتحته بعد لف حجاب رأسها بغير ترتيبٍ حولها، دهشة سريعة اعترتها حينما رأت كم الأقفاص المليئة بالفاكهة المرصوصة أمام عتبتها، رفعت بصرها في اتجاه أحد العمال الذي استطرد قائلاً:

-سلامو عليكم يا حاجة.

ردت بتعابيرها المدهوشة:

-وعليكم السلام يا ابني...

أشارت بيدها نحو الأقفاص، وسألته:

-إيه دول؟

أجابها موضحًا وهو ينحني لرفع واحدًا يحوي ثمار التفاح الطازجة:

-الحاج "بدير"، ومعاه المعلم "تميم" باعتين دول عندكم.

هتفت معترضة بحرجٍ:

-بس ده كتير أوي.

وكأنها لم تتلفظ بشيء، سألها بشكلٍ آلي، منفذًا ما جاء لأجله:

-أحطهم فين؟

تنحت للجانب، لتفسح المجال له للمرور، وأجابته مشيرة بيدها:

-دخلهم جوا يا ابني.

تنحنح بصوتٍ خشن، قبل أن يمرق للداخل، ثم أخبرها وهو يتابع سيره نحو المطبخ:

-والمعلم بيبلغك إن الحاجة أمه جاية آخر النهار تزوركم، وهتتصل تعرفكم بده.

ردت بترحيبٍ:

-تشرف وتآنس، البيت بيتها.

انتظرت انتهائه من رص الأقفاص في ركنٍ شاغرٍ بالمطبخ، ومنحته مبلغًا بسيطًا نظير تعبه، شكرته بودٍ على مجهوده، ورافقته لباب المنزل، استدارت بجسدها لتجد ابنتها في إثرها تسألها في فضولٍ:

-هو مين جه عندنا يا ماما؟

تحركت في اتجاه المطبخ وهي تجيبها:

-دي زيارة باعتها الحاج "بدير" لينا.

قطبت جبينها متسائلة بغرابةٍ:

-بمناسبة إيه؟

خمنت والدتها السبب البديهي لإرسال تلك الكمية، وقالت ببساطة:

-الظاهر لما عرف إنك تعبانة حب يعمل الواجب لحد ما الست "ونيسة" تجيلنا بالليل.

رددت من خلفها:

-كمان؟ كبرتوا الموضوع أوي، وهو مش مستاهل.

انفرجت شفتا "فيروزة" عن دهشةٍ كبيرة عندما رأت ما تم إرساله، حملقت في وجه والدتها، وصاحت مازحة:

-كل ده؟ هو بعت الدكان كله ولا إيه؟

تجاوزتها "رقية" لتقترب من قفص التفاح، التقطت واحدة، وسحبت أخرى، ثم التفتت نحو عمتها تستأذنها:

-عمتو ممكن أكل أنا و"فيروزة".

قرصتها "آمنة" من وجنتها، كنوعٍ من المداعبة، وهتفت بإيماءةٍ موافقة:

-خدي اللي عايزاه يا حبيبتي، بس استني أغسلهم الأول.

تناولت التفاحتين منها، وسارت في اتجاه الحوض لتغسلهما، ثم أعادتهما لها، فأسرعت "رقية" نحو ابنة عمتها، تمد يدها بواحدةٍ لها، وقالت بابتسامتها الصافية:

-اتفضلي.

انحنت عليها لتقبلها من رأسها، وشكرتها وهي تأخذها:

-تسلمي يا "كوكي".

قالت والدتها وهي تفرز ما في الأقفاص:

-أختك "همسة" مابطلتش سؤال عليكي، اتفقت مع جوزها إنها هتعدي علينا تقضي اليوم كله معانا.

هزت "فيروزة" رأسها متمتمة:

-مالوش لازمة تتعب نفسها، خليها في حملها.

علقت عليها بتنهيدة:

-هي مصممة، وراكبة دماغها.

ابتسمت وهي ترد:

-مافيش مشكلة يا ماما...

ثم أشـارت بعينيها وهي تتابع:

-خلينا نروق المطبخ اللي قلب على سوق الفاكهة ده.

رددت "رقية" وهي تقضم قطعة من ثمرتها، لتلوكها في جوفها:

-حلو التفاح بتاع عمو، تاخدي حتة يا عمتو؟

حديثها العفوي ذكرها بتلك القبلة الغريبة التي تلقتها منها على وجنتها، امتدت أناملها لتتحسس بشرتها، وهاجسٌ بداخلها يؤكد لها أنه أرادها تعلم بقدومه؛ لكنها لم تحبذ أن يكون اللقاء في أشد لحظاتها احتياجًا وضعفًا. تردد صدى كلمات "تميم" السابقة في عقلها، مذكرًا إياها بأنه دومًا معها، وإلى جوارها. حدقت "فيروزة" في التفاحة الموجودة براحتها، قربتها من شفتيها، وقضمت منها جزءًا وهي تبتسم بحياءٍ طفيف هامسة مع نفسها:

-الرسالة وصلت.

................................................................................

-يعني قولتلهم زي ما فهمتك؟

تساءل "تميم" بتلك العبارة، وهو يقف في شرفة منزله، تلك التي قضى بها ليلة الأمس حتى أشرقت عليه شمس اليوم الجديد، وهو يعيش لأجلها حالة من الغضب، يشوبها الغل، الحنق، والتخبط الممزوج بالتوهان. كل ما له علاقة بها جعله متحفزًا، في وضعية هجومٍ للاقتصاص لها. بجهدٍ جهيد عاد إلى منزله كابحًا رغباته الجائعة في سفك دمائه. نفخ الدخان في الهواء، وأطفأ عقب سيجارته شبه المنتهية في المطفأة المتزاحمة بعشرات السجائر المحترقة، ثم تابع كلامه معه بلهجته الآمرة، بعد أن استمع إلى رده:

-ماشي، ارجع على الدكان، وشوف وراك إيه وإنجزه.

ضغط على زر إنهاء المكالمة، ودس بين شفتيه سيجارة جديدة أشعلها بولاعته، ثم بحث بين الأرقام المحفوظة على هاتفه على رقم صديقه "ناجي"، اتصل به، ووضع الهاتف على أذنه منتظرًا إجابته، بادر الأخير مرحبًا به:

-صباحك فل يا معلم.

رد يسأله بنبرته الخشنة دون تمهيدٍ:

-عايزك في مصلحة كده، فاضي؟

أتاه رده قاطعًا:

-طبعًا يا صاحبي، دايس معاك.

سأله مستوضحًا، وقد احتدت نظراته المحملقة على مدى بصره:

-ماتعرفش حد من التجار حبايبنا قريب من (...)؟

غرق في الصمتِ لبرهةٍ، وكأنه يفكر في الأمر، قبل أن يجيبه:

-بيتهيألي في واحد أعرفه هناك، كنت خلصتله زمان كام مصلحة.

سأله مباشرة دون أن يوضح غرضه:

-ليك دلال عليه؟

تردد وهو يجاوبه:

-تقريبًا أه.

كرر عليه بحزمٍ، وقد قست نظراته بشكلٍ يبعث على القلق:

-أه، ولا لأ؟ أنا عايز رد واضح.

حمحم متسائلاً بفضول:

-ليا لي عنده، خير؟ إنت عايز إيه بالظبط؟

جاءه رده غامضًا، وتلك اللمعة الغريبة تظهر في حدقتيه:

-خدمة كده صغيرة، بس تركز عشان تُظبط.

أبدى استعداده التام لتلبية أوامره بترديده المذعن له:

-ماشي كلامك.

.......................................................

في تلك الأثناء، ولجت "ونيسة" إلى غرفة ابنها لتدعوه لتناول طعام الإفطار، تفاجأت بفراشه نظيفًا، ومرتبًا؛ وكأنه لم يمسه طوال الليل، فتشت عنه بعينيها، فرأته يتحدث في هاتفه بالشرفة، انتظرته حتى أنهى مكالمته، ونادت عليه:

-يا "تميم"!

استدار ناظرًا ناحيتها، ثم حمل مطفأة السجائر في يده، وسار عائدًا للداخل بخطواتٍ شبه عرجاء، دون أن يأخذ عكازه الطبي. تقدم نحوها متسائلاً:

-أيوه يامه، عايزة حاجة؟

سألته بتعابيرها المغلفة بالاستغراب:

-هو إنت مانمتش في فرشتك؟

ورغم الإرهاق الظاهر على قسماته، إلا أنه قال نافيًا:

-لأ، مجاليش نوم.

سألته بنبرة مهتمة، وهي ترمقه بنظرةٍ منزعجة:

-وإيه اللي مسهرك كده؟

لم يكن الجواب بتلك السهولة ليمنحه لها، فعقله ظل مشغولاً بأمر معذبته، كيف يتذوق طعم الراحة، وهي محاصرة في أحزانها القاتلة؟ جفاه النوم من كثرة تفكيره في أحوالها، وبات الأرق رفيقًا ملازمًا له. انتبه لشروده اللحظي، وراوغها في الرد مغمغمًا باقتضابٍ:

-مشاغل.

عاتبته بخوفٍ غريزي:

-يا ابني صحتك، ده أنا مصدقت إنك بقيت أحسن عن الأول بكتير.

لاحت على جانب شفتيه ابتسامةٍ صغيرة وهو يعقب:

-سيبها على الله.

لعقت والدته شفتيها، وتابعت:

-أنا لاقيتك اتأخرت على نزول الدكان فقولت أعملك فطار.

شكر صنيعها قائلاً، وبنظرة ممتنة كذلك:

-كتر خيرك يامه.

انخفضت نظراتها نحو المطفأة المليئة بأعقاب السجائر المحترقة، شهقت لاطمة على صدرها قبل أن تنظر إليه لتوبخه:

-وإيه السجاير دي كلها؟ يا ابني ارحم صدرك.

كانت وسيلته المتاحة للتنفيس عن مشاعر الحنق الملتهبة بداخله، زفر الهواء على مهلٍ، وقال غير مبالٍ:

-ماتخديش في بالك...

ثم طلب منها بلطفٍ:

-اعمليلي بس قهوة من إيدك الحلوة، هاشربها وأبقى زي الفل.

عقدت حاجبيها متسائلة:

-والفطار؟

قال بتعابيرٍ ممتعضة:

-ماليش نفس.

بررت عزوفه عن تناول الطعام بقولها الساخط:

-هتاكل إزاي وإنت نفسك اتصدت بالسجاير؟!!

انحنى ليقبل أعلى كتفها، وهتف مدعيًا:

-معلش دماغي مش فيا، بأفكر في كام مصلحة عايز أنجزهم.

دعت له بصدقٍ:

-ربنا يقويك يا ضنايا، ويكرمك في كل خطوة بتخطيها.

أمن على دعائها المتضرع بترديده المناجي:

-يا رب.

انشغلت "ونيسة" بلملمة بعض الأشياء المبعثرة هنا وهناك، بينما وضع "تميم" يده في جيب بنطاله، ليضم في راحته المخبأة مشبك رأسها، ذاك الذي احتفظ به حينما رآها بحلتها البيضاء، قطعة امتلكتها كانت حقًا سلواه في ليله الطويل الساهد، بقي بداخل كفه وهو يتشدق متسائلاً:

-بالحق كلمتي الست "آمنة" تسألي على بنتها؟

رفعت نظرها نحوه، وأجابته:

-أه يا حبيبي.

اشتدت قبضته على المشبك، وشعر بتسارع دقات قلبه، بالكاد حافظ على جمود تعابيره، وهو يسألها:

-وإيه الأخبار؟

اعتدلت في وقفتها قبل أن تجيبه:

-الحمدلله بقت أحسن.

أثلجت جملتها صدره، وشعر بقليلٍ من الارتياح يغمره؛ وإن لم يكن كاملاً، ادعى جموده، وهز رأسه معقبًا باقتضابٍ حتى لا يثير شكوكها نحو اهتمامه الزائد بها:

-خير.

تابعت إخباره وهي تسير في اتجاه الباب:

-بالليل هعدي عليهم مع أختك، واطمن بنفسي، واجب برضوه، هما عمرهم ما اتأخروا عننا في حاجة.

تلك المرة لم يستطع منع نفسه من الابتسام وهو يشكرها:

-تعيشي يامه.

أشارت له بعينيها ليتبعها:

-طب تعالى عشان تفطر مع أختك.

-حاضر يامه.

قالها باستسلامٍ وهو يخرج من جيبه المشبك، ليضعه في مكانه بالدرج العلوي بالكومود الملاصق لفراشه. أزاح منديل الرأس، ودسه أسفله ليحجبه عن الأعين، فتظل -كما تعهد لها- في مأمنٍ عن الضياع.

..........................................................

انتهى عامل القهوة المجاورة للدكان، من رص أكواب الشاي الزجاجية على الطاولتين المتلاصقتين، قبل أن يضع كوبًا منفصلاً مليئًا بالسكر على الجانب، ليعاود أدراجه مستأنفًا عمله في تلقي طلبات الزبائن. مد "سراج" يده، وأمسك بالملعقة ليضيف ثلاثة ملاعق من السكر في كوبه، ثم قلب المحتويات معًا، وخبط بطرف المعلقة على حافة كوبه، كتقليدٍ يُلازم الأغلبية من محبي تناول الشاي.

سلط أنظاره على "بدير"، و"هيثم"، يراقب ردة فعلهما بعد أن فاتحهما في موضوع شراء الدكان المملوك لـ "محرز" و"بثينة" بمبلغٍ ضخم. تردد كثيرًا قبل التطرق إليه؛ لكن بعد مضي ما يقرب من شهر على مقتل الأول، واستقرار الأوضاع تقريبًا في منزل الثاني ظن أن التوقيت مناسبًا للحديث عنه، بالإضافة لوضعه في الاعتبار أن تقبلهما للأمر يعني من وجهة نظره تمهيدًا للشأن الآخر الهام الذي يتوق شوقًا للحديث عنه. نفض عن عقله ما يشوش تفكيره، ووجه سؤاله لهما وهو يرفع شايه إلى فمه:

-ها قولتوا إيه؟

استغرق الاثنان في تفكيرهما المتأني، وتبادلا نظراتٍ مترددة بعد طرح "سراج" لعرضه السخي.

-خلينا ناخد وندي مع بعض الأول، وبعد كده هنديك كلمة فيه.

رد بتفهمٍ:

-خدوا راحتكم على الآخر، أنا مش مستعجل.

هتف "هيثم" مشددًا:

-لازم أعرض الحكاية دي على أمي.

لم يعارض رغبته، وحادثه بإصرارٍ:

-وماله، بس بدل قفلته كده، أهوو أشغله بمعرفتي.

تحدث "بدير" قائلاً:

-ربنا يسهل، اشرب إنت شايك.

استدار برأسه ليواجهه، ورد:

-حاضر يا حاج.

نهض "هيثم" عن كرسيه، وسحبه بيده للخلف مخاطبًا "بدير":

-أنا هاقوم أشوف النقلة جهزت ولا لأ، عايز ألحق باقي النهار.

عقب عليه زوج خالته بهزة رأسٍ خفيفة:

-ماشي يا ابني، الله يقويك.

انتظر "سراج" مغادرته، ليقرب مقعده قليلاً من مُضيفه، واستأذنه بصوتٍ جعله خافتًا:

-حاج "بدير"، ممكن أتكلم معاك كده في موضوع بعيد عن الشغل.

نظر له بإمعانٍ، وشجعه للمضي في حديثه:

-قول يا "سراج".

تنحنح لأكثر من مرةٍ ليجلي أحباله الصوتية، كذلك ليعطي نفسه الفرصة لترتيب أفكاره المتداخلة في رأسه، قبل أن ينطق أخيرًا بلمحةٍ من التردد:

-أنا عارف إنه مش وقته، ومايصحش بردك أفتح السيرة دي دلوقتي، بس عشمي فيك كبير بعد ربنا.

تفرس في وجمه متسائلاً بتوجسٍ ملحوظ:

-خير؟ قلقتني.

قال على الفور ليطمئنه:

-كل خير إن شاءالله يا حاج.

توقف للحظة عن الكلام ليستجمع شجاعته، وحرك فكه ليقول بتلعثمٍ كان ظاهرًا:

-أنا كنت.. يعني .. بأفكر .. لما..

انزعج "بدير" من مماطلته غير المفهومة، فصاح به بنفاذِ صبرٍ:

-ما تخش دوغري في الموضوع على طول.

بلع ريقه الذي جف كليًا من جوفه، وقبل أن يفكر في التراجع نطق دفعة واحدة بما يريده:

-هو بصراحة كده، أنا طالب القرب منك.

اندهش من طلبه العجيب، وسأله باستغرابٍ:

-القرب مني؟ قصدك مين؟

رمش بعينيه، وخفض رأسه متحاشيًا نظراته المسلطة عليه، ليوضح بعدها:

-أنا قصدي على ست البنات "أم سلطان"، بنتك يا حاج...

بحذرٍ اختلس النظر نحوه بعد أن لاحظ صمته، وتابع باقي كلامه:

-يعني بعد ما تخلص عدتها بأمر الله، لو مافيش مانع عايز أتقدملها.

جدية بحتة اكتست تقاسيم وجهه، وردد يسأله بصدمةٍ:

-بتقول إيه؟

برر على الفور نواياه الصادقة، حتى لا يُساء فهمه:

-اقسم بالله ما طمعان في حاجة غير رضاها، أنا غرضي شريف.

أطبق على شفتيه محتفظًا بصمته لبعضٍ من الوقت، وهتف أخيرًا بعد سكوت موتر:

-إنت فاجئتني يا "سراج".

ضغط عليه بتلهفٍ لم يستطع كتمانه:

-أنا عشمان إنك توافق يا حاج.

تهرب من منحه جوابًا مباشرًا، فقال:

-والله ما عارف أقولك إيه، ده مش وقته ولا مكانه.

استمر في تأكيد حسن نواياه:

-أنا عارف يا حاج، بس بأجرب حظي، ولو قلقان من معاملتي لـ "سلطان" الصغير اطمن، ده في عينيا، والله كأنه ابني بالظبط.

نظر له "بدير" مليًا بنظراته الثاقبة، تفرس في ملامحه، فرأى فيها -بخبرة السنين- جدية تامة على حُسن معاملة ابنته ورضيعها، إن ارتضى به زوجًا لها، بينما واصل "سراج" القول بحماسٍ أكبر، لا يعرف من أين جاءه بعد أن زالت الرهبة:

-وكافة شيء تطلبه ست البنات هايكون عندها، من مهر، وشبكة، وشقة في أجدع حتة.

زفر على مهلٍ، وأخبره بحياديةٍ:

-مش هينفع أديك كلمة دلوقتي، ولا حتى أقولك رأيي، الكلام مش معايا أنا بس.

هز رأسه معقبًا عليه:

-شور على اللي إنت عاوزه يا حاج، وخد وقتك على الآخر، أنا مش مستعجل، بس حبيت أمشي تبع الأصول، وأدخل البيت من بابه.

زم شفتيه لبعض الوقت، مديرًا الأمر في رأسه، قبل أن يتكلم في النهاية:

-ربنا يقدم اللي فيه الخير.

رفع "سراج" كوبه إلى فمه، وقال بابتسامةٍ متحمسة:

-بإذن الله، ونشرب المرة الجاية الشربات.

سدد له نظرة صارمة وهو يعلق على جملته الموحية:

-طب اشرب شايك الأول.

ابتسم في سرورٍ وهو يرد:

-ماشي يا حاج.

..............................................................

راقباه جيدًا، خلال سيره المتهادي، على الطريق الزراعي، ليعود إلى منزله بعد انقضاء عمله مع المستأجرين من الفلاحين؛ كان "فضل" لسوء حظه يمشي- بمفرده، مما بدا صيدًا سهلاً لمتعقبيه، هؤلاء الذين جاءوا خصيصًا إليه. تحركت السيارة في إثره ببطءٍ لتتبعه، ونظرات من فيها مرتكزة عليه. تساءل "حمص"، وعيناه لم تحيدا عنه:

-هننفذ دلوقتي؟

أخبره "شيكاغو" بصوته المتحشرج، وهو يلقي بسيجارته من النافذة:

-لأ استنى، قبل الكوبري.

برزت ابتسامة انتشاء على محياه، وردد بتحفزٍ:

-اشطا .. شكلها هتبقى ليلة فل.

من المقعد الخلفي شدد عليهما "ناجي":

-عايزين نجيبوه في السريع، ده متوصي عليه جامد.

رد "شيكاغو" بتذمرٍ، وهو ينظر إليه عبر مرآته الأمامية:

-هي دي أول مرة يا ريس.

وعند نقطة معينة، وقبيل وصول "فضل" للكوبري العلوي الذي يمر من أسفله مصرفًا زراعيًا، وفي نفس الوقت يربط بين ضفتي البلدة، ضغط "شيكاغو" على دواسة البنزين، مضيقًا المسافة عليه، وليحاصره أيضًا عند مطلعه. توقف عن السير، وهمَّ بالتشاجر مع راكبي السيارة، غير متوقع أن ما يحدث معه ما هو إلا حيلة لاختطافه .. في لمح البصر ترجل كلاً من "حمص" و"ناجي"، وانقضا عليه يجذباه بشراسةٍ من جسده نحو المقعد الخلفي للسيارة، رفع "شيكاغو" جسده عن المقعد لينضم إليهما، وضرب مؤخرة رأسه بشيء ثقيل ليفقده الوعي، ثم هتف فيمن معه:

-يالا يا رجالة.

استقر الجميع في أماكنهم، بعد إحكام الوثاق عليه، ليتولى "شيكاغو" بعدها القيادة منطلقًا نحو وجهة محددة تم الاتفاق عليها مسبقًا، إلى حيث يتواجد "تميم".

..........................................................

أفاق على وخزة مؤلمة في جانب كتفه؛ وكأن شيئًا غليظًا ضربه فيه، كان من الخير له أن يظل فاقدًا للوعي، فما ينتظره من مشاعر الغضب الساخطة سيفوق ما يمكنه تحمله. فرك "فضل" جانب رأسه بيده وهو يتأوه بأنينٍ بدا كالنعير، وما إن فتح عينيه، حتى رأى آخر من يرغب في رؤيته الآن، واقفًا عند قدميه، ينتظره بترقبٍ، وبملامحٍ فَزِعَ منها للغاية. كان جبانًا للحد الذي يجعله ينطق بذلك علنًا، متجنبًا أي مواجهات حقيقية مع الرجال الأشداء. حاول الاعتدال في رقدته على الأرضية الباردة وهو يتساءل:

-أنا فين؟

أجابه "تميم" بصوتٍ أجش، وهو يحدجه بنظراته المعبأة بقساوة السجون:

-عندي.

بلا عكازٍ ليستند عليه، وبشموخٍ يبعث الرهبة في النفس، استأنف كلامه في صيغة سؤالٍ تهديدي:

-مش أنا حذرتك قبل كده ما تقربش منها لا بحلو ولا بوحش؟

رغم فهمه لتلميحه المبطن بأنه يقصد "فيروزة" بجملته تلك، إلا أنه بطبعه الجبان أنكر أي اتهامٍ قد يضره، وهو يزحف بمرفقيه للخلف، ليبتعد عن محيط شره المستعر:

-وربنا ما عملت حاجة.

هدر به ينعته بكلمات نابية، وبصوتٍ زلزل الجدران:

-يعني مش بس (***)، لأ كمان كداب.

ازدرد ريقه، وهتف بصوتٍ مرتعش:

-صدقني يا ... معلم.. أنا قاعد هنا في حالي، لا روحت ولا جيت.

تقدم نحوه "تميم"، وأحنى جذعه قليلاً لتصل قبضته المتشنجة إلى قدمه، أمسك به منها، محكمًا أصابعه عليها، بحيث لا يقدر على الإفلات منه، جذبه إليه بكل ما يعتريه من قوة غاضبة تزداد في حدتها بمرور الوقت، ليصيح بعدها متوعدًا بوجهٍ غابت عنه الوداعة:

-وقت الحساب أزف ............................................ !!

.................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل السادس والتسعون

برعونته الطائشة، وتصرفاته غير المدروسة، نجح في استدعاء الوحش الكامن الذي يرقد بداخله، ليصبح شديد الخطورة في ملامحه، ونظراته، وحتى تلميحاته العدائية. لم يعد هناك حدًا للعنف، طبيعته الشرسة طغت على أي مظهر وديع كان يملكه قبل برهةٍ. قبض "تميم" على قدم غريمه، ورفعها للأعلى، ليلوي كاحله بقساوة دفعت "فضل" للصراخ المستغيث والبكاء في ألمٍ وهو يرجوه:

-بالله عليك تسيبني، أنا معملتش حاجة.

قال بتوعدٍ بعد أن ترك قدمه:

-هو أنا بدأت لسه؟

صراخه المتعاقب جعل مالك دكان الفاكهة المتواجدين بداخله -والذي يدعى "فهيم"- يدخل في الحال لرؤية ما يحدث. وقعت عيناه على "فضل"، فهتف مستجديًا مشاعر "تميم"، عله يرفق به، دون أن يفهم بالضبط أبعاد مشكلته معه:

-خلاص يا معلم، اعتبره عيل وغلط.

إشارة صارمة من عيني "تميم" منحها لـ "ناجي" جعلت الأخير يتحرك صوب "فهيم" ليحاوطه من كتفه، سحبه بعيدًا عنهم وهو يقول:

-تعالى معايا يا حاج ...

وأخفض نبرته قائلاً بجديةٍ:

-وسيب الرجالة يتفهموا مع بعض على طريقتهم.

اعترض بترددٍ قلق:

-بس كده آ..

قاطعه بحزمٍ ليطمئنه:

-متقلقش من حاجة، إنت في السليم.

أتاه صوت "تميم" عاليًا ليُعلمه:

-حاج "فهيم"، احنا محتاجين التلاجة الكبيرة شوية.

استدار برأسه ناحيته، وقال وهو يبلع ريقه:

-المكان مكانك يا معلم "تميم".

رد يشكره بنصف ابتسامةٍ، وكامل نظراته على "فضل":

-تعيش يا حاج، مردودالك في أي خدمة

كان غرضه من اختيار ذلك المكان البارد، عدم لفت الانتباه للضجيج الذي سيحدث لاحقًا. هلل "فضل" مستغيثًا حتى بح صوته:

-الحقوني، هيموتوني، غتووووني يا ناس.

علق عليه "تميم" يتحداه بابتسـامة هازئة احتلت زاوية فمه، ونظراته القاتمة مسلطة عليه:

-عايزك تصوت على أد ما تقدر...

بدا صوته كالهسيس وهو يكمل:

-عشان محدش هيغيتك الليلادي.

تسول رحمته بنحيبه:

-طب شوف إنت عايز إيه وأنا هاعمله، حقك عليا، لو عايزني أبوس راسك قصاد الناس دي، فأنا مش ممانع، خليني بس أقف على حيلي...

ثم نشج ببكاءٍ مسموعٍ وهو يواصل:

-ده أنا عندي عيال غلابة، وولية مكسورة الجناح، يرضيك يتحسروا عليا؟

هتف غير مكترثٍ بخشونةٍ مرعبة:

-أه يرضيني.

بلع ريقه وقد جحظت عيناه أكثر متخيلاً ما يمكن أن يفعله به، في حين خلع "تميم" قميصه البني -والمقسم في نقشته المطبوعة عليه إلى مربعات صغيرة متفاوتة في درجاتها- ليظل بثيابه السوداء التحتية التي أبرزت عضلاته المفتولة، ثم انتزع حزامه الجلدي من بنطاله الجينز الأسود، ونظرات "فضل" المذعورة تراقب بشخوصٍ كل حركة تصدر عنه، متوقعًا حدوث الأسوأ بين لحظةٍ

وأخرى، انحنى عليه مجددًا ليمسك بقدمه الملتوية، وأحكم ربط حزامه الجلدي حولها، فصاح "فضل" يسأله وهو يحاول التملص منه:

-إنت بتعمل إيه؟

تجاهله ليأمر "حمص" و"شيكاغو":

-فضوا السكة.

تقدم الاثنان في خطواتهما سريعًا لإزاحة أي عائق عن الطريق، وأيضًا لتهيئة المكان بداخل ثلاجة حفظ الفاكهة المخزنة لتستوعب وجودهم فيها، بينما شرع "تميم" في جذب خصمه من قدميه بقوةٍ، ليتدحرج "فضل" أرضًا على ظهره، قبل أن يتم سحله وصولاً إلى هناك، وأنين صراخه المستغيث يزداد حدةً وخوفًا.

..............................................................

بعد بضعة دقائق، كان "فضل" مستلقيًا على ظهره بداخل الثلاجة، ووُضع فوق عنقه مقعدًا، لينحر طرفه الخشبي الخشن في جلد رقبته. جلس "تميم" عليه، مُلقيًا عليه نظرة ازدراءٍ من مسافته العالية، ويده تتدلى بمطواته التي تدور بين أصابعه في خفةٍ. تأمله باحتقارٍ قبل أن يستطرد قائلاً في صيغة سؤالٍ، كنوعٍ من التخيير:

-تفتكر أبدأ معاك بإيه؟

أجهش "فضل" بالبكاء وهو يحاول استرقاق قلبه:

-ولا حاجة، ده أنا غلبان.

كركر ضاحكًا لسخافته، فأكمل الأخير بنواحه، نافيًا عن نفسه أي تهمة:

-وربنا ما عملتلها حاجة، ولا جيت جمبها من ساعة ما كنت عندها.

لم تنطلِ حيلة بكائه كثيرًا، فدموع التماسيح نضبت بعد لحظةٍ، وبدا صوته عاديًا عندما سأله وهو يرمش بعينيه:

-هي قالتلك حاجة؟

وقبل أن يجاوبه تابع بصوته المرتجف:

-وبعدين ده أنا ابن عمها، من لحمها ودمها، وخايف عليها، يعني مايرضنيش حد يقول عنها كلمة.

نقل "تميم" مطواته لليد الأخرى، ومررها بين أصابعه بنفس الحركة الاحترافية، تأكد من متابعة نظرات "فضل" له، ثم توقف فجأة عن تحريكها، وخاطبه بصوتٍ أجوف عميق:

-وماله تخاف عليها بالأصول، مش بالندالة!

رد بنبرته المرتعشة:

-آه .. طبعًا..

ثم نهض عن المقعد، وركله بقدمه، ليصبح عنقه طليقًا، ظن لهنيهة أنه سيحرره؛ لكنه باغته بالانقضاض عليه وجذبه من ياقته ليجبره على النهوض، فذعر بشدةٍ، ووضع قبضتيه المرتجفتين على ساعديه يستعطفه:

-إنت قلبك كبير يا معلم، بلاش تروح في داهية، الموضوع مش مستاهل.

لسانه الأهوج كان الأسبق في إضافة جملةٍ كدرت الأجواء الغائمة:

-ده الحريم ياما بيقولوا، هنعمل عقلنا بيهم.. دول ناقصين عقل ودين ..

لعق شفتاه واختتم حديثه:

-ده مش كلامي، ده كلام ربنا.

نطق في تهكمٍ سافر:

-وإنت ماشاء الله عليك بتعرف في الدين.

ودون أن تحيد نظراته عنه، وجه أوامره لرجليه الواقفين خلفه:

-ثبتوه على الحيطة!

هتف "شيكاغو" أولاً مبديًا طاعته له:

-حاضر يا معلم.

في حين تقدم "حمص" لتنفيذ أمره في صمتٍ، وعلامات الشر تبدو جلية على قسماته.

صرخ "فضل" بأقصى ما يستطيع، وهو يبذل كامل طاقاته للخلاص من الحصار المطبق عليه:

-هيقتلوني يا نـــاس.

لم يحتاج كلاهما لجهدٍ زائد لإلصاق وجهه بالجدار البارد وتثبيته، ضغط "شيكاغو" على رأسه، ليسحقه في بروز الجليد المتكون على سطحه، فتسبب حوافه الحادة في تمزيق جلده، وقام "حمص" بتكبيل يديه ليضعف من مقاومته، وحشر قطعة من قماش الأجولة في جوفه، ليكتم صوت صرخاته. ظل "تميم" واقفًا على بُعد بضعة خطوات، وهتف كتمهيد استباقي لما سيحدث لاحقًا:

-لما الوارد الجديد بيشرف عندنا في أبو زعبل بيتعملهم حفلة استقبال، تشريفة تليق بيهم ..

فتش بين الأغراض المحاوطة به عن شيء غليظ، وواصل مخاطبته:

-بعدها بنلاقي واحد ولا اتنين كده متنططين، عايزين يعملوا نمرة، ياكلوا بيها الجو، بس مشكلتهم بيعملوها مع الناس الغلط ..

تأوه "فضل" من الألم المستبد بجسده، وبكى في خوفٍ أكبر، بينما تابع "تميم" حديثه له بلهجةٍ عبرت عن بواطن شرورٍ عظيمة، لا يحبذ اختبارها على البشر:

-ساعتها بقى بيتعمل معاه السليمة، ويتعرف إن كان راجل وأد كلمته، ولا واحد متنسونِ، يقلب على مَرَة لما يخش في الغويط.

دفع "فضل" بلسانه القطعة المحشورة في جوفه، عله ينجح في إسقاطه ومواصلة الصراخ. تقدم "تميم" بخطاه المتأنية، وعيناه تبرقان بشيءٍ خطير، كما اشتدت نبرته قساوةٍ عندما نطق:

-وأنا حذرتك ..

موجة الغضب التي اجتاحته لم يعد بإمكانه إيقافها، لذا أوضح له باقي تهديده:

-عشان المرادي هاعمل معاك الجُلاشة، مش هاخليك تعرف ترفع عينك لا في راجل ولا حُرمة.

سقطت الخرقة من فم "فضل"، فصاح على الفور طالبًا النجدة:

-غتوووني يا ناس.

توقف "تميم" على مسافة خطوة منه، ومال عليه ليبدو صوت تهديده في أذنه حينما أخبره، وبين شفتيه ابتسامة انتصار:

-إدي بالك عشان جيالك، وبالجامد أوي.

..........................................................

أمام النافذة الأرضية، أطلت برأسها تراقب المارة عن كثب، فموعد عودته قد تأخر كثيرًا، فعلى الأغلب كان يعود إلى المنزل مبكرًا، تاركًا غيره يكمل ما تقاعص عن أدائه. تنهدت "سعاد" بصوتٍ مسموع، وتحركت لتجلس على المصطبة بجوار زوجها، ثم أخبرته وهي تفرك كفيها معًا:

-لأ، أنا كده اتوغوشت بزيادة، مش بعوايده "فضل" يتأخر كده.

أردف قائلاً وهو يدير حبات مسبحته بإبهامه:

-الغايب حجته معاه.

وضعت هاتفها المحمول على أذنها بعد أن هاتفته، وقالت في قلقٍ أكبر:

-باتصل عليه تليفونه مقفول.

افترض "إسماعيل" مرددًا بعد برهةٍ من الصمت:

-جايز يكون راح عند أهل مراته يصالحها، ماهو كان غبي معاها آخر مرة.

غمغمت بتبرمٍ وهي تخبط يدها الطليقة على فخذها:

-بردك يقول، ولا يتصل يعرفنا، مايسبناش كده في حيرة وقلق.

علق عليها بامتعاضٍ:

-إنتي عارفة ابنك ماشي بدماغه، محدش بيقدر يحوشه لما يحب يعمل حاجة.

التفتت للجانب لترمقه بنظرة ساخطة، ولامته بشكلٍ صريح ومباشر وهي تلوح بيدها:

-مترعلش مني يا حاج، إنت اللي عودته على كده، لو كنت بتقفله من الأول كان اتلم، بس هو ساق فيها، وأديك شوفت عمل إيه مع الغلبانة "سها".

نظر لها من طرف عينه، ونطق بعد زفيرٍ طويل:

-ربنا يستر المرادي، لأحسن مش مرتاح، وخايف أبوها ياخد موقف.

بنفس الأسلوب المتنمر استطردت معقبة:

-هايكون معاه حق لو عمل كده، كل مرة ترجعله بنته متبهدلة ومضروبة، وده مايرضيش ربنا.

واصل "إسماعيل" تقليب حبات المسبحة بحركة ثابتة، ولسانه يلهج داعيًا:

-ربنا يعديها على خير.

..................................................

حينما يتحير في أمر ما، يلجأ إليه، فيجلس بأريحية عند قدميه، ويبوح له بكل ما يختلج صدره، ليمنحه الجواب الحاسم، بخلاصة خبرته الحياتية الطويلة. لذا لم يتردد "بدير" في إطلاع والده على ما أخبره به "سراج" في دكانه، وكيف تعامل مع الموقف المفاجئ، اختتم سرده المستفيض قائلاً:

-أنا قولتله إن "هاجر" ماستوفتش عدتها لسه، ومايكلمنيش في حاجة قبل كده، إيه رأيك في الكلام ده يابا ؟

أومأ برأسه في استحسانٍ وهو يرد:

-عين العقل.

سأله بتوجسٍ، وقد ضاقت عيناه:

-بس تفتكر البت ترضى؟

بِبساطةٍ جاوبه:

-دي حاجة ترجعلها هي.

همهم ابنه مضيفًا، وأمارات التفكير تظهر جلية على قسماته:

-والله أنا محتار، ما هو احتمال "هاجر" متوافقش، وأنا هتحرج مع الراجل، وخصوصًا بعد وقفته معانا.

اعتدل "سلطان" في جلسته، وحادثه على مهلٍ:

-بص يا "بدير"، بنتك بعد اللي شفته مع "محرز" مش هتوافق بسهولة، لأن اللي عاشته مكانش قليل، وده بعد ما جه في الآخر على ضناها، يعني مارحمش حد.

هز رأسه يؤيده:

-معاك حق.

واصل كلامه العقلاني معه:

-وإنك تفاتحها دلوقتي عن حد متقدملها هيقلب معاها بالعكس، وهتفتكر كل اللي مرت بيه.

نظر إليه معلقًا بإيجازٍ:

-مظبوط.

أنهى النقاش في تلك المسألة بقوله الحاسم:

-احنا نكفي على الخبر ماجور، لحد ما ربنا يأذن، ووقتها يحلها الحلّال.

رد دون اعتراضٍ:

-ماشي يابا، اللي تؤمر بيه.

قال مبتسمًا وهو يربت على كتفه:

-لأ ده الصح، واللي المفروض يتعمل.

بادله الابتسام وهو يدعو له:

-ربنا يباركلي فيك يابا، ويديمك فوق راسنا.

..........................................................

ما لاقاه على يده كان مهينًا لأبعد الحدود، جعل اعتقاده الراسخ في ذهنه، وما تربى عليه منذ نعومة أظافره، بأن الرجولة تتمثل فيما يمتلكه الفرد من أعضاءٍ حددت هويته لحظة الميلاد، لا يساوي شيئًا أمام إذلاله وكسر شوكته في حضرة الغرباء. وعند نفس البقعة التي اختطف فيها، تم إلقاء جسده المنتهك بجوار الكوبري، ليزحف بعدها "فضل" ناهضًا وهو يئن من الألم والانكسار، تلك المرة لم تتبعثر كرامته فحسب، وإنما قُضي على جبروته الزائف، هذا الذي يمارسه على الضعفاء. جرجر ساقيه عائدًا إلى منزله، ووجهه ملطخًا بدمائه، ودموعه الذليلة. هللت "سعاد" في هلعٍ حينما أبصرته على تلك الحالة المشينة:

-يا نصيبتي السودة! إيه ده يا "فضل"؟ حصلك إيه؟

بصوتٍ مرتجف، وجسد لا يتوقف عن الارتعاش رد كاذبًا:

-ما.. مافيش يامه.

استنكرت كذبه المكشوف، وأصرت على معرفة الحقيقة بضغطها اللحوح عليه:

-إزاي مافيش؟ ده إنت متبهدل خالص، وإيه اللي في وشك ده كمان؟

انكمش على نفسه في رهبةٍ عندما امتدت يدها لتلامسه، وقال بحرقةٍ، متجنبًا الجلوس رغم صراخ جسده ليستلقي:

-سبيني يامه السعادي.

رفضت تركه لشأنه، وتبعته إلى الداخل قائلة بعنادٍ:

-لأ مش هاسيبك يا "فضل"، لازمًا أعرف حصلك إيه...

ثم رفعت من نبرتها، ونادت:

-يا حاج "إسماعيل"، تعالى بسرعة، شوف ابنك واللي جراله.

أتى إليها زوجها مرددًا في توجسٍ:

-يا ساتر استر يا رب.

وقعت أنظاره على ابنه، جال ببصره عليه ليفحصه من رأسه لأخمص قدميه، ثم سأله بدهشةٍ مستهجنة:

-إيه ده يا "فضل"؟ من إيه كده يا ابني؟

صرخ في يأسٍ، والخزي مستبد منه:

-يوووه، ما كفاية بقى تحقيق ...

عنفه والده بضيقٍ، وهو يرمقه بتلك النظرة المزعوجة:

-دي جزاتنا إني أنا وأمك قلقانين عليك؟

خبت نبرته العالية، وأخبره بلجلجةٍ، أظهرت فداحة ما يحاول نسيانه:

-مش قصدي يابا، بس.. أصلي.. تعبان، و...

بلع ريقه، ومسح دموع الألم العالقة بأهدابه ليتابع بكذبةٍ بدت لائقة في لحظتها:

-وبعدين.. دول .. حرامية.. أه، هما حرامية طلعوا عليا...

وجد أنها حيلة مناسبة لإقناع أبويه بما تعرض له، بعيدًا عن قص تفاصيل الاعتداء الجسدي المهين الذي خاضه، فاستفاض في سرد كذبته:

-ثبتوني في حتة مقطوعة، وسرقوا اللي كان معايا، وبهدلوني آخر بهدلة، وأنا مكونتش قادرلهم.

هتف "إسماعيل" بوجهٍ تحول للغضب:

-حرامية نواحينا؟ يبقى لازمًا نبلغ المركز.

خشي من افتضاح أمره، فصحح له:

-ما أنا ملحقتش أشوف وشهم، كانوا متلثمين، واتكاتروا عليا، وخدوني غدر.

ربتت "سعاد" على كتفه بحنوٍ وهي تواسيه:

-كبدي عليك يا ابني، منهم لله البُعدة...

تقلصت تعبيراتها، وأضافت توصيه في حزمٍ:

-إنت مش لازم تسكت يا ضنايا، حاول تقعد مع نفسك وتفتكر هما مين، جايز نوصلهم.

تشدق رافضًا بنزقٍ:

-لأ مش عايز.

نظرت له باستغرابٍ، فراوغها في الكذب:

-قصدي يعني أما أفوق الأول، سبيني أروح أغسل جتتي، وأفرد ضهري.

هزت رأسها تستحثه:

-ماشي يا ضنايا، على مهل، وأنا هحضرلك لقمة تاكلها.

استوقفه "إسماعيل" متسائلاً:

-هتعمل إيه مع مراتك؟

قال بنفورٍ وهو يلوح بذراعه في عصبيةٍ جعلته يئن من الألم:

-وده وقته يابا، سيبوني في الهم اللي أنا فيه.

تابعه والده وهو يتوارى عن أنظاره مهمهمًا:

-ماشي براحتك.

بخطواتٍ متمهلةٍ وساقين شبه منفرجتين استمر "فضل" في سيره الحثيث، وصوت همسه المغلول بالكاد يُسمع:

-منه لله الظالم، عرف إزاي يكسر عيني.

..............................................................

أرادت والدتها شرائه خصيصًا له، معلنة عن تكفلها بكامل مصاريفه بعد بيع قطعٍ من مشغولاتها الذهبية، فلا شيء يُقارن برؤية شقيقها جالسًا معهم، ولهذا كلفت ابنتها بتلك المهمة الهامة، فلم تفكر "فيروزة" مرتين، وقضت وقتًا مطولاً -على شبكة الإنترنت- تبحث عن الأماكن التي توفر مثل تلك النوعية الحديثة من الأجهزة الطبية، إلى أن وقع الاختيار على المناسب لحالته الصحية. وبعد اتفاقٍ مسبق مع الصيدلية القريبة من المنزل، وردها اتصالاً هاتفيًا من أحد العاملين بها يخبرها فيه بتوافر الكرسي الكهربي المدولب، ذاك الذي رغبت والدتها في منحه كهدية لـ "خليل".

ارتدت "فيروزة" ثيابها، وتأكدت من هندمة ثياب "رقية" لتشاركها في ابتياعه، ولم تحبذ "همسة" -الماكثة في المنزل- تفويت الفرصة عليها، فأصرت على الذهاب معهما، ليتسابق ثلاثتهن على فعل الخيرات. وقبل أن يصلن للصيدلية، راودت "فيروزة" فكرة فجائية تحمست لها بشكلٍ غير مسبوق، لما لا تعرج في طريقها على الدكان وتلقي التحية على من فيه؟ خاصة مع قرب المكان من الصيدلية. تعاظمت رغبتها في تنفيذ ذلك مع تقدم خطواتها، وأقنعت نفسها

بحجة ضعيفة، أنها تفعل هذا لإبداء عرفانها بالجميل، وليس لغرضٍ آخر، هكذا أوهمت نفسها! حمحمت قائلة بنوعٍ من الجدية، وكأنها تستشيرها:

-بأقولك إيه يا "همسة"، إيه رأيك لو عديت على الحاج "بدير" أسلم عليه؟

حملقت فيها بغرابةٍ، فتابعت موضحة لها:

-يعني كتر خيره قايم معانا بالواجب وزيادة، ومراته كمان جت زارتنا من كام يوم، ده غير ما بعتولنا زيارات، وحاجات كتير بصراحة، ها إنتي رأيك إيه؟

رحبت باقتراحها قائلة:

-وماله يا "فيرو"، روحي إنتي، وأنا هاسبقك على الصيدلية مع "كوكي".

ضاقت عيناها وهي تسألها باندهاشٍ:

-هو إنتي مش هاتيجي معايا؟

ضحكت قبل أن تجيبها:

-يا بنتي أنا في وشهم ليل نهار، هما زمانهم زهقوا مني، روحي إنتي وحصلينا.

ضغطت على شفتيها لثوانٍ قبل أن تنطق أخيرًا باقتضابٍ؛ وكأنها لم تكن راضية عن الأمر:

-تمام.

ودعتها بابتسامتها اللطيفة:

-متتأخريش علينا، سلام

انتظرت "فيروزة" في مكانها لبضعة لحظاتٍ حتى غادرت توأمتها المكان مع ابنة خالها، ثم استدارت بعدها متجهة نحو الزقاق الضيق الذي يختصر المسافة إلى الدكان، لو لم يكن الطريق مُعبدًا لصدقت أنها تتعثر في خطواتها، فهناك ربكة غامضة تعتريها كلما دنت أكثر من محيطه، تجبر ساقيها على الالتفاف، حتى خفقاتها لم تعد ثابتة، ازدادت سرعتها بشكلٍ استثار استغرابها؛ ومع هذا لم تكن ممانعة لما يحدث معها. تنفست بعمقٍ قبيل وصولها إليه، لتستعيد انضباط انفعالاتها، ورددت مع نفسها:

-أنا جاية أشكر الراجل، مافيهاش حاجة يعني.

استمرت في إقناع نفسها بهذا، وتقدمت أكثر للأمام، نظرة سريعة خاطفة ألقتها على من هو مرابط بالدكان، لم تتبين وجهًا مألوفًا بين المتواجدين، سوى الحاج "بدير"، فالأخير كان جالسًا كعادته أمام مدخله، تنحنحت مجلية أحبال صوتها، واقتربت أكثر منه لتلقي التحية عليه، وهي تزيح خصلة نافرة سقطت على جبينها إلى خلف أذنها:

-سلامو عليكم يا حاج.

صوتها الناعم الذي يعرفه جيدًا، اخترق الجدران الخرسانية ليصل إليه، وهو يقف بين عماله يحصر ما استلمه للتو من بضائع طازجة، ليستعبد كامل حواسه عن طواعيةٍ ورغبة، مستشعرًا بقوة وخزات الحب وهي تعصف بكيانه. قفز قلبه في صدره فرحًا، كمن يمارس حركات البهلوان باحترافية، التفت يأمر أحدهم، دون أن يركز في هويته:

-كمل باقي الفرز.

خرج "تميم" مستندًا على عكازه، ليجدها تضحك ملء شدقيها، بابتسامةٍ أعطت لعشق الفؤاد سحرًا فريدًا، سحرًا كان وما زال تأثيره عليه مُبينًا. ابتسم عفويًا لضحكتها، وعيناه تهيمان في ملامحها، حركت رأسها ناظرة إليه بنظرةٍ عميقة، احتوت على شيءٍ خاص به، نظرةٌ هائمة، بها أصدق التعبيرات، كانت له وحده، لم يكن ليحلم أبدًا بها، يا لروعة النظرات! ما الذي يريده أكثر من هذا؟ أفاق من سرحانه المتيم في تأملها على صوتها المتسائل:

-إزيك يا معلم؟

حشرجة خفيفة اعتلت نبرته أجلاها سريعًا وهو يرد:

-الحمدلله...

تنحنح يسألها وهو يفرك مؤخرة عنقه:

-إنتي عاملة إيه دلوقتي؟

قالت بنفس الابتسامة المشرقة:

-أحسن الحمدلله ...

ثم وزعت نظراتها بينه وبين أبيه، وهي تواصل القول:

-أنا تعبتكم معايا الفترة اللي فاتت، وقلقتكم.

قبل أن ينطق والده هتف من تلقاء نفسه يعاتبها:

-متقوليش كده، والله أزعل، ده إنتي غالية عندي.

اندهش "بدير" من جملته الأخيرة، ولم تقل دهشة "فيروزة" عنه، فحاول تصحيح زلة لسانه:

-عند .. العيلة كلها.

تابع التغطية على إحراجه بإضافة:

-إنتي هتفضلي واقفة كده يا أبلة، اتفضلي اقعدي، مايصحش مانقومش معاكي بالواجب.

وتراجع خطوتين ليسحب لها مقعدًا خشبيًا وضعه أمامها ليدعوها للجلوس، اعتذرت منه بلباقة:

-وقت تاني، أنا ورايا مشاوير بخلصها.

أصر عليها بعينين لمعت في حزنٍ طفيف لرحيلها المبكر:

-والله ما يحصل ..

أسبل عينيه نحوها، وتسللت من بين شفتيه تنهيدة بطيئة وهو يكمل جملته:

-يعني خليكي معانا شوية، بلاش تحرمينا من طلتك الحلوة.

توردت بشرتها من كلماته المصحوبة بنظراته الساهمة، وتجنبت التحديق في وجهه، لتنظر إلى أبيه قائلة بربكةٍ شبه ملحوظة:

-مش .. عايزة أزعجكم.. إنتو وراكم شغل كتير.

بتعجلٍ أخبرها "تميم" دون تفكيرٍ:

-الشغل يستنى.

نطق "بدير" أخيرًا ببسمةٍ ذات مغزى، وهو يدور بنظراته على الاثنين:

-أه طبعًا، يتعطل عشان الغاليين.

تسربت دفعة من الحُمرة الساخنة إلى بشرتها حرجًا من كلامه المبطن، وقالت ببسمة خجلة:

-شكرًا يا حاج، تتعوض مرة تانية، اعذرني المرادي.

أصر عليها "بدير" إرضاءً لتلهف ابنه الغريب:

-والله أنا اللي هزعل، دول دقيقتين، مش حكاية يعني، مسافة ما الحاجة الساقعة تيجي.

لم ترغب "فيروزة" في رفض طلبه، وباستحياءٍ جلست على المقعد، متحاشية النظر في اتجاه "تميم" الذي اختفى للحظات بداخل الدكان، ليعود إليها وفي يده ثمرة تفاحٍ كبيرة طازجة، لونها مغري للأنظار، وملمسها ناعم على اليد. وضع مقعده مجاورًا لها، ثم قرب يده منه، ليقدمها إليها قائلاً بما يشبه الغزل:

-اتفضلي يا أبلة .. التفاح للتفاح.

رفعت عينيها ببطءٍ لتنظر من على قربٍ إلى ملامحه المشرقة، وهي تشعر أن لون بشرتها قد غدا مثل التفاحة المسوكة بيده، ابتسامة اعتبرها مغرية تدلت على جانب شفتيها وهي ترد:

-شكرًا، مش جعانة.

وكأنه تناسى ما حوله من مارة، وزحام، وأعين متلصصة، وأنوف فضولية، فطغى الهوى على العقل، وسقط القلب أسيرًا للغرام. عمق "تميم" من نظراته الساهمة، غارقًا في سحر الفيروزتين، أراد إخبارها أنه اقتص لأجلها، ممن أذاها بالقول والفعل، أذله، وجعله يقاسي ما لم يخطر على بال؛ لكنه لم يفعل، أسره في نفسه حتى إشعارٍ آخر، حينما يتجدد اللقاء، وتكشف القلوب عن الأسرار. ابتسم لها، وسألها بعتابٍ رقيق:

-كده هتكسفيني؟

ردت نافية، وجفناها لا يتوقفان عن التحرك:

-لأ، بس أنا...

قاطعها "بدير" بلهجةٍ جادة، جعلت "تميم" يتدارك نفسه، ويخفض أنظاره في حرجٍ كبير:

-خديها يا بنتي خلينا نخلص.

قالت بنفس الوجه الخجول:

-حاضر يا حاج.

وجه "بدير" حديثه لابنه، يأمره بصرامةٍ، لا تخلو من تحذير موحي:

-وإنت يا "تميم" قوم شوف مصالحك، الناس مابتسبش حد في حالها، وإنت عارفهم أكتر مني.

فهم ما يرمي إليه بنظرة واحدة منه، وقال ساحبًا مقعده معه بضيقٍ:

-ماشي يابا.

ورغم تعابيره الجادة إلا أن صوته كان هادئًا معها وهو يودعها:

-أشوفك على خير يا أبلة.

ردت بإيجاز، وهي تتحاشى النظر إليه:

-إن شاء الله.

انصرف عنهما عائدًا إلى الدكان، مبرطمًا ببعض اللعنات المزعوجة؛ لكن والده كان محقًا في إبعاده عن محيطها في تلك اللحظة، حتى لا يلصق بها ريبًا، فتتضرر في سمعتها دون مقصدٍ منه، راقبها من زاوية بعيدة، وقلبه يخفق مع ابتساماتها النضرة، تلك التي تتراقص على أوتاره الحساسة. تجددت مناجاته الصامتة، مستحضرًا بقوة في ذهنه، حلمًا يرجو فيه التمتع بنعيم قربها:

-اجعلها من نصيبي يا رب ........................................ !!

.................................................................

لجزء
لثلث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل السابع والتسعون

لوقتٍ متأخرٍ بعض الشيء، بقى والده منتظرًا انصـراف جميع العمال بالدكان، ولم يكن هذا من عاداته، للانفراد بابنه للحديث معه حديثًا جادًا، وبعيدًا عن الصخب المحيط بهما. تأكد "تميم" من إغلاق أبواب الدكان الداخلية والخارجية، ثم جر المقعد الخشبي في اتجاه أبيه، أسنده إلى جواره، وأراح جسده عليه متسائلاً في اهتمامٍ وهو يركز بصره عليه:

-خير يابا ؟ كنت عايزني في إيه ؟

أطلق "بدير" زفرة بطيئة من صدره، استطرد بعدها يخبره على مهلٍ، مستخدمًا تشبيهًا ملائمًا، ليبدو مُقنعًا في حُجته:

-قولي يا "تميم"، لو في مرة كده جيت لاقيت أختك قاعدة هنا مكانك، بتتساير مع واحد من المعلمين حبايبنا، وهو واخد راحته أوي معاها، مش مدي اعتبار لحد، ساعتها هتعمل إيه ؟

فهم مقصده، والمغزى من وراء كلامه المُعاتب، دون الحاجة للاستفاضة في الإيضاح؛ كان يقصد طاووسه بتوريته عنها، فأطرق رأسه حرجًا منه، وغمغم في ترددٍ:

-أنا..

قاطعه والده بصوته الرزين:

-متقولش حاجة، ولا تبرر..

ظل "تميم" محنيًا لرأسه، بينما استمر أباه في مخاطبته بنفس الأسلوب المتريث العقلاني:

-أنا بس عايز أفهمك، إن اللي مانرضهوش على بناتنا، مانرضاش بيه على بنات الناس.

هز رأسه يؤيده وهو يرمش بجفنيه:

-معاك حق يابا.

وضع "بدير" راحته على كتف ابنه، وضغط عليه قائلاً:

-لو عينك منها، وعايزها، يبقى بالأصول ...

أحس بتدافع دقاته بعد جملته تلك، وزادت حدة باستكماله:

-وندخل بيوت الناس من بابها، مش ننط زي الحرامية.

حمحم في خفوتٍ، متجنبًا نظراته الكاشفة لأمره:

-حاضر.

أومأ "بدير" برأسه في هزة صغيرة، ومدح أخلاقها قائلاً:

-بس هي بنت حلال، وتستاهل كل خير.

وكأن ما قاله عنها راقه، فابتسم "تميم" بتلقائيةٍ، وأخذ يفرك أصابع كفه في توترٍ. ضحك والده مُضيفًا بتسليةٍ، وقد راقه رؤية ابنه متخبطًا:

-لأ وإنت قايم تجيبلها من التفاح الفاخر.

لازم "تميم" الصمت، ووجهه يكسوه تعابيرًا حرجة، فلكزه والده بقليلٍ من القوة في ذراعه، وهو يتابع:

-شكلك متوصي بيها بقى.

تنحنح مجددًا وهو يعقب عليه:

-خلاص يا حاج.

استقام "بدير" واقفًا، وأخبره بلهجته الجادة:

-لكل مقامٍ مقال، وده مش وقته...

ثم أشـار نحو باب الدكان المفتوح، وأمره:

-شِد الباب ويالا بينا، يدوب نلحق الجماعة في البيت.

قال ممتثلاً له بطاعةٍ واضحة:

-حاضر يا حاج.

تحرك في اتجاه باب الدكان المفتوح، أغلقه بقفلٍ داخلي، ثم امتدت يده للأعلى لسحب باب الصاج للأسـفل، وانحنى بجذعه لـتلامس يده القفل الأرضي. اعتدل في وقفته، واستدار نحو والده ليقول بصوتٍ شبه مجهد:

-بالمناسبة، أنا هسافر كام يوم كده.

ضيق عينيه متسائلاً بدهشة:

-عشان إيه؟

أجابه بردٍ حيادي، لا يثير الشكوك:

-ورايا كام مصلحة لازم انجزهم لناس حبايبي قاصدني فيها من زمان.

سأله بنبرة محققة نسبيًا:

-ومايِنفعش حد يروح مكانك؟

بإيماءةٍ نافية من رأسه منحه جوابه:

-لأ، صعب .. وبعدين هما متعشمين فيا.

لامه على إصراره بنظرةٍ محذرة:

-سفر وإنت لسه تعبان؟!

أكد عليه وهو يفرد ذراعيه:

-الحمدلله أنا بقيت أحسن ...

اتسعت ابتسامته أكثر وهو يتابع باقي جملته:

-وبعدين يابا الرزق يحب الخفية.

علق عليه ببساطةٍ:

-ماشي، بس إن لبدنك عليك حق.

كرر على مسامعه مؤكدًا وهو يقبل ظهر كفه وباطنه:

-والله أنا كويس يا حاج، الحمدلله في نعمة من ربنا.

حرر والده زفرة بطيئة من رئتيه، وسأله على مضضٍ:

-وسفرك ده هايكون امتى؟

حك "تميم" طرف ذقنه قائلاً:

-لسه مش عارف بالظبط، لما أرتب معاهم.

بوجهٍ ما زال مترددًا بعض الشيء اختتم حواره معه:

-طيب .. ربنا يقدملك اللي فيه الخير.

اقترب "تميم" من والده، وانحنى على كتفه يقبله في تقديرٍ، قبل أن يتحرك الاثنان معًا نحو سيارته التي عاد لقيادتها مؤخرًا، والآمال معقودة في نفسه على إنجاح مسعاه الدؤوب.

.........................................................

بحرصٍ مبالغ فيه، تعاون ثلاثتهن على إجلاسه على المقعد المدولب، قبل وضع غطاءٍ رقيق على ساقيه، لتبدأ بعدها "فيروزة" في إرشاده إلى كيفية استخدامه بشكلٍ مبسط، من خلال الكُتيب المرفق معه، فانعكست مظاهر السعادة على محياه. ترقرقت العبرات في عيني "خليل"، ونطق بصعوبةٍ:

-أنا... فرحـ..ان.

رددت "آمنة" داعية له في سرورٍ كبير:

-دايمًا يا رب.

تساءلت "رقية" في مرحٍ، وهي تقفز على ساقي أبيها، لتجلس في حجره:

-كده بابا يعرف يوديني في كل حتة؟

ردت عليها "همسة" بضحكة مبتهجة:

-طبعًا يا "كوكي"، شوفي بقى عايزة تروحي فين.

هتفت مقترحة على الفور:

-الملاهي.

ضحكت "فيروزة" هي الأخرى، واعترضت بلطفٍ:

-مش أوي كده يا "كوكي".

توقفت الابتسامات المرحة عندما نادى "خليل" شقيقته بلسانه الثقيل:

-"آ...آمنة".

على الفور سألته في نبرة مهتمة:

-أيوه ياخويا، عايز إيه واعملهولك؟

أخبرها على مهلٍ، محاولاً ترتيب جملة مفيدة:

-اطـ..لعي.. افتحـ.ي .. الدولاب، وخـ...دي فلـ..وس منه.

تعقدت ملامحها متسائلة في استغرابٍ:

-بتوع إيه؟

أجاب بعد لحظةٍ من الصمت:

-الـ..كرسي

احتجت على دفعه لثمن هديتها، وقالت بعبوسٍ طفيف:

-ودي تيجي يا "خليل"؟

رد بإصرارٍ:

-عشـ..ان.. خاط..ري.

تمسكت برفضها بعنادٍ أكبر منه:

-والله ما يحصل.

اقتربت "فيروزة" منه، وأخبرته هي الأخرى بابتسامةٍ ودودة:

-لأ يا خالي، دي هدية ماما ليك، عايز تزعلنا ولا إيه؟

رفع أنظاره نحوها، وقال بعينين تلمعان بندمه:

-بس.. كده... كتـ..ير.

حافظت على ابتسامتها الرقيقة وهي ترد:

-مافيش حاجة تكتر عليك.

بدت حدقتاه وكأنهما تحتجزان الدموع فيهما، أطرق رأسه شاعرًا بالأسف، قبل أن يحرك شفتيه ليقول:

-أنا.. ما..ستهلـ..ش ده منـــ...كم.

لم تحبذ "فيروزة" التطرق للذكريات الحزينة التي عاشتها على يد خالها، وأخبرته وهي تدفن رواسبها الأليمة في أعماقها:

-خلينا ننسى اللي فات، وبعدين "كوكي" عايزة تتفسح، مين هيفرجها على كل الأماكن الحلوة غيرك؟

منحها نظرة نادمة عبرت عن مدى شعوره بالخزي من تصرفاته العنيفة معها فيما مضى، لو كان بقدرته إعادة عجلة الزمن للوراء لما تردد لمحو ما تسبب فيه من ضرر نفسي وبدني لها. تحولت أنظاره نحو توأمتها التي استطردت قائلة:

-أنا اتفقت مع "هيثم" يجيب عمال يعدلوا في السلم، بحيث يبقي سهل تطلع وتنزل عليه من غير ما حاجة تحوشك.

سألها في عدم تصديق، وقد فشل في السيطرة على دموعه:

-كـ..ل ده.. عشـــ..اني؟

قالت "آمنة" بوجهها البشوش وهي تتحرك لتقف خلفه:

-إنت راجلنا دلوقتي يا "خليل"، ربنا يخليك لينا، ولبنتك.

بصوت غص بالبكاء كرر اعترافه:

-ســ..امحـ..وني، أنا جـــ..يت .. علـ..يكم أوي.

ربتت "آمنة" على كتفي شقيقها بحنوٍ، ومالت عليه لتقبل رأسه وهي تخبره:

-عفا الله عما سلف ...

اعتدلت في وقفتها وصاحت وهي تتجه نحو الطاولة لتأتي بطبق الحلوى الشرقي الذي أعدته سلفًا:

-سبونا من الزعل، ويالا عشان تكلوا لقمة القاضي، أنا عملاها حكاية.

هللت "همسة" في حماسٍ، وكلتا يداها تتسابقان لاختطاف أكبر قدر من حلواها الشهية:

-طول عمرك أستاذة في الطبيخ يا ماما.

حذرتها "فيروزة" بنوعٍ من المزاح:

-طب بالراحة، مش عايزين يطلعلك بدل الكرش اتنين.

ضحكوا جميعًا على طرفتها، فتجهت تعابير توأمتها قليلاً، ومع هذا استمرت في دس الحلوى في فمها، وتناولها باشتهاءٍ سعيد.

..........................................................................

كلما اختلى بنفسه، كلما تذكر إهانته وإذلاله، بالرغم من انقضاء بضعة أيام على الاعتداء عليه، إلا أنه لم يتجاوز بعد شعوره بالخزي والمذلة. ما زالت ذكراته تنتعش وتشرد بتذكر تفاصيل المشهد؛ وكأنه حدث بالأمس، حينما انسحق وجهه في نتوءات الجليد المتجمد على جدار غرفة التبريد بالدكان الذي احتجز به، قاوم آنذاك الأيادي المتطاولة عليه وهي تصفعه بعنفٍ على صدغه ومؤخرة عنقه. صوت صرخاته انفلت حينما شعر بلسعات مؤلمة تصيب عجيزته وظهره

بشيء حاد، فعلى ما يبدو وجد "تميم" واحدة من خشب الخيرزان الرفيع ليبرحه ضربًا بها، والأخير لم يبخل في تلقينه درسًا قاسيًا. زادت حدة الألم غير المحتمل مع انتقال الضربات الموجعة إلى موطن فخره، فنالت الالتهابات والجروح من معظم جلده، وأصبح عاجزًا عن الاستلقاء أو الجلوس، وبقي غالبية الوقت واقفًا ليتجنب وخزات الألم الحادة. تعافى "فضل" قليلاً، وما زال جسده يحتفظ بآثار الاعتداء ليُذكره بأن إذلاله لم يكن هينًا، صوت الضحكات الهازئة به أيضًا ما زال يتردد في أذنيه، خاصة مع لمحه لومضاتٍ سريعة خاصة بأحد الهواتف، لالتقاط صورًا فاضحة له لضمان اكتمال إذلاله، وكسر شوكته، فلا يجرؤ على رفع صوته، أو الشكوى، أو حتى التطرق إلى ذلك مُطلقًا، وقد كان .. بقي ذليلاً، كسير النفس، شعوره بالخزي والمهانة يتضاعف مع مرور الوقت. نفخ الهواء في زفيرٍ طويل، وغمغم مع نفسه وهو يفرك كفه بالآخر، أثناء جلوسه -مائلاً إلى حد ما بجسده- على المصطبة:

-عرفت تذلني صح، وماتخلنيش أعرف أرفع عيني فيك، ولا أوري وشي لمراتي ولا غيره.

تجسد طيف وجه "فيروزة" في مخيلته، وتابع حديث نفسه، مُلقيًا بكامل اللوم عليها:

-كل ده بسببها هي.

صر على أسنانه يتوعدها:

-آآآخ لو كنتي تحت إيدي.

شعر بطنينٍ في أذنه أخرجه من سرحانه الدائم، ليحدق أمامه في وجه والده الذي زجره بصبرٍ نافذ:

-إنت مش سامعني يا "فضل"؟

رفع بصره إليه، وسأله بفتورٍ سمج:

-أيوه يا حاج، في حاجة؟

صاح به "إسماعيل" بضجرٍ كبير:

-إنت هتفضل قاعد كده مبلط في البيت لا شغلة ولا مشغلة؟ الناس تقول عنك إيه؟

علق في سخطٍ، وهو يلوي شفتيه:

-وقعدتي دي مضايقة الناس في إيه؟

جاءه تعقيبه المستريب:

-يا ابني إنت داخل فوق الـ 10 أيام قاعد فيهم هنا، مش بعوايدك يعني.

زفر عاليًا، قبل أن يرد بنبرة متبرمةٍ:

-بأريح يابا، على طول بشقى، مافيهاش حاجة لما أخدلي كام يوم أفرد فيهم جتتي.

سأله والده مستفهمًا:

-وموضوع مراتك؟

انقلب وجهه أكثر وهو يبادله السؤال:

-مالها سُخام البرك دي؟

انزعج من إهانته لها، ومع ذلك تجاوز عن تلك النقطة ليسأله مستوضحًا:

-هتعمل معاها إيه؟

بسماجةٍ أخبره:

-هي مش أمي راحتلها تطيب خاطرها بكلمتين؟ خلاص بقى، مش ناقص خوتة على الفاضي، ما تعملهاش شغلانة.

عنفه بحدةٍ، وقد اختلجت حمرة غاضبة تعابيره:

-ده إنت اللي غلطان في حقها، وحالتها وحشة وآ...

قاطعه بعدم اكتراثٍ:

-يابا سيبك منها، دي ولية تجيب النكد.

توجهت أنظارهما نحو "سعاد" التي جاءت تجرجر ساقيها في ثقلٍ؛ وكأنها تحمل فوق ظهرها أثقالاً، تساءل زوجها أولاً بما يشله القلق، وهو يتفرس ملامحها الواجمة:

-مالك يا "سعاد"؟ سحنتك مقلوبة ليه إنتي التانية؟

ركزت عينيها مع ابنها، وخاطبته بصوتٍ اكتسب رنة حزنٍ:

-مراتك سقطت اللي في بطنها يا "فضل".

هتف "إسماعيل" مصدومًا:

-لا إله إلا الله، لطفك يا رب.

على عكسه بدا "فضل" غير مبالٍ، وقال بجمودٍ؛ وكأن خسارة الجنين ليس بالخطب الجلل:

-أحسن، خدت إيه من خلفتها يعني!!

هدر به والده في حرقةٍ:

-يا ابني إنت جبلة؟ اللي نزل ده من صلبك!

التفت يقول بنفس الأسلوب اللزج:

-نصيبه بقى، هعمل إيه يعني؟

علق "إسماعيل" رأس عكازه على ذراعه، وضرب كفه بالآخر مرددًا في نبرة بائسة متحسرة:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، استعوضت ربنا فيك وفي تناحتك.

جلست "سعاد" على المصطبة الخشبية، وأضافت في تحيرٍ:

-الواحد مش عارف ياخد بخاطرها إزاي، دي يا حبة عيني آ...

قاطعها "فضل" بأسلوبه المتنمر:

-يامه سيبك منها، متعمليش ليها قيمة، كده هتخليها تركب وتتنطط علينا.

استدارت ترمقه بنظرةٍ حادة، لتوبخه بعدها:

-ياخي ده بعدها عنك غنيمة، فالح تخلينا ناخد عدوات مع الناس.

رد بسخافةٍ أكبر:

-والله إنتي اللي ما عارفة تتعاملي مع الأشكال اللي زي دي.

انتفضت "سعاد" واقفة، وحدجته بنظرة مستاءة قبل أن تقول بتجهمٍ:

-أنا داخلة جوا بدل ما أقعد أسمع كلام يحرق الدم.

رسم ابتسامته اللزجة على ثغره، واستطرد:

-براحتك يامه.

تمهل في مخاطبة أبيه ريثما تغادر والدته المكان، ونهض واقفًا ليقترب منه، ثم تشدق قائلاً:

-بص يابا، أنا عايز أغير عتبة، والبت "سها" بقت فقر عليا، وجيبالي الهم.

سدد له نظرة محتدة قبل أن يزيد في تعنيفه المنزعج منه:

-شوف أنا بكلمه في إيه، وهو بيقول إيه؟!!

استقام في وقفته؛ لكن آلام جسده جعلته يعاود الانحناء، ثم بلع ريقه، وأخبره بما شبه التفاخر:

-أنا راجل، وأقدر أفتح بدل البيت اتنين وتلاتة..

توقف لهنيهة ملتقطًا أنفاسه ومراقبًا لردة فعله، ثم استأنف بعدها:

-وطالما مش مرتاح مع وش البومة دي، ليه ماتجوزش اللي تدلعني، وتشوف طلباتي؟

قست نظراته متسائلاً بنبرة لائمة:

-هي مراتك قصرت في حاجة؟ ده إنت جاي عليها أوي يا "فضل، ده بدل ما تقف جمبها وآ...

قاطعها ناعتًا إياها بعصبيةٍ:

-دي ولية نكد، وماتتعشرش..

ثم تقوست شفتاه عن ابتسامة ماكرة وهو يضيف:

-وبعدين الجديدة مش هتكلفني كتير، أخرها أوضة نوم عمولة، وكام هِدمة جديدة.

رمقه والده بنظرة احتقارية طالته من رأسه لأخمص قدميه قبل أن يهتف به:

-تصدق الكلام معاك يفور الدم.

همَّ بالتحرك مبتعدًا عنه؛ لكن صوتًا عاليًا استوقفه في مكانه حينما ناداه:

-حـاج "إسماعيل".

تنحنح مصدومًا لحضور والد "سها"، وقال بلجلجة محسوسة في صوته:

-يا أهلاً وسهلاً.. بالغالي، لسه.. كنت بتكلم مع ابني، وبأقوله.. لازمًا نروح ناخد بخاطر.. الغالية مراته، وآ....

قاطعه بتشنجٍ، وبانفعالٍ كبير:

-لا مرواح ولا مجي، ومعنتش عايز كلام ولا سلام، احنا نفضنا من الجوازة الهم دي.

حفظًا لماء وجهه، رجاه "إسماعيل" بهدوءٍ، عله يمتص غضبه المندلع:

-الكلام أخد وعطا، اسمع بس يا حاج، واقعد مش هنتكلم على الواقف.

تجاهل استجدائه الضمني، ورفع إصبعه في وجهه ينذره:

-خلي ابنك يطلق بنتي بالذوق، بدل ما أعمل فيه محضر- أبهدله، ده عشان العِشرة القديمة.

لعق شفتيه، واستعطفه:

-طب بس آ...

قاطعه بنفس الأسلوب الحاد:

-ومافيش سلامو عليكم.

انصرف الرجل مغمغمًا بكلماته الناقمة، فالتفت "إسماعيل" نحو ابنه يعنفه بغضبٍ:

-مبسوط دلوقتي؟

بدا منتشيًا من الأمر؛ وكأنه جاء على أهوائه، فعلق بسعادةٍ غريبة:

-جبت من عندهم، بكرة أتجوز ست ستها وأكيدها.

نظر له بنظراتٍ احتقارية، وردد في استهجانٍ وهو يتحرك مبتعدًا عنه:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، فوضت أمري فيك لله.

..................................................................................

جاء لرؤيتها في منزلها بعد انتهائه من استخراج إعلام الوراثة الخاص بزوجها الراحل، كان يسعى جاهدًا لتعويضها عما لاقته في غربتها، إيمانًا منه أنها تستحق الأفضل بعد تجربتها المؤلمة، لولا سوء حظها لكانت حظت بشريكٍ آخر غير "آسر"، فتذوقت معه رحيق الحب وتنعمت في ملذاته. ارتشف "ماهر" بضعة رشفاتٍ من فنجان قهوته، وعاد ليحدق بها وهي تتطلع إلى الورق الرسمي الذي قدمه لها بعد إنهائه للإجراءات القانونية بناءً على تفويضها الرسمي، تنهدت قائلة بغير رضا:

-برضوه يا "ماهر" بيه؟ مكانش في داعي.

رد بهدوءٍ:

-أيوه يا "فيروزة"، ده حقك الشرعي، ماينفعش ماتخديهوش.

أخفضت نبرتها لتخبره:

-حضرتك عارف الفلوس دي مصدرها إيه وجاية منين.

خبت نبرته هو الآخر عندما علق عليها:

-وأنا قولتلك قبل كده إنها من أملاكه اللي ورثها عن أهله ...

التوى ثغره بتعبيرٍ منزعج وهو يستكمل كلامه، ليوضح لها الصورة كاملة:

-يعني قبل ما يتلط في الشغلانة الهم اللي كان فيها.

لفظت دفعة من الهواء الثقيل عن رئتيها، وهمهمت في ترددٍ:

-مش عارفة أقول لحضرتك إيه.

أراح ظهره للخلف بعد أن أمسك بفنجانه، ونصحها مبتسمًا:

-ابدأي من جديد، وعيشي حياتك، الدنيا مابتقفش على حد.

أومأت برأسها قائلة:

-ربنا ييسر اللي فيه الخير.

لانت نبرته قليلاً وهو يرجوها:

-أنا بس عايز أطلب منك طلب، ده شيء شخصي شوية.

انعقد حاجباها إلى حدٍ ما في توجسٍ وهي تبدي ترحيبها:

-اتفضل، تحت أمرك.

أشار بسبابته مشددًا عليها:

-مهما حصل ماتخليش "علا" تعرف، مافيش داعي نتكلم في حاجة انتهت.

بلعت غصة الألم في جوفها، وأكدت له بابتسامةٍ مصطنعة، خبأت وراءها جراحًا لم تندمل بعد:

-أنا لسه على اتفاقي معاك يا "ماهر" بيه، اطمن.

ترك فنجان قهوته في الصينية، واستقام واقفًا، ثم تطلع إليها قائلاً بجديةٍ:

-عمومًا أنا موجود في الخدمة، ورقمي معاكي، وقت ما تعوزي أي حاجة اطلبيني على طول، ماتكسفيش مني يا "فيروزة".

وقفت هي الأخرى لترد عليه ببسمةٍ صغيرة:

-حاضر.

وقفت والدتها عند أعتاب غرفة الصالون وفي يدها طبقًا من الحلوى، تقدمت نحوه قائلة:

-اتفضل يا بيه، حاجة بسيطة كده يا رب تعجبك.

اعتذر من جودها بلباقةٍ:

-شكرًا يا حاجة، أنا يدوب هامشي.

اعترضت هاتفة:

-ما لسه بدري؟ ده احنا ملحقناش نعمل مع سيادتك الواجب؟

أصر على ذهابه بقوله المهذب:

-تتعوض وقت تاني، عشان ورايا شغل، عن إذنكم.

تنحت "آمنة" للجانب لتسمح له بالمرور، وتبعته "فيروزة" لتودعه وهي تقول من خلفه بودٍ:

-شرفت وأنست يا "ماهر" بيه.

.............................................................

-خلاص يا ابني جهزت حاجتك؟

تساءلت "ونيسة" بتلك العبارة وهي تلقي نظرة متفحصة على الحقيبة التي امتلأت عن آخرها بثياب ابنها، ساعدته في غلق السحاب، بعد وضع جوربًا نظيفًا في الجيب الأمامي لها. جلست على طرف الفراش، وراقبته وهو يحمل الحقيبة ليضعها بجوار دولابه. التفت "تميم" ناظرًا إليها ليرد بتنهيدة شبه متعبة:

-أيوه يامه، الحمدلله.

سألته في استغرابٍ حائر وهي تضع إصبعيها على طرف ذقنها:

-بس لازمتها إيه الهدوم دي كلها؟ هو إنت مهاجر على طول؟

ابتسم مبررًا لها بوجهه السَمح:

-عشان لو الهدوم اتبهدلت مني، مش معقول هالبس حاجة مش نضيفة؟

علقت بتبرمٍ:

-أنا مش فاهمة يعني، ناس مين دول اللي مش قادرين يمشوا الشغل من غيرك؟!

بِساطة أتاها رده:

-يا ستي حبايبي كتير، ووقت ما بتزنق واحتاج حد فيهم، بلاقيه في ضهري.

كان محقًا في هذا، فحينما تعرض لأزمته الأخيرة وجد عددًا من أصدقائه يقفون إلى جواره، يشدون من أزره، ويتسابقون في تلبية طلباته، مسحت "ونيسة" بيدها على ظهره في رفقت، وهتفت داعية له:

-ربنا يوقفلك ولاد الحلال، ويكفيك شر الطريق.

أمسك بكفها واحتضنه بين يديه وهو يرجوها:

-أبوه يامه ادعيلي.

قالت بعينين لامعتين:

-دعيالك والله، لساني مابيبطلش.

مال "تميم" على كتف أمه يقبلها منه، فأكملت في صوتٍ شبه خافت:

-وعقبال ما يكرمك ببنت الحلال اللي تستاهلك.

رفع رأسه لينظر إليها بابتسامة تفترش ثغره، وعيناه تنشدان استجابة قريبة من المولى لمناجاته المتواصلة، هسهس مؤمنًا عليها بين جوارحه:

-يـــا رب.

.........................................................

بعد وقت الظهيرة بقليل، خرجت كلتاهما معًا، تمشيان الهوينا، وتتأبطان ذراعيهما، على الرصيف الذي يعج بمحال شراء الثياب المختلفة، والقريب من طريق الكورنيش. ألقت "فيروزة" نظراتٍ خاطفة على الواجهات المزدحمة بأحدث ما أنتجته بيوت الأزياء والموضة العالمية، تساءلت وعيناها معلقتان على إحدى البلوزات اللامعة:

-مقولتليش بقى رايحين فين؟

سحبتها "همسة" للأمام؛ وكأنها تجرها، بعد أن تباطأت في سيرها، لترد بغموضٍ:

-هتعرفي، احنا قربنا نوصل خلاص.

أدارت توأمتها رأسها نحوها، وحذرتها بلهجةٍ لم تكن متساهلة:

-بلاش تمشي كتير، الدكتور منبه عليكي، مش عايزينك تتعبي مننا.

قالت في تذمرٍ:

-هو أنا بقيت بأعمل حاجة أصلاً، الشهادة لله "هيثم" شايل عني كتير طول ما هو في البيت، وفي الفترة اللي مش موجود فيها بأخد بالي من مامته.

لمحة من السرور انطبعت على صفحة وجهها وهي تخاطبها:

-ربنا يجعل تعبك معاها في ميزان حسناتك.

-إن شاء الله ..

تابعت الاثنتان السير المتهادي إلى أن هتفت "همسة" بحماسٍ، ويدها تسبقها في الإشارة نحو أحد المحال:

-وصلنا.

حملقت "فيروزة" بدهشةٍ متعجبة في المعروضات المعلقة على جانبي المحل، والتفتت تسألها بتعابيرٍ مليئة بعلامات الاستفهام:

-إنتي هتجيبي إيه من هنا؟

سحبت شقيقتها نفسًا عميقًا عبقت به صدرها، قبل أن تطرده، لتقول بعدها بكلماتٍ متأنية:

-بصي يا ستي، أنا بصراحة كده مكسوفة أوي من نفسي، يعني ربنا –سبحانه وتعالى- كرمني بحاجة، مكونتش متخيلة إنها تيجي كده على طول، من غير تعب ولا انتظار، ولا حتى مشاكل، فإزاي أبقى مقصرة معاه وهو كان كريم معايا؟

انفرجت شفتاها متسائلة في دهشة أكبر:

-إنتي ناوية آ...

بادرت "همسة" بإتمام باقي جملتها عنها، بإعلانها الصريح والواثق:

-أتحجب.

سألتها في ذهولٍ:

-بجد؟

أكدت بابتسامة ارتياحٍ:

-أيوه، وعقبالك إنتي كمان يا "فيرو".

نظرت لها بعينين أظهرت افتخارها بها، وقالت بعد لحظة استغرقتها في التفكير:

-تعرفي، طول عمرنا بنعمل كل حاجتنا سوا، ودي أول مرة تسبقيني فيها بالتفكير في حاجة.

ضحكت وهي تعلق عليها:

-مرة من نفسي.

ضيقت "فيروزة" عينيها، وقالت بإيماءة من حاجبها:

-بس مش هاسيبك لوحدك، هتحجب معاكي.

شهقة غبطة انفلتت من جوفها، كتمتها بكلتا يديها، قبل أن تخفضهما قليلاً، لتسألها بقلبٍ يدق في بهجةٍ عظيمة:

-بتكلمي جد؟

جاءها جوابها مقتضبًا وحاسمًا:

-أيوه.

احتضنتها دون تمهيدٍ، وعبراتٍ فرحة تتسلل إلى مقلتيها، ظلت تضمها إلى صدرها وهي تتمتم بنفس النبرة السعيدة:

-الله، أنا فرحانة أوي أوي، ربنا ما يحرمنا من بعض.

تراجعت عنها "فيروزة" لتنظر إلى وجهها الضاحك الباكي وهي تقول في حرجٍ:

-طب بس بقى عشان الناس بتتفرج علينا.

هتفت غير مبالية وهي تعاود احتضانها:

-يتفلقوا، فرحتي بيكي أكتر من فرحتي بنفسي.

.........................................................

بداخل غرفة العمليات المعقمة، استلقى بظهره على الطاولة الطبية التي تنتصف المكان، وهو يشعر بدفعة من التوتر الكبير تجتاح جسده. حُجته المرتبة لإقناع عائلته أنه مسافر لبعض الوقت لاقت مردودًا طيبًا، ولم يسترِيب أحدهم في أمره. تأكد بعدها من نقل حقيبته التي ضبها لمنزل زيجته الأولى؛ كان الاختيار المناسب للمكوث به خلال فترة تعافيه القادمة، وملأ الثلاجة بما قد يحتاج إليه من طعام ولا شراب يكفيه لمدة أطول، فلا يضطر للنزول وهو في حالته تلك. ابتلع "تميم" ريقه في حلقه الجاف، محاولاً الحفاظ على انضباط أعصابه القلقة، وتابع بنظراتٍ شبه مراقبة ما يدور حوله من حركة دقيقة للتأكد من تجهيز ما يلزم لإجراء عمليته الجراحية. أقبل الطبيب عليه وهو يخفي معظم وجهه بقناعه الطبي، سأله بنبرته الهادئة:

-جاهز يا أستاذ "تميم"؟

قال وهو يدير رأسه في اتجاهه:

-إن شاءالله.

تابع مطمئنًا إياه:

-مش عايزك تقلق، الموضوع بسيط، وبأمر الله يعدي على خير.

غمغم بنبرة شابها القليل من الاضطراب:

-الله كريم.

عاد ليسأله وهو يوليه ظهره:

-في حد مستنيك لما تخلص؟

بعد لحظة من التفكير جاوبه:

-أنا مرتب أموري.

استدار ينظر إليه مرة أخرى وهو يملي عليه نصائحه الجادة:

-تمام، وأنا عايزك تلتزم باللي قولتلك عليه بعد العملية، ويا ريت تخف موضوع التدخين ده كمان، لأن ليه تأثيره على إنتاج الـ Sperms، وأكيد مش عايزين حاجة مضرة زي دي تبوظ اللي بنعمله.

ضم شفتيه في اعتراضٍ ملحوظ، وتكلم بعد هنيهةٍ:

-هشوف الموضوع ده بعدين، نخلص بس من الحاجة الأولانية، ونشوف اللي بعدها.

هز رأسه في تفهمٍ، واقتضب قائلاً:

-مافيش مشكلة.

بعد نفسٍ عميق سحبه إلى داخل صدره، أرخى "تميم" عضلاته المتشنجة نوعًا ما، وحملق في الإضاءات القوية التي تعتلي رأسه. ردد بصوتٍ خفيض، وهو يطبق على جفنيه، مستحضرًا في ذهنه طيف وجهها المبتسم في نعومة ورقة، حينما التقاها في مرته الأخيرة:

-توكلت على الله ............................................... !!

..................................................

## الفصل الثامن والتسعون

تأويهة متألمة وجدت طريقها من بين شفتيه المنفرجتين قليلاً، وهو يدير رأسه بحركة لا إرادية للجانبين، ليجبر عقله على الإفاقة من الغيبوبة الغارق فيها. صوتًا مبهمًا، ظل يناديه لبضعة مرات، مما دفع إدراكه للتيقظ الكامل. وبثقلٍ ملحوظ على جفنيه جاهد "تميم" لفتحهما؛ كانت الرؤية مشوشة في البداية، بدا من يُحادثه -بلطفٍ وعن قربٍ- طيفًا غير واضح المعالم؛ لكن سرعان ما لبث أن ظهرت قسماته بوضوحٍ تدريجي، حتى تبين له أنه وجه طبيبه المعالج هو من يخاطبه. نطق الأخير بابتسامةٍ بشوشة بعد أن وجد منه استجابة معقولة:

-حمدلله على سلامتك يا أستاذ.

سأله "تميم" بصوته الذي ما زال ثقيلاً:

-إيه أخبار العملية؟

أجابه بنبرة مطمئنة:

-الحمدلله تمت على خير، وإن شاء الله مع استمرار المتابعة والعلاج تحقق نتيجة كويسة.

تقوست شفتاه عن ابتسامةٍ متعبة وهو يعلق عليه:

-الحمدلله، كله خير من عند ربنا.

سأله الطبيب مستفهمًا من جديد:

-في حد منتظرك عشان يوصلك لبيتك؟

صمت لبرهةٍ قبل أن يأتيه جوابه محايدًا:

-أنا مظبط أموري.

هز رأسه في استحسانٍ:

-طيب تمام، وحمدلله على سلامتك .

همَّ بالتحرك؛ لكنه توقف في منتصف المسافة ليسأله بفضولٍ:

-مين "فيروزة" دي اللي كنت عمال تنادي عليها وإنت في الإفاقة؟

تبدلت قسماته المرهقة للضيق والحرج، ولاحظ الطبيب ذلك التغيير المرئي على ملامحه، فاعتذر منه بلباقةٍ:

-مقصدش اتطفل على أمورك، عن إذنك.

لم يعقب عليه "تميم" واكتفى بنظرة مزعوجة سددها له، ثم أشاح بوجهه بعيدًا عنه ليحملق في السقف، ولسانه ينطق سرًا بأملٍ يزداد مع مرور الأيام:

-دي اللي هاتجوزها إن شاء الله.

.............................................

التفافة نصف دائرية بمقود سيارته جعلته ينحرف عن الطريق الرئيسي المزدحم بالعربات إلى آخر أقل زحامًا. صف "سراج" سيارته – الربع نقل- بمحاذاة

الرصيف، وترجل منها ليستند بظهره على الباب، وهاتفه موضوع على أذنه. بدا وجهه متجهمًا وهو يخاطب المتصل:

-يا حاج "عوف"، احنا متفقين على السعر معاه من بدري، مايجيش دلوقتي ويغير الكلام عشان احنا في وقت زنقة، دي مش أصول شغل؟!

ظلت تعابيره غائمة وهو ينصت إليه قبل أن يستأنف مكالمته معه:

-أنا هاخد التوريد منه المرادي، بس مايزعلش لما أدور على غيره، وأخد البضاعة اللي أنا عايزها بسعر أقل.

كان صوت زفيره مسموعًا قبل أن يكمل:

-يا حاج كلامك فوق راسي، بس الشغل شغل.

بنفس التعابير المتجهمة اختتم الاتصال بقوله:

-ماشي يا حاج "عوف"، على تليفون، مع السلامة.

ظل "سراج" يغمغم بكلماته المتبرمة وهو يستدير نحو مقدمة سيارته. لمح على مدى بصره – مصادفة، آخر من توقع رؤيته على الجهة المقابلة، يرتدي على غير العادة جلبابًا، ويسير على مهلٍ وبخطوات شبه متباطئة، وهو مستند بكف يده على الحائط. تلقائيًا ردد لسانه في دهشة:

-معلم" تميم"!

انعقد حاجباه متسائلاً:

-هو بيعمل إيه هنا؟!

دون إضاعة الوقت في تخمين سبب تواجده عند المركز الطبي الشهير، عبر الطريق متجهًا إليه وهو يناديه عاليًا ليلفت انتباهه إليه:

-معلم "تميم".

استدار الأخير برأسه ناحية مصدر الصوت المألوف، وعلامات الدهشة مرسومة على قسمات وجهه. بدا غير مستريحٍ لرؤيته، على الأحرى مصدومًا لتواجده، وسأله بوجوم:

-"سراج"، بتعمل إيه هنا؟

أجابه بنفس النبرة المتسائلة:

-ده أنا كنت جاي أسألك نفس السؤال يا معلم، خير في حاجة؟

لاحظ "سراج" تقلص عضلات وجه "تميم"، وظهور الإعياء عليه، فسأله في توجسٍ:

-إنت كويس، فيك حاجة؟

جاءه رده عائمًا:

-الحمدلله.

زادت الشكوك بداخل "سراج" عندما وجده يستند على الحائط ويحاول هبوط الدرجات بحذرٍ شديد. بادر بتقديم المساعدة له وهو يصر عليه:

-هات إيدك يا معلم.

لم يتردد في الاستناد عليه بعد انتهاء امتداد الحائط الحجري، اتكأ "تميم" على ساعده إلى أن هبط عن كامل درجات السلم الرخامية، فطلب منه وهو يشير برأسه:

-وقفلي تاكسي.

اعترض بإصرارٍ:

-ودي تيجي؟ العربية موجودة هناك أهي.

هز رأسه بالرفض، فدقق "سراج" النظر في ملامحه المتعبة، وسأله في قلقٍ:

-يا معلم "تميم" إنت كويس؟ طمني عليك بس، لو في حاجة قولي، وأنا أساعدك.

شكره بوجهه الشاحب:

-كتر خيرك...

ثم ادعى كذبًا، ليتجنب أسئلته التحقيقية:

-أنا مافياش حاجة.

اقترح عليه الأول باهتمامٍ:

-طب أوديك عند الجماعة؟

راح "تميم" يخبره برفضٍ قاطع؛ وكأن في حدوث هذا كارثة كبيرة:

-لأ.

تعقدت تعابير "سراج" باستغرابٍ، فأوضح له "تميم" بوجهٍ متقلص من الألم الذي يعانيه:

-أنا رايح مكان تاني، وقفلي تاكسي الله يكرمك.

استمر على اعتراضه المستنكر قائلاً:

-تاكسي إزاي وإنت في الحالة دي؟!

أشار له بذراعه مكملاً إصراره عليه:

-تعالى بس وأنا هوديك مطرح ما إنت عايز.

لم يستطع المناص منه، لذا رضخ لإلحاحه وسار معه بخطواته المتمهلة نحو سيارته، وبحرصٍ مبالغ فيه جاهد ليستقر في المقعد كاتمًا أنينه قدر المستطاع. لم يتطفل عليه "سراج"، واحتفظ بأسئلته الفضولية داخل نفسه، وما إن وجده قد جلس أخيرًا حتى بادر بسؤاله:

-على فين العزم؟

أجابه مشيرًا بعينيه للأمام:

-اطلع على بيتي القديم.

حل المزيد من الدهشة على قسماته، ومع هذا لم يطرح أي أسئلة مزعجة عليه، بل كبت فضوله، وقال مبتسمًا:

-ماشي يا معلم "تميم".

...............................................................

شعرت بنفحات خفيفة من الهواء الساخن تضرب جانب صدغها، فدفعتها للانتباه من غفلتها المؤقتة، واستعادة إدراكها الحسي بما حولها. فتحت "همسة" عينيها بتكاسلٍ وهي تدير رأسها في اتجاه مصدر الهواء الغريب، انتفضت ناهضة من رقدتها في فزعٍ انعكس على كامل ملامحها، حينما رأت "بثينة" تنظر لها عن قربٍ مخيف. اعتدلت ناظرة إليها في توجسٍ حائر، زادت انتفاضتها مع شعورها بقبضةٍ محكمة على رسغها، انخفضت نظراتها نحو يدها المتشبثة بها، وخفقات قلبها تتسارع. استلت ذراعها بحذرٍ من قبضتها برجفة خفيفة، وأرجعت ظهرها للخلف لتلصقه بعارضة الفراش وهي تسألها بصوتٍ ظهر مهتزًا:

-اعملك حاجة يا طنط؟

بالطبع لم يكن من المتاح أن تجيبها لظروفها الحالية؛ لكن نظراتها الغامضة نحوها أوحت لها بشيء مخيف. ازدردت ريقها في توترٍ محسوس، ولعقت شفتيها متابعة كلامها الموجه إليها:

-ده آ... "هيثم" زمانه جاي، و... آ هيقعد معاكي.

حدجتها "بثينة" بنظرة أكثر غرابة عن ذي قبل، فحاولت الظهور بمظهرٍ متماسك أمامها، وأضافت:

-تحبي نستناه سوا؟

استمرت في تحديقها بها للحظاتٍ قبل أن تنصرف بعدها، وهي تغمغم بلسانٍ لا ينطق إلا بكل ما هو مبهم. تنفست "همسة" الصعداء، وارتخت عضلات جسدها المتشنجة. بقيت أنظارها معلقة على أثرها للحظاتٍ مستشعرة تلاحق دقات قلبها، تنهدت بعمقٍ لتهدئ من روعها، فركت رسغها براحة يدها متسائلة مع نفسها بصوتٍ خفيض:

-يا ترى كانت عايزة إيه مني؟!

.....................................................

باستمتاعٍ ظاهر على وجهه، نفخ "فضل" دخان نارجيلته في الهواء وهو يضبط وضعية حجر الفحم ليزيد من وهجه. لم تتغير قسماته المرتخية، وبدا هادئًا لأقصى حد ووالده يصيح متسائلاً باهتياجٍ:

-عملت اللي في دماغك بردك يا "فضل"؟

كان على علمٍ مسبق بأسباب غضب والده منه، فقد انتهى اليوم من الإجراءات القانونية للانفصال عن زوجته، ضاربًا برغبة والده في إعادة لم الشمل واستعادة الود عرض الحائط، بالرغم من توصيته له بعدم فعل أي شيء متهور دون الرجوع إليه. زجره "إسماعيل" بعصبيةٍ:

-خلاص مابقاش عندك كبير ترجعله؟ بتطلق بنت الناس كده على طول؟

كان رده عليه باردًا لأقصى الحدود:

-ده هم وانزاح من على قلبي.

هدر به بصوته المنفعل:

-وأبوك مالوش قيمة عندك؟ كده تصغرني قصاد نسايبك؟

هتف في سماجةٍ وهو يواصل تدخين النارجيلة:

-قصدك اللي كانوا، خلاص المولد اتفض...

حدجه أباه بنظرة نارية عندما أكمل:

-وبعدين يابا إنت تزعل مني لو كان حد يستاهل؛ لكن الولية دي ماتسواش، دي لامؤاخذة مقلعهاش من رجلي.

حذره بغيظٍ وهو يشير بعكازه:

-عيب تكلم عنها كده، مهما كانت دي أم عيالك. بشفاه مقلوبة عقب عليه:

-هي غارت في ٦٠ داهية خلاص، وعيالي هياخدوا حقهم وزيادة مني، مش هقصر معاهم في مليم.

ضرب "إسماعيل" جانب جسده بذراعه، وقال في يأسٍ، وتلك النظرة الناقمة تسيطر على ملامحه:

-فوضت الأمر فيك لله.

بسمة لزجة احتلت فمه وهو يخبره بتلميحٍ ضمني:

-يا حاج انسى، وخلينا نركز في اللي جاي.

ضاقت عينا والده بشكٍ مستريب، وسأله مباشرة:

-إنت شكلك بتنمر على إيه كده؟ هات اللي في بطنك يا "فضل".

ترك الأخير خرطوم نارجيلته جانبًا، ونهض ليقف قبالته قبل أن ينطق بوجهٍ لم يكن مريحًا مطلقًا:

-من الآخر كده يابا أنا عايز أتجوز بنت عمي.. "فيروزة".

.................................................................

بيدٍ مرتجفة تمكن من إخراج المفتاح من جيبه، ثم دسه في قفل باب منزله، ليديره بعدها، وبمساعدة بسيطة من "سراج" فتحه على مصراعيه، ليلج الاثنان إلى الداخل. التفت "تميم" للجانب نحو ضيفه، وقال مبتسمًا:

-كتر خيرك يا "سراج"، تعبتك معايا.

علق عليه بجدية:

-متقولش كده يا معلم، هو أنا عملت حاجة أصلاً.

اكتست تعابير "تميم" بالجمود وهو يطلب منه:

-بأقولك يا "سراج"..

ردد الأخير متسائلاً في نبرة مهتمة:

-خير يا معلم؟

اكتسب صوته المزيد من الجدية وهو يخبره:

-مش عايزك تجيب سيرة لمخلوق إني موجود هنا...

تطلع إليه في دهشة، بينما شدد الأول على باقي جملته ونظراته قد تحولت للصرامة:

-وخصوصًا أهل بيتي.

قطب جبينه معترضًا:

-بس آ....

قاطعه مبررًا بأسلوبه الصارم:

-هما عارفين إني مسافر، مافيش داعي تقول إنك شوفتني هنا.

رضخ لأمره، وقال بنوعٍ من الحيرة:

-حاضر، بس أنا مش فاهم حاجة، هو إنت فيك إيه بالظبط؟

حمحم قبل أن يخبره بحرجٍ ملموس في صوته:

-عملت عملية بسيطة، ومش عايز حد يقلق عليا، يومين وهبقى كويس، وإنت عارف الجماعة عندي بيكبروا المواضيع.

قال ممازحًا:

-فكرتني وقت ما ركبت شريحة ومسامير في ركبتي بعد الخناقة إياها، كانت هيصة وهوليلة.

فهم تلميحه المبطن عن شجارهما العنيف، وعقب باقتضابٍ:

-كله بيعدي.

رد عليه بوجهه المبتسم:

-الحمدلله، ربنا كريم، وبيسترها معانا...

عاد ليتناقش معه في موضوعهما الأساسي:

-المهم أنا بس مش حابب أسيبك لوحدك.

أصر على ذهابه بقوله:

-أنا بخير، متقلقش.

ألح عليه بعنادٍ:

-طب قولي ناقصك إيه وأجيبهولك؟

تمسك برفضه قائلاً:

-خير ربنا موجود، تسلم.

لم يتراجع عن تشبثه برغبته، وأصر عليه:

-لا وربنا ما يحصل، أنا رقبتي سدادة، قولي بس، ده احنا زي الأهل.

تقوست شفتاه عن بسمة صغيرة وهو يشكره:

-ابن أصول، متشكر.

تحرك كلاهما في اتجاه الردهة ليتجها نحو غرفة النوم، ساعده "سراج" ليصل إلى الفراش، ويتمدد عليه، ثم استأنف حديثه معه:

-طب إيه رأيك لو وصيت الحاجة أمي تعملك أحلى أكل يرم العضم.

بلباقةٍ رفض طلبه السخي:

-مافيش داعي أنا عامل حسابي.

أصر عليه بشدة:

-لأ كله إلا كده، دي تبقى عيبة في حقي، وربنا مايحصل أبدًا.

هتف مجاملاً:

-بيت كرم، بس حقيقي أنا مش عاوز حاجة، سيبني بس ارتاح.

لم يضغط عليه، وخاطبه بنفس أسلوبه المهتم:

-طيب أنا رقمي معاك، واسمحلي كده اتصل وأشقر عليك.

أومأ برأسه وهو يقول:

-مافيش مشكلة.

أشار "سراج" بيده نحو الكومود المجاور للفراش موضحًا:

-الدوا أنا حطيته جمبك أهوو عشان يبقى قريب منك.

هتف في استحسانٍ مقتضب:

-تمام.

ودعه "سراج" بنفس مشاعر الود والعشم:

-أسيبك في رعاية الله، وسلامتك يا معلم "تميم".

رد يشكره بابتسامةٍ صغيرة:

-الله يسلمك، نردهالك في الفرح.

قال ضاحكًا:

-الله يجعل الجاي من أيامنا كلها فرح.

اكتفى بالابتسام المجامل له، وودعه مجددًا قبل أن يغادر ضيفه المنزل، ليبقى بعدها بمفرده. وسَّد "تميم" ذراعه خلف رأسه، وتساءل مع نفسه في حيرة:

-والله شكلي ظلمتك زمان، وماسمعتش كلام جدي لما قالي محكمش على حد من الكلام.

..................................................

عاد من عمله مرهقًا، ومع هذا لم يظهر ضجره من سماعه لشكوى زوجته المريبة بشأن والدته، بل بدا مهتمًا بمعرفة المزيد عن تصرفاتها مؤخرًا. اتجه "هيثم" إلى حيث تنام "بثينة"، فوجدها تغط في نومٍ عميق، دنا من فراشها، وسحب الغطاء عليها ليدثرها جيدًا، واستدار عائدًا إلى زوجته الواقفة عند أعتاب الغرفة. أشار لها بعينيه لتتحرك بعيدًا، واستطرد قائلاً بصوتٍ خافت:

-هي نايمة، وشكلها غطسان في النوم كمان.

ردت عليه" همسة" مؤكدة بلمحة من الانزعاج:

-والله العظيم كانت صاحية من 5 دقايق، وعملتلها شوربة سخنة تشربها دلقتها على الأرض، وبعد كده نضفت المكان.

حك مقدمة رأسه هاتفًا في تخبطٍ:

-غريب اللي بتقوليه ده!!!

أخبرته بتشنجٍ طفيف مبدية استنكارها لما يحدث:

-والله ده اللي حصل يا "هيثم"...

لم تتوقف عند هذا الحد، وأفصحت له عن مخاوفها، لذا عبرت له دون احترازٍ:

-ومكدبش عليك أنا بصراحة بقيت قلقانة من اللي بيحصلها، تصرفاتها بقت تخوف.

صمت مليًا ليفكر في الأمر قبل أن ينطق أخيرًا:

-طيب لو ده اتكرر انزلي عند خالتي تحت، وخليها تطلع معاكي تشوفها.

وجدت اقتراحه مناسبًا، فتنهدت قائلة بقليلٍ من الارتياح:

-ماشي.

بينما تابع "هيثم" كلامه معها:

-وأنا برضوه هكلم الدكتور اسأله، جايز يفيدني بحاجة.

استحسنت قراره وأيدته:

-كده أحسن.

دفعها "هيثم" من ظهرها للأمام وهو يطلب منها:

-طب تعالي عشان ناكل مع بعض.

ابتسمت في نعومة وهي ترد:

-ماشي يا حبيبي.

..................................................

في شرفة المنزل، وبعد استغراق خالها وابنته في النوم، جلست كلتاهما معًا ترتشفان الشاي الساخن بها. تطرقت "فيروزة" لموضوع شغل تفكيرها كثيرًا في الفترة الأخيرة، احتفظت بتفاصيل فكرتها لنفسها، إلى أن تخمرت جيدًا في رأسها، واتضحت كامل معالمها لها، تبقى لها فقط مفاتحة والدتها في الأمر، والشروع في تنفيذها على أرض الواقع. كانت فكرة العمل الجديد الذي استحوذ على اهتمامها تدور حول تشغيل الدكان الذي منحه الحاج "بدير" للعائلة في تغليف الهدايا، وتجهيز متعلقات السبوع والخطبة الأسرية بتكاليف تناسب الجميع. لم تبدُ "آمنة" مقتنعة بقدرتها على إدارة هذا العمل -وما يرتبط به من أعباء وتوابع قانونية وحسابية- بمفردها، لهذا عارضتها بتخوفٍ غريزي:

-مالوش لازمة يا "فيروزة".

هتفت محتجة:

-ليه بس؟

-هو إنتي ناقصة وجع دماغ؟ ده غير رزالة الزباين.

قالت عن ثقة واضحة:

-يا ماما دي مش أول مرة اعمل فيها مشروع، وأنا بأعرف إزاي مع الزباين.

جاءها تعليقها محذرًا من وجهة نظرها:

-بس شوفتي حصل إيه في الآخر؟ بلاش نعيده تاني.

قالت في هدوءٍ لا يخلو من الإصرار:

-المرادي غير.

تمسكت باعتراضها عليها، وهتفت في وجوم:

-بس يا بنتي آ...

قاطعتها على الفور قبل أن تستبد بها هواجسها:

-يا ماما، ده أحسن حل لينا كلنا، وخصوصًا في الظروف اللي احنا فيها دي.

بنفس الوجه المنزعج قالت:

-ما هي مستورة والحمدلله.

خاطبتها بهدوءٍ لتقنعها:

-طبعًا يستاهل الحمد على كل حال، بس إنتي فاهمة كويس إن المصاريف مش هتكفي كل الالتزامات اللي علينا.

علقت عليها بنبرة تحولت للجدية:

-خالك ربنا يشفي عنه أنا خلصتله ورق معاشه، واهوو القرشين بتوعه هيساعدوا مع الإيراد، وآ....

مجددًا قاطعتها في تزمتٍ:

-واحنا مش هنفضل نستنى الحسنة اللي بيديهالنا عمي كل كام شهر...

سرعان ما غلف صوتها غصة جاهدت لإخفائها عندما تابعت:

-ده غير البغل اللي ما يتسمى "فضل"، لازم هيطلعلنا بمليون حجة عشان تيجي الفلوس ناقصة، دي دماغه سم، وأنا مجربة أذيته بالذات في أكتر من حاجة.

فهمت والدتها ما ترمي إليه، فاعتذرت منها بندمٍ حقيقي:

-حقك عليا يا "فيروزة"، يا ريتني وقفت لابن عمك زمان.

هتفت ترجوها في ضيقٍ:

-قفلي على السيرة دي يا ماما.

أومأت برأسها قائلة:

-حاضر...

لكن ما لبث أن انعكست رنة القلق في صوتها وهي تكمل:

-بس هو إنتي مكتوب عليكي الشقا والبهدلة بعد ده كله؟!

استنكرت وصفها قائلة:

-بهدلة ليه ودي أصلاً حاجتنا؟!

نظرت لها والدتها بنظراتها المتوترة، بينما واصلت "فيروزة" محاولاتها المضنية لإقناعها:

-وبعدين بدل ما أنا أعدة كده في البيت لا شغلة ولا مشغلة، أهوو هعمل حاجة أنا كويسة فيها.

سألتها باسترابة:

-يعني إنتي واثقة إنك هتنجحي؟

أجابتها بعد زفيرٍ طويل:

-أنا هعمل اللي عليا والباقي على ربنا.

دعت لها "آمنة" برجاءٍ:

-ربنا يكتبلك كل اللي فيه الخير.

أخبرتها وهي تنهض من على كرسيها:

-أنا هاكلم "ماهر" بيه اسأله على الإجراءات بتاعة عمل السجل التجاري، جايز يعرف حد يساعدني.

التفتت برأسها لتتبعها وهي ترد:

-ربنا يكرمه، بني آدم ابن حلال مصفي، مايتخيرش عن جوزك الله يرحمه.

تسمرت في مكانها لهنيهة، والتوى ثغرها عن نصف ابتسامة متهكمة، تنفست بعمقٍ، وغمغمت في سخرية مريرة:

-أه طبعًا، إنتي هاتقوليلي.

..............................................

على مدار بضعة أيامٍ، واظب "تميم" على تناول أدويته، ورعاية نفسه بمساعدة "سراج" الذي أثبت له حسن نواياه، والتزامه بعهده معه بعدم إطلاع أي فرد من عائلته عن عمليته ريثما يكتمل شفائه، ويتعافى بشكلٍ يمكنه من التحرك بصورة طبيعية دون أن يثير الشكوك حوله، ناهيك عن إحضاره للطعام المطهو منزليًا يوميًا ليتغذى جيدًا. ما لفت انتباهه الأيام المنصرمة -أو الأحرى ما توقعه- هو اختفاء كافة المشغولات الذهبية، والأشياء الثمينة من الأدراج، والتي كانت السبب بالطبع في مقتل طليقته "خلود"، في حين بقيت كافة الثياب كما هي في الدواليب، وكذلك متعلقاتها الشخصية، وحتى ما يخصه ظل في مكانه، وكأن ما كان يهمها حقًا هو الذهب دونًا عن غيره.

تحرك "تميم" بتؤدةٍ نحو التسريحة، يبحث عن مسكنٍ بديل بعد أن نفذ خاصته، فتش في الأدراج الجانبية، حيث اعتاد ترك الأدوية بواحدٍ منهم، لم يجد شيئًا؛ لكن تجمدت نظراته على الملف الطبي الموضوع به، أخرجه ليلقي

نظرة فاحصة على ما دُوّن فيه، خاصة بعد أن قرأ اسم "خلود" أعلاه، وتساءل مع نفسه:

-وده متساب هنا ليه؟

عاد إلى الفراش ليجلس على طرفه، وبدأ في مطالعته بتريثٍ، وجد صعوبة في فهم الرموز الطبية، والمصطلحات المستخدمة لتقييم حالتها. انتابه الملل مع زيادة إحساسه بعدم استنباط ما تحويه الأوراق، كاد يترك الملف برمته جانبًا لولا أن لمح ملحوظة جانبية، مكتوبة بالقلم الحبري، وباللغة العربية في آخر صفحة، بعد الأسطر المكتوبة باللغة الإنجليزية كترجمة لها، وتحديدًا في السطر الأخير. قرأها "تميم" بصوتِ عكس صدمته:

-يرجى تحديد موعد أقصاه يومين على الأكثر لإجراء عملية الإجهاض، ويوصى بكحت الرحم لإزالة آثار الجنين الميت.

برقت عيناه بلمعانٍ مذهول، قبل أن يردد في صدمةٍ، والأحداث السابقة التي تخص اتهام ابنة خالته لـ "فيروزة" تتزاحم في عقله:

-يعني "خلود" كانت عارفة إنه ميت من الأول، وخبت الحقيقية دي عليا، وعلى الكل ............................................................ ؟!

............................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل التاسع والتسعون

لحظات من التشتت الذهني عاشها بمفرده، وهو يسترجع شريط الذكريات، وكأنه يُنشط ذاكرته بما أراد تناسيه بعد وفاتها. إحساسه بالندم، وتأنيب الضمير اضمحلا بدرجة كبيرة، حتى شعوره بالإشفاق عليها لقتلها بشكلٍ مأساوي أصبح غير موجودٍ، فمن كانت في يومٍ ما زوجته، لم تملك نية الإخلاص في البوح بالحقائق المصيرية التي تخص كلاهما، متجاهلة حقه الشرعي في معرفة ذلك، ربما كان في موتها رحمة للجميع!

جعلته صدمة المفاجأة حانقًا على ما هو متعلق بها، بدا "تميم" ناقمًا على كذبها وخداعها، بل والأسوأ من ذلك، قدرتها العجيبة على إلقاء التهم الباطلة على الأبرياء، غير عابئة بالظلم الواقع على غيرها. زاد الاشتعال في صدره، وجعل معدته تتقلص من الاحتراق، تنفس بعمقٍ ليهدئ من الانفعالات الثائرة المتجمعة بداخله، طوى الأوراق الموجودة بين يديه، وخاطب نفسه في سخطٍ:

-مالوش لازمة العتاب واللوم.

ضغط على شفتيه كاتمًا أنفاسه الغاضبة، ثم حررها دفعة واحدة، وتابع حديث نفسه:

-كل واحد خد جزائه في الآخر.

انتصب بكتفيه، وبحرصٍ ما زال يلازمه نهض عن الفراش برويةٍ، ليتحرك بعدها في اتجاه التسريحة واضعًا الأوراق بأحد الأدراج العلوية. عقد "تميم" النية

على تجاوز تلك المرحلة المتخمة بكل تلك الأحداث الموجعة، وأكد لنفسه من جديد، كنوعٍ من التحفيز المعنوي:

-خلينا نركز في اللي جاي.

تلقائيًا تجسد طيف وجه طاووسه في مخيلته، جاعلاً البسمة تزحف على شفتيه، خاصة مع اعتصاره لعقله ليستعيد ذكرى رؤياها عن قربٍ، فكانت السلوى له في عزلته الإجبارية، وهونت عليه ما اعترى صدره من آلام وأحزان. تلاشت صورتها الناعمة حينما ورده اتصالاً هاتفيًا من والدته، فأخذ نفسًا عميقًا يشحذ به قواه استعدادًا لمكالمة طويلة يسرد لها عبرها عن تفاصيل يومه المشحون بأحداثٍ وهمية، على أمل أن تنطلي عليها حجة انخراطه في العمل.

.......................................................

إلحاحه العنيد، وتمسكه بتلك الرغبة الغريبة في الزواج بابنة عمه، بدلاً من رأب الصدع مع زوجته السابقة، جعل والده يستنكر محدودية تفكيره، وانسياقه وراء ما اعتبرها نزواته اللحظية. حدجه "إسماعيل" بنظرة دونية مليئة بالغل، وهدر به يوبخه بصوته المرتفع:

-إنت اللي جوا دماغك ده فِجل مش مخ.

عبس "فضل" بملامحه، ورد في تبرمٍ:

-ليه بس يا حاج؟ هو الجواز بقى حرام اليومين دول؟

جاءه رده مباشرًا ومحملاً بالاستهجان:

-حرام للي زيك، يتجوز، ويطلق، ويرمي عياله لغيره يربيهم.

هتف مستنكرًا كلامه المنطقي:

-ده بدل يابا ما تشكرني إني بلم عرضنا، ولحمنا.

سأله في غيظٍ:

-واللي رميتهم دول مش لحمك وعرضك؟

انبعجت شفتاه عن تعبير ناقمٍ، بينما تابع والده توبيخه:

-المفروض تصلح الغلط اللي عملته بدل ما بتفكر تتجوز تاني، روح رجع مراتك ولم عيالك في حضنك، ده الأهم دلوقتي.

غمغم في استياءٍ، ووجهه ما زال متجهمًا:

-يادي أم السيرة الفقر، يابا أنا معنتش عايزها، دي دماغها فاضية، ماتنفعنيش...

تمادى في إساءته لزوجته السابقة، وتابع:

-وبعدين الولية اللي جاية من ورا الجاموسة تمامها كده معايا.

رمقه "إسماعيل" بنظرةٍ مشتعلة غير راضية عن وقاحته، وعلق عليه في تهكمٍ ساخر:

-وإنت جاي بقى من ورا إيه؟ ده الطينة واحدة يا "فضل"!

إهانة لاذعة نالت منه، وأصابت هدفها في مقتلٍ، لم يتحملها بالطبع، ودمدم في انزعاجٍ:

-ليه بس الغلط يابا؟ المفروض تقف معايا وتكبرني، و...

قاطعه والده بلهجةٍ متشددة:

-الرجالة بتكبر بتصرفاتها، بأفعالها، مش بلعب العيال والهبل اللي إنت عامله ده.

تطلع إليه "فضل" بعينين حانقتين، في حين أكمل أباه وصلة الاستهزاء به:

-بس إنت مفكر نفسك فوق الكل، واللي بتعمله بيصغرك في عينين الناس، وبيعرفهم نوعك إيه؟

صاح في تمرٍ:

-ده أنا طالب حلال ربنا، إيه الحرام في كده؟ ولا الناس هتتبسط لما أمشي-بطال؟

رد عليه بنفس الأسلوب الصارم:

-حلال ربنا بالأصول، مش بالافترا، والتفريط في عيالك وأمهم.

وكأنه لم ينصت لكلمة مما قالها، وأردف معقبًا عليه:

-طب بص يا حاج، احنا مش هنتكلم في ده دلوقتي، أنا عارف إنك لسه مضايق، لكن وقت ما تهدى وتفكر بالعقل، وتحسبها صح هتعرف إني باتستر على عرضي، وباحفظ اسم العيلة.

تقوست شفتاه بسمة خبيثة وهو يضيف:

-وعلى رأي المثل جحا أولى بلحم توره.

نظرة يائسة يتخللها النفور والإنكار حدجه بها، قبل أن يستدير مغادرًا المكان وهو يردد:

-لله الأمر من قبل ومن بعد.

.............................................................

بنشاطٍ ظاهر عليها، وتطلعات كبيرة نحو مستقبلٍ مختلف عن ذي قبل، تحركت "فيروزة" في اتجاه دكان عائلة "سلطان"، لتلتقي بالحاج "بدير". استقبلها الأخير بحفاوة معتادة، وأجلسها على المقعد الخشبي المجاور له، ثم التفت آمرًا أحد عماله ليحضر لها ما لذ وطاب من الفواكه الطازجة، بالإضافة إلى مشروبٍ بارد تنعش به معدتها. شدد عليها تناول ما قدمه بلهجة جمعت بين الأبوة والحزم:

-ماتقوليش بقى عاملة دايت، وبايت، والحاجات الغريبة اللي بنسمع عنها اليومين دول، إنتي تاكلي كل اللي قدامك ده كله.

ابتسمت في رقةٍ وهي تشكره:

-تعيش يا حاج.

أضاف بصوته الجاد:

-والواد أنا بعته عند البيت بحاجات بسيطة كده للجماعة عندك.

تحرجت من كرمه السخي، وقالت مجاملة:

-مالوش لزوم التكاليف دي.

عاتبها بلطفٍ:

-هو في بين العيلة تكاليف؟ ده إنتي في مقام "هاجر" بنتي، وأنا باجيب لبنتي مش لحد غريب.

شكرته بنفس الوجه المبتسم:

-ربنا يخليك لينا يا حاج "بدير"...

سحبت الهواء سريعًا إلى رئتيها، وطردته لتخبره بعدها بنوعٍ من الجدية:

-عشان معطلش حضرتك، أنا كنت عايزة منك طلب.

دقق النظر إلى ملامحها المهتمة، وقال:

-أؤمري يا بنتي.

قالت على مهلٍ:

-الأمر لله وحده، هو الموضوع يخص الدكان بتاعنا.

سألها بترقبٍ، وهو يتفرس في تعابير وجهها الغامضة:

-ماله؟

بتريثٍ أفصحت له عن نواياها:

-أنا كنت عايزة أكمل باقي توضيبه عشان يشتغل، ومحتاجة من حضرتك توصلني بنجار شاطر وبوهيجي وآ...

قاطعها بزفير ارتياحٍ:

-ده أنا افتكرت حاجة مهمة، ماتشليش هم الحكاية دي، هايكون متشطب من كافة شيء.

شعرت بالسعادة لمساعدته، وانعكس ذلك بوضوحٍ على قسماتها، سرعان ما كسا تعبيراتها طابعًا جديًا عندما سألها:

-بس مقولتليش إنتي هتعملي بيه؟ في حد عايزه للإيجار؟

دون ترددٍ أعلمته بنبرةٍ عازمة:

-لأ، أنا هاقف فيه.

حلت الدهشة عليه، وارتفع حاجباه للأعلى، قبل أن يسألها في ذهولٍ:

-إنتي؟

ردت مؤكدة بإيماءةٍ من رأسها:

-أيوه.

استغرب من تفكيرها في تلك المسألة، وعرض عليها بلهجةٍ غير مازحة:

-قوليلي لو ناقصك حاجة بدل ما تتبهدلي وآ...

للحظةٍ شعرت بالحرج من عرضه الكريم، وقاطعته بإصرارٍ، وعزةِ نفسٍ واضحة، رافضة التواكل على غيرها:

-كتر خيرك يا حاج، أنا مش حابة حد يساعدنا مهما كان مين.

صحح لها مبينًا حُسن نواياه:

-دي مش مساعدة، احنا أهل وعيلة واحدة.

علقت "فيروزة" مظهرة تشبثها برأيها بتمسكٍ أشد:

-معلش يا حاج "بدير"، دي رغبتي، وأنا بحب أعتمد على نفسي، وبعدين دي فرصة اشتغل في حاجة ملكي، بدل ما أروح عند الغريب.

نظر لها مليًا، دون أن ينبس بكلمةٍ؛ وكأنه يكتشف صفات جديدة لم يكن يعلمها عنها. سألته بعينين شبه متوترتين:

-ها، حضرتك قولت إيه؟ هتساعدني؟

هز رأسه مبديًا موافقته وهو يخاطبه:

-حاضر يا بنتي، كل اللي عايزاه هيتعمل، وعلى أحسن حاجة.

أكدت عليه مجددًا:

-تمام، والتكاليف كلها هدفعها...

ثم وضعت يدها داخل حقيبتها، وأخرجت مغلفًا أبيض اللون، بداخله مبلغًا ماليًا. مدت يدها به نحوه، وقالت:

-اتفضل يا حاج "بدير"، ده جزء من التكاليف، يعني زي ما بتقولوا كده عربون.

تبدلت نظراته للضيق، وأشار لها بيده رافضًا أخذه:

-شيلي فلوسك في شنطتك يا بنتي.

أصرت عليه بعنادٍ:

-معلش، الشغل شغل يا حاج، ودي حاجة متزعلش حد.

أتاها رده عائمًا في تلك الجزئية:

-ربنا يسهل، هنشوف ده بعدين، رجعيهم دلوقتي مكانهم.

حاولت بشتى الطرق إقناعه بقبول النقود؛ لكنه كان أكثر عنادًا منها، فما كان منها إلا أن استسلمت أمامه، وأعادت المظروف إلى حقيبتها وهي تشكره:

-ربنا يكرمك يا رب.

.........................................................

رفعت المعلقة إلى فمها، ونفخت بلطفٍ في الحساء الموجود بها، لتخف سخونته قليلاً، قبل أن تنفرج شفتاها لتتذوق طعمه. بدت "همسة" راضية عن مذاقه الشهي، وأعادت وضعت الغطاء على الوعاء، ليحتفظ بنفس درجة السخونة،

قبل أن تغلق الموقد، ثم استدارت بعدها نحو الجهة المقابلة وهي تبتسم في غبطة، شهقت في فزعٍ، وسقطت الملعقة من يدها المرتجفة، عندما رأت "بثينة" تقف على بُعد خطوتين منها، وفي يدها سكين تقطيع اللحم. حبست أنفاسها المرتعبة داخلها وقد بدأت في رفعه للأعلى ليغدو نصب عينيها، ظلت تحملق فيها بارتعابٍ شديد، ومع هذا حاولت ضبط رجفتها، والسيطرة على اهتزازة صوتها وهي تسألها:

-أساعدك.. في حاجة يا طنط؟

ما زالت أنظارها الخائفة معلقة بالنصل الحاد، وقد تجرأت لتطلب منها بحذرٍ:

-عنك يا.. طنط.. السكينة..

بلعت ريقها وواصلت كلامها المتلعثم:

-إنتي بس شاورلي على اللي عايزاه، وأنا .. هعملهولك على طول.

ترقبت بتوجسٍ ردة فعلٍ متهورة منها، وحدث ما توقعته، حينما أرخت "بثينة" أصابعها عن السكين، فسقط على الأرضية، مسببًا صوتًا مزعجًا، ونظراتها الغامضة مثبتة عليها. انحنت "همسة" لتلتقطه سريعًا قبل أن تلحق الضرر بها، أو بنفسها، واعتدلت في وقفتها لتجدها ما زالت تنظر لها بعينين فارغتين من الحياة، وذلك التعبير الجامد مسيطر على كافة ملامحها. رفعت نبرتها منادية، وعيناها مرتكزة على حماتها:

-يا "هيثم"، تعالى.. بسرعة .. يا حبيبي.

جاء الأخير على صوتها المنادي متعجبًا من تواجد والدته بالمطبخ، فقبل قليل كانت غارقة في سباتٍ عميق. أشارت "همسة" له بنظراتها، وأخبرته بهدوءٍ زائف:

-شوف كده لو ... مامتك عايزة حاجة، عشان .. كانت ماسكة السكينة، وأنا.. خايفة عليها، و...

لعقت شفتيها، واستأنفت بكلماتٍ موحية:

-ده ميعاد الدواء بتاعها، خليها تاخده.

اندهش من تصرف أمه المريب، وحاوط كتفيها بذراعه متسائلاً:

-خير يامه؟ إنتي ناقصك إيه؟

وبتريثٍ حثها على التحرك على خطوته، فسحبها إلى خارج المطبخ متابعًا كلامه معها:

-خليكي مرتاحة، وكل حاجة هتتعمل وتيجي لحد عندك.

اصطحبها إلى غرفتها، وأجلسها على الفراش، ثم خاطبها وهو يفتش عن أقراص الدواء التي تتناولها بين المجموعة الموضوعة على الكومود إلى جوارها:

-كلنا هنا عشان نخدمك ونريحك.

وجد ضالته، فابتسم في ارتياحٍ، والتفت نحوها ليناولها إياه، بعد أن ملأ كوبها بالقليل من الماء وهو يقول:

-خدي يامه دول.

التقطت "بثينة" القرص من راحته، ودسته في فمها، ثم أخذت الكوب وارتشفت رشفة واحدة منه، لتعيده بعدها إلى ابنها الذي أسنده في مكانه. أحنى "هيثم" رأسه على جبينها، وقبلها بحنوٍ وهو يرجوها:

-الله يكرمك يامه، بلاش تعملي حاجة تخوفنا عليكي، إنتي اللي بقيالي.

تراجع عنها لينظر إلى عينيها الغريبتين، فابتسمت له، ورفعت يدها لتمسح على صدغه، استقام في وقفته، وأشار بيده نحو الباب قائلاً:

-أنا هاجهزلك الأكل في صينية وهاكلك بنفسي، ماشي؟

هزت "بثينة" رأسها كتعبيرٍ عن موافقتها، فاتسعت ابتسامته أكثر، تحرك مبتعدًا عنها، فانتظرت انصرافه لتبصق القرص من فمها، وتلك النظرة العدائية تغطي كامل نظراتها.

..............................................

نهارٌ انقضى، وتبعه آخر، ليلاحقه ثالث ورابع، قبل أن يمضي النهار الخامس، ومن بعده السادس، والعمل يجري على قدمٍ وساق في الدكان الذي بدا كخلية نحلٍ، بسبب تزاحم العمال بداخله، لإعادة توضيبه في وقتٍ قياسي. ظلت "فيروزة" جالسة على مقربة من دكانها في كرسيها الخشبي، متشحة بالسواد، تراقب بحماسٍ ما يتم الانتهاء منه، ليزداد شغفها لليوم الذي سيعلن فيه عن

افتتاح مشروعها. التفتت برأسها نحو "بدير"، وقد شرع في مخاطبتها بنوعٍ من العتاب:

-بردك مصممة تقعدي كده كل يوم؟ هو أنا قصرت في حاجة؟

نهضت واقفة وهي ترد نافية بتحرجٍ طفيف:

-لأ يا حاج، متقولش كده، ده حضرتك قايم بالواجب وزيادة.

لمحت بطرف عينها أحد العمال وهو يحضر المقعد له، فشكره الأخير قبل أن يجلس عليه، جلست هي الأخرى إلى جواره، واستمرت في إظهار عرفانها بصنيعه:

-الصراحة محدش من أهلي كان ممكن يعمل زي حضرتك كده.

من جديد أكد عليها:

-ده إنتي في غلاوة بنتي.

عاد الصمت ليسود بينهما، وتفكيرها مشحون بمسألة محددة، فإلى الآن ظل يرجئ أخذ النقود منها بحججٍ لم تكن مقنعة لها؛ لكنها لم تتوقف عن المحاولة، حتى انتهى بها المطاف إلى سؤاله مباشرة دون تمهيدٍ:

-هو حضرتك مش عايز تاخد مني الفلوس ليه؟

تطلع إليها بثباتٍ، ولم يعلق بكلمةٍ، فاسترسلت قائلة:

-وحتى لما جيت أحاسب المقاول برضوه مرضاش، وقالي أستنى للآخر.

حافظ على سكوته، مما دفعها لإخباره:

-يعني أنا عايزة أعرف التكاليف هاتكون في حدود أد إيه، عشان أظبط أموري، وماتفاجئش.

حاد ببصره عنها، وراح يخبرها بصوته الرخيم:

-لما نيجي وقتها.

ضغطت عليه بإلحاحها، ونظرة الشك تكسو حدقتيها:

-يا حاج "بدير"، أنا مش هاقبل حد يصرف عليا مليم أنا مستحقوش، والناس اللي شغالة ليل نهار أكيد محتاجين فلوس، ده غير إن اللي زيهم بيشتغلوا باليومية، إزاي بقى موافقين على كده؟

استدار ناظرًا إليها وهو يخاطبها:

-ماتشغليش بالك بالحاجات دي، حقهم مضمون.

ردت بعندٍ:

-خلاص خليهم ياخدوا جزء من حقهم.

رفع ذقنه للأعلى قليلاً، وقال بتعابيرٍ مرتخية:

-سيبها على الله، كله في النهاية هيتراضى.

لم تسترح لرده العائم، ومماطلته الغريبة، التي أوحت لها أنه يساعدها في الخفاء، وهذا ما كان يزعجها بشدة!

على الجانب الآخر، وعند مسافة لم تكن بعيدة عنهما، توقفت سيارة النصف نقل أمام دكانه، ليترجل منها "تميم" بشموخٍ، ورأس مرفوع للأعلى في اعتزازٍ، مسح المكان الذي اشتاق إليه بنظراتٍ شاملة، حانت منه نظرة سريعة نحو "سراج" الذي تبعه، صاح أحد العمال مهللاً ومرحبًا بوجوده بعد غيابٍ قد بدا طويلاً، فتجمع على إثر إعلانه البقية، ورحبوا به باستقبالٍ حار. مرر "تميم" نظراته من جديد على داخل الدكان وهو يتساءل في دهشة حائرة:

-أومال الحاج "بدير" فين؟ أنا مش شايفه هنا؟ هو منزلش النهاردة ولا إيه؟

أجابه واحد من العمال وهو يشير بذراعه للأمام:

-ده موجود في الدكان التاني مع المقاول.

قطب جبينه مرددًا في اندهاشٍ أكبر:

-دكان تاني؟

أومأ برأسه مانحًا إياه المزيد من التوضيح:

-أيوه يا معلم، اللي على الناصية، قصاد البقالة.

عرف أين يتواجد، فأشار للعامل بالانصراف، وزوى ما بين حاجبيه في استغرابٍ، متسائلاً مع نفسه بصوتٍ خفيض:

-بيعمل إيه هناك؟!

انتشله "سراج" من سرحانه السريع بسؤاله:

-عايز مني حاجة تانية يا معلم "تميم"؟

استدار نحوه يشكره بامتنانٍ كبير:

-لأ يا "سراج"، تعيش يا خويا، وقفتك معايا دي مش هنساها، وإن شاءالله نردهالك.

عاتبه بابتسامةٍ ودودة تنم عن ألفة طيبة:

-عيب ماتقولش كده، أنا معملتش حاجة.

بادله الابتسامة وهو يرد:

-ابن أصول.

استأذن "سراج" بالانصراف وهو يشير نحو سيارته:

-أسيبك بقى تشوف مشاغلك، سلام يا معلم.

ودعه بعد مصافحة حارة باليد:

-في حفظ الله.

ظل "تميم" واقفًا في مكانه يراقبه إلى أن غادر بسيارته المنطقة، ثم التف بجسده نحو الناصية، مُركزًا بصره على الدكان الذي تحدث عنه العامل، وقد غاب عن ذهنه كليًا نقل ملكيته. همَّ بالتحرك؛ لكن استوقفه أحد العمال متسائلاً:

-نبعت نجيب القهوة بتاعتك يا معلم؟

رد نافيًا:

-لأ، مش دلوقتي ...

عاد لينظر أمامه وهو يكمل:

-أنا رايح أشوف الحاج.

......................................

وفقًا لإحساس قلبه النابض -والذي بات بوصلته مؤخرًا- شعر بحضورها الطاغي على ما حولها، قبل أن يتأكد حقًا من وجودها هناك. علا الضجيج المتحمس في صدره، وانتشرت وخزات غريبة من نوعٍ لم يعهده مسبقًا في أنحاء جسده، تحفزه، تستثيره، وتستحثه على الركض إليها. بجهدٍ متعاظم تحكم "تميم" في انفعالاته المتحمسة ليبدو هادئًا.

ارتفع دبيب فؤاده حتى صم أذنيه، عندما رآها تُحادث والده، وضحكة رقيقة تنير الوجه قبل الشفاه. خانته تعابيره الصارمة، وارتخت باستسلامٍ متلهف أمام طوفان نعومتها غير المتكلفة. لاق اللون الأسود بها كثيرًا، منحها فخامة وقوة، جعلته يتقين أنها لا تستحق سوى الأفضل في كل شيء، فمن يريد الظفر بها، عليه أن يبذل الغالي والنفيس لأجلها، ومع هذا لا يمكن مقارنة اللون الأسود بالأبيض، فالأخير يضاهيه في جماله عليها؛ وكأن ذلك اللون النقي اقترن بها، فأصبح لا يراها مثالية الجمال في أي لونٍ غيره.

منحه القدر فرصة أخرى ذهبية، غير مرتب لها، للتمتع برؤية نظرة التلهف في بحر الفيروز، عندما ناداه والده بترحيبٍ لا يخلو من المفاجأة السارة:

-"تميم"، حمدلله على السلامة يا غالي ............................................ !!

..................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الأبيض

## الفصل المائة

مع التفافة رأسها السريعة، تطاير طرف وشاحها الأسود غير المربوط، والمصنوع من قماش الشيفون، حيث كانت تطرحه على شعرها لتغطيته قليلاً، لتنظر في نفس الاتجاه المحدق به الحاج "بدير"، وضعها له اعتبرته أولى خطواتها نحو الاعتياد على ارتداء ما يغطي رأسها، رغم كونها تضع في أغلب الأوقات منديل الرأس؛ لكنها أرادت أن يكون التزامها بارتداء الحجاب كاملاً، وليس كما اعتادت سابقًا مجرد حجب لشعرها.

التقت الأعين ببعضها البعض، فتلبكت "فيروزة" من النظرات التي غمرتها كليًا، وأشعرتها أنها حقًا محور الاهتمام، وإن لم يصرح "تميم" بهذا علنًا! كانت قد علمت بمحض الصدفة عن غيابه بحجة السفر، وتجاهلت التفكير في الأمر، مؤكدة لنفسها أن شأنه لا يعنيها، لا داعي لمنحه أهمية أكثر من اللازم، فما جمعهما من مواقف لا يستدعي كل هذا التضخيم؛ لكن مع حضوره تبخر ما ظنت أنه الأصح لها. أحنت رأسها على صدرها، متحاشية طريقة تطلعه إليها، لتمد يدها ساحبة الوشاح من جديد على رأسها، وملقية بطرفه المحلول على جانب كتفها.

استرعت حركتها العفوية انتباه "تميم"، فلم يلحظ ما تضعه في البداية، ربما لكونه ملفوفًا حول عنقها، ومع هذا انتابته حالة من الفضول الشديدة، للتأكد من نواياها إن أقبلت حقًا على ارتداء الحجاب، تمنى باشتياق أن تفعلها، فلا يتمتع الغريب عنها بما هو محرم عليه، لمعت عيناه في توقٍ لرؤية تلك الأمنية تتحقق

على أرض الواقع، ليحظى وحده بكامل سمات جمالها الفطرية، فقط إن شاء المولى ويسر له الزواج بها. تقدم "بدير" نحو ابنه، واستقبله في أحضانه، رابتًا على ظهره وهو يُحييه:

-منور يا ابني، طولت الغيبة المرادي.

رغمًا عنه، خالف "تميم" وعده لأبيه، واستمر في تحديقه لها من زاوية رؤيته، تلك التي منحته المزيد من الفرص المغرية لتأملها عن كثب. ابتسم في بهجةٍ، وقال:

-الحمدلله يابا، أنا رجعت خلاص.

وبجهدٍ مضاعف عن ذي قبل أبعد نظراته المتشوقة عنها، ليركز بصره على والده، وتابع حديثه له:

-متقلقش عليا.

رد "بدير" متسائلاً بابتسامته الوقورة، وهو يسحبه نحو الجانب:

-طب خير، عديت على أمك ولا لسه؟

أجابه ابنه نافيًا:

-لأ، أنا جيت عليك على طول.

ربت على جانب ذراعه، يستحثه على التحرك معه، بعيدًا عن "فيروزة" تحديدًا، وهو يخبره:

-طيب روح عندها طمنها، زمانها متشوقة تشوفك.

أومأ برأسه قائلاً وهو يتبع خطواته الموجهة:

-وأنا والله...

لهنيهةٍ توقف عن الكلام ليسأله في فضولٍ قاومه كثيرًا:

-بس مقولتليش بتعمل إيه هنا؟

نظرة حازمة منه إليه، تبعها قوله الجاد:

-بعدين يا "تميم".

حمحم مبديًا طاعته لأمره المتواري بصوتٍ خفيض:

-حاضر يا حاج.

بالكاد أوشك على الذهاب حينما ارتفع عيناه نحو الأعلى، لينظر نظرة شاملة على المكان عمومًا، وسريعة خاطفة نحو طاووسه العائد؛ لكن تجمدت نظراته على العامل الذي كان يطلي الواجهة وهو يقف على السقالة الخشبية، فقدمه كانت قريبة من وعاء الطلاء، وقبل أن يبادر "تميم" بتحذيره، ركله العامل بعنفٍ –وبغيرِ قصدٍ- وهو يتحرك للجانب لينسكب ما فيه، مسببًا فوضى عارمة على الأرضية. هدر "تميم" عاليًا في غضبٍ:

-إنت يا ابني، مش تفتح وتاخد بالك؟

انتفضت "فيروزة" للكارثة الحادثة على مقربة منها، والتفتت للجانب ملقية نظرة مصدومة على ما حدث، فرأت لطخات عشوائية من الطلاء قد طالت ثيابها السوداء فأفسدت مظهرها الخارجي، بينما واصل "تميم" صياحه الحانق:

-في بني آدمين واقفين هنا، عجبك البهدلة دي؟

رد عليه العامل بقليلٍ من التوجس، قبل أن يهبط عن السقالة الخشبية، وقد رأى علامات الغضب واضحة على تعابيره:

-ماخدتش بالي يا ريس، لا مؤاخذة.

دنا منه "تميم" ملوحًا بذراعه وهو يهدده علنًا بخشونةٍ قوية:

-ودي أصرفها منين لا مؤاخذة بتاعتك دي؟ ليلتك طين.

جاء والده من خلفه يطلب منه بجديةٍ:

-سيبه يا "تميم".

استدار ناحيته يخاطبه:

-إنت مش شايف يا حاج استهتاره؟

هز رأسه وهو يشدد عليه:

-معلش، اهدى.

استاءت "فيروزة" من إفساد ثيابها، ببقع متفرقة من الطلاء، يصعب إزالتها بالمناشف الورقية، ومع هذا لم ترغب في نشوب الشجار وتصاعد الأحداث،

خاصة بعد تجمهر القليل من المارة الذين وقفوا لمشاهدة ما يحدث بتطفلٍ مبرر.

تنحنحت قائلة بضيقٍ محسوس في صوتها:

-خلاص يا جماعة، حصل خير.

رد "تميم" محتجًا:

-لأ، محصلش.

رأى "بدير" ثيابها غير النظيفة، وتساءل في انزعاجٍ:

-هتمشي إزاي كده يا بنتي في الشارع؟

على مضضٍ أجابته:

-يعني هتصرف، هاشوف تاكسي ولا حاجة قريبة توصلني للبيت.

دون إعادة تفكيرٍ، خلع "بدير" عنه قفطانه الداكن، ومد به يده نحوها عارضًا عليها:

-خدي ده عليكي.

تحرجت من تصرفه اللبق، وقالت:

-بس آ...

قاطعها بإصرارٍ:

-مافيش بس، أحسن ما الناس تتفرج عليكي.

جابت بنظراتها سريعًا على الأشخاص المراقبين للموقف، لم يكن من المحمود أبدًا التحرك هكذا أمام أنظارهم الجريئة، تحولت نظراتها نحو "بدير" مجددًا، فالأخير كان يملك من الفطنة ما جعله يتدارك الموقف سريعًا، بل ويجيد التصرف فيه بحكمةٍ وروية، لهذا لم تجادله كثيرًا، تناولت القفطان منه، ولفت به كتفيها، لينسدل على كامل ظهرها، ثم ضمت طرفيه معًا، فغاصت بداخله. رفعت "فيروزة" رأسها للأعلى، عندما تابع "بدير" أوامره الجادة لها:

-تعالي معايا أوصلك.

هزت رأسها موافقة، ولم تحاول النظر في اتجاه "تميم" الذي لم يفوت الفرصة ليتأملها بثياب أبيه في دهشة لا تخلو من الغرابة والذهول، قبل أن يبعد عينيه عنها ليحدق في العامل بنظراته المهددة. التفت "بدير" نحوه يحذره بإشارة من عكازه:

-"تميم" مش عايز أي عاركة هنا، الواد مايقصدش، لِم الدور.

كز على أسنانه هاتفًا بصوتٍ محموم:

-ماشي كلامك يا حاج.

لكزة مؤلمة بكوعه، سددها "تميم" للعامل في ذراعه وهو يعنفه:

-ابقى ركز يا بأف.

أحنى رأسه مرددًا في انصياعٍ:

-تمام يا ريس.

صفق "تميم" بكفيه معًا، هادرًا في التجمهر البسيط المتواجد في محيط الدكان:

-الليلة خلصت يا جدعان، الكل على أشغاله الله يكرمك.

في أقل من لحظاتٍ انفض التجمع، وعادت نظراته تهيم فيما نسجه الخيال مجددًا لصورة طيفها، وهو يكبح ابتسامة مسرورة تعانده للظهور على محياه.

.............................................

ما إن انتهى من شحن هاتفه المحمول برصيدٍ زائد، حتى ولج إلى بعض المواقع الإباحية لتحميل بضعة مقاطع خارجة، لمشاهدتها خلسة مع نفسه، عله يستدعي جذوة نشوته المنطفأة، فتزداد وهجًا واشتعالاً. تمدد "فضل" على فراشه، عاقدًا ساقيه معًا، وممسكًا بالهاتف بيده، حملق ملء عينيه في الشاشة، بعد أن أخفض نبرة الصوت، وهمهم بنبرةٍ هامسة محفزًا نفسه:

-وأدي أعدة، أما نشوف بقى الحلويات دي، بردك عايزين نستعد، ونعيد الذي كان بعد ما نسينا الدلع والهشتكة.

مقطع أعقبه آخر، ولا أدنى تأثير عليه، فاستمر في البحث عما يبث النار في خلاياه الحسية؛ لكن دون جدوى، شعر بتبلده وجموده، فانتابه القلق. اعتدل في رقدته، وتساءل في خوفٍ:

-إيه ده؟ ولا حاجة كده!!

قضى ما يقرب من الساعة وهو يسعى بشتى الطرق لإنعاش إحساسه، ورغم ذلك، بقي جسده خامدًا دون استجابة مشجعة. تصبب عرقًا باردًا، وردد في

ارتعابٍ، مستعيدًا في عقله لمحاتٍ من الضرب العنيف الذي تلقاه على يد "تميم":

-لأحسن يكون اللي في بالي صح.

ساعة أخرى انقضت عليه، وقد نفذ كامل رصيده، بعد مشاهدات لأكثر المواقع إثارة، دون تأثيرٍ حسيٍ ملموس، ألقى بالهاتف في عصبيةٍ، ولون بشرته قد صار باهتًا. هبط عن الفراش مدمدمًا في توترٍ مذعور:

-تبقى سنة سوخة لو ده بجد.

حاول تهدئة نفسه، والتجاوز عن هواجسه مخاطبًا نفسه:

-أنا كويس، مافياش حاجة، هوهم نفسي ولا إيه؟

بلع ريقه الجاف مستشعرًا مرارته، وتابع بأنفاسٍ مضطربة؛ وكأن عقله قد أضاء بفكرةٍ جهنمية:

-مقدميش إلا أشوف الحباية إياها، ما أنا كنت مضغوط الأيام اللي فاتت، وأعصابي تعبانة.

عقد "فضل" العزم على شراء إحدى الأدوية المنشطة، لتحفيز الكامن من خلاياه، مقتنعًا بأنه لا يعاني من أي مشكلة عضوية، وتجربة الاعتداء البدني عليه، خلفت فقط بضعة سحجاتٍ وتسلخات داوتها الأدوية.

.....................................................

امتلأت المائدة المستطيلة بكل صنف طعام اشتهى ابنها تناوله، فباتت وجبة الغذاء وليمة عظيمة تكفي لعشرات الأشخاص. وضعت "ونيسة" في صحن "تميم"، الكثير من الطعام، وهي تشجعه على إفراغه من محتوياته:

-كُل يا ضنايا، ده إنت وشك أصفر زي الليمونة.

ابتسم لها وهو يلوك لقيمات منه في جوفه، بينما استمرت في تفرس وجهه وهي تسأله بتشكيكٍ:

-إنت كنت تعبان ولا إيه؟ وشك دبلان.

بلع ما مضغه، ليعلق بعدها:

-أنا الحمدلله كويس.

هزت رأسها معترضة:

-لأ، مش باين عليك.

في حين أخبرها "سلطان"، وهو يتأمل تصرفها الأمومي الحريص باستغرابٍ:

-سبيه يا "ونيسة"، الواد كويس قدامك أهوو.

أيده "تميم" في رأيه ناظرًا في اتجاهه:

-قولها يا جدي.

احتجت على كليهما بقولها:

-أنا أدرى بابني، هو خاسس، ومش عاجبني.

أقبلت عليهم "هاجر" وهي تحمل رضيعها على ذراعها، وبيدها الأخرى تمسك بصحن الملوخية، وضعته في منتصف المائدة، قبل أن تمرر أنظارها على أفراد عائلتها وهي تسألهم في اهتمامٍ:

-ناقصكم حاجة تانية؟

ردت "ونيسة" نافية:

-لأ يا "هاجر"، اقعدي.

أشار لها "تميم" بيده:

-هاتي الواد العفريت ده عنك شوية.

اقتربت منه برضيعها، وأعطته له مبدية ترحيبها الشديد بطلبه:

-أهوو تريحني منه.

هدهده "تميم" بمحبةٍ كبيرة وهي يتساءل:

-حبيب خالو، عامل إيه معاكي يا "هاجر"؟

بعد زفيرٍ مزعوج أجابته:

-مطلع عيني.

اعترضت عليها أمها بسخطٍ:

-هو لسه عمل حاجة؟ ليل نهار بتشتكي منه.

بررت ضيقها موضحة:

-ما أنا بصراحة مش فهماله حاجة، على طول زن وعياط.

علقت عليها أمها بصوتٍ مال للجدية:

-هما العيال في السِن ده كده، وبعدين ده الأيام بتعدي هوا.

رد "تميم" برجاءٍ:

-ربنا يباركلك فيه، وتحسني تربيته.

مسحت "هاجر" على كتف شقيقها، وقالت بابتسامةٍ حنونة:

-يا رب أشوفه زيك كده يا "تميم".

أتاها تعقيبه مؤكدًا:

-إن شاءالله، ده أنا اللي هاربيه على إيدي.

استدارت شقيقته برأسها نحو أبيهما عندما خاطبها مباشرة للفت انتباهها:

-بأقولك يا "هاجر"..

التفتت ناحيته هاتفة:

-أيوه يابا.

قال بعد تناول ملعقة من الشوربة الساخنة:

-كنت بأفكر أبيع الشقة بتاعتك، وأحطلك فلوسها في حسابك في البنك، مالهاش لازمة قفلتها، إيه رأيك؟

تنهدت قائلة بفتورٍ:

-اللي تشوفه صح اعمله.

راح يشورها في الأمر مشددًا عليها:

-أنا باخد رأيك، مش عايز أعمل حاجة إنتي مش عايزاها.

بعد لحظة من الصمت نطقت بوجهٍ يميل للتجهم:

-بيعها يابا، أنا مش عايزة حاجة تفكرني باللي عشته وشوفته مع قليل الأصل.

رد في استحسانٍ:

-ماشي يا بنتي.

وجهت "ونيسة" حديثها لزوجها تسأله في اهتمامٍ:

-ها يا حاج خلصت توضيب دكان "فيروزة"؟

تطرق أحدهم لسيرتها كان كفيلاً بجعل نبضات قلبه تتسارع، جاهد "تميم" ليبدو هادئًا، غير مقروء التعبيرات، بينما تحفزت كل حواسه لتقصي أخبارها بالكامل، ادعى انشغاله بالعبث فيما يملأ صحنه من طعامٍ، وركز سمعه مع والده الذي أجاب:

-فاضل كام حاجة ونقفله.

رددت أمه في تضرعٍ:

-ربنا يجعله فاتحة خير عليها، هي بنت حلال وتستاهل، وكويس إنك معاها يا حاج، بدل ما الغريب يضحك عليها.

قدرته على البقاء بلا ردة فعلٍ كانت مستحيلة، لاك الطعام ببطءٍ، وهو يشعر بتلاحق خفقاته، واضطرابٍ في معدته، تشنجت يده على الملعقة حينما أضافت "هاجر" في إعجابٍ:

-أه والله، هي أصلاً بنت جدعة، مابتحبش تعتمد على غيرها.

وافقتها "ونيسة" في الرأي:

-مظبوط.

حقًا كان غير يسيرٍ عليه أن يمثل عدم مبالاته أمام مدحها عفويًا بكل الصفات المحمودة التي يحبذ سماعها عنها، دفع "تميم" مقعده للخلف، وأعاد الرضيع لأمه، ليتحرك مبتعدًا عن المائدة. سألته "ونيسة" في استغرابٍ:

-رايح فين يا "تميم"؟

أجلى أحباله الصوتية، وأجابها مشيرًا بذراعه:

-هاخش أريح جوا.

مصمصت شفتيها معقبة في إشفاقٍ:

-أكيد تعبان من السفر والشقا ليل نهار.

رد وهو يفرك مؤخرة عنقه:

-يعني.

أخبرته والدته بنوعٍ من الإعلام:

-ماتحاولش تنام، أنا بعد ما ألم الأطباق هاعملك شوية شاي تظبط بيهم دماغك.

استحسن عرضها، وقال في امتنانٍ:

-تسلم إيدك يا ست الكل.

انسحب بعدها من المكان، موليًا عائلته ظهره، ويده موضوعة على صدره، تتحسس قلبه القافز بين ضلوعه في رغبةٍ ورجاء، لا يمكن إنكار الابتسامة العريضة التي أنارت وجهه، وتلك المرة لم يبذل جهدًا لإخفائها.

.....................................................

جاءت بصحبة والدها، في الموعد المتفق عليه مع مضيفتها، لتجمع متعلقاتها الشخصية، وما يحتاج إليه أبنائها من ثيابٍ وأشياءٍ ضرورية كانت متروكة فيه، لكونه كان فيما مضى مسكنها. رحبت "سعاد" بطليقة ابنها، واستقبلتها بودٍ، ليظل والد الأخيرة جالسًا بالخارج في انتظارها. عاودت احتضانها قبل أن تعاتبها في لطفٍ:

-بقى كده يا بنتي؟ تهون عليكي العِشرة؟

في سخطٍ متهكم أجابتها:

-أنا بردك يا خالتي؟ إنتي بنفسك عارفة عملت إيه عشان أرضي ابنك، وفي الآخر اترميت في الشارع.

هتفت بسجيةٍ، معللة تدهور الأوضاع بينهما:

-ده شيطان ودخل بينكم، استهدي بالله كده وآ...

قاطعتها في احتجاجٍ حانق:

-يا خالتي ابنك مصدق خلص مني، وطلقني بالتلاتة، بعد ما خلاني أبريه من كل حاجة، تقوليلي شيطان وكلام من ده؟

أطرقت رأسها في خزيٍ وهي تغمغم:

-والله أنا وشي منك في الأرض.

ابتلعت غصة في حلقها، وواصلت الحديث معها بضيقٍ:

-محدش ليه ذنب غير ابنك، وقلة أصله...

لكن ما لبث أن غلف الألم صوتها وهي تكمل:

-أنا اللي رخصت نفسي- من الأول، ورضيت أخد بالجزمة فوق دماغي، وأسكت عشان عيالي.

طردت كتلة ثقيلة من الهواء عن صدرها، وأضافت بتعابيرٍ واجمة:

-الكلام مش هايغير حاجة، كل واحد خد نصيبه، خليني ألم حاجتي، وأخد كام هِدمة للعيال يغيروا فيهم.

قالت بملامح آسفة:

-ده بيتك يا "سها".

همّت بالتحرك؛ لكن ظهر لها من العدم آخر من ترغب في رؤيته، بسحنته المقلوبة، وتعابيره اللزجة. على الفور بادر "فضل" بالهجوم عليها بإهانةٍ سافرة:

-هي بوز الإخص دي بتعمل إيه هنا؟

حذرته والدته من التمادي في الخطأ بلهجةٍ غير راضية:

-ما تحفظ لسانك يا "فضل"، بلاش قلة أدب.

بينما قابلت "سها" إهانته بردٍ وقح، لم يتخيل أن تجرؤ على النطق به، وهي تشير بسبابته نحوه؛ وكأنها تقلل منه بازدراء شديد:

-سيبه يا خالتي، هو مافهوش إلا لسان؟

اهتاج من احتقارها الفظ، وسبها بوجهٍ مشتعل:

-آه يا بنت الـ....

قاطعته قبل أن يواصل إهانتها، مهددة إياه بقوةٍ لا تعرف كيف امتلكتها أمامه، بعد سنواتٍ من الذل والخذلان:

-عندك، أبويا واقف برا، ولو مديت إيدك عليا هاخليه يسجنك.

صاح بها في حنقٍ مغتاظ:

-إنتي جاية تهدديني في بيتي؟

ضحكت هازئة به:

-لأ، هو أنا أقدر يا سبع البرومبة؟

سألها بنبرةٍ مغلولة وهو يرمقها بتلك النظرة الدونية:

-جاية ليه يا وش البومة؟

جاوبته بتأففٍ:

-أخد حاجتي، وماشية.

لوح لها بيده وهو يهدر بها:

-طب انجزي وغوري..

حدجته بنظرة نارية قبل أن تكمل سيرها؛ لكنه استوقفها هاتفًا، وكأنه يغيظها:

-ولعلمك بكرة هاتجوز ست البنات وأكيدك.

ضحكت في استهجانٍ وهي تخبره:

-دي أكيد أمها داعية عليها اللي تتبلي بيك.

اشتاط غضبًا من ردها المستخف به، وصاح في حقدٍ:

-شايفة يامه الغلط؟ وتزعلوا لما أكسر دماغها.

توقفت عن الضحك لترد بلهجةٍ جامدة تحمل الوعيد:

-أنا لو أعرف إنك موجود مكونتش دخلت من أساسه، والأحسن أنادي على أبويا يتصرف معاك.

تدخلت "سعاد" لتهدئة الوضع المتأزم بينهما بقولها:

-الموضوع مش مستاهل يا "سها"، خلي أبوكي مرتاح في المضيفة، وشوفي حاجتك..

ثم التفتت نحو ابنها تطلب منه بصوتٍ منزعج:

-وإنت يا "فضل"، امشي من قدام وشها السعادي.

هتف في حرقةٍ، وأمارات الغيظ تتراقص في ملامحه:

-أنا ماشي من الخلقة اللي تغم النفس دي.

اختفى "فضل" من أمامها، ملقيًا ببعض اللعنات المسيئة إليها، بصوتٍ قصد أن يكون مرتفعًا، لتصل إهانته لها، فرددت "سها" تدعو عليه رافعة كفيها للسماء:

-ربنا يسلط عليك، اللي لا يخاف ولا يرحم، يا "فضل" يا ابن "سعاد" !! ....................................

....................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل المائة وواحد

بعينين ترمشان في توترٍ ملحوظ، حملقت في سقف الغرفة، ويداها معقودتان معًا فوق بطنها المنتفخ قليلاً، أثناء استلقائها على الفراش إلى جوار زوجها. سحبت "همسة" شهيقًا عميقًا، لفظته من رئتيها على مهلٍ، واستطردت تبوح لزوجها بما يستبد بها من مخاوفٍ تزداد ترسخًا فيها بمضي اللحظات:

-مكدبش عليك يا "هيثم"، أنا بقيت أخاف من مامتك...

بترت باقي كلامها، لتدير رأسها في اتجاهه، وجدته محدقًا مثلها بالسقف، وهذا التعبير الغامض يكسو وجهه، لعقت شفتيها، وتابعت استرسالها في ترددٍ:

-حاسة إنها ناوية على حاجة وحشة، وده مش مريحني.

رفعت جسدها قليلاً لتنظر إليه، ثم سألته في ترقبٍ:

-إنت مش حاسس بكده برضوه؟

أجابها وهو يسحب ظهره للخلف ليستند على عارضة الفراش ورائه:

-والله ما عارف أقولك إيه، هي أمي ...

لامست الألم في صوته عندما أكمل:

-وماينفعش أرميها في مصحة ولا الشارع، مش بعد العمر ده كله أبهدلها.

ردت في كلماتٍ مهونة عليه تخبطه:

-وأنا مقصدش ده أبدًا، بس فعلاً حالتها مش بتتحسن، وإنت أكيد ملاحظ ده.

وسَّد ذراعه خلف رأسه، وقال بزفيرٍ بطيء:

-بكرة أكلم الدكتور، وأخدلها ميعاد معاه، جايز يفيدنا بحاجة.

ابتسمت في امتنانٍ لقراره الجيد، وقالت:

-كده أفضل.

التفت برأسه ناحيتها لينظر إليها بعمقٍ قبل أن يخبرها:

-ولو إنتي مقلقة منها ابقي انزلي عند خالتي "ونيسة"، خليكي أعدة معاها، وأنا هفهمها الوضع، مهما كان هي بردك أختها، وأكيد هتساعدني ناخد بالنا منها الفترة دي.

أومأت برأسها موافقة:

-ماشي.

عاودت الاستلقاء مرة أخرى على ظهرها، وهي تطبق على جفنيها، مستدعية النوم إليها؛ لكن شتت حالة الاسترخاء المذبذبة سؤال "هيثم" الغريب:

-إيه الريحة دي؟

استنشقت الهواء المعبق بتلك الرائحة المزعجة، وقالت بوجهٍ متقلص:

-في ريحة شياط.

سألها مستفهمًا بحاجبٍ مرفوع للأعلى:

-هو إنتي ناسية حاجة على النار؟

ردت نافية على الفور، بتعابيرٍ تبدلت للاسترابة:

-لأ، أنا نضفت البوتجاز، وفصلت محبس الغاز.

أزاح الغطاء عن جسده، وتساءل في حيرةٍ قلقة:

-أومال دي جاية منين؟

منحته جوابًا عائمًا وهي تعتدل في رقدتها:

-يمكن من برا ولا حاجة، أنا متأكدة إن مافيش حاجة عندنا.

تقدم "هيثم" نحو باب غرفة نومها، فاقتحم أنفه المزيد من الرائحة الخانقة، تلقائيًا وضع ذراعه حول أنفه ليقلل من نفاذها إليه وهو يهتف في توجسٍ:

-ده الريحة بتزيد.

مثلما فعل، هبطت "همسة" عن الفراش، ودنت منه وأنفها يشم بقوةٍ تسرب الرائحة إلى داخل الغرفة، سعلت قليلاً، لتعقب بعدها بقلبٍ يدق في ارتعابٍ:

-معاك حق، الموضوع كده يخوف.

أشار لها لتبقى وهو يخبرها:

-استني كده أنا هاطلع برا أشوف في إيه.

أصرت على الذهاب معه بقولها:

-أنا جاية معاك.

غادر الاثنان الغرفة، ليجدا سحبًا من الدخان الكثيف تنبعث في الصالة، وتغطي الفراغ، بل وتنتشر بسرعة البرق في أرجاء المنزل، أسرع "هيثم" أولاً في خطاه باحثًا عن مصدرها، وكان اتجاهه الأول هو المطبخ، تجمد عند أعتابه ناظرًا بعينين على كامل اتساعهما من الصدمة المرعوبة، عندما رأى ألسنة اللهب تتصاعد من أعلى الموقد، من المقلاة تحديدًا، لتصل إلى السقف. هلل في فزعٍ، مع شحوب مخيف لوجهه، وقد رأى والدته تجلس على المقعد أمامها تحملق فيها في هدوءٍ عجيب؛ وكأنها تستمتع بمنظرها:

-يا ساتر يا رب، حاسبي يامه.

صرخت "همسة" مستغيثة:

-يا لهوي، الحقونا يا ناس، البيت بيولع!

حاول زوجها تهدئتها، ودفعها بعيدًا عن مرمى النيران، وهو يصيح بصوتٍ اختلط بالسعال:

-اهدي، خليني أعرف اتصرف.

من بين سعالها المؤذي لحلقها أمرته بلهجتها المذعورة:

-افصل محبس الغاز بسرعة.

امتثل لنصيحتها الهامة، وأسرع بغلق المحبس الموصول بالموقد، ليقطع إمداده بالغاز الذي يزيد من تغذية النيران المتوهجة، بالكاد استطاع الاقتراب من والدته الجالسة في ثباتٍ عجيب أمام الألسنة؛ وكأن ما يحدث نصب عينيها لا يهز شعرة من رأسها. جذبها بقوةٍ من على المقعد وهو يأمرها بصوته المختنق:

-تعالي يامه برا.

قاومته رافضة الذهاب معه، وهي تشير بيدها نحو فمها؛ وكأنها تخبره برغبتها في تناول الطعام، لم يفهم مقصدها، ولم يضع الوقت في هراءٍ لا يفيد، دفعها بخشونةٍ طفيفة نحو باب المطبخ مرددًا:

-متخافيش يامه، خدي بالك بس.

نظرت "همسة" إلى وجه والدته الملطخ برمادٍ محترق، وحدقت في شعرها المشعث بنظراتٍ تعبر عن خوفٍ صريح، انتشلها من تحديقها فيها صوت "هيثم" الهادر:

-هاتي بطانية بسرعة يا "همسة".

هزت رأسها هاتفة وهي تسعل:

-طيب.

أبعد "هيثم" أمه عن الخطر، وأجلسها بالصالة وهو يردد في تضرعٍ:

-نجينا يا رب.

عادت إليه زوجته تحمل الغطاء الثقيل، فهرول ركضًا نحو المطبخ ليطرحه على المقلاة المشتعلة عن بكرة أبيها، ليخمد بها النيران، سحب الغطاء من جديد، وكرر الفعلة لبضعة مراتٍ، قبل أن يستعين بالماء ليضمن انطفاء كامل ألسنتها، في حين ظلت "همسة" مرابطة في مكانها، تتطلع إلى "بثينة" بنظراتها الوجلة، والأخيرة تضحك بشكلٍ هيستري قبل أن تتوقف عن الكركرة، لتشير بإصبعها نحوها. توقفت عن التنفس لحظيًا مع حركتها تلك، وزاد جفناها اتساعًا في رهبةٍ، خاصة عندما وضعته على عنقها لتشير إلى نحره، لم تتحمل كم الخوف الذي تبثه حماتها لها، فسقطت مغشيًا عليها، وقد غاب عن وعيها الإدراك.

.....................................................

في تلك الأثناء، انتبه "تميم" للجلبة الصادرة من الأعلى، في البداية لم يعر الأمر الاهتمام، وظل جالسًا على فراشه؛ لكن مع الصرخات المستغيثة انتفض هابطًا عنه، ليخرج من غرفته بخطواتٍ سريعة، شبه عرجاء، متجهًا نحو البهو المتسع، حيث يجلس أفراد عائلته، متسائلاً بنبرة حائرة:

-سامعين الدوشة دي؟

ردت عليه "ونيسة" بجبينٍ مقتضب:

-أيوه يا ابني.

وأيدتها في كلامها "هاجر" بقولها، وهي تداعب رضيعها:

-وقبلها في حد صوت.

أمره جده بلهجته الحازمة:

-اطلع بص كده يا "تميم"، وشوف في إيه.

رد وهو يومئ برأسه إيجابًا:

-ماشي.

هتفت والدته من خلفه، قبل أن تتبعه حتى باب المنزل:

-ربنا يستر.

نظرة سريعة ألقاها "تميم" للأعلى، وهو يصعد درجات السلم متوجهًا للطابق العلوي، قرع الجرس، ودق على باب منزل "هيثم"، وأنفه يستنشق الرائحة الغريبة المنبعثة من الداخل، مسح أرنبته بظهر كفه، وانتظر بترقبٍ فتحه له، ظهر "هيثم" أمامه، فشمله بنظرة متفحصة لهيئته الفوضوية، ليسأله بعدها في ريبة:

-خير في إيه يا جماعة؟

أجابه وهو يفسح له المجال للمرور:

-ربنا لطف، حريقة قامت في المطبخ، بس لحقتها قبل ما تكبر.

ردد مذهولاً:

-يا ساتر يا رب، من إيه كده؟

جاوبه وهو يهز كتفيه في حيرة:

-مش عارف يا "تميم"...

ثم استخدم يده في الإشارة وهو يوضح له تفاصيل ما حدث:

-أنا فجأة شميت ريحة شياط، وببص لاقيت أمي قاعدة جوا المطبخ والنار هابة من البوتجاز.

فكر "تميم" مليًا فيما سرده، بعد أن ولج إلى المطبخ معه، ليمعن النظر بتدقيقٍ شديد في بقايا أثر الحريق، ودون مقدماتٍ تمهيدية، سأله مباشرة؛ وكأنه يشك في أمرٍ بعينه:

-تفتكر تكون أمك عملت كده؟

ضغط "هيثم" على شفتيه قائلاً بعد زفيرٍ طويل أظهر تردده:

-مش عارف، بس الموضوع بقى مقلق ..

لم ينبس ابن خالته بكلمة، متفهمًا طبيعة الموقف، وتبع بنظراته "هيثم" وهو يدنو من الحوض، ليحضر كوبًا ملأه بالمياه، ظلت أنظاره عليه عندما خاطبه:

-ده غير إن "همسة" تعبت من الريحة، وأغمى عليها، وبالعافية فوقتها.

اقترح عليه "تميم" بإصرارٍ:

-طب خلي جماعتك تنزل تحت عندنا مع أمك، لحد ما نتأكد إن كل حاجة بقت تمام، وهما هياخدوا بالهم منهم، وأنا هافضل معاك لغاية ما نشوف حل مناسب يريح الكل ويطمنهم.

كان "هيثم" في أمس الحاجة لفسحة من الوقت للتفكير بذهنٍ صافٍ، بعد الذي اختبره اليوم، لذا استحسن اقتراحه، ووافق عليه دون جدالٍ:

-ماشي.

.........................................................

جرفتها مشاعر الخوف ودفعتها للمكوث ليلاً في منزل عائلة "سلطان"، على أن تبقى في منزلها مع والدة زوجها، بعد تهديدها الصامت لها، فتشاركت الغرفة مع "هاجر"، ولازمت الفراش مقاومة الرجفة الغريبة المسيطرة عليها، حاولت الأخيرة تهوين الأمر عليها، فقالت وبين شفتيها ابتسامة مطمئنة:

-ماتقلقيش من حاجة، الدنيا هنا أمان.

قوست "همسة" شفتيها لتبتسم عندما ردت بحرجٍ:

-أكيد، أنا .. أسفة لو زاحمتك في أوضتك.

تصنعت "هاجر" العبوس، وأخبرتها بلطفٍ:

-إنتي نورتيني، وبعدين الأوضة واسعة زي ما إنتي شايفة.

شكرتها بامتنانٍ شديد:

-كتر خيرك.

تساءلت مضيفتها في نوعٍ من الفضول:

-هو حصل إيه بالظبط؟

تهربت من إعطائها الإجابة حتى تتحدث أولاً مع زوجها، وقالت:

-مـ.. مش فاكرة، أنا أغمى عليا من الخضة.

جلست "هاجر" على طرف الفراش إلى جوارها، ومسحت بحنوٍ على جانب ذراعها، وهي تتنهد قائلة:

-الحمدلله، عدت على خير.

بتوجسٍ لم تستطع ضبطته في نبرتها تساءلت "همسة"، والذعر يزحف على عينيها:

-أومال .. فين.. طنط "بثينة"؟

أجابت بتلقائية وهي تشير بيدها:

-خالتي، نايمة في أوضة أخويا، هي ماما معاها.

عضت على جانب شفتها قبل أن تسألها بتلعثمٍ يشوبه الخوف:

-طب ممكن طلب؟

ردت مرحبة:

-اتفضلي.

أخبرتها وهي تزدري ريقها:

-ممكن نقفل الباب بالمفتاح؟

تعجبت من طلبها الغريب، وسألتها مستوضحة:

-ليه؟ في حاجة؟

وقبل أن تمنحها ردها أخبرتها معتقدة أنها تفكر في تلك المسائل البديهية البسيطة:

-لو قلقانة إن في حد هيدخل علينا اطمني، الكل هنا بيراعي الخصوصية وبيحترمها.

أصرت على رغبتها دون تبريرٍ واضح:

-معلش، عشان خاطري.

استجابت لطلبها، ووافقت بإيماءة من رأسها:

-حاضر.

صاحبتها "همسة" بنظراتها الخائفة وهي تتجه نحو الباب، غمرها القليل من الارتياح بعد أن سمعت صوت حركة المفتاح في قفله لتوصده، وهمهمت بصوتٍ هامس للغاية:

-يا رب نجيني من شرها.

.............................................................

بدا الخيار الأسلم، بعد الكارثة التي وقعت في المنزل، إبقاء والدته بعيدًا عن محيطها، وتحديدًا في منزل شقيقتها، تحت مراقبة ورعاية العديد من الأشخاص،

ريثما يتخذ التدابير اللازمة، لنقلها لمكانٍ متخصص يتم فيه رعايتها نفسيًا وعقليًا، حتى لا تكرر فعلتها بجنونٍ أكبر لا يمكن السيطرة عليه. لم تخبر "همسة" والدتها بتفاصيل الحادث المشؤوم في حينها، بل انتظرت مرور يومين لتطلعها على الأمر، فجاءتها الأخيرة على الفور بصحبة توأمتها، لتعاتبها بلومٍ شديد:

-يعني لو مكونتش كلمتك بالصدفة، مكونتش عرفت باللي حصلك؟

هتفت بنبرة هادئة:

-عدت على خير يا ماما.

نظرت "فيروزة" لتوأمتها بنظراتٍ متفرسة، ثم خاطبتها بجديةٍ؛ وكأن في مضمون حديثها لها تحذيرًا متشددًا:

-الموضوع بقى خطير يا "همسة"، ماينفعش يتسكت عنه، الست دي لازم تروح مصحة نفسية تتعالج.

تطلعت إليها، وحركت شفتيها ناطقة:

-وده اللي "هيثم" ناوي يعمله.

سألتها والدتها بصبرٍ نافذ:

-وده امتى إن شاءالله؟

التفتت ناحيتها قبل أن تجيب:

-مش عارفة

أصرت عليها بخوفٍ أمومي بائن في صوتها:

-وإنتي مستنية إيه؟ لما تتهف في مخها أكتر، وتعمل فيكي حاجة؟

بتعابيرٍ مستاءة علقت عليها:

-وأنا في إيدي إيه أعمله يا ماما؟ الدواء بديهولها في ميعاده، وواخدة بالي منها على أد ما أقدر، ودلوقتي هي بعدت عني، وأعدة مع أختها.

هتف في تَبرمٍ غير راضٍ:

-ده مش كفاية.

أضافت "فيروزة" بما يشبه النصيحة:

-طب كلمي جوزك، وفهميه بالعقل كده، عشان يتحرك بسرعة.

بينما استمرت "آمنة" في إظهار هواجسها لها بترديدها:

-وبعدين لو مش خايف عليكي، فاحنا خايفين عليكي وعلى اللي في بطنك.

على مضضٍ عقبت ابنتها:

-ربنا يسهل.

تنهدت "فيروزة" طالبة من والدتها:

-خلاص يا ماما متقلقيهاش أكتر من كده.

على ما يبدو لم تكن "آمنة" راضية كليًا عن التفريط في حياة ابنتها وسلامتها، فاقترحت على ابنتها:

-تعالي روحي معانا.

رفضت رغبتها بلباقةٍ:

-عشان "هيثم" مايضايقش.

صاحت في اعتراضٍ مغلف بالسخط:

-هو إنتي هتقعدي في الشارع، ما هو ده بيتك.

بابتسامة لطيفة حاولت تبديد مخاوف والدتها، وأخبرتها:

-والله أنا دلوقتي كويسة.

يئست من إقناعها بالقبول رغم إلحاحها الشديد عليها بكافة الطرق، فنطقت أخيرًا في إحباطٍ:

-طب خدي بالك من نفسك، ماتخليش عقلي يودي ويجيب من القلق عليكي.

هزت رأسها في طاعةٍ وهي ترد:

-حاضر يا ماما.

أرادت "همسة" تغيير الموضوع بآخرٍ، فخاطبت توأمتها متسائلة في اهتمامٍ:

-أخبار محلك الجديد إيه يا "فيرو"؟

بحماسٍ انعكس في صوتها استطردت "فيروزة" تشرح لها:

-قربنا خلاص أهوو، بأشوف البضاعة اللي محتاجاه، وجمعت حاجات كتير، وقت ما استلمه بعد التشطيب هابدأ أرصها.

بنفس اللهفة قالت؛ وكأنها تشاركها حماسها:

-أنا هساعدك فيه ماليش دعوة، وهتلاقيني بنط فوق دماغك كل شوية، وليا لي نسبتي.

ضحكت وهي تعقب عليها:

-تعالي يا "هموس"، هو أنا هحوشك؟

تابعت "آمنة" حوار الشقيقتين، ومخططاتهما لتطوير العمل قبل أن يبدأ فعليًا بنظراتٍ لامعة، مليئة بالسعادة والحبور، ثم تنهدت داعية للمولى في سريرتها برجاءٍ كبير:

-ربنا يخليكم لبعض يا حبايبي.

.....................................................

وقف كلاهما على بَسْطة السلم يتبادلان الحديث الجاد، بعيدًا عن الثرثرة الجانبية للنساء، والتي قد تفسد تفكيرهما المنطقي، بسبب تأثير مشاعر العطف والشفقة. أشعل "هيثم" سيجارة أخرى، نفث دخانها بمجرد أن احترق طرفها، بينما اكتفى "تميم" بالواحدة التي تناولها قبل قليل، ليتطلع إلى ابن خالته بنظراته

الثاقبة، كان الأخير صامتًا، مستغرقًا في التفكير، تبدو الحيرة ظاهرة على محياه.

زفر "تميم" عاليًا، وارتكن إلى جانب الحائط، ليستطرد قائلاً بملامحه الجادة:

-أنا رأيي ماتسكتش عن حالتها، لازمًا حد متخصص.

قال بنوعٍ من التبرم:

-وأنا مقصرتش معاها!

حاول إيضاح أبعاد خطورة إرجاء التصرف المنطقي والسليم، بسبب تحكم عواطفه بقراره، فتكلم بعقلانية:

-طب ما إنت شايف عملت إيه وإنت موجود، ما بالك لو عينيك غابت عنها؟

لفظ الدخان من رئتيه، وتذوق التبغ في لعابه وهو يبلعه قبل أن يهمهم:

-ربنا يستر.

كرر عليه من جديد عله يدرك ما قد يغيب عن ذهنه:

-الصح إنها تفضل هناك شوية، وأنا اطأست وعرفت إن المكان ده كويس، فبلاش تأخر مرواحها.

قبل أن يأتيه تعليقه، التقطت أنظاره الأطياف المنعكسة على الجدران، لتنبهه لقدوم أحدهم، فاعتدل مستقيمًا في وقفته. كجرس إنذارٍ انطلق دويه فجأة، قفز قلبه بين ضلوعه عندما أطلت عليه بوجهها الناعم، وهي تتهادى في خطواتها

هابطة الدرجات متأبطة ذراع والدتها. جالت عيناه على ذلك الوشاح الأسود المتطاير حول وجهها، مداعبًا صدغيها بدلالٍ، كما لو كان النسيج يغازل بشرتها النضرة. سرعان ما تدارك نفسه، وأخفض رأسه مقاومًا خيبة الأمل التي اجتاحت وجدانه، لإبعاد عينيه عن تأملها. استمع إلى صوت "هيثم" وهو يتساءل:

-ما بدري يا جماعة؟

اقتحم أنفه الرائحة الزكية المنبعثة من العطر الغارق فيه ثيابها، ومع إرهافه السمع لصوت تنهيداتها، تحفزت حواسه وتيقظت على الأخير، فبدا وكأنه في حالة استنفارٍ، قاتل مستنزفًا طاقة صبره ليوأد ما نبض في خلايا جسده، وبعث الحياة فيها. حاول التركيز مع صوت والدتها التي ردت:

-عشان تاخدوا راحتكم، والحمدلله إنها جت على أد كده.

علق "هيثم" في رضا:

-قدر ولطف.

أوصته "آمنة" بلهجة الأم المتشددة:

-خد بالك من "همسة"، دي أمانتي عندك.

قال بصوتٍ مغاير للهادئ الذي كان عليه قبل لحظة:

-اطمني يا حماتي...

ألقى بالسيجارة، ودعس طرفها المحترق بقدمه قبل أن يكمل جملته:

-تعالوا أوصلكم.

رفضت إرهاقه قائلة بتهذيبٍ:

-لا يا ابني، ماتتعبش نفسك، المسافة مش بعيدة.

تسارعت النبضات، وكادت تنطق علنًا باستسلام فؤاده صريع حبها المتغلغل في أعماقه، أمام الصوت المتسائل في لطافةٍ اختزلت في الجميع النساء إلا سواها:

-هو الحاج "بدير" موجود؟

جاهد لتبدو نظراته عادية، غير فاضحة لأمره، وهو ينظر إلى قطعتي الفيروز عندما أجابها متسائلاً:

-أيوه، عايزاه في حاجة؟

استغربت والدتها من طلب ابنتها الغريب، وسألتها هي الأخرى:

-خير يا بنتي؟

التفتت برأسها في اتجاه والدتها، وأجابت بصوتٍ كان إلى حدٍ ما خافتًا:

-الفلوس بتاعة العمال يا ماما معايا، بما إننا موجودين بالمرة أديهاله.

التقطت أذناه كلامها، ووجد نفسه في موقفٍ حرجٍ، فوالده الوحيد المنوط بإدارة تلك المسألة المادية، لذا أخبرها بهدوءٍ:

-طب أنا هاشوفه نايم ولا صاحي.

اعترضت "آمنة" على إزعاجه قائلة بحرجٍ، ونظراتها اللائمة تتجه إلى ابنتها:

-لأ خلاص، مالوش لازمة تقلقه، خليها وقت تاني.

ضاقت عينا "فيروزة" في احتجاجٍ، وألحت عليها:

-بس يا ماما، دي فرصة وآ...

قاطعتها بحسمٍ، ونظرة صارمة تكسو عينيها:

-عيب يا بنتي، مايصحش نزعج الناس في بيوتها.

تدخل "تميم" في حوارهما قائلاً بترحيبٍ شديد وهو يشير نحو باب المنزل:

-ولا إزعاج ولا حاجة، اتفضلوا.

تمسكت برفضها لتلبية رغبة ابنتها، وبادرت بالتحرك نحو الدرج وهي تقول:

-وقت تاني إن شاءالله، عن إذنكم...

سحبت ابنتها من ذراعها خلفها قائلة لها:

-بينا يا "فيروزة".

لكز "تميم" ابن خالته في جانب كتفه، ليستحثه على الحركة، وصوته يأمره بلهجةٍ لا تقبل بالتهاون في تنفيذ ما قاله:

-انزل معاهم لتحت يا "هيثم"، وركبهم تاكسي وحاسبه.

حمحم قائلاً بإذعانٍ:

-طيب.

بمجرد أن هبط خلفهما "هيثم"، تحرك "تميم" ناحية حافة الدرابزون ليحني رأسه للأسفل، عله يلتقط لمحة أخيرة منها، قبل أن تغيب شمسه عن سماه. تحرر الهواء المشحون بالآمال والأحلام من صدره، مصحوبًا بدعاءٍ لا يتوقف اللسان عن ترديده ليل نهار:

-ربنا يقرب البعيد ................................ !!

.......................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل المائة واثنان

بكفين مرفوعين للأعلى، ولسانٍ يلهج بالشكر، اختتم "تميم" صلاة الجماعة مع جده، حيث قام بتأدية فرضه الرئيسي كعادته في غرفة الأخير كلما سنحت له الفرصة بذلك، خاصة بعد عودته من العمل. كانت الحجرة ملجأه المؤقت ريثما يتم نقل خالته من غرفته للمشفى النفسي. نهض من مكانه ساحبًا مصليته من أسفله، ليطويها بعد ذلك، ويضعها في مكانها المعتاد على التسريحة. التفت ناظرًا إلى جده الذي بادر قائلاً بنبرة خاشعة:

-تقبل الله.

رد مبتسمًا:

-منا ومنكم إن شاءالله ...

شعر بوخزة طفيفة في ركبته، فانحنى قليلاً ليدعكها بيده، وهو يتابع كلامه معه:

-متأخذنيش يا جدي، بقالي كام يوم مزاحمك في الأوضة...

ثم تنهد ببطءٍ، وأضاف:

-ربنا يسهل على "هيثم" ويودي أمه المصحة.

جاءه تعليق جده مؤيدًا انتقالها للمشفى النفسي، وقد ضاقت نظراته:

-أيوه، خلي الكل يرتاح.

تحدث "تميم" معقبًا على تأجيل ابن خالته تنفيذه للأمر:

-غصب عنه يا جدي، مهما كان دي أمه، مش هيرميها.

لمحة من الضيق ضهرت على وجهه وهو يكمل كذلك:

-ده غير جو الصعبنيات اللي كل شوية تعمله، وده مأخر الحكاية.

رد عليه جده بتعابيره الهادئة:

-ومين قالك إني مضايق من قعدتك معايا؟

ببساطةٍ أخبره مستخدمًا يده في الإشارة:

-برضوه عشان تاخد راحتك.

عاتبه "سلطان" بنوعٍ من المزاح اللطيف:

-دي فرشتك يا واد من زمان، ولا نسيت كنت بتعمل إيه وإنت صغير؟

وكأنه شرد في ماضٍ كان الأفضل على الإطلاق، فأخذ يشاركه في الاسترسال متحدثًا عنه:

-فاكر يا جدي، كنت باستنى أما أمي تنام، وأطلع من أوضتي أتسحب عشان أنام مكانك قبل ما ترجع من الدكان.

اتسعت بسمته وهو يواصل سرد المميز في طفولته:

-وكيس الحلويات، كنت أقوم من النوم ألاقيه محطوط جمبي على المخدة.

علق جده في حبورٍ، مبديًا سعادته باستعادة تلك الأحداث الطيبة:

-يـاه، ذكريات فات عليها زمن.

اقترب "تميم" من جده، وأحنى رأسه على قمة رأسه ليقبله في وقـارٍ، ثم تراجع عنه مرددًا في تضرعٍ:

-ربنا يديك طول العمر يا جدي، وتعمل كده مع ولادي.

أومأ برأسه قائلاً في استحسانٍ وهو يمسح على جانب ذراعه:

-يا رب..

جلس "تميم" على جانب الفراش، وتطلع إلى جده الذي سأله بتلميحٍ مبطن:

-كله تمام معاك يا "تميم"؟ الدكتور طمنك؟

تقوست شفتاه عن بسمة راضية، بعد أن فهم ما يرمي إليه وهو يرد:

-الحمدلله، أحسن عن الأول.

هز رأسه مغمغمًا في ارتياح:

-يستاهل الحمد...

ثم لاحقه بسؤاله الآخر؛ ولكن بشكلٍ مباشر

-مش ناوي بقى تاخد خطوة؟

زوى ما بين حاجبيه متسائلاً في غموض:

-في إيه؟

نظر في عينيه، وأجابه محذرًا:

-إنت فاهمني يا واد، ولا لازم أتكلم بالمفتشر؟

حمحم في خفوتٍ قبل أن يخبره بتنهيدة مغلفة بالآمال:

-والله نفسي، النهاردة قبل بكرة، بس مش عايز أستعجل في الحكاية دي بالذات، بدل ما تبوظ، خلي كل حاجة تيجي على مهلها.

كان تعقيبه عليه مريحًا له:

-كله شيء بأوان إلى أن يأذن الله.

ابتسم وهو يرد:

-ونعمة بالله.

أضاف جده خاتمًا حوارهما اليومي:

-ربك عليه جبر الخواطر، ماتبطلش بس دعا، وسعي.

نهض من جلسته، وأومأ برأسه هاتفًا:

-يا مسهل الحال، حاضر يا جدي.

.................................................

وضع إلى جواره على الأريكة المزدوجة، كيسًا بلاستيكيًا أسود اللون، ثم مد يده إلى كوب العصير المسنود على الطاولة القصيرة أمامه، وقربه من شفتيه، ليرتشفه مرطبًا حلقه الجاف بشيء حلو المذاق، بعد يومٍ شاق ومرهق في العمل. ظل "هيثم" صامتًا في البداية يستمع بغير تركيزٍ إلى الحوارات الجانبية بين خالته والجد "سلطان"، قبل أن تتجمد نظراته على خالته حينما سألته في عتابٍ:

-مجتش تتغدى معانا ليه يا "هيثم"؟ مش أنا موصياك من إمبارح؟

اعتذر منها بلباقةٍ، وعيناه تتطلعان إلى والدته الساكنة:

-معلش يا خالتي، كان ورايا شوية مصالح بأقضيها، وبعدها طلعت على "همسة" أشوف ناقصها إيه، ورجعت.

ربتت "ونيسة" على ظهره تشجعه وهي تقول:

-ربنا يقويك.

بابتسامة باهتة تساءل، دون أن تحيد نظراته عن والدته:

-أمي عملت إيه معاكو النهاردة؟

أجابت "ونيسة" وهي توزع نظراتها بينهما:

-هي كويسة يا ابني، اطمن.

قال في حرجٍ:

-تعبك معايا يا خالتي.

ردت مؤكدة ترحيبها بتقديم كل المساعدة المطلوبة دون كللٍ أو ملل:

-دي أختي يا حبيبي.

انضمت إليهم "هاجر" بعد قليل، تنهدت شاكية في تعبٍ:

-أخيرًا نام، أنا مش مصدقة نفسي.

نظرت إليها والدتها تسألها:

-الحمدلله، غطتيه كويس؟

أومأت برأسها قائلة:

-أيوه يامه.

تحركت عيناها في اتجاه "هيثم" عندما مد يده بالكيس البلاستيكي ليناولها إياه:

-اتفضلي يا "هاجر".

سألته في استغرابٍ وهي تأخذ الكيس منه:

-إيه دول؟

أخبرها بوجهٍ جاد التعبيرات:

-نصيبك من بيع الدكان لـ "سراج".

أسندت الكيس أمامها، وتساءلت في حيرة:

-وأنا هعمل إيه بكل الفلوس دي؟

في غمرة حوارهما لم يلحظ أحدهم عيني "بثينة" المعلقة بالكيس المليء بالنقود، غامت نظراتها، وتحولت للقساوة بشكلٍ مريب، لتبدو منفصلة عمن حولها، فيما عدا ذلك الوهج الطامع الملازم لنظراتها دومًا مهما تبدلت بها الظروف. خاطبت "ونيسة" ابنتها، وكأنها تنصحها:

-أهوم متعانين للزمن، محدش ضامن هيحصل إيه.

ردت "هاجر" في رضا:

-الحمدلله، خير ربنا موجود.

أضاف "هيثم" بعد زفيرٍ شبه مسموع:

-ربنا يزيدك، ونصيب أمي، أنا استلمته خلاص، هعين جزء منه في البنك، وجزء هصرفه عليها وأجيبلها أحسن الدكاترة عشان تتعالج.

اتجهت نظرات "بثينة" نحو ابنها، ارتكزت عليه بقوةٍ، وملامحها تنم عن وعيها الكامل لكل ما يدور من حولها، فبدت وكأنها غير راضية عن تصرفه في شئونها، في حين عبست "ونيسة" بتعبيراتها بعد سماعها لجملته تلك، وعاتبته بنبرة الأم الحنون:

-واحنا قصرنا معاها يا "هيثم"؟

رد عليها بإصرارٍ:

-معلش دي فلوسها، وحاجاتها، وأنا مسئول عنها دلوقتي.

من نظراته المتفرسة بها خلال مراقبته الحذرة لها، استشف "سلطان" أن الجالسة معهم، رغم سكوتها الإجباري، تدعي الجنون، فإدراكها لما يحدث في محيطها، والتحولات السريعة في تعبيرات وجهها أكدت له شكوكه، وحتى لا يبدو مختلقًا للأمر، قرر كشف أمرها بحيلة بسيطة. ضرب بعكازه على الأرضية، وصاح موجهًا كلامه لـ "هيثم":

-بأقولك إيه يا واد..

حرك "هيثم" رأسه في اتجاهه قائلاً في طاعة:

-أيوه يا جدي.

بنفس الصوت القوي الهادئ قال، وكامل نظراته الخبيرة على "بثينة":

-عايزك تاخدني شقة أبوك.

سأله في استرابة:

-ليه؟ في حاجة؟

بابتسامةٍ ماكرة تتدلى على جانب شفتيه أخبره بما يشبه الغموض:

-هاقولك هناك، أصله زي ما تقول سر، ماينفعش يتعرف.

لم يكن "هيثم" فضوليًا ليلح عليه لمعرفة السبب الذي يدعوه للذهاب إلى هناك، فرأسه كان مشحونًا بالكثير من المشاغل، لهذا كان رده عاديًا عليه:

-ماشي يا جدي، شوف الوقت اللي يناسبك، وأنا جاهز.

منح والدته نظرة ذات مغزى، قابلتها بنظراتٍ تعكس عدائية شرسة، وكأن ما بينهما ما صنع الحداد، قبل أن يجبر نفسه على النهوض وهو يخبر الجميع:

-بأمر الله، أنا هاقوم أريح شوية.

هتفت "ونيسة" على الفور:

-خد راحتك يا حاج، ولو عوزت حاجة ناديني.

-تسلمي.

قالها باقتضابٍ وهو يولي الجميع ظهره، متوقعًا أن تكون أنظار "بثينة" عليه، كان حدسه ينبؤه أنها لن تمرر الأمر على خير، ورغم هذا تمنى أن تخيب ظنونه لمرة واحدة!

.................................................

بقلبٍ خاشع، وصوتٍ يرتل في عذوبة، استمر الجد "سلطان" في قراءة ورده اليومي من المصحف الشريف، تاركًا باب غرفته مواربًا، غير متوقعٍ أن تُقبل "بثينة" على إيذائه نهارًا جهارًا، فالأخيرة ولجت إلى المطبخ، واختطفت من أدواته الموضوعة بداخل الدواليب يد *الهون* النحاسية، لتستخدمها في تهشيم رأسه بها. قضت "بثينة" ساعات الليل الطويلة، تنتظر على أحر من الجمر، مجيء اللحظة المناسبة، للإقدام على تنفيذ خطتها الإجرامية البسيطة، خاصة وأن الجميع مؤمن بكونها فاقدة للعقل والأهلية، راقتها تلك الفكرة كثيرًا، أن

توجه انتقامها لكل من تسبب في مقتل ابنتها، بشكلٍ غير مشكوكٍ فيه، ناكرة تورطها بصورة رئيسية في إفساد شخصها، وفي إزهاق روحها جراء طمعها الذي لا حدود له.

سارت بخطواتٍ متسللة متجهة إلى غرفة الجد، وكلها إصرار تلك المرة على الخلاص منه، دفعت الباب بيدها بخفةٍ، وعيناها تتطلعان إلى ظهره الموالي لها، ابتسامة شيطانية زحفت على شفتيها، فقط بضعة خطواتٍ تفصلها عنه، ستتخلص منه، ولن يتمكن من مقاومتها، فالأفضلية هنا لها! تابعت تقدمها نحوه، ويدها ترتفع تدريجيًا للأعلى، وقبل أن تصل إليه، كان "تميم" في طريقه إليه ليلقي عليه التحية قبيل مغادرته للعمل، هلل في ارتعابٍ وهو يثب في خطواته ليقبض على رسغها قبل أن تمس رأسه:

-حاسب يا جدي.

انتفض "سلطان" ناهضًا من مكانه هاتفًا في دهشة:

-يا ساتر يا رب.

استدار لينظر إلى الاثنين بعينين حائرتين، لحفيده نجح في تقييد رسغي خالته، والأخيرة تتأوه صارخة في غضب غير مفهومٍ، للحظة شُل تفكيره وهو يحاول تفسير ما يحدث، سرعان ما تجمدت أنظاره على يد الهون، وتفقه ذهنه لما حدث، لهذا سألها مستنكرًا:

-إيه اللي بتعمليه ده؟

قاتلت "بثينة" حتى الرمق الأخير، ويدها تلوح بالهون في كل الاتجاهات قاصدة إيذاء "تميم"؛ لكنه نجح في السيطرة عليها، وانتزاعه من قبضتها، ليصيح بها بكل ما اعترى صدره من غضبٍ جم:

-عايزة تقتلي الحاج؟

رد عليه "سلطان" بنظرة قاسية تلومها:

-واضح إن الجنان اشتغل.

جاءت كلاً من "ونيسة" و"هاجر" إلى الغرفة على إثر الصياح الجهوري المريب، وتفاجأت كلتاهما بما يحدث، لطمت الأولى على صدرها مرددة في صدمةٍ:

-ليه كده ياختي؟

صوت زئيرها المحموم، وعدائيتها المرئية تجاه من حولها، أكد للجميع أنها لم تكن نادمة على فعلتها، ولو اتيحت لها الفرصة لكررتها مرة أخرى. هدر "تميم" آمرًا والدته:

-كلمي "هيثم" ينزل بسرعة.

بصوتٍ تحول للاختناق، وعينين حزينتين ظلت والدته تردد:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، طب ليه يا "بثينة"؟

نجحت "بثينة" في الإفلات من قبضة "تميم"، وهرعت نحو شقيقتها تريد خنقها من عنقها؛ لكنه أمسك بها، وأبعدها عنها وهو يهتف في حنقٍ متعاظم:

-حاسبي يامه.

حلت الصدمة المستنكرة عليها، ونطقت في قهرٍ:

-حتى أنا ؟ للدرجادي بتكرهيني ؟

أبعدتها "هاجر" عن مرمى بصرها، وحاوطتها من كتفيها قائلة لها بنوعٍ من التعاطف الذي يتخلله الذهول:

-تعالي معايا يامه.

هتف الجد مشددًا:

-معدتش ينفع تفضل كده.

وافقه حفيده الرأي، وأكد عليه:

-أيوه، لازمًا تتنقل المصحة، هناك هتتعالج صح.

ظل صوت "ونيسة" يكرر في خذلانٍ أثناء خروجها من الغرفة:

-لله الأمر من قبل ومن بعد.

.................................................

تعاونا معًا، لإخراجها من المنزل، وتقييد حركتها بعد إجلاسها بالسيارة، من أجل اقتيادها نحو المشفى الذي وقع عليه الاختيار لإبقائها فيه، فقاومتها بكل

ما أوتيت من قوة، وانهالت يداها بالصفع تارة على وجه ابنها، وبالخدش والضرب على ظهر "تميم" تارة أخرى، خلال قيادته للسيارة، لم يعبأ بما تفعله، واستمر في طريقه إلى أن وصل إلى البوابة الرئيسية.

ترجل "تميم" أولاً، ودار حول السيارة ليفتح الباب الجانبي الخلفي الملاصق لابن خالته، خرج الثاني قبل والدته، وحاول سحبها من مكانها قائلاً لها:

-اللي بأعمله ده لمصلحتك يامه.

لكنها قاومته بشراسة، فانتزعت حذائها من قدمها، وضربته به بغلظةٍ على رأسه، فتأوه بألمٍ شديد، ومع هذا تغاضى عن وجعه لينجح بعد جهدٍ جهيد في إخراجها، ليبدأ بعدها "تميم" في الإمساك بها من ذراعها، وجرها معه جرًا نحو الداخل، اعتذر منها "هيثم" مجددًا في حزنٍ:

-سامحيني، بس والله ما برميكي، أنا باعمل ده عشانك.

تضاعفت مقاومتها للاثنين، وزمجرت بصراخٍ هائج، على أمل أن تفلت منهما، ورغم ذلك كان "تميم" لها بالمرصاد، لم يفلتها، وشدد على ابنها بلهجته الصارمة:

-امسك كويس يا "هيثم".

وكأنه يُحادث الفراغ، فالأخير ما زال يتكلم مع والدته؛ كأنما يبرر لها تصرفه:

-أنا على طول هاجي أزورك، بس إنت خدي دواكي عشان خاطري، وهتخرجي قريب.

صاح "تميم" مناديًا على الأمن الخارجي لاستدعاء بعض الممرضين:

-عاوزين مساعدة هنا يا إخوانا.

دقائق، وكانت "بثينة" محتجزة بالداخل، في إحدى الغرف الفردية، بعد حقن وريدها بمهدئ، ليسكن جسدها الثائر، وتخضع للمراقبة الطبية المتخصصة. ارتعشت يد "هيثم" وهو يكمل تسجيل بياناتها في الأوراق الموضوعة أمامه، رفع عينيه الدامعتين لوجه ابن خالته، وأخبره في حزنٍ:

-قلبي متقطع عشانها.

رد عليه بثباتٍ:

-ده لمصلحة الكل، بدل ما تأذي نفسها وتأذي غيرها.

تنفس بعمقٍ ليكبح رغبته في البكاء حسرة عليها، ودمدم في دعاءٍ:

-ربنا يشفي عنها.

بإيجازٍ واضح آمن عليه "تميم" وهو يضغط على كتفه، كنوعٍ من الدعم له:

-يا رب.

..................................................

وسط صخب العمال المحاوط بها في الدكان، حاولت "فيروزة" التركيز، وترتيب أفكارها في رأسها المشحون، لتنتهي اليوم من المهمة المحددة التي جاءت لأجلها، حتى تضع النقاط فوق الحروف، بعد الإرجاء والمماطلة الزائدة التي ضاعفت من شعورها بالاسترابة والقلق. لم تمد "فيروزة" يدها نحو طبق الفاكهة الموضوع

قبالتها، ولم تمس شفتاها علبة المشروب المنعشة أيضًا، اكتسبت ملامحها طابعًا جديًا ورسميًا للغاية، عندما خاطبت الحاج "بدير":

-كدهماينفعش يا حاج.

بصوته الهادئ الرزين سألها:

-وإيه اللي خلاه ماينفعش؟

أجابته في تبرمٍ يشوبه الاحتجاج:

-أنا مدفعتش ولا مليم، وحضرتك متكفل بكل حاجة، وبصراحة ده مضايقني، أنا مش حابة أستغل حد.

ضم "بدير" كفيه معًا فوق رأس عكازه، وتكلم معها بأسلوبه الهادئ، علها تقتنع بحججه:

-بصي يا بنتي، من غير ما نرغي كتير، هاقولك الخلاصة عشان ترتاحي.

أبدت ترحيبها بسماعه، فقالت وهي تلقي بطرف غطاء رأسها المتدلي على كتفها:

-اتفضل.

نظر إليها مليًا، قبل أن يخبرها على مهلٍ:

-اللي بأعمله معاكي، بأعمله مع أي حد بيفتح دكان جديد من التجار حبايبنا، بنسانده لحد ما يقف على رجليه، ويشم نفسه كده، ويبيع ويشتري، والزبون

يـروح ويجي عـلى دكانـه، ويبقى معـروف في السـوق، وبعـدها بقى نقعـد ونتحاسب.

ما زالت ملامحها تعكس عدم رضائها الكامل عن تصرفه السـخي معها، وإن لم تنطق بهذا حاليًا، حاولت إثنائه عن رأيه بطريقة أخرى، فاستطردت بصوتٍ عبر عن تحفزها:

-اللي حضرتك بتقوله ده تمام، ومقدراه جدًا ...

بلعت ريقها وأخبرته صراحةً:

-بس مافيش ورقة ولا إيصال يثبت حقك، أو حتى يضمنه.

بوجهٍ شبه مبتسم علق واثقًا:

-الكلمة في عرفنا اتفاق، مش محتاج لعقود.

دون ترددٍ ألحت عليه بعنادٍ:

-طب يبقى على الأقل أمضيلك على إيصال أمانة.

أصبحت ملامحه إلى حدٍ ما جادة وهو يرفض اقتراحها بلهجةٍ لم تكن لينة نسبيًا:

-وأنا مقبلش بكده، معمريش عملتها مع الغريب، هعملها معاكي إنتي؟ وبعد العمر ده كمان؟!!

شعرت بالحرج من نفسها بعد موقفه النبيل، وحاولت تبرير تصرفها:

-بس يا حاج أنا آ...

قاطعها بحزمٍ، ونظراته تتجه نحو أحد العمال المقبل عليه:

-اهتمي باللي ناقص في محلك وبس، وماتشغليش بالك بالحاجات البسيطة دي.

نطق الأخير وهو يشير بيده نحو الخارج:

-يا حاج، المعلم "عوف" واقف برا عايزك.

نهض "بدير" من مكانه قائلاً:

-أنا جايله.

بدورها نهضت "فيروزة" هي الأخرى من مقعدها، وقالت بتهذيبٍ رقيق،

-هستأذن أنا، وأرجع لحضرتك بعدين.

أشار لها بيده لتمكث وهو يرد:

-طب استني هبعت معاكي واد من هنا بحاجات لخالك.

تنحنحت معترضة في لباقةٍ:

-يا حاج خيرك مغرقنا.

قال وبين شفتيه ابتسامة ودودة:

-ده لخالك، مش ليكي، عشان عارفك حنبلية.

قالت بوجهٍ تورد قليلاً من الحرج لتطرقه إلى سمة متأصلة فيها:

-أنا مش بحب أبقى تقيلة على حد.

علق مادحًا حُسن أخلاقها الكيسة:

-يا ريت كل الناس زيك.

ردت مجاملة:

-الله يكرم حضرتك يا رب.

التفت "بدير" آمرًا العامل بصوته الصارم:

-تعالى يا واد جهز من كل صنف خمسة كيلو، وحطهم في أقفاص، المفعص لأ، عايز فرز أول، وأوام مع الأبلة لبيتها.

هز العامل رأسه قائلاً في امتثالٍ:

-تؤمر يا حاج.

نظرت "فيروزة" إلى ما يضعه العامل من أصناف مختلفة من الفاكهة في أقفاص بلاستيكية متنوعة، بعينين متسعتين، وشعورها بالحرج متمكن منها، حاولت اعتراض طريق العامل، والإشارة له بالتوقف عن ملء الأقفاص:

-كتير يا حاج، كفاية كده.

بوجه تبدل للابتسام طلب منها:

-ميغلاش على الغالي، خليكي مرتاحة لحد ما يخلص.

لم تجد ما تنطق به أمام سخائه وكرمه، فتراجعت خطوتين للخلف وهي ترمقه بنظراتها الممتنة.

.............................................

على الجانب الآخر، صف "تميم" سيارته بمحاذاة الرصيف المقابل للدكان، ليفسح المجال للشاحنة الكبيرة عندما يدور بها السائق، ويخرج من الزقاق الضيق نحو الشارع الرئيسي، ترجل بعدها واتجه إلى العمال المنهمكين في عملهم يشجعهم:

-الله ينور.

مسح بنظراته البوابة الأخرى للدكان، فوجد والده يتحدث مع "عوف"، اتجه إليهما مرحبًا بالأخير بحرارة:

-صباحك فل يا حاج "عوف".

بادله التحية بعشمٍ غير زائف:

-صباح العسل يا "تميم"، عامل إيه يا ابني؟ عاش من شافك، جيت كذا مرة وملاقتكش.

قال وهو يرفع يده للأعلى، ليمسح على رأسه:

-مصالح بخلصها.

ربت "عوف" على كتفه قائلاً:

-الله يقويك.

أمره "بدير" بهدوءٍ مستخدمًا يده في الإشارة:

-هاتلي الدفتر من جوا يا "تميم"، عشان نقيد فيه البضاعة اللي طالعة.

هز رأسه هاتفًا في طاعة:

-عينيا يا حاج.

امتدح "عوف" ما يقوم به رفيق الكفاح:

-شغلك طول عمره على مياه بيضا، لا بتغش في كِيلة ولا ميزان.

بثقةٍ تامة، ورضا لا حدود له رد عليه "بدير":

-احنا عايشين ببركة الحلال.

استدار "تميم" نحو المدخل الآخر للدكان، لكون الأول مزدحمًا بعشرات الأقفاص الخشبية المُعدة للتحميل، ومع هذا وجد العمال مشغولين في قذف الأقفاص، واحدًا تلو الآخر بحرفية ومهارة لنقلها من مكانها، وضمها للبقية الممتلئة بالمطلوب من بضائع طازجة، حذرهم وهو يتراجع برأسه للخلف، ليتفادى قفصًا بالكاد كان على وشك لمسه لانخفاض مستواه عن البقية:

-حاسب يا ابني الأقفاص.

رد العامل بثقة:

-متقلقش يا معلم.

رد ممازحًا بنوعٍ من التحذير:

-لما يلبس في وشي ساعتها إنت اللي هتقلق.

ابتسامة عريضة حلت على وجهه والعامل يرد في توجسٍ، محاولاً بتملقه اتقاء غضبه إن اندلع:

-رقبتي فداك يا معلم.

بقيت تلك الابتسامة الضاحكة على وجه "تميم"، وزادت اتساعًا وقد وقعت عيناه على "فيروزة"، لام قلبه الذي لم يتنبأ ككل مرةٍ بوجودها؛ ورغم ذلك لم ينتقص من فرحته شيء، بدا وكأنه طفل صغير تلقى مكافأة غير متوقعة، حتمًا يومه سيصبح أكثر تشويقًا! كانت الأخيرة مشغولة بالنظر إلى هاتفها المحمول، لذا لم تره في البداية، فتنحنح مناديًا؛ وكأنه يخاطب أحد العمال:

-رص الحاجة كويس يا ابني.

حينها رفعت عينيها لتنظر إليه، فتضاعفت السعادة بداخله، أي شيء آخر يريده غير هذا؟ نظرة واحدة منها كفيلة بقلب كيانه! تقدم نحوها مرحبًا بها بلسانٍ تحول للتعلثم؛ وكأنه يتعلم النطق من جديد:

-صباح .. الخير.

بادلته ابتسامة صغيرة رقيقة وهي ترد:

-صباح النور.

الرقة مع الجمال الفطري معادلة يصعب عليه تحملها، لعق شفتاه، وأخبرها مجددًا ترحيبه:

-منورة الـ.. الدكان.

قالت في اقتضابٍ:

-شكرًا.

سألها وهو يحك مؤخرة عنقه، محاولاً ألا يطيل النظر إليها، احترامًا لوعده لأبيه:

-في حاجة ... نقصاكي ولا حاجة يا.. أبلة؟

أجابت نافية:

-لأ، كله تمام.

سألها في اهتمامٍ، كمحاولة جادة منه، لاستطالة الحوار معها:

-أخبار دكانك إيه؟

ردت في استرسالٍ:

-المحل؟ تمام، وكله بصراحة بفضل الحاج "بدير" بعد ربنا.

بعفويةٍ قال لها، علها تفهم تلميحه الضمني:

-أبويا عمره ما يتأخر عن حد احتاجه في حاجة، ما أنا طالعله.

هزت رأسها قائلة بهمهمة خافتة:

-أها.

واصل كلامه معها بحماسٍ غريب اجتاحه كليًا:

-وإن شاءالله يكون فاتحة خير عليكي.

تنحنحت قائلة ببسمة كانت شبه مصطنعة:

-يا رب، عن إذنك.

تنحى للجانب لتمر، وهو يقول بتعابيرٍ شابها القليل من الحزن تأثرًا بذهابها:

-اتفضلي.

وقبل أن تخطو نحو الخارج هتف آمرًا العمال، حتى لا تتعرض دون قصدٍ للإيذاء:

-إنت يـــا ابـني، خد بالك، استنى لما .. الأبلة تعدي.

رد عليه العامل بصوته المرتفع:

-تمام يا ريسنا.

بصعوبةٍ أبعد نظراته الساهمة عنها، وتحرك في اتجاه الثلاجة، ليبدو غير مهتم بمتابعتها، فلا يظن أحدهم بها السوء، إن لاحظ مدى اهتمامه بها، وادعى انشغاله بالنظر لما يوجد بداخل الثلاجة للحظاتٍ، ليضمن مغادرتها لمحيطه، ثم اتجه إلى المكتب ليحضر الدفتر لأبيه، ويده الأخرى تختطف ثمرة تفاح لامعة،

كانت موضوعة على المكتب، قربها من شفتيها، وقطم قطعة منها، ليحادث نفسه وهو يتلذذ بمذاقها الطيب:

-أحلى صباح على التفاح.

..................................................

-بتعملي إيه يا "فيروزة"؟

تساءلت "آمنة" بتلك العبارة، وعيناها الحائرتان تراقبان ما تفعله ابنتها أمام المرآة، بهذا الكم المتنوع من أغطية الرأس. التفت تتطلع إليها، واستلت الدبوس المعدني من بين شفتيها، لتعقد به طرفي الغطاء عند عنقها، ثم أجابتها وهي تعاود التحديق في انعكاسها على السطح الزجاجي، لتضبط مقدمة حجابها:

-بأحاول أظبط شكل الطرحة عليا.

سألتها والدتها في تلهفٍ فرح:

-خلاص نويتي يا حبيبتي؟

أجابت مؤكدة:

-أه يا ماما، الفترة اللي فاتت كنت بأعود نفسي عليه، صحيح اتأخرت في الخطوة دي كتير، بس خلاص هعملها.

دعت لها في سعادة كبيرة:

-ربنا يزيدك من فضله.

-يا رب.

دنت "آمنة" من فراشها، وجلست على طرفه، ثم ركزت بصرها عليها، قبل أن تسألها في جدية:

-مش ناوية تقلعي الأسود؟ عدتك قربت تخلص خلاص.

بعد لحظات من الصمت المتردد تكلمت وهي تتنهد مطولاً، رافضة السماح لعقلها بالانخراط في ذكرياتها الحبيسة في أعماقها:

-أنا كده مرتاحة.

اعترضت على ما قالته بملامح مزعوجة:

-يا بنتي إنتي لسه صغيرة، هتحبسي نفسك جوا اللون الأسود؟

أعطتها مبررًا منطقيًا، قد يبدو مقنعًا لها:

-معلش، ده أحسن، وعشان محدش من الناس يتكلم عليا، ويقولك دي مصدقت.

راحت ترد في ضيقٍ:

-مالناش دعوة بيهم، هما هيتحكموا في حياتك؟ صحيح كله قضاء ربنا، بس ده ماينفعش لو جت فرصة آ...

قاطعتها "فيروزة" بجديةٍ شديدة:

-ميعاد دوا خالي جه يا ماما.

تلقائيًا ارتفعت عيناها نحو ساعة الحائط، وقالت وهي تنهض من مكانها:

-أه صحيح، هاروح أديهوله ...

وقبل أن تخرج من الغرفة، أشارت لها بسبابتها قائلة:

-بس هنتكلم تاني.

تصنعت الابتسام وهي ترد:

-إن شاءالله.

استمرت في التحديق بالمرآة متأملة الحزن المتسرب إلى وجهها، ولفظت الهواء محدثة نفسها في ألمٍ، لم يختبر قساوته سواها:

-محدش عارف اللي فيها، خليني مدارية فيه.

..........................................................

ابتلع القرص كاملاً، رغم نصيحة زميله بأخذ نصفه فقط؛ لكنه تجاهله، وانساق خلف رغبته في تنشيط جسده الساكن. خرج "فضل" من المطبخ متجهًا إلى حيث تجلس والدته، وجدها تستند بوجهها على كفها المضموم وهي تجلس على المصطبة، يبدو الهم جليًا على ملامحها الغائمة؛ وكأن تعاسة الدنيا بأكملها قد تجمعت أمام عينيها، لتزيد من إحساسها بالبؤس. زفيرٌ طويل أعقبه آخر، وهي ما زالت تدمدم بكلماتِ الندب البائسة. رفعت "سعاد" أنظارها تجاه الباب، حينما أقبل عليها ابنها، تطلع إليها الأخير بنظراتٍ متعجبة، قبل أن يستطرد متسائلاً:

-مال بوزك شبرين كده ليه يامه؟

أجابته بغموضٍ:

-مادرتش باللي حاصل؟

سألها ساخرًا، قبل أن ينفجر ضاحكًا، مستهينًا بحرمة الموت

-في إيه؟ العمدة مات؟

نظرت له شزرًا قبل أن تجيبه بتبرمٍ:

-لأ يا فلحوس، "سها"، أم عيالك، هتتجوز.

مسحت دمعة نافرة من عينيها، وأكملت:

-سمعت طراطيش كلام من أهل البلد، وقت ما تخلص عدتها، هيتعقد عليها من حد قريبهم.

فاجأها برده الوقح غير المكترث:

-يالا في داهية، أهوو غيري يلبس في النحس...

سرعان ما تبدلت نبرته المتهكمة للتهديد وهو يكمل:

-بس لو عاملة كده عشان تحدف العيال عليا، لأ تنسى.. هي أخرها معايا مصروفهم، ما أنا بردك عايز أدلع نفسي وأتجوز.

حملقت فيه "سعاد" بنظراتٍ مستهجنة، وسألته في استنكارٍ شديد:

-هترمي عيالك يا "فضل"؟

كان رده الفظ صادمًا لها:

-هما أعدين في الشارع؟ ما هما عند أهلها اللي عايشين زي ضربة الدم.

عنفته لأسلوبه المستفز:

-يا ساتر عليك.

وقبل أن تتمادى في تكديره بالأخبار السخيفة، رفع سبابته أمام وجهها ينذرها:

-بأقولك إيه؟ أنا مروق دماغي، مش ناقص عكننة تطير المزاج بتاعي.

نهضت من مكانها، وألقت عليه نظرة آسفة لسوء تربيتها له، وهتفت في امتعاضٍ:

-ربنا يهديك لنفسك.

لوح بيده أمام رأسه معلقًا في سخطٍ:

-متشكرين يامه.

انتظر ذهابها ليفرك صدره مخاطبًا نفسه في نشوةٍ متحمسة:

-المفروض كده المسائل تشعشع.

أخرج هاتفه المحمول من جيبه، وانزوى في ركنٍ هادئ، ليشاهد المقاطع الإباحية الجديدة التي ملأ بها ذاكرة هاتفه، وتحفز لتجديد إحساسه بتجاوبٍ

يسري في عروقه؛ لكن خاب مسعاه، فاشتاط غضبًا، كز على أسنانه مدمدمًا في نقمٍ:

-لأ، كده كتير، شكلها جابت ضرفها معايا ولا إيه؟

استبد الغضب الممزوج بالغيظ في صدره، وطفحت آثاره على وجهه، فالأقراص المنشطة التي ابتاعها تعد قوية المفعول، وسريعة التأثير، كلفته الكثير من الجنيهات، احتدم حنقه الحاقد بداخله، ليردد بعدها ملقيًا اللوم على واحدةٍ بعينها، اعتبرها المتسببة في إصابة مصدر رجولته بالعطب:

-كله منك يا بنت الكلب، لو كنت قصيت لسانك ساعتها مكانش الحيوان ده عَلم عليا.

أغلق الهاتف، وقبض عليه بأصابعه في تشنجٍ، حتى ابيضت مفاصله، ثم واصل وعيده لها، وقد غامت نظراته بشكلٍ سوداوي مخيف:

-بالله ما هسيبك، هاجيبك تحت رجلي بالعافية، حتى لو وصلت للخطف ....

فحيح ملوث بأنفاسه الكريهة خرج من فمه وهو يختتم ما قطعه على نفسه من عهدٍ واجب النفاذ:

-وساعتها هاخد حقي منك ......................... !!!

.................................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الأبيض

## الفصل المائة وثلاثة

حز في قلبه بشدة، أن يراها تتألم، وهو يقف كالعاجز، لا يقوى على تقديم أدنى مساعدة لها، ينعم بحريته، وهي حبيسة أربعة جدران. رفض الطبيب المتابع لحالتها العقلية السماح لـ "هيثم" بزيارة والدته، رغم تردده على المشفى لأكثر من مرة؛ لكون الأخيرة بحاجة للبقاء معزولة عن الآخرين لفترة من الزمن، حتى لا تعرض غيرها للضرر بسبب تصرفاتها غير المتوقعة. عاد إلى منزله مجرجرًا أذيال الخيبة ورائه، بالكاد يمسح دمعاته الهاربة من طرفيه، استقبلته زوجته بكل حنوٍ وود، حاولت تهوين الأمر عليه، واحتواء أحزانه المتمكنة منه بعاطفتها الجياشة.

مال "هيثم" برأسه على كتفها، وانتحب يشكو لها ما يضمر في صدره:

-صعبانة عليا أوي يا "همسة".

مدت يدها لتمسح برفقٍ على ذقنه النابتة بحركة متكررة، بينما استمر في استرساله المليء بالأسى:

-كل ما أروحلها يمنعوني من الزيارة، بيقولوا حالتها ماتسمحش تستقبل حد.

حاوطته بذراعها من كتفه، وقالت كنوعٍ من المواساة:

-إنت عملت اللي عليك وزيادة.

بدا في حالة بائسة للغاية عندما أخبرها:

-أنا مش عايزها تفتكر إني رميتها.

ردت مصححة له بصوتها الهادئ:

-مين قال كده؟ إنت فكرت في اللي فيه مصلحتها، اللي يفيدها مش يضرها، وأكيد لو كانت أذت حد تاني مكونتش هتسامح نفسك.

أبعد رأسه عن كتفها، وتطلع إليه بعينيه التعيستين متسائلاً:

-تفتكري هي مسمحاني على ده؟

ردت بابتسامة ناعمة علها تطمئن قلبه الملتاع ألمًا عليها:

-أي أم بتسامح ولادها مهما عملوا.

حاولت الحفاظ على عذوبة بسمتها وهي تضيف:

-وبعدين بكرة تبقى أب، ونشوف هتعمل إيه مع ولادك.

بادلها ابتسامة باهتة وهو يقول لها:

-"همسة"، أنا مش عارف أقولك إيه..

رمشت بعينيها في اهتمامٍ، وقد رأت الصدق بازغًا في نظراته نحوها. تنهد مكملاً على مهلٍ، كأنما يجدد اعترافه النادم لها:

-إنتي أكتر حد وقف جمبي في كل أزماتي، أنا مكونتش البني آدم العِدل، بالعكس ياما عملت مصايب وكوارث، كنت ماشي بدماغي، باستسهل عمايل الغلط، وحتى خطوبتي منك مكانتش وقتها برضايا.

قابلت كلامه بعباراتٍ ذات مغزى، عنت له الكثير:

-ساعات الخير بيبقى موجود جوا الشر، بس مستنينا نفتش عنه، وإنت كان جواك الخير ده، والحمد لله لاقيته.

أقبل عليها يحتضنها، وهو يعلق في حبورٍ شديد:

-إنتي الخير كله يا حبيبتي.

كفكف العالق من دموعه، وتابع داعيًا المولى:

-ربنا يخليكي ليا، ويقدرني أعملك كل حاجة بحلال ربنا.

ضمته إليها مستشعرة ثقله على صدرها، وقالت مؤمنة على دعوته:

-حبيبي، ربنا ما يحرمني منك.

................................................

-نثبت على كده يا أوستاذة؟

تساءل المقاول الواقف على يسارها بتلك العبارة المهتمة، وهو يوجه تعليماته بيده للعاملين الواقفين على سلمين خشبيين متقابلين، ليتمكنا من وضع اللافتة الجديدة في المنتصف بالضبط، أعلى مدخل الدكان بعد توضيبه. أمعنت "فيروزة" النظر فيها، قارئة بهمسٍ بالكاد تحرر من بين شفتيها:

-محل الفيروزة لتغليف الهدايا وتجهيز لوازم السبوع والمناسبات.

اعتلى ثغرها بسمة فرحة، وأخبرته بإيماءة موافقة من رأسها:

-أه تمام كده...

ثم التفتت ناظرة إليه، وتابعت تبريرها:

-أصلها في الأول كانت معوجة شوية.

علق بنبرة عادية:

-اللي تؤمري بيه، خدامك.

شكرته على سعة صدره، وصبره الطويل معها، فقالت:

-الله يكرمك يا رب.

وجه من جديد تعليماته للعاملين:

-ثبتوا اليافطة على كده.

رد أحدهما بامتثالٍ، وهو يرفع الشاكوش للأعلى:

-حاضر يا ريس.

في تلك الأثناء، كان الشوق يستحثه للذهاب إليها، ليتأكد مما رآه قبل يومين، فلم تكن كعادتها تطرح غطاء الرأس على رأسها، بل كان تلك المرة معقودًا، يلف وجهها كجوهرة ثمينة، جاهد بعزمٍ من حديد ليرجأ ما يطلبه القلب؛ ولكن كلما قاوم أكثر، كلما ازدادت رغبته فيها. اشتهى "تميم" رؤية وجهها، فغلبته عواطفه، وانهزم صموده أمام لوعة الاشتياق، ومع هذا كان يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى، حبه يدفعه للتقدم نحوها، وعهده لأبيه يلزمه بإبقاء مسافة بينهما!

علق "تميم" في المنتصف بين الآمال والالتزامات، فجال بخاطره أن يدعي شرائه لقداحةٍ جديدة من الكشك المرابط عند الناصية، والذي يبعد بضعة أمتار عن مدخل دكانها، ربما بهذا يتمكن من لمحها دون أن تراه فعليًا. وقف عند بقعة أتاحت له الرؤية من منظوره. لحظه العثر لم تكن واقفة، اشرأب بعنقه محاولاً البحث عنها، ومع هذا بدت غير مرئية له، أصابه الإحباط الشديد، وتسرب اليأس إليه؛ لكن سرعان ما تبدل الضيق لفرحة اجتاحته، أطلت بحجابها الأسود المعانق لقديها، وملامحها المشرقة فتبددت كل الهموم.

سارت "فيروزة" بخيلاء وعزة، وإلى جوارها المقاول المكلف بإتمام العمل هناك، دقق النظر فيهما، فوجد الأخير يلوح لها بيده، وكأنه يشرح لها أمر ما، لوهلة شعر بالغيرة لكونه يحظى بما حُرم منه، تحامل على نفسه، وتغاضى عن الأمر متصنعًا الجدية.

بصعوبةٍ أبعد عينيه عنها، وحملق في اتجاه صاحب الكشك عندما سأله باحترام:

-طلباتك يا معلم؟

أجابه بإيجازٍ:

-عايز ولاعة.

هز رأسه وهو يبحث عن الغرض المطلوب:

-حاضر.

بعد لحظةٍ، أعطاه الأخير القداحة، وناوله "تميم" ثمنها، فأصبح بلا حجةٍ للبقاء، لذا فكر في ادعاء تحدثه في الهاتف، وحتى لا يُكشف أمره، وضع الهاتف على خاصية الصمت، ورفع من نبرة صوته قائلاً:

-أيوه يا حاج .. سامعك.

تحرك مستندًا على أحد أرفف الكشك، وسلط كل نظره على "فيروزة"، مراقبًا ما يحدث، ارتفعت عيناه للأعلى عندما رأى اللافتة، وتلقائيًا تشكلت ابتسامة مبتهجة على ثغره لرؤية اسمها ينير المكان، أحس بالمزيد من السعادة تطوقه، وبذل مجهودًا يفوق الطبيعي ليبدو غير متأثر بما يراه، حمحم من جديد بصوتٍ شبه متحشرج، وقال:

-تمام، اللي تطلبه هايكون جاهز.

لم يطل البقاء في مكانه، وانسحب بعد اختطاف نظرة أخيرة سريعة نحوها، أرسل معها تهيدات حارة، تشتاق للتمتع بضحكة نضرة، تفتت ما حاوط القلب من جمود.

.................................................

بأوداجٍ منتفخة قليلاً، وبشرة تميل للحمرة؛ بسبب ارتفاع حرارة الجو إلى حد ما، ترجلت "فيروزة" من سيارة الأجرة، تضع نظارة شمسية على عينيها، وحاملة بكلتا يديها أكياسًا بلاستيكة، ممتلئة بالكثير من البطاقات المطبوعة التي

استلمتها من المطبعة. ساعدها السائق على إخراج الباقي من المقعد الخلفي، وناولها إياه، شكرته باقتضابٍ بعد إعطائه أجرته:

-تسلم.

رد في رسمية:

-العفو.

اتجهت نحو مدخل بنايتها القصيرة، وهي تحاول ألا تفلت شيئًا من يديها، زوت ما بين حاجبيها، وحدقت أمامها في فضولٍ مهتم، عندما لفت أنظارها وجود بضعة أشخاصٍ غرباء، مستندين على حافلة صغيرة، يقفون على بُعد عدة أمتارٍ من المدخل، نظروا جميعهم إليها كما لو أنه يتم فحصها تحت المجهر.

لم تستمع "فيروزة" لسؤال أحدهم العابر، ونظراته الجريئة تتجول على تفاصيلها؛ وكأنها تجردها من ثيابها:

-هي دي يا رجالة ولا لأ؟

همس له زميله الواقف على ميمنته:

-لأ، هو قال مش محجبة، وأنزوحة في نفسها.

بينما أضاف آخر كنوعٍ من التخمين:

-شكلها واحدة جاية بضاعة تصرفها.

حذرهما ثالث بلكزة خفيفة على صدر الأقرب إليه:

-خلاص ماتبصوش أوي عليها، ألا تاخد بالها.

أبعدوا نظراتهم المتطفلة عنها، ليعودوا إلى همهمتهم الصاخبة مع بعضهم البعض، استنكرت تسكعهم هنا، وتابعت سيرها للداخل وهي تبرطم في ضيقٍ:

-ده اللي ناقص، شوية صيع يقفوا هنا.

.............................................

التقطت أنفاسها اللاهثة بصعوبةٍ، بعد مجهودٍ مضاعف منها، لصعود الدرجات التي بدت لا تنتهي، لتصل إلى عتبة باب منزلها، تركت كل شيء على الأرضية، مستشعرة الأنين الصارخ في ذراعيها، فركتهما بحنوٍ، وحفزت نفسها المتعبة بكلماتٍ مشجعة:

-هانت يا "فيرو"، دي آخر حاجة، الباقي سهل.

بحثت في حقيبة ظهرها الجلدية عن مفتاح المنزل، أخرجته من جيب صغير بها، ودسته في القفل، ثم انحنت لتجمع الأكياس، وأدخلتهم للبهو وصوتها يهلل مرحبًا:

-سلامو عليكم، أنا رجعت يا ماما.

كانت مشغولة بوضع الأكياس على أقرب طاولة، لذا لم تنتبه للضيف غير المرحب به المتواجد في صالون المنزل، وعلى ما يبدو ينتظرها منذ وقت طويل. عرجت "فيروزة" أولاً على المطبخ تبحث عن والدتها فيه وهي تواصل استرسالها عن تفاصيل يومها بصورة عفوية:

-كلها كام يوم ونقفل كل حاجة، ويبقى المحل جاهز على الافتتاح.

اتجهت من تلقاء نفسها نحو الردهة الطويلة، لتقع أنظارها على والدتها الجالسة بحجرة الصالون، سألتها في دهشة:

-ساكتة ليه يا ماما؟ في حاجة حصلت.

نظراتها الممتعضة أوحت لها بوجود خطب ما، وقبل أن يتبادر لذهنها أي هاجس مأساوي، هتف "فضل" من ورائها بعد أن عاد من الحمام:

-إزيك يا بنت عمي؟

التفتت كالملسوعة لتنظر إليه في سخطٍ وكره، ثم سألته في وجوم:

-إنت بتعمل إيه هنا؟

أجابها وهو يفرد كتفيه في زهو لا يليق به أبدًا:

-جاي عشان أخدك معايا.

غامت ملامحها، وتحولت تعبيراتها للشراسة وهي تهاجمه برفضٍ عدائي:

-نعم، إنت اتجننت؟ ولا شكل مخك جراله حاجة؟ تاخد مين معاك؟

ببرودٍ سمج كرر إجابته عليها؛ وكأنه يتلذذ باستفزازها:

-زي ما سمعتي، هاخدك معايا يا بنت عمي.

حضر من ورائه على مقعده المتحرك "خليل"، أدار الكرسي المدولب في اتجاهه لينظر إليه في استنكارٍ، ثم نطق بتلعثمٍ يعبر عن عدم رضائه:

-بـ...تقـ..ول إيه.. يا .. "فضل"؟

صاحت "آمنة" في صدمةٍ وقد هب واقفة هي الأخرى على قدميها:

-إيه التخاريف دي؟

عادت "فيروزة" لتخاطب والدتها متعمدة الاستهزاء بتصريحه:

-سامعة يا ماما الهبل اللي بيقوله؟

مرر أنظاره عليهم، وقال مؤكدًا بسماجةٍ لزجة:

-ده مش هبل يا عروسة...

لم تكن نبرته بالمازحة وهو يخبرهم بحسمٍ:

-إنتي هتفضلي في بيت عمك، لحد ما تخلص عدتك وأتجوزك.

شخصت "فيروزة" بعينيها في ذهولٍ حانق، وأنكرت "آمنة" ما ألقاه في وجوههم كالقنبلة:

-إيه الكلام ده؟

بينما رد "خليل" رافضًا بصوته المتقطع:

-مش.. هـ...يحـ..صل.

أهانه "فضل" بوقاحةٍ فجة وهو يرمقه بتلك النظرة الاحتقارية:

-اركن إنت على جمبك يا خال، بدل ما أنا مش فاهملك كلمة.

استوعبت "فيروزة" ما قاله بعد لحظة من الشلل في تفكيرها، واندلع غضبها كالبركان، خاصة مع توجيهه الإهانة لخالها العاجز، فصرخت فيه:

-احترم نفسك يا حيوان، والله شكلك كده شارب حاجة على الصبح.

امتدت يده لتقبض على ذراعها، هزها بعنفٍ وهو يتوعدها:

-بتغلطي فيا؟ أنا هعرف أربيكي بطريقتي.

بغضبها المستعر فيها نفضت ذراعها مزيحة قبضته عنها وهي تعنفه:

-إياك تلمسني يا حيوان.

نظر لها باستخفافٍ، وتابع تهديده:

-اغلطي كمان، احنا نرجع البلد الأول، وبعدها هاشوف هاعمل معاكي إيه.

تراجعت خطوة للخلف تاركة مسافة بينهما، وردت عليه بتحدٍ وهي تشير بسبابتها:

-مش هايحصل، وأنا هوديك في داهية.

قال بازدراءٍ صريح:

-داهية عشان هتجوزك، وأتستر عليكي، وعلى فضايحك اللي ريحتها فاحت؟!

قابلت اتهاماته الباطلة بوابلٍ من السباب العنيف:

-إنت بني آدم سافل ومنحط...

ما لبث أن أصبح صوتها أكثر حدة وانفعالاً وهي تكمل:

-أنا أشرف من أي حد، ويكون في معلومك، لو كنت آخر راجل في الكون كله، مش هاتجوزك.

رمقها بنظرة دونية قبل أن يعلق باستحقارٍ:

-إنتي مالكيش رأي أصلاً، إنتي هتنفذي اللي بأقوله، والجزمة في بؤك، ولا عايزاني أركب قرون، عشان تتسرمحي مع كل من هب ودب؟!!!

لم تتحمل إجحافه الظالم في قذفها بالباطل من الاتهامات، فتقدمت نحوه بكل ما يستعر فيها من غلٍ وغضب، رفعت يدها للأعلى، وهوت به على صدغه تصفعه في شراسةٍ وهي تلعنه:

-إنت أوطى خلق الله ...

لم تهاب عينيه المتقدتين كالجمرات، وطردته باستبسالٍ دومًا يظهر فيها عند الشدائد:

-امشي اطلع برا.

كز "فضل" على أسنانه مرددًا بأنفاسٍ محمومة:

-بتمدي إيدك عليا؟

بقدمين ثابتتين، وأنفٍ مرفوعٍ للأعلى في كبرياءٍ وعزة، ناطحته الرأس بالرأس، وواصلت إهانتها له:

-دي أقل حاجة يا بغل، امشي غور من هنا.

بات السبيل الوحيد لرد اعتباره، بعد انتقاصها لرجولته، أمام الاثني، هو كسر نعَرتها، ودعس عنقها بقدمه، لذا قبض على رأسها بيده الغليظة، ولواها بعنفٍ قاصدًا إيلامها وهو يهدر بها:

-أنا هوريكي.

تدخلت "آمنة" متعلقة بذراعه، ومحاولة انتزاع يده من على ابنتها، وصوتها يصرخ به:

-ابعد عن بنتي.

حرك "خليل" مقعده، ليضرب به ساقه فيدفعه عنوة للخلف، ثم هتف بما يستطيع من طاقة، عله يردعه:

-ســ..يبها.. ما.. تقربــ..ش منها.

حاول "فضل" إزاحته عن طريقه؛ لكنه فشل، فخالها بقي حائلاً بينه وبينها، ووالدتها استمرت في اعتراض المسافة المتبقية للمرور إليها، ارتفعت نبرته المهددة، وعيناه تقدحان بالشرر:

-قسمًا بالله ما هتباتي فيها يا "فيروزة"...

نجح في تجاوز "آمنة"، ووصل إلى ابنتها، قبض على ذراعها، وحفر أظافره في لحمها المغطى بالثياب، ليلويه خلف ظهرها، يريد حقًا إيذائها بلا رحمة، ثم دفعها أمامه، واستطرد يخاطبها بما يحرق أحشائه من حقدٍ متعاظم:

-مش نازل من هنا إلا وإنتي معايا.

صرخت "فيروزة" مقاومة إياه:

-ابعد إيدك يا قذر، ماتلمسنيش.

رد بعدائيةٍ، وهو يزيد من ضغطه على ذراعها الملتوي:

-إيه مفكراني مش هاقدر عليكي؟ ده أنا جايب رجالة معايا يجرجوكي من شعرك لهناك.

سريعًا استعادت "فيروزة" في ذهنها صورة المتسكعين بجوار مدخل المنزل، ورددت بأنفاسٍ منفعلة:

-إنت بتقول إيه؟

قرب فمه من أذنها، وأخبرها بنبرته الحانقة:

-هترجعي معايا دلوقتي، ولو قتلت فيها الكل.

استعانت "آمنة" بالمزهرية المصنوعة من الفخار لتضرب بها على عضده، فنجحت في تحرير ابنتها، وهتفت تزود عنها بمشاعرٍ أمومية مقاتلة:

-حاسب إيدك عن بنتي.

على الفور استغلت "فيروزة" الفرصة لتهرب من براثنه، وقفت عند عتبة مدخل غرفة الصالون، واستدارت تواجهه بوجهها المتقد غضبًا:

-إنت مجنون رسمي.

صاح بها يتوعدها:

-مش سايبك النهاردة.

هتفت فيها أمها ترجوها، وهي تلوح بالمزهرية مرة أخرى أمام وجه "فضل"، كنوعٍ من التهديد الظاهري له، وإن لم يكن كافيًا لردعه:

-اجري يا "فيروزة"، ابعدي عن خلقته، واطلعي عند "همسة".

فهمت دون عناءٍ الإشارة المبطنة من والدتها للذهاب عند توأمتها والاختباء لديها، فالأخيرة قد عادت لمنزلها منذ يومين، وربما تصريحها بذلك يجعل "فضل" يعتقد أنها ستختبئ بالطابق العلوي على أقصى تقدير.

في حين سد "خليل" المدخل بكرسيه، ليعوقه عن اللحاق بها، وصوته المتلعثم يأمرها بخوفٍ حقيقي:

-امـ...شي، بســ..رعة.

تلك المرة لم تعارض أيًا منهما، فبحسبةٍ عقلية صغيرة، الكفة لن تكون راجحة لصالحها، والغلبة حتمًا له، لو استعان بالأوغاد الذين استأجرهم، خاصة بعد إمساكه ليد والدتها التي انهالت على مقدمة رأسه بالمزهرية.

قررت "فيروزة" أن تعمل عقلها، وتصرفت بسرعة بديهة، لذا هرولت ركضًا نحو باب المنزلِ، فتحته وخرجت منه مغلقة إياه بهدوءٍ، ثم أسرعت هابطة درجات السلم بتعجلٍ، كفرار غزالٍ شريد من ضبع جائع يُجاهد للحاق به لافتراسه.

....................................................

توقفت عند مدخل البناية تلتقط أنفاسها اللاهثة، ثم تابعت سيرها للخارج؛ لكنها سرعان ما تراجعت مختبأة، فقد انتبهت لوجود هؤلاء الغرباء على مقربة من المدخل، اجتهدت لتضبط انفعالاتها وتستعيد هدوئها، لئلا تثير الريبة حينما تخرج من جديد، وبالتالي تسهل عليهم الفرصة للقبض عليها. تنفست "فيروزة" بعمقٍ، وهي تطل برأسها لتلقي عليهم مرة أخرى نظرة مختلسة، همست مرددة في تساؤل حائر مع نفسها:

-هعمل في دول إيه كمان؟

لحسن حظها كانوا منهمكين في ثرثرتهم، لذا تشجعت للمضي- قدمًا في سيرها، متسللة تحت أنظارهم غير المنتبهة لها، جاهدت لتبدو عادية في مشيتها، أولتهم ظهرها، وانتصبت خلال خطواتها المتزنة، متخذة الطريق المعاكس مسارًا لها. تابعت المشي حتى نهاية الرصيف، حينها فقط ركضت بأقصى- ما تستطيع محاولة عبور الطريق للجهة المقابلة، وحتى لا تضيع الوقت أوقفت سيارة أجرة لتستقلها هاربة من الجحيم الملاحق بها، أخبرت السائق بأنفاسها المتسارعة:

-اطلع بسرعة.

....................................................

خليط من الغضب، الحقد، السخط، والكراهية استبد به، فلم يعد يضع في اعتباره أي شيء! اقتحم "فضل" غرف المنزلين كالمجنون، باحثًا عن "فيروزة"

دون مراعاة لخصوصية أصحابه، احتد غضبه عندما لم يجدها، فقط تسبب بهوجائيته في إيقاظ الصغيرة "رقية"، ومع هذا لم تسلم من بطشه، أطبق على عنقها، ورفعها عن الفراش مهددًا:

-هاتقولولي خبتوها فين وإلا هاموتها!!

صرخت به "آمنة" في ارتعابٍ:

-إنت اتجننت؟!!

بكت "رقية" مستغيثةً، وهي تمد ذراعها نحو أبيها العاجز، طالبة النجدة منه:

-بابا!

تجمد الأخير بمقعده في مكانه، يتطلع إلى طفلته الوحيدة بنظراتٍ مذعورة خائفة، وبصوته المتلعثم صاح:

-سـ..يب ... بنـ..تي.

استمر "فضل" في تهديده المجنون هادرًا بهما:

-انطقوا، وديتوها فين؟

أجابته "آمنة" بوجهها الخائف:

-منعرفش.

بعد لحظة من التفكير، استجمع شتات أفكاره، ونطق عن شكوكه الدائرة في ذهنه:

-يبقى أكيد راحت عند اللي ما تتسمى أختها، ما هي مش موجودة هنا، تبقى معاها.

سعلت الصغيرة "رقية" من قبضته التي تضغط على مجرى الهواء، فخشيت أن يزهق روحها في غمرة هياجه الثائر، صاحت مجددًا به، وهي تتقدم خطوة نحوه:

-سيب البت يا "فضل"، هي معملتش حاجة.

وضع يده الأخرى على فم وأنف الصغيرة، ليقطع كليًا الهواء عنها، وهددها بفجورٍ:

-هاتي عنوانها، وإلا أقسم بالله هارميها من الشباك، بعد أخد روحها.

صرخت به في فزعٍ، وقلبها ينتفض خوفًا على الطفلة:

-حرام عليك، إنت شيطان ولا إيه؟

حمل "فضل" الصغيرة بذراعٍ للأعلى، وتحرك في اتجاه النافذة مكملاً تهديده:

-شكلك فكراني بهزر

في جزعٍ هتفت به ترجوه:

-استنى، هاقولك.

أرخى قبضته عن الصغيرة وألقاها أرضًا، لتتكوم عند قدمي عمتها، ثم رفع إصبعه متابعًا كلامه معها بنبرة التهديدية:

-لو بتكدبي عليا هادبح بنتك، معنديش اللي أخاف عليه.

.......................................

-أيوه يا اللي بتخبط.

هتفت "همسة" بتلك العبارة، وهي تسرع الخُطى في اتجاه باب منزلها، بعد سماعها للدقات القوية المتلاحقة عليه، فتحته لتتفاجأ بوجود توأمتها أمامها، نظرت إليها ملء عينيها في دهشة فرحةٍ، ورحبت بها بابتسامةٍ عريضة:

-"فيروزة"، حبيبتي آ...

قاطعتها الأخيرة بصوتها اللاهث، وهي تدفعها نحو الداخل، حتى تتمكن من غلق الباب خلفها:

-اقفلي بسرعة يا "همسة".

أوصدت القفل الخارجي مثلما طلبت، والتفتت نحوها تلاحقها بأسئلتها:

-في إيه؟ هو حصل حاجة؟ إنتي بتنهجي كده ليه؟

على أقرب أريكة ألقت "فيروزة" بثقل جسدها المنهك من فرط المجهود العضلي الذي بذلته في فترة وجيزة، ثم أخبرتها بصدرٍ ينهج في توترٍ:

-الكلب "فضل" عايز ياخدني معاه بالعافية للبلد.

انفرجت فتحتا فمها في صدمة ناكرة، وصاحت مستهجنة:

-نعم؟ إيه الكلام الفارغ ده؟

تابعت "فيروزة" كلامها بلمحة من السخرية:

-لأ، ومأجر ناس زي العصابات عشان يخطفني.

علقت في ذهولٍ، لا يخلو من الاستنكار الشديد كذلك:

-ده اتجننت.

سحبت "فيروزة" شهيقًا عميقًا ثبطت به النهجان المسيطر على صدرها، وقالت بعد لحظاتٍ:

-فلت منه بالعافية، بس مش ضامنة إن كان هيعرف يوصلي هنا ولا لأ.

أمسكت "همسة" بهاتفها المحمول، وردت بتحفزٍ:

-أنا هكلم "هيثم" يجيلنا بسرعة يوقفه عند حده.

رفعت توأمتها ذراعها ووضعته على جبينها، ظلت أنفاسها غير منتظمة، وهي تخبرها بما يجول في عقلها من هواجس قلقة:

-ربنا يستر ومايكونش عمل حاجة في ماما ولا خالك.

ردت عليها تطمئنها:

-مش هايقدر رأس العجل ده.

خفضت "فيروزة" ذراعها، وسلطت نظراتها المحتدة عليها مؤكدة لها:

-والله لو مس شعرة منهم لأوديه في داهية.

أشارت لها "همسة" بيدها عندما سمعت صوت زوجها على الطرف الآخر، وخاطبته مستطردة في عجالةٍ:

-ألو، أيوه يا "هيثم".

.............................................................

لم تكن المسافة بالبعيدة ليستغرق وقتًا للوصول إليها، وبمساعدة الحافلة متوسطة الحجم، بلغ وجهته في زمنٍ قياسي. أشار "فضل" لأحد أتباعه بإيقافها عندما لمح البناية المنشودة، وضرب بيده على الباب الخارجي لها قبل أن يترجل منها آمرًا من معه:

-ورايا يا رجالة، هنطلع هنا.

سأله من يبدو أنه زعيمهم في جديةٍ، بوجهه الذي يعلوه ندبة لجرحٍ عميق:

-لو الحكاية قلبت عوأ نتصرف على طريقتنا؟

أجابه بابتسامةٍ متباهية؛ وكأنه بهذا يثبت قدرته على شراء ما لا يستطيع بالمال:

-معاكو كل الصلاحيات، وكله بحسابه.

فرك الرجل كفيه معًا في نشوةٍ، وقال بحماسٍ ظاهر عليه:

-زي الفل يا كبير.

.............................................................

على غير المتوقع، تفاجأت "فيروزة" من وصوله إلى البناية بعد أن لمحته من النافذة، فهرعت إلى شقيقتها تطلب منها إغلاقه بالمفتاح والقفل لضمان عدم

اقتحامه للمنزل، خاصة في غياب "هيثم"، والذي تعذر عليها الوصول إليه بسبب سوء شبكة الاتصالات وانقطاع المكالمة بمجرد إجابته على اتصالها. قفزت كلتاهما في توترٍ يشوبه الخوف، مع بداية الدقات العنيفة على باب المنزل، احتضنت "همسة" توأمتها، كأنما تحميها، وهتفت في ذعرٍ غمر كامل بدنها:

-أنا خايفة أوي.

دمدمت من بين شفتيها في غيظٍ:

-ده جبان، متحامي في شوية كلاب زيه.

ضربة أخرى على الكتلة الخشبية تبعها تهديده العالي:

-افتحي يا "فيروزة"، أنا عارف إنك جوا، مش هاسيبك النهاردة.

ردت عليه بنفس الأسلوب المهدد:

-امشي أحسنلك بدل ما أطلبلك البوليس.

هتف مستخفًا بها:

-ده لو لحقوكي يا حلوة.

استمر في دقه العنيف، قاصدًا خلع الباب، أو تحطيمه، هنا أسرعت "فيروزة" نحو المطبخ باحثة عن أداة تستخدمها في الدفاع عن نفسها، وحماية توأمتها أيضًا، لم يكن أمامها سوى السكين، استلته من الدرج، وعادت إلى البهو

حيث نجح الوغد "فضل" في خلع الباب من مكانه بمعاونة من معه، ولج أولاً للداخل وزهوة الانتصار تعلو ملامحه، ثم رفع يده للأعلى مشيرًا لأتباعه بالتوقف، ليبدو وكأنه قائدهم الهُمام في مشهد هزلي مثير للتأفف. من تلقاء نفسها أبعدت "همسة" شقيقتها عن مرماه بصراخه المرتعب:

-حاسبي يا "فيروزة".

لوحت الأخيرة بالسكين مهددة بشجاعةٍ تُحسد عليها:

-هاموتك لو قربت.

حدجها بنظرة متعالية لينطق بعدها هازئًا منها:

-ارمي البتاعة دي يا بت.

بدون سابق إنذار حركتها في خفة ليلمس نصلها الحاد وجهه، فمنحته جرحًا مباغتًا جعله يستشيط غضبًا، نعتها بسبابٍ نابٍ، قبل أن يناوله أحد الأتباع عصا خشبية غليظة، ليستعين بها في مواجهتها. ضرب معصمها بقوةٍ جاعلاً السكين يسقط من يدها، ومسببًا لها الألم الشديد، ارتفع صراخها الموجوع، واختلط بصوت "همسة" المستنجد، والذي لم يتوقف للحظة منذ اقتحامه مسكنها:

-الحقونا يا ناس!

وقبل أن تفيق "فيروزة" من الصدمة قبض "فضل" على عنقها بيده، أحنى رأسها للأمام بطريقة مذلة، وسحبها معه بالإجبار خارج المنزل.

..................................................

في تلك الأثناء، كان اثنان من عمال الدكان مُكلفان بشراء وإيصال احتياجات العائلة لمنزل الحاج "بدير"، اندهش كلاهما من الغرباء الذين ولجوا إلى المدخل في خطوات متعجلة ومتلاحقة؛ وكأنهم قد جاءوا للقبض على أحدهم، تبادلا النظرات المستريبة، وبادر أحدهما متسائلاً:

-مين دول؟

رد عليه زميله في توجسٍ حائر:

-مش عارف، بس شكلهم مش مريحني.

حذره بلهجةٍ جادة:

-طب خد بالك، لأني حاسس كده إنهم جايين يعملوا قلق هنا.

هتف في سخريةٍ وهو يفرقع فقرات عنقه بتحريكه للجانبين:

-يبقى وقعتهم مهببة، ومش هاتقوملهم قومة من تاني.

ثم جمع الأكياس في يدٍ واحدة، وأخرج هاتفه من جيب بنطاله الجينز وهو يخبره:

-أنا هبلغ الحاج.

رد في استحسانٍ:

-يكون أحسن.

وقبل أن يسمع رده على الجانب الآخر، انتبه الرجلان لصوت الصراخ النسائي المستغيث، فتركا ما بأيديهما على الجانب ليركضا نحو الداخل في تحفزٍ كبير.

.......................................................

كان ما يحدث على درجات السلم، كالبلاء الذي حل بأرضٍ عامرة بالبشر. تزاحم الجيران المتجمعين على إثر الصرخات العالية لإبعاد هؤلاء الغرباء عن الشابة العالقة بينهم، مما اضطرهم لاستخدام العنف المفرط معهم، لتفريقهم، إزاحتهم عن طريقهم؛ كان من بين هؤلاء "ونيسة"، تفاجأت بأحدهم يجرجر "فيروزة" على السلم، وهو يسحبها من عنقها خلفه، ليجبرها على القدوم معه رغم إرادتها، أسرعت تعترض طريقه صارخة به:

-إنت بتعمل إيه فيها؟ سيبها يا جدع إنت.

استنجدت بها "فيروزة" بصوتها المتألم:

-الحقيني يا طنط.

حاولت تخليصها من قبضة "فضل" المحكمة عليها؛ لكنه لكزها في كتفها وهو يهدر بها:

-حاسبي يا ولية لأزرفك قلم أكومك.

صراخ العامل المستثارة دمائه لتهجمه على السيدة الوقورة مع إهانتها جعلته يقفز عليه دون تفكيرٍ، وباندفاعٍ جنوني ليطرحه على الدرجات وصوت هتافه يرج المكان:

-إنت اتجننت يا (...).

تسابق مع العامل الآخر في ضربه، مما جعل أتباع "فضل" يهرعون إليه لمساعدته، فمنح ذلك "ونيسة" الفرصة لانتشال "فيروزة" المتكومة أرضًا، وأدخلتها إلى منزلها. ظهر الجد "سلطان" وإلى جواره "هاجر"، هتف الأول بصوته الأجش يتوعده:

-يا ويلك يا ديل الكلب، مش هتتساب النهاردة.

في حين تساءلت "هاجر" في رعبٍ:

-إيه اللي بيحصل هنا؟ دول بيعملوا كده ليه؟

قيل في الأمثال الشعبية الدارجة "أن الكثرة تغلب الشجاعة"، وللأسف الشديد مالت كفة الميزان لصالح فريق "فضل" الإجرامي، فتكالبوا على العاملين وأبرحوهما ضربًا بكل قساوةٍ وعنف. خافت "هاجر" على جدها من الأذى، فسحبته نحو الداخل وهي ترجوه:

-تعالى يا جدي بسرعة.

ظل ثابتًا، صلبًا في مكانه، لم تهتز عضلة في وجهه، ولم يبدُ عليه أدنى بادرة خوفٍ أو تردد، رفض التحرك، وضرب بعكازه الأرضية الصلبة، صائحًا بقوةٍ وبإصرارٍ عنيد:

-مش "سلطان" اللي يجري زي الفيران قصاد شوية (...) عاملين نفسهم رجالة.

..........................................................

بخوفٍ لا يمكن إنكاره، اقتادتها "ونيسة" نحو الداخل، وأوصلتها إلى أول غرفة كان بابها مفتوحًا، دون أن تهتم إن كانت لابنها البكري أم لغيره، فالموقف متأزم للغاية، وبالنسبة لها بدت الملجأ الآمن حاليًا، لحمايتها من بطش عديمي الشرف. أمسكت "فيروزة" بيدها المتورمة، ونظرت إليها في قلقٍ، فشددت عليها "ونيسة":

-اقفلي عليكي الباب، وماتخرجيش مهما حصل.

ردت بإيماءة طائعة:

-حاضر يا طنط.

انتظرت خروجها لتوصد الباب خلفها، وتلفتت حولها ملقية نظرة مشتتة على المكان المحبوسة به، كانت فاقدة للتركيز، وانتابتها رجفة باردة جعلت كامل بدنها يرتعش بشدة، لذا جلست على طرف الفراش محاولة لملمة شتات نفسها المبعثرة، تأوهت بأنين موجوع عندما لمست معصمها المنتفخ، لكن صوت الصراخ المرتفع بالخارج جعلها تتلبك بشدة، وتتجاوز عن ألمها.

خشيت "فيروزة" من نجاح "فضل" في اقتحام الغرفة، لهذا فكرت في البحث عن شيء تستعين به في الدفاع عن نفسها إن لزم الأمر، فما كان منها إلا أن مدت ذراعها الآخر، وفتحت درج الكومود الأول، لتفتش فيه عن شيءٍ تستخدمه لهذا الغرض؛ لكن أبصرت عيناها ما لم تتوقع إيجاده مُطلقًا ........................................ !!

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل المائة وأربعة

منديل الرأس، أول ما وقعت عليه نظراتها المندهشة، أيعقل أن يكون ذلك خاصتها؟ التقطته بيدها المرتعشة من فرط انفعالها، وقربته من عينيها لتتأكد منه، ارتفع نهجان صدرها مع رؤيتها للبقية بقاع الدرج، اتسعت عيناها على آخرهما وهي تكاد لا تصدق ما تراه. قبضت "فيروزة" على متعلقاتها براحتها، وتساءلت في صدمةٍ حائرة:

-إيه اللي جاب دول هنا؟

تشتت تفكيرها للحظاتٍ وهي محدقة في أشيائها، باعدت عينيها عنهم لتدور بهما حول الغرفة في نظرة شاملة تمسح بها تفاصيلها، وكانت صدمتها الأخرى، إنها بغرفة "تميم"، الآن تذكرت أنها رأتها من قبل، عندما وقفت أمام بابها، خلال الاحتفال بميلاد الرضيع "سلطان". انتفضت واقفة عن الفراش، وكأن عقربًا لدغها، وحالة من الذهول والإنكار مسيطرة عليها، أطبقت بأناملها المتشنجة على متعلقاتها، واعتصرت عقلها عصرًا لتتذكر أين فقدتهم؛ لكن في خضم ما تمر به الآن، لم تسعفها ذاكرتها، وبات الأمر عسيرًا عليها، فقط شيئًا واحدًا طغى على السطح، اتهامات "خلود" لها بمحاولة سلب زوجها منها بطرقٍ ملتوية، جال ببالها أن تكون قد رأت منديل الرأس والمشابك. قفز قلبها في رهبةٍ، وزادت مخاوفها، نطق لسانها بما يستحوذ على كامل تفكيرها:

-لأحسن تكون شافت الحاجات دي، وفكراني آ...

لم تستطع إتمام جملتها خوفًا من تصديق ذلك الاعتقاد الخطير، وإن لم يكن صحيحًا! تراجعت مبتعدة عن كل ما له صلة بـ "تميم"، لتهرع نحو الباب قاصدة فتحه، وهاربة مما قد يسيء إليها، خرجت من الغرفة سريعًا، واتجهت عائدة للصالة، تحدق بعينين مفزوعتين لظهر الجد "سلطان"، وحفيدته "هاجر"، ومن خلفهما "ونيسة"، الوضع أصبح متأزمًا للغاية، كارثة أكيدة على وشك الحدوث. ظلت متجمدة في مكانها، لم تبرحه، وصوت لائم يتردد بداخلها:

-هو أنا عملت إيه؟ ورطت الناس دول معايا ليه؟ هما ذنبهم إيه؟

.................................................

من كل حدبٍ وصوب، جاءوا معه سائرين، وركابًا، لإنقاذ ما يُمكن إنقاذه، بعد تلقيه لمكالمات جمة من غالبية الجيران، لإخباره بالوضع المتدهور بالبناية. صوت احتكاك مكابح السيارات كان كفيلاً بإثارة الرعب في النفوس، ترجل "تميم" من سيارته دون أن يأبه بغلقها، وهرول ركضًا آمرًا عماله بصوت جهوري رن صداه المخيف في أركان المنطقة، وهو يُلقي بسلسلة حديدية لأحدهم:

-باب العمارة يتقفل من برا بالجنزير، محدش لا يدخل ولا يخرج، سامعين!

رد عليه العامل مبديًا طاعته الكاملة بنبرته الخشنة:

-تمام يا معلم.

اقتحم البناية عشرات الرجال الأشداء، على رأسهم كان "تميم"، يقفز على الدرجات صعودًا، وأبقى ثلاثة منهم أمام البوابة بعد غلقها بالقفل والسلسلة الحديدية الغليظة. أتاه صوت جده الأجش صائحًا وهو مازال بالطابق السفلي:

-ارمي البتاعة اللي في إيدك دي يا (...).

راح يسمع صوتًا مقيتًا إلى نفسه، يرد بازدراء حقير، جعل الدماء المغلولة تصعد من صدره لرأسه في كتلٍ محمومة:

-اتكلم على أدك يا راجل يا كُهنة، إنت مش هتستحمل ضربة مني، ده إنت رجلك والقبر.

وقبل أن يوبخه "سلطان" هدر "تميم" عاليًا بصوتٍ أرعب الجميع:

-القبر ده هتخشه النهاردة يا (...).

التفت الجمع المصاحب لـ "فضل" لمصدر الصوت المزلزل، وحدث كل شيء كالبرق في سرعته، امتدت يد "تميم" اليمنى القابضة على عصا غليظة نحو أحد الأوغاد، فأطاحت برأسه، والأخرى الممسكة بسكينٍ طويل أحدثت جرحًا غائرًا في عضدِ آخرٍ، وشتائمه اللاعنة لا تتوقف أبدًا. تبعه رجاله الذين تلاحموا بشراسة عنيفة، لا يمكن وصفها مع كل من تطاله أياديهم؛ وكأن بينهم ثأرًا قديمًا مضى عليه قرون.

تلاشت لغة العقل والمنطق، وحلَّ أسلوب الغابة والوحشية المُطلقة، فتناثرت الدماء، وتكسرت العظام، والتوت الأذرع، وضربت الرؤوس. كالجرذ المذعور

تراجع "فضل" متجهًا نحو الجد يريد إيذائه، اعتبره فريسة سهلة المنال، وربما وسيلته المؤقتة لإخراجه من الجحيم الذي سقط فيه بإرادته؛ لكن الأخير باغته بضربة غير متوقعة من عكازه على كتفه، جمع فيها كل غيظه وغضبه من تدنيس حرمة منزله، فارتد للخلف فاقدًا اتزانه، وقدرته على الصمود، ليقع في يدِ من لا يرحم.

..............................................

رغم حالة الهلع المسيطرة عليها إلا أنه استجمعت نفسها، والتقطت هاتفها المحمول الذي أسقطته أرضًا أثناء المواجهة مع ذلك الدنيء النجس، بادرت بالاتصال بالشرطة على أمل أن يأتوا في الوقت المناسب، لمنع "فضل" من اختطاف توأمتها قسرًا. لم تتوقف "همسة" عند ذلك الحد، بل هاتفت أيضًا "علا"، علها تنجح بطريقة أخرى في ردعه، إن نجح وأخذها عنوة. حمدت الله في نفسها أنها ما زالت تحتفظ برقم هاتفها لديها، فتوسلتها بصوتها المتقطع عندما أجابت عليها:

-كلمي "ماهر" بيه يلحقها بسرعة، أنا خايفة أوي عليها، ده ممكن يقتلها.

ردت عليها تطمئنها في نبرة كانت متلهفة كذلك:

-متقلقيش يا "همسة"، مش هايقدر يأذيها، البلد مش سايبة، و"ماهر" ليه صلات بناس كتير، اطمني، هيعرف يوصلها حتى لو كانت فين.

استعطفتها بمزيدٍ من الرجاء:

-أوام الله يكرمك.

قالت مؤكدة:

-حاضر، اقفلي، وأنا هاطلبه.

-ماشي.

نطقت بتلك الكلمة الموجزة وهي تبعد الهاتف عن أذنها لتجري خارج منزلها، لكنها توقفت في مكانها، وأمسكت بكلتا يديها بحافة الدرابزون، بعد رؤية التلاحم العدائي الشرس الدائر بالطابق السفلي.

..............................................

تكوم إلى جوار صندوق القمامة، شاعرًا بألمٍ حارق يعصف بكتفه؛ لكنه لا يُقارن بالألم الرهيب الذي نال من ذراعه، عندما انقض عليه "تميم" ليكسره في عصبيةٍ خرجت عن السيطرة. صرخ "فضل" بعويلٍ باكٍ مستنجدًا:

-الحقوني!

شقًا طوليًا لن يلتئم جرحه بسهولة وجد مكانه في جبين "فضل"، صوت صراخه المرتفع كان كأنشودة تطرب الآذان، ومع هذا لم يشفِ غليله منه! نادى "سلطان" حفيده الجاثم على ذبيحته بركبته:

-"تميم"!

رد متوعدًا بأنفاسٍ حارقة، وعيناه تتقافز فيهما شرارات ملتهبة:

-مش هارحمه يا جدي!

لجأ "فضل" لقشةٍ أخيرة، ربما قد تكون السبب في إحراقه حيًا، أو كسب المزيد من الوقت للنجاة بحياته من براثن ذلك العتي، لعق شفتاه، وهدر بصوتٍ عالٍ قاصدًا لفت الأنظار:

-إنت هتموتني عشان بألم عرضي اللي دست عليه ووسخته؟!

صوت طاووسه البري الحانق جاء من ورائه يرد على ظلمه المجحف:

-إنت أوسخ خلق الله، أنا يا كلب أشرف من أمثالك، وأطهر من كل كلمة قولتها.

تخطت دماء "تميم" درجة الغليان بكثير، واستثير على الأخير بحميتها المتعصبة، فأصبح كالأعمى، لا يرى إلا شيئًا واحدًا، قطع لسان ذلك النجس فورًا لإخراسه، لكن يده سبقت مديته، وصفعه أولاً صفعة عنيفة جعلت صفي أسنانه تتخلل من فرط قوتها، ثم سدد له لكمة أسفل فكه كادت تحطمه وهو يصيح به بسبابٍ لاذع:

-اخرس يا (...)! لسانك النجس ده هاقطعهولك.

انكمش "فضل" على نفسه من شدة الألم المنطلق في وجهه، ورغم هذا استمر في قذفها بالباطل، ورفع من نبرته متابعًا اتهاماته غير الحقيقية لكليهما، كوسيلة أخيرة لكسب تعاطفٍ غير موجودٍ من المتواجدين:

-اشهدوا يا ناس، شوفوا هيعمل فيا إيه الكلب ده وعشيقته.

شهقة "فيروزة" المصدومة اخترقت أذني "تميم"، أتبعها نفيها القاطع:

-إنت كلب، واحد قذر، تستاهل الحرق والموت.

نظر إليها قائلاً بسعالٍ متحشرج:

-أيوه اعملي الشويتين دول، وأنا اللي كنت جاي اتستر عليكي بعد ما ريحتكم فاحت، وسيرتك بقت على كل لسان.

بين طرفة عينٍ وانتباهتها تحول "فضل" لكيسٍ للملاكمة، تكسرت فيها ضلوع صدره، وتناثرت الدماء من كل فتحة في وجهه، قبل أن تجد مديته طريقها عند فمه لتحدث شقًا غائرًا في جانبه. أوقفه الجد "سلطان" بصعوبة عن غرزه بندائه الغليظ:

-"تميم"!

بالكاد توقف عن تعميق النصل حينما لمح بطرف عينه منديل الرأس المحتفظ به أعلى درج الكومود يسقط على مقربة منه، فأدار رأسه في صدمة وجلة للجانب، ليجد "فيروزة" تفترش الأرضية بجسدها الغائب عن الوعي، سحب مديته بقسوة من جلد وجهه غير عابئ بصراخ "فضل" الجنوني، لينتقل سريعًا نحوها، ولون وجهه المحتقن يشبه الأتون المتقد منذ ساعات. جثا قبالتها، وهلل بصوته الصارم يأمر رجاله:

-خدوا الـ (...) دول كلهم على السطح...

والتفت برأسه نحو "فضل" متابعًا إملاء باقي أوامره عليه:

-والنجس ده يطلع مسحول على ضهره.

استجاب كافة العمال له بهمهمات طائعة، قبل أن يعاود النظر إلى الوجه الذي انطفأ من قساوة ما جابهه في وجوده، أحس "تميم" بنيران تحرق كامل جسده، معتقدًا أنه لوهلة خذلها عندما لم يسكت لسان الباطل.

...........................................

قاوم السعير المتأجج فيه، ومرر "تميم" ذراعيه أسفل جسد "فيروزة" الممدد عند قدمي جده المحني عليها لحملها، قام بإدخالها لمنزله، توقف في مكانه مترددًا أين يضعها؛ وكأن عقله قد توقف عن التفكير بمنطقية. أرشده جده بأمرٍ نافذ من خلفه:

-وديها أوضتي.

لم يلتفت إليه، وتابع سيره نحو غرفة جده ليضعها بالفراش، وصوت "سلطان" الرزين يكلمه:

-كل حاجة هتتحل، ماتقلقش.

نعم أراح جسدها بالفراش؛ لكن ذلك لا يعني أنه استراح، فالحرب قد اندلعت لتوها بين الحق والباطل. وقعت أنظاره على يده المنتفخة، فزاد اشتعال صدره متوقعًا أن تكون إصابتها جراء الصدام مع ذلك الوضيع، برزت عيناه أكثر عندما رأى أناملها ترتخي عن مشابكها، التقطهم سريعًا واحتفظ بهم في راحته، وعقله مزدحم بأسئلة عن كيفية اكتشافها لكنزه الثمين. انتشله من سرحانه

المشحون بأنواعٍ متناقضة من الأفكار قبضة جده الموضوعة على كتفه، شعر بضغطه الجامد عليه قبل أن يستطرد قائلاً:

-واللي غلط هياخد جزائه، بس نهدى ونفكر بالعقل.

إن كان يتحدث جده عن التريث، فقد ذاب وتبخر مع شدة غضبه! وإن كان يقصد منح الرحمة لمن لا يستحق تجنبًا للعقوبة، فقد انعدمت تلك الصفة منه! نظر إليه "تميم" بعينين متشبعتين بحمرةٍ لا يمكن إنكار رؤيتها، وأخبره بنفسٍ ثقيلٍ من بين شفتيه:

-مش مع ده، هيتعلق ويدفن بالحيا.

اعترض جده طريقه، وقد رأى في عينيه إصرارًا قويًا على تنفيذ ما صرح به، وخاطبه:

-وتضيع نفسك مع كلب؟

قال بحرقةٍ شديدة:

-مش فارق معايا.

خفف من حدة صوته وهو يقول مستعينًا بنظرة ذات مغزى من عينيه:

-طب فكر فيها؟

كبْح غضبه الآن كان من رابع المستحيلات، فهو ينهش في روحه ويستحثه على الصعود لقتل "فضل"، بعد إذاقته ألوانًا من العذاب، ليعي الأخير مع أي

شخص قد عبث وأساء. ولجت "ونيسة" إلى الغرفة -ومعها ابنتها- تتساءل في جزعٍ:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، هو في كده؟ إيه الظلم ده؟

بينما أعلمته "هاجر" وهي تنظر إليه:

-العمال برا واقفين مستنينك يا "تميم".

-أنا أسفة إني دخلت كده من غير استئذان.

صوت "همسة" المعتذر جعل الجميع يلتفت نحوها، وجدوها تقف عند أعتاب الغرفة وهي تتطلع إليهم بنظراتها المرتعبة، رمشت بعينيها، وتابعت قائلة بصوتٍ يملأوه الخوف:

-بس عايزة أطمن على أختي.

أقبلت عليها "ونيسة"، واستحثتها على الدخول بقولها المهتم:

-تعالي يا بنتي، ده بيتك.

اندفعت "همسة" نحو توأمتها، واللوعة تستبد بقلبها آسفًا عليها، مالت عليها، واحتضنتها قائلة لها ببكاءٍ:

-الحمدلله إنك هنا.

ثم رفعت رأسها تخاطب البقية، مدافعة عن شقيقتها بجرحٍ ملموس في صوتها؛ لكون الأمر يمس عائلة "سلطان" بشكلٍ مباشر وسافر:

-والله العظيم هو كداب، بيهلفط بأي كلام.

قال الجد بثباتٍ وهو يومئ برأسه:

-احنا متأكدين يا بنتي من ده، مش محتاجة تبرأي ذمة أختك.

كان "تميم" على وشك الرد أيضًا لولا سماعه لصوتها الجريح، يهتف من ورائه بأنفاسٍ غير منتظمة، ليدرك أن مهجة القلب ومالكته قد أفاقت من إغماءتها:

-هاقتلك يا "فضل" ........................................ !!!

..........................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل المائة وخمسة

صراعها معه لم يكن مجرد خصومة عادية، ينتهي النزاع فيها بجلسةٍ عرفية، أو بتدخل وساطة عائلية لعقد مصالحات وهمية؛ لكنها حربٌ ضروس بين شهادة الحق، ولسان الزور. دفعتها كل المشاعر المكبوتة بداخلها، والتي فاقت حد الاحتمال الطبيعي، للانتفاض مجددًا من قوقعتها، واستعادة إدراكها الحسي؛ ليبدأ وعيها في التيقظ والانتباه لما يحدث حولها. في البداية كانت الأصوات متداخلة، متزاحمة، غير مفهومة لها، تكاد تصيبها بالصمم، ومع القليل من التركيز تبينت أن ما خاضته ليس بكابوسٍ عابر، وإنما واقع أليم فُرض عليها القتال فيه لإثبات طهرها، وأن عفتها لم تدنس.

شرفها الذي ما زال كما هو، لم تمسه يد، ولم يره مخلوق، كيف يستبيح الخوض فيه هكذا بجراءة وفُحش؟ استعر الغضب في أحشائها، وغزا كامل عروقها، لتصبح كل خلية فيها كجمرة لم تغرب النار عنها. صوت "فيروزة" الجريح زأر مرة أخرى بحرقةٍ زادت من وهج النيران المشتعلة في صدره:

-هاقتلك، والله ما هاسيبك يا بغل.

تركزت كل الأنظار معها، وأسرعت "همسة" في احتضان توأمتها، محاولة دعمها بقولها غير المجدي:

-ربنا هينتقم منه، اهدي بس يا حبيبتي.

في غمرة انفعالها، دفعتها بقسوةٍ لتبعدها عن طريقها، وأصرت على الاقتصاص منه فصاحت بكل عنفوانها:

-هموته، ده الحل الوحيد.

ردت عليها "ونيسة" بغيظٍ:

-والله معاكي حق، اللي زيه يستاهل الموت بدل المرة عشرة.

ثم مصمصت شفتيها متابعة بانزعاجٍ:

-ده عرض ولايا اللي خاض فيه.

أضافت عليها "هاجر" بتوجسٍ:

-والناس مابتسبش حد في حاله، حتى لو متكلموش قصادنا بحاجة تجرح، هيلسنوا بكلام مش حقيقي.

نفس الكلمات تتردد، نفس العبارات المبطنة التي تودي بها إلى خيارٍ لا مناص منه، وإن لم تبح به الألسن بعد؛ لكنها لم ولن تلجأ إليه أبدًا مهما دفعتها الظروف، لن تسمح لأحدهم بالانتقاص منها، بسحقِ البقايا الصامدة فيها. ثارت ثائرتها من جديد بعصبيةٍ مضاعفة استغربها من حولها:

-والله لموته، مش هاسيبه يعيش.

وكأن بكلماتها العنيدة تستثير حميته أكثر وأكثر، فلم يعد يطيق البقاء ساكنًا، فاندفع بعزم ما فيه للخارج قاصدًا تلك المرة نحر عنقه، وإن كان في هذا سجنه للأبد، لتحيا هي كريمة، حرة، مرفوعة الرأس، على أن يدعس حقير مثله طرفها! تجاهل "تميم" نداء جده وهو يزْعق من خلفه:

-استنى يا "تميم"، اسمع هاقولك إيه.

همهم بصوتٍ لم يفارق ثغره وهو مستمر في تقدمه:

-معدتش ينفع مع اللي زيه كلام يا جدي.

أشار بعينيه الملتهبتين من كم الغضب المنتشر فيهما بالتحرك أيضًا، فنفذوا أمره غير المنطوق بإذعانٍ كامل، ليخرج الجميع من المنزل متجهين إلى السطح، وخلال صعوده صاح "تميم" في جيرانه بنبرة جمعت بين الحزم والعرفان بالجميل:

-كتر خيركم يا جماعة، خشوا بيتكم، الليلة عندي أنا...

ظل ثابتًا في مكانه وهو يكمل بتحذير شديد اللهجة، مستخدمًا سبابته في الإشارة، وكامل نظراته تدور على الأوجه المتطلعة إليه:

-ولو كلمة اتحكت عن اللي دار هنا لأي حد في الحتة، ولا شميت خبر إن سيرة حد من طرفنا اتمست بسوء مش هحاسب حد إلا إنتو، أيًا كان من هو...

بالطبع لم يجرؤ أحدهم على مناقشته، أو الاعتراض على تصرفاته الآمرة، أو السؤال عن تفاصيل تلك المشادة الدموية، أو حتى معرفة نهايتها المأساوية، خاصة وهو في حالة من الاستنفار الرهيب، والتي تؤكد لمن يراه بأنه عائد للسجن لا محالة. باعد نظراته العدائية عنهم ليقول بصوته الأجش المجلجل:

-وكتر خيركم من تاني على وقفتكم، مردودالكم.

همهمات تنوعت ما بين شاكرة وطائعة لم يعبأ بها "تميم"، واصل صعود الدرجات، ومع كل درجة يتخطاها كان يشحذ المزيد من حنقه، صوتها النافذ إلى قلبه قبل أذنه جعله يتخشب في مكانه كتمثالٍ من الحجر، حتى أن قبضته المسكة بحافة الدرابزون تصلبت عليه، عندما هدرت عاليًا بالأسفل:

-سيبوني عليه، محدش يمنعني.

جاءه صوت والدته يرجوها:

-يا بنتي اهدي، أنا مش ملاحقة عليكي وعلى "تميم".

ردت بحرقة وَأدت بصيص الرحمة بداخله :

-ده شرفي، وأنا مش هسامح في اللي مسه!

خاطب "تميم" نفسه مؤمنًا عليها:

-ولا أنا.

تابع صعوده برويةٍ لتلتقط أذناه دمدمتها الغاضبة، متغاضيًا عن أصوات صراخ الأوغاد المحتجزين، والذي يخترق الجدران من شدة الضرب والوجع على يد عماله المتعصبين الذين أذاقوهم ألوانًا من العذاب الأليم.

........................................

مكالمة عاجلة أتته من زوجة شقيقه تخبره فيها بملاحقة ابنه لابنتها، واستئجاره لغرباءٍ من أجل اختطافها عنوة، فأدرك أن توابع رعونته هذه لن تمضي على خير

ككل مرة، خاصة إن لجأت إلى من يخشى- الصدام معه؛ لأنه ليس بشخصٍ عادي، يمكن تهدئته بمعسول الكلام؛ لكنه من أرباب السجون، لا يعرف سوى لغة العنف، وأساليب الإيذاء الشرسة. تطلع "إسماعيل" أمامه محدقًا في الطريق الترابي على مدى بصره، ورفع ذراعه ملوحًا للسائق وهو يخاطبه برجاءٍ يميل للتوسل:

-سوق يا ابني بسرعة الله يكرمك.

بتعابيرٍ هادئة، وجسدٍ مرتخ علق عليه السائق:

-حاضر يا حاج...

ثم لوى ثغره معللاً بطء الحركة:

-بس إنت شايف الطريق عامل إزاي.

رجاه بصوته القلق:

-معلش يا ابني، في نصيبة ولازم ألحقها.

نظر إليه السائق بنظرة فضولية سريعة قبل أن يحدق أمامه، وقال:

-ربنا يسترها علينا جميعًا.

لفظ "إسماعيل" الهواء الثقيل من صدره، وظل يدمدم داعيًا:

-جيب العواقب سليمة يا رب...

بقيت أنظاره عالقة بالطريق المزدحم بعشرات السيارات في مختلف أحجامها وأنواعها، وتابع كلامه مع نفسه:

-أنا قلبي كان حاسس إنك ناوي على مصيبة يا "فضل."

هز رأسه في استنكارٍ مرددًا بين جنباته في حزنٍ وسخط:

-بقى دي أخرتها، اتبهدل في السن ده؟ وأجري ألم ورا ابني؟!

عاد ليحدق في السائق، واستعطفه من جديد:

-يالا يا ابني، دوس بنزين، السِكة فضت شوية.

أومأ برأسه وهو يرد:

-عينيا يا حاج.

ظل يدعو الله كثيرًا في سريرته، أن يصل في الوقت المناسب، قبل أن تزداد الأمور تعقيدًا، ويعجز حينها عن نجدة ابنه، أو تخليصه من جرائر شره.

..................................................

لم يستطع أحدهم منعها من تسلق درجات السلم لبلوغ السطح سوى جسده العريض والذي ظل عائقًا أمامها، يحول دون دخولها إليه. رفعت "فيروزة" عينيها إلى ظهره المنتصب، ترمقه بنظرة نارية محذرة قبل أن تهدر به بأنفاسها المنفعلة:

-حاسب، خليني أدخل.

لم يلتفت إليها "تميم"، ولم يفِ بوعده لها بتلبية ما تطلبه أيًا كانت ماهيته تلك المرة، بل على العكس بدا متحكمًا، متشددًا في رأيه، فرد ذراعه ليضعه على حافة الباب، وعاندها رافضًا بشكلٍ قاطع، لئلا تلوث نظراتها بهيئة ذلك النجس مجددًا:

-لأ .. مش هايحصل.

استطاع أن يشعر بالألم في نبرتها وهي ترد بإصرارٍ:

-أنا هاخد حقي بإيدي، مش هاسمح لكلب زي ده يجيب في سمعتي بالباطل، ويفلت كده بسهولة..

خنقت غصتها القاتلة، وأكملت بكبرياءٍ ما زال جريحًا:

-أنا مش رخيصة.

قال على الفور محتجًا على وصفها بحنقٍ متزايد دون أن يأخذ اللسان حذره:

-إنتي غالية عندي...

تدارك زلة القلب، وصحح بنفس الصوت المتشنج:

-عند الكل، وحقك أنا هاجيبهولك.

ألا يكفيها ما سمعته من افتراءات لتسمح بالمزيد من القيل والقال، إن ارتضت بمساعدته؟ تخبطت في تفكيرها، واختلط عليها العاطل بالباطل، لذا هتفت تسأله في عصبيةٍ معترضة على تدخله في شأنها:

-ومين فوضك تعمل كده؟

أجاب بخشونةٍ ضاربًا بقبضته المتكورة على الحافة الخشبية:

-أنا مش محتاج تفويض.

بألمٍ مازال يشوب صوتها أخبرته؛ وكأنها تبرر سبب حمئته الرجولية:

-أه صح، لأن الكلام مسّك، ولازم تبرئ نفسك...

لمحة من السخرية المريرة غلفت نبرتها عندما أتمت الباقي من جملتها:

-ما هو أنا اللي ضحكت على سيد المعلمين، وجرجرته ورايا .

هنا التفت "تميم "ناحيتها ليواجهها وجهًا لوجه، وجد في نظراتها إليه بهاءً يخالطه الشموخ، وثباتًا مغريًا لا يمكن إنكاره، بالرغم من أمارات الغضب النافرة منها، شتت عينيه عن جوهرتيها الساحرتين، ليلقي نظرة شمولية على تعبيراتها، فقرأ في ملامحها جرحًا عميقًا لا يمكن اندماله بين عشية وضحاها. أعادت "فيروزة " تكرار سؤالها على مسامعه بشفاه مقلوبة:

-مش ده اللي هيتقال؟ صح ولا أنا غلطانة؟

رد نافيًا بإجابة قاطعة:

-مش هيتقال حرف.

استهجنت ثقته الغريبة، وظنت أنه يمنحها مسكنًا مؤقتًا لتتراجع عن الثأر لنفسها، لذا هدرت تسأله بصوتها المتشنج:

-ده على أساس إيه بالظبط؟

مجددًا شرد سريعًا في نظراتها المسلطة عليه، كانت قادرة حقًا على أسره وسط نوبة هياجها، انتابته أمنية عجيبة حينئذ، ألا يمكن أن يحظى معها –ذات يومٍ- بحوارٍ هادئ غير ذلك المشحون بكافة درجات الغضب والحنق؟ أفاق من سرحانه الخاطف في التفكير فيها مؤكدًا عليها:

-لأني قولت كده.

أهانته دون تعمدٍ:

-ما تقولش حاجة إنت مش أدها.

كل ما كان يضطرم به حاليًا نيرانًا لا نهاية لها، حاول اختلاق الأعذار لها، مبررًا في نفسه أنها لا تعلم بعد ما هو قادرٌ على فعله إن أعطى أحدهم وعدًا. استدارت "فيروزة" برأسها للجانب عندما سمعت صوتًا ذكوريًا يخاطبها بتحذيرٍ واضحٍ:

-حاسبي على كلامك يا بنتي.

أمعنت النظر في وجه الجد "سلطان" الذي تقدم نحوها، وواصل كلامه معها بلهجته الجادة:

-احنا متأكدين من أصلك وفصلك، مش هنمشي ورا حتت (...) قال كلمتين طق حنك يكسب بيهم بونط، بعد ما اتخسف بيه الأرض.

انضمت إليهم كلاً من "ونيسة"، و"همسة"، فسادت لحظة من الصمت المشحون، قطعته الأولى حينما صاحت مبررة مقصدها:

-هي أكيد عارفة ده يا حاج، بس إنت عارف البني آدم ساعة الغضب بتخليه أعمي، وينطق بحاجات مش قاصدها.

حاوطت "همسة" توأمتها من كتفيها، تأملتها بنظراتٍ حانية، ثم رجتها بحرجٍ طفيف:

-اهدي يا "فيروزة"، مايصحش كده، الحمد لله إنهم واقفين معانا.

أدارت رأسها في اتجاه شقيقتها، فرنت إليها الأخيرة بنظرة إشفاق استثارت غزيرة الدفاع لديها، رفضت تقبل مثل ذلك النوع من التعاطف الممتزج بالخجل، خاصة حينما جالت بعينيها سريعًا على الأوجه المتباينة في تعبيراتها، كأن هناك خذلانًا متواريًا وراء نظراتهم إليها، لوهلةٍ غمرها شعورًا غريبًا بأن كل شيءٍ يتكرر، وكأنها تعايش نفس الموقف المليء بالإدانة من جديد مع اختلاف تفاصيله، لذا اتخذت موقفًا هجوميًا على الفور، وأزاحت يدها عنها لتتراجع قائلة بحدةٍ وهي تشير بسبابتها:

-لو فاكرين إني هاصلح غلط بغلط فده مش هايحصل، حقي هاجيبه منه، وهاقطع لسانه اللي افترى عليا زمان ودلوقتي.

حملق فيها "تميم "بنظراتٍ غريبة، فكلماتها كانت ذات دلالات قوية، تمنى ألا يكون تفسيرها هو ما يدور في خلده، بلع ريقه، وسألها بصوتٍ أجش جاهد ليبدو هادئًا معها:

-تقصدي إيه بكلامك ده؟ وضحي.

لم تحد بنظراتها عنه وهي ترد بشيء لم يتوقعه:

-إني أتجوز...

بتصريحها المفاجئ بدت له وكأنها تتسرب من بين أصابعه كالزئبق، توقف لهنيهة عن التنفس من صدمته، أحس بانقباضة تعتصر قلبه، وكأن الموت قد حط عليه ليقبض روحه، غامت ملامحه، وأظلمت نظراته أكثر عندما تابعت بنفس الثبات الحاسم:

-سواء بيه أو بغيره، فده مش هايحصل مهما كان.

وحده كان يعلم أي ألم يقاسيه حفيده الآن، نظراته المتفرسة إلى وجهه الواجم بشدة أكدت له معاناته الصامتة، فهناك شرخ جديد تصدع في حبه السري، ربما يهدم كل شيء إن تصاعدت الأمور، نبضاته السريعة المتلاحقة كانت ظاهرة في عرقه الذي انتفض في جبينه، ورغم ذلك لم يحاول الجد "سلطان" التدخل، والنطق بما لا يفيد الآن، بقي ساكنًا ومرر نظراته على "فيروزة"،

كانت في أوج غضبها، لا ترى إلا ما حاق بها من ظلم، إذًا ليتركها تهدأ؛ لأن العقل لا يتكلم، وإنما صراخ روحها المفطورة.

أضافت "فيروزة" قائلة باعتزازٍ وهي تسند يدها المتورمة على راحتها الأخرى:

-أنا عمري ما هطاطي راسي، لأني معملتش الغلط اللي يخليني أدارى، وأرضى بحاجة مش عايزاها، عشان أخرس ألسنة الناس.

أراد أن يكون اختيارها له عن طواعية تامة، أن ترغب فيه بإرادتها الكاملة، وليس لأنه فُرض عليها جراء موقفٍ ما تحتم عليها ذلك فيه؛ وإن كانت كل الشواهد ترجح ذلك الاختيار .منحها "تميم" حرية ظنت أنها مسلوبة منها بقوله:

-وأنا عايزك ترفعي راسك من غير جواز.

بعزة نفسٍ لا تدرك أنه يعشقها فيها أخبرته دون أن يرف لها جفن:

-هرفعها وقت ما أقتله بإيدي.

ضيق نظراته نحوها، فحدجته بنظرة مليئة بالإصرار وهي تكرر عليه أمرها:

-وسع من طريقي.

رؤيتها لهذا القميء مجددًا يعني انطلاق شارات الإنذار بجريمة أكيدة، ستحدث على يده، احمر وجهه من غضبه الذي يكبته أمامها، محاولاً كبحه بشتى الطرق، لم يحبذ أبدًا أن ترى الجانب القبيح منه، خاصة عندما يثور، ويفقد قدرته على

ضبط انفعالاته، لذا كور قبضته، وضغط على أصابعه حتى ابيضت مفاصله، قبل أن يلكم الباب الخشبي بعنفٍ مباغت جعلها تنتفض في ذهولٍ قلق. حذره جده من التمادي في عصبيته صائحًا:

-بالراحة يا "تميم ."

كلمات جده لن تخمد أبدًا ما اندلع في صدره، شتت انتباهه لحظيًا عن النظر في اتجاهه، تلك الخطوات السريعة الصاخبة المصحوبة بنداءٍ يلفت الانتباه:

-يا معلم، يا معلم!

اتجهت الأنظار نحو العامل الذي تابع باقي حديثه بصوتٍ شبه لاهث:

-عربيات البوليس جاية من على أول الشارع...

بلع ريقه على عجالةٍ ليختتم بعدها جملته:

-الظاهر حد بلغ.

بتوترٍ ظاهر على وجهها هتفت "همسة" مخاطبة الجميع:

-أنا فعلاً كلمت البوليس، كنت بأحاول أتصرف بأي شكل عشان ألحق أختي.

تحولت أنظار "سلطان" نحو حفيده، وسأله بهدوءٍ:

-هتعمل إيه يا "تميم" دلوقتي؟ الموضوع دخل في الجد.

رد بعنادٍ يحوي رغبة جمة على الانتقام المهلك، حتى أنه فاق طاووسه بكثيرٍ:

-أنا قولتها للكلب ده بدل المرة اتنين، إدي بالك جيالك، والظاهر إن التالتة ثابتة، هاخلص عليه وقتي.

هدرت فيه "فيروزة" بغيظٍ:

-لأ عندك، أنا اللي هموته.

صاح "سلطان" بتهكمٍ مستاء:

-هو إنتو بتتعزموا على بعض في حاجة عِدلة؟

أطبقت "فيروزة" على شفتيها؛ لكن نطقت ملامحها بالكثير، بينما استمر الجد في مخاطبه حفيده بلهجةٍ عقلانية:

-الموضوع دخل في الجد يا "تميم..."

ثم دنا منه، وخفض من نبرته عندما تابع:

-ولو خايف على اللي يخصك يبقى تُفضها حالاً.

نظر له مليًا وهو مقتطب الوجه، في حين تساءل العامل بصوته اللاهث:

-هنعمل إيه يا معلم؟

أخرج من جيبه سلسلة المفاتيح المعدنية، وقذفها في الهواء نحوه وهو يملي عليه أوامره بوضوحٍ:

-خد مفاتيح العربية التلاجة، ومعاك الرجالة اللي جوا، واخرجوا بالأنجاس دول من سطح العمارة اللي جمبنا، هتلاقي العربية مركونة ورا، واشحنوهم على طريق المطار.

هز رأسه طائعًا:

-ماشي الكلام يا معلم.

همَّ بالتحرك في اتجاه السطح، لكنه استوقفه أمر "تميم" التالي:

-وكلم الواد بتاع الكاميرات، خليه يفرمت كل حاجة اتسجلت، هو فاهم هيعمل إيه.

أدار رأسه ناحيته قائلاً بنفس الصوت المطيع:

-عُلم يا ريسنا.

حاولت "فيروزة "المرور، والدخول خلف العامل؛ لكن سد عليها "تميم" الطريق مرة أخرى، فأصابها الغضب، اشتعل وجهها على الأخير وصاحت فيه، كأنما تعنفه:

-إنت بتعمل إيه؟

لم يجبها، وأكمل سحب المزلاج المعدني الغليظ، ليوصد الباب، نظرت له بوجهٍ مشتط، وواصلت هتافها المغتاظ منه:

-حاسب، أنا مش هاسيبه يفلت باللي قاله، هاقطع لسانه.

تنفس بعمقٍ ليكبح نوبة تتجدد بداخله لتنفيذ طلبها، ثم التفت ناحيتها، ونظر إليها بنظرات جادة، لا تحمل سوى الوعد، ورجاها بزفيرٍ ثقيل طرد معه قدرًا ضئيلاً مما يعتريه من مشاعر هائجة:

-انزلي دلوقتي يا أبلة.

ردت عليه برفضٍ معاند:

-لأ مش نازلة.

لم يتحرك قيد أنملة، وبقي ساكنًا صامتًا، ينظر إليها بنظراتٍ غير تلك الهائمة الساهمة التي اعتادت عيناه عليه، نظراتٍ عبرت عن رغبته في محو أي تعاسة حطت بها. فسرت "همسة" صمته الطويل بأنه يمنع نفسه من التفوه بحماقة، لذا بادرت بالتحرك، وحاوطت توأمتها من كتفيها، فانتفضت الأخيرة عندما هبطت يدها لتلمس ذراعها المتورم دون قصدٍ، وتطلعت إليها بعينين حادتين، فأخبرتها الأولى بتوسلٍ شديد:

-استهدي بالله يا "فيروزة"، واسمعي الكلام.

هتفت في عنادٍ أكبر:

-مش هاسيب حقي يا "همسة."

تلك المرة أكد عليها "تميم" بصوتٍ لم يكن بالمازح أبدًا:

-هتاخديه، بس من غير بهدلة ليكي.

تكرر صياح الجد الآمر مع لكزة من عكازه على الأرضية الصلبة:

-يالا أوام، ولو مجابوش ليكي يبقالك الكلام.

اضطرت مرغمة أن تتراجع عن عنادها المُهلك، وبدأت تنسحب خلف الجد الذي كان أول الهابطين، ليظل "تميم" باقيًا في مكانه، حتى تأكد من نزولها، حينها فقط تنفس الصعداء وتبعهم؛ لكن توقف غالبيتهم بالتدريج عن الهبوط عندما وصلوا للطابق المتواجد به منزل "همسة"؛ فالشرطة قد اقتحمت البناية، وبدأت في التحري عن البلاغ الذي تم التقدم به. صاح الضابط بصوته الجهوري الصارم:

-كله ثـابت! محدش يتحرك من مكانه.

مر "تميم" بينهم ليتجاوزهم، ووقف قبالة الضابط يسأله بوجهه المتصلب:

-في إيه يا باشا؟

كما سأله الجد أيضًا:

-خير يا حضرت الظابط؟

بنظرة شمولية فاحصة لكل وجهٍ على حد أجاب الضابط:

-جالنا بلاغ إن في حالة خطف.

من تلقاء نفسها قامت "همسة" بتفسير تصرفها بتلعثمٍ مرتبك:

-أيوه .. ده أنا آ...

لم يرغب "تميم" في توريط أي فرد قانونيًا، لهذا أعمل عقله سريعًا، وتصرف بسرعة بديهة، فقاطعها بلهجةٍ بدت خشنة وجافة، مخاطبًا الضابط، ليتولى تفسير الموقف عنها:

-لا مؤاخذة يا باشا، مرات ابن خالتي خافت لما شافت حد غريب عندها، أصله كان حرامي جاي يسرق الشقة، وافتكرها فاضية، واتعرض لأختها لما شافها، فكلمتكم تلحقوها.

نظر الضابط في اتجاهه، وسأله بعدم اقتناعٍ بنبرته المحققة:

-كده في عز الضهر؟!!

تحدث من زاوية فمه بنوعٍ من التهكم:

-ما هو حرامي غشيم، مش متودك في الشغلانة.

علق عليه الضابط متسائلاً بجديةٍ، وهو يطالعه بنظراته المتشككة:

-وإنت بقى عارفه؟

تدخل الجد قائلاً بتنهيدة متعبة:

-يا حضرت الظابط الحمدلله الحكاية عدت على خير، ولحقنا بناتنا.

تحولت أنظار الأخير ناحيته ليسأله في استهجانٍ:

-وراح فين الحرامي ده؟

أجاب "تميم" عن جده رافعًا كفيه في الهواء:

-فص ملح وداب.

تأمل الضابط الكدمات والعلامات الحمراء الجافة المطبوعة على جلده، وشعر بالاسترابة مما يلفق من أكاذيب، فهدر به بحدةٍ:

-بالبساطة كده؟ هو إنت بتكلم واحد أهبل.

أخفض كفيه، وقال ببرودٍ:

-لأ لا سمح الله، ده اللي حصل.

نظر له بنظرة دونية قبل أن يقول:

-هنشوف، ده بلاغ رسمين وهيتحقق فيه بطريقتنا.

بابتسامة شبه مغترة لاحت على ثغره استطرد معقبًا عليه:

-براحتك يا باشا، شوف شغلك.

خبت نبرته للغاية، ليبدو كأنما يعاهد نفسه مجددًا، وقلبه يرنو دون عينيه إلى حبيبة ليست ببعيدة عنه؛ إن كان يحول بينهما الموج، فلن يتخلى عنها، لعل وعسى -ذات يومٍ- ينفذ سهم العشق إليها، فتدرك حينئذ ما ضمرته الروح لها من كل درجات الهوى:

-راسك عمرها ما هتطاطي طول ما أنا عايش ............................... !!

...........................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الأبيض

## الفصل مائة وستة

لعبت الوساطة القوية دروها في حل الأزمة القائمة، وتغيير مجريات الأمور القانونية، ليتحول البلاغ المقدم عن محاولة لاختطاف أحدهم عنوة، لمجرد بلاغٍ عن سرقة فاشلة، نجح السارق فيها في الهروب قبل إلقاء القبض عليه. كان مدخل البناية مزدحمًا بعشرات الأفراد، ما بين أفراد الشرطة، وعمال الدكان، والمتورطين في الحادثة، فيما عدا الجد "سلطان"، و"ونيسة"، وأيضًا "هاجر". تولى الحاج "بدير" الذي عاد لتوه إدارة الموقف، مستغلاً علاقاته الواسعة في ضبط الوضع، والتأكد من عدم توريط أحدهم قانونيًا، بل وإنهائه هنا بعيدًا عن التواجد في القسم الشرطي.

لدهشة الضابط وجد اتفاقًا غير معلن بين الجيران على تكرار نفس العبارات المبهمة عن عدم رؤية أحدهم لما حدث؛ وكأنهم اتفقوا فيما بينهم على توحيد أقوالهم، ليجد نفسه حائرًا في الوصول إلى الحقيقة الأكيدة عما دار هنا. نظر شزرًا إلى "تميم" الذي كان يستفزه بنظراته المغترة، قبل أن يبعدها عنه ليتطلع إلى "همسة" ويأمرها:

-امضي على أقوالك هنا يا مدام.

تقدمت نحوه، وأمسكت بالقلم الحبري لتوقع حيث أشار لها على الأوراق الرسمية، تصنعت الابتسام وهي تعيد القلم إليه، فخرجت بسمتها باهتة مهزوزة، انسحبت عائدة إلى حيث تقف توأمتها. شردت "فيروزة" مستغرقة في تفكيرها الحائر، وكلمات "تميم" تتردد في صدى عقلها عن عدم جرأة أحدهم

على التطرق لما قيل مُطلقا، لم تقل دهشتها عن الضابط، وزاد فضولها لمعرفة كيف فعل هذا، تحفزت بتعابيرٍ ناقمة مع سؤال الضابط لها بطريقته التشكيكية:

-متأكدة يا أستاذة إنك ماشوفتيش وشه؟

هنا تأهب "تميم" في وقفته، وباتت كامل نظراته عليها، لم ينكر أنه خشي- من ردة فعلها، ومخالفتها لأي اتفاقٍ قد عُقد معها، لرغبتها الشديدة في الثأر لسمعتها التي تدنست بلسانٍ غير شريف أباح لنفسه الخوض في عرضها. حبس أنفاسه مترقبًا؛ لكن ما لبث أن طرد الهواء في ارتياحٍ عندما أجابت بوجهها العابس:

-لأ، كان مغطيه.

طالت نظرات الضابط المتفرسة نحوها، قبل أن يسألها مرة أخرى بطريقته المحققة:

-واللي في إيدك ده من الحرامي؟

انخفضت نظرات "فيروزة" نحو معصمها المتورم، وأجابت بعد لحظة من التفكير:

-أيوه.

تدخل "تميم" في الحوار مقاطعًا إياهما بلهجةٍ أظهرت انزعاجه من رؤية ذلك التورم جراء تصديها لهذا الوغد الحقير:

-يا باشا احنا لو كنا مسكنا الحرامي ده كنا علقناه على باب العمارة، وخلناه عبرة لمن لا يعتبر، قبل ما يمس شعرة من حد من طرفنا.

حملقت فيه "فيروزة" بوجومٍ، ولم تنطق بشيء، في حين علق عليه الضابط بنظراته الهازئة:

-في قانون في البلد يا حضرت، مش شغل فتوات، ولا لوي دراع.

كان على وشك الرد عليه لولا إشارة صارمة من يد أبيه أتبعها قوله المُلطف:

-إنت عارف الشباب يا باشا، وقت ما يشوفوا حد في أزمة بيجروا يلحقوه، فما بالك بأهل بيته.

وجه الضابط أنظاره ناحيته، وأخبره بلهجته الجادة:

-أنا عايز أخد أقوال الحاج الكبير اللي كان معاكو.

استبق "تميم" في إعلامه:

-جدي ماشفش حاجة، كان نايم، وصحى على صوت الدوشة.

نظر الضابط ناحيته مرة أخرى، نمت تعابيره أنه لم يكن راضيًا عن فرض سطوته المكشوفة، وتمسك برغبته قائلاً:

-مش إنت اللي هتحدد، أنا عايز أسمع منه، وكمان الستات اللي آ...

منعه من إتمام جملته اقتراب أحد زملائه وفي يده هاتفًا محمولاً، مال عليه هامسًا له في أذنه:

-يا باشا، كلم سيادة اللواء مدير الأمن.

ضيق عينيه في استغرابٍ، وتناول الهاتف منه ليخاطبه برسميةٍ بحتة:

-ألو، أهلاً وسهلاً بمعاليك، أخبار سعادتك إيه؟

طال صمته، وعكست تعابيره تباينًا مقلقًا خلال إنصاته للطرف الآخر، ليستطرد بعد برهةٍ:

-حاضر يا فندم، اللي سيادتك تؤمرنا بيه.

أنهى معه المكالمة، والتف نحو الجانب ليحادث زميله بخفوت، ثم ألقى نظرة شاملة على الحاضرين قبل أن يردد بتبرمٍ أكد اضطراره للرضوخ أمام الأمر النافذ:

-اتفضلوا وقعوا.

نظرة ذات مغزى تبادلها "تميم" مع والده، فالأخير عرف كيف يستعيد الزمام بحنكةٍ وروية. انقضت الدقائق الباقية في إنهاء المعاملات القانونية، ليغادر بعدها الضابط والقوة الأمنية المطوقة للمكان. ما إن انصرفوا حتى اعترضت "فيروزة" طريق "تميم" لتسأله بوجهٍ محتقن، وهي تتطلع إليه بنظراتها الغاضبة:

-هتوديني عنده امتى؟

إصرارها على المضي قدمًا حتى النهاية في انتقامها حفز نزعته الهجومية من جديد، حاول تثبيط رغباته، وأجابها بعد زفيرٍ متمهل طرد معه ضيقه:

-لما نتأكد إن البوليس مشى، ولا حابة ناخدهم معانا ؟

رفعت سبابتها أمام وجهه تحذره بعنادٍ:

-اعمل حسابك إني مش هاسيبه.

على مضضٍ أخبرها:

-ربنا يسهل.

التفتت برأسها ناظرة نحو "بدير" عندما خاطبها:

-"فيروزة" يا بنتي، حقك هيرجعلك بالكامل، مش عايزك تقلقي.

زوت ما بين حاجبيها قائلة:

-مش قلقانة لأني هاجيبه بإيدي.

سألها بنوعٍ من العتاب:

-واحنا روحنا فين؟

قالت بترفعٍ يتضمن القليل من الوقاحة:

-وأنا مش هاستنى حد يردهولي مهما كان مين.

استاء "تميم" من استخفافها بقدراته، فضم شفتيه في تبرمٍ مانعًا نفسه من التلفظ بما قد يفسد الأمور المتوترة مسبقًا، بينما استمر "بدير" في معاتبتها بأسلوبه الودي الأليف:

-بس أنا مش أي حد، ده أنا في مقام أبوكي، ولا ماستهلش ده؟

شعرت بالحرج من كلامه، وقالت بدمدمةٍ مزعوجة:

-حضرتك على عيني وراسي بس آ..

قاطعها رافعًا يده:

-من غير بس، خلينا نهدى ونفكر بالعقل.

بدأ "تميم" يتكلم من تلقاء نفسه قاصدًا لفت الانتباه إلى إصابتها:

-وبعدين يا حاج شايف إيدها بقت عاملة إزاي؟ ماينفعش نسيبها كده!

ألقى "بدير" نظرة مدققة عليها، وقال بجدية:

-معاك حق، خلي الدكتور يبص عليها ...

وقبل أن تعترض عليه أضاف بنفس الصوت الجاد:

-وبعد كده هنعمل اللي إنتي عايزاه.

أرخت عينيها عنه قائلة بطاعةٍ لم تكن كاملة:

-ماشي يا حاج.

....................................

امتدت يده لداخل جيب بنطاله الخلفي، وأخرج من محفظته الجلدية قطعة نقدية، أعطاها لحفار القبور الذي تولى تنظيف وتهذيب الحشائش في قبر والده الراحل، انتظر "هيثم" رحيله ليبدأ بعدها في قراءة الفاتحة على روحه، واستطرد يخاطبه بكلماتٍ آسفة نادمة:

-حقك عليا يابا، بقالي زمن مجتش أزورك ولا أقرالك الفاتحة.

كان شحيح الزيارات له، خاصة بسبب شعوره العميق بالذنب جراء كارثته غير المقصودة في دكانه القديم، لهذا مجيئته إليه يعد من الأشياء نادرة الحدوث. تنهد بعمقٍ، وواصل كلامه الأحادي معه:

-شوفت اللي جرى لأمي؟

غلف الحزن صوته وهو يتابع:

-مابقتش عارف أعمل إيه عشان ترجع زي الأول.

لم تساعده قدماه على الوقوف، فافترش الأرض جالسًا أمام شاهد قبره، متذكرًا حديث الطبيب النفسي المعالج لحالة والدته، والتي أخبره عنها بإيجازٍ أنها لجأت لإحدى طرق الدفاعات النفسية اللا شعورية، وهي رفض الواقع وإنكاره، بل والإسقاط على الآخرين فأصبحت تتعامل مع قضية مقتل ابنتها على أنها لم تكن المتورطة المباشرة فيها، وإنما غيرها من تسبب في إزهاق روحها، لذا نمت بداخلها رغبة شعورية في تحقيق العدالة المنقوصة من وجهة نظرها، وباتت

مهمتها الانتقام لها بوسائل عنيفة قد تلحق الأذى والضرر بنفسها وبغيرها. زفيرٌ آخرٌ طرده من صدره قبل أن يكمل في تردد وحيرةٍ:

-وخايف لو.. سبتها ترجع تعيش معايا.. تعمل مصيبة، وساعتها مش هسامح نفسي.

كفكف عبراتٍ علقت بجفنيه، وظل جالسًا على تلك الوضعية لبرهةٍ، محاولاً تفريغ الشحنة المكبوتة بداخله، أخفض يده نحو جيبه ليخرج هاتفه المحمول، حتى يعرف الوقت، تذكر أن بطاريته قد نفذ شحنها خلال اتصال زوجته به أثناء وجوده بالمشفى النفسي، لم يكن ذهنه صافيًا آنذاك لمعاودة الاتصال بها، لخرج هائمًا على وجهه وهموم الدنيا متجمعة أمام عينيه، كان بحاجة لمكان يهرب إليه، فأرشده عقله لزيارة والده.

نهض من مكانه قائلاً بعد فرك عنقه:

-أوعدك مش هطول في الغيبة يابا، وهاجيلك كل شوية.

..................................................

الطوق الأمني المفروض حول البناية جعل قلبها يدق في عنفٍ، طاردتها الهواجس السيئة بشأن نجاح "فضل" في اللحاق بابنتها، وإلحاق الأذى الشديد بها. ظلت تدعو الله تضرعًا وخفية ألا تكون ظنونها حقيقية، ركزت بصرها على الحشد الغفير المتزاحم هناك، وتقدمت دافعة مقعد شقيقها المدولب بيدٍ، وبيدها الأخرى أمسكت بابنته الصغيرة. حاولت "آمنة" اختراقه، والولوج للداخل؛ لكنها فشلت، لذا وقفت أمام الفرد الأمني ترجوه:

-خليني يا ابني أدخل.

أصر على منعها قائلاً برسميةٍ جافة:

-ممنوع يا ست.

استعطفه "خليل" برجاءٍ:

-معـ..لش يا شـ..اويش.

أخبرته "آمنة" وهي تشير بيدها:

-أنا بنتي عايشة جوا، وده خالها وبنته، احنا عايزين نطمن بس عليها.

قال بوجهٍ جامد في تعبيراته:

-ماينفعش حد يدخل، دي أوامر.

اشرأبت بعنقها محاولة رؤية ما يحدث في الداخل؛ لكنها لم تستطع، فلعقت شفتيها، وسألته بتوسلٍ:

-طب اللمة دي ليه؟ في حاجة حصلت؟ الله يكرمك رد عليا.

لم يرأف حالها القلق، وقال بنفس الأسلوب الجاف:

-معرفش.

رغمًا عنها فاضت العبرات من عينيها، وتابعت بنواحٍ:

-ربنا ما يوقعك في ضيقة، ريحني، أنا قلبي واقع في رجليا، في حد جراله حاجة؟ قولي يا ابني، ده أنا زي أمك.

يئس من إلحاحها، فنطق بتذمرٍ:

-ده بلاغ عن سرقة، ارتحتي كده.

لاحقتها بأسئلتها وقد أراح جوابه صدرها:

-بس؟ مافيش حاجة تانية؟

رد نافيًا باقتضابٍ:

-لأ.

كررت عليه سؤاله بلوعةٍ:

-إنت متأكد؟

خاطبها بصبرٍ نافذ وهو يشير لها بيده:

-أيوه يا ست، ويالا بقى من هنا، إنتي كده هتجلبيلي مع الظابط، وهو من النوع الرزل.

أومأت برأسها قائلة بنبرة طائعة وهي تمسح دموعها بظهر كفها:

-حاضر يا ابني، كتر خيرك.

تراجعت للخلف مع "خليل" الذي سألها:

-هـ..نعمل إيه؟

أجابته مشددة من قبضتها المحكمة على يد الصغيرة، وعيناها تفتشان عن إحدى ابنتيها بين الكتل البشرية المتواجدة بالداخل:

-هنقف نستنى لحد ما يبان في إيه؟

بلع ريقه، واقترح عليها:

-جـ..ربي تـ..طلبي "هـ...مسة".

نظرت إلى هاتفها، وقالت بتوترٍ:

-مش بترد، وده مخوفني أكتر.

هز رأسه في قلقٍ، وغمغم بصوته المتلعثم:

-ربـ...نا يستـ..ر.

طال انتظار ثلاثتهم بالخارج، إلى أن هتفت الصغيرة "رقية" وهي تشير بيدها:

-عمتو، بصي!

استدارت تنظر إلى حيث أشارت الطفلة، فوجدت "فيروزة" مع "همسة"، تنفست الصعداء، وهللت في سرور عظيم:

-الحمدلله يا رب إنهم بخير، يا رب ما تضرني فيهم أبدًا.

على أحر من الجمر انتظرت ابتعاد رجال الشرطة، لتتحرك بخطاها المتعجلة مجرجرة الصغيرة معها، ومن خلفهما "خليل" بمقعده المدولب نحو المدخل الذي بات متاحًا الآن، سبقها صوت صياحها المنادي في لهفة:

-"فـيروزة"!

على إثر ندائها التفت ابنتها ناحيتها، ورددت في سعادة كبيرة لرؤيتها:

-ماما.

أقبلت عليها الأخيرة تحتضنها، وتفيض عليها بكل ما يعتريها من مشاعر الأمومة الجياشة، تراجعت عنها، وألقت نظرة فاحصة لها من بين دموعها الرقراقة، قبل أن تسألها وكلتا يداها تضمان وجهها:

-إنتي كويسة؟

هزت رأسها بالإيجاب وهي ترد:

-أيوه.

سألتها بنفس اللهجة الملتاعة، ونظراتها ما زالت تفحص ملامحها:

-"فضل" عملك حاجة؟

أجابتها بتجهمٍ شديد:

-ماتجبيش سيرته يا ماما، عشان هاموته.

دق قلبها في ارتعابٍ، متوقعة حدوث الأسوأ، وتابعت متسائلة بعينين ترمشان في خوفٍ:

-أذاكي إزاي؟

لم يطاوعها لسانها لإخبارها بمحاولته الملفقة لإلصاق الريبة بسمعتها، وتدنيسه لشرفها بتهمه الباطلة أمام الغرباء، لتبدو كفتاة ساقطة في أعينهم، توترت والدتها من صمتها، وكررت سؤالها عليها:

-عمل فيكي إيه؟

ردت باقتضابٍ، وبشرتها تشتعل من جديد:

-ملحقش يعمل.

تابع "تميم" حوارهما باهتمامٍ، ودَّ لو استطاع محو تلك اللحظات السيئة من ذاكرة مهجة فؤاده، فلا تضطرم النيران في صدرها، أو ينكوي قلبها بحرقةٍ كلما تطرق أحدهم لذكر ما يخص هذا الدنيء، مال على والده يهمس له:

-وقفتهم كده مش حلوة، ولا إنت إيه رأيك؟

قال وهو يربت على ذراعه:

-معاك حق.

انتبهت "آمنة" لـ "بدير" عندما جاءها صوته قائلاً بنبرة مرحبة:

-اتفضلوا يا جماعة،ماينفعش الوقفة دي في الحوش، تعالوا نتكلم فوق براحتنا.

اعتذرت منه على الفور:

-حاج "بدير"، أنا أسفة، متأخذنيش، اتلخمت في بنتي وآ..

تفهم خوفها الغريزي، وقال بنفس الود:

-اطمني عليها، وخدي راحتك معاها، بس فوق ...

اتسعت ابتسامته قليلاً وهو يؤكد لها:

-وبعدين مش عايزك تقلقي عليها، هي في حمى رجالة.

انتشى "تميم" لسماعه لمثل تلك الجملة المادحة، خاصة مع نظراته المسلطة عليه؛ وكأنه يقصده بها تحديدًا، أخفى بصعوبة بسمة راضية كادت تلوح على ثغره، ليدعي الجدية في حضرة الجميع. شكرته "آمنة" على موقفه النبيل مرددة:

-ربنا يخليكوا لينا.

لمح "بدير" شقيقها وهو يدفع مقعده للأمام، فاتجه إليه ليستقبله بترحيبٍ لا يقل في حفاوته عن استقبال زائر هام:

-عم "خليل" يا ألف مرحب، تعالى يا غالي، بنفسك جاي لحد عندنا.

حياه بصوته المتقطع:

-سلامـ..و علـ..يكم، إزيـ..ك يا حـ..اج؟

أجابه بوجهه المرتخي في تعبيراته:

-احنا في نعمة والحمدلله.

ثم التفت آمرًا ابنه:

-تعالى بس يا "تميم"، مع الأستاذ "خليل".

............................................

كتمت تأويهة موجوعة والطبيب يلف رباطه الضاغط حول معصمها، لم تكن في أغلب الوقت منتبهة لما يفعله، خلال جلوسها مع أفراد أسرتها بغرفة الصالون، فيما عدا الصغيرة "رقية"، والتي جلست بصحبة "هاجر" في غرفتها؛ كان عقلها منفصلاً عن المحيطين بها، استغرقت في تفكيرها العميق في كل ما طرأ عليها في الساعات الأخيرة؛ ملاحقة "فضل" لها، اكتشافها لوجود منديل الرأس ومشابكها الضائعة في غرفة "تميم"، حيرتها عن كيفية حصوله عليهم، توجسها بشأن احتمالية رؤية "خلود" لهم في الدرج، ولو على سبيل المصادفة، وأخيرًا الاتهامات الباطلة التي نالت من سمعتها على لسان الأقرب إليها.

بدا صوت الطبيب مبهمًا وهو يوصيها بنصائحه الجادة حول ضرورة الاهتمام بإجراء أشعة فاحصة لكدمتها، ومتابعة التضخم على مدار الساعات القادمة. هزت رأسها بإيماءة خفيفة وهي ترد:

-إن شاءالله.

أغلق حقيبته، وهمَّ بالانصراف ليصحبه "تميم" نحو الخارج، تنحى للجانب قليلاً عندما مر بالردهة، ليفسح المجال لوالدته التي أتت ومعها صينية مليئة بالحلوى والمشروبات، وضعتها على الطاولة التي تنتصف الغرفة، ودعت ضيوفها لتناول ما بها قائلة:

-اتفضلوا يا جماعة، حاجة بسيطة لحد ما نجهز الأكل.

اعتذرت منها "آمنة" بحرجٍ شديد:

-مالوش لزوم والله، احنا هنمشي، كفاية وقفتكم مع بناتي طول اليوم.

اعترضت عليها "ونيسة" بإصرارٍ:

-ودي تيجي؟ والله نزعل منكم، احنا أكتر من أهل.

بينما أضاف "بدير" الذي مد يده ليكمل ارتشاف قهوته:

-إنتو منورينا يا حاجة، ده بيتكم، خدوا راحتكم فيه.

وقف "تميم" عند أعتاب باب الغرفة يخبرهم بجدية:

-النجار لسه قدامه شوية عقبال ما يخلص تصليح الباب فوق، أنا سايب اتنين من العمال معاه.

انزلقت "همسة" قائلة من تلقاء نفسها:

-أنا قلبي وقع في رجليا لما لاقيت الحيوان ده واللي معاه كسروه، وداخلين علينا كده، مابقتش عارفة أتصرف إزاي، عمري ما كنت أتخيل إنه يعمل كده، لأ وفي مين، بنات عمه اللي من لحمه ودمه.

ردت عليها "ونيسة" وهي تضع يدها على صدرها:

-الحمدلله إن ربنا سترها معاكو.

تحولت كافة الأنظار نحو "آمنة" التي أردفت قائلة:

-أنا كلمت عمك وقولتله على اللي حصل.

اشتاط وجه "فيروزة"، واربد بحمرةٍ غاضبة بعد تصريح أمها، في حين نطقت "همسة" بنبرة مستهجنة:

-عمي، تفتكري هيعمل إيه معاه؟

ردت عليه بتفكيرها السطحي:

-أهوو يوقف ابنه عند حده، ويأدبه وآ...

فاض بها الكيل من سماع تلك المهاترات المستفزة، لذا قاطعتها "فيروزة" بتشنجٍ:

-ماما، يكون في معلومك أنا مش هاسيبه، وهاقتله.

انقبض قلبها في جزعٍ، ورجتها بوجهٍ شبه شاحب من خوفها:

-استهدي بالله كده، عايزة تودي نفسك في داهية؟

-أحسن ما أخلي اللي زيه عايش.

قالت جملتها وهي تنظر في اتجاه "تميم" الذي تقلصت عضلات وجهه أمام نظراتها المليئة بالإصرار، أخفض عينيه المشتعلتين لينظر للأسفل، محاولاً كبح جماح نفسه، فلا يندفع بهوجائية ويسبقها في تنفيذ رغبتها بنحر عنقه دون رحمة. حل تشابك ساعديه، وباعدهما عن صدره، ليدس يديه في جيبي بنطاله، شعر برجفة خفيفة تسري في عروقه؛ فمشبكها ما زال متواجدًا به، أحس بالتلبك، وجاهد ليبدو ثابتًا غير مقروء الملامح؛ لكن قلبه أبى البقاء ساكنًا. حاد بنظراته عن البقعة الوهمية المتطلع إليها لينظر ناحية "آمنة" عندما تشدقت قائلة:

-ده عمك بيتصل.

زادت الحمرة في وجه "فيروزة"، واحتقنت نظراتها أكثر مع رؤيتها لارتباك والدتها؛ كأنما تضع له اعتبارًا لا يستحقه، وقبل أن تمنعها من الإجابة على مكالمته، ردت والدتها بنبرة جمعت بين القلق والغضب:

-ألوو، أيوه يا حاج "إسماعيل".

قامت "همسة" من مكانها في تباطؤ، لتجلس على مسند أريكة "فيروزة"، سعت لتخفيف حدة عصبيتها، لذا مالت عليها، وحاوطتها من كتفيها قائلة بصوتها الخافت:

-اهدي يا "فيرو"، بالراحة يا حبيبتي، ماتعمليش في نفسك كده.

رفعت عينيها الناريتين نحوها لتخبرها بهسيسٍ متألم:

-محدش حاسس بالنار اللي جوايا يا "همسة".

أرهف "تميم" السمع عن قصدٍ إلى جملتها التي أحدثت تأثيرها الجارح في نفسه، أحس بغليانٍ يأكل هدوئه الزائف، وقال بصوتٍ حبسه في جوفه:

-بس أنا حاسس.

شتت من جديد نظراته الخاطفة عنها، ليتطلع إلى أي شيء غيرها مضطرًا؛ كان على استعداد تام للانقضاض عليه دفاعًا عنها، وتحجيمه لتلك النزعة القتالية بداخله تطلب مجهودًا استنفز طاقات صبره. أنهت "آمنة" المكالمة بعد كلماتٍ مقتضبة غامضة، لتدور بنظراتها المتوجسة على الوجوه المحدقة بها، ثم قالت بترددٍ:

-عمك جاي.. على .. هنا، علشان يتفاهم معاكي.

بمنتهى العصبية والغيظ ردت عليها "فيروزة" وقد هبت واقفة على قدميها:

-يتفاهم مع مين؟ معايا؟ مش هيحصل.

انتصب "تميم" في وقفته، وعاد لاستنفاره من جديد في لمح البرق. استطرد "خليل" معقبًا بضيق، مستحضرًا تهديد ابنه الخطير لابنته:

-الأولى كـ..ان يــ..ربيه، بدل مـ...ا كــ...ان هددنا ببنتـ..ي.

أدارت "فيروزة" رأسها في اتجاهه، وسألته بوجهٍ غائم:

-هو عمل مع "كوكي" إيه؟

ضغطت "آمنة" على شفتيها في حزنٍ، قبل أن تجيب عن شقيقها:

-هددنا لو مقولنالوش على مكانك إنه هيرميها.

نطق "تميم" لاعنًا إياه دون احترازٍ، وقد تخلى عن طور هدوئه المفتعل:

-ابن الـ (...)، هي وصلت لكده كمان؟ حقنا نقطع لسانه قبل راسه!

حذره "بدير" بلهجةٍ متشددة نسبيًا:

-"تميم"!

رد دون ندمٍ:

-معلش يابا متأخذنيش، غصب عني.

أشارت "فيروزة" بيدها مخاطبة والدتها:

-وأنا مش هستناه لما يجي عشان يقول كلمتين مالهومش أي لازمة عندي...

التفتت محدقة في وجه "تميم"، وأمرته بحدةٍ وهي تتقدم نحوه:

-وديني عند الحيوان ده.

وقفت قبالته تطالعه بعينين يتقافز فيهما كل أنواع الغضب، وتلك المرة لم يحد بنظراته عنها، بل بادلها نظرات عازمة على إظهار طاعته لها؛ لكن والده نطق بتعقلٍ حازم:

-اسمعيه الأول، ولو معجبكيش الكلام اعملي اللي إنتي عايزاه.

تحول صوتها لما يشبه الصراخ، مقاومة بشدة ما يقتحم ذاكرتها من مشاهد خذلانه لها قبيل الكشف عن عفتها:

-وأسمعه ليه؟ عشان في الآخر يطلعني غلطانة؟

سألها "بدير" باستنكارٍ:

-ومين هيسمحله بكده يا بنتي؟

أجابته بصوتٍ جريح رغم ارتفاع صوتها:

-ومين كان منعه لما صدق اللي اتقال عني زمان؟ ده كان أكتر حد عارف أخلاقي كويس، ورغم كده كان أول واحد دبحني.

لاشك أن طابعه الإجرامي العنيف كان أوضح ما يكون في تلك اللحظة، ارتكزت كل نظراته عليها وحدها، يكاد يفني روحه لمعرفة ما الذي خاضته وسبب لها كل هذا الألم الشديد. انفصل "تميم" ذهنيًا عمن حوله ليبقى عقلاً، وقلبًا، وروحًا معها فقط، صار وجهها ما يراه الآن دونًا عن البقية، حدق فيها بتحفزٍ شديد، وصوتًا مُلحًا يصرخ بداخله:

-هما عملوا فيكي إيه ................................... ؟!

..........................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل مائة وسبعة

عند تلك المنطقة النائية، وتحديدًا على الشاطئ الرملي الفاصل بين الحيد الصخري، الذي تتكسر عليه الأمواج العتية، والطريق السريع للسيارات، وقف عدد من العمال متأهبين أمام إحدى العشش المصنوعة من البوص، من يتطلع إليهم من مسافة بعيدة يظن أنهم قد جاءوا صحبةً، للقيام برحلة صيدٍ للأسماك، خاصة أن الأكواخ في تلك المنطقة مهجورة من ساكنيها، فلن تثير الريبة. انتظر العمال الجديد من الأوامر لتنفيذها في التو، خرج أحدهم من الداخل، وتساءل وهو يفرك كفيه معًا:

-هنعمل إيه في الأشولة اللي جوا؟ هنسفرهم ولا إيه النظام؟

أجابه آخر وهو ينفخ في يده ليبعث الدفء في راحته المتجمدة:

-مافيش جديد لسه، مش إنت سايبهم في الطل؟

قال وهو يستحضر في ذهنه تجريدهم من معظم ثيابهم الخارجية:

-أيوه، مروق عليهم، ده غير إن الهواء هنا ملتم، مخليهم يرصرصوا من البرد.

هتف في استحسانٍ:

-زي الفل.

أضاف ثالث بلهجة آمرة:

-جهز شوال الملح، جايز المعلم يحتاجه.

أدار رأسه ناحيته، وقال:

-محظوظ جوا...

سعل قليلاً ثم تابع في سخرية:

-عيب البهايم دول إنهم لعبوا مع الناس الغلط.

ضحك رفيقه، وعلق:

-على رأيك، صحيح عملت إيه في البأف إياه؟

شاركه الضحك الهازئ قبل أن يجيبه:

-مش قادر أقولك بقى عامل إزاي، خرقة! معدتش نافع ببصلة.

أخبرهما الثالث بتحمسٍ:

-ولسه لما المعلم "تميم" يجيله، ده هياخده على الرايق رايح جاي.

تبدلت تعابير الأول للتوتر وهو يعقب عليه:

-ربنا يكفينا شره لما بيقلب.

أيده في رأيه قائلاً:

-أه والله، الوش التاني بيطلع، ومحدش بيعرف يوقفه.

صفق الثالث بكفيه يستحثهما:

-كفاية كلام يا رجالة، وراقبوا بس الطريق، مش عايزين لبش.

أخبره الأول بثقةٍ وهو يومئ برأسه:

-عيب عليك، عدة الصيد اتنصبت، ومحدش هيركز معانا.

شدد عليه من جديد وهو يشير له بنظراته الجادة:

-الحرص واجب برضوه.

.........................................................

لو كان الأمر بيده، لتسلط على رقبته بتجبرٍ لا مناص منه مطلقًا، وأذاقه من العذاب ألوانًا، فلا يتعافى أبدًا من شروره المستطيرة! أثناء وقفتها الشامخة في بهاءٍ عظيم، شملها "تميم" بنظراته المتفرسة الدقيقة، آملاً أن ينجح ولو لمرة في النفاذ إلى داخل رأسها، لاكتشاف ما عانته وسبب لها كل هذه المعاناة. استمر في تطلعه إليها وهي تسأله من جديد بصوتٍ مازال مكتسبًا القوة والثبات:

-هتوديني عنده؟

أجاب بردٍ قاطع، وعيناه تتعهدان لها أيضًا:

-أيوه.

لامس "تميم" اعتراضًا ظاهرًا في وجه أبيه، فأخبره بجدية، وبإشارة ذات مغزى من رأسه:

-خليها تاخد حقها، جايز ده يريحها...

-وأنا موجود معاها.

قال كلماته الأخيرة وهو ينتظر إليها مجددًا لتتأكد من جديته، في حين نهض "بدير" واقفًا، وتقدم بخطواته نحو "فيروزة" ليخاطبها:

-أنا خايف عليكي يا بنتي، مرضالكيش البهدلة.

ردت وهي تقتل غصة عالقة في جوفها:

-كتر خيرك، أنا أدها.

هتفت "ونيسة" في استنكارٍ شديد، وقد نهضت بدورها من مقعدها:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، منهم لله الظلمة اللي عملوا كده.

بينما احتجت "آمنة" على ما يحدث بخوفٍ كبير، وعيناها تبحثان عن المساعدة بينهم:

-إنتو هتسبوها تروح لقضاها؟ ما تمنعوها يا جماعة.

أمسكت "همسة" بيد توأمتها، ورجتها بارتعابٍ:

-عشان خاطري يا "فيروزة"، والله العظيم مايستاهل.

أزاحت قبضتها عنها بهدوءٍ، وقالت بإصرارٍ:

-محدش يقولي المرادي لأ.

ثم أسرعت في خطاها متجاوزة "تميم"، ومتابعة اندفاعها نحو الخارج دون تريثٍ، وغضبها مستبد بها. هتف" بدير" يأمر ابنه بصرامةٍ:

-معاها يا "تميم"، ماتخليهاش تعمل حاجة غلط تضرها.

أومأ برأسه مؤكدًا له:

-اطمن يابا...

انخفضت نبرته ليواصل ختم جملته بين جنبات نفسه، وهو يهرول ركضًا خلفها:

-مش هاسمح لحد يمس شعرة منها طول ما فيا النفس!

..............................................

خروجها من المنزل كان محفوفًا بغضبها المبرر؛ لكنه كان حتميًا لاسترداد كامل حقها، ومع هذا تسرب إليها شعورًا مغايرًا لاستبسالها العنيد، قاومته في مهده محافظة على اتقاد مشاعرها الغاضبة. لم تكن "فيروزة" على استعدادٍ للتنازل أو التراجع عما تريد تنفيذه، واصلت هبوط الدرجات بتحفزٍ شديد، مقاومة مشاعر الألم، الخذلان، القهر، وكل ما قد يدفعها نحو الغرق في همومها العميقة، والاستسلام للضعف والهوان.

حاولت توجيه ما يضطرم في صدرها في اتجاه واحد؛ الانتقام وبقسوة. لم تعبأ بمن يلحق بها، فلن يمنعها أحدهم عن تأديبه مهما كلفها الأمر، حانت منها التفافة جانبية من رأسها عند انحرافها عند الطابق السفلي، لتجد "تميم" يلحق بها بخطواته المتعجلة، أبعدت عينيها عنه، وواصلت نزولها السريع؛ لكن تجمدت

قبضتها على حافة الدرابزون قبل أن تصل لنهايته، وتسمرت في مكانها عندما رأت عمها يتجه صعودًا عليه، رفع الأخير رأسه ناحيتها، ولهث قائلاً في ارتياحٍ:

-كويس إني لحقتك.

رددت بدهشةٍ لا تخلو من انزعاجٍ حانق:

-عمي!

سار في اتجاهها حتى بلغ الدرجة الأولى من السلم، تلك التي تقف عليها، بينما توقف "تميم" على بُعد أربعة درجات منهما، ووزع نظراته بين الاثنين مراقبًا في صمت ما يحدث بينهما. راح "إسماعيل" يطالعها بنظرة فاحصة قبل أن يقول بنوعٍ من التمهيد:

-أنا شايف إنك بخير الحمد لله...

اختلج وجهها علامات الغضب بالتدريج، أكان يريد رؤيتها مذبوحة مثلاً ليشعر بالإشفاق نحوها؟ استشاطت سريعًا، وفشلت في تخبئة نقمها الظاهر على قسماتها. زادت حدة غيظها مع سؤاله المستفز:

-فين "فضل"؟ هو عملك حاجة؟

احتدت نظراتها نحوه، وغامت ملامحها بشكلٍ كبير، أهو أعمى لتلك الدرجة فلم يستطع أن يرى الضمادة التي تلتف بها يدها؟ تجاهلت منحه الإجابة على الجزئية الأولى، وردت بكتفين منتصبين في استعلاءٍ وقوة:

-لأ اطمن، مقدرش عليا، وأنا واقفة قصادك أهوو.

أصابه التخبط من كلامها الغامض، وتابع مستفهمًا:

-أومال هو فين؟ أمك قالتلي إنه عِرف سكتك، وكان جايب ناس أغراب معاه، وآ...

قاطعته بصوتٍ مال للعصبية:

-عشان ياخدني غصب عني.

كز على أسنانه ناعتًا إياه في ضيقٍ:

-غبي.

وضع يده على كتفها ضاغطًا بلطفٍ عليه، فلم تهتز من لمسته الخشنة، بدت قادرة على مجابهته في ردودها بشجاعة واستبسال واضحين، كرر ربته برفقٍ على جانب كتفها قبل أن يستطرد معتذرًا:

-حقك عليا يا بنتي...

ربما كانت لانت نسبيًا إن كان اعتذاره عن طيب خاطر، ومحاولة أبوية منه لاسترضائها؛ لكن سرعان ما أفسده بباقي حديثه المعلل:

-ده طيش شباب، واستعجال مالوش لازمة ...

احتقنت نظراتها بشدة، وبدأت أنفاسها في الانفعال، في حين كان "تميم" على نفس شاكلتها وأكثر، تضاعف الغليان المستعر في صدره، وأطبق على أصابعه مكونًا قبضة فولاذية تود الإطاحة به في الحال، حدجه بنظرة مميتة عندما تابع تبريره الواهي، أو ما اعتبره مجازًا بالقشة الأخيرة التي قسمت ظهر البعير:

-أصله عشمان إنك توافقي تتجوزيه لما تخلصي عدتك، وآ...

لم يتحمل "تميم" المزيد من هرائه الباعث على غضبه الشديد، هبط الدرجات مقاطعًا سخافته المثيرة للغثيان:

-لا مؤاخذة في قطع كلامك...

تعمد التباطؤ في التلفظ بباقي جملته؛ وكأنه يهزأ به:

-يا كبير حتتك، يا كُبارة البلد.

تطلع إليه "إسماعيل" بنظراتٍ غير مريحة، بينما أضاف "تميم" من بين أسنانه بازدراءٍ، ومستخدمًا يده في الإشارة:

-في كلمة أصلها محشورة في زوري.. ومش قادر أبلعها.

استمر في هبوطه، ليجبر "فيروزة" على النزول للأسفل قاصدًا إبعادها عن مواجهة عمها، وأصبح يقف مكانها فأظهر ذلك فارقًا في الطول، والقوة، والمهابة. نظر "تميم" في عينيه، وسأله بزفيرٍ ثقيل:

-هو إنت بتسمي اللي عمله البغل ده طيش شباب؟

وقبل أن يختلق كذبة مستفزة بادر بالهجوم عليه محولاً النقاش لحربٍ كلامية:

-ده اتهجم على بيوتنا ومرعاش حرمتها، قل أدبه على كبير عيلتي، ولسانه طال على حريمنا...

تلون وجه "إسماعيل" بأكثر من لونٍ، وحملق فيه بعينين شاخصتين، لم يتوقف "تميم" عن تهديده الصارخ له:

-يعني أقل واجب معاه يتكسر إيديه ورجليه ده بعد ما يتقطع لسانه النجس، فبلاش يا حاج تبرر اللي عمله الكلب ده، عشان الزعلة هتبقى معاك إنت.

لكونه على علمٍ بطباع ابنه المشبعة بالجبن، بدا "إسماعيل" مذهولاً للغاية مما يسمعه، فأنكر عفويًا ذلك:

-مش معقول يكون عمل كل ده؟ هو بردك بيراعي الأصول.

استفزه هرائه، فصاح به في تشنجٍ، وقد انطلقت صافرات الإنذار لتؤهب كامل قواه:

-يعني أنا بافتري عليه؟

لعق شفتيه، وبرر بحجة ضعيفة:

-مقولتش كده، بس هو مش أهبل عشان يودي نفسه في داهية عشان يتجوز.

من منظورها فقد كل شيء قيمته بعد ما رأته بأم عينيها من ردة فعل عمها المدافعة عن سلوك ابنه القميء تجاهها؛ وكأن ما فعله بها حقًا مشروعًا ومكتسبًا له، بل ولا يحق لها الاعتراض عليه، ربما افترض أنها ستتغاضى عن إساءاته المتكررة إكرامًا لصلة الدم والقرابة، أحست بثقل الهواء يطبق على صدرها، بعدم انتظام أنفاسها، وبانفلات أعصابها الوشيك، قبل أن تنفجر فيه كان "تميم" الأسبق عنها، حيث اهتاج من أسلوبه المهترئ في تبرير تصرفات ذلك الحقير، وهدر بانفعالٍ:

-ما هو جاب اللي يسنده، لأنه خروبج، مش أد مواجهة الرجالة لواحده، تمامه كده.

رد عليه مكررًا على مسامعه نفس السخافات المستفزة التي لا معنى لها:

-يا ابني قولتلك مايقصدش، أه هو مندفع شويتين، بس غرضه شريف.

صاح به "تميم" في غيظٍ لم يستطع كبته أكثر من هذا:

-اللي غرضه شريف يخش البيت من بابه يا حاج!

احتقنت نظرات "إسماعيل"، وتابع "تميم" هجومه عليه بدفاعٍ مستميت، شعرت خلاله "فيروزة" أنه يسترد لها كرامتها بشكلٍ غير مباشر:

-يحترم أهله، يقدر قيمة الإنسانة اللي هيطلبها للجواز، يصونها، ومايهينهاش لا بكلمة ولا بنظرة تجرحها، يعززها، يعلي من قيمتها، مش جايب شوية شمحطجية معاه يعمل نِمرة قصادها، ومسمي دي رجولة.

تطلعت "فيروزة" إليه مليًا باستغرابٍ يشوبه القليل من الدهشة؛ وكأنها تكتشف جانبًا آخرًا في شخصه، يجبرك على الاعتزاز بوجود مثله إلى جوارك. انفرجت شفتاها عن المزيد من الاندهاش عندما أخبره بجمئةٍ:

-أنا دخلت السجن عشان كام كلمة اتقالوا بالغلط عن أختي، ماستحملتش حد يمس طرفها بسوء، فما بالك بقى باللي اتهجم على أهل بيتي، وكشف ستر ناسي ؟!!

بصوتٍ لم يهتز مطلقًا، وثبات يدعو للفخر أضاف أيضًا:

-معنديش مشكلة إني أروح فدا اللي بحبهم، المهم مايطاطوش راسهم أبدًا لحد!

خفق قلبها متأثرًا لعباراته الرنانة التي مست روحها، وأشعرتها بالأمان المفقود في حياتها. شتت نظراتها عنه لتحملق في وجه عمها حينما خاطبها بلهجةٍ منزعجة، بعد أن أدرك أنه وصل إلى طريقٍ مسدود في النقاش معه:

-لمي الدور يا بنت أخويا...

اختلج بشرتها حمرة غاضبة، وتضاعفت مع لومه الفج:

-مش ناقصين فضايح زيادة، ولا عايزين نُحشر الغُرب معانا.

ردت عليه في حرقةٍ:

-الفضايح ابنك هو اللي عملها بنفسه، وهيتحاسب على غلطه.

تحرك "إسماعيل" من مكانه ليقبض على ذراعها، سحبها معه نحو مدخل البناية وهو يأمرها:

-تعالي معايا.

انتشلت ذراعها من قبضته، وصاحت في غضبٍ:

-ماتمسكنيش كده.

نظر لها باستهجانٍ، واستطرد يعنفها بغلظةٍ:

-خلاص صوتك علي وعيارك فلت، إيه مافيش حد قادر عليكي؟

لم تقبل أن تبتلع لسانها وتسكت توقيرًا لمكانته وعمره، ناهيك عن شعورها العميق بأنه يحملها اللوم كاملاً، لذا دافعت عن موقفها بتحفزٍ، وبأنفاسٍ منفعلة:

-صوتي عالي في الحق على طول يا عمي، وإنت عارف ده كويس عني، لا بأقبل الغلط، ولا هارضى بالظلم ...

غلفت نبرتها لمحة من الازدراء وهي تتابع:

-ولا إنت ماتعرفش تقول كلمة الحق عشان الزفت "فضل" قل منك؟

اعتبرها إهانة فجة أن تتطاول عليه هكذا، وفي حضرة هذا الغريب، كأن لا قيمة له، لذا ردًا لاعتباره رفع ذراعه للأعلى مهددًا بصفعها وهو يصرخ بها:

-اخرسي.

لم يرف لها جفن متوقعة أن يتورم صدغها من الألم؛ لكنها كانت عاقدة العزم ألا تحني رأسها لمخلوق، ومع هذا اتسعت عيناها ذهولاً وقد رأت قبضة "تميم" تستوقفه قبل أن يمسها، تبعها صوته الأجش المهدد:

-لأ عندك، كده مش حلو خالص.

أجبره على إخفاض ذراعه في مذلةٍ، ولم يترك قبضته، ظل محكمًا أصابعه حولها، ليعجز عن الإفلات منه، اشتاط "إسماعيل" غضبًا، وعنفها مجددًا:

-جيبالي واحد كمان يفرد عضلاته عليا؟ هي دي أخرتها؟

رد عليه "تميم" بخشونةٍ تتضمن التهديد، وقبضته لا تزال تعتصر رسغه:

-مش أحسن من اللي بيتشطر على اللي أضعف منه.

تلوى "إسماعيل" بمعصمه محاولاً تخليص نفسه من قبضته، وحين يئس من نجاحه صاح في ضيقٍ:

-نزل إيدك، مش عارف محشور معانا ليه؟ إنت مالك أصلاً؟

استقام بكتفيه، وأخبره بنفس الصلابة المهيبة:

-لأ مالي ونص، والموضوع بقى عندي أنا.

تحولت كافة الأعين نحو "هيثم" الذي أقبل عليهم متسائلاً في غرابة:

-في إيه اللي بيحصل هنا؟

أرخى "تميم" أصابعه عنه، وأخبره بلمحة من السخرية:

-تعالى يا "هيثم"، سلم على عم مراتك الأول.

تقدم في خطواته متسائلاً بقلقٍ:

-خير؟ حد جراله حاجة؟

رد عليه ابن خالته بغموضٍ ليستثير فضوله:

-كان .. بس ربك سترها معانا.

التفت ناحيته متسائلاً في توترٍ، وقد جال بخاطره أن تكون زوجته قد تعرض للأذى خلال غيابه، خاصة مع تعذر اتصاله بها:

-ما تفسر كلامك يا "تميم"، "همسة" جرالها حاجة؟

أجابه نافيًا:

-لأ، اطمن .. بس آ...

بتر كلامه عن عمدٍ ليستحوذ على كامل انتباهه، وأضاف:

-مش تشوف الحاج اللي جاي يأدبنا، إكمن احنا عايزين ناخد حقنا من البغل ابنه.

تجهم وجه "هيثم" للغاية، وتساءل في نفورٍ:

-الطاعون الأزلي ده، هو عمل إيه تاني؟

استطرد موضحًا له، وعيناه تراقبان إيماءات "إسماعيل" المتوترة:

-قول ماعملش إيه، ده اتهجم على بيوتنا، وكسر باب شقتك على مراتك وأختها، وهما كانوا لوحدهم، وبالعافية رجالة دكانا لحقوه بعد ما بهدلهم ورفع عليهم السلاح، وكان ناقص بس يمد إيده على جدك "سلطان" لما وقفله.

قست ملامحه للغاية، وهتف غير مصدق جراءته:

-نعم؟ وأنا معرفش.. وقعة اللي جايبنه سودة.

تدلت ابتسامة هازئة على زاوية فم "تميم" وهو يتم باقي عبارته:

-وفي الآخر نطلع أغراب مالناش عين نرفعها، ولا حق نطالب بيه.

توعده "هيثم" بشراسةٍ متضاعفة:

-ده أنا هانفخ أمه.

توتر "إسماعيل" من التهديدات الخطيرة المحدقة بابنه، شعر بأنه هالكٌ لا محالة إن لم يبذل ما في وسعه لإخراجه من تلك الورطة الشنيعة، بالطبع وجد أن الجانب الملائم لتحميله الذنب كان في شخص "فيروزة"، اتجه إليها بحنقه، وعنفها:

-عجبك كده؟ مبسوطة إنك قلبتي الدنيا على بعضها؟

اعترض "تميم" طريقه بجسده مفتول العضلات، وهدده بلهجةٍ لا يستهان بها:

-ماتكلمهاش، كلامك معايا أنا دلوقتي.

تراجع عنها خطوتين، وهو يضغط على شفتيه، ومع ذلك حاول "إسماعيل" إظهار شجاعة غير موجودة فيه، وهتف فيهما مشيرًا بسبابته:

-اسمع يا ابني إنت وهو، أنا مش بتاع مشاكل، ولا حوارات، ليكم حق هتاخدوه بالأدب وبالأصول، وأنا مش هقصر معاكو، بس هاتولي ابني قصادي.

علق عليه "تميم" بابتسامة أرعبته:

-ده لو لسه عايش.

ارتفع حاجباه مصعوقًا، وصاح في جزعٍ:

-بتقول إيه؟

أخبره وهو يفرك قبضته المضمومة في راحة يده:

-ما هو احنا رجالتنا دمها حامي، ماتقبلش حد يفكر يمد إيده على حريمنا من غير ما تقطعاله.

زاد صوته صخبًا وهو ينطق مهددًا:

-أنا عايز ابني حالاً، لأوديك إنت وهو في داهية، يا شوية عصبجية!

لاحت على جانب شفتي "تميم" ابتسامة مستخفة به، فشعر بالمزيد من الرهبة من أسلوبه غير المتسامح، جلَّ ما كان يخيفه حاليًا ألا يعثر على ابنه مطلقًا، فأمثال هؤلاء القساة العتاة، لا يتهاونون في التفريط في حقوقهم! حادت أنظاره عنه ليحدق في وجه "هيثم" وهو يتساءل بتشنجٍ:

-الكلب ده وديته فين؟

بصوتٍ هادئ أخبره:

-سفرته عند المطار.

لهنيهة شرد في التفكير قبل أن يقول بإيماءة من رأسه:

-خلاص عرفت مكانه...

تطلع إليه "إسماعيل" في عجزٍ، وأحس بانقباضة مؤلمة تضرب صدره و"هيثم" يصيح آمرًا بغضبٍ:

-ابعتله "دنجل" على هناك.

مرر "تميم" يده على رأسه ليدعكها قبل أن يقول:

-شديد عليه.

أصر على إرساله إليه مرددًا في اقتضابٍ:

-يستاهله.

تحركت "فيروزة" لتقف أمام "هيثم"، وأخبرته بنبرتها العنيدة:

-أنا رايحة قبل.

لم يبدُ مهتمًا بالاحتجاج على ذهابها، واكتفى بإلقاء نظرة حانقة عليها، لا يعني أنها المقصودة بها؛ لكنه كان مستاءً من الموقف برمته. بدأ ثلاثتهم في الخروج بخطواتٍ متلاحقة من المدخل، ومن خلفهم "إسماعيل" يصيح متوعدًا في حدة، وذلك لحفظ ماء وجهه:

-مين ده كمان؟ والله لو مروحتش عند "فضل" لأطربأها على دماغ الكل.

توقف "تميم" عن السير، ليلتفت نحوه، رمقه بنظرة غامضة، ثم أخبره بهدوءٍ وتره، وتلك البسمة الماكرة تتدلى على شفتيه:

-من غير حلفان يا .. حاج، هنوديك عنده.

بلع ريقًا غير موجودٍ في جوفه، وقال مسرعًا في خطاه:

-وأنا مش سايبكم النهاردة.

أشار "تميم" بيده لـ "فيروزة" ليوجهها:

-تعالي في العربية عندي...

وقبل أن ترفض طلبه أوضح لها:

-هتقعدي في الكرسي الوراني، لأن "هيثم" معاه الربع نقل، مش هتبقى مريحة ليكي، عفشتها عايزة تظبط ...

ثم أدار رأسه نحو عمها، وأكمل بصوتٍ لم يخفِ فيه تبرمه:

-وعمك هيركب معايا، ماينفعش أسيب اللي في سنه يتبهدل.

استحسنت اقتراحه، واتجهت نحو سيارته لتستقر في المقعد الخلفي، غير مكترثة بحديثه الموجز مع عمها، سددت أذنيها عن أي هراء ينغص صدرها، ويجعلها تكره صلة الدم التي ربطتها بمن يخذلها، حدقت في السماء بنظرات شاردة، متوقعة أن تكون المعاناة والألم رفيقتا دربها في الفترة القادمة.

.............................................

أين المأوى من أناسٍ يجيدون اغتيال روحك بشرورهم الخبيثة في كل فرصة تسنح لهم لفعل هذا؟ لقد بذلت الغالي والنفيس لتحافظ على نظافة سريرتها، نقاء سمعتها، وفي لمح البصر يأتي من يدنس ذلك الطهر بأقبح الاتهامات، ليلتصق بها هذا الظلم حتى فناء عمرها، فما أسهل تصديق الافتراء عن تكذيبه! تطلعت "فيروزة" إلى ظهر عمها الجالس أمامها على المقعد بعينين حبست فيهما دموعها الرقراقة، إن كان السند الحقيقي غير موجود فيه، فكيف تستجدي منه عطفًا وداخلها يؤكد لها أنه لن ينصفها لحظة المواجهة؟

لم ترغب في معايشة تجربة الخذلان مجددًا، يكفيها ما ذاقته في السابق من صنوفه المؤلمة، فروحها لم تتعافَ بعد من آثار الماضي المهلكة، تصدع ما ظنت أنه يجعلها صلبة كالفولاذ، وانتشرت الشروخ فيه ليتهشم في الحال مع انتقال

السيارة للطريق السريع، عادت لتصبح هشة، مجوفة، ومهيضة الجناح، لذا صاحت فجأة، وكأن مسًا طالها:

-مش عايزة أروح، رجعوني البيت.

قطب "تميم" جبينه مصدومًا، فطوال قيادته كان يراقبها باهتمامٍ تارة، وبفضولٍ تارة أخرى، كانت غائبة بذهنها عمن حولها، كما لو كانت روحها قد انتقلت بالزمن لعصور سابقة، فلم تعد تسمع أو ترى سوى السراب، ظل باله مشغولاً بها، ولاحظ لأكثر من مرة تبدل تعبيراتها بشكلٍ جعله حائرًا في فهم ما الذي يدور في رأسها، لن ينكر أن قرارها المفاجئ أصابه بالدهشة والتخبط، فمن يرى إقدامها قبل برهة لا يظن أنها بمثل هذا الجبن لتتراجع في اللحظة الأخيرة! كررت عليه طلبها حينما وجدته صامتًا:

-أنا عايزة أرجع البيت، لف بالعربية.

سألها ليتأكد وهو لا يواري دهشته:

-إنتي متأكدة؟

ردت بإصرارٍ زاد من تعجبه المُحير:

-أيوه، مش عايزة أشوف الحيوان ده.

أومأ برأسه معلنًا امتثاله الكامل لرغبتها دون استفسارٍ:

-تمام.

أحس "إسماعيل" بأن هناك أمرًا يُحاك في الخفاء ومن وراء ظهره، فاستدار بجسده نصف استدارة ليواجه ابنة أخيه، حدجها بنظرة مشتعلة، وبادر بتعنيفها في استياءٍ حانق:

-هو احنا جايين نهزر هنا؟ هو إيه اللي مش عايزة؟

ردت بصوت حاولت جعله هادئًا:

-زي ما حضرتك سمعت، تقدر تروحله من غيري.

اتهمها زورًا وهو يلوح بذراعه:

-قولي بقى إنك عاملة فيلم عليا إنتي والأفندي ده؟ هتستفادي إيه من بهدلتنا كلنا؟ إيه اللي مفرعنك كده علينا؟

برزت عيناها في استنكارٍ جلي، وأنكرت إجحافه بحرقةٍ:

-بعد ده كله مش عايز تطلع ابنك غلطان؟

علق عليه بدمدمةٍ ساخطة:

-أنا مقولتش إنه عمل حاجة عِدلة، صحيح هو مابيوزنش الأمور الأول بعقله، بس آ....

احتدت نظرات "تميم" لسماعه ترهاته، كما اشتدت قبضته على عجلة القيادة، لم ينتظر تزييفه المشبع بالضلال فقاطعه محذرًا:

-إوزن الكلام يا حاج قبل ما تقوله، وخليك فاكر إن زعلي وحش أوي!

عاد "إسماعيل" لينظر إليه، فاخشوشنت نبرة "تميم" وهو يكمل، دون أن يخلو كلامه من التهديد:

-وبعدين قول الحمد لله إنها طلبت ده، عشان رجوعها البيت رحمة ليه من اللي كنت هاعمله فيه.

كز على أسنانه معترضًا:

-إنت آ...

قاطعه مرة ثانية وهو ينذره:

-قبل ما تقول حاجة تانية، أنا حابب أعرفك إن قلبي ميت مع اللي يأذي عيلتي، ولو حد لجألي وهو مظلوم ...

إسودت تعابير وجه "إسماعيل"، وانعكس الخوف في نظراته نحوه، بينما أخبره الأول بلهجته الشديدة:

-فأنا سنده، مابعرفش أسامح، ولا بأفوت وأنسى، فاتقي شري.

انزلق معقبًا عليه في قهرٍ:

-حسبي الله ونعم الوكيل.

سدد له نظرة قاسية، وقال بجفاءٍ:

-وفر الدعوات دي لابنك، هيحتاجها جامد.

حدق أمامه في عجزٍ وهو يخفت من صوته ليردد:

-لله الأمر من قبل ومن بعد.

تطلع "تميم" إلى المرآة الأمامية مانحًا "فيروزة" نظرة حانية، فبادلته حينها –وللمرة الأولى- نظرة امتنانٍ حقيقية، أظهرت عرفانها بصنيعه؛ لكنها جعلت ثغره يتقوس ببسمة صغيرة تلاشت في لحظة لتحل الجدية على تعبيراته وهو يتحدث هاتفيًا:

-ألوو، أيوه يا "هيثم"، أنا هاوصل الجماعة البيت وراجعلك..

تعمد الالتفاف برأسه نحو "إسماعيل" وهو يتابع:

-ماتتهورش لحد ما أجيلك، ماشي؟

سأله الأخير في ذعرٍ:

-هو ناوي على إيه؟

أنهى "تميم" الاتصال، وابتسم من زاوية فمه قائلاً:

-ادعي ربنا إن جوز بنت أخوك يسمع الكلام، أصله دماغه أنشف من الحجر.

ابتلع لعابه المُر، وتضرع في خيفةٍ:

-استرها علينا يا رب.

مكالمةٌ أخرى أجراها "تميم" لوالدته أخبرها فيها:

-أيوه يا ست الكل، احنا راجعين...

صمت لوهلة، وقال نافيًا:

-لأ اطمني، بس خلي الحاجة "آمنة" تسبق على البيت عشان تستنى الأبلة.

أدار رأسه مجددًا نحو "إسماعيل"، وتعمد التشديد على كلماته وهو يقول، كأنما يخاطب شخصه بشكلٍ غير مباشر:

-كويس، يعني أبويا هيبقى هناك؟

لحظة من الصمت أتبعها تصريحه:

-وأنا هخلي كام واد من بتوعنا الشُداد يقفوا تحت البيت عشان لو حد احتاج حاجة من الجماعة.

التهى "إسماعيل" عن الإنصات لتلك المكالمة ليبحث عن هاتفه الذي رن في جيبه، امتدت يده لتخرجه من جلبابه، نظر إلى شاشته بتمعنٍ، ثم أجاب بعد زفيرٍ منزعج:

-أيوه يا "أم فضل".

سألته "سعاد" في لهفةٍ تبينها من صوتها المسموع للجميع:

-وصلت لابنك؟ لحقته؟ طمني بالله عليك.

أجابها نافيًا باقتضاب:

-لأ لسه، ادعيله.

لاحقته بأسئلتها التالية:

-و"فيروزة" كويسة؟ عملها حاجة؟ دي غلبانة ومالهاش حد إلا احنا.

ظهر الكدر في وجهه، وحمحم متهربًا من الإجابة عليها:

-بعدين يا حاجة، سلام.

نظر إليه "تميم" من طرف عينه في ازدراءٍ لم يخبأه، أراده أن يرى مدى جديته في ردعه، ليتقين أنه لا نجاة تلك المرة من العقاب الحتمي. مضى بعض الوقت إلى أن عادت السيارة إلى منزل "فيروزة"، تمالكت الأخيرة قواها حتى ترجلت منها، حينها فرت ماشية بخطوات بدت أقرب للركض غير ناظرة خلفها تختفي بالداخل. شيعها "تميم" بعينين تتلهفان للذهاب ورائها، وتضميد جراحها غير الظاهرة، اضطر آسفًا أن يرحل بعد ركوب والده للسيارة، غادر وقلبه يؤلمه لبعاده عنها، انطلق بالسيارة وهو يطلق زفرة مزعوجة، كابحًا قدر استطاعته ما يتقد في صدره من كافة مشاعر العداء تجاه عمها المنكمش على نفسه.

..............................................

لمسةٌ من يد والدتها الحنون كانت كبلسمٍ مسكن لجراحها النابضة، احتوتها "آمنة" في أحضانها بمجرد عودتها إلى المنزل، وذهاب الحاج "بدير" مع ابنه، لتبقى تحت حراسة بعض من عمال الدكان الذين تواجدوا بالأسفل. أغدقت

عليها بفيض حبها الأمومي، لعل القلب الشقي يهدأ وتسكن أوجاعه. ارتمت "فيروزة" على صدرها طالبة منها بصوتٍ مال للبكاء:

-ماتسبنيش يا ماما، محتاجة حضنك أوي.

ضمتها بقوةٍ لتشعر بدفء أحضانها عليها، وأخبرتها بنبرة مختنقة:

-أنا جمبك يا بنتي، ماتخافيش يا حبيبتي، أنا معاكي أهو.

رفعت "فيروزة" عينيها الدامعتين نحو والدتها تسألها:

-هو ليه كل ده بيحصلي؟ ليه حظي كده؟

لم تجد ما تخبرها به سوى قولها الملطف:

-جايز يكون ده ابتلاء من ربنا، بيمتحنك عشان يشوف صبرك، وإن شاء الله تعدي منه على خير.

أطبقت على جفنيها، وانكمشت داخل حضنها مرددة بتعبٍ تمكن منها:

-أنا عايزة أنام، بس خليكي جمبي.

ربتت على جانب ذراعها، وقالت:

-حاضر يا ضنايا، أنا هافضل معاكي.

أخذت "آمنة" تمسد على رأسها برفقٍ، وتمسح على جبينها بلمساتٍ رقيقة، ولسانها يتلو في خشوعٍ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، "اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ".

ظلت تردد عددًا من الآيات القرآنية لبعض الوقت حتى استغرقت ابنتها في نومٍ آملت أن يكون هانئًا، وخاليًا من الأوجاع والأثقال.

.............................................

سرت في بدنه رجفة خوفٍ قوية فاقت في تأثيرها البرودة السائدة في هذا المكان النائي، جال "إسماعيل" بنظراته المذعورة باحثًا عن ابنه، فقط نباحًا مسعورًا لكلبٍ جائع كان يسود في الأرجاء، مرر عينيه على الرجال المرابطين في حالة تحفزٍ، لم تظهر على وجوههم أي بوادر شفقة أو تهاون، حينها استدار ناحية "تميم" يخاطبه بلهجة متشنجة، محاولاً إظهار شجاعة مفقودة:

-فين "فضل"؟ وديتوه فين؟

أجابه "هيثم" باحتقارٍ وهو يشير بيده نحو الكوخ الظاهر على مرمى البصر:

-ملحق مع البهايم اللي جابهم هناك...

ثم قست نبرته وهو يضيف:

-ما يستهلش نزفر إيدينا بدمه، احنا هنسيب "دنجل" عليه.

وأشار بيده نحو الكلب الشرس المربوط بسلسلة بالكاد تحول دون إفلاته، ارتاعت نظرات "إسماعيل" أمام الأنياب الحادة، واللعاب السائل على جانبي فكه، بدا وكأن الكلب يتلهف لافتراسه حيًّا إن رآه قبالته. لم يتحمل تخيل المشهد في رأسه، وهدر مهددًا وهو يلوح بعكازه:

-والله لو أذيتوه ما هسيب حد فيكم، هوديكم في داهية.

كان "تميم" على وشك الاشتباك معه لولا تدخل والده لإسكاته بإشارة من يده، فكبت انفعالاته توقيرًا لحضوره المهيب، خاصة أمام رجاله. استمر "إسماعيل" في صراخه ملوحًا بعكازه في عصبيةٍ:

-إنتو عالم ظلمة، ده يرضي ربنا يا ناس؟ الواد هيموت في إيدكم، اعتقوه لوجه الله!

رد عليه "هيثم" بسخطٍ:

-هو لعب مع اللي مش أده.

صاح فيه بصوتٍ حانق:

-هو يعني كان كفر لما فكر يصون لحمه؟

لم يتمكن من كبح لسانه تلك المرة، فعلق عليه "تميم" بغلظةٍ:

-يصونه بالأصول، مش بالغصب يا حاج.

انفجر هادرًا فيه:

-تقوموا تخطفوه؟!!

بقساوة رد عليه "تميم"، وعيناه تطلقان الشرر:

-زي ما كان هيعمل، العين بالعين والسن بالسن، والبادي أظلم.

أحس "إسماعيل" بالكارثة التي هبطت على رأس ابنه، لم يكن أمامه سوى استجداء مشاعر "بدير" لعله يفعل معجزة ما توقف قطار الهلاك المنطلق، اتجه إليه يرجوه:

-ما تقول كلمة يا حاج، اعمل اعتبار للشيبة دي، ولا ملكش كلمة على عيالك؟!

راح يرمقه بنظرة طويلة، وقال بلهجة آمرًا دون أن يحيد بعينيه عنه:

-هاتوا الواد ده من جوا.

لم يجرؤ أحدهم على الاعتراض على أمره، حتى ابنه البكري، بل أظهر طاعته واحترامه له، وكان في طليعة الرجال الذين ذهبوا لإحضاره من الكوخ؛ لكنه لم يمسك به، ترك تلك المهمة لغيره، فجروه جرًا طوال المسافة إلى أن ألقوه عند قدمي "إسماعيل"، جثا الأخير فور أن رآه مسجي على ركبته أمامه، رفع رأسه النازف إليه، وتأمل وجهه المشبع بالجروح الغائرة، صرخ في اهتياجٍ مصدوم:

-يادي المصيبة، إيه اللي عملتوه فيه ده؟ حرام عليكم!

رد عليه "تميم" بنبرة تبين فيها عدم ندمه على ما ارتكب:

-ماهو مرعاش الأصول، واتهجم على حريمنا، ولو دمك حامي زينا مش هاتقبل بده.

تأوه "فضل" بأنين وخوار وهو ينظر إلى أبيه في عجز، يتوسله بعينيه أن ينجده من حافة الموت، زمجرة "تميم" المهددة جعلته يبول على نفسه عندما قال علنًا:

-في عُرفنا اللي زيه لازم يتقطع دابره.

بنحيبٍ من فمه المجروح غمغم "فضل"، محاولاً التشبث بيده في ذراع والده:

-أبا، خدني من هنا.

رد عليه "إسماعيل" بقلبٍ يعصره الألم:

-حاضر، مش سايبك ليهم.

ثم رفع أنظاره إلى "تميم" يهدده:

-أنا هوديكم في داهية.

أخبره "تميم" بنصف ابتسامة هازئة:

-وماله ودينا...

ما لبث أن اختفت البسمة ليضيف بلهجةٍ مليئة بالتهديد، وأشد قسوة:

-بس اعمل حسابك قبلها إن تسجيلات خطف بنت أخوك معانا، ماهو احنا مركبين كاميرات في كل العمارة، سهل أوي نسلمها للبوليس نثبت بيها التهمة، ده

غير بقى إنه مش هايبقى محضر واحد، لأ خد عندك سرقة كمان، وسب وقذف، واعتداء على أنثى، وغيره وغيره، من الآخر كده مش هاسيبه إلا في السجن ...

بحظ كل منهما مصدومًا، وزاد ارتعابهما وهو يختتم كلامه قائلاً برنة استمتاعٍ:

-وهناك بقى أنا داخله بنفسي، هاروقه على الهادي!

ثم فرك كفيه معًا ليظهر تشوقه لمجيء تلك اللحظة، فاستبد المزيد من الخوف بـ "إسماعيل" وابنه. صاح "بدير" فجأة منهيًا ذلك الصراع:

-كفاية عليه كده يا "تميم"، محدش يعمله حاجة.

استدار ناظرًا لوالده محتجًا في صدمةٍ:

-يا حاج آ...

قاطعه بإشارة من كفه:

-هي كلمة.

على مضض نطق، ووجهه محموم بعلامات الغضب:

-مش هراجعك يابا.

تنفس "إسماعيل" الصعداء، وشعر بأن الحبل المطبق حول عنق ابنه قد ارتخى قليلاً؛ لكن سرعان ما ضاق صدره، وأصابه التوتر عندما استطرد "بدير" يخبره بغموضٍ:

-احنا متنازلين عن حقنا، بس حق "فيروزة" لأ!

تفاجأ "تميم" من حديث والده، وشعر بالفخر والرضا لكونه يعيد إليها كرامتها المسلوبة بحنكته المعروفة، في حين هتف "إسماعيل" مستنكرًا بشدة:

-نعم؟ حق إيه ده كمان؟

أجابه بصوتٍ هادئ:

-تعويض عن البهدلة اللي شافتها.

سأله وكأنه يستكثر عليها هذا الأمر:

-هي قالتلك كده؟ عشان إيه يعني؟

بنفس الهدوء الرزين أكد عليه:

-من غير ما تقول، ده مراضية ليها.

صاح "إسماعيل" يسأله بصبرٍ نافذ:

-يعني عايزين إيه؟

دس "بدير" يده في جيب جلبابه، وأخرج ورقة مطوية، ناولها إياه وهو يجيبه:

-ابنك يمضي- على وصل الأمانة ده، ومعاه مهلة 6 شهور يجهز المبلغ، وإلا هيتسجن بيه.

ضاقت عيناه في تذمرٍ عندما قرأ المبلغ المدون فيه، وهتف معترضًا:

-ده كتير أوي.

شدد عليه بلهجةٍ لم تكن لينة أبدًا:

-عشان يتربى، ويعرف إن الغلطة بفورة...

لم يمنحه فرصةً للتفكير، وحصر عليه الاختيار قائلاً:

-وده لمصلحته، لأني حايش ابني عنه بالعافية، بس ماضمنش لو سبته يعمل إيه فيه.

احتاج "إسماعيل" لشجاعة تضاهيه ليواجهه؛ لكن ابنه خذله برعونته المستمرة، لذا لم يكن أمامه بدًا أمام توسلاته ورجاواته الصامتة والمنتحبة أن يضغط عليه قائلاً:

-امضي يا "فضل".

بكى في قهرٍ محاولاً الرفض:

-أبا ..

أخفض من صوته وهو يلح عليه:

-امضي وإنت ساكت، بدل ما تروح مني.

أعطاه أحد العمال قلمًا حبريًا كان بتابلوه واحدة من السيارات، فاضطر بيده المرتعشة أن يوقع على الورقة الصغيرة، استعادها منه العامل، وأعطاها لـ "بدير" الذي طواها واحتفظ بها في محفظته، تطلع بعدها إلى الاثنين، وقال:

-خد ابنك وامشي يا حاج "إسماعيل"، بس هاقولك كلمتين تحطهم حلقة في ودنك.

نظر إليه الأخير وهو يحاول إجبار ابنه على التعلق بذراعه ليساعده على النهوض، تكلم "بدير" قائلا بتعابير صارمة بمجرد أن وقف ذلك الدنيء على قدميه:

-بنات أخوك أمانة عندي ...

احتقنت نظراته، فواصل بتهديد صريح:

-واللي هيقرب من الأمانة دي مايلومش إلا نفسه.

سأله "إسماعيل" في استهجانٍ:

-إنت هتخاف عليهم أكتر مني؟

ببساطة أجابه وبين شفتيه ابتسامة متهكمة:

-أيوه، بدليل أنا واقف هنا بأتوسط عند ابني يسيبه بدل ما يجزر رقبته.

صاح في غلٍ:

-ربنا ينتقم من الظالم.

أمن عليه بهدوءٍ:

-يـا رب.

ثم وجه خطابه لأحد العمال:

-وصله يا واد.

أذعن العامل لأمره مرددًا بإيماءة من رأسه:

-عينيا يا حاج.

ساد الصمت المشحون بالتساؤلات لبعض الوقت –فيما عدا صوت نباح الكلب- حتى غادر الاثنين المكان، حينها التفت "هيثم" نحو "بدير" يسأله في ضيقٍ:

-سبته ليه يا جوز خالتي؟ حقنا كنا رميناه في المالح وهو نصيبه.

بعد زفرة طويلة متعبة أخبره:

-كده أريح للكل، خليه يغور ببلاويه.

دمدم "هيثم" في تزمتٍ:

-في 60 داهية.

تحرك "تميم" ليقف أمام والده، وسأله بنظراتٍ متفرسة:

-رأيك إيه في اللي حصل يابا ؟ الحكاية لغفنت على الآخر.

بهدوءٍ واثق قال وهو يربت على كتفه:

-سيبها على الله، ربك عليه تيسير الأمور، وهيفرجها لما تضيق.

رفع "تميم" عينيه إلى السماء، والرجاء يملأ نظراته، نجاه كعادته سرًا بتنهيدات الشوق:

-ماليش غيرك يا رب، حلها من عندك يا كريم ........................ !!

.........................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل مائة وثمانية

أمضت ثلاثة ليالٍ حبيسة منزلها، انطوت في ركنٍ فيه غالبية وقتها، لا تخرج من غرفتها إلا قليلاً، تقضي نهارها صامتة، وليلها ساهدة، حتى والدتها فشلت في إخراجها من حالة الحزن المسيطرة عليها، كذلك لم تشفع محاولات توأمتها وابنة خالها في الترويح عنها، تجاوبت "فيروزة" معهما بالكاد، وحافظت على ذلك الجمود المستبد بمشاعرها؛ لكن الليل بساعاته التي لا تنقضي- بسهولة، كان يمنحها الفسحة للتفكير بإمعانٍ في كل ما خاضته بتفاصيله المستنزفة للروح، فما زادها ذلك إلا حزنًا وغمًا! وفي اليوم الرابع كانت قد حسمت أمرها كليًا لإنهاء الصراع الدائر بداخلها، لعلها تنشد بهذا سلامًا لم تنعم به إلا نادرًا.

أمام شباك غرفتها الخشبي الموارب، وقفت "فيروزة" تتطلع للمارة على الطريق، أرادت أن يسطع النهار عليها لتنتهي من المهام التي ألزمت نفسها بتنفيذها اليوم، لتغلق كافة أبواب النميمة والقيل والقال عنها، استدارت محدقة نحو والدتها التي تفاجأت بها ترتدي كامل ثيابها وهي تناديها:

-"فيروزة"، الفطار جاهز يا حبيبتي، تعالي آ...

لم تكمل "آمنة" جملتها للنهاية، وسألتها باستغرابٍ ظاهر على تعبيراتها:

-هو إنتي خارجة ولا إيه؟

أجابت بملامح جادة غير مرتخية:

-أيوه يا ماما.

سألتها مستفهمة وقد تقطب جبينها:

-رايحة فين كده على الصبح؟ ده لسه النهار في أوله؟

بنفس الأسلوب الغامض قالت:

-ورايا مشاوير.

دنت منها متسائلة باعتراضٍ وبحاجبين معقودين:

-ضروري يعني النهاردة؟ ده إنتي لسه شكلك تعبان من اللي حصل...

وقفت قبالتها، وتفحصت ملامحها الذابلة قبل أن تتم جملتها:

-وحتى وشك باين عليه الإجهاد، وإيدك كمان مخفتش.

ردت "فيروزة" بهدوءٍ مريب وهي تخفض عينيها لتحدق في الضمادة الطبية الملفوفة بها رسغها:

-أنا كويسة.

وضعت أمها يدها على ذراعها لتربت عليه، وأضافت بصيغة شبه آمرة:

-طب تعالي افطري.

هزت رأسها نافية:

-ماليش نفس ...

ثم استلت حقيبتها لتعلقها على كتفها، وتابعت:

-ويدوب ألحق أخلص اللي ورايا.

نظرت إليها في توجسٍ وهي تخبرها:

-يا بنتي أنا مش عايزاكي تجهدي نفسك.

لم تحاول الابتسام عندما علقت عليها بأسلوبها الجاف:

-متقلقيش عليا.

ضمت "آمنة" شفتيها للحظةٍ، وكأنها تستصعب إطلاعها بالأمر؛ لكنها قالت في الأخير:

-مرات عمك اتصلت سألت عليكي، أنا الصراحة ماديتهاش وش، مش كفاية اللي ابنها عمله.

احتقنت نظرات "فيروزة" تلقائيًا، وبدا وجهها الشاحب يكتسب حمرة غاضبة، حاولت والدتها أن تشتت تفكيرها عن تلك الذكرى المشؤومة فأكملت:

-والحاجة "ونيسة" اتصلت كمان تطمن عليكي، ست ذوق بصراحة.

أطلقت زفرة مشبعة بانفعالاتٍ هائجة حاولت إخمادها في مهدها، ورددت في نبرة بدت إلى حد ما غير ثابتة:

-أنا مش هتأخر.

ألحت عليها وهي تلحق بها:

-طب قوليلي رايحة فين بالظبط.

قالت دون أن تنظر خلفها:

-لما أرجع يا ماما، سلام.

لم تتمكن والدتها من الخروج بمعلومة مفيدة منها، فاكتفت بغلق الباب من خلفها، ولسانها يدعو لها بعد تنهيدة مهمومة:

-ربنا يبعد عنك أي شر يا بنتي.

................................................

كل ما كان بها مجرد صلابة مخوخة، أخفت هشاشة روحها بقناعٍ الجمود المرسوم على وجهها، ونظرات القساوة المسيطرة على عينيها. استمرت "فيروزة" في تقدمها نحو وجهة بعينها، بعدما انتهت من سحب جميع النقود الموضوعة في حسابٍ بنكي، ادخرت فيه ما حصلت عليه من ميراث زوجها البغيض، أفرغته بالكامل، وجمعته في عملات نقدية من فئة كبيرة. التفت أناملها حول يد حقيبة كتفها، وكأن جلدها قد التصق بها، رتبت أفكارها في رأسها طوال مشيها، لتبدو مستعدة للمواجهة التالية.

قبيل وصولها إلى هناك توقفت عن السير ملقية نظرة شاملة لم تخلُ من التوتر على محيطها، اختطفت نظرات سريعة على أوجه المارة، على ما يبدو كان من حولها مشغولاً بأمورٍ أخرى ليس شأنها الخاص بالطبع واحدًا منهم، ومع هذا

سرت رجفة قلقة في بدنها، قاومتها قدر المستطاع، وتنفست بعمقٍ لتحرك بعدها قدميها في اتجاه الدكان. وجدت عينيها ضالتها المنشودة في نفس المكان المعتاد؛ الحاج "بدير"، يجلس أمام مدخله، يخاطب أحدهم، أطبقت على جفنيها لثانية، وحررت دفعة من الهواء كانت محبوسة في رئتيها، لتتابع السير ناحيته، وما إن رآها الأخير حتى ناداها بترحيبٍ شديد وهو ينهض من كرسيه الخشبي:

-منورة الدكان يا بنتي، تعالي اتفضلي.

برسمية بحتة طلبت منه:

-ممكن أتكلم مع حضرتك شوية لو مش مشغول.

هتف بنفس الترحيب الحار المليء بالود والمحبة الصافية:

-ولو مشغول حتى أفضالك، ده إنتي من الغاليين.

ثم أشار لها لتجلس على مقعدٍ أحضره لها العامل، فقالت باقتضابٍ:

-شكرًا.

.............................................................

في تلك الأثناء، كان "تميم" قد انتهى لتوه من مراجعة بعض الفواتير المؤجلة، أعطى تعليماته للعمال بتجهيز نقلة جديدة لتسليمها لإحدى المراكب السياحية، همَّ بالانصراف لولا أن سمع رنة صوتها، تلك التي تبعث البهجة على القلب،

والسرور على النفس، تأهبت كافة حواسه وتنشطت برغباتٍ مشتاقة لرؤيتها والاطمئنان عليها في الحال، كانت سلواه في الأيام الماضية مكالمات والدته لأمها، أراحته نسبيًا؛ لكنها لم تكن كافية لملء الفراغ الذي استبد به. لم يستطع تلك المرة منع نفسه من رؤيتها، ربما ساقها القدر إليه! دق قلبها في تلهفٍ، وعادت البسمة إلى شفتيه، ألا يحق للحبيب الارتواء من كأس العشق ولو بالقليل؟ استسلم لسكرات الحب المغيبة للعقل، وخرج لإملاء عينيه من بهاء وجهها.

راح "تميم" يتطلع إليها عند المدخل بكل ما تحمله الكلمة من مرادفات الاشتياق، فوجد ساحرته كعادتها تسرق أنفاسه طواعية، ارتفع ضجيج قلبه بين ضلوعه، فلم يعد قادرًا على ضبط إيقاع نبضاته الراقصة، ترك ذلك الشعور الممتع يغمره، يتخلل تحت جلده، حتى أصبح إدمانه اللذيذ، وحملق فيها بنظراته الساهمة الوالهة، بجهدٍ عسير شتت نظرته عنها ليحدق في اتجاه أبيه المتسائل:

-إيه أخبارك دلوقتي؟ كله تمام معاكي يا بنتي؟

أجابته "فيروزة" بجديةٍ ملحوظة:

-الحمدلله.

شدد عليها "بدير" مجددًا:

-لو في حد مضايقك، ولا حاجة مزعلاكي، قوليلي وأنا أتصرف.

لم تبتسم وهي ترد مجاملة:

-كتر خيرك.

لم يحبذ "تميم" إبقاء مسافة بينه وبينها، احتاج للتواجد بقربها، لأخذ نظرة من لؤلؤتيها، استحثه الشوق، وحفزه العشق لفعل ما تمنى، ليكن ما يكن، حتمًا سيغضب والده قليلاً؛ لكنه سيقدر مشاعره التي غلبت عقلانيته. تقدم نحوهما ساحبًا مقعدًا خشبيًا، ووضعه تلك المرة جوار أبيه، حتى تصبح نصب عينيه، حمحم قائلاً بربكةٍ طفيفة:

-صباح الخير، إزيك يا ..أبلة؟

نظرت نحوه بجمودٍ جعله يستريب من أمرها، لتنطق بعدها بجفاءٍ لامسه في صوتها:

-الحمدلله.

تبادل نظرة حائرة مع والده، شعر بالتخبط يضرب رأسه، فكل ما يلحظه بها يؤكد له أن هناك خطب ما فيها، وقبل أن يحاول استدراجها للحوار، بادر "بدير" مستطردًا:

-نورتينا يا بنتي، أنا كنت عايز أشوفك أصلاً، لأني عايز أكلمك في موضوع، بس قولت أسيبك كام يوم كده لحد ما تروقي وتبقي تمام.

وكأنها تجاهلت ما أخبرها به، لتبدو مبرمجة كآلة لا روح فيها وهي تعقب عليه:

-في الحقيقة أنا كنت جاية عشان خاطر موضوع المحل بتاعي.

ارتسمت علامات الدهشة على كليهما، وسألها "بدير" مستوضحًا:

-ماله يا بنتي؟

شدت سحاب حقيبتها لتخرج منها مغلفًا مغلقًا، مدت به يدها نحوه وهي تقول:

-اتفضل.

تناوله منها "بدير"، فحصه بعينيه دون أن يفضه، وأردف متسائلاً في فضول، وكامل نظرات "تميم" عليها تراقبها في توجسٍ:

-إيه ده؟

أجابته بهدوءٍ وبتعابيرٍ جامدة:

-دي الفلوس اللي حضرتك صرفتها في المحل ...

حملق فيها الاثنان بدهشة يشوبها الإنكار، في حين تابعت "فيروزة" بنفس اللهجة الهادئة:

-أنا لحد دلوقتي معرفش التكلفة الفعلية، بس أقدر اتكلم مع المقاول وأعرف منه صرف أد إيه بالظبط، ولو الفلوس ناقصة متقلقش، كله هيرجعلك، أنا مش بأكل حق حد.

تجهمت تعابير وجه "بدير"، وعاتبها بلطفٍ:

-مش أنا قولتلك يا بنتي مش هاقبل أخد منك حاجة لحد ما تشتغلي، وتقفي على رجلك...

أصر على إعادة المغلف لها، وقال بجدية شبه صارمة:

-شيلي فلوسك يا بنتي، عيب كده.

نظرت إليه بعينين فارغتين، وقالت بعد زفيرٍ ثقيل:

-يبقى للأسف هتضطرني أروح للحل التاني.

هنا نطق "تميم" متسائلاً في جزعٍ، وقد أحس بقلبه يهوي بين قدميه:

-وده إيه كمان؟

نظرة ضيقة منحتها له، قبل أن تتحول أنظارها نحو "بدير" الذي سألها بتريثٍ:

-حل إيه يا بنتي؟

أخرجت من جيب حقيبتها مفتاحًا معدنيًا، رفعته في مرمى نظره، وقالت بصوتٍ جاهدت ألا يبدو مذبذبًا:

-أرجع لحضرتك مفتاح المحل، بيعه وخد حسابك، معدتش فارق معايا...

عفويًا استحضرت مشهد حرق باكورة أحلامها البسيطة في ذهنها، غطت على الذكرى سريعًا، وقتلت غصة جارحة في حلقها وهي تكمل:

-وبعدين يعني، ماهياش أول مرة أحلم فيها بحاجة أحققها، وماتكملش.

بدت وكأنها نشطت ذاكرته بما لم ينسه يومًا، حين تم إحراق عربة طعامها؛ وكان متورطًا في الأمر بشكلٍ غير مباشر، أوغرت كلماته المحملة بطعم الألم صدره، فانفجر صائحًا بلهجةٍ لم تبدُ هادئة أبدًا، محاولاً إثنائها عما اعتبره قرارها الخاطئ:

-إيه اللي بتقوليه ده؟ محل إيه اللي يرجع؟

حذره والده بنظرة غير راضية:

-اهدى يا "تميم"، بالراحة.

لمعت عيناها بعبراتٍ تسللت إليها تأثرًا بذكرياتٍ لا تزال حية فيها مهما سعت لمقاومتها، وأخبرتهما بوجهها العابس:

-كله واحد بياخد حقه، وكفاية لحد كده، مش عايزة حد يشيل همي، ولا يساعدني في حاجة.

اختلجت قسمات وجه "تميم" كافة علامات الغضب والحنق، كان مستاءً من كلامها، وشعر بالذنب ناحيتها لكونه واحدًا ممن تسببوا في أذيتها سابقًا، بينما استمر "بدير" في عتابه لها بأسلوبه الأبوي الحاني، علها تتراجع عن رغبتها:

-عيب يا بنتي الكلام ده، أنا زي أبوكي، في حد يحاسب أبوه على حاجة بيعملها لعياله؟

رمشت بعينيها لتمنع العبرات من التجمع في مقلتيها وهي تخاطبه:

-ربنا وحده عالم مكانة حضرتك عاملة إزاي عندي، بس معدتش ينفع.

هدر "تميم" مجددًا وهو يسألها:

-كله ده بسبب الكلب إياه؟

استدارت في اتجاهه، وقالت بوجومٍ شديد:

-مش عايزة أحكي في اللي راح.

ضم "تميم" أصابعه معًا، ليشكل قبضة متشنجة، وبدأ أنفاسه في الخروج بثقلٍ من جوفه، التفت ينظر إلى أبيه مستجديًا مساعدته في تليين رأسها المتيبس؛ وكأن الأخير قد فهم توسله الصامت، فاستطرد يسألها برزانةٍ:

-وإنتي هتشيلي نفسك ذنب حاجة مالكيش يد فيها؟ ده ما يرضيش ربنا، إنتي أعقل من كده يا بنتي.

شغفها للمقاومة، للكفاح، وللنضال من أجل تحقيق أحلامها لم يعد موجودًا، فقدته مع كل لحظة كان يتم فيها اغتيال إرادتها، نهضت واقفة وهي توجه حديثها لكليهما:

-أنا أسفة إن كنت عملتلكم مشاكل مالكوش يد فيها، وإن شاء الله ده ما يتكررش.

هب "تميم" بدوره واقفًا، نظر إليها مليًا، وسألها بحرقةٍ بائنة في صوته:

-المشاكل مش هتسيبنا سواء بيكي أو بغيرك، إنتي ليه توقفي حياتك عشان حتت بغل مايسواش نعل في رجلك؟!!!!

عيناها كانتا مرآة لروحٍ فاقدة لمعنى الحياة، لم تجبه، وقالت موجزة، كنوعٍ من الهروب الإلزامي بعد أن وضعت المفتاح على الطاولة قبالته:

-عن إذنكم.

لم تنتظر كلمة وداع منهما، التفتت سائرة بخطواتٍ بدت أقرب للركض، تاركة تلك المرة دموعها المكبوتة تتحرر من طرفيها، فغزت كامل وجهها؛ كأنما فقدت عزيزًا لتوها. تقطعت العضلة النابضة بين ضلوع "تميم" لرؤيتها ممزقة هكذا، استدار يسأل والده في عصبيةٍ ولوعة:

-إنت هاتسيبها تمشي يابا؟ عاجبك اللي قالته ده؟

قبض على ذراعه يستوقفه وهو يأمره:

-استنى يا "تميم".

رد بزفير محمومٍ من بين أسنانه:

-الكلب ابن الـ...، هو السبب.

بهدوء متعقل أخبره:

-اللي شافته مش قليل، هي مش واعية بتعمل إيه.

هتف في غيظٍ أشد:

-لو كنت سبتني عليه كنت سيحت دمه، كنت شفيت غليلها منه، على الأقل ماتبقاش كده.

هز "بدير" رأسه بإيماءات خفيفة متعاقبة، وقال:

-الأيام كفيلة تداويها.

دمدم بسخطٍ عكس عدم قناعته:

-ماظنش

صمت مرغمًا؛ لكنه لم يكن راضيًا عما يحدث، فقبلها كانت حياته روتينية، مجرد امتداد لفراغٍ استحوذ على قلبه خلال سنوات حبسه الطويلة، لم يتذوق طعم الحب حين نال حريته، ولم يعرف السكينة في أحضان زوجته، إلى أن ألقاها القدر في طريقه، لحظتها بدأت في وضع بصمتها المميزة على كل تفصيلة تخص أمره، ورويدًا رويدًا غدت بشخصها الفريد، وشجاعتها غير الاعتيادية هي كل ما يحتاج إليه لملء الفجوة المتسعة في حياته، لذا بدا الألم المختلط بالغضب ظاهرًا على وجهه وهو يراها تغادر بانكسارٍ، وإن كانت تدعي الجمود في وجودها!

.................................................

أدت واجبها وما جاءت إليه بإتقانٍ لم تتوقعه، جرجرت "فيروزة" ساقيها مبتعدة عن المكان، تاركة خلفها أحلامها تنسل منها بإرادتها؛ لكن الألم لم يتركها، تغلل في أعماقها، حتى إحساسها بالقهر والخذلان استبد بها مجددًا، كما راحت

ومضات عشوائية خاطفة مما عاشته سابقًا تسطع في عقلها لتضاعف من هذا الشعور القابض للروح. افتقرت تلك المرة للمقاومة، وتخلت عن شجاعتها لتصبح كغصنٍ كُسر فرعه، فعصفت به الرياح في كل اتجاهٍ تريد اقتلاعه.

همست بصوتٍ يملأه الشجن:

-معدتش عندي حاجة أبكي عليها.

تأرجح تفكيرها وتخبطت في الصراعات التي أنهكت قواها، بدأت خطواتها في الثقل، جاهدت بأنفاسها التي تحولت للهاث لتحريك قدميها أكثر، والابتعاد عن البشر بأنماطهم؛ لكن على ما يبدو أبت الاستجابة لأمر عقلها، فكانتا كالجبال، بذلت جهدًا أكبر في إجبارهما على الحركة، واستمر التثاقل في الازدياد، تجمدت كلتاهما في مكانها، فلم تستطع الحفاظ على اتزانها، ومنع نفسها من الانكفاء على وجهها مع قوة حركتها الفجائية، لهذا طُرحت أرضًا، واصطدمت رأسها بحافة الرصيف الحجرية، لتفقد بعدها وعيها، ودموعها تسبقها في السقوط.

..................................................

قلبت الصحن المليء بالحساء بضعة مرات بالملعقة قبل أن ترفعها للأعلى بحذرٍ، لتقربها من فم ابنها الراقد على الفراش قبالتها، حيث انتقل لهذا المشفى المتواضع ببلدتهم بعد نجاح والده في إخراجه بمعجزة من الكارثة التي تسبب فيها، أصرت "سعاد" على إطعام ابنها قائلة:

-يا ابني اشرب الشوربة دي، ماتتعبش قلبي معاك.

أدار "فضل" وجهه المليء باللاصقات الطبية للجانب، وهتف رافضًا:

-مش .. عايز.

عاتبته في نفاذ صبرٍ:

-كل يوم في الموال ده؟ هتخف إزاي وإنت بالعافية بتاكل؟

عاد لينظر إليها مكررًا شكواه السقيمة:

-كله من بنت الكلب "فيروزة" واللي معاها، اتكاتروا عليا يامه.

ردت عليه والدته مُصححة له:

-هنعيده تاني؟ إنت اللي جلبت معاها من الأول.

صاح في غيظٍ وهو يطيح بالمعلقة من أمام فمه:

-أماه، انزلي من على دماغي.

تناثر ما بها على الملاءة وثيابها، فزجرته في تبرمٍ:

-كده يا "فضل"؟ هي دي أخرتها.

نفخ عاليًا في سأم، وحاد بنظراته عنها ليحدق في باب الغرفة الذي أطلت منه طليقته السابقة؛ كانت آخر من يريد رؤيته الآن، رمقها بنظرة نارية كارهة لها، ولعنها في خفوت، بينما استطردت "سها" ملقية بالتحية:

-سلام عليكم.

انتبهت لها "سعاد"، وأقبلت عليها ترحب بها:

-"سها"، تعالي يا بنتي، اتفضلي.

احتضنتها الأولى في ودٍ، وقالت بابتسامةٍ مصطنعة:

-إزيك يا .. "أم فضل"؟

أجابتها بألفةٍ معهودة بها:

-بخير، إنتي عاملة إيه؟ والعيال أخبارهم إيه؟

جاوبتها بإيماءة صغيرة من رأسها:

-كلنا في نعمة والحمدلله.

حانت من "سعاد" نظرة سريعة على ابنها وهي تقول:

-فيكي الخير إنك جاية تسألي على أبو العيال.

لوت شفتيها معلقة بسخطٍ بائن:

-أيوه.. طبعًا.

سألها "فضل" بعينين حانقتين، وهو يحاول رفع جسده للاعتدال من رقدته المؤلمة:

-إيه؟ جاية تشمتي فيا؟

نفت عنها اتهامه الوقح قائلة ببرودٍ:

-مع إنك تستاهل كده، بس مش طبعي يا أبو ولادي.

استفزه أسلوبها الساخر، وسألها بإهانةٍ فجة:

-أومال جاية ليه يا وش النحس؟

ردت بسخافةٍ:

-كلمتين هأقولهم وماشية.

توترت "سعاد" من احتدام المشاحنات بينهما، فتدخلت مُلطفة:

-على الواقف كده؟ اقعدي يا بنتي.

تحولت نبرتها للجدية وهي تعقب عليها:

-أيوه يا حاجة، أنا مش هطول.

بصبرٍ نافذ صاح بها "فضل" مستخدمًا يده في التلويح:

-لخصي في أم يومك الفقر.

كتفت "سها" ساعديها أمام صدرها، وقالت بزهوٍ:

-الحمدلله بعد ما ربنا ريحني منك جالي حد يقدرني ويعرف قيمتي، صحيح لسه مافيش حاجة رسمي، مستنيين لما العدة تخلص، بس أنا مش ممانعة ولا أهلي كمان.

هدر بها بنبرة مغتاظةٍ، وقد تلون وجهه بحمرة منفعلة:

-وعايزاني أعملك إيه؟ أقوم أطبل ولا أزغرط؟ ما تولعي.

حذرته والدته من إساءته لها بقولها المتحرج:

-عيب كده يا "فضل"!

استمر في هجومه المسيء هاتفًا:

-دي ولية واطية عايزة الحرق.

ردت عليه "سها" بتعابيرٍ ناقمة:

-مش هارد على واحد لسانه زفر زيك، أنا كنت جاية أعرفك إني مش هافضل هنا في البلد.

تشنج وهو يعلق عليها:

-هتلوي دراعي عشان أخد العيال، وأتلبخ بيهم عشان تتمرقعي يا روح أمك؟ طب مش هايحصل!

هتفت في استنكارٍ:

-هو الجواز بقى مرقعة عندك؟ عمومًا مش ده اللي جاية أقولهولك، أنا بس بأعرفك إني هاخد العيال معايا.

نطقت "سعاد" في صدمةٍ:

-نعم؟ تاخديهم؟

أخبرتها أسبابها مباشرة:

-الصراحة أنا مأمنش عليهم معاه، العيال عايز أب يحبهم، ويخاف عليهم، مش واحد يمن عليهم إن هو أبوهم!

حاولت "سعاد" تأجيل الحديث عن ذلك الأمر حاليًا، ورجتها:

-مش وقته الكلام ده يا بنتي، استهدي بالله كده، وآ...

قاطع "فضل" والدته بعصبيةٍ جمة:

-إنتي هتسترجي البُلغة دي يامه؟ إياكش تتحرق...

ثم مد يده ليمسك بكوب الماء، وقذفه ناحيتها وهو يطردها بتعنيف وحَنق:

-غوري يا بومة من هنا، وأنا هنكد عليكي يا وش المصايب، مش هانيهكي على حاجة.

تراجعت "سها" للخلف لتتفادى الكوب، وأبلغته بثقةٍ لا يعرف من أين استمدتها:

-أعلى ما في خيلك اركبه، ولو عايز تمشيها محاكم، فأنا وأهلي مش هنسيب العيال ليك ....

رمقته بنظرة احتقارٍ استحقها، واختتمت كلامها معه موجهة إصبعها إليه:

-أنا قولت أعمل حساب للعشرة، بس فعلاً قليل الأصل لا تعاتبه ولا تلومه.

.....................................

برحيلها الواجم اختطفت معها لحظات السعادة المحدودة، فأصبح ما في عينيه كئيبًا غائمًا، لا يستحق النضال من أجله، خاصة عندما أدرك أنها لم تتعافَ أبدًا من التجربة الأليمة التي خاضتها .. دار "تميم" في حلقات مفرغة حول أبيه، محاولاً التحكم في العصبية التي نالت منه، والأخير يراقبه بهدوءٍ محاولاً منعه من التصرف بحماقة، ضجر من برطمته الناقمة، وأمره:

-ما تقعد يا ابني على حيلك، مافيش حاجة هتتحل كده.

توقف عن الدوران، ليتجه إليه، ثم أخبره بأعصابٍ تالفة:

-مش قادر يابا، أنا مخنوق، وهاتجنن، دي شكلها بقى واحدة تانية غير اللي أعرفها، للدرجادي مأثر فيها اللي حصل؟!

رفع "بدير" حاجبه للأعلى مستنكرًا تصريحه باهتمامه الزائد بها، ولم يبذل ابنه جهدًا في التغطية على مشاعره المكشوفة، تفهم أسباب خوفه عليها، ووعده ببساطةٍ:

-أنا هاروح أتكلم معاها.

في لهفة تساءل "تميم" وهو يجلس على المقعد أمامه:

-امتى طيب؟

زم شفتيه للحظة قبل أن يجيبه:

-مش دلوقتي، يومين كده وأزورها.

احتج على ما اعتبرها مماطلةٍ، وقال:

-بس آ...

قاطعه بإشارة من عينيه قائلاً:

-ده أحسن ليها.

استدار كلاهما في اتجاه الصوت المنادي بصياحٍ مرتفع:

-إلحق يا حاج "بدير"!

على الفور تساءل "تميم" بوجهه المتجهم:

-حصل إيه؟

بينما زوى "بدير" ما بين حاجبيه متسائلاً:

-في إيه يا واد؟

التقط الصبي أنفاسه، وأخبرهما وهو يستخدم يده في الشرح والإشارة:

-قريبتكم اللي كانت هنا من شوية ....

خفق قلب "تميم" في خوفٍ مع كلماته الاستهلالية، وزادت الانقباضات به عندما تابع موضحًا:

-وقعت من طولها على أول الشارع، والناس قعدوها على كرسي في القهوة.

ردد "تميم" في ذهولٍ مرتعب وقد شخصت أبصاره:

-بتقول إيـه!!!!!!

...........................................................

صدمه النبأ، فركض كالأعمى لا يرى أمامه، كل ما استحوذ على تفكيره هو الذهاب فورًا إليها، وتخبئتها في أحضانه، ليعزلها عما تسبب لها في الأذى، اتجه إلى حيث أرشده الصبي، اخترق الحشد القليل المتجمهر عند المقهى الشعبي، محاولاً الوصول إليها، وقلبه يحترق خوفًا عليها؛ كانت "فيروزة" مستلقية على مقعد خشبي بالداخل، جبينها مجروح، وخيط رفيع من الدماء ينساب على جانب صدغها، حتى وجنتيها كانتا مبتلة بدموعها، تقلصت أحشائه في ارتعابٍ، وبدا في حالةٍ لا يحسد عليها، أدار ظهره ليحجب عنها الأعين، وصاح بصوت أجش عبر عن انزعاجه:

-كتر خيركم يا جدعان...

حاول صرف ذلك التجمع بعجالةٍ، وساعده في هذا العاملين في المقهى، ليصبح المكان في أقل من دقيقة خاليًا من رواده، حينها استدار ينظر إليها مجددًا، شملها بعينيه الفاحصة لوجهها وهو يتساءل في جزعٍ:

-حصلها إيه؟

أخبره أحد العاملين في حيرة:

-منعرفش، احنا فجأة لاقيناها وقعت في الشارع.

ردد زميله من خلفه:

-حاولنا نفوقها معرفناش يا معلم.

انتبه "تميم" لصوت أبيه القائل:

-حد كلم الإسعاف؟

أجابه رجل من الخلف:

-لأ، بعتنا واد عندكم الأول يعرفكم.

شكره "بدير" بوجهه الجاد:

-كتر خيرك.

في حين وجه "تميم" أمره إلى آخر طالبًا منه:

-خد المفاتيح دول وخلي واد من عندنا يجيب العربية هنا.

تناولها منه، وقال مظهرًا انصياعه له:

-أوامرك يا معلم.

انتظر "تميم" انصرافه ليهمس لوالده في استياءٍ حانق:

-مش قولتلك يابا أنا مش مرتاح، هي كان باين عليها.

رد عليه بصوته الخافت:

-خلاص يا ابني، خلينا نطمن عليها الأول.

اتجهت أنظاره الملتاعة إليها، وغمغم في توعدٍ:

-والله لو جرالها حاجة ماهسيب البغل ده عايش، أنا بأعرفك يابا أهوو.

حذره والده بنظرة صارمة من عينيه ليتوقف عن الثرثرة بما قد يُساء فهمه أمام الغرباء في غمرة انفعاله، وجذبه من ذراعه ليخبره بصوته الخفيض:

-بلاش شوشرة.

كبح "تميم" بصعوبة انفعالاته الثائرة، في حين استطرد والده مكملاً:

-كان وارد يحصلها كده، وأكتر من مرة أفهمك إن اللي شافته مش قليل عليها.

توقفا عن الهمهمة مع مجيء العامل الذي هلل ليلفت انتباههما:

-العربية برا يا معلم.

أمر "بدير" ابنه في الحال:

-بينا ناخدها على أقرب مستشفى.

لم ينتظر أوامره لتلبيتها، خاصة حينما تتعلق بها، تحرك "تميم" في اتجاهها ليحملها بين ذراعيه عن المقعد، ألقى نظرة حزينة على تعبيراتها الشاحبة؛ كانت أقرب إلى الموتى عنها إلى الأحياء، لحز في قلبه بشدة رؤيتها هكذا! تقدم بها نحو سيارته، وأجلسها على المقعد الخلفي، حاذر حينما أراح رأسها على الجانب، نظر لها مرة أخيرة ملقيًا باللوم على نفسه لتفريطه في حقها، استقام واقفًا، وأغلق الباب ليدور حول السيارة، هامسًا بين جنباته بوعدٍ أراد حقًا أن تسمعه وهو يقطعه على نفسه:

-مش هسمح لحاجة تأذيكي تاني، حتى لو مت فيها ............................ !!

....................................................

## الفصل مائة وتسعة

استمر التردد يمسك بخطواته وهو يتجول في الردهة الطويلة، كمتنفسٍ متاح لإفراغ انفعالاته المتوترة المكتوبة بداخله، ريثما يخرج أحد الأطباء لطمأنته عليها. أحس "تميم" بمطرقة تهوي على رأسه كلما تذكر رؤية وجهها المخضب بالدماء بعد فُقدانها للوعي، أين اختفت الضحكات النضرة؟ أين ذهبت الأحلام والتطلعات؟ تحول البهاء إلى شحوبٍ وقهر. اعتصر الألم صدره، وضغط على قلبه فبات على وشك البكاء حسرةً عليها. تتبع والده حركاته العصبية بعينين متفرستين، ثم ناداه عاليًا:

-تعالى يا "تميم" جمبي، ارتاح شوية، بلاش الخايلة الكدابة دي.

اعترض عليه وهو يستدير ناحيته ليخاطبه:

-مش قادر يابا.

رد "بدير" بهدوءٍ محاولاً تخفيف حدة التوتر المعكوس عليه:

-إن شاءالله الدكتور يطلع ويطمنا.

أخبره ابنه بما يدور في رأسه من هواجس جعلت معدته تتقلص وهو يفرك كفيه معًا:

-خايف يجرالها حاجة، ولا تـ.. تروح مني ..

بنفس النبرة المطمئنة قال له عن يقين عظيم:

-إن شاءالله هتعدي منها، حط أملك في ربنا.

رفع "تميم" أنظاره إلى السماء، والدموع تنفر من عينيه، ثم تنهد هامسًا بخشوع:

-يا رب احفظها ليا.

اضطربت كامل حواسه، واضطرم في فؤاده الخوف عندما رأى الطبيب مقبلاً عليهما، تحرك في اتجاهه، كما نهض والده أيضًا من على المقعد المعدني، وقبل أن يبادر "تميم" بسؤاله عنها؛ كان الطبيب الأسبق في الاستفسار:

-إنتو قرايب المريضة؟

أكد عليه دون تفكير:

-أيوه...

ثم غلف التلهف صوته وهو يسأله:

-هي مالها يا دكتور؟

دار الطبيب بنظراته بين وجهي الاثنين، وخاطبهما بتمهلٍ، محاولاً شرح طبيعة حالتها:

-من الناحية العضوية مافيش حاجة مقلقة، يعني الجرح اللي في رأسها بسيط، ومع الوقت هيخف...

استشعر "تميم" بقلبه أن القادم في حديثه يحمل سوءًا، وصدق حدسه عندما تابع مسترسلاً في إيضاحه:

-للأسف هي في حالة انهيار عصبي شديد، ولازم تفضل تحت الملاحظة لكام يوم.

سأله "بدير" مستفهمًا:

-وده خطير يا دكتور؟

أومأ برأسه إيجابًا وهو يجيبه:

-أيوه، ممكن يحصل مضاعفات، ويوصلها لحالة أسوأ، ده لو مافيش خطوة جدية للمتابعة والعلاج النفسي، وعشان كده الزيارة ممنوعة عنها اليومين دول.

بقلبٍ يدق في جزع رجاه "تميم"، وبؤبؤاه يتحركان بشكلٍ مرتعد:

-طب قولنا نعمل إيه عشان تفوق وترجع زي الأول، واحنا مش هنتأخر عليها، اللي هتأمر بيه هيتنفذ في الحال.

تحولت أنظار الطبيب نحوه، وبلهجته العملية حادثه:

-الأفضل طبعًا ليها إنها تتابع مع دكتور نفسي، هو المتخصص في النوعية دي من الحالات وآ...

لحظة صمت فيها عن الكلام، ليضمن استحواذه على كامل انتباههما، قبل أن يضيف بما يشبه النصيحة، فشدد عليهما:

-ويا ريت الفترة الجاية تبعد عن أي ضغوطات نفسية، لأن مانضمنش ردة فعلها هاتكون إيه، وخصوصًا وهي في الحالة دي.

انخلع قلب "تميم" في رهبةٍ، وشعر برجفة باردة تسري في عروقه رغم ارتفاع حرارة جسده؛ لكنه خوفه عليها فاق حد احتماله، بينما هز "بدير" رأسه معقبًا:

-ماشي كلامك يا دكتور.

استأذن بالانصراف وهو يرسم على ثغره ابتسامة عملية منمقة:

-عن إذنكم.

لم ينبس "تميم" بكلمة، انفصل كليًا بوجدانه وعقله، ليفكر فيها متوقعًا تدهور حالتها، حدق في الفراغ بنظراتٍ ذائغة، تائهة، تحمل من الهموم أثقالاً، بدا وكأن أحدهم هشم رأسه بحجرٍ صلب فجعل كالعاجز، لا يقوى على شيء. وضع "بدير" قبضته على كتفه، استعاد الأول القليل من انتباهه مع ضغطه القوي عليه، والتفت محملقًا فيه بوجومٍ تعس، استطرد والده قائلاً بنبرته الهادئة:

-احنا معاها يا ابني، مش هانسيبها لوحدها.

بصوتٍ لم تخيبه أذنه، نطق "تميم" منتحبًا، وكأن البكاء قد شق طريقه إلى نبرته:

-خايف تروح مني يابا بعد ده كله.

شدَّ عليه كنوعٍ من العتاب الرقيق:

-كله مقدر ومكتوب يا ابني، خليك مؤمن بقضاء الله، وحكمته في كل حاجة بتحصل، وأنا بأقولك إنه مش هاسيبها، وهيعوضها ويجازيها خير عن كل أذى شافته ...

لمعت عينا ابنه بعبراتٍ كثيفة، فأضاف أباه مرددًا:

-واحنا معاها وواقفين جمبها، وفي ضهرها، مش هنقصر معاها في حاجة، كل اللي هتحتاجه هنوفره ليها، ولو حكمت هنسفرها برا هنعمل كده.

انزلق "تميم" يحتضن والده في حبورٍ، وعيناه تنفران الدمعات الساخنة منهما، سحب نفسًا عميقًا يهدئ به من حالة التأثر الحزينة المسيطرة عليه، ثم تراجع عنه ليشكره:

-ربنا يخليك لينا يابا.

حمحم والده مكملاً بلهجته الجادة:

-المفروض نكلم أمها نعرفها، مش معقول لحد دلوقتي متاخدش خبر باللي حصلها.

هز رأسه متفهمًا ذلك، فتابع موجهًا إياه:

-كلم الواد "هيثم"، وعرفه اللي حصل بالهداوة، وقوله يروح لعند أمها يحكيلها بالمختصر المفيد من غير ما يخضها، ويجيبها ويجي.

-ماشي يا حاج.

قال "تميم" عبارته وهو يخرج هاتفه المحمول من جيبه، لينفذ ما أمره والده كما أشار حرفيًا، احتاج إلى شجاعته الآن ليقف ثابتًا أمام ما تجابهه؛ لكن الروح خانته فافتقر إلى بسالته، وظل قلبه يدعو الله لها طمعًا في أن يزيح عنها همومها.

.........................................

جاءت على وجه السرعة، وفي عينيها خوف شديد، تلفتت "آمنة" بنظرات تائهة متوترة حول نفسها باحثة عن رقم غرفة ابنتها بعد أن تم نقلها إليها، قابلت في الردهة "بدير" ومعه ابنه، يقفان خارج حجرتها، تسابقت في خطواتها مع الصغيرة المتعلقة في كفها، تاركة "هيثم" يلحق بها في تباطؤ. توقفت عن الهرولة، وتساءلت بصوتٍ لاهث لا يخلو من الجزع:

-بنتي فين؟ حاجزينها ليه هنا؟

اعتدل "تميم" في وقفته المرتكنة إلى الحائط، لينظر نحوها بترقبٍ، خاصة لتسلط نظراتها عليه تحديدًا، بينما أجاب عنه "بدير" بوجهه غير مشدود:

-اطمني عليها هي كويسة.

ما زالت تعبيراتها محتفظة بخوفها الأمومي وهي تخبره تلقائيًا:

-دي كانت نازلة من البيت زي الفل.

رد مؤكدًا عليها:

-متقلقيش، هاتبقى أحسن.

هتفت في إلحاحٍ محاولة الولوج لغرفتها:

-أنا عايزة أشوفها حالاً.

اعترض "تميم" طريقها قائلاً بوجوم:

-مش هاينفع يا حاجة.

انقبض صدرها بخوفٍ أكبر، ورددت بعويلٍ وبنظراتٍ شاخصة:

-يبقى بنتي جرالها حاجة وإنتو مخبين عليا.

هدأها "بدير" مصححًا سوء فهمها:

-لأ يا حاجة، دي أوامر الدكتور، محدش يخشلها إلا لما تفوق ويشوفوها الأول.

زمت شفتيها تشكوه في أسى:

-هي يا حبة عيني بقالها كام يوم عمالة تكتم في نفسها، أما خلاص مابقتش مستحملة.

غصة آلمت قلبه لمعرفته بمعاناتها المستمرة، وهو الذي ظن أنها تخطت ذلك الصدام؛ لكنها بقيت محتجزة بين قضبانه القاسية. أدار "تميم" رأسه في اتجاه والده الذي استمر في طمأنتها:

-كل حاجة هتبقى بخير، ارمي حمولك على الله.

هتفت في حزنٍ:

-ونعم بالله .. خد بإيدها يا رب وزيح عنها.

تبادل "تميم" مع "هيثم" نظرات تحية صامتة، ووقف الأخير إلى الجانب منتظرًا معرفة التطورات اللاحقة، فاتجه إليه الأول ليطلعه على التطورات بعبارات موجزة، لينطق بعدها "هيثم" بصوتٍ خفيض:

-على فكرة أنا مقولتش لمراتي حاجة.

استحسن إرجائه لذلك بترديده الخافت:

-بعدين، بلاش تقلقها، كفاية الست أمها.

بنفس الصوت الهامس علق أيضًا:

-ما أنا قولت كده، هتعملي شوشرة، والحكاية مش باين معالمها لسه.

في هذه الأثناء، وقعت عينا "بدير" على الطفلة المبتسمة، بدا غير مرحبٍ بوجودها، وتساءل بتعابيرٍ مقتضبة:

-جاية البت الصغيرة معاكي ليه؟

أجابته "آمنة" بعد تنهيدة مهمومة، وهي تجفف العبرات عن صدغيها:

-هاسيبها لمين بس؟ ما إنت عارف الظروف يا حاج.

قال، وفي عينيه نظرة غير راضية:

-ماينفعش البهدلة ليها في المستشفيات.

ضمت شفتيها في ترددٍ، قبل أن تخبره:

-هي هتفضل تحت نظري.

احتج على إبقاء الطفلة بقوله الصارم:

-لأ كده تلبخك...

ثم أدار رأسه نحو ابنه يناديه بعد أن انزوى إلى جوار ابن خالته عند الحائط:

-يا "تميم"!

دنا منه هاتفًا في طاعة:

-أيوه يا حاج.

حادثه وهو يشير بيده الممسكة برأس عكازه:

-خد الكتكوتة دي معاك وديها عندنا في البيت، وخليهم ياخدوا بالهم منها.

تحرجت "آمنة" منه، وقالت بشيءٍ من العشم:

-يادي الكسوف والله، على طول مشيلينك همنا يا حاج "بدير".

رد في هدوءٍ:

-احنا عيلة ...

ثم خاطب "تميم" من جديد:

-يالا يا ابني.

هز رأسه ممتثلاً له وهو يرد:

-على طول يابا.

وقبل أن يتحرك بالصغيرة نحو الخارج طلب من ابن خالته:

-خليك يا "هيثم" هنا عشان لو احتاجوا حاجة، وأنا هابقى معاك على تليفون.

أطاعه دون جدالٍ:

-ماشي.

ذهب "تميم" بخطواتٍ شبه زاحفة؛ كأنما يستصعب الرحيل، وظل الحزن معششًا في صدره؛ لكن لم ينقطع الرجاء في شفائها عما قريب.

..............................................

انتُزعت آخر ذرات الصبر منه بمرور يومين على بقائها بالمشفى، وهو غير قادر على الذهاب لزيارتها هناك، أو حتى رؤيتها، التعليمات كانت صريحة وواضحة؛ تُمنع عنها الزيارات إلى أن تصبح في حالٍ أفضل، يسمح لها بالتفاعل الإيجابي مع غيرها. انتشى "تميم" سماع ما يشبع توقه، وكانت المكالمات العابرة بين الفنية والأخرى من والدته لأنها كقبسٍ من نور في ظلمة حالكة، هداه عقله بعد استغراق طويل في التفكير للاستعانة بشقيقته، ربما إن زارتها بدلاً منه تطفئ عنه لهيب القلب المشتاق إليها.

دق باب غرفتها مستأذنًا بالدخول:

"هاجر" فاضية شوية؟

جاءه صوتها مرحبًا:

-أه يا خويا.

ولج إلى الداخل وهو يفرك رأسه بيده، بدا كأنما يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى خلال اقترابه من فراشها، لاحظت "هاجر" تردده، فسألته بنبرة مهتمة:

-خير في حاجة؟

تنحنح قائلاً بلعثمةٍ طفيفة، بعد لحظة من السكوت:

-كنت عايز.. منك طلب كده.

أبدت استعدادها لتنفيذ رغبته قائلة:

-اتفضل، قولي عايز إيه؟

بلع ريقه، وسألها برفرفة متوترة من جفنيه:

-ينفع تبقي تعدي تزوري الأبلة؟

سألته في تعجب يشوبه الفضول:

-أبلة مين؟

حمحم من جديد، وأخبرها متحاشيًا النظر في عينيها:

-أخت مرات "هيثم".

للتأكد من مقصده نطقت اسمها في صيغة سؤالٍ مختصر:

-"فيروزة"؟

ازدرد ريقه بربكةٍ محسوسة، وتابع معللاً طلبه:

-أه هي، يعني زيارة المريض واجب وآ... يعني .. حاجة ضرورية.

ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتيها وهي تعقب عليه:

-من غير ما تطلب، من عينيا حاضر.

تصنع الجدية وهو يشكرها:

-تسلمي.

همَّ بمغادرة الغرفة؛ لكنها استوقفته بسؤاله العابث:

-بس مقولتيش إنت شاغل بالك ليه بيها؟

اشتدت قسماته، وساد التوتر على محياه، لم يلتفت نحوها وهو يدعي نافيًا:

-لأ.. عادي، ده بس عشان غلبانة، ومالهاش حد، فأهوو نهون عليها اللي حصلها.

ردت ضاحكة في تسلية:

-أه وماله، وهي بنت حلال وتستاهل كل خير.

حاول ضبط انفعالاته ليبدو غير متأثر بتلميحاتها المراوغة؛ لكنها استمرت في إغاظته عندما سألته:

-صح ولا أنا غلطانة؟ مش هي كده؟

اكتسب صوته طابعًا جادًا، وكذلك ملامحه، وهو يخبرها:

-شوفي "سلطان" يا "هاجر"، عمال يعيط.

تابعت الضحك المتقطع، وأومأت برأسها قائلة:

-هاشوفه، متقلقش يا "تميم".

خرج من حجرتها مسرعًا في خطاه، وتلك الابتسامة المتلهفة تتراقص على شفتيه، التقطتها والدته، فسألته في فضولٍ:

-خير يا "تميم"، عرفت حاجة تبسطك؟

أجلى أحباله الصوتية، ونفى بتعابيرٍ شبه جادة:

-لأ يامه...

حاول اختلاق كذبة لحظية، فاستطرد مستخدمًا يده في الإشارة:

-ده الواد "سلطان" بيلاغيني.

ربتت "ونيسة" على كتف ابنها، وشاركته الابتسام داعية لكليهما:

-ربنا يخليك ليه يا ضنايا، ده إنت أبوه.

اكتفى بالابتسام وهو يهرب من نظراتها المتفرسة فيه، حتى لا تكشف كذبته الهزيلة، وتدرك أن وراء ابتسامته امرأة واحدة، أسماها طاووسه البريء!

..................................................

أزاحت الستارة قليلاً، لتسمح لضوء النهار الساطع بالتسلل إلى غرفتها عبر الزجاج، ثم استدارت لتتطلع إلى توأمتها المستلقية على الفراش في سكونٍ حز في قلبها بشدة. أخفت "همسة" ضيقها لرؤياها هكذا بابتسامة مبتهجة، جاهدت خلالها ألا تبدو مُخادعة، تقدمت نحو فراشها، وفتحت علبة حلوى

الشيكولاته التي أحضرتها لها لتعطيها واحدة منها، هزت "فيروزة" رأسها رافضة أخذها، وأخفضت نظراتها لتحدق في الإبرة الطبية الموصولة إلى كفها، فمنذ سقوطها الأخير، وقد عزفت عن تناول الطعام، فقدت الشهية والرغبة في التمتع بملذات الحياة البسيطة؛ كانت تدعو الموت لزيارتها، تتعجل اقترابه ليريحها مما تقاسيه؛ لكن حالت بينها وبينه مشيئة المولى.

سحبت "همسة" المقعد إلى جوار فراشها بعد أن أعادت الحلوى لمكانها، ومدت ذراعها نحو جسدها المسترخي لتمسح عليه بحنوٍ، ثم عاتبتها بصوتٍ شبه مختنق:

-كده تخضينا عليكي يا "فيرو"؟ قلبي اتوجع أوي..

حاولت أن تواري ضيقها، فابتسمت مضيفة بمرحٍ مفتعل:

-ده أنا بقالي يومين معسكرة عند أمك مش عايزة أسيبها، عشان ماتجلكيش من غيري، ما هو احنا روحين في زكيبة واحدة.

اختفت رنة السرور من صوتها مع سؤالها التالي:

-قوليلي حاسة بإيه؟

نظرة شاردة، فارغة، غير مبالية، والأكيد أنها خالية من الحياة منحتها "فيروزة" لشقيقتها، قبل أن تبعد عينيها عنها، لتحدق كالعادة في الفراغ، ورغم ذلك استمرت "همسة" في الكلام مجبرة نفسها على الابتسام:

-مش عايزاكي تقلقي من حاجة، كلنا معاكي يا حبيبتي.

عادت لتضيف بحماسٍ لم يكن كافيًا لإقناعها:

-وبعدين لازم تشدي حيلك، وتوقفي تاني على رجلك، مش ده اللي يكسرك يا "فيرو".

لم تنظر في اتجاهها، وظلت جامدة بلا حراك؛ كأنها قطعة من الأثاث، ملقاة بإهمالٍ في أحد أركان الغرفة، لا مكسب من وجودها، ولا خسارة من فقدها. واصلت "همسة" الحديث معها، وسألتها بنفس النبرة المتحمسة:

-أومال مين هينقي معايا حاجات النونو؟

سرحت بنظراتها كأنما تتطلع إلى شيء وهمي غير موجودٍ إلا في خيالها، ثم تنهدت وهي تقول:

-نفسي أعرف نوعه إيه، بس الدكتور قال المفروض نستنى للشهر الخامس عشان نتأكد.

رمشت بعينيها وهي تركز بصرها على توأمتها عندما خاطبتها:

-و"هيثم" مش فارق معاه أجيب إيه، كل اللي قلقه إنه مايعرفش يكون أب كويس، بس أنا عارفة إنه هايكون حنين وطيب.

ربتت على ذراعها من جديد، ثم خفضت من يدها لتحتضن راحتها بين أناملها، واستحثتها برجاءٍ شديد، والعاطفة تنبعث من عينيها:

-يالا بقى يا خالتو، بلاش الرقدة دي، أنا مش متعودة منك على كده.

.........................................................

انتظر وصول المصعد إلى الطابق الكائن به حجرتها بأعصابٍ مشدودة، ظهر تأثير ترقبه على ملامحه، وإن جاهد لإظهار عدم اكتراثه، فضحته نظراته، واضطرابات أنفاسه. بمجرد فتح بابه المعدني، انزلق "تميم" خارجًا منه، ليسبق شقيقته بخطوةٍ حتى يرشدها إلى مكانها. توقف قبل بلوغه وجهته، واستدار نحوها ليوصيها وهو يبلع ريقه:

-طمنيني لما تطلعي يا "هاجر".

هزت رأسها قائلة:

-حاضر ياخويا...

ثم سألته في استغرابٍ:

-بس مش كنت تيجي معايا؟

تنحنح مبديًا أسباب تحرجه من فعل ذلك، رغم الشوق الحارق لصدره:

-لأ مايصحش، عشان تبقوا على راحتكم.

قالت ببسمةٍ ذات مغزى:

-حاضر يا عين أختك.

شيعها بنظراته وهي تواصل سيرها، حبس أنفاسه عندما طرقت على الباب قبل أن تفتحه، وتختفي بالداخل، لم يحالفه الحظ في رؤيتها، فأصاب وجهه

العبوس، جلس بالخارج على المقعد المعدني، وفرك أصابع يديه معًا، استنشق الهواء بعمقٍ، ولفظه هامسًا:

-يا رب تكوني بخير.

توزعت نظراته القلقة بين الباب المغلق تارة، وبين الردهة الطويلة تارة أخرى. لفت أنظاره شخصًا بدا مألوفًا من بعيد، ضاقت عيناه نحوه حينما فطن إلى هويته، إنه الضابط "ماهر"، ذاك الذي يظهر كندٍ عتيد في كل فرصة تتهيأ له للتواجد معها، اكفهرت قسماته، وانعكس الانزعاج في مقلتيه، كز على أسنانه مغمغمًا:

-وده إيه اللي جابه هنا؟

نفخ بصوتٍ مسموعٍ، واستكمل بنبرته المتبرمة:

-الحكاية مش نقصاه.

نهض من مكانه مجبرًا ليتجه إليه، لم ينكر أن وجوده في محيطها لم يكن من اليسير عليه، خاصة مع معرفته الكاملة للفارق بينهما. لاحظ تواجد شابة معه، تقاربه في الملامح؛ لكنها أقصر منه في الطول، نطقت الأخيرة وهي تشير بيدها:

-الأوضة في نهاية الطُرقة دي يا "ماهر".

بلهجته الآمرة قال:

-طيب اسبقيني يا "علا"، وأنا هاحصلك بعد شوية، عاوز أتكلم مع الدكتور المتابع معاها، هو قال هيقابلني هنا.

ضغطت على شفتيها للحظةٍ، لتخبره بعدها بحاجبين معقودين:

-أوكي، متتأخرش يا "ماهر".

رد موجزًا:

-على طول.

كان "تميم" على وشك الوصول إليه لولا لمحه للطبيب الذي توقف للحديث معه، فأرجأ خطواته ليسترق السمع إليهما، بدا نقاشهما جادًا للغاية، أوحت تعابير وجه الطبيب بهذا، تقدم بحذرٍ منهما لتلتقط أذناه سؤال "ماهر" الجاد:

-يعني تقترح إيه يا دكتور؟

تكلم الطبيب قائلاً بأسلوبه العلمي:

-رأيي تتابع مع دكتور نفسي متخصص، وخصوصًا إن حضرتك بتقول إنها مش أول مرة، حصلت لما كانت مسافرة، يعني احتمال كبير تكون في انتكاسة تانية.

فرك طرف ذقنه معقبًا عليه:

-معاك حق، وأنا بصراحة كمان مسألتش، وأهملت في المتابعة معاها.

انقبض قلب "تميم" بقوةٍ وقد استمع إلى ما يدور بينهما، أحس بانسحابٍ مؤلم لروحه وهو يتخيل مدى معاناتها في غُربة لا تمنح لاجئها سوى الوحشة

والقسوة، ومض عقله بأفكارٍ غير محمودة بشأنها، وزاد ذلك من حيرته الموجعة. بصيصٌ من التفاؤل تسرب إليه مع إضافة الطبيب المبشرة:

-كل شيء ممكن يتلحق، المهم ناخد خطوة جدية وإيجابية في العلاج.

سألها "ماهر" كنوعٍ من الاستعلام:

-في عندك ترشيحات لحد معين؟

أجابه بعد لحظات من الصمت؛ كأنما يعصر خلالها ذهنه عصرًا، ليصل إلى مراده في عجالةٍ:

-أيوه، معايا اسم زميلة متفوقة في مجالها، إديني دقيقة أجيبلك الكارت بتاعها.

علق "ماهر" في استحسانٍ:

-ماشي.

تعمد "تميم" الظهور أمامه بعد انصراف الطبيب مباشرة، تفاجأ "ماهر" بوجوده، وردد بلمحةٍ من التعالي:

-إنت؟

قرأ "تميم" في وجهه استخفافًا هازئًا به، وإن لم يصرح بهذا علنًا، حافظ على ثبات انفعالاته، ولوى ثغره مرحبًا به:

-أهلاً يا باشا.

بنفس الطريقة التهكمية الساخرة تساءل "ماهر"، وهو يسدد له نظرة دونية:

-مش شايف إنها غريبة كل شوية نتقابل؟

انتصب "تميم" في وقفته، واستعرض كتفيه العريضين بهيبةٍ عكست تهديدًا خفيًا، لم يكن الخوف ما يستبد به بقدر شعوره المتعاظم بالغيرة، لكون آخرًا يوليها الاهتمام، اخشوشنت نبرته وهو يرد عليه بازدراءٍ متبادل:

-يا باشا احنا مناسبين عيلة الأبلة، يعني بقت من عيلتنا، فلما حد يتعب من عندنا كلنا بنبقى واقفين معاه، مابنسبوش ...

قبل أن يلاحقه "ماهر" برده التالي، سبقه في القول:

-وبعدين الزيارات الكتير مش حلوة ليها.

اغتاظ من أسلوبه المستفز، وزجره في تزمتٍ:

-وإنت هتعرفي إيه اللي ينفعلها واللي ماينفعش؟

رفع "تميم" كفه أمام وجهه قائلاً ببرود:

-لأ يا باشا، بس كلنا سامعين الدكتور بيقول إيه وآ...

قاطع الطبيب ما كان بينهما من نقاشٍ محتدم عندما هتف وهو يمد يده بورقة صغيرة:

-اتفضل يا فندم، ده الكارت.

التقطه من إصبعيه، وقال مجاملاً:

-شكرًا، تعبتك.

ثم التفت إلى "تميم" ليخاطبه بأسلوبه العنجهي:

-هنبقى نتكلم تاني.

تحدث من زاوية فمه قائلاً بسمة ساخطة:

-طبعًا.

أخمد نشوب الشجار كذلك ظهور "هاجر" في الردهة، تحرك شقيقها في اتجاهها، وأمرها بتعابيرٍ غائمة:

-يالا يا "هاجر".

اندهشت من تبدل أحواله، وسألته:

-مالك؟

كأنما صمَّ كل أذنيه عمن حوله، فلم يبقَ سوى وجه "ماهر" في عقله، ببرطمةٍ مبهمة ردد مع نفسه:

-ربنا يستر ومايبقاش صداع في دماغي.

تبعت "هاجر" خطوات شقيقها، والدهشة ما تزال ظاهرة عليها، انتظرت ركوبهما المصعد لتكرر عليه السؤال:

-هو حصل حاجة يا "تميم"؟

أجاب نافيًا:

-لأ ...

طرد كتلة غاضبة من الهواء من رئتيه محاولاً تصفية ذهنه عما يكدره، وسألها:

-قوليلي أخبارها إيه؟

ضغطت على شفتيها للحظةٍ، وأخبرته:

-هي فايقة، بس مابتكلمش...

نظر إليها بنظرة متسائلة، فتابعت موضحة:

-يدوب بتبص على كل واحد شوية، وترجع تتوه عننا، زي ما تكون مش حابة حد يبقى معاها.

غامت ملامحه أكثر وهو يزفر عاليًا، ناداته برقةٍ:

-"تميم"!

أدار رأسه قائلاً:

-أيوه.

سألته بنظراتٍ متفرسة في وجهه:

-قولي بصراحة وماتخبيش، هو إنت في بينك وبينها حاجة؟

قست ملامحه محتجًا بتشنجٍ:

-إنتي تعرفي عني كده يا "هاجر"؟ هو أنا بتاع الحاجات دي؟

ظلت نبرتها لينة لطيفة وهي توضح له مقصدها:

-لأ، وعشان أنا عارفاك كويس، أنا متأكدة إن اهتمامك الزايد بيها مش من فراغ.

خرج من المصعد وهو شبه متحفز، لم ينظر ناحيتها وهو يأمرها:

-تعالي أروحك عشان ما نتأخرش.

لحقت بخطاه مسترسلة بودٍ:

-براحتك .. مش هاضغط عليك في الكلام، بس خليك واثق إني أتمنالك الخير مع اللي تستاهلك، صحيح أنا حبيت "خلود" -الله يرحمها- زي أختي وزيادة، وزعلت أوي على طلاقكم، واللي حصل بينكم، واتقهرت على موتها، بس ده مايمنعش إني أفرح لفرحتك.

بينهما كانت أخوة عميقة، وتفاهمًا كبيرًا، لم تفسده الأيام الصعاب، ولا الخلافات العابرة، كانت قادرة على قراءته في معظم الأحيان، وكان مستعدًا للتضحية من أجلها إن احتاجت إليه دون تردد، ظل النسيج قويًا مترابطًا يزداد صلابة بمرور الوقت. حاول المناص من أسئلتها التحقيقية بتهربه:

-إنتي رغاية أوي يا "هاجر"، هو احنا في إيه ولا إيه؟ يالا عشان الطريق مايزحمش.

مرة أخرى أنار ثغرها بسمة عبثية ضاعفت من حدسها الأنثوي بشأن بزوغ بذرة عاطفة حقيقية في قلب شقيقها، وإن لم يصارحها بهذا بعد، كل الشواهد توحي بذلك. ارتكزت عينا "هاجر" عليه، وأكدت لنفسها:

-والله أنا شاكة فيك، وإحساسي مايكدبش أبدًا!

.........................................................

لم يتخلص عقلها بعد من الشوائب التي تسحبها إلى دوامة الذكريات الموجعة، تلك المآسي التي تستهلك طاقتها، وتجعل روحها المنكسرة تتآكل أكثر فأكثر.

استسلمت لهزيمة أخرى، ولم تقاوم الخروج منها بإرادتها، يئست من المحاولة، وأثرت الانسحاب إلى ما قبل الموت؛ الاحتضار. زيارته غير المتوقعة لها كانت كالصدمة، تطلعت "فيروزة" إلى الجد "سلطان" الذي فاجأها بقدومه، نظرت إليه بغرابةٍ، وبوجهها الذابل، ألقى عليها التحية وهو يخطو بتمهلٍ نحوها:

-السلام عليكم.

لم ترد عليه، واكتفت بالنظر إليه، كانت والدتها في إثره، فاستطردت تخبرها بتقديرٍ كبير:

-الحاج الكبير بنفسه جاي عشانك، شوفتي بقى يا "فيروزة"؟

تساءل "سلطان" وهو يستلقي جالسًا على المقعد:

-إزيك يا بنتي؟ عاملة إيه النهاردة؟

ردت عليه "آمنة" في حزنٍ:

-أهي زي ما إنت شايف يا حاج، على الحال ده من يوم ما فاقت.

استدار برأسه لينظر إليها، وقال في رضا:

-يبقى نقول الحمدلله.

ردت بتنهيدة:

-الحمدلله.

استأذنها بهدوءٍ:

-ينفع تسبيني معاها شوية؟

قالت على الفور:

-يادي العيبة؟ من غير استئذان يا حاج، ده إنت تؤمر تُطاع.

رد يشكرها في ودٍ:

-الأمر لله وحده، كتر خيرك.

انسحبت بعدها مغادرة الغرفة، لتترك الاثنان معًا، والفضول يساورها لمعرفة عما سيتحدثان. أراح "سلطان" ظهره للخلف، ومنحها نظرة محبة قبل أن يستهل كلامه قائلاً كنوعٍ من التمهيد:

-تعرفي ...

انتبهت له، فتابع بإيماءة بسيطة متكررة من رأسه:

-قليل أوي لما أروح أزور حد، ما أنا مابروحش غير للغاليين وبس.

كان وجهها جامدًا، إلى حدٍ ما مشدودًا؛ لكن لا يظهر على قسماتها الذابلة شيء. أطلق "سلطان" زفرة بطيئة، وقال:

-أنا جاي أتكلم معاكي شوية النهاردة، بس مش عنك، عني.

عاد برأسه للخلف، وتابع بقليلٍ من المزاح المقبول:

-زمان، وأنا صغير، ما هو أنا مكونتش بالشيبة دي دلوقتي، لأ كنت أعجب أتخنها حد.

لم يتوقع أن تتجاوب معه بالابتسام المجامل، وواصل قوله بنبرته الرخيمة:

-كنت راجل من وأنا عيل، دمي حامي، عصبي، ومتهور حبتين...

تعمد التوقف عن الكلام كل فترة ليضمن تركيزها معه، وأضاف بعدها وعيناه مسلطتان عليها:

-زي الواد "تميم" حفيدي، بس هو مايجيش واحد على عشرة من اللي كنت عليه.

ضاقت حدقتاها في غرابةٍ، ومع هذا بدا "سلطان" مرتخيًا في تعبيراته. حرك عكازه باهتزازة بسيطة عندما أخبرها:

-تقريبًا كنت معظم وقتي لوحدي، ماليش سند، ولا حد، أصلي أصغر إخواتي البنات، وأمي ماتت وأنا مكملتش 4 سنين، وأبويا شوية وحصلها، فإخواتي سابوني عند أعمامي يربوني، ماهو كان فيهم اللي اتجوزت، واللي سافرت حتة تانية،، واللي ملبوخة بكوم العيال اللي عندها، يعني زي ما بيقولوا كده اترميت في السوق ومعمعته بدري بدري، فعضمي اتشد، وبقيت عصب

وناشف أوي، الكل بيعملي حساب من وأنا صغير، كلمتي مسموعة عند الكبير قبل الصغير.

بزهوٍ لا يمكن إنكاره شرد وهو يُحادثها؛ كأنما استحضر طيفها في عقله:

-كنت مفكر هافضل كده عايش لوحدي، ماليش لا عزوة ولا سند، بس ربك رضاني بالحاجة "أم بدير"، حاجة كده في عينيا زي البدر في تمامه، تتحط على الجرح يطيب، تنسي معاها أي هم وتعب ..

خفض من رأسه قليلاً، وتابع بشجنٍ طفيف لامسته في صوته:

-عافرت معايا عشان أحس بيها، مكانتش بتشتكي ولا تلوم، كانت راضية بأي حاجة مني، على طول تقولي وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ..

لمحت من السخرية شابت نبرته حينما نطق:

-وأنا الصراحة كنت بتريق عليها، هي مفكراني شيخ جامع، ولا درويش؟ ده أنا راجل ابن سوق، حقي بأخده بدراعي.

تنهد مليًا قبل أن يكمل:

-طنشتها، ومديتهاش اهتمام نهائي، دايمًا معاها عصبي، بخانق دبان وشي عمال على بطال، وهي صابرة، راضية بعيشتي معاها.

غصة نادمة عصفت بصوته وهو يقول:

-اعتبرتها في الأول مجرد واحدة تخلف وتجيبلي عيال، وبالمرة تشوف طلباتي آخر النهار، ومعترضتش، كانت على طول تحت رجلي ..

أطبق على جفنيه مقاومًا الذكرى، ونكس رأسه قليلاً، كما ظهر التأثر في صوته وهو يتابع:

-لحد ما رقدت في البيت في عاركة من بتوع السوق، كانت الرقدة طويلة، والحمل شديد أوي، يهد جبال، زي ما بيتقال مالهاش قومة ....

عاد التفاخر يسطع في صوته وهو يخبرها:

-ساعتها شوفت الضهر اللي اتسند عليه، الحُرمة اللي فكرتها عويلة ومكسورة الجناح، كانت بـ 100 راجل، ست يعتمد عليها، بيتعملها مليون حساب، دي مشت رجالة بشنبات بكلمة واحدة منها، وفت بكل الالتزامات اللي عليا، وحافظت على اسمي بين معلمين السوق، ومقصرتش في رعايتها ليا، وقتها عرفت أد إيه كنت ظالمها، كنت متجني عليها، مادتهاش حقها..

احتاج لهنيهة ليحافظ على ثبات نبرته التي تأثرت حينما استكمل حديثه:

-ويعلم ربنا من ساعتها مقصرتش معاها في حاجة، راعيت ربنا فيها، عرفت إني من غيرها ولا حاجة، حبيتها وفضلت محافظ على الحب ده حتى بعد ما المولى استرد أمانته، ومانكرش إني اتكسرت من بعدها، مافيش واحدة ملت عيني غيرها، كانت الله يرحمها النفس اللي بتنفسه، الحلو من بؤها شهد، والضحكة منها تهون عليا أي حاجة.

مسَّ حديثه المسترسل قلبها، أحست بكلماته المتجسدة في اعترافات صادقة بنفاذها إليها، فبرقت عيناها بلمعانٍ متأثر؛ وكأن ما بها من جمود قد لان بشكلٍ عجيب. بحركة خاطفة من سبابته، مسح "سلطان" عبرة متسللة إلى طرفه، ثم تنفس بعمقٍ، وخاطبها بصوتٍ ما زال هادئًا:

-اللي عايز أقولهولك يا بنتي، إن السند مش لازم يكون من دمك ولحمك، في ناس كتير حواليكي يتمنوا يبقوا سندك، ضهرك اللي يحميكي، من غير أي حاجة، وتلاقيهم وقت الشدة أول حد يدافع عنك..

تلقائيًا اقتحم انعكاسًا لوجه "تميم" فضاء عقلها، مصحوبًا بشهامته المتكررة في كل موقف تطلب منه هذا، تداخلت المواقف، وتزاحم به رأسها، فحاولت إجبار عقلها على تجاوزه، تبخر الطيف بالتدريج وصوت "سلطان" يُذكرها:

-مش كل الناس زي راس العجل اللي ما يستحقش يكون قريبك!

تعقدت ملامحها، وظهر الألم على وجهها؛ لكن الجد عاد ليشدد عليها بما يشبه النصيحة، مستعينًا بيده في الإشارة:

-إنتي بس محتاجة الأول تشيلي الغشاوة من على عينيكي، وتبصي حواليكي تشوف مين اللي يتمنالك الرضا، وكلمة حلوة منك تكفيه.

للغرابة تجدد الطيف بقوةٍ، كأنما ضغطت في عقلها على زر استدعاء صورته، كسا وجهها حمرة طفيفة، متحرجة من تفكيرها الغريب فيه، وخاصة في حضرة

جده. استنكرت ما شطح فيه خيالها، وزادت من عبوس تعابيرها. نهض "سلطان" من مقعده، ووقف أمام فراشها ينصحها برفقٍ:

-يا بنتي إدي فرصة لنفسك تنسي فيها اللي فات، ومش عيب لما تبدأي من جديد لو وقعتي، ده إنتي لسه شباب، أومال اللي زيي يعملوا إيه؟!

همَّ بالذهاب وهو يقول:

-مش هتعبك أكتر من كده، أنا خلاص قولت اللي عندي.

كان على وشك الاستدارة عندما قال فجأة؛ كأنما لم يكن ليغفل عنه:

-آه، قبل ما أنسى، ده مفتاح الدكان بتاعك.

أخرجه من جيبه، وأسنده على الوسادة إلى جوارها، وكرر عليها بصرامةٍ:

-مش هيرجع، عايز أشوفك واقفة فيه.

أدخل "سلطان" يده في جيب جلبابه مجددًا، وبسط راحته بميدالية مصنوعة من الفضة، تم تشكيلها على هيئة طاووس معتد بنفسه، قربها منها قائلاً بسخرية لطيفة:

-ودي من الواد "تميم"، معرفش إيه حكايته مع الطاووس!

اتسعت ابتسامته نسبيًا وهو يتم جملته:

-بس موصيني أديهالك لما أشوفك.

فاجأته "فيروزة" عندما التقطتها من راحته، لترفعها إلى عينيها، وتنظر إليها عن قربٍ، وبإمعانٍ واضح. ظل وجهه محتفظًا ببشاشته عندما نطق دون تردد، وعن عمدٍ صريح:

-الواد ده عامل زيي، لما بيحب .. بيحب بجد، مايعرفش يحوَّر.

حادت "فيروزة" بنظراتها عن الميدالية لتحملق في وجهه باستغرابٍ محير، منحها ابتسامة مطمئنة، ليوصيها بعدها:

-خدي بالك من نفسك ...

ضم قبضتيه معًا فوق رأس عكازه، ونظر إليها بثباتٍ قبل أن يكرر من جديد على مسامعها بكلماتٍ موحية، كان واثقًا أنها ستدرك حتمًا مغزاها، فقط إن نفضت عن عقلها ما يعيق صفاء ذهنها:

-وزي ما قولتلك، السند هنا جمبك، ودايمًا قريب منك ................................ !!!

..................................................

رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل مائة وعشرة

وازن بين أدائه لعمله، وبين شروده في التفكير فيما حدث من مقابلة جده معها، حاول الالتهاء بإشغال نفسه قدر المستطاع بأعمالٍ لا حصر لها، حتى لا يدع لعقله الفرصة في توقع الأسوأ؛ لكن دومًا فضوله يطغى على أي شيء آخر. بدا "تميم" مشتت التركيز معظم الوقت، رغم سعيه لإظهار العكس، فأوكل إلى أخلص رجاله مهمة مراجعة تعبئة إحدى الشاحنات، وأمسك بدفتر الفواتير محفزًا نفسه على قراءة الأرقام؛ لكنها تداخلت وبدت معقدة وغير مفهومة.

ترك ما في يده، وفرك جبينه بيده مرددًا مع نفسه:

-إنتي عاملة فيا إيه بس؟!

حالة التخبط المسيطرة عليه لم يمانعها؛ لكنه لم يحبذ لفت الأنظار إليه، تحركت عيناه نحو هاتفه المسنود إلى جواره، امتدت يده لتمسك به، كان مترددًا في مهاتفة والدته، وظل يرجئ الأمر بضعة مراتٍ حتى انتهى رصيد الصبر لديه، نهض من خلف المكتب الخشبي، والتقط الهاتف بيدٍ، ثم اتجه إلى زاوية هادئة نسبيًا من الدكان، واتصل بها، ترقب إجابتها عليه. سرعان ما توترت ملامحه حينما سمع صوتها، سألها بنبرة جاهد لتبدو ثابتة غير كاشفة لأمره:

-إيه الأخبار عندك ياما؟

جاوبته بصوتها العادي:

-أه يا ضنايا، كله تمام عندنا.

سألها على مهلٍ، وكامل نظراته مرتكزة على نقطة وهمية بالأرضية:

-وجدي رجع من مشواره؟

جاءه ردها طبيعيًا:

-أيوه من شوية، "هيثم" طلعه، وأنا عملتله القهوة بتاعته.

حمحم متسائلاً بترددٍ لطيف؛ كأنما يبحث في كلامها عما يشبع حيرته:

-وهو كويس؟ قالك حاجة يعني؟

أخبرته بتريث:

-قالنا إنه اطمن على "فيروزة"، وبقت أحسن شوية، وبعدين دخل على أوضته ...

ذكرها لاسمها طرب أذنيه، وأشعره بسعادة خفية تغمره، للحظة صمتت "ونيسة" قبل أن تبادر بسؤاله:

-إنت عايزه في حاجة؟

أمسك التخبط بصوته على الفور، وقال نافيًا مستشعرًا بفضولها ناحيته:

-لأ .. ده أنا .. كنت بأطمن عليه.

تنحنح بخشونة طفيفة، وسألها كنوعٍ من المراوغة لتغيير اتجاه الحديث، وإبعاد الريبة عنه:

-إنتو مش ناقصكم حاجة يامه؟

جاوبته بنبرة لامس فيها الرضا:

-خير ربنا موجود وزيادة، تعيش يا ضنايا.

أنهى معها المكالمة قائلاً بتعجلٍ:

-ماشي يامه، سلام.

زفر الهواء سريعًا، ولام نفسه لحماقته في إظهار مبالاته بخروج جده غير الاعتيادي، تمنى في قرارة نفسه ألا تستريب والدته من الأمر، خاصة لعلمها أن لذهابه علاقة بزيارة طاووسه المتعافي. التفت متجهًا نحو باب الدكان، فوجد والده يخاطب أحدهم، كان على وشك الاستدارة والعودة إلى مقعده ليستأنف مراجعة الفواتير؛ لكنه ناداه بلهجةٍ جادة:

-يا "تميم"، تعالى عايزك شوية لو خلصت اللي في إيدك.

أبدى اهتمامه متسائلاً:

-خير يا حاج؟

أجابه "بدير" مستخدمًا يده في الإشارة:

-هنتكلم برا في الطل.

هز رأسه موافقًا، وتبعه إلى الخارج ليجلس إلى جواره على الكرسي الخشبي، رفع أنظاره إليه متسائلاً في فضول:

-كنت عايزني في إيه يابا؟

استند والده بكفيه على رأس عكازه، وأجابه:

-في عريس جاي لأختك ...

تحفز "تميم" في جلسته، وانعكست على تعابيره أمارات الدهشة، فتابع موضحًا له:

-هو فاتحني، وأنا عرفت جدك، بس قولت أخد رأيك الأول، قبل ما نكلم "هاجر" ونعرفها، لأنه ...

بتر عن عمدٍ باقي جملته ليضمن حوزته على كامل انتباهه، فواصل القول على مهل:

-كان السبب في حبسك.

برقت عينا "تميم"، وتساءل بقسماته المندهشة:

-إنت بتكلم عن مين يابا ؟

أجابه بحذرٍ:

-قصدي على "سراج"!

صمت مدهوشًا للحظات محاولاً استيعاب المفاجأة، فأكمل والده مفسرًا:

-قبل ما نديله أي كلمة لازم الكل يكون موافق عليه، ورأيك عندي يهمني زي أختك.

توقع أن يرفض رفضًا قطعيًا جراء الماضي المشؤوم بينهما، ولن يلومه على ذلك؛ لكنه فاجأه بمدحه:

-هو.. ابن حلال، وجدع، معدنه الحقيقي بان وقت الشدة ...

هل حقًا يتحدث عن "سراج"؟ من زج به في السجن وقضى على زهرة شبابه هناك؟ حملق فيه والده مصدومًا لبرهةٍ، غير مصدق ما يسمعه بأذنيه، أضاف ابنه مسترسلاً، وهو يستحضر في ذهنه دعمه الكامل له في أكثر من موقف تطلب مروءة كبيرة، ناهيك عن موقفه الأخير إبان عمليته الطبية الحرجة:

-والصراحة أنا مشوفتش منه من يوم ما الدكان ولع بيا غير كل خير، وفي الأول وفي الآخر الرأي رأي "هاجر"، هي اللي هتتجوز، مش أنا.

لم يفق "بدير" بعد من صدمته المندهشة، وقال وهو يعيد رأسه للخلف:

-والله يا ابني أنا ما عارف أقولك إيه، الصراحة إنت فاجئتني.

صاغ "تميم" سؤاله بشكلٍ بسيط:

-عشان اللي حصل زمان؟ وعمري اللي ضاع في السجن؟

أتاه جوابه مقتضبًا وواضحًا:

-أيوه.

تنفس بعمقٍ، وقال:

-ده مقدر ومكتوب، وقتها أنا كنت أعمى، مش شايف الحقيقة مظبوط ...

ما لبث أن غلف صوته القسوة وهو يتم جملته:

-وكلنا عرفناها بعدين، إن الكلب "محرز" كان السبب الأصلي في المشكلة دي.

رد مؤمنًا على كلامه:

-معاك حق.

ابتسم قليلاً وهو يردد:

-وأهي أيام عدت بحلوها ومُرها، خلينا في النهاردة.

لانت ملامح "بدير" المشدودة، وعلق في تفاخرٍ:

-ربنا يكملك بعقلك يا ابني.

امتدت يد "تميم" لتربت على فخذ أبيه وهو يعقب:

-تسلم يا حاج، ده إنت الخير والبركة بتاعتنا، كلنا بنتعلم منك ومن جدي.

لمعت عينا "بدير"، وسأله بمكرٍ:

-بمناسبة جدك، قالك في جديد؟

ادعى ابنه عدم اهتمامه، وقال بنبرة غير مبالية:

-جديد إيه؟

لكزه في ذراعه معاتبًا إياه بمرحٍ:

-يا واد عليا برضوه، إيش حال ما أقفاص التفاح رايحة جاية؟

ضحك في سرور، ونهض من مكانه قائلاً:

-ربنا يكملها على خير يابا، وتبقى أقفاص مانجة، وفراولة وكل خيرات ربنا، ادعيلي بس.

قال وهو ينهض بدوره:

-أنا بأدعي، ومستني استجابة المولى.

رفع كفيه للسماء مرددًا في رغبةٍ:

-يا رب نسمع البشارة قريب

.....................................................

مال برأسه للجانب ليمنع سقوط الهاتف من على أذنه، وهو يحاول بيدٍ دس المفتاح في قفل باب منزل أبويه، وباليد الأخرى كان حاملاً لحقيبة متوسطة الحجم. دفع "هيثم" الكتلة الخشبية بقبضته، واعتدل برأسه ليمسك بالهاتف، ثم استطرد مخاطبًا زوجته وهو يخطو للداخل:

-أنا وصلت عند البيت أهوو، هاجيب كام حاجة لأمي زي ما قولتلك، وأوديهم عندها، وأقعد معاها شوية، وقبل ما هروح هافوت عليكي.

توقف عن السير ليستدير مغلقًا الباب من ورائه، ثم تحسس الحائط باحثًا عن زر الإنارة وهو يتابع:

-حاضر، مش هتأخر...

فرك طرف أنفه محاولاً الاعتياد على رائحة الهواء العطنة السائدة في المكان، طرد زفيرًا ثقيلاً من رئتيه، وسألها:

-إنتو أعدين لسه في المستشفى؟ ولا هترجعي عند أمك؟

استمع إلى ردها، وعلق مختتمًا معها المكالمة:

-طيب خلاص، على تليفون.

ضغط على زر إنهاء الاتصال، ودار بنظراته على بهو منزله الذي شهد جريمة بشعة، لا يمكن محو تبعاتها من الذاكرة مُطلقًا، كان معظم الأثاث مُغطى بالملاءات البيضاء، كما جُمعت التحف في مكان واحد، وطُرح عليها قطعة قماشية لمنع الأتربة من المساس بها، ورغم هذا ما زال السجاد محتفظًا ببقع الدماء الجافة رغم تنظيف كل شيء، آلمه شعوره بفقد شقيقته غدرًا، وأحس بوخزات تضرب في صدره حسرة عليها، تنهد مطولاً، ودعا لها بخفوتٍ:

-ربنا يرحمك يا "خلود".

تجاوز ما يزدحم به رأسه من أفكارٍ سوداوية حزينة، ليكمل ما جاء إليه، فقد أوصاه الطبيب المعالج لوالدته بإحضار بعض الأشياء والمقتنيات التي كانت تحبذ الاحتفاظ بها، لم يفهم السبب وراء هذا؛ لكنها على الأرجح إحدى

وسائله في خطة علاجها طويلة الأمد. ولج إلى داخل غرفة نومها، وجاب بنظرة شمولية على ما فيها، كل شيءٍ كان على حاله؛ وكأنه تُرك بالأمس القريب. تقدم في خطواته، واتجه نحو الفراش ليضع الحقيبة الجلدية عليه، ثم استدار ناحية الدولاب الخشبي ليفتح ضلفته، مرر نظراته سريعًا على محتوياته، وبدأ في انتقاء ما وجده مناسبًا، طرأ في باله اقتراح ما، فنطق به؛ كأنما يفكر بصوتٍ مسموع:

-أما أشوف ألبوم الصور، جايز ينفع.

اتجه ناحية الكومود، وجلس على طرف الفراش، ليفتش في أدراجه عن الصور العائلية القديمة، وجد ضالته بالدرج السفلي، فابتسم في رضا، وألقى نظرة سريعة على ما تضمنته صفحاته من لقطات حملت براءة، وسعادة بسيطة. أغلق الألبوم وهمَّ بالنهوض؛ لكن أثناء قيامه ضغط ثقل قدمه على البلاطة المنزوعة فتسبب في فلقها، تفاجأ من تصدعها أسفل السجادة، وانحنى ليزيحها عنها حتى يرى مدى الضرر الذي تسبب فيه؛ وكانت المفاجأة الصادمة له!

أبعد شقي الحجارة، وحدق بعينين متسعتين ذهولاً في كومة النقود المرصوصة بعنايةٍ والمدفونة بالأسفل، مد يده ليخرج رزمة منهم ليتأملها في صدمة، ولسان حاله يتساءل:

-إيه ده؟

أصيب تفكيره بشللٍ مؤقت، وظل يتطلع إلى ما في يده بنفس النظرات الذاهلة محاولاً استيعاب ما يراه. تلقائيًا امتدت يد "هيثم" لتخرج البقية في عدم تصديق، وصوت عقله يسأله:

-إيه كل ده؟ ودول جوم منين؟

تقافز إلى ذاكرته مشاهدًا سابقة عن ادعاء والدته للفقر، وعن استيلاء زوج خالته عن حقوق أبيه المتوفي، لتعاني من ويلات العوز والاحتياج؛ لكن ما يجده الآن نصب عينيه يناقض كل ذلك الكذب الملفق! تخبط تفكيره أكثر، وأصابته الحيرة، شعر بأنفاسه تضطرب، مع رؤية للمقتنيات الذهبية المحشورة أسفل النقود، بحسبة عقلية بسيطة، يُعد ما وجده كنزًا ثمينًا يُغني عائلته عن مد اليد للآخرين، وتسول مساعدتهم. ارتخى ما التقطته أصابعه متسائلاً:

-طب إزاي؟

انهار كل ما ظن أنه الصواب، عندما تدارك أنه ضحية خدعة محكمة، أجادت والدته إتقانها على مدار سنواتٍ طويلة. كان "هيثم" بحاجة ماسة لفهم ما يدور حوله، ووحدها كانت تملك مفتاح حل اللغز.

..............................................

-دوقي كده يامه، ملحه مظبوط؟

قالت "هاجر" تلك العبارة وهي تتذوق بطرف لسانها الحساء الذي طهته، لتتنحى للجانب قليلاً حتى تتمكن والدتها من تجربة مذاقه، وهو ما زال موضوعًا على الموقد، استحسنت والدتها صنيع يديها، ومدحتها في ابتهاج:

-زي الفل، طالعة لأمك يا حبيبتي.

شعرت بالرضا عن حالها، واتجهت إلى الحوض لتغسل الصحون المتسخة، بينما أخبرتها "ونيسة" بلهجة جادة:

-أول ما أعلق على المحشي- ويستوي، هاكلم "هيثم" يجي يودي الأكل عند حماته، اهي حاجة ترم عضمهم، وتقوتهم.

نظرت ابنتها ناحيتها، وقالت باهتمامٍ وهي تدعك بقوةٍ الوعاء الملىء ببقايا السمن:

-كتر خيرك يامه، شاغلة بالك بيهم.

علقت أيضًا بنفس اللهجة الجادة:

-دي الأصول يا بنتي، الناس لبعضيها.

نفضت "هاجر" الماء عن يديها، وبحثت عن منشفة قطنية لتجففهما بها، واستطردت متسائلة بنزقٍ:

-صحيح يامه، مانفسكيش تفرحي بـ "تميم"؟

قطبت والدتها جبينها، وقالت بعد تنهيدة:

-ده يوم المنى والله، نفسي ربنا يعوضه خير، ده ملحقش يتهنى يا حبة عيني.

نظرت في عينيها متابعة سؤالها:

-طب لو كان في حد معين في دماغه، رأيك إيه؟

تطلعت إليها بنظراتٍ متشككة، وسألتها في فضولٍ مهتم:

-هو فاتحك في حاجة زي كده؟

أجابت نافية:

-لأ، بس أنا بافترض ده.

....................................................

في تلك الأثناء، عاد "تميم" لتوه إلى المنزل، كان على وشك مناداة والدته، لولا سماعه للمحادثة الدائرة بينها وبين شقيقته، استرعى الأمر انتباهه، فسار بخطواتٍ حثيثة، غير محدثٍ لجلبة حتى لا يتوقفا عن الثرثرة بأريحية، خاصة حينما علم أنه المقصود بكلامهما. أرهف السمع لوالدته وهي تقول برجاءٍ:

-يا ستي يأشر بس، وأنا أروح أخطبهاله، المهم يكون عايز كده...

ظهرت نبرتها حزينة نوعًا ما وهي تكمل:

-مش عايزة أفرض عليه واحدة بعينها، ويرجع يحصل زي ما كان حاصل مع "خلود" في أيامهم الأخيرة سوا.

اتفقت "هاجر" معها فيما قالته، ورددت:

-على رأيك .. الواحد مبقاش مستحمل النكد.

سكتت كلتاهما عن الكلام، فتابع "تميم" تقدمه؛ لكنه تجمد في مكانه، غير قادر عن الحركة، مستشعرًا بدفعة من التوتر تجتاح كامل جسده مع سؤال شقيقته المباغت:

-طب إيه رأيك في "فيروزة"؟

أجابت "ونيسة" عليها بصيغة متسائلة؛ وكأنها تريد فهم مقصدها:

-من ناحية إيه؟

أوضحت لها بتلقائية:

-يعني في العموم.

ترقب بقلقٍ شديد ردة فعل والدته، شعر وكأنه في خضم معرفة نتيجة امتحانه الفاصل، حيث لا مناص من النجاح أو الرسوب، توقف عن التنفس لهنيهة، بالرغم من تلاحق دقاته باضطرابٍ ملحوظ. شعوره في تلك اللحظة لا يمكن وصفه عندما أعطت جوابها بشكلٍ فطري:

-هي بنت حلال، وكويسة، بس الدنيا جت عليها جامد.

لاحقتها "هاجر" بسؤالها التالي:

-تفتكري تنفع أخويا؟

زاد توتره، وعاد القلق ليسود كل كيانه، ودَّ لو استطاع إيقاف شقيقته عن إحراجه بتلك الطريقة الغريبة، فهو لم يعتد على تولي غيره زمام أمره، أرهف السمع لوالدته وهي تتساءل:

-هو لمحلك بحاجة زي كده؟

كان ردها نافيًا:

-لأ خالص، ده أنا بأقولك كده من نفسي.

علقت عليها في الحال بحزمٍ:

-يبقى مالوش لازمة نعمل حوار من حاجة مش موجودة، خلي كل واحد شايل شيلته، وهو لو عايزها أكيد هايقول، أخوكي لا بتاع لف ولا دوران، سيبي كل حاجة لوقتها.

دعت له عن طيب خاطرٍ:

-ربنا يعمل اللي فيه الخير ليه ولينا.

أمنت عليها والدتها بهدوءٍ:

-يا رب.

ما سمعه مصادفة كان بالنسبة إليه كالماء البارد حينما يروي جسدًا لفحته الحرارة الحارقة، شعر "تميم" بطوفان من السعادة والبهجة يغمره، وتلك البشارة تلوح في الأفق. انسحب في هدوءٍ غير راغب في معرفة المزيد، يكفيه أن يجد

الدعم من أفراد أسرته، ليتشجع أكثر في مواصلة كفاحه، في حبٍ لن يعرف معه المستحيل.

..............................................................

طرقة خافتة أتبعها سماحه له بالدخول، فولج بتعابيره المسرورة إلى حجرته، طامعًا في إنعاش قلبه بأخبارها المشوقة. ابتسم "تميم" لجده، واستطرد معه بالأسئلة التقليدية المستهلكة كتمهيد لشغفٍ يريد إشباعه، جلس عند قدميه، ورفع رأسه إليه يسأله بعينين تلمعان بوهج الحب النضر، ذاك الذي لا يستطيع إخفائه عنه:

-اطمنت عليها يا جدي؟

رد "سلطان" بإيماءة من رأسه:

-أيوه.

تبعه بوابل من الأسئلة المتلهفة:

-بقت أحسن؟ اتكلمت معاك؟ طب قالتلك حاجة معينة؟ كانت عاملة إزاي؟

هز رأسه للجانبين متعجبًا من حال حفيده، ومع هذا لم يمانع رؤيته يعايش ما يشفي النفس من أوجاعها. أطلق زفرة بطيئة، وأخبره بهدوءٍ:

-هي سمعت اللي أنا عايز أقوله.

إلى حدٍ ما بدا هذا مرضيًا، فسأله بوميضٍ متحمس معكوس في نظراته نحوه:

-والميدالية؟ خدتها؟

رد بهزة خفيفة من رأسه:

-أيوه.

فرك "تميم" كفيه معًا في انتشاءٍ، وبرزت ابتسامة عريضة على محياه، ثم هتف في بهجةٍ كبيرة:

-كويس أوي ...

شرد محاولاً تخيل وجهها وهي ترى هديته المنتقاة بعناية لها، فتضاعف التوق بداخله، نظر مجددًا إلى جده، وسأله:

-وبعدين، قالتلك حاجة؟

جاوبه نافيًا:

-لأ..

حل العبوس على قسماته، وبدأت ابتسامته تفتر، فأضاف الجد مؤكدًا:

-بس عايزك تعرف إن الضربة اللي مابتموتش بتقوي، وهي هتاخد وقتها وترجع زي الأول وأحسن.

نطق في رجاءٍ يشوبه اللهفة:

-يا ريت.

ضحك "سلطان" معلقًا عليه:

-اصبر يا واد، ماتبقاش متلهوج كده.

بادله الضحك المرح، ثم قال مازحًا، وبين شفتيه ابتسامة متشوقة، يرجو بشدةٍ أن تراها على وجهه حينما تكون إلى جواره، لتدرك كم أحبها ويحبها حقًا:

-ده أنا عـــايز صـــبر عـــلى الصـــبر الـــلي عنـــدي، هـــون يا رب ............................................... !!!

.......................................................

الجزء
الثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الأبيض

## الفصل مائة وأحد عشر

الوفاء، الاعتزاز، الحنين، الاشتياق، والإخلاص العميق كلها سماتٍ استشعرتها بصدقٍ خلال حديثه المسترسل عن حياته السابقة، لم تكن "فيروزة" مهتمة في البداية بما يخبرها به الجد "سلطان"؛ لكن لمحة التأثر الظاهرة في صوته، وأيضًا في عينيه، نفذت إلى قلبها، وجعلتها تشعر بما يكنه في صدره من مشاعر غير مزيفة. نصائحه المتوارية، وتلميحاته المبطنة، كانت كإشاراتٍ خفية لإرشادها نحو الطريق الذي انحرفت عنه بفعل الضغوطات النفسية المتعاقبة عليها، ناهيك عن التذكار الذي تلقته من حفيده على وجه الخصوص، بدا مفاجأة غريبة ودافعة للفضول في نفس الآن. حملقت فيه بين الفنية والأخرى لوقت طويل، تستعيد مع تلك النقشة مواقف عايشتها جمعت بين الحزن والفرح؛ لكنها رمزت إلى قوتها، إلى تمردها، إلى صمودها، إلى معافرتها حتى تقف على قدميها.

أطبقت "فيروزة" بأناملها على الميدالية، كأنما تحاول استمداد قوتها منها، سرعان ما ارتخت قبضتها عنها، وشعرت بالوهن ينخر في روحها، فأغمضت عينيها تاركة فيضًا من الدموع ينساب من طرفيها؛ كانت مستنزفة القوى، زاهدة في مقاومتها، أرادت استعادة ما كانت عليه؛ لكن أين السبيل لهذا الطريق وهي تشعر بالوحدة والوَحشة؟!

..........................................................

انقضى على تلك الزيارة يومان، ومع هذا ظلت آثارها حاضرة، دومًا تصدح كلمات الجد في رأسها خلال استغراقها في التفكير، لتذكرها أنها ليست الضعيفة المستكينة لتستسلم هكذا، وفي نومها فتشت بداخل أعماقها المظلمة عن ذرة صمودها؛ لكنها ضلت عن دربها، وكادت تيأس من بلوغها، لولا أن رأته حاضرًا لأجلها، خفقة لذيذة أنعشت فؤادها، وأيقظت ما كان في الوجدان كامنًا، استيقظت "فيروزة" من نومها في حالة غير الليالي السابقة، بدت هادئة، منتبهة لما يدور من حولها، أحست أن شعورها بالخذلان قد خبا قليلاً عن السابق؛ وإن ظل ملازمًا لها.

تحولت أنظارها نحو باب الغرفة حينما أطلت "علا" منه أولاً، وهتافها المرح يقول:

-"فيرو" حبيبتي، وحشتيني أوي...

تقدمت نحو فراشها، ولمحت بطرف عينها شقيقها يتبعها، مالت عليها الأولى لتحتضنها وهي تواصل سؤالها باهتمامٍ:

-عاملة إيه النهاردة؟

شملتها بنظرتها، وأضافت:

-حساكي أحسن، مظبوط؟

لم تتوقع أن تجيبها، فقد لجأت للصمت الإجباري كوسيلة للهروب عن المواجهة، التفتت "علا" ناظرة إلى شقيقها تسأله؛ وكأنها تدعوه لمشاركتها في تفقدها بطريقة لطيفة:

-إيه رأيك يا "ماهر"؟

ألقى عليها نظرة فاحصة قبل أن يومئ برأسه مؤكدًا:

-هي فعلاً شكلها أفضل، ولسه برضوه لما نطمن من الدكتور.

جلست "علا" على طرف الفراش، وامتدت كلتا يديها لتحتضن كفها، وأخبرتها بغموضٍ مثير:

-أنا عايزاكي تشدي حيلك، وتخرجي من هنا بسرعة ...

توقفت للحظة لتضمن سماعها للبقية، ثم غمزت لها قبل أن تكمل:

-في مناسبة حلوة في الطريق.

تنهدت ببطءٍ، وتابعت بابتسامةٍ مزجت بين الخجل والحماس:

-خطوبتي قريب ..

رمشت بعينيها مضيفة:

-وطبعًا محدش هيساعدني ولا يظبط الديكور غيرك يا "فيرو"، ما إنتي أكتر حد فاهم ذوقي عامل إزاي.

علق "ماهر" من خلفها بابتسامةٍ هازئة، وهو يدس يديه في جيبي بنطاله:

-الله يكون في عون "وجدي"، أنا عارف عجبه فيكي إيه؟!

اغتاظت من طريقته المستفزة، وهتفت تشكوها في عبوسٍ زائف:

-شايفة يا "فيرو"؟ ده بدل ما ياخد صفي؟

رد بنفس أسلوبه المازح:

-يا بنتي ده كفاية إني مستحملك، ليه نبلي غيرنا بيكي.

استاءت منه، وأوشكت على التشاجر معه بقولها:

-بلاش كده يا "ماهر"، إنت هتعصبني.

توقفا عن الثرثرة مع دخول إحدى الشابات الأنيقات للغرفة، لم يكن وجهها مألوفًا في البداية لثلاثتهم، بدأت بالترحيب بهم، كاستهلالٍ منمق للتعريف بنفسها:

-مساء النور على حضراتكم.

ركز "ماهر" أنظاره المحققة عليها، وبادلتها "علا" التحية بقولها:

-مساء الخير.

تابعت تقديم نفسها بابتسامة مهذبة:

-أنا الدكتورة "ريم هلالي"، جاية للمدام بناءً على تعليمات الدكتور المسئول عن علاجها.

ظلت عينا "ماهر" عليها تتفرس بها، بدا وكأنه يعرفها من مكانٍ ما؛ لكن عقله لم يسعفه بعد لتذكرها. حمحم بصوتٍ خفيض، وسألها بلهجةٍ كانت شبه رسمية:

-حضرتك الدكتورة النفسية؟

نظرت في اتجاهه، وأجابته باقتضابٍ، دون أن تفتر بسمتها:

-أيوه.

قال بقليلٍ من الترفع:

-تشرفنا.

ردت مجاملة:

-شكرًا.

أوصاها وهو يخرج إحدى يديه من جيبه ليشير بها:

-شوفي يا دكتورة أنا مش هوصيكي على "فيروزة"، دي في مقام أختي، وآ...

قاطعته بثقةٍ ظاهرة على تعبيراتها الهادئة:

-مش محتاجة وصاية، أنا بحب أقوم بشغلي على أكمل وجه.

هتفت "علا" تشجعها:

-يا ريت بجد يبقى في نتيجة مع "فيرو"، أنا مش حابة أشوفها أعدة كده.

طمأنتها "ريم" ببسمتها الرقيقة:

-متقلقيش، بإذن الله هايكون في نتيجة طيبة.

تحركت رأسها في اتجاه "ماهر" لتنظر إليه بحاجبين معقودين عندما سألها:

-حاسس إني شوفتك قبل كده، هو والدك كان شغال في الداخلية؟

رغم تطفله الفضولي الغريب –وغير المستلذ عليها- إلا أنها أجابته بأسلوبها الرزين المهذب:

-أيوه، كان لواء، بس تقاعد بقاله فترة.

صمت لهنيهة معتصرًا ذاكرته قبل أن ينطق أخيرًا في صيغة متسائلة:

-اللواء "فاروق الهلالي"، صح كده؟

تفاجأت من صحة تخمينه، وأكدت هذا بترديدها:

-أيوه، حضرتك تعرفه؟

ارتخت تعابيره، واعتلت ملامحه ابتسامة زهو وهو يرد:

-أه، أنا خدمت معاه زمان، فكريه بيا "ماهر حجازي".

هزت رأسها قائلة:

-حاضر.

تبدلت نبرته المليئة بالعنجهية لأخرى ودية إلى حدٍ ما في سؤاله التالي:

-إزي صحته؟ وأخبار سيادته إيه؟

جاوبته ببسمةٍ ناعمة:

-الحمدلله.

ضحك وهو يكرر عليها:

-طالما طلعنا معرفة كده، يبقى مش هوصيكي على "فيروزة".

لم تفتر ابتسامتها وهي تعقب عليه بقليلٍ من العتاب:

-تاني؟ حضرتك اطمن، إلا إن كنت مش واثق فيا.

ارتسمت قسماته بالجدية وهو يقول:

-لأ إزاي.

راقبت "علا" ما يدور بينهما من حوارٍ تحول من تعارفٍ عابر إلى وسيلة لتعميق الصلات في طرفة عينٍ، مالت نحو "فيروزة" تهمس لها ساخرة منه:

-شايفة بيعمل إيه؟ فاكر إنه بيثبت البنات بطريقته دي.

اعتدلت في وقفتها، وانتبهت لـ "ريم" التي قالت:

-هستأذنكم تسبوني معاها شوية.

ردت عليها وقد انبعجت شفتاها عن بسمة مفتعلة:

-أوكي.

في حين استطرد "ماهر" قائلاً وهو يمد يده لمصافحتها:

-فرصة سعيدة، وإن شاءالله نتقابل تاني، سلامي لسيادة اللواء.

بادلته المصافحة، وقالت:

-حاضر.

وضع "ماهر" يده على كتف شقيقته يستحثها على الخروج وهو يقول:

-تعالي يا "علا"، خلي الدكتورة تاخد راحتها.

لكن كانت أنظاره مرتكزة على "ريم" التي تحاشتها لتتطلع إلى مريضتها المستلقية على الفراش. ودعت "علا" رفيقتها هاتفة:

-باي يا "فيرو"، هاجيلك تاني.

انتظرت مغادرتها للمكان، لتغلق الباب خلفهما، ثم قامت بحمل أقرب مقعدٍ، ووضعته مجاورًا لفراش "فيروزة"، جلست عليه في مواجهتها، وبدأت في خلق جو من الحوار الودي معها بقولها اللطيف:

-مساء الخير، اسمحيلي أفرض نفسي عليكي شوية.

أخرجت مفكرة صغيرة من حقيبتها الجلدية، وسحبت قلمًا من جيبٍ داخلي بنفس الحقيبة، لتبدأ بعدها في تقليب الصفحات، وتدوين ملحوظاتٍ سريعة. تطلعت إلى مريضتها بنظراتٍ حانية وهي تخبرها بصورة ودية:

-أكيد إنتي عرفتي اسمي، الدكتورة "ريم"، وأنا موجودة هنا عشان أساعدك.

نظرات "فيروزة" نحوها كانت ضيقة، حذرة، أظهرت جانبًا دفاعيًا فيها، ومع هذا قابلت "ريم" أسلوبها المتحفظ بلينٍ معكوسٍ في نبرتها عندما خاطبتها:

-أنا عارفة إنك مريتي بحاجات كتير، واللي خلاكي توصلي للحالة دي مش موقف ولا اتنين، دي تراكمات على فترات طويلة.

كانت كمن يضع يده على الجرح المفتوح، فجعلتها تتحفز تلقائيًا وتتخذ موقفًا غير متساهلٍ معها؛ لكن "ريم" استمرت في طمأنتها:

-ودوري هنا إني أساعدك تتجاوزي المحنة دي، وترجعي أفضل من دلوقتي بكتير، وقادرة على مواجهة أي مشكلة بعزيمة.

حافظت "ريم" على نعومة ابتسامتها وهي تكمل:

-أتمنى إن يكون في بينا استجابة كويسة، وحابة أقولك إني مش مستعجلة على النتيجة، أنا أفضل إننا ناخد وقتنا، لحد ما تتخطي أزمتك بنفسك، وتكوني أقوى من الأول.

لانت تعابير "فيروزة" المشدودة نسبيًا مع عبارتها الأخيرة، فتابعت توصيها مجددًا:

-تعاونك معايا هيفرق كتير.

أغلقت المفكرة، وأعادتها إلى مكانها بداخل الحقيبة، ثم قالت في نفس الأسلوب الودي الهادئ:

-النهاردة مجرد تعارف بسيط بينا، وإن شاءالله هنظبط مواعدينا سوا.

بقليلٍ من المجازفة مدت "ريم" يدها، وربتت على كفها عدة مراتٍ في حنوٍ، وأخبرتها وهي تتطلع إليها بنظراتٍ متفهمة:

-وأتمنى إني حقيقي أقدر أفيدك، زي ما كنت سبب في مساعدة ناس كتير.

....................................................

نزعت بجشعها اللا محدود كل ما كان ثابتًا في حياته، ألجمت الصدمة لسانه، وأصابت تفكيره بالعطب، بل وجعلته يتجمد في مكانه لمدة طويلة، محاولاً استيعاب الحقائق المريرة التي اكتشفها بمحض الصدفة، أعاد "هيثم" كل شيء إلى مكانه فيما عدا بضعة رزم من النقود، قطع متنوعة من الذهب، والأوراق التي أظهرت كذب والدته، وادعائها بالباطل على زوج خالته، فوالده الراحل لم يكن مالكًا لمحله المحترق، وإنما مستأجرًا لم يسدد دينه مطلقًا منذ اللحظة التي وطأه فيها، والأدهى من ذلك أنه تلقى مساعدات كثيرة لإقامة مشروعات عدة، أظهرت العقود القديمة هذا، إذًا كيف يكون "بدير" مخادعًا، وهو من كان يمول كافة أعمال أبيه غير الناجحة؟ من المفترض أن يُطالب بدفع مستحقاته؛ لكن على العكس تحمل مغالطات والدته، واتهاماتها الباطلة له على مدار سنوات.

شعر بكسرة النفس، بألمٍ قاسٍ يحز في قلبه، جر ساقيه خارجًا من المنزل وهو يمسح دموعه لئلا يراه أحدهم فيظن السوء. لا يعرف كيف قاد سيارته إلى المستشفى، جلس منتظرًا رؤيتها بصدرٍ موجوع، وحزن لا يمكن شرحه، بدا انتظاره طويلاً لا نهاية له، لم يعرف كيف يبدأ معها؛ لكن لا فرار من المواجهة بينهما. دار بنظراته في الحديقة المورقة المتواجد بها، لم تساعده المناظر الخلابة

على تهدئة رأسه المشحون، كان فاقدًا لشعور السكينة، ومشبعًا بإحساس الألم، تحفز في مقعده، ونظر إليها في لومٍ عندما لمحها من على بعدٍ تسير ناحيته، جاءت إليه بصحبة إحدى الممرضات، أجلستها الأخيرة قبالته ليتحدثا معًا، وبقيت على مقربة منهما، حتى تتدخل عند استدعت الحاجة لذلك. اكتسب صوت "هيثم" ألمًا واضحًا عندما استطرد قائلاً:

-كويس إنهم سمحوا بالزيارة المرادي يامه.

بدت غير مهتمة بما يقول، ونظرت له باستخفافٍ غير مبالٍ، بالكاد ضبط نبرته، وحجَّم من انفعالاته وهو يخبرها:

-مكونتش هاقدر أكتم في نفسي.

تنفس بعمقٍ، ونظر إليها مليًا قبل أن ينطق بأنفاسٍ لم تكن منتظمة:

-مش أنا عرفت خلاص اللي موجود تحت البلاطة.

جحظت "بثينة" بعينيها مذهولة، وأدرك حينها أنها فهمت ما يرمي إليه. رفع الحقيبة الصغيرة المسنودة إلى جوار مقعده البلاستيكي ليضعها على الطاولة أمامها، فتح سحابها بأصابع متعصبة، وأخرج منها النقود والمشغولات الذهبية ملقيًا إياهم قبالتها وهو يردد في حرقةٍ:

-دول كانوا أهم عندك مني أنا وأختي.

ارتكزت كامل نظراتها عليهم، بل وامتدت يداها لتتحسسهم، شعر "هيثم" بالمزيد من الغضب الممزوج بالاستياء منها، حدجها بنظرة لائمة وهو يعنفها:

-عيشتينا في كدب وضلال، وكل ده عشان تكنزي فلوس على أد ما تقدري، ومش مهم احنا يجرالنا إيه، الفلوس أهم عندك.

ارتفعت نبرته الحانقة نوعًا ما وهو يتابع هجومه عليها:

-سنين فاكر إن احنا اتنصب علينا، بس الورق اللي قريته، والحقيقة اللي عرفتها أكدتلي إنك مش على حق!

اختنق صوته مع إكماله:

-ورغم كده محدش لامك، سابوكي تتهمي، وتدعي بالباطل إن أبويا اتاخد حقه، وأهي حجة عشان تبرري بيها اللي بتعمليه، وتغرسي جوانا الشر والحقد.

تجمعت العبرات في عينيه، وأصبح صوته أكثر حدية عندما هتف بها:

-وطبعًا "خلود" كانت أول ضحية ليكي...

رأى "هيثم" في عينيها وهج الذهب، وطمع المال جليًا، لم تكن معه بذهنها، ولم تعبأ بصياحه المعاتب، تخيل أن لعابها يسيل وهي تأكل بعينيها قبل يديها ما يملأ الطاولة، هب واقفًا ليهاجمها مرة أخرى بعصبيةٍ جعلت الممرضة تنهض من مكانها في وضع تحفزٍ مستريب:

-يا ترى الفلوس دي هترجعها من قبرها؟ ولا جايز هتخلي لسانك يتعدل؟

جمع ما استعرضه قبالتها وسط نوبة من الصراخ غير المفهوم منها، اختطف ما حاولت الاحتفاظ به عنوة، وواصل لومه الشديد لها:

-ظلمتينا يامه بطمعك، ومحدش دفع التمن دلوقتي إلا احنا.

اهتاجت "بثينة" وِاربدت قسماتها بعلامات الغضب الحاقدة، تهجمت عليه، ونبشت أظافرها في وجهه غيظًا من تصرفه، تفاجأ من جحودها، من تحجر مشاعرها؛ لكنه تماسك أمام صدمته، نجح في إبعادها عنه، وفي الاحتفاظ بمحتويات الحقيبة دون أن ينقص منها شيء. على الفور تدخلت الممرضة لمساعدته، ومع هذا لم تتمكن من تقييد حركتها. أولى "هيثم" ظهره لوالدته، وأخبرها بعزمٍ حاسم وهو يعلق الحقيبة على كتفه:

-الفلوس دي هرجعها لأصحابها.

نجحت "بثينة" في الإفلات من الممرضة، وانقضت على ظهر تضربه بعنفٍ وقسوة، مما جعله يرتد للأمام، بالكاد منع نفسه من الانكفاء على وجهه، واستدار ليواجهها، فأطبقت بكلتا قبضتيها على عنقه في غضبٍ أشد تريد خنقه، صرخت الممرضة عاليًا طالبة للمساعدة الفورية، فجاءت إليها وبدأوا في تخليصه منها. هتف "هيثم" عاليًا في صوتٍ متألم:

-إنتي خسرتيني يامه بطمعك.

لم تكف والدته عن الصراخ الهائج طوال سحبها للداخل، ونظرات "هيثم" تتبعها في حسرةٍ وألم، نكس رأسه في خزي معترفًا لنفسه:

-أنا مُت من وقت ما عرفت سرك.

تسللت الدموع الحارقة إلى عينيه، ولم يقاوم انسيابها، بل تركها تنهمر على وجهه ولسانه يردد في انكسارٍ:

-ليه ظلمتينا يامه؟ ليه ............................... ؟!!!

........................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل مائة واثنا عشر

رغمًا عنها تركت توأمتها مضطرة، دون أن تنتظر حتى مجيء والدتها للمكوث معها، وعادت على الفور إلى منزلها، عقب تلقيها لمكالمة زوجها المريبة، دق قلبها خوفًا عليه، فصوته لم يكن مُبشرًا بالخير، وصدق حدسها حينما رأت ملامحه الحزينة العابسة في غرفة نومهما. دنت "همسة" منه، وألقت نظرة أكثر دقة عليه، كان شاردًا، متهدل الكتفين، هتفت متسائلة في توترٍ:

-مالك يا حبيبي؟ قلقتني لما قولتلي أرجع البيت، فيك حاجة؟

رفع "هيثم" عينيه الحمراوتين إليها، ولم يجبها، زاد قلقها ناحيته، بلعت ريقها، وجلست على طرف الفراش إلى جواره متابعة تخمينها:

-إنت شكلك كمان متغير أوي.

دون مقدماتٍ مال عليها طامعًا في احتوائها له وهو يخبرها:

-تعبان أوي يا "همسة"، خديني في حضنك.

لم تتردد في ضمه إلى صدرها، مسحت بحنوٍ على ظهره، حاولت أن تسيطر على مخاوفها المنتشرة في عقلها، وسألته بصوتٍ شبه مهتز:

-حصل إيه؟ طمني.

انفجر باكيًا في أحضانها، وألقى برأسه على كتفها مما أوغر صدرها أكثر، استمرت "همسة" في المسح على رأسه وظهره بعاطفةٍ حانية، ورجته قائلة:

-طب إهدى، مافيش حاجة إن شاء الله.

ارتفعت نهنهات بكائه، فواصلت التأكيد عليه بقلبٍ واجل:

-كله هيعدي، متقلقش يا حبيبي.

استمر كلاهما على تلك الوضعية لما يزيد عن الدقيقة، و"همسة" لم تضغط عليه للخروج منه بمعلومة مفيدة تشبع فضولها الحائر، بل على العكس أفصحت له بإصرارٍ:

-أنا هبات هنا النهاردة معاك، هكلم ماما وأعرفها بكده عشان تفضل مع "فيروزة"، مش هاسيبك في الحالة دي.

كفكف "هيثم" عبراته، وتراجع عن زوجته ليستلقي على الفراش قائلاً بصوته المنتحب:

-أنا عايز أنام.

نهض من مكانها، وسحبت الغطاء عليه لتدثره وهي ما تزال تحنو عليه قائلة:

-طيب، افرد ضهرك.

ظلت واقفة للحظات تراقبه في صمتٍ، ولم تكف عن تمسيد رأسه براحة يدها إلى أن غرق في سباتٍ مريب، أبعدت عينيها عنه متسائلة مع نفسها بتوجسٍ:

-إيه اللي حصلك بس يا "هيثم"؟

.....................................................................

الظهور في وضح النهار لم يكن محبذًا له، لكون آثار الندوب المحفورة على وجهه بائنة كقرص الشمس في كبد السماء، لذا آثر التجول في بلدته قبيل المساء، محاولاً نشر شائعة تعرضه لمحاولة سرقة عن عمد كادت تودي بحياته، لولا العناية الإلهية. آمل "فضل" أن تنطلي أكاذيبه على السذج، وتلعب الألسنة دورها في تضخيم الأحداث، ليغدو بطلاً مغوارًا في أعين الجميع؛ وإن كان بالكذب.

لوح بيده مرحبًا بأحدهم وهو يطئ بقدميه المقهى الشعبي المتواجد على أطراف البلدة، اتجه نحو المصطبة الخشبية الموجودة عند أحد أركانه، حيث اعتاد الجلوس عليها، واتخذ مكانه بها، ثم نادى على أحد الفتيان ليأتي له بالنارجيلة ومعها قطع الفحم ليزيد من وهج الدخان وهو يملأ به رئتيه، جلس أمامه أحد معارفه، واستطرد حديثه معه قائلاً:

-بقالك كتير ماجتش القهوة يا "فضل".

أجابه بإباءٍ سخيف، وهو يطرد الدخان في الهواء:

-مشاغل.

مال الرجل بجذعه للأمام ليسأله في تطفلٍ، وعيناه مثبتتان عليه:

-صحيح اللي سمعناه، في جماعة طلعوا عليك بهدلوك؟

استرخى في جلسته، ورفع ساقه للأعلى، ليخبره بزهو مبالغ فيه:

-دول حرامية ولاد (...)، زي ما تقول كانوا حاطين عينهم عليا، خادوني غدر بعد ما استلمت فلوس الاتفاق على الزرعة الجديدة.

قال الرجل في أسفٍ:

-البلد معدتش فيها أمان.

أيده مومئًا برأسه وهو يسحب نفسًا عميقًا، فأضاف آخر معلقًا عليه وهو يتفحص ندوبه الغائرة قبل أن يجلس على يساره:

-بس دول جوم عليك جامد.

غامت تعابيره وهو يرد بقليلٍ من العصبية:

-هو أنا سكتلهم؟ ده أنا طحنت فيهم لحد ما اتكاتروا عليا، وإنتو عارفين الكترة تغلب الشجاعة.

اتفق معه الرجل الأول قائلاً:

-إيوه صح.

نطق الآخر قائلاً بما بدا له شماتة:

-بس وشك اتبهدل خالص، العلامات اللي فيه مش هاتروح.

رغم استيائه من طريقته اللزجة إلا أنه رد ببرودٍ:

-هعمل إيه بقى .. الحمدلله إني لسه عايش، كنت هاسيب أبويا وأمي لمين؟

هتف الأول منهيًا هذا الحوار:

-فضنا من السيرة دي، وخلونا نشرب شاي في الخمسينة.

نادى الرجل على عامل المقهى ليأتي له بثلاثة أكوابٍ من الشاي، والتفت يسأل "فضل" بتطفلٍ غير مقبول:

-ألا صحيح موضوع جماعتك ده بجد؟

تحفز الأخير في جلسته متسائلاً بعدم فهمٍ:

-جماعتي مين؟

أجابه بإشارة ضمنية من عينه:

-أم عيالك يا جدع.

اكفهرت تعابير "فضل" بشدة، والرجل يختتم جملته:

-ده الناس بيقولوا هتتجوز قريب.

هتف في حقدٍ مضاعف:

-الولية الفقر دي؟ إياكش تغور في 60 داهية، ده أنا ربنا بيحبني ونجدني منها.

استرعى فضولهم بافترائه الباطل، فبادر أحدهم متسائلاً:

-يا ساتر، ليه كده؟

استدار برأسه ناحيته، وأجابه مسترسلاً في الكذب:

-دي ولية ماتعرفش ريحة النضافة، غلبت معاها بالحُسنى والكلمة الطيبة، مافيش، يا ستي يهديكي يرضيكي أبدًا، ده غير لسانها الزفر، أعوذُ بالله.

احتج الرجل على لسانه السليط، وقال متنحنحًا:

-لأ متقولش كده، مهما كان دي أم عيالك وآ ....

قاطعه بتشنجٍ:

-خلوني مكتوم وساكت، وربنا ده اللي هياخدها ما هيطقها دقيقة.

لامه الرجل الآخر في تبرمٍ:

-عيب يا جدع.

غمغم "فضل" قائلاً بسخط:

-اللي مايعرفش يقول عدس.

واستمر على تلك الحالة يلقي بالتهم جزافًا على زوجته إلى أن ضجر أحد الجالسين على مقربة منه مما يقول، ثارت حميته، وانتفض يوبخه بتعصبٍ:

-إيه يا عم "فضل"؟ مايصحش اللي بتقوله ده .. ده إنت بتخوض في الأعراض.

زجره في برودٍ:

-ملكش دعوة.

هدر الرجل به مهددًا بتشنجٍ أكبر وهو يلوح بذراعه:

-لأ ليا، ولو غلطت هنضارب فيها.

رمقه "فضل" بنظراتٍ شمولية كانت مستخفة في البداية، وبحسبة عقلية أدرك أن فارق القوى الجسمانية لصالح هذا الرجل، فأشاح بوجهه بعيدًا عنه، وقال بفمٍ ملتوٍ في امتعاضٍ:

-روح الله يسهلك، مش ناقصة غباء.

توعده الرجل بنديةٍ واضحة:

-ماشي، ماترجعش تزعل من اللي هيحصل فيك.

ثم قذف بقدمه الكرسي الخشبي ليرتد على الأرضية في ارتطامٍ عنيف جعل الأنظار كلها تتجه إليهما، قبل أن يترك المقهى ويغادره، تبادل بعدها "فضل" نظرات حذره مع رفيقيه، وقال وهو يضع خرطوم النرجيلة في فمه:

-واحد فاضي، أنا عارف محموء على إيه، دي فردة قديمة قلعتها من رجلي.

شجعه الرجل الأول على مواصلة الحديث عن طليقته قائلاً بخبث:

-سيبك منه، وكمل.

لم يعبأ بالتهديد الذي تلقاه، واستمر في تلفيق حكاياته الكاذبة عنها، كأنما ينفس عن غيظه منها بهذا الأسلوب المتواضع والدنيء.

..............................................................

وقفت مرتكنة بظهرها على الحافة الخشبية وهي تكتف ساعديها معًا لبعض الوقت تراقب شقيقها في هدوءٍ، وتلك الابتسامة اللطيفة على محياها، تطلع "تميم" عبر شرفته للفضاء الفسيح أمامه، لم يشعر بوجود "هاجر" حوله، بدا لها وكأنه يسرح في ملكوت خاص به، توقعت أن تكون (هي) سبب شروده، بالرغم من عدم مشاركته لها عن مكنونات صدره تجاه إحداهن؛ لكن كأنثى أنبئها حدسها بهذا، حمحمت بصوت مرتفع لتخرجه من عالمه الخيالي، فانتصب في وقفته، واستدار ناظرًا إليها. خطت نحوه مقترحة عليه بوجهٍ مبتسم:

-أعملك حاجة ياخويا تشربها؟

رد نافيًا بتهذيب وهو يرفع كوب شايه الفارغ:

-لأ، كله تمام.

وقفت إلى جواره، واستندت بمرفقيها على الحافة الحديدية قائلة له بغموضٍ:

-طب بأقولك إيه، كنت عايزة أروح معاك في مشوار كده.

ركز بصره عليها متسائلاً بنبرة مهتمة:

-مشوار إيه ده؟

بادلته نظرة طويلة ذات مغزى قبل أن تخبره ببسمة ماكرة:

-عايزة أزور "فيروزة".

لم تتوقع ردة فعله عندما تبدلت ملامحه المسترخية للتوتر والخوف، بل وملاحقته لها بأسئلته المذعورة:

-ليه؟ حصلها حاجة وحشة؟ أمها اتصلت وعرفتكم بده؟ هي مش كانت كويسة؟

قطبت جبينها في دهشة، فصاح بصبرٍ نافذ:

-ما تكلمي يا "هاجر".

حافظت على نعومة بسمتها وهي ترد:

-لأ، هي بخير.

تنفس الصعداء، ولفظ الهواء بصوتٍ مسموع، فتابعت قائلة بعبثيةٍ:

-متقلقش أوي كده يا سيد المعلمين.

مرر يده على رأسه، ووضعها خلف مؤخرة عنقه مبررًا لهفته بتلعثمٍ مكشوف:

-ده .. أنا آ...

هتفت ضاحكة في استمتاعٍ:

-خلاص يا خويا، دي كل الحكاية إني كنت عايزة أشوفها شوية، وأقعد معاها، يعني تحس إن في حد بيسأل عنها.

رؤياها تعني نقل جوارحه إلى أسمى مناطق العشق، كما لو كان كاهنًا يتعبد بصلوات إخلاصه في محراب جمالها الآخاذ، هز رأسه بإيماءاتٍ صغيرة متعاقبة، فسألته بعينين لئيمتين:

-ها قولت إيه؟

حاول أن يبدو جامد التعبيرات وهو يرد:

-ماشي .. شوفي إنتي عايزة تروحي إمتى.

بقيت أنظارها عليه مبدية تمتعها برؤية تخبطه اللذيذ قبل أن تمنحه جوابها:

-على بكرة بأمر الله.

خفق ما كان ساكنًا بنبضاتٍ واثبة، ترجو بتلهفٍ راغب، انقضاء ساعات الليل في لمح البصر، ليجمعه بها لقاء جديد لطالما انتظر حدوثه. تنحنح "تميم" قائلاً بلهجةٍ ظهرت غير جادة:

-طيب.

ربتت "هاجر" على جانب ذراعه تشجعه بغمزة من طرفها:

-فضي نفسك بقى.

أدار رأسه مجددًا ناحيتها، وبادلها ابتسامة متحمسة لم يقاوم إخفائها على شفتيه، ثم قال:

-حاضر.

انصرفت شقيقته من الشرفة، وبقي في أوج ترقبه، لخفقةٍ بعينها، لا تصيب القلب إلا في وجودها!

.................................................................

ضبطت من وضعية الملاءة، وجذبت أطرافها لتصبح متساوية عند الجانبين وهي تطلع توأمتها على تبعات زيارة زوجها لوالدته في المشفى النفسي- لم تكن ملمة بعد بالتفاصيل الدقيقة؛ لكنها توقعت أن حالة الاستياء العظيمة التي نالت منه تعود للقائه بها. تنهدت "همسة" قائلة بنهجانٍ خفيف:

-الحمدلله إنها جت على أد كده، بس صعبان عليا أوي، مش ملاحق المصايب اللي فوق دماغه.

جلست على المقعد مريحة ظهرها، وأضافت وهي تمسح حبات العرق عن جبينها:

-ربنا يعدل حالنا جميعًا.

أصابها النشاط فجأة وهي تستطرد:

-صحيح أما في خبر بمليون جنية لازمًا تعرفيه.

نظرت إليها "فيروزة" في عدم اكتراثٍ؛ لكن توأمتها نهضت من مكانها لتجلس على طرف الفراش، وأخبرتها بنوعٍ من التشفي:

-المفترية مرات خالك، اتحول ورق قضيتها للمفتي، لسه عارفة بالخبر ده، يعني طازة.

وعلى غير المعتاد راق ما سمعته لها، وانعكس هذا في بسمة باهتة زحفت إلى شفتيها. تكلمت شقيقتها قائلة:

-إن شاءالله تاخد جزائها، وربنا يعين ماما على تربية "رقية"، ما هو أكيد خالنا مش هايقدر على كده لوحده.

لوهلة كسا الحزن وجه "همسة"، وبدا مقروءًا في عينيها كذلك عندما قالت برجاءٍ:

-نفسي أوي يا "فيرو" تردي عليا زي زمان، مفتقدة كلامك معايا جدًا.

استعدادها لمشاركة غيرها الحوار كان وشيكًا؛ لكنها ما زالت تفتقد ما يستحثها على تنفيذ هذا، منحت "فيروزة" توأمتها ابتسامة متفهمة، فبرزت أسنانها جراء بسمتها العريضة والمسرورة لتجاوبها البسيط معها، تلقائيًا قامت من مكانها لتحتضنها وهي تخبرها:

-ربنا يخليكي ليا.

.................................................

بتوترٍ لا يمكن إنكاره فرك "تميم" كفي يده معًا، محاولاً كبح التخبط المستبد بكيانه الآن، وهو يتجاوز الردهة الطويلة متجهًا إلى حجرتها بالمشفى، لم يكن من المنطقي أن يكون على تلك الحالة الغريبة، وهو من يهاب غضبته أشد الرجال خشونة! بدا ما يجابهه ملحوظًا لشقيقته، فسألته في استغرابٍ:

-مالك قلقان كده ليه؟

قال على عجالةٍ:

-أنا عادي على فكرة.

قبضت "هاجر" على ذراعه، وضغطت بيدها برفقٍ عليه وهي تؤكد عليه بلطفٍ:

-دي زيارة يا "تميم".

بنفس الملامح المرتبكة علق عليها:

-أيوه .. مظبوط.

وصل الاثنان عند باب غرفتها، وهناك تصاعدت دقات قلبه كقرع طبول الحرب، رعشة متحمسة سيطرت عليه، تنفس بعمقٍ لعدة مرات ليضبط من انفعاله، التفت ناحية شقيقته يسألها وهو يعدل من ياقتي قميصه الأزرق الجديد:

-شكلي كويس؟

أجابت بابتسامة ماكرة:

-عريس.

حذرها بتوترٍ:

-"هاجر"!

كتمت ضحكتها قائلة بجدية زائفة:

-حاضر يا خويا، يالا بينا.

لم تمنحه فرصة للاستعداد لهذا اللقاء المشوق، حيث دقت على الباب مستأذنة بالدخول، فتضاعف حماسه كثيرًا، سبقته في خطواتها مُلقية بالتحية:

-السلام عليكم.

ردت عليها "همسة" بترحابٍ:

-وعليكم السلام، يا أهلاً وسهلاً، في ميعادكم مظبوط.

أردفت "هاجر" متسائلة بشكلٍ روتيني:

-إزيك يا "همسة"؟ عاملة إيه؟

أجابتها بعد زفيرٍ متعب:

-الحمدلله في نعمة.

تجاوزتها لتقف أمام فراش شقيقتها، وسألتها بوجهها البشوش:

-أخبارك إيه يا "فيروزة"؟ أنا جاية مع أخويا عشان نشوفك النهاردة ونطمن عليكي.

مع كلماتها الأخيرة استدارت برأسها نصف استدارة لتشير إلى وجوده خلفها، فضاقت عينا "فيروزة" ناحيتها باندهاشٍ، على ما يبدو لم تكن على علمٍ بمجيئه مسبقًا، أو ربما أخبرتها توأمتها خلال شرودها المتكرر بهذا ولم تنتبه لها. انتشلتها من تفكيرها التخميني قول "هاجر" المتفائل:

-بس بسم الله ما شاء الله، وشك منور، لأ ولسه، لما ترجعي بيتك، هتبقي أحسن.

في الخلف سعى "تميم" لمقاومة مشاعره المعاتبة لعدم جراءته على اتخاذ أي خطوة واللحاق بشقيقته، حيث تجمد في مكانه، والتردد متمكن منه، انتاب عقله هاجسًا مخيفًا من احتمالية رفضها لتواجده، فتراجع في رهبةٍ، والشحوب يزحف على بشرته، كور قبضته مخاطبًا نفسه:

-إنتي أكتر حاجة اتمنيت تحصلي، وخايف أكون خسرتك، وأنا ماليش ذنب غير إني حبيتك وبس.

نداء "هاجر" له جعل جسده ينتفض، فانحلت عقدة قدميه، وانزلق سائرًا للداخل، ليجد بهاءً فطريًا ما زال بانتظاره. قابلت عيناه الدافئتين وجهها الهادئ، فانطلقت شرارات الحب في حدقتيه لتغدو أكثر عمقًا وحبًا، تقدم دون ترددٍ من فراشها، فالروح اشتاقت لساكنها. وقف "تميم" أمامها محدقًا بها بنظرات مطولة، تاركًا للغته غير المنطوقة الفرصة للبوح بما يمتنع اللسان عن النطق به حاليًا.

شهدت "هاجر" بأم عينيها ما لم تكن لتصدقه عنه، شقيقها يعشق بحق! لمعت نظراتها بفرحةٍ لفرحته، وطلبت منه بجدية:

-حط الشنطة عندك يا "تميم".

قال بارتباكٍ:

-طيب.

ثم أسند ما ابتاعه من عصائر وحلوى على المنضدة المجاورة للفراش، حاولت "هاجر" من تلقاء نفسها خلق فرصة طيبة لشقيقها للانفراد بمعشوقته دون مقاطعة، فاستدارت نحو "همسة" تسألها:

-بالحق يا "همسة"، هو إنتي كنتي خدتي حقنة التيتانوس؟

أجابت الأخيرة نافية:

-لأ لسه.

سألتها من جديد باهتمامٍ مفتعل:

-دكتورك قال إمتى؟

حكت "همسة" جبينها قائلة:

-مسألتوش.

جذبتها "هاجر" من ذراعها برفقٍ نحو النافذة وهي تخبرها:

-طب تعالي أما أقولك شوية نصايح على جمبك عشان تفيدك الفترة الجاية.

تحمست لاقتراحها، فقالت مرحبة وهي تسير معها:

-يا ريت.

كان ممتنًا بشدة لما حدث؛ وإن كان يشك في نوايا شقيقته؛ لكنها أعطته مساحة من الخصوصية. جلس "تميم" على المقعد، ليبدو في مستوى نظرها، بلع ريقه الجاف في حلقه، واستطرد يسألها بصوتٍ خافت:

-إيه أخبارك؟

ابتسم متابعًا بنفس النبرة الخفيضة، وهو يشير بنظراته نحو "هاجر":

-أختي رغاية حبتين، بس طيبة والله، ومابتنشلش في نفسها.

أطل شغف متعاظم من عينيه وهو يتطلع إليها عن قربٍ، بدت بهية رغم تعبها، مثيرة للحب رغم جمودها، شاع المرح في قسماته وهو يتنحنح مرددًا بربكةٍ حرجة:

-احم .. جدي كان قالي إنه جه زارك، هو أصله بيحبك أوي ...

تحاشي النظر إليها وهو يتم باقي كلامه:

-الصراحة كل العيلة عندي بتحبك وبتعزك جدًا.

لم يطمع في أكثر من هذا؛ لكن ابتسم الحظ له، وبسطت "فيروزة" كفها المحتضن لميداليته، فاتسعت عيناه مذهولاً، وتضاعفت دهشته مع همسها المقتضب:

-ليه؟

باغتته بسؤالها، فقد كان يعلم جيدًا أنها عازفة عن الكلام بإرادتها، أحس بخفقةٍ تعصف بصدره، بقلبه يقاتل للتحرر من ضلوعه، وبغزو الأدرينالين المتحمس لكامل عروقه. ظلت نظراتها الحائرة مسلطة عليه، ازدرد ريقه، وعمق من نظرته ناحيتها وهو يجيبها بنبرة ما زالت خافتة:

-عشانه شبهك ...

رفعت حاجبها للأعلى في اهتمامٍ، فأسبل عينيه مكملاً بتنهيدة، وتلك البسمة النضرة تزين ثغره:

-ده غير إنه .. بيفكرني بحد شجاع أوي، زمان رمى نفسه في النار عشان ينقذ غيره، رغم إنه مكانش يربطه بيه حاجة.

ودَّ لو احتضن كفها في تلك اللحظة، وأطبق على أناملها المحتوية لهديته، لتشعر بصدق وعده وهو يخبرها:

-أنا عايزك متخافيش، أنا جمبك، ولو وقعتي اتسندي عليا ..

تدارك سريعًا زلة لسانه –المقصودة تلك المرة- مصححًا:

-يعني علينا كلنا عشان تقفي، احنا أمانك وضهرك، احنا موجودين عشانك.

للمرة الأولى، بعد معاناتها الأليمة، منحته شفتاها بسمة صغيرة سرعان ما سحبتها بعد ثوانٍ؛ لكنها جعلته ينطلق ويحلق في الأفق الفسيح من شدة فرحته، اتسعت ابتسامته حتى برزت نواجذه، وسألها مازحًا وهو يقفز من على المقعد بسعادة مثيرة للشكوك:

-تاخدي عصير؟

أخرج من الكيس البلاستيكي علبة كرتونية، ناولها إياها وهو يقول:

-ده تفاح ...

لم ترفضها منه، فأصبح أكثر حماسًا بالتطور المشوق الذي أحرزته، جلس مجددًا وردد بمزاحٍ:

-صحيح مش زي الفاخر اللي يستاهلك، بس أهوو حاجة حلوة تبلي بيها ريقك.

انطلقت طاقة فياضة من المشاعر الصادقة في تلك اللحظة، عجز عن كبحها، أو حتى إعادتها إلى مهدها، ولسانه يتحرك ليعترف لها دون احترازٍ:

-صوتك وحشني ......................................!!!

........................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل مائة وثلاثة عشر

أسكرته النظرات الساهدة من جوهرتيها، فغار القلب من فطرة جمالها، وجعل اللسان الأحرف تتشكل بمعسول عباراتها، لتنطق عفويًا بما يعمر الروح الخاوية. لم يبدُ "تميم" نادمًا على تصريحه النزق، كان يعني كل ما عبر عنه بمختصر الكلام ويفيض عنه أضعافًا، تطلعت إليه "فيروزة" بعينين تضيقان في حيرة، لم تحتج على ما سمعته، ولم تستاء منه، بدت وكأنها استمدت طاقة خفية من مشاعره النقية. لسعادته أعطته بسمة أخرى أقل في مدتها؛ لكنها أرق في نعومتها.

كاد يرقص فرحةً وهو جالس قبالتها، تحول في غمضة عين لطفل صغير فاز لتوه بتذكرة مجانية لمدينة الملاهي، حمحم يسألها وهو يشير نحو علبة العصير الممسكة بها:

-تحبي أفتحهالك؟

أخفضت نظراتها تلقائيًا نحو العلبة، وعادت لتحدق فيه بترددٍ، فأصر مشيرًا بيده، وللغرابة لم تمانع إعادتها إليه ليفتحها لها! ابتسامة عريضة ممتزجة بحماسٍ ووله طغت على كامل قسماته، انتفض مع لمسة غير مقصودة من أناملها وهو يناولها إياها مجددًا؛ كأنما لامس جسده تيارًا كهربيًا، مع فارق أنه من النوع المنعش للحواس.

نظرات خاطفة بين الحين والآخر سددتها لهما "هاجر"، كذلك كانت تتعمد إطالة الوقت مع "همسة" في الحديث عن مواضيعٍ شتى، لتلهيها عن توأمتها،

علَّ شقيقها يحظى بفرصة طيبة مع من أنسته الأحزان، وأوجدت الآمال.

تحولت كافة الأنظار نحو باب الغرفة عندما أطل منه الطبيب وهو يلقي التحية:

-مساء النور.

تحركت "همسة" لتستقبله قائلة:

-مساء الخير، اتفضل يا دكتور.

اضطر "تميم" آسفًا أن ينهض من مكانه، ويتراجع بعيدًا عند الزاوية، ليمنح الطبيب المساحة للقيام بفحصه الروتيني لمريضته، خفق قلبه سرورًا عندما سمعه يردد في رضا:

-عال أوي، أنا شايف في تحسن كبير، يعني أقدر أقول إنه ممكن أكتبلك على خروج النهاردة.

هللت "همسة" في سعادة شديدة:

-بجد يا دكتور؟ الله ده أحلى خبر.

ضحكت "هاجر" مضيفة بتلميحٍ شبه متوارٍ:

-ماشاء الله، باين وشك حلو عليها يا "تميم"...

ثم غمزت له بطرف عينها وهي تتم جملتها:

-مش كنا نعمل الزيارة دي من بدري؟

تحرج "تميم" من أسلوب شقيقته الملتوي في إظهار اهتمامه بـ "فيروزة" بهذا الشكل، وحاول ألا ينظر في اتجاه الأخيرة فلا يشعرها هي الأخرى بالحرج، وأولى ظهره للجميع، مدعيًا تطلعه للمشهد خارج النافذة. أضافت "همسة" بمزيدٍ من السرور:

-دي ماما هتفرح أوي لما تلاقيها داخلة عليها البيت.

ردت عليها "هاجر" تؤيدها:

-طبعًا، وإن شاء الله ترجع تنوره، هو البيت يبقاله حس من غير أصحابه؟

ثم ركزت أنظارها على "فيروزة" تسألها في خبثٍ:

-وعقبال ما تنوري دكانك يا حبيبتي كمان، ولا إيه؟

رغمًا عنه أدار "تميم" رأسه ليختلس النظرات نحو "فيروزة" من زاويته، أراد بشدة معرفة ردة فعلها، ولدهشته العظيمة أومأت برأسها إيجابًا فطرب القلب بعد جفاءٍ، وابتهج بعد كربٍ. تابعت "هاجر" قائلة بلؤمٍ، ونظراتها الماكرة تتجول تارةً على "تميم"، وتارة على معشوقته:

-احنا هنتسناكو عشان نوصلكم، مايصحش تاخدوا مواصلات واحنا هنا.

اعترضت عليها "همسة" بقليلٍ من الحرج:

-يعني هنتعبكم معانا وآ...

قاطعتها "هاجر" بإصرارٍ ودي:

-تعب إيه بس؟ ده احنا أهل وآ...

تعمدت النظر في اتجاه "تميم" وهي تختتم جملتها:

-حبايب.

برقت عيناه مصدومًا من تلميحاتها المتعمدة، وشعر بانكشاف أمره، فخفض رأسه حرجًا، محاولاً تخبئة ما يعتريه من توتر وربكة، بينما شكرتها "همسة" بامتنانٍ كبير:

-ربنا يخليكوا لينا.

تنحنح بعدها "تميم" قائلاً، وهو يتحاشى النظر نحو الجميع:

-احم .. أنا هاقف برا.. وخدوا راحتكم.

ردت عليه "هاجر" بضحكة لطيفة:

-خليك قريب يا خويا، عشان أما نناديلك.

رمقها بنظرة مزعوجة؛ لكنها لم تبالِ بتحذيره البائن فيها، كانت تريد بذل ما في وسعها لتمهيد الطريق إليه، وإن كان دون إرادته.

.....................................................................

وقف بالخارج في حالة جمعت بين أحاسيسٍ متنوعة: اللهفة، الشوق، السرور، الهيام، والحماس. لم ينكر "تميم" انزعاجه من تصرفات شقيقته الجريئة، والمناقضة لطبيعته المتحفظة بشأن ما يخص أموره الخاصة، حاول ردعها بنظراته،

وبملامحه المحذرة؛ لكنها تجاهلته لتثير في الأجواء ما لم يكن ليفعله بمفرده مُطلقًا، وجد نفسه يبتسم ببلاهة وهو يمسد بيده على رأسه، حين استعاد في مخيلته حواره اللطيف المفعم بالأمل والابتهاج مع "فيروزة"، شعر مرة أخرى باندفاع قلبه بين ضلوعه، بخيطٍ أصيل من الضوء يبدد الظلمة الكائنة في الروح، كل هذا جدد الأحلام في نفسه، فرفع بصره للسماء مناجيًا بتضرعٍ:

-يا رب قرب البعيد، يا رب ماتردش دعائي ليك.

لبرهةٍ تمسك باعتقاده بأنه أذاب جزءًا من الجليد الفاصل بينهما، وإذا استمر الوصال بينهما على ذلك الوضع، لربما رقَّ الفؤاد، وتذوق حلاوة الغرام. انخفضت عيناه نحو يده، تأمل أصابعه التي لامستها دون قصدٍ بنفس الملامح المتفائلة، احتضن كفه بالآخر، وأكد لنفسه بعد تنهيدة عاشقة:

-الإيد مش هتمسك واحدة غيرك.

.....................................................

بقلبٍ ما زال يئن في صمتٍ، أصر "هيثم" على اصطحاب زوج خالته، والجد "سلطان" إلى منزل أبويه، دون أن يمنح أيًا منهما التفسير وراء هذا الطلب المُلح. أوقف السيارة أمام مدخل البناية، وترجل منها بخطواتٍ أظهرت انكسارة نفسه، في حين تبادل "بدير" مع أبيه نظرات غريبة حائرة، واتجه ثلاثتهم للداخل. صعد "سلطان" الدرجات بتؤدةٍ تخفيفًا لآلام ركبتيه، وسأله قبيل بلوغه للطابق المتواجد به المنزل:

-خير يا واد، جايبنا هنا ليه؟

نظر له بخزيٍ وهو يجيبه:

-هتعرف دلوقتي يا جدي.

قال بلمحةٍ من السخرية:

-يا خبر بفلوس.

فتح "هيثم" باب المنزل، وأشار لهما بالدخول بعد إضاءة البهو، فردد "بدير" بصوتٍ خفيض موجهًا سؤاله لوالده:

-هو قالك حاجة يابا؟

أجابه نافيًا:

-لأ، العلم عند الله.

أجلسهما "هيثم" على الأريكة، وانسحب مغادرًا ليختفي بالداخل للحظاتٍ قبل أن يعود ومعه الحقيبة الجلدية، وضعها نصب أعينهما، فبادر "سلطان" متسائلاً بفضول:

-إيه دي؟

حرك السحاب ليكشف عن محتوياتها الغامضة، وأجاب وهو يقرب الحقيبة منهما بعد أن ظهر ما احتوته من أموال ومشغولات ذهبية:

-ده حقكم.

قطب "بدير" جبينه متسائلاً في دهشة:

-حقنا؟

خنق "هيثم" الغصة القاسية في حلقه، وأوضح لهما:

-أيوه، أنا عرفت كل حاجة خلاص، وفهمت إن أمي كانت عاملة حوارات كتير عشان تستغلكم وتسرق بفلوسكم على حِس إنه حق أبويا الله يرحمه.

تشدق الجد متسائلاً بوجهٍ غير مقروء التعبيرات:

-إنت لاقيت اللي تحت البلاطة؟

اتجهت أنظار "هيثم" إليه، بعد أن حل الذهول على ملامحه، وسأله مصدومًا:

-كنت عارف يا جدي؟

أومأ برأسه مقتضبًا:

-أيوه.

نخر الحزن في وجدانه، وقال بعنادٍ:

-أنا مش عايز الفلوس دي.

تبادل "بدير" مع أبيه نظرة غريبة، ذات دلالة ما، قبل أن ينطق بحسمٍ:

-ولا احنا يا ابني..

تفاجأ من رفضهما المريب، وزادت استرابته بإضافة "بدير" المتسائلة:

-هو إنت فكرك مكوناش فاهمين هي بتعمل إيه؟

أشار "سلطان" لابنه بالصمت قائلاً:

-استنى يا "بدير".

رد في طاعة:

-اتفضل يابا.

حملق "سلطان" في وجه "هيثم" المتجهم، وأخبره بتريثٍ:

-لما أمك كانت مفكرة نفسها بتستنصح علينا، كنا بنجاريها، بمزاجنا، مش علشانها، بس عشانكم إنتم...

تعقدت ملامحه أكثر والجد يواصل حديثه:

-إنتو تخصونا، ومش هنسمح لولاد "غريب" يتبهدلوا من بعده.

هتف متسائلاً بصوته المتألم:

-طب ليه سكتوا على كدبها؟

بعد زفيرٍ بطيء خاطبه دون أن يبعد نظراته عنه:

-احنا بنراعي الأمانة، أبوك الله يرحمه كان شايل قرشين معانا على جمب، مش قايلها عليهم، احنا دورناهم في السوق وشغلناهم بمعرفتنا، واللي كان بيطلع كنا بنديهولها وزيادة، أول كل شهر، من غير ما تعرف أصل الفلوس دي إيه،

مفكراها إحسان، بس الحقيقة غير كده، لأن أبوك وصانا مانجبش سيرة مهما حصل.

امتلأ وجهه بالمزيد من علامات الذهول، وتضاعفت كثيرًا مع إضافته للجملة الأخيرة:

-وكنت عارف إنها مخبية الفلوس تحت البلاطة.

تدلت شفته السفلى عن صدمةٍ أكبر، والجد ما زال يؤكد له:

-أيوه، ماتستغربش، ده سر أبوك ليا، "بدير" نفسه ما يعرفوش.

تراخت ساقا "هيثم" فجلس سريعًا على الأريكة ناظرًا إليه في عجزٍ ودهشة، حاول الجد تهوين ما يعانيه الآن، فخاطبه بلين الكلام:

-هاقولك على حاجة يا ابني...

لمعت عيناه بدموعِ الخذلان، مما جعل "بدير" يتعاطف معه كثيرًا، ويشفق على حاله البائس، بينما استمر "سلطان" في إخباره:

-شوف، الرزق ده بتاع ربنا، إنتو ليكم نصيب في حاجة، ربنا بيبعته ليكم عن طريقنا، فاحنا مش هنمنعه عشان زعلانين من أمك ولا من غيرها.

رد معترضًا بألمٍ:

-بس هي ظلمتكم جامد، وخليتنا غصب عنا نكرهكم.

تقوست شفتاه عن بسمة ساخطة أتبعها قوله:

-محدش بياخد أكتر من نصيبه، وأمك خدت نصيبها سواء من الكره، أو الفلوس.

هب "هيثم" واقفًا، وصاح برفضٍ قاطع:

-وأنا مش عايز الفلوس دي، جابت معاها الغل والحقد وآ...

قاطعه الجد بلهجةٍ ما زالت تحتفظ بهدوئها:

-ده حقك إنت والمرحومة أختك.

تمسك برفضه المعاند:

-بس ده آ...

قاطعه بصرامةٍ نسبية:

-بأقولك إيه سيبك من حكاوي الماضي، خليها مطرح ما هي، إنت دلوقتي راجل متجوز، ومراتك هتجيبلك بعد كام شهر عيل صغير، فالمفروض تفكر في مستقبله.

جلس مرة أخرى في مكانه، وقال وهو يحني رأسه على صدره:

-أنا عقلي مش فيا.

استطرد "بدير" هاتفًا بابتسامة متحمسة قليلاً:

-أقوله يابا على المفاجأة.

رفع بصره إليه، والحيرة تكسو تعبيراته المهمومة، بينما منحه الجد موافقته، فاستمر موضحًا:

-واحنا يا "هيثم" مش ناسينك.

زوى ما بين حاجبيه مرددًا:

-مش فاهم!

استقام في جلسته، وأخبره بصيغة متسائلة:

-عارف محل "عادل" العجلاتي اللي بعدنا بناصيتين؟

هز رأسه إيجابًا وهو يجيبه:

-أه، ده مقفول بقاله زمن.

نطق بتعابيرٍ مبشرة:

-احنا كلمنا صاحب العمارة، وأجرناه باسمك.

هتف غير مصدقٍ، وقد اتسعت عيناه على الأخير:

-إيه؟

تلك المرة تكلم الجد في هدوءٍ:

-ماتستغربش، حوشنالك فلوس الكام شهر اللي فاتوا ودفعناهم خلو للمكان.

وأضاف عليه ابنه يحفزه:

-اتجدعن بقى عشان تشغله قبل ما تتلبخ في الولادة، وطلبات العيل.

أدمعت عيناه تأثرًا بصنيعهما الكبير، وقال في امتنانٍ شديد:

-أنا مش عارف أقولكم إيه؟!

ضحك الجد وهو يُمازحه:

-تقولنا اتفقولي مع التجار.

.........................................................

زغرودة أتبعتها بأخرى -في نفس قوتها وتعبيرها عن فرحتها العامرة- أطلقتها "آمنة" حينما رأت ابنتها تقف عند أعتاب باب المنزل، وإلى جوارها شقيقتها تحاوطها من كتفها، انسابت العبرات السعيدة من عينيها، وأخذتها في أحضانها مرددة بلهفةٍ:

-حمدلله على سلامتك يا "فيروزة"، نورتي البيت يا غالية.

شدت من ضمها لها، وظلت تمسح على ظهرها بحنوٍ أمومي مشتاق إليها. أقبلت على صوت زغاريدها المبتهجة الصغيرة "رقية"، فقفزت طربًا لرؤية ابنة عمتها، وركضت إليها تناديها:

-"فيروزة"!

انضم إليهن "خليل"، وحرك مقعده المدولب في اتجاه الباب محاولاً الترحيب بها أيضًا، فقال بصوتٍ لا يخلو من سعادته:

-البيـ..ت مكانــ..ش ليه حــ..س من غيــ..رك.

هتفت "همسة" قائلة وهي تمسح دموعها العالقة في أهدابها:

-طب خلونا ندخل، مش هنفضل واقفين على الباب كده.

ردت عليها والدتها بصوتٍ شبه متأثر:

-من فرحتنا يا "همسة" بأختك، الحمدلله إن ربنا نجاها من اللي كانت فيه...

ثم أحاطت ابنتها من كتفيها؛ كأنما تحميها من المخاطر المحدقة بها بتلك الطريقة البسيطة، وحثتها على التحرك معها قائلة:

-تعالي يا حبيبتي.

أوصلتها على مهلٍ إلى غرفتها، ووجهت كلامها إلى توأمتها وهي تزيح الغطاء لتهيئ لها الفراش حتى تستلقي عليه:

-بس مقولتيش إنكم جايين ليه؟

أجابتها مسترسلة:

-كله حصل في تكة يا ماما، الدكتور دخل شافها، وقالنا بقت أحسن، وهيكتبلها على خروج، والحمدلله إن "هاجر" وأخوها كانوا موجودين ساعتها، مارضيوش يسبونا لوحدنا، ووصلونا لحد هنا.

تأكدت "آمنة" من تمديد ابنتها لجسدها، وامتدحت حسن أخلاقهما بترديدها

-ناس جدعة، وكلها شهامة ...

ثم تحولت نبرتها للتوبيخ إلى حدٍ ما وهي تسأل "همسة":

-طب ما عزمتيش عليهم ليه يا فالحة يطلعوا؟

أخبرتها الأخيرة بصورة عفوية:

-عملت كده، بس هما مرضيوش خالص، يعني عايزين يسبونا على حريتنا.

زمت شفتيها معقبة عليها:

-ناس أصيلة، فعلاً عيلة تفتخري بمعرفتها.

وافقتها الرأي، وقالت:

-أه والله.

تأكدت "آمنة" من تغطية جسد "فيروزة"، بعد أن تقلبت على جانبها لتغفو قليلاً، وأشارت لابنتها الأخرى، وللصغيرة "رقية" بالانصراف، حتى لا يزعجاها، ثم أغلقت الباب من خلفهما، وأردفت متسائلة:

-صحيح جوزك عامل إيه دلوقتي؟

التفتت "همسة" ناظرة إليها وهي ترد:

-الحمدلله

سألتها بنبرة مهتمة:

-قالك على اللي مضايقه؟

هزت رأسها نافية وهي تجاوبها:

-لأ، وأنا بصراحة محاولتش أعرف.

علقت في استحسانٍ:

-سبيه، كده أحسن، هياخد وقته، وهتلاقيه يفضفضلك ...

اكتفت بتحريك رأسها كنوعٍ من التعبير عن استجابتها لنصيحتها، بينما تابعت "آمنة" توصيها:

-وإنتي من عندك شوية، لا تزعليه ولا تكسري بخاطره.

ردت مؤكدة لها:

-ربنا اللي عالم أنا بأعمل إيه معاه.

وضعت "آمنة" يدها على كتف ابنتها، وقالت بعد زفير بطيء:

-هو مالوش غيرك دلوقتي، واحنا مجربين الهم لما بيعشش جوا قلب الواحد.

ضمت شفتيها في أسفٍ، قبل أن ترد:

-معاكي حق يا ماما.

..............................................

-سامع الزغاريط؟

استخدمت "هاجر" تلك الكلمات في سؤال شقيقها، أثناء جلوسها معه في السيارة، كنوعٍ من تحفيزه بشكلٍ متوارٍ وسبر أغواره الكامنة، عله يحرك ساكنًا، ويعترف لها بما يخبئه في أعماقه، فتسعى بطريقتها لتمهيد الطريق له، بقيت كل نظراتها عليه، وأضافت بمكرٍ، وتلك البسمة العابثة على محياها:

-مش كنا طلعنا معاهم؟

استحثته كل ذرة في كيانه على الصعود معها، ومرافقتها حتى اللحظة الأخيرة؛ لكنه قاوم تلك الرغبة بكامل ما أوتي من عزمٍ، حاول أن يبدو غير مهتم، وأخبرها بوجهٍ جاد:

-بلاش نبقى رزلين يا "هاجر".

ضحكت قائلة في استمتاعٍ:

-عليا برضوه يا "تميم"؟ ده إنت تلاقيك آ....

قاطعها محذرًا بجمود جدي:

-"هـاجر"! مابحبش كده.

لم ترهبها نبرته، وحملقت فيه متسائلة بلؤمٍ:

-حب عيني في عينك؟

أدرك أنه لن يفلت من قبضتها الفضولية إن تابعت الضغط عليه بتلك الطريقة الأفعوانية، لذا أدار محرك السيارة، ولف المقود بكلتا يديه، ثم حرك رأسه بعيدًا عن أنظارها المراقبة له، ليقول بعدها بوجومٍ:

-لا عيني ولا رجلي، خليني أوصلك عشان أشوف شغلي.

استمرت في ضحكها المستمتع وهي ترد:

-ماشي، براحتك خالص يا خويا.

تنفس بعمقٍ، والتزم الصمت ساعيًا ألا يثير الشكوك، وإن كان متأكدًا أنها باتت على دراية بغرقه في بحور العشق حتى النخاع، وإن واصل إنكار هذا أمامها؛ لكنه بات على يقين كبير باقتراب مجيء هذا اليوم الذي يبصر فيه حبه النور، حينها ستزهر براعمه وتنضج على يد واحدة فقط، مملوكة لطاووسه النفيس .......................................... !!!

.......................................................

لجزء
لثلث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل المائة وأربعة عشر

(شرُّ الدمعِ ما ليس يُراق)، ترددت تلك الكلمات في رأسها طوال الليل بعد أن قرأتها على إحدى المواقع الالكترونية المهتمة بنشر أبيات الشعر، شعرت "فيروزة" وكأن هذا البيت الشعري يوصف حالها بشكلٍ أو بآخر، فقلما بكى على ما أصابها أحدهم بصدق، نادرًا ما وجدت تعاطفًا حقيقيًا من قريبٍ يُدعمها، دومًا كانت بمفردها، تسعى بصلابة للظهور بمظهر القوة والثبات، إلى أن تصدعت روحها، وتآكلت تدريجيًا، فأصبحت عاجزة عن الصمود، أوشكت على الانهيار، وكادت تستسلم لظلامٍ استدعته، لولاهم!

المدهش في الأمر أن آخر من استبعدت مؤازرتهم كانوا في الصفوف الأولى في كافة المواقف التي احتاجت فيها لهذا! وقفوا إلى جوارها دون كللٍ أو ملل، دون مذلة أو إشفاق، أرادوها قوية الشكيمة، صلبة الإرادة، غير متخاذلة القوى، وسعوا بشتى الطرق إلى إعادتها لما كانت عليه، وها هي الآن تشحذ طاقتها للنهوض بعد عثراتها القاسية.

بسطت "فيروزة" كفها من جديد، لتبرز الميدالية الفضية المخبأة بداخلها، حملقت فيها بنظرات طويلة يتخللها الحيرة والتفكير، تنهدت متسائلة مع نفسها:

-ليه بتعمل معايا كده؟

قليله الصادق مسَّ روحها حينما اعترف بنزقٍ أنه اشتاق لنبرتها، أغمضت عينيها، وأطبقت على راحتها محتضنة الميدالية من جديد، وهذا الصوت القوي يستاءل في عقلها:

-اشمعنى أنا ؟

ومض في مخيلتها ذكرى اكتشافها لمشابك الرأس ومنديلها الضائع، اعتصرت ذهنها عصرًا محاولة تفسير كيفية اقتنائه لهم، والسؤال الأهم الذي تفتش عن إجابته لماذا يحتفظ بخاصتها في غرفته؟ تجددت مخاوفها من احتمالية ظن زوجته السوء بها آنذاك، ولذا كانت تهاجمها بجنونٍ لكونها تعلم بأن تلك أشيائها، فهناك دليل مادي ملموس يُدينها؛ لكن عاد عقلها ليبرر لها، لماذا تشك بها تحديدًا دونًا عن بقية النساء؟ أليست أشيائها عادية شائعة الانتشار في الأسواق المحلية؟ لما الخوف إذًا ؟

توقفت "فيروزة" عن تفكيرها التحليلي حينما سمعت صرير الباب وهو يفتح بحذرٍ، لازمت الهدوء لتبدو مستغرقة في نومها الزائف، أحست بحركة أقدام خفيفة تدنو من فراشها، ثم شعرت بيدٍ تمسح بحنوٍ على صدغها، أرهفت السمع لصوت والدتها وهي تدعو لها بهمسها الدافئ:

-ربنا يبعد عنك أي شر، ويوقفلك ولاد الحلال.

انحنت عليها لتطبع قبلة صغيرة على جبينها، ثم انسحبت في هدوءٍ كما جاءت، بمجرد غلق الباب فتحت "فيروزة" عينيها، وأمنت على دعائها قائلة بصوتٍ خفيض للغاية:

-يا رب.

..................................................

بحركة شبه حذرة، شبَّ على قدميه محاولاً الارتفاع للأعلى قليلاً خلال وقوفه على الكرسي الخشبي المرتفع، ليبلغ المصباح المعلق في السقف، حتى يبدل لَمْبته المعطلة بأخرى تعمل. نجح "تميم" في تغييرها، وانحنى ليناول والدته غير الصالحة، راقبته "ونيسة" وهو يقوم بعمله في خفةٍ وإجادة، ثم أخبرته، وعيناها مثبتتان عليه:

-مش كنت خليتها للصبح أحسن؟ ده النهار له عينين

رد بتعابيرٍ جادة، ويداه تعملان على المصباح:

-ما أنا قاعد فاضي، ماورياش حاجة، والفجر قرب يأذن، هاصليه وأريحلي ساعتين.

دعت له برضا:

-ربنا يصلح حالك يا ابني ...

بدت مترددة نوعًا ما وهي تسأله:

-لو وقتك يسمح الأسبوع ده تبقى.. توديني عند أختي أطل عليها؟

أدار رأسه في اتجاهه، وخاطبها:

-شوفي امتى يامه، وأنا تحت أمرك.

تهللت أساريرها وهي تزيد من دعائها له:

-ربنا يراضيك يا حبيبي من وسع زي ما إنت مراضي الكل كده.

انضمت إليهما "هاجر"، وتأملت ما يفعله شقيقها بفضولٍ، ثم تساءلت بمزاحٍ ماكر:

-إنتو لسه سهرانين؟ إيه الفِكر شاغلك؟

خفض "تميم" من نظراته، وسلطها عليها، فوجدها تبتسم في لؤمٍ، بينما رددت والدتها مستنكرة:

-أعوذ بالله، هو ناقص حاجة تشغل باله؟

قال بهدوءٍ وهو يهبط عن المقعد:

-أنا زي الفل ...

ثم حدج شقيقته بنظرة حادة وهو يتابع:

-بس إنتي عارفة "هاجر"، بتحب تهزر.

حاصرته بسؤالٍ ماكر:

-طب إنت سهران ليه؟ أنا معروف عشان أنيم "سلطان"، إنت بقى بتعمل إيه؟

لم يحبذ تلك الطريقة في استجوابه، لذا بتعابيرٍ غير مسترخية أجابها:

-ولا حاجة، مش جايلي نوم.

غمزت له مكررة عليه نفس كلامها السابق؛ ولكن بابتسامة مستمتعة:

-من الفِكر برضوه ولا حاجة تانية؟

أشار لها بيده نحو باب غرفتها مراوغًا عن منحها ما تريد سماعه:

-شوفي ابنك بيعيط.

في حين وبختها والدتها بضيقٍ:

-مالك ومال أخوكي يا "هاجر"؟

ردت نافية:

-ولا حاجة يامه.

أنذرتها "ونيسة" بلهجةٍ متعصبة:

-ماتزهقيهوش.

ردت بتبرمٍ:

-حاضر، بس صحيح ...

بترت باقي جملتها عن عمدٍ حتى تقف أمام شقيقها، وسألته بنظرة ذات مغزى:

-مش ناوي تخلينا نفرح بيك بقى؟ يعني مش هتفضل قاعد كده لوحدك من غير ما حد يونسك.

تفاجأت "ونيسة" من كلامها، وشعرت بوجود شيء مريب، فتلميحاتها المتوارية مؤخرًا قد زادت عن الحد، رد عليها "تميم" ببرودٍ:

-لما نفرح بيكي الأول.

علقت بعد تنهيدة سريعة:

-أنا خدت نصيبي خلاص.

رفع حاجبه للأعلى معقبًا:

-ومين قالك كده؟

أخبرته بغصةٍ طفيفة:

-أنا عارفة نفسي.

استخدم نفس أسلوبها المراوغ في الحوار، وقال وهو يربت على كتفها:

-ربنا كرمه واسع، مش جايز يراضينا سوا؟ حد عارف هيحصل إيه بكرة.

قطبت جبينها في عدم اقتناعٍ، وتثاءبت قائلة:

-الله أعلم، أنا هاخش أنام، تصبحوا على خير.

ابتسم وهو يودعها:

-وإنتي من أهله.

سارت "ونيسة" خلف ابنتها بتكاسلٍ، ونصحته:

-خش افرد ضهرك الساعتين دول يا "تميم"، إنت يا حبة عيني مابترتحش طول اليوم.

أومأ برأسه قائلاً:

-حاضر.

ثم ودعته هي الأخرى ببسمة بشوشة:

-تصبح على خير يا عين أمك.

لوح لها بيده وهو يستدير في اتجاه غرفته:

-وإنتي من أهله يا ست الكل

أوصد "تميم" الباب من خلفه، لا شك أن النوم مؤخرًا لن يصبح رفيقه، فطيفها المبتسم كان يجبر إدراكه على التيقظ، أراح جسده على الفراش بعد أن استلقى عليه، ووسد ذراعيه خلف رأسه، ليحدق بشرودٍ في الفراغ؛ كأنما يشاهد شاشة عرض سينمائية، مستحضرًا في ذهنه، وقت تواجدها معه في السيارة، وكأنها ذكرى مهمة، تحتاج لطقوس خاصة، لمعايشة تفاصيلها المشوقة من جديد.

كانت "فيروزة" تجلس بالخلف، في حالة سكون، تعابيرها مسترخية؛ لكن ملامحها ما زال يغلفها آثار الإعياء، وحينما التقت عيناها التعيستين بنظراته الدافئة، عبر انعكاس المرآة التي ضبطها عليها، شعر بمشاعر صبيانية حماسية تتسلل إلى أعماقه المعتمة، فأنارت دربه، وملأته بالأمل والسعادة. كم تمنى أن يقف الزمن عند تلك اللحظة! أن يغمر قلبها المتعب بمحبة تزيل قساوة الحياة عنها، وعندما باعدت جوهرتيها عنه، لتتقوقع حول نفسها، أحس بحزنٍ يزحف

إليه، تنفس بعمقٍ، ثم أكد لنفسه عن يقين كبير قبل أن يطبق على جفنيه لينام، ووجهها يحتل خياله:

-هانت.

.........................................................................

أطلقت زفرة طويلة مرهقة وهي تستدير بعد غلق باب المنزل، لتضع عنها حقيبة كتفها، تكبدت اليوم عناءً مختلفًا؛ الإفراج عن جزءٍ آخر ضئيل من مكنونات صدرها المعبأ بأثقاله وهمومه، خلال جلستها مع الطبيبة النفسية؛ كان في زيارتها المنتظمة لها القليل من الارتياح، ومع هذا لا يزال الطريق شاقًا أمامها حتى يكتمل تعافيها. فرت دمعة حبيسة من عينيها مع استعادة ذكرى انتقاص "آسر" لأنوثتها، ذلك الجزء المخفي في أعماقها، لم تحبذ أبدًا التطرق إليها، تحاول تجاوز تلك المرحلة من تلقاء نفسها، ورغم ذلك لا تستطيع، فتلك عقبة قاسية تشعرها بالدونية وعدم الاكتمال.

امتدت يدها لتجفف أثرها قبل أن تلحظه والدتها التي جاءت، رفعت "فيروزة" رأسها في اتجاهها عندما سألتها باهتمامٍ:

-إيه الأخبار؟

حركت شفتيها لترد بإيجازٍ غامض:

-الحمدلله.

سألتها بفضولٍ أكبر وقد لاحظت الصينية المغطاة التي تحملها بيديها:

-الدكتورة دي كويسة معاكي؟

أومأت برأسها قائلة باقتضاب:

-أيوه.

اعتذرت منها "آمنة" بصدقٍ:

-والله لولا إن ميعادها جاي مع العلاج الطبيعي بتاع خالك كنت جيت معاكي، بس هاعمل إيه ماينفعش أسيبه لواحده، ولا حتى البت "كوكي".

قالت في تفهمٍ:

-مافيش مشكلة يا ماما.

انعكست بسمة صافية على وجه والدتها وهي تضيف:

-بس بسم الله ماشاءالله، عيني باردة عليكي، وشك ابتدى يرد، ويرجع زي الأول.

اكتفت بالإيماء برأسها، في حين هرولت "رقية" ناحيتها تسألها في صيغة طلبٍ بتعابيرها الطفولية اللطيفة:

-هتلعبي معايا يا "فيرو"؟

قبل أن تمنحها ردها، اعترضت عليها عمتها معللة تأجيل رغبتها:

-هي لسه جاية من برا وتعبانة، خلينا نتغدى الأول، وبعد كده هتفضالك.

ضمت شفتيها في تذمرٍ، وغمغمت بعبوسٍ:

-ماشي.

نهضت "فيروزة" من مكانها، وسألت والدتها باستغرابٍ طفيف:

-إنتي مودية الأكل ده فين؟

أجابتها بإشارة من رأسها:

-دول للعمال اللي تبع المعلم "بدير".

ضاقت عيناها في شكٍ، ثم سألتها مستوضحة:

-وإيه اللي جايبهم عندنا؟

رمشت "آمنة" بعينيها في ترددٍ قبل أن تسرد لها التفاصيل:

-ما هو من يوم ما حصل اللي حصل، وهو كتر خيره سايب اتنين عندنا، قاعدين على طول قريب من البيت، يعني عشان ياخدوا بالهم مننا، وأنا كل شوية بشأر عليهم، ووديلهم أكل ومياه واللي فيه النصيب.

ظهر الضيق على قسماتها، وبدا ذلك واضحًا أكثر عندما تكلمت محتجة:

-وليه كل ده؟ مالوش لازمة.

بحذرٍ أخبرتها:

-والله يا بنتي اتكلمت معاه كتير، بس هو مصمم.

كانت "فيروزة" فاقدة للرغبة في الجدال بعد ما تكبدته من استعادةٍ لمشاهدٍ لطالما استنزفت من قوى صمودها، همَّت بالتحرك نحو غرفتها؛ لكن والدتها استوقفتها بقولها:

-بالحق، الحاجة "ونيسة" اتصلت بيا، هاتيجي هي والجماعة بالليل عشان يطمنوا عليكي.

التفتت تنظر إليها في عدم رضا، وقالت:

-أنا بقيت أحسن، مكانش في داعي.

رغم معرفتها بعزوف ابنتها عن الالتقاء بأحدهم هذه الأيام، إلا أنها وجدت صعوبة في التهرب من تلك الزيارة، لذا بررت لها من جديد:

-هما ناس بتفهم في الأصول، اتحرجت أقولهم ماتجوش.

أولتها ظهرها وهي تعقب عليها باستسلامٍ ممتعض:

-خلاص يا ماما.

هتفت "آمنة" من ورائها مضيفة:

-طيب يا حبيبتي، خشي غيري هدومك، واغسلي وشك، عقبال ما أودي الأكل ده عشان ناكل كلنا سوا.

بتلقائية هزت رأسها، واقتضبت قائلة:

-طيب.

....................................

في أول الأمر، ضاق بتصرفات شقيقته المكشوفة؛ لكن بعد فترة اعتاد على تلك التلميحات المبطنة، كما لو كانت السبيل لتمهيد الطريق بين قلبين تذوقا الوجه القاسي للحياة. على مائدة الطعام، حيث اجتمعت الأسرة، لتناول الغذاء معًا، وتبادل الحوار عبر المستجد من الأحداث، بادرت "هاجر" مقترحة وهي تدس ملعقتها المليئة بالأرز في جوفها:

-ما تيجي توصلنا يا "تميم" لو إنت فاضي.

نظر في اتجاهها متسائلاً بفتور:

-هو إنتو رايحين فين؟

اتسعت ابتسامتها وهي تخبره:

-عند نسايب السعد!

بنظرته المتشككة فهم ما ترمي إليه، وتحولت تعابيره للاحمرار من الحرج، حاول تجاهل نظراتها الكاشفة لأمره، وادعى انهماكه في تناول ما يملأ صحنه، بينما تساءل الجد "سلطان" مستفهمًا:

-مين دول؟

استدارت ناحيته، وقالت بنفس الوجه المبتسم:

-"فيروزة" يا جدي.

هز رأسه قبل أن يرد ليكمل بعدها قضم قطعة الدجاج المطهية:

-سلمولي عليها.

هتفت في مرحٍ:

-من عينيا يا جدي.

سعى "تميم" لضبط نبرته وهو يسأل شقيقته:

-هي كويسة؟ تعبت تاني ولا إيه؟

ضحكت قبل أن تجيبه:

-ماتتخضش كده، دي زيارة عادية ودية على الماشي.

تعمُدها لإحراجه علنًا، وفي حضرة كامل أسرته، يجعل خنقها أمرًا وجوبيًا؛ لكنه تمالك أعصابه، وعلق ببرود غير مقنع:

-تمام.

أشارت له بحاجبها وهي تسأله بتلك النظرات اللئيمة:

-هاتيجي؟

رد بفمٍ ممتلئ:

-معرفش.

عضت "هاجر" على شفتها السفلى قبل أن تؤكد له عن ثقة:

-يبقى هتيجي.

بغمغمةٍ لم تفارق شفتاه ردد "تميم" في نفسه تعقيبًا عليها:

-إنتي مش سهلة على فكرة!

وجهت "ونيسة" كلامها لزوجها قائلة:

-ها يا حاج، هتيجي معانا ؟

رد "بدير" بعد لحظة من التفكير:

-أه، عايز أطمن عليها بنفسي.

أضافت "هاجر" قائلة بنفس أسلوبها المازح:

-والله اللي يشوفنا رايحين عند الجماعة يقول ده في خطوبة.

تلك المرة فقد "تميم" صبره بعد تجاوزها الحدود المسموح بها، فصاح بها بشدةٍ:

-ما كفاية بقى يا "هاجر"، مش عايزين بواخة.

نظرت إليه بنظرات لائمة قبل أن تسأله:

-هو أنا قولت حاجة غلط ؟

قال نافيًا دون أن تسترخي نبرته أو نظرته الحادة نحوها:

-لأ، بس مابحبش كده.

لاحظ "بدير" ما يدور بينهما، فأدرك أن ابنته قد تفقه ذهنها لتعلق شقيقها بـ "فيروزة" بشكلٍ أو بآخر؛ فالنساء في مسائل العاطفة خبيرات عن الرجال، وربما كشفت أمره ببديهيتها، لهذا وبحنكة عقلانية أدار الحوار ناحيتها، فاستطرد قائلاً بتعابيرٍ هادئة:

-طب بما إنك فتحتي السيرة دي في عريس جايلك.

ضحكت عاليًا في سخريةٍ قبل أن تعلق:

-عريس؟ ليا أنا؟ أكيد بتهزروا.

بينما تساءلت "ونيسة" في دهشة عظيمة شابها القليل من الفرحة المستترة:

-مين ده يا حاج؟ وأنا معرفش إزاي؟

جاوبها بملامح تحولت للجدية:

-هو فاتحني من فترة، وأنا مدتوش كلمة لحد ما أخد رأي "هاجر".

ظنت ابنته أنها طُرفة ألقاها أبيها كمقابلٍ لاستفزازها لشقيقها، لم تعتقد غير ذلك إلى أن بدا الأمر جديًا للغاية من طريقة عرضه له، فتساءلت بتعابيرٍ شبه قلقة:

-إنتو بتتكلموا جد ولا إيه؟

جاءته الفرصة على طبقٍ من فضة ليعاملها بالمثل، لذا شارك "تميم" والده الرأي، وقال:

-أه طبعًا، عريس لُقطة، صح يا جدي؟

التفتت "هاجر" ناظرة إلى جدها، فوجدته هو الآخر على علمٍ بتلك المسألة، بعد أن ردد في قبولٍ:

-أيوه، ابن حلال وجدع.

اربد وجهها بالضيق، وأردفت معقبة عليهم:

-مين ده اللي هياخد واحدة زيي، بعد ما آ...

قاطعها "بدير" قبل أن تتم كلامها مشددًا عليها:

-إياكي تقللي من نفسك يا "هاجر"، إنتي مالكيش ذنب في أي حاجة حصلت بسبب "محرز"، هو خلاص راح عند دار الحق، وهناك ربنا هيقتص منه في كل حاجة أجرم فيها.

لمعت عيناها تأثرًا، فأكمل مؤكدًا عليها:

-وبعدين إنتي بنت "بدير سلطان"، وولاد عيلة "سلطان" مايخجلوش من نفسهم طالما معملوش حاجة لا عيب ولا حرام.

خنقت الغصة العالقة في جوفها، وحادثته قائلة بيأسٍ:

-تعيش يابا، بس أنا خدت نصيبي، خليني كده عايشة لابني.

اعترضت "ونيسة" عليها بضجرٍ:

-وتدفني شبابك بالحيا؟ ليه كده يا بنتي؟

رفضت التفكير في المبدأ برمته، وأصرت على رأيها:

-مش عايزة أعيده تاني.

استطرد "تميم" قائلاً بتسلية وهو يرمقها بتلك النظرة العابثة:

-طب مش تعرفي مين الأول، جايز تغيري رأيك يا "هاجر"، وخصوصًا إنه ماسك فيكي بإيده وأسنانه.

حدجته بنظرة مغتاظة لتشبيهه المحرج، خاصة أنها تجهل هويته، في حين تساءلت "ونيسة" بفضول:

-صحيح مين ده يا حاج؟

بعد أن بلع ما يملأ جوفه قال، وعيناه ترتكزان على ابنته:

-"سراج"!

حملقت الأخيرة في وجهه باندهاشٍ مصدوم، غير متوقعة أن يكون هو من تقدم لطلب خطبتها، بعد كل ما صار بين العائلتين من عداءٍ وكراهية.

..................................................

-نورتونا يا جماعة.

نطقت "آمنة" بتلك الكلمات المرحبة بضيوفها المتواجدين بحجرة الصالون وهي توزع كؤوس المشروبات الباردة عليهم، لتستقر بعد أن أنهت مهمتها على الأريكة الشاغرة إلى جوار ابنتها، شملتهم بنظرة أخرى لتتأكد من عدم تقصيرها

في إكرامهم، وتوقفت عيناها على "ونيسة" عندما علقت عليها كنوعٍ من المجاملة اللطيفة:

-الله يكرمك يا رب.

بغيرِ استباقٍ تعمد أن يكون متأخرًا في حضوره، ليحظى بفرصة مقابلتها أولاً قبل أن يحول تواجده بالداخل دون تمتع عيناه بتأملها، وقد كان ما تمناه، عندما أتت بطلتها البهية لتفتح له الباب وتدعوه للدخول، فنال شرف رؤياها. دق قلبه بسعادة كبيرة، كاد يشق ضلوعه ليعلن عن حب عذبه طول الانتظار، تنهد متسائلاً في لهفةٍ فشل في مواراتها:

-إنتي بخير؟

أجابته بنظرة لم تكن حزينة:

-الحمدلله.

حمحم قائلاً في حرجٍ:

-معلش عاملين إزعاج ليكو.

جاملته بوجهٍ ابتسم قليلاً:

-متقولش كده.

اتجهت أنظار الاثنين إلى الصغيرة "رقية" عندما أقبلت ركضًا وهي تنادي:

-عمو.

فتحت ذراعيها كأنما تريده أن يرفعها عن الأرضية، فحملها "تميم" على ذراعه، وسألها بحنوٍ:

-إزيك يا حلوة؟

أجابته بمرحٍ:

-كويسة.

طبع قبلة صغيرة على وجنتها، فسألته ببراءة كانت السبب في إحراجه بشدة:

-دي أديها لـ "فيرو"؟ ولا بتاعتي؟

تلون وجه "فيروزة" بحمرة خجلة لعفويتها، واحتدت نظراتها نحو الصغيرة قبل أن تنهرها:

-"كوكي"!

تفاجأ "تميم" بتلقائيتها النزقة، تلك التي جعلته يرى للمرة الأولى بشرتها تتخضب بلونٍ أضفى على الجمال جمالاً، حاول المناص من إجابتها بردٍ محايد:

-آ.. براحتك.

ثم أنزل الصغيرة على قدميها، فقالت في عبوسٍ معاند:

-مش هديهالك يا "فيرو".

ثم ركضت للداخل، بينما تنحنح "تميم" مضيفًا وهو يضبط ياقتي قميصه الرمادي:

-احم .. هو الجو بقى حر ليه كده فجأة؟ أنا أخش جوا أحسن.

وأسرع في خطاه لينضم للبقية، مقاومًا ابتسامته المبتهجة التي احتلت ثغره، وحدسه ينبؤه أنها ما زالت تخجل مما حدث رغم كونه عفويًا. افترت شفتا "فيروزة" عن ابتسامة ناعمة، غير متكلفة، لوهلةٍ تبادر إلى ذهنها صدامها الحاد معه، بالقرب من مطبخ منزلها، حينما أوشكت على صفعه للمرة الثانية، ومع هذا لم يعاملها بالمثل؛ كان أكثر انضباطًا وتحكمًا في ردة فعله، تلاشت الذكرى كما استحضرتها سريعًا مع فارق أنها أخجلتها من نفسها، وتركت فيها شيئًا من الندم، والارتباك.

سحبت الهواء بعمقٍ إلى رئتيها لتستعيد هدوءها، ثم لفظته ككتلة واحدة، وتحركت للداخل، لتجلس في المقعد الوحيد الشاغر بالغرفة، كأن شيئًا لم يكن. وجه "بدير" حديثه إلى "فيروزة" متسائلاً بنبرة مهتمة:

-عاملة إيه يا بنتي؟

نظرت في اتجاهه، وأجابته:

-الحمدلله.

رد مؤمنًا عليها في حبورٍ:

-يستاهل الحمد، دايمًا يا رب.

استطردت "هاجر" قائلة بحماسٍ:

-إنتي عارفة يا "فيروزة" أنا بقيت أحبك زي أختي والله، مش قادرة أقولك إنك دخلتي قلبي من جوا ..

ثم نظرت بطرف عينها إلى شقيقها، وتابعت:

-حتى اسألي "تميم"، طول اليوم في سيرتك معاه.

شرق الأخير مصدومًا من صراحتها غير الموضوعة في الحسبان، وسعل في حرجٍ، ليعتذر بعدها:

-لا مؤاخذة.

اختلس نظرة سريعة نحو "فيروزة" المحدقة به عن قصدٍ، قبل أن تحيد بعينيها عنه لترد متسائلة في لطفٍ:

-بالحلو ولا الوحش؟

ضحكت وهي تجيبها:

-الحلو كله طبعًا، إنتي ماتعرفيش معزتك عندنا كلنا عاملة إزاي.

عادت لتنظر إلى "تميم" بنظرةٍ خاطفة كادت ترديه قتيل عشقها، بل إنها زادت من أوج الشوق للظفر بحبها، وضاعفت من رصيد اللهفة إلى البقاء في أحضانها، خاصة عندما عبرت لها بإشراقةٍ لم ترَ العين في جمالها:

-يا رب أفضل كده .. دايمًا ................................... !!

..............................................................

لجزء
لثالث
رواية
منال محمد سالم
الطاووس
الابيض

## الفصل مائة وخمسة عشر (الأخير)

سكت كثيرًا حتى نال منه حزنه، فلم يعد يقوى على كتمان ما يُطبق على صدره أكثر من هذا، لكونه يسحبه نحو حافة الانهيار، وهذا ما لم يرغب فيه. تابع "هيثم" بعينيه الكسيرتين زوجته وهي تسير على مهلها حاملة صينية الطعام لتأتي بها إليه في غرفة نومهما، نهض من على الفراش ليحملها عنها، وهتف يشكرها:

-تسلمي يا "همسة".

ردت بوجهها المبتسم لتستحثه على تناول الطعام:

-عايزاك تخلص ده كله، إنت بتتعب طول اليوم.

بادلها الابتسام، وقال مظهرًا طاعته:

-ماشي.

جلسا معًا على جانب الفراش، تفصل بينهما صينية الطعام، وشرعا في تناول لقيمات مما هو موضوع، إلى أن بادر زوجها مستطردًا بنوعٍ من الغموض:

-كنت عاوز أحكي معاكي في حاجة.

قفزت علامات الاستفهام إلى تعبيراتها، ونظرت إليه متسائلة بأسلوبٍ لطيف عكس اهتمامها:

-خير يا حبيبي؟

لفظ الهواء من صدره هاتفًا بملامح شبه عابسة:

-أنا عرفت حقيقة أمي.

زاد الفضول بداخلها، وتابعت ما يقوله باهتمامٍ أكبر؛ لكن التردد ظل بائنًا في صوته عندما قال:

-هي مكانتش صادقة في كل حاجة ...

غلف صوته الاختناق، ووجد صعوبة في بلع الطعام وهو يبوح لها:

-ضحكت علينا من زمان، ومليت نفوسنا غل وحقد ضد جوز خالتنا.

نظرت له في تعاطفٍ شابه الصدمة، بالكاد منع نفسه من البكاء عندما استمر في إخبارها:

-واكتشفت من قريب إني كنت عايش في وهم كبير، وهي أكبر ممثلة استغلتنا كلنا عشان تكوش على الفلوس وتلمها.

رأت العبرات تملأ حدقتيه، فمدت يدها لتربت على كفه المرتجف قليلاً، بثت الطمأنينة في نفسه بقولها:

-سيبك من اللي فات كله، المهم دلوقتي يا "هيثم"، احنا وجودنا مع بعض هو الأهم، وده اللي فارق معايا.

انبعجت شفتاها عن ابتسامة راضية وهي تضيف بتفاؤل:

-خلينا نفكر في مستقبلنا، ومستقبل البيبي اللي جاي.

ظل الألم يوغر صوته وهو يحاول إفشاء ما خبأه كثيرًا:

-في حاجة كمان لازم تعرفيها، أنا مش عايز أخبي عليكي أي حاجة نهائي.

توترت تعبيراتها من هيئته المستريبة، بينما بلع "هيثم" ريقه، ونطق بتلعثمٍ:

-أنا ... آ..

سكت ولم تسكن أوجاعه، كان بحاجةٍ لتفريغ ما اعترته نفسه من هموم، استجمع جأشه ليكمل جملته، والدموع تنساب من طرفيه تأثرًا بالذكرى الأليمة:

-السبب في موت أبويا.

شهقت "همسة" مصدومة، وارتفع حاجباها للأعلى في ذهولٍ، سرعان ما وضعت يدها على فمها تلقائيًا لتكتم أنفاسها، واستمرت تتطلع إليه بنظراتٍ متسعة لبرهةٍ، إلى أن تمالكت أعصابها، خفضت يدها، وسألته بقلبٍ واجل:

-طب إزاي؟

نكس رأسه في ندمٍ، وحادثها بصوتٍ شبه متقطع:

-هاقولك.

.............................................

بدت في بعض الأحيان مأخوذة وشاردة، تتأمل بعينين فاحصتين الأوجه المحبة المتطلعة إليها؛ كانت مشاعر البغض والحقد أبعد ما يكون عنهم، حقًا تخلل تحت جلدها إحساسًا عميقًا بأنها تنتمي إلى هذه العائلة، وإن لم تجمعهم صلة الدم

أو القرابة! رأت في نظراتهم المهتمة كافة مشاعر الود، الألفة، والحب. انتبهت "فيروزة" وسط تأملاتها إلى صوت "بدير" الذي يخاطبها:

-عايزك يا بنتي في كلمتين كده.

أدارت رأسها في اتجاهه، وأبدت ترحيبها قائلة:

-اتفضل يا حاج.

نهضت معه متجهة إلى الخارج، وأشارت له ليجلس بالبهو، على أحد المقاعد، تتبعته بنظراتها وهو يخرج من جيب جلبابه محفظته الجلدية العريضة، ليناولها ورقة مطوية، وهو يستطرد:

-ده يخصك.

أخذتها منه متسائلة في استغرابٍ:

-إيه ده؟

فتحتها لتقرأ ما كُتب فيها، وصوته يوضح لها:

-وصل أمانة.

ما زال وجهها يعكس دهشتها وهي تسأله:

-بتاع إيه؟

بدا وديًا لأقصى الحدود وهو يخبرها:

-رد اعتبار عن اللي حصلك.

فهمت من تلميحه الحذر مقصده، فأعادت الورقة إليه مبدية رفضًا شديدًا:

-مش عايزاه.

أصر عليها بهدوءٍ:

-ده حقك، وضمان إنه مايكررش اللي عمله.

هتفت بعنادٍ يشوبه الغضب:

-أنا مش هاخد حاجة من الكلب ده.

استمر في إقناعها قائلاً بعقلانية:

-خديه يا بنتي، ولو أي حد كان اتظلم، ولجألنا، كنا هنجيبله حقه بنفس الطريقة.

تمسكت برفضها، فقالت بصوتٍ امتزج بحنقها:

-يا حاج "بدير"، أنا متعودتش ....

قاطعها بتشددٍ:

-دي مافيهاش يا حاج "بدير"، الاتفاق تم في وجود الرجالة كلهم، وعمك موافق على ده، مش هنرجع فيه إلا لو كنتي عايزاه ميت!

برقت عيناها مذهولة من تصريحه، فأكدت عليها:

-دي الحاجة الوحيدة اللي تخليني أوافق أرجع الوصل.

أطرقت رأسها قائلة بنبرةٍ شبه جريحة:

-أنا تعبت من المشاكل يا حاج، مابقتش مستحملة حد يضغط عليا بأي شكل.

بنظرته الخبيرة، تدارك ما تمر به من تخبط، فأوضح مبتسمًا:

-وأنا مش بأضغط عليكي ...

ثم صمت لهنيهة ليتابع بأسلوبه الرزين؛ وكأنه يرمم بطيب كلامه نفسها المتخاذلة لتتخلى عن هذا الشعور المحبط:

-أنا عايزك ترفعي راسك، وماتفرطيش في حقك عشان حد داسلك على طرف، إنتي بنتنا، ولو كان حقك في بطن السبع هنشقه ونجيبهولك.

لامس حديثه الأبوي روحها، بالفعل كان قادرًا على إيقاظ نزعة الصمود بداخلها، فعلقت وهي ترفع رأسها لتنظر إليه:

-مش عارفة أقولك إيه يا حاج "بدير" ...

قتلت الغصة المتأرجحة في صوتها وهي تخبره:

-اللي من دمي معملوش كده معايا.

بحكمته المتروية خاطبها:

-يا بنتي القرابة مش لازمًا تكون بالدم، لأ بالود والمحبة.

افترت شفتاها عن بسمة صغيرة، كتعبيرٍ عن إعجابها بحديثه، فأضاف على حديثه قائلاً:

-الراجل اللي بجد يعرف امتى يشد، وامتى يرخي، امتى يحمي أهل بيته، وامتى يقف للظالم.

أومأت برأسها تأيده:

-معاك حق.

أجلى "بدير" صوته من الخشونة العالقة بأحباله، وسألها مباشرة دون تمهيد:

-صحيح، هتنزلي الدكان امتى؟

تنهدت وهي تجيبه بما يشبه المراوغة:

-هشوف الظروف.

برزت الجدية في حدقتيه وهو يسألها بتحذيرٍ محسوس في نبرته:

-اوعي تكوني غيرتي رأيك؟ لأكده هازعل منك.

ضغطت على شفتيها للحظةٍ قبل أن تحركهما قائلة بردٍ بدا دبلوماسيًا:

-ربنا يسهل.

لم يضغط عليها لإقناعها بالنزول، لكنه استخدم معسول الكلام لتليين رأسها:

-عايزك تنوري الحتة، ده احنا بنتباهى بيكي، بنقول بنتنا عملت وسوت، ماتحرميناش من طلتك.

ابتسمت مجاملة عندما ردت:

-إن شاء الله.

ربت "بدير" على جانب ذراعها، وامتدح رزانتها:

-ربنا يكملك بعقلك، ويرزقك بالخير كله ...

دفع جسده لينهض من جلسته، ثم اختتم جملته قائلاً ببسمة مليئة بقوة اليقين:

-وخليكي فاكرة إن عوض ربنا مالوش حدود.

نهضت "فيروزة" بدورها، وعقبت عليه بتنهيدة صغيرة:

-ونعم بالله!

............................................

ابتعادها عنه -وإن كان مؤقتًا- سحب معه كل مباهج الحياة ليشعر بخواء يصيب قلبه، دبت الروح في جسده المحموم بحبها عندما رأى وجهها المشرق يعود إليهم، تعلقت عينا "تميم" بقسماتها محاولاً رؤية أي تغيير طرأ فيها، ولِحَظه كان إيجابيًا، اختفى الكدر والوجوم من وجهها، فبدت أكثر نضارة، حيوية، وجاذبية، راقب يدها وهي تنخفض لتطرح طرف حجابها الأسود المتدلي، لتعيده إلى كتفها، كم أحب رؤيتها تزدان به!

تلون وجهه بحمرة متحرجة عندما ناداته والدته عاليًا:

-يا "تميم"، إنت مش معانا ولا إيه؟

تساءلت "هاجر" في لؤمٍ، وهي تتعمد إظهار بسمتها الماكرة على ثغرها:

-سرحان في إيه كده؟ مين شاغل بالك؟

اكتسبت ملامحه جدية رهيبة، ورمقها بنظرة قاسية محذرة، قبل أن يدير رأسه ليخاطب "ونيسة":

-خير يا ست الكل؟

أجابته وهي تشير بيدها:

-الحاجة كانت بتسأل على حد بيركب تند، ويكون مضمون، ما تعرفش حد كويس؟

بدلاً من النظر إلى وجه "آمنة"، ارتكزت عيناه على "فيروزة"، وأجاب عن ثقة:

-أعرف، أحسن واحد في البلد، شوفوا عايزين تعملوا إيه وأنا تحت أمركم.

ردت "آمنة" تشكره:

-يبقى كتر خيرك يا ابني.

أكد عليها، وعيناه تحيدان بصعوبة عن وجه الطاووس الغَض:

-متقلقيش يا حاجة، أنا موجود معاكو في أي وقت، إنتي بس أشري.

ضحكت "هاجر" معلقة عليه:

-سيد المعلمين بصحيح ...

ثم حولت بصرها نحو "فيروزة" وتشدقت قائلة عن عمد؛ لكن بصوت شبه خافت، وصل إلى مسامع معشوقته:

-ربنا هيراضيها اللي هتتجوزك بجد، هتشوف معاك الهنا كله.

التفتت "فيروزة" على إثر جملتها الموحية إليها، نظرت إليها بنظرة حائرة، فرأتها تبتسم لها بحبٍ وألفة، تصنعت الابتسام المجامل لها، وفي رأسها يدور سؤالاً بعينه، أُضيف إلى سابقه من تلميحات مختلفة كانت على لسان الجد والأب، كلها لفت في دائرة واحدة، خشيت من استنباط ماهيتها؛ وإن كانت قد خمنت فحواها، وسبقتها العين قبل العقل في تأكيدها، حيث انتقلت نظرتها إليه، وجدته يهيم بنظراته العميقة على وجهها، نظراتٌ أجبرت القلب على الخفقان في ربكةٍ لطيفة، لم تنبذها، ولم تستنكرها، بل إلى حد كبير حركت الركود المستعمر في كيانها، وحولته إلى شيء مشوق جعل حواسها تستفيق من سباتٍ طويل، لتدرك بغتةً أن ما يضمره نحوها ليس بأكاذيب!

.............................................................

تطلعت بعيدًا خلال استلقائها على الفراش، كأنما نُقلت روحها إلى عالمٍ آخر، فعكست نظراته المثبتة على سقف غرفتها المعتمة شرودًا واضحًا، فبدت مستغرقة كليًا في تفكيرها العميق، حيث دهمها وابل من الذكريات المتعلقة به وحده، كان "تميم" حاضرًا وبقوة -في تلك الليلة- في ذهنها، كأن الدنيا خلت من الجميع إلا إياه، راحت "فيروزة" تستحضر كافة مشاهد مروءته في مخيلتها، فبزغ في قلبها ميلاً خفيًا نحو شهامته، جعل بدنها يتلبك في توترٍ، اعتصرت

عقلها عصرًا لتفسر سبب تصرفاته معها، باحثة عن جواب منطقي ينافى ما استشعرته، فتساءلت بخفوتٍ وهي تتقلب على جانبها:

-إنت عايز مني إيه بالظبط؟

كانت في أعماقها تخشى من مواجهة الحقيقة والاعتراف لنفسها بأنه يحمل لها شيئًا في قلبه، رفضت الانسياق وراء ذلك الاعتقاد، وقاومت التفكير فيه قدر المستطاع، حاولت تبرير دعمه لها بأنه نوع من الإشفاق والتعاطف العابر، سينتهي بمجرد أن تعود الأمور إلى مجرياتها الطبيعية. أطبقت على جفنيها ورددت بتكرارٍ متواصل لتقنع نفسها:

-هي دي الحقيقة، هو بيساعدني لوجه الله، مش أكتر من كده!

استجمعت شتات أفكارها، وأطلقت زفرة بطيئة، لتستعد بعدها للنوم، وهي تأمل بشدة ألا تتكبد خوض تجربة حسية جديدة، ليست مستعدة لها نفسيًا وذهنيًا بعد.

.....................................................

تلك اللحظات التي تنفرد فيها ليلاً بشخصها تمنحها مساحة من التفكير المتأني والرزين، أرجأت "هاجر" إمعانها في تدبر مسألة عرض الزواج المقدم من "سراج" حتى تختلي بنفسها، اعتبرت في البداية الأمر كنوعٍ من المزاح العادي؛ لكن جدية طرح الموضوع أكد لها عدم استهانة أسرتها بالأمر،

هدهدت رضيعها بين ذراعيها عندما تململ لتدفعه للنوم في هناء، ثم تنهدت بعمقٍ، وسألت نفسها؛ كأنما تفكر بصوتٍ مسموعٍ:

-طب إزاي؟ نجبه فيا إيه بعد اللي حصل؟

ضاقت عيناها بشكٍ حائر، وتابعت حديث نفسها:

-بيتهيألي هو متجوزش أصلاً من ساعة ما "تميم" خرشمه!

ضحكت رغمًا عنها، وأضافت ساخرة:

-شكله مكانش نافع وقتها

عادت الجدية الممتزجة بالحنق تكسو تعبيراتها وهي تكمل:

-وأنا أجيب لنفسي وجع الدماغ ليه؟ ده كفاية صدمتي في "محرز" الله ينتقم منه، بلاش منه حكاية الجواز دي.

زمت شفتيها مرددة:

-بس بردك أبويا مكانش هيسكتله لو نيته وحشة ...

تنهدت بزفيرٍ طويل مخاطبة نفسها:

-والله أنا احترت من كتر التفكير.

أراحت ظهرها للخلف، واستحضرت مقتطفات خاطفة من زيارة والدة "سراج" الاستثنائية لهم، لم تفهم آنذاك سبب قدومها؛ لكن والدتها رحبت بها

بشدة، واستقبلتها بحفاوةٍ على غير المعتاد، شملتها الضيفة بنظراتٍ دافئة حنون، واستطردت تمدحها بضحكاتٍ مرحة:

-ماشاءالله، بنتك دي حتت سُكرة، ربنا يفرحك بيها قريب.

ردت "ونيسة" تجاملها:

-تسلمي يا حاجة.

استمرت في ثناءها عليها، وأضافت:

-يا زين ما ربيتي، فعلاً أبوها لازم يقعد ويتشرط.

علقت بلطفٍ:

-والله بتحرجينا بكلامك العسل ده.

سلطت "أم سراج" أنظارها على ابنتها، ودعت لها بصدقٍ:

-دي الحقيقة، ربنا يبختلك ابن الحلال اللي يسعدك يا بنت الغاليين.

تثاءبت "هاجر" وهي تتمدد على الفراش، لتنفض بعدها الذكرى من عقلها، لتركز نظرها على رضيعها، قبل أن يسحبها النوم في دوامته المغرية.

.........................................................

غرز ظفر إصبعه الصغير بين أسنانه، ليزيح العالق من الطعام بعد أن التهم كافة ما في الأطباق بشراهةٍ لا يسهل إشباعها، ثم سار بتكاسلٍ وهو يجرجر قدميه متجهًا إلى غرفته، استوقفه صوت الدق العنيف على باب المنزل،

فاستدار "فضل" ناحيته، وصوته يأمر والدته التي أتت مهرولة في توجسٍ لترى من الطارق:

-استني يامه، أنا هاشوف مين.

ردت من خلفه بصوتٍ قلق:

-استر يا رب.

هلل عاليًا بتوبيخٍ:

-بالراحة يا جحش على الباب، هيتخلع في إيدك.

ثم أدار المقبض وفتحه ليتفاجأ بشخصٍ عريض المنكبين، سدَّ عليه الهواء من طوله الفاره، وانتصاب قامته. أُجبر "فضل" على إمالة رأسه للخلف لينظر إلى وجهه، رمقه بنظرة غريبة قبل أن يسأله بوقاحةٍ:

-إنت مين يا طِحش؟

حدجه الرجل الغامض بنظرة نارية عدائية، قبل أن يخبره بصوته الأجش:

-صحيح اللي قال عن لسانك زفر مكدبش.

انفجر فيه غاضبًا من تعليقه:

-إنت جاي تهزقني في بيتي يا بأف إنت؟

رد الرجل بتهديدٍ صريح:

-أنا جاي أربيك.

شهقت "سعاد" في ذعرٍ بعد أن وصل إلى مسامعها صوته الجهوري، ودنت من ابنها لتفهم سبب هذه المشادة الغريبة، في حين هدر "فضل" بعصبيةٍ:

-نعم ياخويا؟ تربي مين؟

زجره الرجل بإهانةٍ فجة غير مبالٍ به:

-لما واحد جالوس طين زيك يتطاول على حريمنا يبقى يستاهل الربا ية.

صاح بتشنجٍ:

-حريم مين؟ هو رمي بلى؟

استقام الرجل واقفًا، فزاد طولاً، وخاطبه بنبرة اخشوشنت على الأخير:

-جماعتي الجديدة، ستك وست كل البنات، اللي إنت داير تلسن عليها بلسانك الـ ...!

قطب جبينه متسائلاً في دهشة:

-إنت قصدك على "سها"؟

أطبق على عنقه غارزًا أصابعه في جلده وهو يحذره:

-ما تنطقش باسمها يا ... !

هتفت "سعاد" بجزعٍ:

-هو في إيه يا ابني؟

انتفض "فضل" بقوةٍ ليتحرر من قبضته الدامية، وهتف يرد بعدائيةٍ حفظًا لماء وجهه:

-اغلط كمان، يا بجاحتك، واقف قصادي تتفرد وتتنى، لأ وبتتهجم عليا في قلب بيتي، وقصاد الخلايق، إنت مين يعني؟

اِربد وجهه بعلامات الغضب، وعرفه بهويته بصلابة جعلته يهابه:

-أنا "رشيد عبد المنعم"، عين أعيان البر الشرقي.

حاول الاستهزاء به، وقال:

-تشرفنا يا سيدي، إنت جاي بقى من غير إحم ولا دستور عشان طق الحنك ده؟

اندفع دون مقدماتٍ نحوه لينقض عليه، جذبه بشراسةٍ من ياقتي جلبابه وهو يتوعده:

-لأ يا روح أمك، ده إنت هتشوف نهار أسود من قرن الخروب.

صرخت "سعاد" في فزعٍ:

-يا نصيبتي! هتعمله إيه؟

في غمضة عين وجد "فضل" نفسه ملقى عند قدميه، والأخير يركله في بطنه بكل ما أوتي من قوةٍ، وصياح "سعاد" الصارخ من خلفه يتوسله:

-سيبه يا جدع إنت، هيموت في إيدك.

هدده "رشيد" بنبرة غير متهاونة أبدًا:

-لو سيرتها جت على لسانك تاني هجرسك وسط الخلق، هخليك ملطشة الصغير قبل الكبير!

ثم سدد له ركلتين أشد قساوة عما سبق أسفل معدته، ليتأوه الأخير باكيًا من الألم المبرح، ليلتفت بعدها نحو والدته ينذرها:

-ربي ابنك يا حاجة، ده لو مش عاوزة تترحمي عليه.

لطمت "سعاد" على صدرها، وانحنت جاثية على ركبتيها إلى جوار ابنها المتكوم تنوح عليه، بينما نفض "رشيد" كفيه معًا، وصاح عاليًا مخاطبًا القلة المتجمهرة على مقربة من المنزل:

-اللي يسمع فيكم الـ ... ده جايب سيرة حريمنا بكلمة يعرف بس أي حد من طرفي، وليه الحلاوة ...

ثم ركز بصره الحانق على "فضل"، وأتم جملته:

-وهو ليه الجِلة!

بصق عليه، وانصرف مخترقًا التجمهر المرابط في محيطهم، تاركًا "فضل" يئن في شكوى وسط همهمات الناس الفضولية، والتي كانت غالبيتها شامتة فيما حدث له.

.............................................

أثرت تلك المرة أن تلتقي بها "ريم" في مكانٍ مفتوح، غير مكتبها التقليدي، لاستكمال جلساتها العلاجية، وأيضًا كوسيلة غير مباشرة لحثها على تغيير روتينها الاعتيادي، وتقبل المجازفة بعد أن انغلقت على نفسها، خاصة عندما أطلعها "ماهر" على خلفية أزمتها السابقة خلال فترة سفرها. أحست "فيروزة" بنسمات الهواء المنعشة تداعب وجنتيها وهي تدور برأسها في الحديقة المورقة تتأمل إبداع الخالق فيها، التفتت ناظرة إلى طبيبتها عندما سألتها:

-مش كده أحلى؟

أومأت برأسها موافقة، فأضافت "ريم" متسائلة بابتسامتها اللطيفة:

-مش ناوية تخرجي برا دايرة العزلة اللي إنتي حابسة نفسك جواها؟

غامت نظراتها قليلاً، ورفضت التجاوب معها، فاستحثتها على نبذ انطوائها بسؤالها التالي:

-مزهقتيش؟ مانفسكيش تجربي حاجة جديدة تعمليها:

سحبت شهيقًا عميقًا، ولفظته دفعة واحدة قبل أن ترد:

-مش عايزة.

بحذرٍ لاحقتها بسؤالٍ آخر:

-ليه؟

جاوبتها بوجهٍ منزعج:

-ده أحسن ليا.

صمتت لبعض الوقت قبل أن تتساءل في اهتمامٍ لا يخلو من الحيطة:

-إنتي خايفة من إيه يا "فيروزة"؟

بعد فترة من السكوت نطقت في ألمٍ:

-خايفة اتجرح تاني، وأنا معنتش مستحملة أذية.

علقت بهدوءٍ:

-طبيعي تحسي بالخوف بعد كل اللي شوفتيه، بس صدقيني إنك تحاولي وتجربي أحسن بكتير من إنك تستسلمي لخوفك.

احتجت عليها بصوتٍ شبه مختنق، وعيناها تلمعان تأثرًا:

-يا دكتورة "ريم" اللي شوفته كفيل يخليني أكره الدنيا باللي فيها، أنا مصدقت رجعت أفوق شوية من الدوامة اللي غرقت فيها، مش عايزة أتصدم في حد تاني.

بنفس النبرة العقلانية خاطبتها:

-ما هو زي ما في الوحش، في الحلو برضوه.

أشاحت بوجهها تحملق في الفضاء المزدان بالخضرة، فاستمرت "ريم" في حوارها معها:

-ليه مانبصش على ده ونركز معاه؟

لازمت الصمت؛ لكن امتلأ رأسها بصخبٍ تعذر عليها إسكاته، استدارت تحدق في وجه "ريم" عندما شددت عليها بأسلوبها اللين:

-"فيروزة"، إنك تعدي أزمتك مش بس بالكلام، لازم يكون في خطوة فعلية وإيجابية على أرض الواقع.

حافظت على بسمتها الناعمة وهي تؤكد بإصرارٍ:

-جربي، ومش هتخسري حاجة ...

تطلعت إليها بتحفظٍ، فمدت "ريم" يدها نحو ذراعها لتربت عليها وهي تكرر على مسامعها:

-واحنا كلنا معاكي.

جملة لطالما ترددت منه شخصيًا على أذنيها، أشعرتها لحظتها بخفقة سريعة داعبت قلبها، تغاضت عما أصابها، وقالت بوجومٍ مقتضب:

-هاشوف.

..................................................

احتاجت إلى كامل شجاعتها وعزيمتها، لتنفذ ما عقدت النية عليه؛ انتشال نفسها من العتمة المؤذية لها. ارتدت "فيروزة" ثيابها السوداء، وضبطت حجاب رأسها عليها قبل أن تودع والدتها لتغادر المنزل، وتتجه إلى دكانها الجديد، لم تنكر أن التردد ظل يلازم خطواتها، كانت تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى، ترتاب من تبعات إقدامها على مواجهة البشر بعد سقوطها الأخير. للغرابة استقبلها

بعض الجيران خلال مرورها بهم بالترحاب والسؤال المهتم، دون الخوض في أي تفاصيل تتطرق إلى مواقفها الحرجة؛ وكأن شيئًا لم يحدث معها مطلقًا، تشجعت أكثر في سيرها، وأحست باكتسابها للمزيد من الثقة.

قادتها قدماها إلى طريق دكانه عفويًا، وتفاجأت بنفسها متواجدة في نفس الشارع، شعرت بالتخبط والحرج في نفس الآن، رفعت عينيها لتنظر إلى واجهته، فرأت "تميم" مشغولاً مع عماله، يأمرهم تارة بصرامةٍ، ويساعدهم تارة أخرى بسخاء، انزوى ما بين حاجبيها في دهشة، فكيف لها أن تطالعه بتلك النظرات المهتمة، كما لو أن في رؤياه نشيطًا طاقة عجيبة يبثها لغيره!

سرعان ما خفضت نظراتها، وتوارت عن محيطه لتهرع إلى دكانها بحماسٍ، ووجنتاها تكتسيان بحمرة خفيفة. لم تدرك "فيروزة" أن قلبه رآها قبل أن تبصره، استشعر وجودها بإحساسه المرهف، فاستدار في اللحظة التي أبعدت وجهها عن دكانه ليجدها تخطو في رشاقة نحو دكانها، احتواها بعينيه، وضمها بقلبه المتقافز في سرورٍ شديد، لاحقها بنظراته حتى اختفت عن مدى بصره، وهتف مرددًا مع نفسه في حبور عظيم، وابتسامة عريضة تزين محياه:

-طب هي رايحة الدكان، أنا قلبي بيرقص ليه؟

ناداه أحد العمال لسؤاله عن أمرٍ ما فتجاهله، وأسرع باحثًا عن أبيه وهو يبرطم:

-وأنا هيجيلي قلب أكمل شغل؟!

وجد "تميم" والده يقرأ إحدى الفواتير، فاستطرد يُعلمه بابتهاجٍ:

-شوفتها يا حاج، دي رايحة الدكان.

سأله مستفهمًا:

-مين دي؟

أخبره بوجهٍ تحول للبشاشة:

-الأبلة يابا.

أثنى على حُسن اختيارها قائلاً:

-يا زين ما عملت.

حمحم ابنه قائلاً بما يشبه الرجاء:

-يا حاج ممكن آ...

فهم ما يريد فعله دون إيضاح كامل، فأعطاه موافقته المشروطة وهو يشير بإصبعه:

-روح .. بس ماتطولش، مش عايزين الناس تتكلم.

على الفور قال وهو ينتفض سائرًا في خفة:

-حاضر يا حاج.

..................................................

سعلت سعلة صغيرة، حينما اندفع الهواء المكتوم الممتلئ به المكان، ليقتحم رئتيها وهي تفتح باب الدكان على مصراعيه، كما اقتحم ضوء النهار المدخل فأناره دون الحاجة لإشعال إضاءته. وطأت "فيروزة" داخل الدكان، والتوتر يشع في كيانها، مسحت جوانبه بنظراتٍ سريعة؛ كان كما تركته، على وشك الافتتاح، تنهدت على مهلٍ، وخطت نحو المكتب الخشبي الموضوع في الزاوية، لتحمل علبة كرتونية ممتلئة ببضائع تحتاج للرص، انتفض جسدها مع صوت الرجولي المألوف المرحب بها:

-صباح الفل.

التفتت تنظر إلى "تميم" بتعابيرٍ غير مرتخية، ثم ردت التحية:

-صباح الخير.

كان لقائه بها يلفه إحساس بالألفة والمودة، أسرع في خطاه ناحيتها ليحمل عنها العلبة وهو يقول بإصرارٍ:

-عنك يا أبلة.

حاذر وهو يأخذه منها، فابتسمت في رقه وهي ترد:

-شكرًا.

يا لسعادته! أصبحت لا تبخل عليه بابتساماتها الساحرة، فكيف لا يعشق البسيط منها؟ تنحنح مضيفًا بلهجةٍ جادة:

-هابعت أجيبلك حد يمسح المكان ويروقه.

رفضت عرضه بلباقةٍ:

-مالوش لزوم، أنا هاشتغل بنفسي.

هتف مستنكرًا وقد عبست ملامحه:

-وده يصح؟

ما لبث أن تحولت قسماته للطف وهي يكمل جملته:

-وأنا روحت فين؟

اعترضت بحرجٍ ظهرت آثاره على بشرتها:

-مافيش داعي آ...

قاطعها بإصرارٍ، وعيناه تبصران ذلك التورد الناعم:

-مش هايحصل، عايزة الكرتونة دي فين؟

قالت وهي تشير بيدها:

-خلاص والله.

تلفت "تميم" حوله باحثًا عن موضع شاغر ليضعه به، وهو ما زال يصر عليها:

-أبدًا.

يئست أمام عناده الذي بدا طفوليًا، فاستسلمت تخبره:

-اسندها هناك.

برزت أسنانه من خلف ابتسامته المتسعة وهو يقول:

-عينيا.

راقبته وهو ينقل العلبة حتى فرغ من مهمته السريعة، ليستدير بعدها ناحيتها، ووجهه ما زال محتفظًا بابتسامته المشوقة، تكلمت في هدوء:

-ممكن سؤال؟

أبدى استعداده الكامل لتلبية رغبتها مهما تكلفت بقوله:

-أؤمري.

رغم ما مرت به، اكتسب حضورها بهاءً مغريًا، تسلل إلى أعماقه، ونشط خلاياه الحسية بالمزيد من الأشواق. ملأ الفضول نظرات "فيروزة" وهي تسأله مستفهمة:

-إنت لاقيت دبابيس شعري إزاي؟ أكيد ماخدتهمش من عندي.

صمت قليلاً كأنه يزن ما ينوي قوله حتى لا يفسد بوادر الوصال معها، فأردف معترفًا لها بهدوءٍ:

-هتصدقني لو قولتلك إن كل حاجة فيهم جت عندي بالصدفة.

تطلعت إليه مليًا بنظراتٍ ثابتة، حتى كادت الهواجس المقلقة تستبد به جراء سكوتها المريب. نطقت "فيروزة" أخيرًا بغموضٍ:

-أيوه.

اقتضابها في الرد عاث في نفسه القلق، لذا سألها في دهشة حائرة:

-أيوه إيه؟

ابتسمت وهي تقول في نعومة سحرت كيانه:

-مصدقاك.

وكأنها أهدته عطيةً من السماء، فهلل في فرحة أدهشتها:

-الله أكبر! والله العظيم أنا بأحلم.

لم يكتمل تعبيره عن فرحته بسبب ظهور والده المفاجئ المصحوب بسؤالٍ معاتب:

-دول الـ 5 دقايق بتوعك؟

أحنى رأسه على صدره مرددًا في حرجٍ:

-منور يا حاج.

ثم تراجع بضعة خطوات عن "فيروزة"، تاركًا المجال لأبيه ليتقدم منها، تساءل الأخير في اهتمامٍ:

-إزيك يا بنتي؟ عاملة إيه؟

قالت في لطفٍ وهي تبادله ابتسامة مهذبة:

-الحمدلله يا حاج "بدير"، اتفضل.

هز رأسه معقبًا عليها وهو يشير بيده:

-تسلمي، أنا هتفضل جوا، والمعلم ده هيتفضل برا.

تنحنح "تميم" في حرج أكبر قبل أن يغمغم:

-احم .. ليه الإحراج ده يابا ؟

ضرب والده على كتفه بضعة مرات، ليخبره بعدها بصرامةٍ؛ كأنما يطرده:

-في كوم أقفاص مستنيك في الدكان، يالا.

أومأ برأسه في طاعة، ثم رد بامتعاضٍ، وعلامات التبرم تنطلق في وجهه:

-ماشي يا حاج، اللي تؤمر بيه.

في هذه المرة، كانت البداية مبشرة، باعثة بقوة على الأمل، أحس "تميم" باستجابة دعواته المتواصلة، بعد صبره الطويل، وبأنه تلقى البُشرى عندما خاطبته في ودٍ كان يتوق إلى تحقيقه في أقصى أحلامه. تنهيدة عميقة خرجت محملة بالأمنيات والرجاوات من صدره، ليكلم نفسه بيقينٍ بات واثقًا من اقتراب حدوثه:

-مسيرها تروق وتحلى .................................... !!

...........................................................

-نهاية الجزء الثالث-

يتبع الجزء الرابع >>>>>>>>>>>

## الأعمال السابقة للكاتبة منال سالم:

### الأعمال الالكترونية:

- دعني أحطم غرورك
- رهان ربحه الأسد
- الفريسة والصياد - الجزء الأول
- خطأ لا يمكن إصلاحه (رفقاً بالقوارير)
- فريسة غلبت الصياد – الجزء الثاني
- فراشة أعلى الفرقاطة – الجزء الأول
- دمية لعنها الحب (نوفيلا قصيرة)
- كتاب الحب ( نوفيلا قصيرة)
- سيدرا (نوفيلا)
- وجه لا يصدأ أبدًا (نوفيلا قصيرة)
- اليوميات الرمضانية (نعمل إيه في أماني، حتى مطلع الفجر، في بيتنا بطة، خير يعودلك شر يرجعلك)
- أربعة شكلوا حياتها (رواية شرقية)
- شهد الأفاعي (رواية شرقية)
- كبرياء رجل شرقي (نوفيلا قصيرة)
- راسين في الحلال
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول)

- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني)
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث)
- فتاة الكومبو (نوفيلا قصيرة)
- ميري يتحدى ملكي (يوميات رمضانية مشتركة مع ياسمين عادل)
- وبقي منها حطام أنثى (عمل روائي مشترك مع ياسمين عادل)
- دواعي أمنية .. مشددة
- الدكان
- ذو الوشم (قصة قصيرة)
- أطياف عابثة (قصة قصيرة)
- قبضة من أثرها (قصة قصيرة)
- المكتوب الأخير (قصة قصيرة)
- وسقطت ورقة التوت (قصة قصيرة)
- ديلارا (قصة قصيرة)
- هي والربان (الجزء الثاني من فراشة أعلى الفرقاطة)
- خطوات نحو الهاوية (قصة قصيرة)
- المحترم البربري
- الحب.. أوس (ملحق ثلاثية الذئاب-جزء رابع)
- أوتار الفؤاد.. أوس (ملحق ثلاثية الذئاب-جزء خامس)
- غسق الأوس (ملحق ثلاثية الذئاب -قصة قصيرة– جزء سادس)

- القائمة السوداء (قصة قصيرة)
- الطاووس الأبيض (الجزء الأول)
- الطاووس الأبيض (الجزء الثاني)

## الروايات الورقية:

- كلارا (عمل مشترك مع حنين الحسيني) عن دار إبداع
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول) عن دار إبداع
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني) عن دار إبداع
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث) عن دار إبداع
- للحب شعائر خاصة عن دار إبداع
- رفقًا بالقوارير (الجزء الأول) عن دار إبداع
- مريم ابنة عمران – لم أك بغيًا عن دار إبداع
- خطأ لا يمكن إصلاحه (الجزء الثاني) عن دار إبداع
- لتكن لي غفرانًا (عمل مشترك مع ياسمين عادل) عن دار إبداع